

سَعَادَةُ الْأَنْدَلُسِ

ديوان ابن زيدون

رَسَائِلُهُ أَخْبَارُهُ شِعْرُ الْمَلَائِكِينَ

« ابن زيدون عبقرى زمانه قصر المحسنون عن إحسانه
أخذ الروم في الجزيرة عنه ومشوا في خياله وافتنانه . »
« شوقي »

شَرِّحَ وَضَبَّحَ وَتَصَنَّفَ

كامل كيلاني و عبد الرحمن خليفة

الطبعة الأولى

١٣٥١ هـ - ١٩٣٢ م - رقم ٤٧٤

obeykandi.com

فهرس

مقدمة ديوان ابن زيدون

صفحة		صفحة	
١٧	ابن جهور - بنو عباد	٨	تصدير
٢٧	المناهج الأدبية	١٠	مقدمة الديوان
٣٠	نشأة ابن زيدون	١٠	تحريف للديوان
٣٣	بحرئ المغرب	١٠	أمثلة من التحريف
٣٧	شاعرية ابن زيدون	١٢	أثر التحريف
٤٢	لماذا سجن ابن زيدون	١٣	لماذا بدأت بهذا الديوان
٤٤	حساد ابن زيدون	١٥	تنفيذ الفكرة
٥٠	حب ولادة	١٦	رسائل ابن زيدون وأخباره
٥٥	أدب ابن زيدون	١٧	إلمامة
		١٧	ملوك الطوائف

فهرس ديوان ابن زيدون

صفحة		صفحة	
٣٨	جواب كتاب	١	في السجن
٣٩	في الغزل	٤	ذكرى أيام الوصال، هنري الثاني
٤٠	نفي مدح ابن جهور	٩	في مدح ابن جهور
٤٩	بعد خسمائة يوم في السجن	١٢	ذكرى ولادة
٥٤	من قصيدة صنعها ببطلينوس	١٣	بعد الفرار من السجن
٥٧	في الغزل	١٩	في مدينة بطليوس
٥٨	بين صديقين	٢٢	يوم بوصل ساعة
٥٩	دعوة	٢٣	في عيد الأنصبي
٦٠	قال في الوزير الشيخ أبي الحزم	٣٤	في طرطوشة
٦٠	وصال	٣٥	إلى الوزير أبي عبد الله

صفحة		صفحة	
١١٩	حييب	٦١	وقال معاتباً من قصيدة
١٢٠	في مدح ابن جهور	٦١	موقف وداع
١٢٢	الى المظفر	٦٢	وقال أيضاً يمدح أبا الوليد بن جهور
١٣٠	في نسكبة بنى ذكوان	٦٦	مداعبة
١٣٦	تهنئة بقران	٦٨	جرب الناس وامتنحن
١٣٩	عهد	٦٩	في مدح ابن جهور
١٤٠	مدح ورثاء	٧٤	عتاب
١٤٨	الى ابن ذكوان	٧٥	رثاء فتاة
١٤٩	الى المعتمد	٧٦	في الغزل
١٥٠	مدح ورثاء وتهنئة	٧٧	تهنئة
١٥٢	هدية غيب	٧٨	تهنئة بفصد
١٥٣	رثاء ابن ذكوان	٧٩	في مدح ابن جهور
١٥٨	في مدح المعتضد	٨٢	شكر
١٦٥	هدية تفاح	٨٩	شفاعة
١٦٧	شكر على زيارة	٩١	هدية تفاح
١٦٨	تهنئة	٩٢	لا يهنأ الشامت
١٦٩	ابتداء قصيد	٩٨	أترع السكاس
١٧٠	الى أبي القاسم	٩٨	لا حيلة في الحب
١٧٤	مدح ابن جهور ورثاء أمه	٩٩	في مدح ابن جهور
١٧٧	في مدح ابن جهور	١٠٥	الى ابن جهور
١٨٤	رثاء أم المعتضد	١٠٦	مجلس أبي علي
١٨٨	قل للبعاة	١٠٧	جواب
١٩٢	ذكرى قرطبة	١٠٨	كن كيف شئت
١٩٥	ساوى المضطر	١٠٩	حنين
١٩٧	في مدح المعتضد	١١١	في الغزل
٢١٦	في » »	١١١	في بعض مجالس الأنس
٢٢٣	دولة عباد	١١٢	شكوى وألم
		١١٨	جواب

صفحة		صفحة	
٢٦٥	قسم	٢٢٣	الى حبيب
٢٦٥	خداع الأمانى	٢٢٤	فى مدح أبى المظفر
٢٦٦	فى الغزل	٢٢٩	ذكرى قرطبة وأيام الصبا
٢٦٦	الى هاجر	٢٣٦	الى ابن عبدوس
٢٦٦	دعاء محب	٢٤١	مدح ابن جمهور وشكر باديس
٢٦٧	أنت حبيبى	٢٤٣	اسم من أحب
٢٦٧	ما الذى أنكره	٢٤٤	الى أبى العطف
٢٦٧	شوق بعد سلوان	٢٤٧	بين ابن زيدون والمعتمد
٢٦٨	أسر الهوى	٢٤٨	الى المعتمد
٢٦٨	معذرة	٢٤٨	جواب للمعتمد
٢٦٨	وصف الكأس	٢٤٩	جواب آخر للمعتمد
٢٦٩	غاية المحبين	٢٤٩	وقال للمعتمد يستهديه خيرا
٢٦٩	صفح المذنب	٢٥٠	وقال مجابا المعتمد
٢٦٩	لا بأس	٢٥٣	وقال
٢٦٩	عتب	٢٥٣	وقال
٢٧٠	تجننى الحبيب	٢٥٤	تهنئة
٢٧٠	لا بأس فى الحب	٢٥٧	ذكرى ولادة
٢٧٠	بقية المسواك	٢٥٨	الى ولادة
٢٧١	غرور المنى	٢٥٩	الى أبى حفص بن برد
٢٧١	صلبنى	٢٥٩	ليل أنس
٢٧١	شكوى ضائعة	٢٦٠	دواء
٢٧١	وفاء المحب	٢٦١	حسبى رضاك
٢٧٢	غدر الحبيب	٢٦٢	عودى الى الوصال
٢٧٢	حذر العاشق	٢٦٣	أبو القاسم
٢٧٢	قناعة المحب	٢٦٣	وقال
٢٧٣	كيف السلو	٢٦٤	آلام المحب
٢٧٣	أنت المنى	٢٦٤	كيف السلو

صفحة		صفحة	
٣١١	الى المعتمد	٢٧٣	بقاء على العهد
٣١٣	صرعى الحب	٢٧٤	أين وفؤك
٣١٢	ذكرى قرطبة	٢٧٤	صرع الحب
٣١٣	رسائل ابن زيدون وأخباره وشعره	٢٧٥	وفاء الحب
٣١٤	الرسالة الهزلية	٢٧٥	أنت حسبي
٣٣٣	الرسالة الجدبة لابن زيدون	٢٧٥	الى هاجر
٣٤٦	رسالة الى المظفر	٢٧٦	لا سبيل الى السلو
٣٥٥	رسالة الى ابن مسleme	٢٧٦	أنت الحياة
٣٥٧	رسالة الى المعتضد	٢٧٦	ذكرى معاهد قرطبة
٣٥٨	رسالة من قرطبة	٢٧٧	غدر الحبيب
٣٦٠	من رسالة	٢٧٨	اصنع ما شئت
٣٧٠	شعر المعتضد	٢٧٨	أمنية
٣٧٧	شعر المعتمد	٢٧٨	نفسى فدائك
٣٧٩	ابن عمار	٢٧٨	دين الحب
٤٠١	معارضات الشعراء لابن زيدون	٢٧٩	وفاء
٤٠١	معارضة ألى بكر	٢٧٩	فى سبيل الهوى
٤٠١	معارضات أمير الشعراء	٢٧٩	صلة المحب
٤٠٩	صفحات من كتاب الذخيرة	٢٨٠	مقيم على العهد
٤٢١	صفحات من كتاب نفح الطيب	٢٨٠	آلام المحب
٤٢٣	ابن جهور	٢٨١	المعميات والألغاز
٤٢٥	جهور	٢٨١	الى المعتمد
٤٢٥	بنو عباد	٢٩٩	الى المعتمد على الله
٤٢٦	صفحات من كتاب العيني	٣٠١	جواب
٤٢٧	ملوك انطوائف	٣٠٣	الى المعتمد
٤٣٠	دراسة الدكتور أحمد ضيف لابن زيدون	٣٠٦	جواب على بيت مطير
٤٣٨	دراسة الأستاذ السكندرى » »	٣٠٧	البيت المطير
٤٤٢	دراسة الأستاذ علام سلامه » »	٣٠٧	حل البيت المطير
٤٤٣	دراسة الأستاذ أحمد زكى اشا » »	٣٠٨	جواب على بيت مطير
٤٥٥	فهرس القوافى		

مقدمة ابن زيدون

تصدير

لحضرة صاحب السعادة أمير الشعراء

يَا ابْنَ زَيْدُونَ مَرْحَبًا قَدْ أَطَلَّتِ التَّغْيِيْبَا
إِنَّ دِيْوَانَكَ الَّذِي ظَلَّ سِرًّا مُحَجَّبَا
يَشْتَكِي الْيَوْمَ دُرُّهُ ، وَيُقَاسِي التَّغْرُبَا
صَارَ - فِي كُلِّ بَلَدَةٍ - لِلْأَلْبَاءِ مَطْلَبَا
جَاءَنَا « كَامِلٌ » بِهِ عَرَبِيًّا مُهَذَّبَا
تَجِدُ النَّصَّ مُعْجِبًا وَتَرَى الشَّرْحَ أَعْجَبَا

أَنْتَ فِي الْقَوْلِ كُلِّهِ أَجَلُ النَّاسِ مَذْهَبَا
بِأَبِي أَنْتَ هَيْكَلًا - مِنْ فُنُونٍ - مُرَكَّبَا
شَاعِرًا أَمْ مُصَوِّرًا كُنْتَ، أَمْ كُنْتَ مُطْرِبًا؟
تُرْسِلُ اللَّحْنَ كُلَّهُ مُبْدِعًا فِيهِ مُغْرِبَا
أَحْسَنَ النَّاسِ هَاتِفًا ، بِالْغَوَانِي مَشْبَبَا
وَنَزِيلَ الْمُتَوَجِّهِ نِ النَّدِيمِ الْمُقْرَّبَا
كَمْ سَقَاهُمْ بِشِعْرِهِ مِدْحَةً أَوْ تَعْتِبَا
وَمِنَ الْمَدْحِ مَا جَزَى وَأَذَاعَ الْمَنَاقِبَا

وَإِذَا الْهَجْوُ هَاجَهُ - لِمَعَانَاتِهِ - أَبَى

وَرَأَاهُ رَذِيلَةَ لَا تُنَامِي النَّادُ بِأَ
مَا رَأَى النَّاسُ شَاعِرًا فَاضِلَ الْخُلُقِ طَبِيبًا
دَسَّ لِلنَّاشِقِينَ - فِي زَنْبَقِ الشَّعْرِ - عَقْرَبًا

جُلْتُ فِي الْخُلْدِ - جَوْلَةً هَلْ عَنِ الْخُلْدِ مَنْ نَبَأُ ؟
صِفْ لَنَا مَا وَرَاءَهُ مِنْ عَيُونٍ وَمِنْ رُبَى
وَنَعِيمٍ وَنَضْرَةٍ وَظِلَالٍ مِنْ الصَّبَا
وَصِفِ الْخُورَ مُوجِزًا - وَإِذَا شِئْتُ - مُطْنِيًا «

قُمْ تَرِ الْأَرْضَ - مِثْلَ مَا كُشْتُوْا مَسِي - مَلْعَبًا
وَتَرَى الْعَيْشَ لَمْ يَزَلْ - لَيْتِي الْوَيْتَ - مَا رُبَا
وَتَرَى ذَلِكَ - بِالَّذِي عِنْدَ هَذَا - مُعَذَّبًا

« إِنَّ مَرَّوَانَ عُصْبَةٌ يَصْنَعُونَ الْعَجَابَا
طَوَّقُوا الْأَرْضَ مَشْرِقًا - بِالْأَيْدَى - وَمَغْرِبًا
آلَةٌ أَطْلَعَتْكَ فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ كَوْكَبَا
أَنْتَ لِلْفَتْحِ تَذْتَمِي وَكَفَى الْفَتْحُ مَنْصِبًا
لَسْتُ أَرْضَى بِغَيْرِهِ لَكَ جَدًّا وَلَا أَبَا «

« شوقي »

مقدمة

تحريف الديوان

كان أيسر ما في هذا الديوان نسخه وضبطه وشرحه : فقد أنسانا ما كابدناه فيه من عناء التحريف كل عناء آخر كابدناه فيه ، ولقد وفق الفساح أيما توفيق في تشويه محاسن هذا الديوان الفذ ، وتحريف أبياته ، وطمس غرره وعيونه .

ولقد كنا نقرأ القصيدة عدة مرات ، وكأننا - لشدة ما فيها من تحريف واضطراب - أمام طلمس غامض لاسبيل إلى حله ، ثم لا يلبث الصبر أن يذل من العقبات ما كنا نوقن باستحالة تذليله ، وكانت تغرينا لذة التوز والانتصار - كلما اجتزنا عقبة - أن نقتحم أخرى حتى انتهينا من هذا الديوان ونحن لانكاد نصدق بأننا قد اجتزنا هذه المفارقة الخيفة ، ورفعنا عن ذلك المنجم الرائع كثيرا من الهضاب والكشبان المتراصة فوقه .

وما نزعنا أننا قد برأنا هذا الديوان من كل عيب ، ونزهناه عن كل تحريف ، ولكننا نجروا فنزعم أننا لم نأل جهدا في تبرئته من كل عيب ونزهيته عن كل تحريف ، فإذا ندد عن خاطرنا معنى أوحق بذهننا كلال في تصحيح بيت أو تجلية غامض فهو الذهن الانساني يحلق ثم يسقط ، ويبدع ثم يسخف ، ويعتوره النقص والكدال ، أقوى ما يكون رغبة في توخي الابداع والسكال .

٣ - أمثلة من التحريف

قلنا إن نسخ هذا الديوان وضبطه وشرحه كانت أيسر ما لقيناه من العناء ، وهذا الكلام ربما لمح فيه القارئ الخالي الذهن نوعا من الزهو والخيلاء ، ولكنه الحقيقة التي لا أثر للغلاة فيها ، ولو أننا أردنا أن نسر كل ما أصلحناه من تحريف أو تشويه ، لاضطررنا إلى ذكر أكثر أبيات الديوان ، وقد أشرنا إليها في مواضعها من الكتاب ، فلنجتزئ بذكر القليل منها عن الكثير ، ليرى القارئ المُنصف مقدار ما جنى الفساح على شعر هذا الشاعر العظيم ، ونحن لانرى في مثل هذا العمل إلا أنه زكاة يؤديها الأديب للأدب العربي الزاخر بأروع الخواج النفسية وأسمى المعاني الرائعة .

وليمثل القارئ نفسه أمام هذا البيت مثلا .

« لم يدع مني شئ من جلد مع أني لم أزل ثبت الغرر . »

أو البيت التالى :

« كأننا لم يوالينا زمان لين الأخدع . »

أوقوله فى نفس القصيدة :

« وأنف النمل لا يجدع . »

أوقوله فى قصيدة أخرى :

« حياء هو الليل ادلهم ظلامه . »

أوقوله :

« زمن كما لون الرضا ع يشوق ذكره الفطيم »

« لم أدع حظى منها بالخيلى . »

أوقوله :

أوقوله :

« فما ابنك إلا عدل نفسك إن يسر فللجسم لا للنفس منك مقام »

فى قصيدة لم يرد فيها ذكر ابنه بتاتا :

فاذا قرأت البيت الأول قراءة صحيحة ، قلت :

« لم يدع منى سقامى جلدا مع أنى لم أزل ثبت المرر »

والبيت الثانى :

« كأننا لم يؤلفنا زمان لين الأخدع »

« وأنف الفحل لا يجدع »

والشطر الثالث :

والبيت الرابع :

« جناء هو الليل ادلهم ظلامه »

والبيت الخامس :

« زمن كما ألوف الرضا ع يشوق ذكره الفطيم »

والبيت السادس :

« لم أرغ حظى منها بالخيلى »

والبيت السابع :

« فما أفك إلا عدل نفسك ان يغب فللجسم لا للنفس منك مقام »

فاذا أضفت إلى هذا العناء عناء آخر هو بعض تكملة الأبيات الناقصة بما يلائمها، ظهر لك

أننا لم نكن مغالين فى وصف ما كابدهناه من المشقة والتعب .

ومن أمثلة ذلك قوله : « فى جواركم ذليل . »

وقد أتممناه بما يلائم المعنى فقلنا : « [جناحى] فى جواركم ذليل »

وقوله :

« شافعا لأياديك التى بعضها يفوق الشاء »

وقد أتمناه وأصلحناه كما يلي :

« [فتقبله] شافعا لأيديك التي بعضها يفوق البناء »
وانما اجتزأنا بهذه الأمثلة القليلة لأن الثمرة - كما يقول شيخ المعرة - تدل على الشجرة .
ولأن الديوان كله مائل بين يدي القارئ فلا حاجة بنا إلى الإفاضة في ذكر الأمثلة .

٣ - أثر التحريف

وكثير مما يرويه أساتذة الأدب في المدارس من شعر ابن زيدون محرف أو مشوه ، فمن ذلك ما أثبتته الأستاذ علام سلامة في مذكراته المطبوعة لطلبة دار العلوم :

« وبيت ملك كأن الله أنشأ مسكا وقد أنشأ الله الوري طينا . »
والبيت في وصف ولادة ، وصوابه . « ربيب ملك » ، وقد أكثر شعراء الأندلس - ومنهم ابن زيدون - من هذا التعبير ، والرواية التي أخذ بها الأستاذ علام هي رواية نفح الطيب الذي لا يقل تحريفه وتصحيحه عن تحريف الديوان وتصحيحه . وقد أثبتنا هذا البيت كما يلي :

« ربيب ملك كأن الله أنشأ مسكا وقدر إنشاء الوري طينا »
وهذا يظهر جمال أسلوب ابن زيدون وروعة أدائه .
وقد روى بعض الأدباء البيت التالي لابن زيدون هكذا :

« سنون من الأيام خمس قطعها أسيرا ، وإن لم يبد شد ولا قط . »

وصوابها « مئون من الأيام خمس قطعها » فان سنين من الأيام أو سنين من الليالي أو

سنين من الساعات لا معنى لها - ويؤيد هذا الرأي قول ابن زيدون نفسه من قصيدة

أخرى في رسالة لابن جهور :

« أفصبرا مئين خسا من الأيام ؟ »

وقد وقع في هذا التحريف الأستاذ أحمد زكي باشا ثم نابغه في ذلك الأستاذ أحمد السكندري .

وظن الأستاذ زكي باشا ان ابن زيدون قد سجن مرتين ، الأولى خمس سنوات ، واستدل

على ذلك بالبيت الأول ، والثانية خمسمائة يوم ، واستدل على ذلك بالبيت الثاني .

أما الأستاذ السكندري فقد قرر أن ابن زيدون سجن خمس سنوات (١) ، وهو لم

يسجن إلا خمسمائة يوم كما يدل على ذلك شعره .

(١) قال الأستاذ السكندري :

« لست ابن زيدون في السجن بضع سنين ، ولكن كم كانت مدتها ؟ ومتى كان مبدؤها ؟ »

أما الأول فيجبنا هو أيضا عليه بقوله من قصيدته الطائفة البليغة :

« سنون من الأيام - خمس قطعها أسيرا ، وإن لم يبد شدولا قط »

وأما الثاني فيجبنا هو أيضا عليه بقوله من قصيدته الرائية التي كتب بها من السجن الى أبي الحزم

« لم يطر برد شبابي كبرة وأرى برق المشيب على غارض الشعر »

وقد جنى تحريف النساخ على أدباء العربية وشعرائها جناية لا تعترف فاضطربت بسببه آيات البلاغة ودقائق البيان وعزف الكثيرون عن أدبهم بعد أن رأوا ما فيه من الخلط والتشويه والتحريف ولا موهبهم على ذنوب لم يجترعوها وأخذوهم بعيوب لا يد لهم فيها :

« وذنوب جرّاه سفهاء قوم وحل بغير جازمه العقاب »

ولا يزال رجال الأدب وأساتيده الأفاضل مسؤولين عن إصلاح هذه الروائع وتنظيم هذه الكنوز الفيسة وردّها إلى الصواب، حتى يظهر جلال الأدب العربي وروعته وتبرأ ذمّ القدماء مما لحق آثارهم الأدبية من الخلط والتشويه .

٤ - لماذا بدأت بهذا الديوان

كانت فكرة موفقة سديدة تلك الفكرة التي خطرت ببال الأستاذ الكبير الدكتور «أحمد ضيف» مدرس الأدب العربي بالجامعة المصرية القديمة حين طلب إلى عام ١٩٢٢ أن أترجم لطلبة الجامعة الفصل الرابع الذي كتبه الأستاذ المستشرق « نيكلسون » عن الأدب الأندلسي وتاريخه ، فقد كان من آثار تلك الفكرة أنني نشطت إلى إلقاء تلك المحاضرات التي أظهرتها للقراء في ذلك العام بعنوان « نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ^(١) » ووعدت في مقدمة ذلك الكتاب بالعودة إلى البحث .

قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كتب وللشبية غصن غير مهتصر

ونحن نعلم أن انقطاع دعوة بني أمية عن قرطبة كان سنة اثنين وعشرين وأربعمائة ، ونعلم أن قد ولد ابن زيدون في سنة أربع وتسعين وثلاثمائة فإذا كان بدأ خدمته في دولة آل جهور وهو في الثانية والعشرين من عمره ، وإذا قدرنا أنه بعث بهذه القصيدة في مبدأ اعتقاله كما هو الظاهر إذ قد صرح فيها بأنهم بلغ الثلاثين ، كانت مدة خدمته لآل جهور لا تزيد على سنتين وكان بدء اعتقاله في نهاية سنة أربع وعشرين وأربعمائة أو أول خمس وعشرين وأربعمائة .

لبث ابن زيدون في السجن خمس سنين استطاع فيها أبا الحزم جهورا واستشفع عنده بإبنته ألى الوليد محمد بن جهور ، وكان أليفه وصديقه من قبل وبغيره من الرؤساء ووجه قرطبة وبث إليه وإليه والشهم شكواه بعدة قصائد أبدعها ورسائل استغفد فيها جهده فما ألانت له قلبا أم

(١) وقد جاء في مقدمة ذلك الكتاب مايلي

طلب الى حضرة الدكتور أحمد ضيف ، أن أترجم الفصل التاسع من كتاب « تاريخ آداب العرب للأستاذ نيكلسون » لأنني في الجامعة المصرية ، وهو الفصل الذي أفردته من كتابه الممتع ، بل الكلام على تاريخ الأدب العربي في أسبانيا .

لم أكد أقرأ هذا النص حتى بدا لي خطره ونفاسه وعرضت لي عدة ملاحظات على بعض ما جاء فيه ولم أكد أشرع في مناقشة نقطة الجوهرية حتى اتسع أسمى مجال البحث وشجعتني على مواصلة ما رأيته من النقص الشديد الذي يكاد يلمسه كل مطلع على الكتب العربية الى تناولات الكلام في هذا الموضوع وما علمته من الحاجة الماسة الى كتاب يسر على طلبة الأدب الأندلسي وغيرهم من المستأين به ، قليلا مما يتكبدونه من عناء البحث في الأسفار العربية الضخمة الموهوشة ويحفظونهم الثمين من الضائع .

فالآن أعود إلى الكتابة بعد عشر سنوات مضت على تلك البحوث التمهيدية الأولى .

ولكن لماذا اخترت ابن زيدون وبدأت به قبل غيره من الشعراء ؟
لقد كنت أسى الظن بشعر ابن زيدون وأدبه ، ويخيل إليّ - كما يخيل إلى كثير من
أدبائنا الذين يتسرعون في الحكم على الشعراء من غير أن يعنوا أنفسهم بدرس آثارهم
وعصورهم دراسة مستفيضة - أنه شاعر صنعة مولع بالبديع والمقابلات اللفظية لا يسمو إلى
درجة الفحول الممتازين .

فلما وصلت إلى قول « نيكاسون » في فصله الرائع : « وكانوا يلقبون ابن هانيء بأنه
متنبى الغرب ، كما يلقبون ابن زيدون بأنه بحترى الغرب ^(١) » صارحت القارئ حينئذ بأننى
لا أستطيع الحكم على الجزء الثانى من هذه التسمية ، وقد عقدت فصلا موجزا في المقارنة بين ابن
هانيء والمتنبى ، لأننى درست ديوانيهما ، وقد عدت الآن عن بعض آرائى في ذلك الفصل . ولم
أستطع المقارنة بين ابن زيدون والبحترى ، لأننى قرأت ديوان الثانى ولم أقرأ للأول إلا بضع
قصائد لا تكفى للحكم على شاعر .

وذكرت أن جلال نهضتنا القومية لا يتناسب مع جهلنا عظماء لغتنا الذين تركوا أوضح الأثر في بلاغة
نستمد منها الحياة والقوة ، فمن كان من الواجب ألا يجهل الانسان عظماء الأمم ذوى الأثر الكبير في
الحضارة العالمية فهو أجدر ألا يجهل عظماءه قبل كل شيء .

دفعتنى هذه الاعتبارات إلى عدم الاختصار على ترجمة هذا الفصل الممتع وثم اتخذته مرجعا من المراجع
الكثيرة التى رجعت اليها بدلا من أن اتخذ موضوع المحاضرة .

وقد اقتصرت في هذا الكتاب على ترجمة النصف الأول من هذا الفصل ، وقد ألفت القسم الأكبر من
هذه المحاضرات منذ أكثر من عشرين فى الجامعة المصرية ، ثم نشرت بعضها فى إحدى الصحف الأدبية
فلفت من الاستحسان والرضا ما شجعتنى على طبعها .

ولم يفتنى أن أورد فى حواشى الكتاب كثيرا من التعليقات الضرورية التى اضطررت ضيق الزمان إلى
الاكتفاء بالإشارة اليها دون ذكرها وقتلقاء المحاضرات .

وقد تمممت ذكر أمثلة ونماذج شغلت مكانا من الكتاب ما كانت لشغله لو أن كتابا حديثا سبقتنى إلى
الاستشهاد بها أو لو أنى وثقت أن جمهور الأدباء عندما يعرفها .

(و بعد) فهذه نظرات سريعة ألفت بها إلى تاريخ الأدب الاندلسى وسأتابعها بعد قليل بالقسم الثانى
منها فليقرأها القارئ على أنها مقدمة لدراسة الأدب فى ذلك العصر ، ولتخذها نواة لكتاب تناول فيه
ذلك التاريخ بشيء من النوسع والاسهاب اذا أمكنتنا الفرص ، وكان فى الأجل بقية .

(١) قال الأستاذ نيكلسون :

« إن قائمة العلماء الذين رحلوا فى طلب العلم إلى إفريقيا ومصر وإلى المدن المقدسة فى بلاد العرب وإلى
حواضر سوريا العظيمة والعراق ، وإلى خراسان وتركستان بل وإلى بلاد الصين أحيانا - كانت تحوى
كل نابغى الأدباء ورجال البلاغة العربية الذين أنجبهم اسبانيا لاسلامية كما يرى ذلك من يتصفح الفصل
الخامس من كتاب المغرى . لهذا كانت حركة مبادلة الآراء فى دؤب ونشاط فلم يستأثر أحد من رجال الشرق
والغرب بشيء خاص ، وعرف الناس قبل كل شيء أن مشاهير شعراء الاندلس كابن هانيء وابن زيدون كان
يعتبرهما اللذان الشرقيون المعجبون بهما بمنزلة الغرب وبحترىه . »

ورأيت أن واجب الأمانة يقضى علىّ أن أدرس ابن زيدون كما درست البحترى ليتسنى لى أن أنصفه .

وما كدت أبدأ فى درس ابن زيدون ، شعره ونثره ، وأتقصى أخباره وأخبار عصره ، حتى رأيت مراعى وأدهشنى مارأيت ، لقد كنت أستكثر عليه اسم شاعر عادى فصرت أسنقله الآن اسم شاعر كبير وكنت أكرهه لكلفه بالصنعة التى بغضت إلينا أكثر شعراء ذلك العصر وأفسدت علينا أكثر الأدب العربى ، فإذا بى أحب هذا اللون الرائع من الصنعة المحببة التى تميز بالرفق وتهمين على القلب وتحبب فيها أشد الناس بغضا لها ، وقد عرف ابن زيدون كيف يتخذ من الصناعة والبديع أدوات للإفتنان فى الأداء والتعبير والابداع فى تصوير أروع المعانى الساحرة وأدق الخواجيم النفسية ، وإذا بها نفس تطرب إلى الجلال وتفتن فى التعبير عنه ، وطبيعة سمحة صناع لا التواء فيها ولا تكلف ، وقد صدق القائل : « كل طعام يتناوله الصحيح ينقلب إلى صحة ، وكل طعام يتناوله المريض ينقلب إلى مرض » وهكذا كرهنا المقلدون فى الصناعة والبديع ، كما حجب إلينا المبدعون كثيرا من ألوان الصناعة والبديع .

الحق أن ابن زيدون ساحر بىانى خلاب يتخذ من الصناعة وسيلة للروعة والدقة وحسن الأداء ، كما يتخذ المصور الماهر من مختلف الألوان والأصباغ - وسيلة للتعبير عن أدق وأخفى الأسرار والملاحظات .

ولأ أ كتم القارئ أننى من ألد أعداء الصناعة اللفظية ، ولكننى من أشد أنصارها إذا جاءت عن هذه الطريق .

ولقد أراد بعض الكتاب أن يعيب على ابن زيدون وأناطول فرانس أنهما من رجال الأساليب ، ونسوا أن الأسلوب العالى هو غاية تنخلع دونها الرقاب ، وأن طول المراتة والدرس تخلق من صاحبها الكاتب الخاذق والشاعر اللبق ولكنها أعجز من أن تخلق الكاتب الموهوب والشاعر العبقري أو تلهمهما الأسلوب العالى الذى يحاول بعض الأدباء أن يزرى به ويحقره .

٥ - تنفيذ الفكرة

ولم أ كد أبدأ فى قراءة ديوانه ونسخه حتى أ كبرت الرجل وفتنت بشعره وسحرت ببيانته الرائع وإن قطع علىّ إعجابى وفتنتى ما اعتوره من التحريف والتشويه - وهما من جنائيات النساخ على الأدب العربى - ولكننى اعتزمت المضى فى هذه الطريق الوعرة وصممت على اجتياز هذه المغامرة التى لأعلام فيها ولاصوى (١) نسترشد بها فى السير ، ثم شغلتنى أعمالى الكثيرة عن المضى فيها لما تتطلبه من عناء لا تحتمله صحتى المهوكة ، وفراغ من الزمن يضيق عنه وقتى المزدهم بالفروض والواجبات .

(١) الصوى علامات الطريق التى يطلق عليها اسم « Milestones » .

ولم يكن من اليسير على أن أظفر بأديب تدفعه الغيرة على الأدب العربي إلى التضحية بصحته ووقته في عمل مضمّن شاق لا يفهم منه القارئ العادي إلا أنه حين سهل لا يتجاوز شرح ديوان شاعر وضبطه .

ولكن صديقي الأديب العالم الفاضل الشيخ عبد الرحمن خليفة تقدم إلى مظهرها لي استعداداً لمعاونتي في هذا العمل والسير معي في هذه المفازة .

ولصديقي الفاضل ولع شديد بدرس الأدب العربي ، وغيرة نادرة على اللغة العربية . وحرص بالغ على كنوز البيان العربي ، وصبر لا يشركه فيه إلا القليل من الأدباء المخلصين ، وعزيمة لا تعرف للتردد والنكوص معنى ، وهذه هي الصفات التي كنت ولازال أشدها فيمن يتصدى لمثل هذه الأعمال المضنية .

وكان صديقي عند حسن ظني به ، فقد كان يقضي معي الساعات الطوال دائماً لا يكل ولا يني ولا يفرغ عزمه الا ريثما يتجدد ، ويعود إلى أقوى مما كان عليه نشاطاً وهمة ، وهكذا مضينا معترمين في شرح الديوان وضبطه وإصلاح تحريفه حتى أظهرناه للقارئ في هذا المظهر الأنيق .

٦ - رسائل ابن زيدون وأخباره

ولما كان التحريف قد لحق نثر ابن زيدون كما لحق أشعاره وان خففت عناية الأدباء وتعاونهم وشروحهم عناء التحريف في الرسالتين الجديّة والهلاليّة فقد رأينا أن نثبت كل ما وقع لنا من نثر ابن زيدون وشعره وأخباره كما أثبتنا ما وصل إلينا من شعر « المعتمد » و « المعتضد » و « ابن جهور » وبعض المعاصرين لابن زيدون كابن عمار وغيره ، وأتبعناهم بدراسات الأدباء المعاصرين تمة للبحث .

وقد اتسع النطاق حتى ضاقت صفحات هذا الديوان - على كثرتها - فاضطرت إلى فصل سفيرين عنه وإخراجهما مستقلين ليعاونا القارئ على درس هذه الفكرة من كل وجوها . وسأفرد - إن شاء الله - كتاباً يظهر بعد انتهاء طبع هذا الديوان الحافل ، بعنوان « ابن زيدون - أدبه وعصره » وكتاباً آخر بعنوان « ملوك الطوائف » ، يتناول بأسهاب الكلام في عصر ابن زيدون الذي عاش فيه ، حتى لا ينطبق علينا قول المتنبي :

« ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام »

فاذا انتهيت من ذلك بدأت في إظهار ديوان « ابن جديس » في الحلقة الثانية من سلسلة شعراء الأندلس ، إن ساعدت الظروف وكان في الأجل بقية .

كامل كيلاني

الملوك الطوائف

١ - ملوك الطوائف (١)

ابن جهور - بنو عباد

منذ سنين عديدة تقلص ظل السلطة العامة عن الولايات الإسلامية ، وأصبح أمرها يسدها ، ولم يكن تفكك السلطة أمراً مرغوباً فيه عند أهل تلك الولايات عامة ، فقد ذهب بهم التفكير إلى أبعد مداه جزعاً من المستقبل وأسفاً على الماضي . ولم يستفد من هذا الانحلال في البلاد إلا ملوك الأفرنج وحدهم . وكان من نتائج هذا الانحلال أن (انقسم قواد البربر جنوب الجزيرة فيما بينهم) وحكم الصقالبة الشرق ، وصار ماتبى بعد ذلك نهبا مقسما بين الطارئین المتوئبن على الحكم ، وآخرين من بقايا الأسر العريقة ممن سنحت لهم الفرصة وساعدتهم على الثبات أمام ضربات «عبد الرحمن الثالث والمنصور» التي كانت مصوبة إلى الأرستوقراطية ، (وانتهى الأمر بأن تكون من المدينتين الكبيرتين : قرطبة ، واشبيلية . حكومتان شورتان ، أما قرطبة فقد حدث بعد إلغاء الخلافة أن اجتمع كبار أهلها وعمدوا إلى إسناد السلطة التنفيذية إلى «ابن جهور» الذي عرف عند الجميع بالجدارة والاستحقاق لتقلد هذا المنصب والاضطلاع بالحكم (فرفض - بادئ ذي بدء ، هذا المركز السامي الذي عرض عليه ، وبعد إلحاح من جماعة المنتجين له ، رضى بقبول هذا المنصب ، ولكن على شريطة أن يكون عضوان من أسرته زميلين له في مجلس الشورى ، وهما : محمود بن عباس ، وعبد العزيز بن حسن ، فأجابه الجماعة إلى ما طلب ، ولكن على شرط أن يكون لهذين الاثنين صوت استشاري .

وقد حكم السفير الأول الحكومة الشورية الجديدة بطريقة عادلة رشيدة ، ورجع إليه يرجع الفضل في أن أهل قرطبة لم يعودوا يشكون شيئا من المظالم التي كانت تقع عليهم من قسوة البربر) فكان أول ما وجه إليه نظره أن صرفهم عن الخدمة ، واحتفظ ببنى

(١) ارجع إلى ما نشرناه في آخر الديوان للأستاذ « نيكسون » « ص ٤٢٧ » أما هذا الفعل فهو للعلامة دوزي وقد نقلناه من كتاب « ملوك الطوائف » الذي نأمله قريباً إن شاء الله .

ايغورين» « Beni - Iioren » وحدهم ، وهم الذين يستطيع أن يعتمد على ولائهم وطاعتهم ، واستبدل بالآخرين الذين سرحهم من البربر حرسا وطنيا . وكان يظهر بمظهر من يريد استقرار نظام الحكم الجمهوري ، فكان إذا طلب إليه تنفيذ أمر يقول : « ليس من شأني أن أقرر أمرا هو من اختصاص مجلس الشورى ، وما أنا إلا منفذ لأوامره وقراراته . » وكلما وردت عليه قصة أو كتاب رسمي يكون موجها إلى شخصه أبى تسلمه وأمر بتوجيهه إلى مجلس الوزراء . ولم يكن ليصدر قرارا قبل عرضه على مجلس الشورى ، أضف إلى هذا أنه لم يكن يتظاهر البتة بمظهر الحاكم ، فهو - بدلا من أن يقيم بقصر الخلافة - بقى مقما بمسكنه المتواضع الذي اعتاد سكناه دائما . وكانت العقيدة في نزاهته ثابتة قوية لا تحوم حولها الشكوك والريب ، وقدر فضله مع هذا - أن يكون بيت المال في داره وتحت إمرته ، فعهد بحراسته إلى أكبر الناس مقاما وأكثرهم احتراما في المدينة . ومع حبه - في الحقيقة - للمال ، قضت عليه المصلحة ألا يرتكب عملا غير شريف ، ولما كان مقتصدًا بل وحرصا حرصا يكاد يصل به إلى درجة البخل فقد أثرى حتى صار أغنى رجل في قرطبة ، ولكنه في الوقت نفسه بذل من الجهد المحمود ما وفر به اليسر والرخاء على الناس كافة .

وكان يبذل ما في وسعه لتحسين العلاقات الودية بينه وبين الممالك المجاورة وقد كتب له النجاح في ذلك ، فلم يمض وقت طويل حتى توطد الأمن ، وأمنت السبل ، وانتشرت التجارة والصناعة وهبطت أسعار المواد الغذائية . وأمّ قرطبة طوائف كثيرة من السكان أعادوا بناء الأخياء التي دمرها البربر أو أحرقوها حينما أوقفوا النهب والسلب في المدينة . وعلى الرغم من هذه الأعمال التي قام بها ، فإن قرطبة - عاصمة الخلافة القديمة - لم تسترد مكائنها السياسية ، ومنذ ذلك الحين بدأت اشبيلية - التي سنعني بتاريخها عناية خاصة - تحوز الشأن الأول في المركز السياسي .

كانت اشبيلية - منذ أمد بعيد لا تزال - مرتبطة الحظ بقرطبة متأثرة بما يجري من الحوادث فيها ، متأسية بالعاصمة خاضعة لملوك الدولة الأموية على التعاقب ثم لدولة بني حمود ، ومن جراء ذلك كان للثورة التي وقعت في قرطبة أثرها السيئ في اشبيلية ، فقد ثار القرطبيون على قاسم بن حمود وطرده ، فعول هذا الأمير على الالتجاء إلى اشبيلية حيث يقيم بها ولداه ، ومعهما حامية من البربر تحت قيادة محمد بن زيري من قبيلة بني ايغورين .

وأرسل إلى الاشبيليين يأمرهم بإخلاء مائة مسكن لجنوده القادمين معه . وقد ترك هذا الأمر أثرا سيئا في نفوس أهل اشبيلية هذا إلى ما عرف عن جنود قاسم الذين هم أفقر أبناء جنسهم من أنهم من كبار اللصوص . وقد أظهرت قرطبة للاشبيليين أن من الممكن أن يتحرروا من هذا النير الذي يضجون بالشكوى منه . فعولوا على أن يحذوا حذو قرطبة ، إلا أن خوفهم من حامية البربر المقيمة بين ظهرانيهم حال بينهم وبين تحقيق أمانهم ، وبعد

جهند بجح قاضي المدينة «أبو القاسم بن عباد» في كسب قائد الحامية وضمه إلى جانبه بعد أن صرح له بأنه من الهين السهل أن يصبح ملكا على اشبيلية ، فأعلن حينئذ محمد بن زيري استعدادة لمساعدته ، وسارع القاضي فعقد بينه وبين قائد بربر «قرمونة» محالفة تفلدوا السلاح - على أثرها - ضد ولدي قاسم وحاصروا قصره .

ووصل قاسم إلى أبواب اشبيلية التي كانت مغلقة ، وحاول أن يجتذب سكان المدينة إليه بالوعود الخلافة ، ولكنه أخفق في هذه المحاولة ، ولما أوجس خيفة من نفسه على ولديه اللذين كانا معرضين للهلاك داخل المدينة ، قطع على نفسه عهدا أن يحل - هو ومن معه من الجند - عن أراضي اشبيلية ، إذا ما أساموا إليه ولديه وأموالهما وممتلكاتهما ، فضمن له الاشبيليون تنفيذ هذا الشرط ، وعلى أثر ذلك انسحب قاسم وعاد أدراجه ، وتم سنحت للقاضي أول فرصة ليرضى حامية البربر . ولما حصلت المدينة على حريتها اجتمع كبارها ليختاروا حاكما يولونه عليهم ، إلا أن الخواطر في هذه الحال لم تكن هادئة والنفوس لم تكن مطمئنة خشية أن تتمخض الحوادث عن ثورة ، أو أن يعيد بنو جود الكرة عليهم ، وحينئذ لا يتوانون لحظة عن معاقبة المجرمين النافرين ، ولهذا لم تبد من أحد منهم أية رغبة قط في أن يأخذ على عاتقه تحمل عبء المسؤولية عما وقع .

واتفق عامتهم على أن يلقوا عبء المسؤولية على عاتق القاضي وحده الذي حسدوا ثروته واستشعروا سرورا خفيا في أعماق نفوسهم بدنو الساعة التي تصدر فيها هذه الثروة الطائلة . فعرضوا على القاضي أن يتولى حكم المملكة ، وكان - مع ما يجيش بصدوره من مطامع وآمال - حكما حازما ، فرفض في إباء أن يتولى الحكم في وقت غير مناسب . ولم يكن القاضي متصل بالنسب بالسلالات العريقة ، إلا أنه امتاز بحيازته أكبر ثروة ، فقد كان يملك ثلث أرض اشبيلية ، وفوق ذلك فقد كانت له منزلة سامية من الاعتبار نظرا لمواهبه العلمية ، وكان يعوزه أن يضم إلى هذه المؤهلات أن تندمج أسرته ضمن السلالات العريقة القديمة . وقد تم له ذلك - فيما بعد - تدريجا ، وكان يدرك أنه في حاجة ماسة إلى وجود عدد من الجند تحت إمرته ، وليس لهذا العدد وجود ، ولم يشك في أن الارستقراطية العظيمة المجيدة في اشبيلية لا بد أن تثور على صعلوك مثله غير معروف النسب ، يسمو مكانه إلى تسنم ذروة الخلافة ، ولم يكن ثمة شيء غير هذا في الواقع ، وقد وقع هذا حقيقة عندما أوشك بنو عباد أن يؤسسوا الخلافة لأنفسهم . وثمة زعم آل عباد أنهم من سلالة ملوك «لحم» الذين كانوا يحكمون الحيرة قديما قبل ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) وكان الشعراء الذين يريدون إشباع بطونهم يتحينون الفرص للإشادة بهذا النسب العريق المزعوم ، على أنه لم يوجد ما يبرر هذا الزعم ، لأن بني عباد والمتزلفين إليهم ومن يمتقونهم لم يستطيعوا أن يقيموا الدليل على ذلك ، وكل ما يبربط هذه الأسرة بملوك الحيرة أنها تنسب إلى قبيلة لحم البنية التي ينسب إليها ملوك الحيرة . ولكن فرع أسرة آل عباد الذي

تسلسل منه آباؤهم لم يقطن - على ما يظهر - الحيرة بتاتا ، ولكنهم كانوا يقيمون أخيرا بالعريش الواقعة على حدود مصر وسوريا في قسم إيميز « Emese » .

وعلى الرغم من أن آل عباد بذلوا ما استطاعته كي يصلوا نسبهم بملوك الحيرة فانهم لم يستطيعوا أن يصعدوا به إلى أبعد من نعيم والد عطف ، وكان عطف هذا على رأس كتيبة من جنود إيميز وقد رحل إلى أسبانيا مع بلج حيث أعطيت لجنود إيميز أراض على مقربة من اشبيلية وأقام على ضفاف الوادي الكبير ، وقد انحدر عن أصل هذه الأسرة فروع فيما يقرب من سبعة أجيال أخرجت بطء من ظلمة الماضي أناسا صالحين عاملين مقتصدين ، واسماعيل والد القاضي هو عنوان مجدها وهو الذي خطب بينه في الصحيفة الذهبية لنبله اشبيلية اسم عباد (١) . ولا غرو فقد كان اسماعيل من حملة الأقاليم والسيوف ، وكان رجل فقه ودين كما كان رجل حرب وطعان ، فقد تولى قيادة فرقة في حرس هشام الثاني ، ثم صار - فيما بعد - إماما لمجلس قرطبة الكبير ، ثم قاضيا لاشبيلية ، واشتهر بالفقه والذكاء والورع وإرشاد العامة ، وإسداء النصيح للكافة ، وكانت شهرته في النزاهة تربو على شهرته في غير ذلك من الأمور ، فهو على الرغم من انتشار الفساد والرشوة كان يتورع عن أن يقبل هبة من سلطان أو وزير ، وكان كريما إلى أبعد غايات الكرم ، وقد لقي القرطبيون منه كرم الضيافة ، وحسن العشرة ، فجعلته كل هذه المزايا والصفات حريا أن يحرز أكبر ألقاب النبل والسؤدد في الغرب .

وقبل العهد الذي نحن بصددده توفي إلى راحة الله في غضون سنة ١٠١٩ . وربما كان ابنه أبو القاسم محمد يماثله علما وأدبا وإن كان لا يدانيه خلقا وفضلا ، فقد كان أنانيا ذا أثره وطمع و صلف وتكبر وإنكار للجميل ، وقد حدث على أثر وفاة أبيه أن طمع في أن يخلفه في منصب القضاء ، ولكن القوم آثروا عليه غيره ، فتقدم بالرجاء إلى قاسم بن جود فقال - بفضل قاسم - منصب القضاء الذي كان يؤمله . وقد يرى المتتبع للحوادث فيما بعد كيف كان نكرانه لهذا الجيل .

وفي مفتتح هذا العهد الذي نحن بصددده - أشار نبله اشبيلية وأصحاب الرأي فيها على أبي القاسم قاضي اشبيلية أن يتنوا عرش المملكة ، ولما أدرك الغاية التي يرمون إليها أظهر لهم أنه لا يستطيع أن يقبل هذا الشرف الذي يولونه إياه إلا بشرط أن يشرك معه في الحكم أفرادا يعينهم هو بنفسه على أن يكونوا وزراءه وأعوانه في الاضطلاع بأعباء الحكم بحجة أن هؤلاء الأشخاص الذين يشركهم معه في الرأي ستألف منهم هيئة شورية تقوم على تدبير المملكة بحيث لا يصدر إلا عن رأيهم ، ولا يتخذ أي قرار بدون مشاورتهم ، فقبل الاشبيليون ما اشترطه القاضي من أن يكون حكمه على قواعد الشورى فلا يحكم بمفرده ، وطلبوا إليه إنفاذ ما اعتزمه من تعيين أولئك الزملاء والأعوان ، فعين بعض كرام الأسر العريقة مثل ابن حجاج وآخرين كانت تسمو إليهم الأنظار وترمقهم العيون من نصرائه الذين أنجبهم العصر ،

(١) وكان عباد الجد الثالث لإسماعيل .

وأطلعهم كواكب في سماء مصر ، كأبي بكر الزبيدي العالم النحوي الشهير . وأدب هشام الثاني ، وبعد أن تم له ما أراد من ذلك انصرف همه الى تكوين جيش للمملكة ، رفع أعطيات وأرزاق الجند ، فانضوى تحت لوائه كثير من العرب والبربر ، ثم اشترى عددا كبيرا من الممالك ودرّجهم على القتال وجرد منهم حملة على الشمال ، وهي في الكثير الغالب كانت موجهة الى أمراء آخرين ، وقد حاصر قصرين في شمال فيزي أنشأ متقابلين على صخور يفصلهما سور وأطلق عليهما اسم الأخوين وهما معروفان الآن باسم «الأفوين» وكان يقطنهما اسبانيون مسيحيون كان أسلافهم قد عقدوا معاهدة مع موسى بن نصير ، والظاهر أن هذين القصرين لم يكونا في العصر الذي نتحدث عنه في حيازة ملك ليون ولا في حيازة أمير مسلم ، ولذلك استولى القاضي عليهما وأرغم الذين كانوا يدافعون عنهما - وهم زهاء ثلاثمائة فارس على - الانضواء تحت لوائه ، وبذلك زادت نواة جيشه فبلغت خمسمائة فارس ، وثمة اجتمع لديه من الجند ما يكفي للاغارة على الممالك المتاخمة له ، إلا أن حاله هذه لم تكن لتمكنه من صد هجمات قوية جدية ضد اشبيلية ، وهذا ما وقع له سنة ١٠٢٧ ، ففي هذه السنة جاء الخليفة الجودي يحيى بن علي وأمير بربر قرمونة محمد بن عبد الله وحاصرا اشبيلية ، ولما كان في منتهى الضعف بحيث لا يستطيع المقاومة طويلا أخذ الاشبيليون يفاوضون يحيى وأعلنوا أنهم مستعدون للاعتراف بسيادته عليهم على شرط ألا يدخل البربر مدينتهم فقبل يحيى هذا الشرط ولكنه شرط عليهم - ضمانا لوفائهم وإخلاصهم - أن يرسل بعض أعيان ونبلاء اشبيلية أولادهم ليكونوا عنده رهائن يضمن بها ولاء الاشبيليين ، فلم يستطع أحد منهم أن يقدم ابنه خشية من البربر الذين يقضون على حياته لأقل شبهة ، والقاضي وحده هو الذي لم يتردد في إجابة الطلب إذ أرسل الى يحيى نجله عباد . ولعلم الخليفة بما للقاضي من الجاه والنفوذ اكتفى بقبول ابنه رهينة لديه ، وبفضل هذا العمل المجيد الدال على الاخلاص للبلاد ازدادت مكانة القاضي عند الاشبيليين عامة ، وأصبح - منذ ذلك الحين - لا يخشى شيئا لامن جانب الشعب ، ولا من جانب الخليفة الذي اعترف بسيادته شكلا وخيلا إليه أن الفرصة السانحة قد أمكنته من الانفراد بالحكم .

ولما كان قد أبعد من مجلس الحكم مثل ابن حجاج وغيره ولم يبق معه سوى زميلين رأى أن يصرفهما عن خدمته ، ونفى زبيدي ، وعين رجلا من خواص اشبيلية اسمه « حبيب » رئيسا للوزارة ، ولم يكن حبيب هذا من رجال المبادئ إلا أنه مع هذا كان ذكيا مخلصا بكل معاني كلمة الاخلاص لمولاه ، منصرفا الى مصلحته .

وعلى أثر ذلك أراد القاضي أن يزيد في رقعة المملكة بالاستيلاء على باجة ، وقد حلت أخيرا بهذه المدينة المصائب في غضون القرن التاسع عشر من جراء الحرب التي نشبت بين العرب والختانيين . إذ نهبت وخرب البربر جزءا منها ، وعاثوا فيها سلبا ، وأحرقوا ما صادفوه في طريقهم ، وكان في نية القاضي إعادة تشييد ما خرب منها ، ولكن لما اتصل بعبد الله بن الأفطس أمير « باداجوز » عزم القاضي ، جرد جيوشه تحت إمرة ابنه محمد « الذي خلفه فيما بعد باسم المظفر » وتم استيلاء هذه الجيوش على باجة في الوقت الذي جاء فيه اسماعيل بن القاضي بجيش اشبيلية وجيش حليف أبيه أمير قرمونه ، فبدأ حصارها في الحال وأمر فرسانه بالسلب والنهب في القرى الواقعة بين إيفورا والبحر ، وعلى الرغم من المدد الذي جاء من ابن طيفور ، فإن محمدا كان سيء الحظ كثيرا إذ بعد أن فقد نخبة فرسانه المحاربين وقع أسيرا بين يدي أعدائه وأرسل إلى قرمونه .

زادت هذه الانتصارات في حاسة القاضي وحليفه الأمير ، فلم يكتفيا بالاغارة على باداجوز وحدها بل أغارا على قرطبة أيضا فاضطرت حكومتها أن تستخدم للدفاع كثيرا من بربر ولاية سيدونا .

وبعد فترة من الزمن أبرم القاضي وحليفه صلحا أو سمه - إن شئت - هدنة مع الافتازيد وحينئذ أطلق محمد من الأسر برضا القاضي (مارس سنة ١٠٣٠) ولما أبلغه أمير قرمونه نبأ الغلاق سراحه عرض عليه أن يعرج في طريقه على اشبيلية ، ويبلغ القاضي شكره ، ولكن محمدا لفرط اشمئزازه من القاضي ، قال لأمير البربر : « إني أؤثر أن أظل سجينك على أن أقوم بما أشرت به عليّ » ، فاذا كنت مدينا لغيرك باطلاق سراحى ، وكان على أن أشكر قاضى اشبيلية وفاء لهذا الحق ، فاني أفضل أن أبقى حيث أنا سجين » فاحترم الأمير شعوره وأرسله إلى باداجوز مشيعا بما يليق برجل عظيم مثله من واجب الاجلال والتكريم .

وبعد بضع سنين أى في سنة ١٠٣٤ اتقى عبد الله بطريقة قد تعتبر غير شريفة وتأثر لنفسه من تلك الشدائد التي نالته ، وذلك بأن أباح للقاضى أن تمر بأرضه جنوده بقيادة ابنه اسماعيل وهي ذاهبة في طريقها للاغارة على مملكة ليون ، ولما كان اسماعيل وجنوده في مضيق لا يبعد كثيرا عن الحدود الليونية باغته جيش الافتازيد فقتل من جنود اشبيلية مقتلة عظيمة ، وقتل فرسان ليون فلول الجيش عند لياذهم بالفرار ، وأفلت اسماعيل من هذه المذبحة ومعه نفر يسير من رجاله ، وفيما كان موليا وجهه شطر مدينة لشبونة الواقعة على حدود مملكة أبيه من الجهة الشمالية الغربية تحمل هو ومن معه أشد آلام الحرمان من حاجات المعيشة الضرورية .

ومنذ هذه الآونة صار القاضي الخصم الألد للأمير « باداجوز » وليس لدينا معلومات تفصيلية عن

المعارك التي دارت بعد ذلك بين أمير «باداجوز» وخصمه، ومما لا ريب فيه أن هذه الحروب لم يكن لها نتائج ذات شأن عظيم لأسبانيا المسلمة ولم تترك فيها أثرا يضارع ما تركه فيها حادث آخر سنتناوله فيما يلي. قلنا ان القاضي اعترف بسيادة الخليفة الجودى يحيى بن على ولكن هذا الاعتراف عبارة عن تعهد غير مجد وقد بقى كذلك مدة طويلة فقد قام القاضي بحكم أشبيلية بلا سلطان عليه ولا رقابة وكان يحيى من الضعف بحيث لا يستطيع أن يلزمه بالمحافظة على حقوقه وقد تبدلت هذه الحال تدريجيا اذ وفق يحيى لأن يضم حوله جميع أمراء البربر تقريبا ، فأصبح من الآن بحق زعيم عامة الحزب الافريقى بعد أن كانت هذه الزعامة فيماضى اسمية ، ولما كان معسكره العام فى قرمونة التي طرد منها محمد بن عبد الله فقد أصبحت جيوشه تهدد قرطبة وأشبيلية فى آن واحد ، وقد أوحى هذا الخطر المخيف المحدث الى القاضي بفكرة وطنية لها خطرها وقيمتها لو لم يشبها الحرص والطمع والأنانية والجشع.

فقد رأى من الضروري أن يجتمع العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد حتى لا بغزو البربر الذين اتحدوا الاملاك التي سبق لهم غزوها .

وهذه هي الوسيلة التي تجعل البلاد بمنجاة من حلول مثل ما حل بها من المصائب من قبل ، وكان القاضي يشعر من أعماق نفسه بهذه الضرورة ، فقويت عنده الرغبة فى أن يتألف حزب قوى كبير يندمج فيه جميع العناصر المعادية للحزب الافريقى ، وهو فى الوقت ذاته يتنى أن يكون رئيسه ، ولم تكن العقبات التي عليه أن يذلها لنيل تلك الغاية بخافية عليه . فقد كان يدرك أن ملوك الصقالبة وأمراء العرب ، وشيوخ قرطبة يجرحون فى كرامتهم اذا ما حاول أن يسطر سلطانهم عليهم ، على أن شيئا من ذلك لم يذب همته ولم يجعل اليأس يتسرّب الى نفسه .

ولما كانت المصادفات ستخدمه ، فهو سيتمكن الى حد ما من الوصول الى الغاية التي يرمى اليها ، والمشروع الذي يعمل على تحقيقه ، وسنرى فيما بعد على أى نحو يتم له ذلك .

أسلفنا أن الخليفة التمس «هشام الثانى» فر من القصر فى عهد سليمان الثانى . وقلنا ان أكثر الظواهر تدلّ على أنه مات فى آسيا مجهولا غير معروف . ومع هذا فقد بقى الشعب غير مصدّق بوفاته لتعلقه المفرط بالدولة الأموية التي درت عليه أخلاف اليسر والرخاء، وكسته حلل الشرف والمجد ، وكان عامة أفراد الشعب يتلقون الاشاعات التي كانت ترد اليهم من الخارج منبهة ببقائه على قيد الحياة باهتمام وشغف ، وهناك أفراد كانوا يزعمون أنهم واقفون على تفاصيل حياته بآسيا فقد أشاع بعض أولئك الزاعمين أنه رحل أولا إلى مكة ومعه خريطة مملوءة بالنقود والنفاس ، فسلبه الزنوج الذين كانوا برفقته مامعه ، وأنه استمر يومين لا يتذوّق طعاما ولا شرابا ، إلى أن رآه رجل يصنع الفخار فرق له ورثى لحاله ، فعرض عليه أن يجنّ له الصلصال على أن يعطيه فى اليوم درهما ورغيفا ، فرجا صانع الفخار أن يعطيه الأجر سلفا إذ قد مضى عليه يومان لم

يتنازل فيهما طعاما و بعد لأي استطاع هشام على كسل وفترة في العمل أن يكسب قوت يومه ، إلا أنه أنف من هذه الحالة فهرب ، وسار مع قافلة ذاهبة الى فلسطين ، ووصل الى اورشليم ، وهو في أشد حالات الاملاق ، وهناك بينما هو ينتقل في بعض طرق المدينة إذ وقف على حانوت حصري ، وأخذ ينظر الى عمله بانتباه شديد ، فسأله الحصري : هل تعرف هذه الصناعة ؟ فأجابه بحزن كلا ، وأنا آسف لأنه لا سبيل الى العيش وكسب ما أسد به الرمق ، فقال الحصري : اذن فابق معي لحاجتي اليك في احضار الخيزران ، ولك أجرك ، فقبل مسرورا وبقي عند الحصري الى أن حذق الصناعة ، وما زال على هذه الحال بضع سنين ، وقد أذاعوا بعد ذلك أنه عاد الى أسبانيا في سنة ١٠٣٣ و نزل ماقه ثم تحوّل عنها الى المربه ، فوصل اليها سنة ١٠٣٥ فاضطر الأمير زهير الى إبعاده خارج حدود مملكته ، فرحل الى كالاترافا وثمة التي بها عصا النسيار .

هذه الرواية التي صادفت رواجاً وقبولا من الشعب لا تستحق - على ما يظهر - أن تنال شيئا من الثقة ، والذي وقع حقيقة هو أنه في العهد الذي كان فيه يحيى يهتد إشبيلية وقرطبة ، كان في كالاترافا رجل حصري اسمه خلف يشبه تمام الشبه الخليفة هشاما الثاني ، ولكن لم يرق دليل على أنه هو بعينه ، وقد نفى الأمويون شيعة هشام ومعهم ابن حيان وابن خزم المؤرخان ما دار حول هشام المزعوم من الروايات والاراجيف وعُدوه ضربا من الحيلة السياسية والخداع والقحة ، وان كان من مصلحتهم لو أمكن الوقوف هشام على أثر ، ولم يتوقف خلف حين طرق سمعه كثيرا أنه شبيه هشام عن ادعاء أنه هو نفسه الخليفة هشام الثاني ، وقد جازت هذه الحيلة على أهالي كالانزا ، لان خلفا لم يكن معروف النسب عندهم ، والأغرب من هذا أنهم دخلوا في طاعته ، وثاروا على أميرهم اسماعيل بن دهمان - نون أمير طليطلة فجاء هذا وحاصره ولم تطل مدة مقاومتهم ، وأخرج هشاما المزعوم من المدينة فهذا نأثر الأهالي ، وعادوا الى السكينة والخضوع .

ولم ينته دور خلف عند هذا الحد ، بل رجع عودا على بدء حين علم قاضي اشبيلية بخبره وعلم الفائدة التي يجنيها من وراء ذلك الرجل اذا هو أحضره الى اشبيلية ، وكان الذي يهمه إنما هو استغلال الموقف بقطع النظر عن شخصية الرجل ، كما كان يسره كثيرا أن يرتضى الناس أنه هشام ، ليستطيع أن يكون باسمه حزبا ضد البربر ويكون هو بعنوان كونه رئيس الوزراء زعيم روح هذا الحزب ، ولهذا بادر الى دعوة الخليفة المزعوم الى اشبيلية ، ووعد به مضيده اذا نجح في اثبات شخصيته ، ولما حضر الحصري الى اشبيلية قدمه القاضي الى نساء هشام بالقصر ، فصرحن جميعهن تقريبا بأنه هو بعينه الخليفة السابق ، وعوّل القاضي على قولهن ، وبعث الى شيوخ اشبيلية وأسماء العرب والصقالبة يعلمهم بأن هشاما الثاني عنده ، ويدعوهم الى حمل السلاح معه دفاعا عن حقوقه ، ومؤازرة لقضية الخلافة وقد كلل الله هذا المسعى

بالنجاح ، واعترف بسيادة هشام محمد بن عبد الله أمير قرمونة المخلوع الذي لجأ إلى اشبيلية ،
وعبد العزيز أمير بلنسية ، ومجاهد أمير دانية ، وجزر بلبار ، وأمير تروتوزا (طرطوشة) .

وعلم عامة الشعب في قرطبة علما مقرونا بالسرور أنه لا يزال على قيد الحياة ، إلا أن كبيرهم
أبا الحزم بن جمهور كان أقلهم تصديقا للخبر حرصا على الحكم ، فلم ينخدع ، ولم تجده هذه الحيلة
الى نفسه مساعا ، ولكنه لم يجد سبيلا إلى مقاومة إرادة الشعب ، ومخالفة ميوله ، ورأى ضرورة
اتحاد العرب والصقالبة تحت راية حاكم واحد ، لأنه كان يخشى في ذلك الحين أن يهاجم البربر
قرطبة ، فلهذه الأسباب لم يناقض أغراض مواطنيه ، وسمحت نفسه بأن تتجدد البيعة لهشام
الثاني من جديد .

وكان من نتيجة هذه الحوادث أنه بينما كان الحزب العربي الصقلبي يتسلح ضد يحيى ، كان هذا
محاصرا لإشبيلية ، مجتدا في تخريب ما يتصل بها من العمران ، موطنا النفس على الانتقام الهائل
من القاضى الحائن ، ولكن الملتفين حوله - من بربر قرمونة الذين أكرههم على الانضواء تحت
رايته - كان هواهم مع هشام الثاني خليفهم السابق ، وكانت المخابرة بينهم وبينه سائرة ، وفي
أكتوبر سنة ١٠٣٥ ذهب فريق منهم خفية إلى إشبيلية ، وأبلغوا القاضى ومحمد بن عبد الله
أنه من السهل مباغته يحيى لأنه لا يكاد يفيق من السكر ، ولم يدع القاضى وحليفه هذه الفرصة
تمر دون أن يستفيدا منها ، وهنا وجه القاضى ابنه إسماعيل ومعه محمد بن عبد الله على رأس
الجيش الاشبيلي ، وعند ما أرخى الليل سدوله كن إسماعيل مع أكثر الجند في كمين ، وأرسل
كوكبة لمناوشة قرمونة ليغري يحيى بالخروج إلى ظاهرها وقد نجح في خطته هذه ، إذ كان يحيى
حين بلغه مجيء ابن عباد على رأس جيش ثملا ، فنهض وكان متكئا على سريره وصاح قائلا :
« يا لها من فرصة سعيدة ، هذا ابن عباد مقبل لزيارتي ، والآن أيها الجند ، خذوا أسلحتكم
وامتطوا جيادكم قبل ضياع الوقت ، وخرج في ثلاثة آلاف فارس ، وكان النبيذ قد لعب برأسه
فلم يتمهل ريثما يعي جنده وينظم خططه ، يضاف إلى ذلك أن ظلام الليل الخالك كان يحجب
عنه كل شيء ، وفوجيء الاشبيليون منه بهذا الهجوم المباغت فقابلوه من جانبهم بجند وعنف ،
وأخذوا يتقهقرون بنظام نحو المكان الذي كن فيه إسماعيل ، ومن هذه اللحظة سعى يحيى إلى
حفظه بنفسه ، فان إسماعيل انقض عليه بكل قوات الجند ، واضطره إلى التقهقر ، وقتل
يحيى نفسه في المعركة ، وكاد يأتى القتل على أكثر رجاله لو لم يحل محمد بن عبد الله دون ذلك ،
وقال له : « إن أغلب هؤلاء المساكين من بربر قرمونة الذين أكرههم هذا الطاغية على الدخول
في خدمته مع كراحتهم واحتقارهم له . » فأبقى عليهم وأمر جنده بترك تعقبهم وخف محمد
ابن عبد الله إلى قرمونة على ظهر جواده ليسترد ملكه ، وأراد زئوج يحيى الذين استولوا على
أبواب المدينة أن يحولوا بينه وبين الدخول لولا أن ساعده الأهالي على دخولها من ثغرة ،
وسار إلى قصر الامارة وسلم نساء الأمير يحيى إلى بنيته ، واستولى على ما في القصر من كنوز
ونفائس « نوفمبر سنة ١٠٣٥ »

وقد أحدث نبأ وفاة يحيى سرورا عظيما في اشبيلية وقرطبة ، وعند ما وصل الخبر الى مسامع القاضي خرت ساجدا شكرا لله ، وحذا حذوه جميع من كانوا حوله . والآن أصبح القاضي لا يخشى شيئا من جانب الجوديين ، وقد نودى بادر يس أحد أشقاء يحيى خليفة في ماله ، وقد كان يعوزه الوقت الكافي الذي يستطيع فيه أن يكسب بقوة نفوذه ، وما يقدمه من وعود ، قلوب زعماء البربر ، ليجعلهم في صفه ، ولهذا لم يعد في استطاعته أن يخضع الجزيرة بعد أن نادى الزوج فيها بأن عمه محمد ، خليفة .

ولما رأى القاضي أن الظروف خدمته ، هم بأن يقيم هو وهشام الثاني المزعوم بقصر الخلافة في قرطبة ، إلا أن يقظة ابن جهور ، وتصميمه على عدم التخلي عن الحكم ، وقفنا حجر عثرة في طريقه ، فقد نجح في اقناع أهل قرطبة أن الخليفة المزعوم لم يكن سوى رجل ماكر مخادع وأن اسم هشام قد أُلتي من الإمامة ، وعرف أن القاضي عند مجيئه بهشام الى قرطبة سيقبض أبوابها مغلقة في وجهه ، وثمة لا يستطيع التغلب على مدينة منيعة حصينة مثلها ، فيضطر أن يعود من حيث أتى .



وعول في بداية الأمر على أن تعسكر جيوشه عند الأمير الصقابي ، وهو الأمير الوحيد الذي أبى الاعتراف بهشام الثاني ، ذلك الأمير هو زهير أمير المرية ، ومنذ أراد الخليفة قاسم أن يهون على الأمير ، واقطعه عدة أملاك بدأ زهير يناصر الجوديين ، ولما نودى بادر يس خليفة بادر بالاعتراف به ، ولما صار الآن مهددا من القاضي عقد محالفة مع حيوس الغرناطي ، ثم زحف جيش إشبيلية ، وذهب لمقابلاته بجنوده وجنود حليفه إذ اضطره إلى التقهقر . ومن المحقق أن القاضي قد بالغ في الاعتداد بقوته ، ولم يحسب حساب أعدائه ، وكان عليه أن يخشى مجيء الوقت الذي تغزو فيه جيوش المرية وغرناطة بدورها إشبيلية . وكثيرا ما خدمته محاسن الصدف التي شئت أن يخلصه أحد أعدائه من عدوه الآخر .

٢ - المناهج الأدبية^(١)

كل ما يكتب في هذا العصر إنما هو محاولات أولية ترمى الى المثل الأعلى الذى ننشده جميعا ، ولا يزال الأدب العربى وتاريخ الأدب العربى فى أشد الحاجة الى جهود الأدباء المتواصلة لتنظيمه وتمحيصه وإصلاح تحريفه والكشف عن الاغلاط الكثيرة التى ألحقها به الفساح . ولازال كل جهد يبذل فى ازاحة الستور عن هذه المناجم النفيسة مفتقرا الى جهد آخر يشد أزره ويساعده .

قد كنا الى عهد قريب لانكاد نؤمن بأن فى العربية كلها شاعرا واحدا يجارى المشهورين من شعراء الغرب . فلما انصرف الأدباء والعلماء الى الدرس والتمحيص والبحث والتحليل ، اكتشف الشباب نخبة من قادة الفكر العربى الممتازين ، ولازلا نطمع فى ازاحة الستور عن بقية اعلام الفكر العربى القداماء .

وقد كان من الطبيعى أن يصحب نهضتنا وهى فى أولها ما يصحب كل نهضة أخرى من الغلو والاسراف فى بعض النواحي ، وفى نهضتنا الأدبية عيب جوهري نخشى أن يعوق سيرها حيناً من الزمن نحن فى أشد الحاجة الى الانتفاع به واستغلاله بأقصى ما فىنا من قوة ، ذلك العيب الجوهري هو أن أكثر من يكتب فى تاريخ الأدب العربى ينقسم قسمين : فريق من المحافظين الجامدين وفريق من المجددين المسرفين .

يأبى الفريق الأول الا أن يتقيد بالنصوص القديمة ويأخذ بآراء القداماء فى النقد والأدب بالغة ما بلغت من الاضطراب والفساد من غير أن يعنى نفسه ببحثها وتمحيصها ولا يكاد يردّد الا عبارات محفوظة و (كايشيات) قدأبلاها الدهر ولا يكاد يجزو على استخلاص نتيجة واحدة من بحوثه الطويلة واطلاعه الواسع ، فامرؤ القيس أكبر مزاياه أنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل فى شطري بيت واحد وذلك فى قوله :

« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول لخومل »

والنابغة الذبياني قد بز الشعراء بقوله :

« فانك كالليل الذى هو مدركى وان خلت أن المنتأى عنك واسع »

الى آخر هذه العبارات التى حان الوقت لاراحتها بعد أن أنهكها طول الاستعمال وكثرة الاستشهاد والتكرار .

الفريق الثانى من غلاة المجددين أو - على الأصح - دعاة التجديد ، لا يبالون بالنصوص ولا يعنون أنفسهم بدرس الموضوع الذى يتصدون لبحثه ، وربما اكتفى بعضهم بالخلاصات المدرسية النافهة فى الحكم على الشعراء والأدباء والأدب العربى كله . فالعرب - فى رأى أحدهم - لم يطرّقوا نوعا بعينه من الشعر ، لأنه لم يقرأ هذا النوع فى تلك

(١) تثبت فيما يلى فصولا مختارة من رسائلنا عن ابن زيدون ، تنويرا للقراء .

الخلاصات المدرسية ، وهذا الشاعر لا يسمو الى مرتبة الفحول لأن الأبيات القليلة التي قرأها في تلك الخلاصات لا تبرر وضعه في مصاف الممتازين والنوابغ .

وهم لا يرون اذا تصدوا للكتابة إلا وسيلة واحدة للطرافة والابداع وهي الخيال ، فهم لا يبالون اذا أعوزتهم النصوص أن يخلقوا تاريخ الشاعر خلقا ، وأن يدججوا حياتهم في حياته وينحلوه نقائصهم وما يتخيلونه في نفوسهم من مزايا ، فتراهم يخلقون من الشاعر صورة هي أصدق مرآة نستشف فيها نفوسهم .

فاذا كان أحدهم خليعا تلمس شاعرا مشهورا بالخلاعة ولم يعن نفسه بشرح أسباب خلاعته مقدار عنايته بتبرير الخلاعة والتمدح بها ، واذا كان أحدهم حاقدا تلمس شاعرا مشهورا بالحقد ، ولم يعن بالأسباب التي أحفظته على معاصريه عنايته بتبرير هذه الخلة فيه .

ولست أنكر على الباحث أن يتصدى لتحليل أية نفس إنسانية ماجنة أو جادة ، راضية أو ساخطة ، ولكنني أنكر عليه أن يخلق التاريخ خلقا ليؤيد رأيا - صالحا كان أو فاسدا - فان أمانة المؤرخ ودقته هما أول واجبه نحو الحقيقة والانصاف .

اما أن ينصرهوى أو يجرى وراء خيال أو يطبق لنا - بلاروية ولاأناة - نظريات مغلوطة وآراء فاسدة خاطئة تلقفها بلا روية ولا تدبر ، فذلك أضرر على الحقيقة من أولئك الجامدين الذين لا يهتمون بالأدب خطوة واحدة .

وقد بلغ من تهؤس وشطط بعض دعاة التجديد أنهم أنكروا كل خيال عربي - لماذا ؟ لأنهم سمعوا أن أحد المستشرقين قال : « إن العرب ضيقوا الخيال وإن سعة الخيال وعمق الفكر وقف على الآريين » .

فإن الرومي مثلا واسع الخيال . لأنهم اقتنعوا بسعة خياله ، بل لأن جدّه رومي . والمعري لا خيال له وإن كان خياله أوسع من خيال ابن الرومي - لماذا ؟ لأنه عربي قح ، ولكن المعري هو صاحب رسالة الغفران التي تعدّ آية من آيات الخيال العربي ، فماذا يقولون فيها ؟ الأمر غاية في اليسر ، ليس في رسالة الغفران كلها خيال وانما هي كتاب أنشاء المعري في جغرافية الجنة والنار .

ومن اليوم الى أن يظهر للمعري جدّ رومي تبقى رسالة الغفران كتاب جغرافية ، ومتى ظهر له جدّ آرى أصبحت « رسالة الغفران » كتابا من أروع كتب الخيال .

هكذا يحكمون من غير أن يحاسبوا نفوسهم على ما يقولون . وقد حاولنا جهدنا أن نتلمس لابن زيدون جدّا آريا نتقدّم به الى هذه الفئة لكبر من مواهبه وخياله ، فلم نظفر بذلك .

على أن في ابن زيدون مزينة قد تشفع له عند هؤلاء المفتونين بالغرب ومايمت إلى الغرب . فقد نشأ ابن زيدون في بلاد الأندلس : وهي في صميم أوروبا ، فهو شاعر أوروبي البيئة وقد مدحه كثير من المستشرقين ، ولعلّ هذا يشفع له عند هؤلاء المقلدين .

أما الشباب المنصف الذي لا يعنى إلا بالحقائق ، فناننتقدّم إليه بديوان ابن زيدون ورسائله، وسيرى فيها أمثلة من الابداع والافتنان ، ونماذج من الروعة والاحسان ، وصفحات رائعة من صفاء الديباجة وسحر البيان - وكلنا ثقة بأن درس ابن زيدون سيكون أكبر حافز على درس غيره من خول الأدب العربي والبيان العربي .

وما أجدر الباحثين أن يتوخوا الانصاف فان آفة الرأى الهوى، وأكثر الناقدين لا يفسد عليهم بحوثهم إلا التحيز وتنسكب الجادة وإرضاء النزوات الفكرية الطائشة . وفى يقينى أن الناقد كالفاضى يجب أن يتوخى النزاهة النامة ، ويسمو بنفسه عن مزائق الأهواء ، ولا يألو جهدا فى البحث عن الحقيقة ، أما أن ينقلب الناقد محاميا للدفاع أونائب اتهم - كما يفعل أكثر الكتاب - فذلك ما لا نرضاه له ، ولعلّ أكبر عقاب يناله هو فقدان الثقة بما يكتب .

٣ - نشأة ابن زيدون

ولد ابن زيدون في قرطبة سنة ٣٩٤ هـ في زمن الدولة العاصمية ، في أول عهد المظفر ابن المنصور بعد سنة واحدة من موت المنصور بن أبي عامر . وهو من أسرة مجيدة من بني مخزوم ^(١) ، وهو أحد ثلاثة تسموا بابن زيدون وهم :

١ - أبوه : عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون وكنيته أبو بكر ، وكان فقيها بقرطبة وكان قاضيا وعالما مشهورا وأديبا واسع الثقافة .
وقد مات ^(٢) سنة ٤٠٥ هـ ، وترك ابنه وسنه حينئذ إحدى عشرة سنة وهكذا أصاب ابن زيدون اليتيم وهو صغير .

٢ - أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون صاحب هذا الديوان الذي بين يدي القارئ وكنيته أبو الوليد .

٣ - ابنه أبو بكر بن زيدون الذي تولى بعد وفاة أبيه وزارة المعتمد بن عباد وقتله يوسف بن تاشفين ، بعد أن استولى على ملك بني عباد سنة ٤٨٤ هـ .

وكان ابن زيدون صاحب هذا الديوان أشهر هؤلاء الثلاثة وقد كرّس حياته للدرس والنحصيل وساعده نبوغه ومواهبه على ذبوع صيته وشهرته وهو لم يتجاوز العشرين من سنه ، وكان عصره أزهى عصر أدبي في الأندلس وقد تتلمذ على أساتيد الأدب في زمنه وألم من كل علم بطرف ، وقرض الشعر ونبع فيه وهو في العشرين من عمره ، واشترك في الفتنة القرطبية ، وقام بنصيب كبير في تلك الثورة التي اندلعت نيرانها في قرطبة .

وكان ابن زيدون من زعماء تلك الفتنة التي زلزلت دولة بني أمية ودولة بني حمود والعلويين ، وانتهى الأمر بالقضاء عليهم جميعا وقيام ملوك الطوائف على انقاضهم . وكانت سنة وقت الثورة ثمانيا وعشرين سنة ^(٣) .

(١) بطن من قريش ، وهم عشيرة خالد بن الوليد .

(٢) مات أبوه بمدينة البيرة ، ونقلت جثته الى قرطبة فدفن بها ، ومما وصل إلينا من رثاء الشعراء فيه قول بعضهم :

«أى ركن من الرياضة هُضا وجوم من المكارم غبضا
حلوه من بلدة نحو أخرى ليوافوا به ثراه الأريضا
مثل من السحاب ماء صيبا ليداوى به مكانا مريضا»

(٣) بدأت الثورة سنة ٤٢٢ هـ وكانت ولادته في سنة ٣٩٤ هـ فتكون سنة حينئذ ٢٨ عاما . وقد ظل ملك بني أمية في الأندلس ٦٨ سنة وثلاثة وأربعين يوما . وقد انقسمت ممالك الأندلس بعد

فقر به اليه ابن جهور (١) وأعلى قدره ثم لم يلبث أن منحه لقب « ذى الوزارتين » . وكانت بين ابن زيدون وابن عبدوس منافسات كثيرة لاشتراكهما في حب ولادة ، فأخذ يكيد له ابن عبدوس هو وأصحابه الناقون على ابن زيدون عند أبي الحزم حتى غيروا عليه قلبه وسجنوه بتهمة التآمر على قلب الملك واعادته الى بنى أمية كما سنفضل ذلك في رسالة خاصة .

وقد أنشأ ابن زيدون في سجنه كثيرا من القصائد الرائعة والرسائل البليغة التي يراها القارىء في ديوانه . وحاول أن يستعطف بها ابن جهور متوسلا اليه تارة بآبائه أبى الوليد وتارة بغيره من أصدقائه ، فلم تلقى شكواه أذنا صاغية . على أن السجن لم ينس ابن زيدون حبه ولادة فنظم فيها نخبه من أروع قصائده ، ولما يؤس من عفو أبى الحزم ، لجأ الى الفرار من السجن ، ولم ينس ولادة التي كان يهيم بحبها ، ولكنها أغفلته واشتغلت عنه بحب ابن عبدوس (٢) على أن ابن زيدون لم ينسها طول حياته ، وما زال ينظم الأشعار متغزلا بها ، شديد الحنين الى أيام وصالتها وظل حبها المعين الثرار الذي لا ينضب ، وما زال يلهمه أروع خواطره الثائرة وعواطفه المتأججة ، وكان من أكثر الأسباب في وصول ابن زيدون الى مرتبة الزعامة بين شعراء الغزل الممتازين .

سقوط الدولة الأموية الى تسع عشرة مملكة منها ، قرطبة ، وإشبيلية ، وجيان ، وقرمونة ، والغرب ، والجزيرة الخضراء ومرسية وبنيوية ، ودانية ، وطرطوشة ، ولاردة ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وباجة ، وإشبونة الخ

قال ابن حزم : كانت طرطوشة وسرقسطة وفراغة ولاردة وقلعة أيوب في يد بنى هود . وبانسية في يد عبد الملك بن عبد العزيز / ولندراى مافوق طليطلة - من جهة الشمال - في يد بنى رزى . وطليطلة في يد بنى ذى النون . وقرطبة في أيدي أبناء جهور . وإشبيلية في يد بنى عباد . ومالقة والجزيرة الخضراء في يد بنى برزاق من البربر . والمرية في يد زهير العامري ثم ابن صمادح . ودانية وإشبونة والجزائر الشرقية في يد مجاهد العامري . وبطليوس وبائرة وشنقرين وإشبونة في يد بنى الأفطس / وأصبح كل امرئ في مكانه وما اختار من الألقاب والاسماء ، حتى أن المستعين ، لما جلس على كرسي الخلافة ، قال للباس أجمعين : « ارتفعوا كيف شئتم وارسموا بما أحببت من الخطط » فقدمى بالوزارة في أيامه - منفردة ومنشدة - أرادل الدائرة ، وأحابت الظارة ، فضلاعن زعانت الكذاب والخدمة .

(١) هو أبو الحزم بن جهور الذى استولى على المملكة بعد خلع الجند آخر خلفاء بنى أمية ، ولم يتحول عن داره الى قصر الخلافة ، وجعل الأمر شورى ، وساس الأمور بحزمه وحسن تدبيره ، وكانت مدته في الحكم أربع عشرة سنة وبضعة أشهر ، ثم خلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور الذى مات في شوال سنة ٣٤٣ هـ .

(٢) وفي ذلك يقول ابن زيدون .

« أكرم بولادة ذخر المدخر لو فرقت بين بيطار وعتار
قالوا : أبو عاصم أضحى بلمها قلت : الفراشة قد تدنو من النار
غيرتمونا بأن قد صار يخلفنا فمين نحب ، وما في ذاك من عار
أكل شهى أصبنا من أطايه بعضاء وبعضا صفحنا عنه للفار »

ولما مات أبو الحزم عاد ابن زيدون الى قرطبة وانضم الى أبي الوليد وقام بالسفارة بينه وبين ملوك الطوائف فأعجبوا به وتمنوا استئثارهم به لبراعته وحسن سيرته وتمكن من دولة ابن جمهور وابسم له الحظ ثانية حتى أفسد الحساد مصلح ، وخشى ابن زيدون أن يلقى من الابن ما لقي من الأب من النكال والسجن ، ففرّ هارباً من قرطبة . وظلّ ينتقل في أرجاء الأندلس من رنده إلى باداجوز إلى اشبيلية أخيراً حيث اتصل بعباد ابن محمد صاحبها الملقب بالمعتضد^(١) ولم يكن يخفى أدبه وشهرته ومكانته عليه فهش له وبش وألقى اليه مقاليد وزارته ، وبعد أن مات المعتضد حاول الوشاة وعلى رأسهم ابن عمار أخلص أصدقاء المعتمد أن يغيروا قلبه عليه وأن يدسوا له عنده فلم يفلحوا ، وأقصاهم المعتمد بن عباد عنه وقرب اليه ابن زيدون وأعلى مكانته عنده وظلّ ابن زيدون يزين له غزو قرطبة حتى ملكها عنوة بفضل تدبير ابن زيدون وسعة حيلته ، وانتقل المعتمد وابن زيدون اليها وجعلها عاصمة ملكه .

ولما وقعت الثورة ضد يهود اشبيلية ، انتهر ابن عمار وابن مرتين وأنصارهما هذه الفرصة لأفصاء ابن زيدون عنهم تخلصاً من منافسته ، فزينوا للمعتمد أن يوفده إلى اشبيلية لشدة تغلق أهلها به واستغلال حبهم في تسكين الاضطراب وتهذبة الخواطر ، وكان المعتمد يعلم ما يكره أهل اشبيلية لابن زيدون من الحب وما له عندهم من المكانة والخطر . وكان ابن زيدون مريضاً فاضطره المعتمد الى السفر ، فلم يستطع إلى مخالفته سبيلاً ، ولم يلبث أن اشتدت به الحمى وألح عليه السقم فلحقته به أسرته . ولكن الشيخوخة والمرض تكاثفا عليه فأهلكاه في ١٥ رجب سنة ٤٦٣ هـ فحزن عليه أهل اشبيلية أشد الحزن ودفن فيها باحتفال مهيب . وقد مكث في خدمة آل عباد تسعة عشر عاماً ، ولوطال عمره قليلاً لأفصح حساده ومنافسوه في تغيير قلب المعتمد عليه والتسكيل به كما أفلحوا في مثل ذلك من قبل ، ولكن الموت أقذاه من دسائسهم وكيدهم ورجحه من شرهم .

(١) استطاع المعتضد أن يتغلب على كل ما واجهه من العقبات وبذل أقصى ما يبذل داهية من الدهاة حتى صفاله الجو وسلم له الملك وكان أكبر من بناوته من المتغلبين وأشدّهم عليه صنهجة وبنو برزال الذين كانوا بقرمونة وأعمالها من نواحي اشبيلية ، فلم يزل يصرف الحيلة تارة - كما يقول المراكشي - ويجهز الجيوش أخرى الى أن استنذهم ففرق كلهم ، وشتت منتظم أسرهم ، وقامهم عن جميع تلك البلاد ، وصفت له أموره .

بحترى المغرب

« ويقول بعض أدبائنا : إن ابن زيدون بحترى زماننا، وصدقوا

لأنه حذا حذو الوليد في بعض قصائده » « ابن بام »

قلت في فصل سابق : إنني ترددت في مشايعة « نيكسون » حين وصلت إلى قوله :

« وقد أطلقوا على ابن هانيء لقب متنبى الغرب ، كما أطلقوا على ابن زيدون لقب بحترى

الغرب . »

وقد قلت حينئذ :

« ولما كنا لم ندرس ابن زيدون دراسة تمكنا من الحكم عليه حكما صحيحا ، فاتنا ترك مناقشة القسم الثاني من هذه التسمية ونكتفي الآن بالكلام على النقطة الأولى وهي تشبيه ابن هانيء بالمتنبى لاستطاعتنا الكلام في هذا الموضوع . »

والآن بعد عشر سنوات أستطيع أن أقرر مستوثقا : أن هذه التسمية صادقة في تفصيلها وإجمالها ، وأن من يدرس ابن زيدون والبحترى يطلق على ابن زيدون لقب بحترى المغرب ، ولو لم يعرف أن القدماء قد أطلقوا عليه ذلك اللقب ، فكلاهما رائع النظم سحر الأداء ، وأكثر الصور الشعرية التي أبدعها جديرة بأن تنال أعز مكان في أرقى المتاحف الشعرية .

ولقد يسر علينا ما لقيناه من الجهد والعناء في إظهار هذا الديوان أن به من الصور الشعرية الرائعة والبيان الساحر الخلاب ما يفخر به الأدب العربي والشعر العربي في أزهى عصورها وأنصرها ، فقد كان ابن زيدون في سموه وإفئته - وما أكثر سموه وإفئته - مثالا رائعا للشاعر المبدع القادر المتصرف بفنون القول وأساليب البيان .

وأحب أن أنصّح القارئ أنني كدت أن أسرع في الحكم حين عرضت لهذه التسمية في كتابي « نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي » ، فأقرر أن في هذه التسمية كثيرا من الإسراف والمبالغة ، وقد كنت حينئذ متشبعا بروح البحترى مأخوذا بسحر بيانه ، وكنت لا أكاد أصدق أن شاعرا - كابن زيدون - جدير أن يوضع معه في ميزان أو يشركه في إحسان .

ولكنني رأيت أن من الظلم والغبين أن أفاضل بين شاعرين درست أحدهما دراسة مستفيضة ولم أقرأ لثانيهما إلا عشرات من الأبيات و بضع صفحات من النثر ، فأرجأت الحكم حتى أتم الدرس . وهذه حالة نفسية تعرض لأكثر المشتغلين بالأدب في هذا العصر ، وهي آفة من الآفات التي تفسد على الباحثين بحوثهم ، فإن أكثرهم لا يتورع في الحكم على شاعر لم يدرسه ولم يقرأه بقرأة آثاره وتقصى أخباره ، بأنه شاعر ممتاز أو سخي ، وبعضهم يكتفي بالمختصرات المدرسية والمختارات الشائعة المقتضبة فيصدر الأحكام السريعة على الشعراء والأدباء وربما عكف أحدهم على درس شاعر ولم يدرس غيره ، فراح يملأ الأرض تمجيده له ويسرف في إظهار منابها وتفضيله على جميع شعراء العربية حتى يقول أحدهم في وصف بعض الشعراء :

« فهو الشاعر من فرعه إلى قدمه وهو الشاعر في جيده ورديته ، وهو الشاعر فيما يحتفل به وما يليقه على عواهنه » الى أن يقول « فها تحرك حركة الاكلان للعبقريّة فيها أوفى نصيب » (١) وقد كان المرحوم الشيخ محمد شريف سليم شارح ديوان ابن الرومي ، يرى بعد أن درسه دراسة مستفيضة أن ابن الرومي أشعر شعراء العربية . وأكثرتهم تصرفاً بفنون القول وكان الباعث له على ذلك أنه عكف على درسه زمان طويلاً فظهرت له مزاياه الباهرة فحسب أن أحداً من الشعراء مهما سما لن يصل الى مكانة ابن الرومي .

ولهؤلاء الباحثين عذرهم في اصدار هذه الأحكام وان لم ينصفوا الحقيقة ، فان كل شاعر من هؤلاء الفحول يترجم لنا عن حضارة هائلة ويخلق بنا في أجواء ساحرة تنسينا - حين نحلق فيها - كل شاعر سواه ، فالبحتري والمتنبي والمعري وابن الرومي وابن زيدون وابن جديس وأضرابهم يكاد يغنيك واحد منهم ويملاً نفسك جبلاً وروعة اذا اقتصرت على درسه وحده . ولكنك بعد ذلك جدير ألا تحكم بتفضيل أحد هؤلاء على الآخرين والازراء بهم لأنك لم تدرسهم جميعاً دراسة مستفيضة .

وأذكر بهذه المناسبة أنني كنت في مجلس يضم صفوة من رجال الأدب الممتازين كانوا يتناقشون في الأدب فقال أحدهم :

« إن سيد كتاب العربية وإمام البيان العربي هو ابن المقفع » ثم راح يطربه ويخلع عليه كل عبارات الثناء ، فقال له الآخر : « أما أنا فليست من رأيك ، فان أبا الفرج الاصبهاني بنثه المجزؤ قد بز كل كتاب العربية » فقال الثالث : « أين أتم من عبد الحميد الكاتب فهو سيد هؤلاء جميعاً » فانبرى له الرابع قائلاً :

« الحق أن امام البيان العربي هو الجاحظ » ثم سألوني رأيي فقلت : « بل سيد كتاب العربية هم هؤلاء جميعاً وأضرابهم ولكن كل واحد منكم عكف على درس كاتب من هؤلاء فخليل اليه أن أحدا لا يدانيه بلاغة وسحراً » وهذا مثال لا يزال يتكرر ولازلنا نرى في كل يوم باحثاً يأبى إلا أن ينتصر لنا بعة بعينه ويفضله على جميع الناس ، وفي هذا ما فيه من الاسراف والمغالاة وظلم الحقيقة .

وما رأيك في قروي لم يغادر قرية الحقيرة طول عمره ، فاما سافر إلى مدينة كبيرة ورأى ما فيها من قصور نفخة وحدائق غناء ، ظن أن هذه المدينة الكبيرة - التي جمعت ألوان الحضارة والترف وجالبات السرور - هي أجمل مدن العالم ، وليس من الضروري أن يزور الانسان كل المدن الشهيرة ، فله أن يكتفي بواحدة أو أكثر ، ولكن من الضروري لمن يريد المقارنة بينها وبين سائر المدن أن يزورها ويتعرفها جميعاً .

كذلك ليس من الضروري أن تقرأ كل شعراء العالم ، ولكن من الضروري الا تفضل أحداً من الشعراء عليهم جميعاً من غير أن تقرأهم جميعاً .

(١) ارجع إلى كتابي « صور جديدة من الأدب العربي » « ص ٢٢٣ »

ماذا ، بل أنت اذا توخيت الانصاف والدقة والنزاهة عاجز - بعد طول الأناة والدرس - عن البتّ في تفضيل شاعر من الفحول على آخر ، وإن المنصف النزيه ليردّد في أن يحزم بتفضيل قصيدة رائعة على أخرى كما يتردد في تفضيل حسناء بارعة في الجلال على شبيهتها ، ورحم الله الأعرابي الذي طلب اليه أن يفاضل بين نوعين من الحلوى ، فظلم يتذوّق أحدهما تارة ، ويتذوّق الثاني تارة أخرى ثم يعود إلى الأول ويرجع إلى الثاني ثم قال :

« إنني كلما أردت أن أحكم لاحدهما أدلى الآخر بحجته »

وليس في قدرة ناقد غربيّ نزيه أن يسخف شاعرا خلا كشكسبيرو وإن كان في قدرته أن ينتقده ويظهر عيوبه .

أما عندنا فعلى العكس من ذلك ، لا يتحرّج كاتب عن تسخيف شاعر فحل كلمته أبي أو إنكار شاعرية المعري أو تحقير مواهب ابن الرومي أو ابن زيدون أو ابن جديس أو البحتري إلى آخر هؤلاء الفحول .

ثم ماذا ، عندنا من يجروء على إنكار شاعرية عصر بأكمله كمصر ملوك الطوائف (١) الذي يعدّ أزهى عصر أدبي في الأندلس ، بل عندنا منه قسون يجروءون - فيزعمون بلا حيلة أو مبالاة - أن ينكروا الأدب العصري كله في جميع عصوره المختلفة ، وعندنا آخرون ينكرون روعة الأدب العربي في شتى لغاته وعصوره من غير أن يحشمو أنفسهم قراءة شيء من آثار هؤلاء أو أولئك .

وما كنا لنعرض لمناقشة أمثال هؤلاء المتسرعين في الحكم لولا أن عدواهم كادت تسرى إلى كثر شبانتنا وبعض شيوخ الأدب واعلام الفكر عندنا .

وقد ساعدت الخلاصات المدرسية التي كتبها مدرسو الآداب عندنا على إصدار هذه الأحكام السريعة ، فإن أحدهم ليكتب كتابا يعرض فيه لتاريخ أدب اللغة في جميع عصوره ويقتبس من أحكام القدماء ما شاء من غير أن يقرأ ديوان شاعر واحد بأكمله ، ومن غير

(١) ومن هذه الأحكام قول أديب من هذا الطراز العجيب في هجاء هذا العصر الذهبي - عصر ملوك الطوائف - الذي لا يكاد يعرف منه غير اسمه :

« ذلكم عصر الاسترخاء والترف . عصر تزيف فيه الأبصار والبصائر فتكل عما وراء القشور والظواهر تهجم المشاعر في ذلك العصر فتعربد الحواس ، ويموت الحب افطرى فتروح في رفاته ديدان الشهوات . ونهيك بعصر تكون فيه البهائم أصدق حبا من الناس ، لأن البهائم لا تأعب بالحب ولا تبتذله في مثل هاته المصنوع يأخذ اناس من كل شيء ، بأيسره ، ويقنعون من كل مطلب بأقربه إلى الحسن وأصغره . لا يكون الجمال فيها إلا صبغة في البشرة تلحسها الألسنة حتى تزول ثم تنجسها بصافا ، ولا تكون البساتين والأمواه إلا مجالس شراب ومراوخ هواء ، ولا الطبيعة بكائها ورباحيتها وأثمارها إلا طفسة مطرزة بمختلف الألوان والأشكال ، ولا الشعر إلا بهرجا براناً لو صور بشرا سوياً لالت منه السيون ما لا تنال النفوس ، وما الأخلاق والبروءة والشرف إلا آدابا يصطليح عليها المارقون ليدوم لهم صفو المجلس ، ثم ماشاء المعاصر بعد ذلك من غي وشنار ، وما طاب له من عبث واستهتار لا يشينه ذلك ولا يقدح في آدابه . »

ان يدرس عصره ويتقصى أخباره ، وهو لو فعل لما استطاع اصدار فصل واحد من كتابه .
وعندنا أن الخلاصات المدرسية لا يمكن كتابتها الا بعد أن يستوفى الباحثون درس
العصور والشعراء والأدباء وينقطع كل منهم لشاعر بعينه أو كاتب بعينه ، فيدرسه من جميع
واحيه ، فاذا تم ذلك كله أمكن اختصار بحوثهم المستفيضة في صفحات قليلة للناشرين .
وقد تكاثفت فئة من أعلام الباحثين في العصر الحديث - كما قلنا - على درس المتنبي وابن الرزقي
والمعري ، وظفروا بنتائج باهرة أقنعت كثيرا من الشباب النصف بأن عندنا من الشعراء من
نباهي بهم ونفخر مغتبطين ولا نتردد في مقارنتهم بأكبر شعراء الغرب .
وما كان في قدرة انسان أن يفهم جلال شعراء الغرب وكتابه ويقدر مواهبهم الممتازة
وعبقرياتهم الفذة لو لم يعرض النقاد والشراح والباحثون لتجلية كل غامض وتوضيح مناحي
اتجاهاتهم الفكرية ، ولن يقتنع الشباب العربي بأن أدبنا زاخر بالشعراء النحول الذين
لا يتخلفون عن أكبر شعراء الغرب ، الا بعد أن يتصدى أدباؤنا وباحثونا لتحليل آثار القدماء
وتنظيمها وشرح غامضها وإزاحة الستور عن مناحي العبقرية فيها وتقديم ثمار جهودهم الناضجة
للشباب العربي ، وثم يرى شبابتنا أن هذه العقول العربية الكيرة التي استوعبت أرقى
الحضارات في أزهي العصور وعبرت عن أخفى الخواج النفسية وأدقّ الاحساسات وأروع
الأفكار وأعمق الآراء ، جديرة بالانصاف والاقبال عليها والتمتع بسحرها الفائق .
وسيرى الشباب - الذي نعلق عليه أكبر الآمال - في ديوان ابن زيدون بحترى المغرب ، إذا
درسه بعناية وأناة ، ولم يكتف بتصفحه والمرور به - على عادته - مروراً سريعاً ، أن ابن زيدون
كان جديراً بما بذلنا من عناء وجهد ، وأنه جدير بمعاودة الكرة لدرسه دراسة مستفيضة
في رسالتنا التي أفردناها لتحليل أدبه وعصره والتنبيه على دقائقه ومزاياه والامام بعصره الزاهي .
وبعض الناس يفضلون البحترى على ابن زيدون ، لأن ابن زيدون كان يحب به ،
وهو رأي مردود عليهم . فان إعجاب ابن زيدون بالبحترى كأعجاب المعري بالمتنبي ، إعجاب عظيم بعظيم ،
ولو تقدّم ابن زيدون زمنه على زمن البحترى لفان البحترى بشعره ، وانخذ منه مثالا ينسج
على منواله وإماما يهتدى به في فنه الرائع .

شاعرية ابن زيدون

« ابن زيدون عبقرى زمانه قصر المحسنون عن إحسانه
أخذ الزوم - في الجزيرة - عنه ومشوا في خياله واقتنانه »
« شوقي »

لكل شاعر من الفحول طابع خاص يمتاز به شعره فإذا امتاز المعرى بالفلسفة في شعره وامتاز المتنبي بالحكمة ، وامتاز ابن الرومي بالغوص على المعاني النادرة ، وامتاز أبو العتاهية بالزهديات ، وأبو نواس بالخرجات ، والبحترى بحسن النظم ، وأبو تمام بالصناعة وابن جديس بالوصف فإى ميزة امتاز بها شعر ابن زيدون ؟

ميزة ابن زيدون التى تكاد تفرد به من شعراء العربية هى الفن . فهو شاعر فنى قبل أن يكون فيلسوفاً أو حكماً أو غوّاصاً على المعاني أو وصافاً .

الفن وحده هو الذى أكسب ابن زيدون زعامة الشعر فى عصره ، وأغرى فحول الشعراء فى زمنه وبعد زمنه بمحاكاةه والانضواء تحت رايته . فهو شاعر الفن الذى أبدع أمير الشعراء فى وصفه حين قال :

« بأنى أنت هيكلا من فنون مركبا »

وإنك لترى صورته الفنية قد وصلت الى الذروة ، وقاما اشترك ابن زيدون مع شاعر آخر من الفحول فى معنى من المعاني إلا بزه ابن زيدون بفنه ، وأعجزه ببيانه الساحر المعب . حتى البحتري الذى كان النقاد يلقبون ابن زيدون به ، كثيراً ما اشترك معه ابن زيدون فى صور شعرية وتفاوتت صور ابن زيدون على صور البحتري .

وانما خصصنا البحتري بالذكر ، لأن البحتري هو المثال الذى اختاره ابن زيدون ونحا نحوه حتى غلب عليه اسم بحتري المغرب .

ومن العجيب أن ابن زيدون قد اشترك مع البحتري فى عدة صور شعرية - كما اشترك مع غيره من الشعراء - فكان ماذا ؟

كانت الصور الكلامية التى يبدعها الشاعران جديدة أن توضع فى أرقى المتاحف حين يشتركان فى غرض واحد ، ولكن الصور التى أبدعها ابن زيدون جديدة بالجائزة الأولى فى أغلب الأحيان .

قال البحتري :

« ولما حضر ناسدة الاذن أخوت	رجال عن الباب الذى أنا داخله
فأفضيت من قرب - إلى ذى مهابة	أقابل بدر التم حين أقابله
كما انتصب الرمح الردينى - ثقفت	أناييبه ، واهترلطن عامله
وكالبدر ، وافيناه ، تم سعوده	وتم سناه واستهلت منازلته
وسلمت ، فاعتاقت جناني هيبة	تنازعنى القول الذى أنا قائله
فلما تأملنا الطلاقة ، وانثنى	إلى يمشر آنستنى مخايله

دنوت فقبلت الندى من يد امرئ كريم يحياه سباط أنامله
صفت - مثل ما نصفو المدام - خلاله
ورقت - كمارق النسيم - شمائله «
وقال ابن زيدون :

« فلما قضينا ما عانا أداؤه وكل بما يرضيك داع فلهحف
قرنا بحمد الله جدك ، إنه لأؤكد ما يحظى إليه ويزلف
وعدنا إلى القصر الذي هو كعبة يغاديه منا ناظر أو مطرف
إذا نحن طالعناه والأفق لا يس عجاجته والأرض بالخيال ترجف
وأينك في أعلى المصلى كأنما تطلع من محراب داود يوسف
ولما حضرنا الاذن والدهر خادم تشير فيمضي ، والقضاء مصرف
وصلنا وقبلنا الندى منك في يد بها يتلف المال الجسيم ويخلف
لقد جدت حتى ما بنفس خصاصة وأمنت حتى ما بقلب تخوف »

فأى الصورتين يفضل القارىء.

الحق ان الانسان ليحار في تفضيل إحدى الصورتين على الأخرى ، فقد كادنا تصلان الى أقصى درجات الكمال . وتجلى إبداع الشاعرين فيهما إلى أقصى حد ، ولكن النصف لا يلبث بعد طول الروية والأناة ، أن يؤثر تلك الصورة الشعرية التي أبدعها ابن زيدون بحترى المغرب على صورة صاحبه بحترى المشرق .

وقد وقم كثير من النقاد المعاصرين في خطأ شنيع حين تسرعوا في الحكم على ابن زيدون بأنه مقلد في أكثر معانيه غير مبتدع ، وحسبوه لذلك فخصاح الفكر لا ينفذ بشعره إلى الاعماق ، وقد عاب بعض المتسرعين في الحكم مثل ذلك على أناتول فرانس ، وعيروه بأنه كاتب أسلوب لا أكثر ، كما عيروه ابن زيدون بذلك ، ونسوا أن الفن - كما يقول أناتول فرانس - ليس في الابداع والاختراع بقدر ما هو في حسن التأليف ودقة الانسجام . وكثيرا ما اتخذ أناتول من الحوادث التافهة وسيلة إلى خلق قصة رائعة . وإنما يمتاز الشاعر على الشاعر - إذا اشتركا في معنى من المعاني - بما يبدعه أحدهما من الألوان وما يوفق اليه من التعبير عن ظلال المعاني ودقاتها .

فإن أتمهات المعاني - كما قلت في كتابي « صور جديدة من الأدب العربي » مشتركة بين الناس - على اختلاف لغاهم وأزمانهم وبيئاتهم وأجناسهم - وانك لو حاولت أن تجد لأكثر المعاني أشباها لما أعياك ذلك . وربما قلت المعنى تحسب أنك انفردت به ثم عثرت على شبيهه - بعد عام أو عامين - في شعر قديم أو حديث عربي أو غربي وقد يما قال عنتره :

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ » وذلك أن النفس الانسانية - على اختلاف نزعاتها وشتى أحاسيسها وشعورها - تكاد لا تختلف في الشعور بأمهات المعاني ، وثمة تتوارد الخواطر . وإنما يمتاز الشاعر على الشاعر بالافتنان في أداء هذه المعاني ، وروعة الأداء وحسن

التعبير عن دقائقها وظلالها والابداع في صوغ الخواج النفسية والصور الشعرية المشرقة بالحياة والقدرة على تهيئة الجو الرائع الذي تخلفه شاعريته وعرض معانيه في أبهى صورها وأجل حلها . ولنضرب للقارئ مثلاً واحداً من أمثلة عدّة لا يتسع لها المقام :

لعلّ كثيراً من الناس يدركون من أمثلة الحياة ونظمها أن ما يضرّ واحداً قد ينفع الآخر . هذا معنى شائع يسور لكل متأمل وليس للسرقة مجال فيه . وقد افطن كثير من الشعراء في صوغه فظهرت في ذلك ميزاتهم ومواهبهم وتجلت قدرتهم على الخلق والابداع . وقد صاغه المتنبي في أبسط صورته فقال . « مصائب قوم عند قوم فوائد .

وتناوله ابن الرومي من قبله فجلاه في صورة أخرى وهي قوله :

« فاشقني انما هجاؤك عندي ضحكات تزيد في السراء

ومحال أن يسعد السعداء الدهر الا بشقوة الأشقياء . »

فلما طرقه المعري جلاه في أبدع صورته وأجلها فقال :

« وسخط الأطباء بما نالها تولد منه رضى الحابل . »

فمثل لنا - من ذلك المعنى الشائع المطروق - صورة رائعة دقيقة مشرقة بالحياة وأظهر لنا - بريشة المصور الفطن - ظبية يوقعها القدر وسوء الحظ ونكد الطالع في حباله النانص فتدرك أن حينها قد اقترب وأن هلاكها وشيك ، وصياداً يراها - في هذه الحال من الألم والسخط - فيرى فرصة ثمينة نادرة بات يحلم بها طويلاً .

ولقد أحسن الجرجاني حين قال في ضمن فصل طويل نجب أن يرجع القارئ اليه في كتابه : « وقد يتفاضل مدعو هذه المعاني - بحسب مراتبهم - فنشترك الجاعة في الشيء المتداول وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب أو ترتب يستحسن أو تأسيد يوضع موضعه أو زيادة اهتدى إليها - دون غيره - فيريك المبتذل في صورة المبتدع والمخترع . »

وقد ضرب الجرجاني لذلك أمثلة كثيرة ثم قال :

« ولم يبق عليك الا أن تحترس من التقریط - كما احترست من الإفراط - فلا تكن كمن يرى السرقة لا تتم الا باجتماع اللفظ والمعنى ونقل البيت جملة والمصراع تاماً ، بل لا يعرف إلا من يفعل فعل عبد الله بن الزبير بأبيات معن بن أوس . »

إلى أن قال بعد كلام طويل :

« والسرق - أيدك الله - داء قديم وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه .

ومن أجل ما أورده في ذلك الفصل قوله :

« ومتى انصفت علمت أن أهل عصرنا - ثم العصر الذي بعدنا - أقرب فيه الى المعذرة وأبعد من المذمة ، لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق إليها وأتى على معظمها ، وانما يحصل

على بقايا إما أن تكون تركت رغبة عنها واستهان بها أو لبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذر الوصول إليها .

ومتى أجهد أحدا نفسا وأعمل فكره وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى - يظنه غريبا مبتدعا ونظم بيت يحسبه فردا مخترعا ، ثم تصفح عنه الدواوين - ثم لم يحظ أن يجده بعينه أو يجد له مثالا يفيض من حسنه .

ولهذا السبب أحظر على نفسي ولا أرى لغيري بت الحكم على شاعر بالسرقة . وقد أحسن أحمد بن أبي طاهر في محاجة البحتري لما ادعى السرقة في قوله : -

« والشعر طرريق أنت راكبه فنه منشعب أو غير منشعب

وربما ضم بين الركب منهجه وألصق الطنب العالي على الطنب »

فإذا شئت أن تمثل لك من شعر ابن زيدون بما يؤيد هذا الرأي، عرضنا لك نخبة موجزة من أقوال رجال البيان في بعض المعاني التي طرقها ابن زيدون . قال معاوية: « السرو التغافل » وقال المتنبي : « ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي » وقال زهير :

« ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرّس بأنياب ويوظأ بمنهم »

وقال بشار :

« إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأيّ الناس تصفو مشاء

فعض واحدا، أوصل أخاك، فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه »

وقال أحد الشعراء :

« ومن يتبع جاهدا كل عشرة يجدها ، ولا يسلم له الدهر صاحب »

وقال آخر :

« اقبل معاذير من يأتبك معتذرا ان برّ عندك فيما قال أو جفرا

فقد أجلك من أرضاك ظاهره وقد أطاعك من بعصيك مستترا »

الى آخر ما قالوه في هذا المعنى وهو كثير نخبزى منه بما ذكرنا ، فهل ترى في كل ما قالوه أروع من قول ابن زيدون :

« إن السيادة بالاغضاء لابسة بهاءها وجمال الحسن في الخفر »

ألا ترى أن فن ابن زيدون قد غلب فنون هؤلاء الفحول الأفذاذ وتوقوا عليهم في هذه الصورة الرائعة ؟

وانظر الى ذلك البيت الرائع الذي طالما تغنينا به وحسبنا قائله قد تخطى به درجات الكمال والابداع حين قال :

« يزيدك وجهه حسنا اذا مازدته نظرا »

وقد أخذه ابن الرومي فقال في « وحيد » - المغنية :

« ليت شعري ، اذا أعاد الينا كرة الطرف مبدئاً ومعيداً
أهـى شئ لا تسأم العين منه ؟ أم لها كل ساعة تجديد ؟
بل هي العيش لا يزال متى استع رضـ على غرائبها ويفيد »
انظر كيف تلتطف ابن زيدون في نظمه وتحويره اذ في أى صورة مشرقة بالحياة رائعة الحسن
صاغه ذلك الشاعر العبقري فقال :

« حسن أفانين لم تستوف أعيننا غاياته بأفانين من النظر . »
ومن اليسير على كل انسان أن يقرر أن حبيبه قد هجره وأنه لا يزال باقيا على عهده .
ولكنه ليس من اليسير عليه أن يؤدى هذا المعنى كما أداه المجنون يقول :
« وأدنيته حتى اذا ماقتنيتي بقول يحل العصم سهل الأباطح
تنايت عني حين لالى حيلة وغادرت ماغادرت بين الجوانح »
ولا أن يقول مثل قوله أيضا :
« أليس وعدتني ياقلب أنى اذا ما تبث عن ليلي تتوب
فها أنا تائب عن حب ليلي فمالك كلما ذكرت تذوب . »
أويقول كما قال ابن زيدون :

« كان التجارى بمحض الود مذمنا ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا »
فالآن أحمد ما كنا لهـدكمو سلوتم وبقينا نحن عشاقا (١) ؟ »
تلك صور فنية تنخلع دونها الرقاب ولا يحسن أن يقولها إلا شاعر فني موهوب ، ولا تزال
أهميات المعانى كأصول لأنواع لا تكاد تختلف في جملتها وإن اختلفت في دقة تفهاتها وتفصيلاتها ، وإنك
لترى ألف حسناء فترى في وجه كل منهم ملاحظة من الحسن لا توجد في الأخرى ، ولا يزال
الرسام يتفنن في التعبير عن أسرار الوجوه ويبدع ما شاء ابداعه ، ولا يزال اللحن الواحد يؤديه
ألف مغن بارع فتحس نفسك لكل صوت سحرا خاصا يختلف عن الآخر .
وما نريد أن نخصّ ابن زيدون بالابداع في كل معانيه دون سائر الشعراء ، فقد تختلف عنهم
وقصر في بعض قصائده كما يقصر الفحول أحيانا . الشعر كما يقول ابن الرومي كالشجر :
« ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشرك بينه الثمر . »

ولكن الانصاف يقضى عليك - إذا تصدّيت للتفضيل بين الشعراء - أن تقارن بين روائعهم
وبدائعهم ، أما ما يقولونه عفو الخاطر ، أو في ساعات الكلال والضعف ، فلست جديرا أن تحكم به
على شاعريتهم ، فقد تخرج الشجرة الممتازة - إلى ثمارها الشبيهة الغضة - ثمرة جفة فلا ينقص ذلك
من قيمتها ، وما نريد أن نتصر لابن زيدون وأن نمدحه ولكننا نريد أن ننصفه ولا نظلمه .

(١) هأنت ذا ترى صورتين رائعتين لمعنى واحد ، فهل تستطيع أن تفضل إحداها عن الأخرى ؟ ألا ترى
أن كل واحدة من هاتين الصورتين مستقلة عن الأخرى وكل الاستقلال وإن كانا تعبران عن معنى واحد ؟
ألا ترى إلى المصدق الذى يتمثل في كل صورة بينهما ؟ أليست كل واحدة من هاتين الصورتين ملكا
للشاعر لا ينازع فيها الآخر ؟

لماذا سجن ابن زيدون

لأنك تقرأ تاريخ ابن زيدون في أى كتاب من كتب الأدب وتصل إلى هذا الفصل من تاريخ حياته حتى تقرأ هذه الجملة بنصها أو معناها .

« ثم سجنه ابن جهور لسبب وشاية أعداء ابن زيدون به »

ولكن كيف وشى به أعداؤه فأحفظوا عليه قلب ابن جهور وأى وشاية هى؟ ذلك مايقف أمامه مؤرخو الأدب من غير أن يتعرفوا له حلا .

وقد حاول بعضهم أن يعال ذلك بانغماس ابن زيدون فى حب ولادة وقلوا ان ابن عبدوس وأخزابه وشوا به عند ابن جهور فسجنه لأن أبا الحزم بن جهور - فى زعمهم - رجل ورع يؤثر القوى والزهد ولا يقبل أن يرى إلى جانبه خليعا ماجنا كإبن زيدون ، ونسى هذا الفريق من مؤرخى الآداب أن ابن عبدوس نفسه كان منغمسا فى حب ولادة وكان أكثر من ابن زيدون خلاعة ومجوناً إن كان لابد من هذا التعبير الذى ارتضاه مؤرخو الآداب ، فليس من الانصاف أن يطلق اسم الماجن المستهتر على مثل ابن زيدون ، فقد كان اذا قورن بغيره من شعراء عصره وشعراء العصور الأخرى أبعد عن هذه الصفة اننى ألصقها به مؤرخو الآداب ، ولم يكن أبو الحزم بن جهور قائما متبتلا ورعا منقشفا كما حاولوا أن يقنعونا به ، فقد كسر دنان الخمر حين ولّى أمور الناس ، وهذا يدل على حزم وبعد نظر ولا يدل على تقشف وزهد ورع .

وما كان أبو الحزم ليسىء الى وزيره الذى خاض إلى جانبه نار الثورة القرطبية وكان يلهمها ببلاغته ويغذيها ببيانه والذى كان لا يستغنى عنه أبو الحزم بن جهور ، تقول ليس أبو الحزم الذكى الأريب الذى شاد ملكا موطد الأساس بين الزعازع والفتن - من الغفلة بحيث يأبه لأمثال هذه الصغائر ، انما كان يعنى أبا الحزم بن جهور أن يثبت ملكه ولا يعنيه بعد ذلك أن يكون ابن زيدون ملاكا طاهرا أو شيطانا فاجرا .

ولقد سجن ابن زيدون وزير ابن جهور وكان معرضا للقتل وسجن ابن عمار وزير المعتمد وقتل وسجن غيرهما من الأدباء والشعراء الذين استوزرهم ملوك الطوائف ، فاذا شئت أن تبحث عن أسباب سجنهم وقتل أكثرهم ، فلن تجد لذلك الاسباب واحدا وتهمة لايتعداها من شاء أن يدس أو يكيد وهى التهمة التى تعنى ملوك الطوائف وتقض مضاجعهم وتنسيهم كل يد أسلفت إليهم ، هذه التهمة هى التآمر على قلب الملك والطمع فيه .

ولقد كان ابن عمار أخلص صديق للمعتمد وكان المقرّب الأمين عنده وكان أعزّ عليه من نفسه على حد تعبير المعتمد ، ولكنه طمع فى الملك فنسى المعتمد كل شيء الا سجنه وقتله والانتقام منه .

ولم تأخذ المعتضد رجة بأحد أولاده حين عرف أنه يطمع فى ملكه ، فقتله حنقا عليه .

ولقد كان ابن زيدون شاباً في مقتبل عمره وكان قريب عهد بالثورة التي دعا إليها آل جهور
وكان أقرب شيء إلى هذه النفس الشابة الفتية المتوقدة عزماً وهمة ، والتي ظفرت بالوزارة
في مستهل حياتها السياسية أن تطمح إلى ما هو أبعد من الوزارة .

وقد كان ابن زيدون كثير السفارات وكان موقفاً محبوباً من ملوك الطوائف ذائع الشهرة
في عصره ، وكان قوياً شديد النكابة والسخرية بخصومه ، ولم يكن لهم طريق يسلكونها
للاتقام منه إلا الكيد له - على أسلوب ذلك العصر - عند ابن جهور بأنه غير مخلص
لعهده ولا أمين لأمره .

وما نرى ابن زيدون من تهمة التآمر فإنه هو نفسه لم يتصل منها اتصالاً واضحاً صريحاً ،
بل نحن لانرى في تصديقها حرجاً فقد كانت الظواهر كلها تؤيدها ولا تنفيها .

ولقد فرّ ابن زيدون من سجن أبي الحزم ثم عاد بعد وفاته إلى ابنه أبي الوليد وبذل له
النصيحة كما بذل لأبيه ، وظفر عنده بأعلى مكانة ، ولكن تهمة ذلك العصر فرت به من جديد
وكاد - لولا فراره - يسجن من جديد ويقضى بقية عمره في السجن .

وقد اتصل بالمعتضد وحاول خصومه أن يدسوا له فلم يفلحوا ، ومات المعتضد أعادوا
الكرة وأرادوا أن يغيروا عليه قلب المعتمد فأخفقوا ، وقرعهم المعتمد أشدّ قرع وما زال
ابن زيدون الوفي الأمين المخلص للمعتمد حتى قربت منيته وقرب نجاح أعدائه في تغيير قلب
المعتمد عليه ، ولو طال عمره قليلاً لأصابه من نكال المعتمد وانتقامه ما أصابه من أبي الحزم
وما كاد يصيبه من أبي الوليد بن جهور . ولكن المنية أنقذته من شرورهم وأحقادهم كما أسلفنا .
على أن سجن ابن زيدون قد ترك في نفسه الفتية الوثابة أثراً لا يوصف . وألمه الحكمة
والأناة والصبر وعلمه مداراة الناس ومجاملته الخصوم ، وأقنعه بأن معاداة الرجال غير مأمونة
العواقب وأن السهام « قلما اعتورت غرضاً إلا كفته حتى يهي ما شدت من قوته » فلم يدخر
جهداً فيما بعد في اكتساب رضى العامة والخاصة حتى أحبوه - الا القليل ممن دفعهم الحسد
والغيرة وهؤلاء لاحيلة لأحد في اكتساب رضاهم وسل سخائمهم واحقادهم - وقد مات فبكاه
أهل أشبيلية وجزعت لفقده جبهة معاصريه . ولا تزال أشعاره ورسائله التي نظمها في سجنه
آيات فذة من البيان العالي والشعر المعجن ولا زال قوله :

« لا يهني الشامت المرتاح خاطره أنى معنى الأمانى ضائع الخطر
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر »

وقوله :

« ولا يغبط الأعداء كوني في السجن فاني رأيت الشمس تحصن بالدجن
وما كنت الا الصارم العضب في جفن أو الليث في غاب أو الصقر في وكن
أو العلق يخفي في الصوار ويجأ »

إلى آخر هذه القصائد الفذة التي كتب لها الخلود . مثالا عالياً للشعر الرائع والبيان الساحر

حساد ابن زيدون

كان من الطبيعي أن يلتقي أديب مثقف وشاعر مجيد وسياسي مدرب كابن زيدون - ووصل في مستقبل شبابه الى أرقى الدرجات - كثيرا من المنافسين والحساد ينقمون على أدبه وتفوقه ويغارون من تقربه الى المملوك الذين أکبروا فضله وأدبه فقرّبوه منهم وحاطوه برعايتهم ، وقد لقي ابن زيدون في قرطبة جماعة من المنافسين وعلى رأسهم الوزير الأديب أبو عامر بن عبدوس ، فكادوا له حتى أحفظوا عليه أبا الحزم جهور فسجنه كما أشرنا الى ذلك في فصل سابق . ثم فرّ من السجن وعاد فأنصل بأبي الوليد بن أبي الحزم ، فلم ينقطع كيد المنافسين حتى غيروا عليه قلب الابن كما غيروا عليه قلب أبيه من قبل ، ففرّ ابن زيدون خوفا من السجن ومازال يتنقل بين مملوك الطوائف حتى استقرّ به النوى في اشبيلية فلقى من كيد الحساد وعتهم مثل مالح في قرطبة ، ولكن مدائح الخالدة التي مدح بها المعتضد والتي تعدّ من مفاخر الشعر العربي وروائعه ، وحسن سياسة ابن زيدون و بعد انظر المعتضد تغلبت على كيد المنافسين وأرغمت أنوفهم وأحلت في المكان الأوّل كما يقول من قصيدة رائعة :

« وأرغم في برى أنوف عصابة لقاءهم جهم وأعينهم شزر »

« اذا ما انثنى في الدست عاقد حبوة وقام سباطا حقله فلى الصدر »

فلما مات المعتضد أعادوا الكرة وجعوا جوعهم للكيد له عند المعتمد ولكن المعتمد

صدّهم أشنع صدّ وقربه اليه ، فلم ينس له ابن زيدون هذه اليد وفي ذلك يقول :

« يطيل العدا في التناجي خفية يقولون لا تستفت قد قضى الأمر »

ثم ما زالوا يكيدون له حتى أقصوه عن قرطبة الى اشبيلية منتهزين فرصة مرضه فسار اليها

مرغما حيث لقي حتفه . وأفلح كيد ابن عمار وأصحابه في التخلص من منافسة ابن زيدون .

ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائده في أبي الحزم وأبي الوليد والمعتضد والمعتمد من الشكوى

الصارخة من كيد الحساد الذين تطوّعوا لا يذائنه وأرهقوه بدسائسهم المتوالية ، والحسد داء قديم

وكم لقي الأدباء والشعراء الممتازون منه ما نقص عليهم حياتهم وأقص مضاجعهم .

وقد لقي المتنبي قبله في مجلس سيف الدولة من حسد أبي فراس وابن خالويه ، ثم لقي عند

كافور الاخشيدي من حسد ابن حنزابه ، ثم لقي في بغداد من حسد الوزير المهلبى الذى

أغرى به الشعراء والأدباء كالحاتمي وابن سكرة وغيرهما ، ما أقلق باله وقاده الى حتفه .

وقد كان يبلغ المتنبي بعد أن ترك سيف الدولة تشنيع حساده به عنده ، فيقول :

« رأيتم لا يصون العرض جاركم ولا يدر على مرعاكم اللب »

جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كل غريب عنكم ضعف . »

الى آخر ما قل .

وكان يبلغ ابن زيدون عن ابن جهور بعد اتصاله بالمعتضد ما يسوءه في نفسه وقربته
بقرطبة فيقول :

« بنى جهور أحرقتم بحفائكم فؤادى فبا بال المدائح تعبق
تعدوني كالغبر الورد إنما تطيب لكم أنفاسه حين يحرق »
وقوله :

« قل للوزير وقد قطعت بمدحه زنا فكان السجن منه ثوابي :
لا تخش في حق بما أمضيته من ذاك في ولا توق عتابي
لم تخط في أمرى الصواب موقفا هذا جزاء الشاعر الكذاب . »
وقوله :

« من مبلغ عنى البلاد اذا نبت أن لست للنفس الألف بباخع
أما الهوان فصنت عنه صفحة أغشى بها حد الزمان الشارع
فليغم الحظ المولى أنه ولّى فلم أتبعه خطوة تابع
ان الغنى هو القناعة لا الذى يشف نطفة ماء وجه القانع »
الى آخر ما قال .

وقد كان لهذه المنافسات أثرها العظيم فى اعادة الشعراء و اظهار أروع ما قالا من الشعر ،
وصدق القائل :

« لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود »
وما كاد المعتضد يتولى الأمر بعد أيّسه المعتضد حتى نشط الدساسون والمفسدون لمحاربة
ابن زيدون فرموا اليه برقعة فيها قصيدة طويلة أوّلها :

« يأيها الملك العلى الأعظم اقطع ويردى كل باغ ينثم
واقسم بسيفك داء كل منافق يبدى الجليل وضد ذلك يكتم »
فكان ردّ المعتضد على ذلك قوله :

« كذبت مناكم صرّحوا أوجبكموا الدين أمتن والسجية أكرم
ختم ورتتم أن أخون ، وربما حاولتم أن يستخف يالم (١) . »

(١) وفيها يقول

« وأردتم تضيق صدر لم يضق والسر في ثمر النور تحطم
وزحفتم - بمعالك - لمجرب مازال يثبت للمحال نيمزم
أنى رجوتم غدر من جريتم منه الوفا . وظلم من لا يظلم
أنا لكم لا البغى يشتر غرسه عندى ولا مبنى الصنيعة يهدم
كفوا . والافارقوا لى بطشه يلقى السفينة بمثالها فيعلم »

وقد عرف ابن زيدون كيف يشكر له هذه اليد في قصيدته الرائعة التي يقول فيها :

« وأرى المساعي كالسيوف تبادرت شأو المضاء ، فنثن ومصمم
ولكم تسامى بالرفيع نصابه خطر ، فناصره الوضع الألام »
وفيها يقول ويبدع :

« قل للبغاة المنبضين قسيهم سترن من تصميه تلك الأسهم
أسررتن ، فرأى نجى عيوبكم شيخان ، مدلول عليها ملهم
وعبأتم - للفسق - ظفر سعاية لم يعدكم أن ردّ وهو مقلّم
ونبذتم التقوى وراء ظهوركم فغدا بغيضكم التقى الأكرم
ما كان حلم « محمد » ليحياله - عن عهده - دغل الضمير مذمم »
وفيها يقول بعد أن أغراه بأعدائه :

« فرق عوت ، فزأرت زارة زاجر راع الكليب بها السبتي الضيعم
يأليت شعري هل يعود سفههم أم قد جاء النبح ذاك المكهم
لى منك - فليذب الحسود تلظيا - لطف المكانة والمحلّ الأكرم
وشفوف حظ ليس يفتأ يجتلى غرض الشباب وكل حظ يهرم . »

الى آخر هذه القصيدة الرائعة :

وقاما تخلو قصيدة من قصائده من مناسبة يخلقها خلقا ، ويتطرق منها الى الشكوى والألم
من حساده ومنافسيه وما لقيه من كيدهم وغنتهم
ومن أروع ما قاله في ذلك ، قوله من قصيدته :

« كان الوشاة وقد منيت بأفكهم أسباط يعقوب وكنت الذيبا »
الى أن قال :

« أنا سيفك الصدى الذى مهما تشأ تعد الصقال اليه والتذريا »
وقوله :

« ايه « أبا الحزم » اهتبل غرة السنة الشكر عليها فصاح
لا طاربنى حظ إلى غاية ان لم أكن منك مريش الجناح
عتباك - بعد العتب - أمنية مالى على الدهر سواها اقتراح
لم يشنى عن أمل ماجرى قد يرقع الخرق وتؤسى الجراح »

وقوله :

« ماجال بعدك لحظى فى سنا القمر إلا ذكرتك ذكر العين بالآثر »
إلى أن قال :

« حسن أفانين لم تستوف أعيننا غالياته بأفانين من النظر . »
إلى أن قال :

« من يسأل الناس عن حالي ، فشاهدها
لم تطو برد شبابي كبرة وأرى
قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كثر
ها انها نوعة في الصدر قدحة
لا يهنئ الشامت المرتاح خاطره
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة ؟
إن طال في السجن إيداعى فلا عجب
وان يثبط - « أبا الحزم » الرضى - قدر
ماللذنوب - التي جاني كبراءها
من لم أزل من تأنيسه على ثقة
إلى أن قال :

« لانه عني فلم أسالك معتمفا
واستوفر الحظ من نصيح وصاغية
هني أسأت فكان العلق سيئة
ان السيادة بالأغضاء لابسة
رد الصبا بعد ايفاء على الكبر
كلاهما العلق لم يوهب ولم يعر
لاعذر منها سوى أنى من البشر
بهاءها وبهاء الحسن في الخفر . »

وقال :

« ولو أننى أستطيع كي أرضى العدا
شريت ببعض الحلم حظا من الجهل . »
إلى أن قال :

« جواد إذا استنّ الجياد الى مدى
ثوى صافنا فى مربوط الهون يشتكى
إلى أن قال :

« أعدك للجلى وآمل أن أرى
بنعماك ، وسوما وما أنا بالفعل . »

ثم قال :

« أن زعم الواشون ما ليس مزعما
وأصدى إلى إسعافك السائغ الجنى
* ولو أننى واقعت عمدا خطيئة
فلم أسترحب « الفجار » ولم أطع
وانظر إلى قوله :

« فديتك كم ألقى الفواغر من عدا
عفا عنهم قدرى الرفيع فأهجرأ
قراهم - لنيران الفساد - ثقاب
وبانيهم خلقى الجيل فعاثوا »

وقد تسمع الليث الجحاش نهيقها
إذا راق حسن الروض أو فاح طيبه
إلى أن قال :

« فأنت الحسام العضب أصدى ممتنه
وما السيف مما يستبان مضاًؤه
وقوله :

« لا تستجز وضع قدرى بعد رفعك
إلى أن قال :

« ظن العدا إذ أغبت - أنها انقطعت
لأبأس بالأمر - ان ساءت مبادئه
إلى أن قال :

« كم غرة لى تلقى شهاب الموقد الشمع
إذا تأملت حبي عتب غشهم
لكم العرازين لم يصلح لها شمع
أودعت نعامك منهم شرمفترس
لازال جدك بالاعداء يصرعهم
كما تلقى شهاب الموقد الشمع
لم يخف من فلق الاصباح منصع
فكان أهون مانيت به الجدع
لن يكرم الغرس حتى تكرم البقع
ان كان بين جدود الناس مصطرع

ومأرور قوله معتذرا عن هجره ابن جهور : « وهو يرى ويسمع أن بالحضرة قوما لا يحصرهم
العداء تحتل سقظاتهم وتغفر هفواتهم وتقال عثراتهم وما أعلم أنهم يدلون بوسيلة الا شاركتهم
فيها ولا يعمون بذريعة ينفردون دوني بها » الخ .

وقوله :

« أرى نبوة لم أدر سرّ اعتراضها
جفاء هو الليل ادلم ظلامه
هب العزل أضحى للولاية غاية
فقيم أرى ردّ السلام إشارة
أناس هم أخشى للذعة مقولى
وقوله :

« ألا هل أتى الفتيان أن فتاهم
وأن الجواد الفائن الشاؤ صافن
وأن الحسام العضب ثاو بجفنه
فريسة من يعدو ونهزة من يسطو
تخونه شكل وأزرى به ربط
وماذم من غريبه قد ولا قط »

وقوله :

« مئون من الأيام خمس قطعها أسيرا ، وإن لم يبد شدة ولا قط . »

وقال :

« وما زال يدنيني ، ويثني قبوله هوى سرف منه وصاغية فرط . »

وقال :

« عدا سمعه عني فأصغى الى عدا لهم في أديمي كلما استمكنوا عط

بلغت المني إذ قصروا قلوبهم مكان من أحقاد أسودها رقط . »

وقوله :

« ومثلي قد تهفوبه نشوة الصبا ومثلك قد يعفو ، ومالك من مثل

واني لتنهاني نهائى عن التي أشاد بها الواشي ويعقلني عقلى . »

الى أن قال :

« وما كنت بالمهدى الى السودد الخنا ولا بالمسيء القول فى الحسن الفعل . »

الى أن قال :

« هي النعل زلت بي ، فهل أنت مكذب لقليل الأعادى انها زلة الحسل . »

الى أن قال :

« ألا إن ظنى - بين فعليك - واقف وقوف الهوى بين القطيعة والوصل . »

الى أن قال :

« وأين جواب عنك ترضى به العلا اذا سألتنى بعد السنة الحفل . »

إلى آخر ما أبدعته هذه العبقرية الجبارة ، من الافتنان البارع ، فى صورها الشعرية التى لاتسامى

٤ - حب ولادة

تمرّ شتى الحوادث بالإنسان فينساها ولا تكاد تترك في نفسه أثرا يذكر، على أن لبعض الحوادث أثرا لا يمحي، حيث تمرّ الأيام والشهور والسنون وهو باق في ذهنه يؤثر فيه أعمق الأثر، ويطبع نفسه بطابع خاص، ومن الحوادث التي أثرت في نفس ابن زيدون وشعره ونثره أكبر الأثر، حادثان : حب ولادة . وحبسه زهاء عامين

فأما حب ولادة فقد ألهم نفسه إلهاباً وأكسبها شاعرية خصبة ففاضت بأعذب الشعر وأبدعت في صروب الغزل ما شاء لها أن تبذل، وأخرجت لنا أروع قصائده الغزلية، وألهمته أسمى ألوان الخيال العالي والغزل الرقيق . كقوله :

« ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك »

وقوله :

« أما منى نفسي ، فأنت جميعها ياليتني أصبحت بعض منك
يدنو بوصلك حين شط مزاره وهم أ كاد به أقبل فاك »

وقوله :

« كان التجارى بمحض الودّ مذمّن ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا
فالآن أحسد ما كنا اعهدكم سلوتم وبقينا نحن عشاقا »
وقوله في نفس القصيدة :

« لا سكن الله قلبا عن ذكركم فلم يطربجناح الشوق خفاقا »

وقوله من قصيدة أخرى :

« ياليل طل ، لأشتهى إلا بوصل قصرك »
« لو كان عندي قرى مابت أرعى قرك »

وقوله :

« بينى وبينك ما لو شئت لم يضع سر اذا ذاغت الأسرار لم يذع »

وقوله :

« بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت ما قينا »
إلى أن يقول :

« ماحقنا أن تقرّوا عين ذى حسد بنا ولا أن تسروا كاشحا فينا »
« غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينا »
« فأنحل ما كان معقودا بأنفسنا وأنبت ما كان موصولا بأيدينا »

وقوله :

« لاستجدن - في عشقي لها - زمنا ينسى سوائف أيامى وأزمانى

حتى تكون لمن أحيت خامسة نسخت - في حبها - كفرا بإيمان «
وقوله :

« إن ساء فعلك بي ، فما ذنبي أنا ؟ حسب المتيم انه قد أحسنا
لم أسأل حتى كان عذرك - في الذي أبديته - أخفى وعذري أينما
واقعد شكوتك - بالضمير - الى الهوى ودعوت - من حق - عليك فأنا
منيت نفسي - من وفائك - ضالة ولقد تغرّ المرء بارقة المنى «
وقوله :

« أغائبة - عني وحاضرة معي أناديك - لما عيل صبري - فاسمعي
أفي الحق أن أشقى بحبك أو أرى حريقا بأنفاسي ، غويقا بأدمعي
ألا عطفة تحيا بها نفس عاشق ؟ جعلت الردي منه بمرأى ومسمع
صليتي - بعض الوصل - حتى تبيني حقيقة حالي ، ثم ماشئت فاصنعي «
وقوله :

« قد كان - في شكوى الصباية - راحة لو أتني أشكو إلى من يرحم «
وقوله :

« لما اتصلت اتصال الحب بالكبد ثم امتزجت امتزاج الروح بالجسد
ساء الوشاة مكاني منك واقعدت - في صدر كل عدوّ - جرة الحسد
فليسخط الناس لأهدد الرضى لهم ولا يضع لك عهد آخر الأبد
لواستطعت - اذا ما كنت غائبة - غصضت طرفي فلم أنظر الى أحد «
وقوله :

« ياليل خبر : اتني التذ عنه خبرك
بالله قل لي : هل وفي ؟ فقال : « لا . بل عذرك »

وقوله :

« لأن فاتني منك حظ النظر لأكتفين بسماع الخبر
وان عرضت غفلة للرقيد ب فسيبي تسليمة تختصر
أحاذر أن تتظني الوشا ة ، وقد يستدام الهوى بالخدر
واصبر مستيقنا انه سيحظى - بنيل المنى - من صبر «

وقوله :

« أشمت بي فيك العدا وبلغت - من ظلمي - المدى
لو كان يملك فدية - من حبك القلب افتدى
كنت الحياة لعاشق - مذ حلت - أيقن بالردي

لم يسئل عنك ولو سلا لعذرته ، فبك اقتدى «
وقوله :

« أبديتلى - من أفانين القلى - عبرا
لم تبقي جارحة بالهجر من جسدى
فليغن كفك انى بعض من ملكت
ولقض ماشئت - من هجرو من صلة -
سقى لعهدك والأيام تقبلنى
إذ الزمان بليغ فى مساء - سدتى
ان كان لى أمل الا رضاك فلا
وقوله :

« انى لأعجب من شوق يطاولنى
كم نظرة لك فى عينى علمت بها
قلب يطيل مقاماتى لطاعتكم -
ماتوبى بنصوح - من محبتكم
وقوله :

« معاهد هو لم تزل فى ظلالها
زمان رياض العيش خضر نواضر
فان بان منى عهدى ، فبلوعة
تذكرت أيامى بها فتبادرت
وصحبة قوم كالمصايح كلهم
الى أن قال :

« محل غنينا بالتصاى خلاله فأسعدنا ، والحادثات نيام
فما لحقت تلك اللى الى ملامة ولا ذم - من ذاك الحبيب - ذمام
وقوله : وهو بطلوس من قصيدة رائعة :

« إن قرت العين بأن أموبا لم آل أن أسترضى الغضوبا
حسبى ان أحرم المغيبا قد ينفع المذنب أن يتوبا «

وقوله :

« لم ينجنى منك ما استشعرت من حذر
ما كان حبك الا فتنة قدرت
وقوله :

« ما الذى ضرك لو سسر بمرآك الحزين

وتلطف لصب حينه فيك يحين «

وقوله :

ماض لوانك لى راحم وعلتى أنت بها عالم
يهنيك ياسولى وياغيى انك مما أشتكى سالم
تضحك فى الحب وأبكى أنا الله - فيما بيننا - حاكم
أقول لما طار عنى الكرى قول معنى قلبه هائم
يانأما أيقظنى حبسه هب لى رقدا أيها النائم «

وقوله :

« هلا جعلت - فدنك نفسى غاية
لا تفسدن ما قد تأكد بيننا
حاشاك من تضييع ألف وسيلة
ان أجنه خطأ فقد عاقبتنى

وقوله :

« علام اطببتك دواعى القلى ؟ وفيم ثنتك نواهى العذل ؟
ألم ألزم الصبر كما أخف ؟ ألم أكرر الهجر كى لأمل ؟
ألم أرض منك بغير الرضى وأبدى السرور بما لم أنل ؟
ألم اغتفر موبقات الذنوب بعمدا أتيت بها أم زلل ؟
وماساء ظنى فى أن يسىء بى الفعل حسنك حتى فعل
على حين أصبحت حسب الضمير ولم تبغ منك الأمانى بدل
وصانك منى وفى أبى لعلق العلاقة أن يتبدل «

وقوله :

« عليك السلام سلام الوداع وداع هوى مات قبل الأجل
وما باختيار تسليت عنك ولكنتى مكره لا بطل
ولم يدر قلبى كيف النزوع إلى أن رأى سيرة فامثل «

إلى آخر هذه القصيدة التى تخلق بك فى جور العباس بن الأحنف ، حتى ليخيل إليك أنها
من شعره قد ألحقها بديوانه الحافل بهذه الروح الحائرة القلقة .

« يامن غدوت به فى الناس مشتهرا قلبى عليك يقاسى الهمم والفكرا
إن غبت لم ألق إنسانا يؤنسنى وإن حضرت فكل الناس قد حضرا «

وانظر إلى قوله وقد حاجته الذكري الى قرطبة :

« سقى الله أطلال الأحبة بالحي وحاك عليها ثوب وثنى منعمنا
وأطلع فيها للأزاهير أنجما فكم رفلت فيها الخرائد كلدوى
إذ العيش غرض والزمان غلام »

وما أروع قوله فى تلك الموشحة الساحرة :

« أهيم بجبار يعز وأخضع شذا المسك من أردانه يتضوع
إذا جئت أشكوه الجوى ليس يسمع فما أنا فى شئ من الوصل أطمع
ولا أن يزور المقلتين منام »

الى أن يقول :

« فقل لزمان قد تولى نعيمه ورثت - على مر الليالى - رسومه
وكم رقى فيه - بالعنى - نسيمه ، ولاحت - لسارى الليل فيه نجومه
عليك من الصب المشوق سلام »

وقوله فى ذكرى قرطبة وولادة ومجالس أنسه :

« أقرطبة الغراء ، هل فىك مطمع وهل كبد حرى لينك تنقع
وهل للياليك الجمدة مرجع إذ الحسن مرأى فىك واللهم مسمع
واذ كنف الدنيا لديك موطأ »

« أليس عجيباً أن تشط النوى بك فأحيا كأن لم أنس نفع جنابك
ولم يلتئم شعبي خلال شعابك ولم يك خالق بدوؤه من ترابك
ولم يكتفنى - من نواحيك - منشأ »

الى أن يقول :

« معاهد أبكىها لعهد تصرما أغض من الورد الجنى وأنعمنا
لبسنا الصبا فيها حبرا منعمنا وقدنا إلى اللذات جيشا عرمرما
له الأمن رده والعداوة مزبأ »

رقوله :

« الإخواننا للواردين مصادر ولا أول إلا سيتلوه آخر
وإنى لاعتاب الزمان لناظر فقد يستقيل الجد ، والجد عائر
وتحمد عقبى الأمر ما زال يشأ »

وما أبدع قوله :

« وان بلادا هنت فيها لأهون ومن رام مثلى بالدنية أدنا . »

الى آخر هذه القصائد الفذة التى يفخر بها الأدب العربى والبيان العربى . والتى كان
الباعث الأول على نظمها العجيب وصوغها المهجز هو حب ولادة .

٥ - أدب ابن زيدون

قلما يظفر الإنسان بأديب عربي يحمل لواء الزعامتين في النظم والنثر، فإن أغلب ما نشاهده أن يبدع الأديب في أحد النوعين إبداعاً يغطي على إبداعه في الآخر، أما ابن زيدون فأنك تقرأ نثره فلا تكاد تصدق أن شعره يتساقى إلى مثل هذه المرتبة العالية، فإذا عدت إلى شعره أنسك إبداعه روعة ما قرأت من نثره، وهكذا لا تكاد تقرأ قطعة مختارة من شعره أو نثره حتى تملأ نفسك بهجة وسرورا ويفسك سحرها كل شيء آخر. وليس من الانصاف أن نقول إنه شاعر ممتاز حسب أوناثر ممتاز فقط، وما أجدرنا أن ننصفه فنقول إنه زعيم من زعماء البيان العربي.

لقد قضى ابن زيدون حياته بين الدرس والتحصيل والتجارب والاختبار والاتصال بكبار ساسة عصره ودهاتهم، وصهر قلبه حب ولادة كما أسلفنا، وحنينه إلى وطنه، وأثر في نفسه الشاعرة الحساسة ما امتازت به الأندلس من جمال التربة وصفاء الجو، ولقي من السعادة والتمتع بالحسن أشهى وأعذب ما لقي محب، ثم لقي من لوعة الصدا والهجران أشقى وأمرأ ما لقي إنسان:

« حسن أفانين لم تستوف أعيننا غاياته بأفانين من النظر »

ولقد نعم بصولجان السلطة والقوة حيناً من الدهر ثم شق بالسجن بين الأشرار والمجرمين زمناً غير قليل، ولقي من كيد المنافسين والحساد كما أسلفنا ما لم يلقه أحد، فلا غرو أن تتضافر كل هذه العوامل القوية على خلق الشاعر العظيم. وأنت إذا درست أدب ابن زيدون دراسة مستفيضة رأيت خليقاً بأن يقول كما قال فيلسوف المغرب:

« مامر في هذه الدنيا بنو زمن إلا وعندي من أخبارهم طرف »

ولقد ترى في أدبه أمثلة من ثقافة المعري وسعة اطلاعه وتمكنه من اللغة، ومحاظته على أساليبها، كما ترى فيه أمثلة من صناعة أبي تمام ونظم البحتري واسترسال ابن الرومي وقوة أداء المتنبي

وإنك لتقرأ أكثر غزله فيخيل اليك لسهولة أنك تخلق في أجواء العباس بن الأحنف والشريف الرضي والمجنون، ثم تقرأ اخوانياته فيخيل اليك لاسترساله وافتتانه في ضروب القول، أنك تقرأ ابن الرومي وهو يخاطب أبا القاسم التوزي بهمزيته المشهورة، ثم تقرأ رسائله فيخيل إليك أنك تقرأ رسائل الجاحظ في براعة الاستخفاف والتهكم أو رسائل المعري في سعة الاحاطة وكثرة الاستشهاد، والولوع بالأمثال.

وقد كان ابن زيدون زعيم شعراء عصره في الأندلس فلا غرو أن يكون أدبه أصدق مرآة يتجلى فيها أدب هذا العصر الزاهي وثقافته

وقد كان يجمع - إلى حسن رويته - قوة الدلافة وسرعة البديهة ، وقلماً يتفق لأديب عمق التفكير مع دلافة اللسان ، فقد روى صاحب نفع الطيب محدثاً عن دلافة ابن زيدون : أن ابتدأ توفيت ، وبعد الفراغ من دفنها ، وقف للناس عند منصرفهم من الجنازة ليشكر لهم ، فقبل ، إنه ما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها لأحد ، قال الصفدي : « وهذا من التوسع في العبارة والقدرة على التفنن في أساليب الكلام ، وهو أمر صعب إلى الغاية » إلى أن قال - بعد أن قارن بينه وبين واصل بن عطاء في تجنبه الراء ، وأما ابن زيدون فأقول في حقه : « أقل ما كان في تلك الجنازة - وهو وزير - ألف رئيس ممن يتعين له أن يتشكر له ويضطر إلى ذلك فيحتاج في ذلك إلى ألف عبارة مضمونها الشكر وهذا كثير الغاية لاسيما من محزون فقد قطعة من كبده : « ولكنه صوب العقول اذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحائب . » ومهما كان في هذا الخبر من الاسراف ، فان بعضه كاف في الدلالة على فضله . وكان ابن زيدون إلى ذلك إماماً من أئمة عصره حتى قال بعض الأدباء فيه : « من لبس البياض وتحنم بالعقيق وقرأ لأبي عمرو وتفقه للشافعي وروى شعر ابن زيدون ، فقد استكمل الظرف » .

كامل كيلاني



في السجن^(١)

« نظم ابن زيدون هذه القصيدة الفياضة بالألم واللوعة والحزن ،
وهو في السجن ، وبعث بها إلى صديقه الوزير الكاتب
أبي حفص بن برد »

مَا عَلَى ظَنِّي بَأْسٌ^(٢) يَجْرَحُ الدَّهْرُ وَيَأْسُو^(٣)
رُبَّمَا أَشْرَفَ بِالْمَرْءِ عَلَى الْأَمَالِ يَأْسُ
وَلَقَدْ يُنَجِّيكَ إِغْفَاً لَوْ يُزِدُكَ^(٤) احْتِرَاسُ
وَالْمَحَازِيرُ سِهَامٌ وَالْمَقَادِيرُ قِيَاسُ^(٥)
وَلَكُمْ أَجْدَى^(٦) قُعُودٌ وَلَكُمْ أَكْذَى^(٧) التَّمَامُ
وَكَذَا الدَّهْرُ^(٨) - إِذَا مَا عَزَّ نَاسٌ - ذَلَّ نَاسٌ
وَبَنُو الْأَيَّامِ أَخِيَاً فِي سَرَاةٍ وَخِسَاسُ^(٩)

(١) جاء في قلائد العقيان :

« وله عند فقد الوفاء من ألافه ، يخاطب أبا حفص بن برد ، وقد حار ولم يجد هادياً ، وصار رهيناً
لا يرجو فادياً ، وعلم أن الناس منقلبون ، وعلى من اقلب الدهر منقلبون ، لا يدينهم في الشدة إخاء ، ولا
يشنهم عن ذوى الخطوة زهر ولا انتحاء .

ما على ظني بأس يجرح الدهر ويأسو

وقد ذكرت بترتيب يخالف هذا الترتيب الذي نقله عن نسخة الديوان .

(٢) وروى : « ما على ظني بأس » . (٣) يداوى . (٤) وفي رواية : « ويؤذك احتراس »
(٥) جمع قوس : عن يعقوب وأبي عبيد فهو على فعال ، وأصله قواس قلبت الواو ياء لمناسبة الكسرة ،
وشاهده قول القائل :

« ووتر الأساور القياسا صفدية تنزع الأنفاسا »

(٦) أغنى : أو أفاد . (٧) اخفق ولم يفلح - يقول : كثيراً ما يكون القعود عن المطلب سبباً في
الظفر والفوز والسعي سبباً في الاخفاق والحerman ، وقد تهافت الشعراء على هذا المعنى كثيراً ، ومن أحسن
ما جاء فيه قول بن زريق :

والسعي في الرزق والأرزاق قد قست بغي ألا إن بغي المرء يصرعه

(٨) في رواية : « وكذا الحكم » .

(٩) الناس أخيف : أي مختلفون ، شريف وخسيس . قال أحد الأعراب : « الناس أخيف وشقي الشيم »

نَلْبَسُ الدُّنْيَا ، وَلَكِنْ مُتَعَةً ذَاكَ اللَّبَاسُ ^(١)
يَا أَبَا حَفْصٍ وَمَا سَأَ وَكَ فِي فَهَمٍ إِيَّاسُ ^(٢)
مِنْ سَنَاءٍ ^(٣) رَأَيْكَ لِي فِي غَسَقٍ ^(٤) الْخَطْبِ اقْتِبَاسُ
وَوِدَادِي لَكَ نَصٌّ ^(٥) لَمْ يُخَالِفْهُ قِيَاسُ ^(٦)
أَنَا حَيْرَانُ وَإِلَّامِرٍ وَضُوحٍ وَالتَّبَاسُ
مَا تَرَى فِي مَعْشَرٍ حَا لُوا عَنِ الْعَهْدِ وَخَاسُوا ^(٧)
وَرَأَوْنِي سَامِرِيًّا ^(٨) يُتَّقَى مِنْهُ الْمَسَاسُ
أَذُوبٌ هَامَتْ بِلَحْمِي فَأَنْتَهَاشُ ^(٩) وَأَنْتَهَاشُ
كُلُّهُمْ يَسْأَلُ عَنْ حَا لِي وَلِلذُّبِ اعْتِسَاسُ ^(١٠)

- (١) يشير إلى قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .
(٢) هو القاضي إياس بن معاوية بن إياس المزني ولي القضاء في زمن عمر بن عبد العزيز ، وكان يضرب به المثل في الألمعية :
والألمى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا
وإياس هذا هو من عناء الحريرى بقوله في المقامة السابعة « فاذا ألمعنى ألمعية ابن عباس ، وفراسقى فراسة إياس » وعناه أبو تمام في قصيدته السينية بقوله :
أقدام عمر في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
(٣) من ضوء رأيك (٤) ظلمة (٥) النص : السند المقطوع بصحته والتعين على شيء ، وهو في عرف الفقهاء ، مقطوع بصحته فلا يخالفه قياس ، فكأنه يقول : إن وداى مسند إليك ، أو هو موقوف عليك ، أو متعين لك ، وقد استعمل الشاعر لفظي النص والقياس في الشعر ، وهما من مصطلحات الفقهاء على عادته في ذلك ، وهو يشير بذلك إلى اصطلاح الفقهاء إذ يعتبرون النص والقياس من مآخذ الأحكام الشرعية ، والأول صريح لفظ القرآن أو الحديث ، والثاني إلحاق قضية - لا نص فيها - بقضية أخرى منصوصة لاشتراكهما في علة حكم الأولى (٦) وفي رواية : القياس
(٧) خانوا (٨) السامري : عظيم من بنى إسرائيل عبد العجل . قال الكشاف : عوقب في الدنيا بعقوبة لا شيء أظم منها وأوحش ، وذلك أنه منع من مخالطة الناس منعاً كلياً ، وحرم عليهم ملاقاته ومكالمته ومبايعته ومواجهته وكل ما يعايش الناس به بعضهم ، وإذا مس أحداً رجلاً أو امرأة حمّ الناس والممسوس ، فتعاضى الناس وتحمّوه ، وكان يصيح في الناس « لا مساس » .
(٩) الانتهاش بالشين : الأخذ بالأضراس ، وبالسين : الأخذ بعقد الأسنان ، وفي رواية : فانتهاش وانتهاش (١٠) طلب الصيد بالليل ، ومعنى الأبيات أن أعداءه كالذئب لا ينون عن تهش لحمه ، متظاهرين بالتودد له والاشفاق عليه ، فهم يسألون عن حاله متجسسين ، كما يتجسس الذئب ليتعرف مواطن فريسته .

إِنْ قَسَا الدَّهْرُ فَلَمَّا مِنْ الصَّخْرِ أَنْجَسَ (١)
وَلَنْ أَمْسَيْتُ مَحْبُوسًا فَلَلْنَيْتُ اخْتِبَاسُ
يَلْبُدُ (٢) الْوَرْدُ السَّبْنَى وَلَهُ بَعْدُ أَفْتِرَاسُ

فَتَأْمَلُ كَيْفَ يَغْشَى مُقَلَّةَ الْمَجْدِ النَّعَاسُ
وَيَقْتُ الْمِسْكَ فِي التُّرْبِ بِ فَيُوطَا وَيُدَاسُ

لَا يَكُنْ عَهْدُكَ وَرَدًا إِنَّ عَهْدِي لَكَ آسُ (٣)
وَأَدِرْ ذِكْرِي كَأَمَّا مَا أَمْتَطْتَ كَفْكَ كَاسُ
وَأَغْتَمِمْ صَفْوَ اللَّيَالِي إِنَّمَا الْعَيْشُ اخْتِلَاسُ
وَعَمَى أَنْ يَسْمَحَ الدَّهْرُ رُ فَقَدْ طَالَ الشَّمَّاسُ (٤)

(١) أى تشقق ينبع منه الماء ، وفى القرآن الكريم : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء » (٢) يلقى بالأرض ملازماً عرينه لا يبرحه والورد من أسماء الأسد ، والسبني الجري ، ومنه فى صفة أبى لؤلؤة قاتل همر بن الخطاب رضى الله عنه : قول الشاعر :

جزى الله خيراً من إمام وبارك يد الله فى ذاك الأديم الممزق
وما كنت أخشى أن تكون وفاته بكى سبني أزرق العين مطرق

والسبني النمر أيضاً ، وفى الذخيرة لابن بسام قوله : يلبد الورد السبني البيت ، كقول النابغة :

وقلت يا قوم ان اليبث منقبض على برائنه للوثبة الضارى

وأخذه ابن الرومي فقال :

سكنت سكوناً كان وهناً لوثبة عماس كذاك اليبث للوثب يلبد

(٣) يقول : لا يكن عهدك كالورد فى سرعة الذبول ، فان عهدي دائم كالآس ، ويفسر هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

واسكننى شهيت بالورد عهدها وليس بدوم الورد والآس دائم

(٤) وفى رواية ثانية : « وقد طال التماس » ومعنى الرواية الأولى أن عصيان الدهر وتمردة قد طال .

ذكرى أيام الوصال^(١)

« كتب ابن زيدون هذه القصيدة الفذة ، يتحسر فيها على انقضاء أيام الوصال ويشكو فيها ما يحسه من الوجد المبرح والألم القاسى ، وقد بعث بها إلى حبيبته «ولادة بنت المستكفي» أديبة الأندلس الفذة ، يستعطفها ويتلهف على أيام الوصال السابقة »

أَضْحَى الثَّانِي بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا	وَنَلَبَّ ^(٢) عَنْ طَيْبٍ لَقِينَا نَحْجَافِينَا
أَلَا ^(٣) وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَحَنَا	حِينَ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا
مَنْ مُبْلَغُ الْمُلْسِينَا بِأَنْتِزَاحِهِمْ	حُزْنَا مَعَ الدَّهْرِ لَا يَنْتَلَى وَيُمْلِينَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا	أُنْسًا بِقُرْبِهِمْ قَدْ عَادَ يُنْكِينَا
غَيْظَ الْعِدَامِ تَسَاقِينَا الْهَوَى فَدَعَا	بِأَنَّ نَعَصَّ ^(٤) فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُوداً بِأَنْفُسِنَا	وَأُنْبَتَ مَا كَانَ مَوْصُولاً بِأَيْدِينَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى تَفَرُّقُنَا	فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا

(١) جاء في قلأند العقبان :

« ولم يزل يروم دنو ولادة فيتعذر ، ويباح دمه دونها ويهدر ، لسوء أثره في ملك قرطبة ووالها ، وقباً كان ينسبها إليه ووالها ، أحقدت بنى جهور عليه ، وسددت أَسْنَتَهُمْ إِلَيْهِ ، فلما يئس من لقيائها ، وحجب عنه محياها ، كتب إليها يستديم عهداً ، ويؤكد ودها ، ويعتذر من فراقها بالخطب الذى غشيه ، والامتعان الذى خشيه ، ويعلمها أنه ماسلاً عنها بخمر ، ولا خباً ما بين ضلوعه لها من ملتهب جمر ، وهى قصيدة ضربت فى الابداع بسهم ، وطلعت فى كل خاطر ووهم ، ونزعت منزعاً قصر عنه حبيب وابن الجهم »

وقد عارض هذه القصيدة كثير من الشعراء - من قدماء ومحدثين - وقد أثبتنا شيئاً من ذلك فى غير هذا المكان من الكتاب فليرجع إليه من شاء (٢) رواية الديوان « بأن » .

(٣) لغة فى هلا ، والحين الهلاك ، والمعنى هلا صبحنا الهلاك صبيحة يوم الفراق - كأن الهجر والموت فى نظر الشاعر سيان مادام كلاهما يبعده عن محبه ويهواه بل الموت أروح لأنه فراق اضطرار ، أما الهجر فانه عن اختيار (٤) غصّ بالماء شرق به أو وقف فى حلقه

يَا لَيْتَ شِعْرِي وَلَمْ نُعْتَبِ^(١) أَعَادِيكُمْ هَلْ نَالَ حَظًّا مِنَ الْعُتْبَىٰ أَعَادِينَا
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الْوَفَاءَ لَكُمْ رَأْيَا وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَهُ دِينَا
مَا حَقَّقْنَا أَنْ تُقَرِّوا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ بِنَا وَلَا أَنْ تَسُرُّوا كَاشِحًا فِينَا

كُنَّا نَرَى الْيَأْسَ تُسَلِّدُنَا عَوَارِضُهُ وَقَدْ يَيْسُنَا فَا لِيَأْسٍ يُغْرِينَا^(٢)؟
بِنْتُمْ^(٣) وَبِنَا فَمَا أَتَلَّتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَا قِينَا
نَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضِي عَلَيْنَا الْأَسَى^(٤) لَوْلَا تَأْسِينَا^(٥)
حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدَّتْ سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ يِيضًا لِيَالِينَا
إِذْ جَانِبُ الْعَيْشِ طَلَقَ مِنْ تَأَلُّفِنَا وَمَرَبَعُ^(٦) اللَّهِوِ صَافٍ مِنْ تَصَافِينَا
وَإِذْ هَصَرْنَا^(٧) فَنُونَ^(٨) الْوَصْلِ دَائِيَّةَ قِطَافِهَا فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا
لِيُسْقَ^(٩) عَهْدُكُمْ عَهْدَ السُّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لِأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا
لَا تَحْسَبُوا تَأْيِيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا إِنَّ طَالَمَا غَيَّرَ الثَّانِي الْمُحِيطِنَا

(١) أعتبه أعطاه العتي أي أرضاه ، يقول : إننا لم نرض أعداءكم ، فهل أنتم كذلك لم ترضوا أعداءنا

(٢) كنا نظن أن اليأس يسلي ، فما بال يأسنا منكم يزيدنا ولو طابكم ، وفي هذا المعنى يقول المجنون :

أليس وعدتي يا قلب أي إذا ماتت عن ليلى تتوب

فها أنا تائب عن حب ليلى فالك كلما ذكرت تذوب

(٣) بدتم وبعدنا (٤) الحزن (٥) التعزى

(٦) هصر الفصن : إماتته (٧) ضروبه وأنواعه أو الفنون جمع فنن ، وهو الفصن وما تشعب

منه ، ففي اللسان (قال أبو الهيثم : الفنون تكون في الأخصان ، والأخصان تكون في الشعب ، والشعب

تكون في السوق) فكان الشاعر استعار للوصل أفتانا يهصرها أي يميلها إليه كلما أراد انتطاف زهرها ،

واجتباء ثمرها (٨) أي سقياً لمهدكم عهد السرور أي بإبدال الثاني من الأول لتبيينه وتعريفه

وَاللّٰهُ مَا طَلَبْتُ^(١) أَهْوَاؤَنَا بَدَلًا مِنْكُمْ وَلَا أَنْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

* *

يَلْسَارِي الْبَرْقِ غَادٍ^(٢) الْقَصْرِ وَأَسْقِي بِهِ
وَأَسْأَلُ هُنَالِكَ هَلْ عَنِّي^(٣) تَذَكُّرُنَا
وَيَا نَسِيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحِيَّتَنَا
فَهَلْ أَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينَا مُسَاعَفَةً
مَنْ كَانَ صِرْفَ الْهَوَى وَالْوُدِّ يَسْقِينَا
إِنَّمَا تَذَكُّرُهُ أَمْسِي يُعْزِينَا
مَنْ لَوْ عَلَى الْقُرْبِ حَيًّا كَانَ يُحْيِينَا
مِنْهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَبَا تَقَاضِينَا^(٤)

* *

رَيْبُ مُلْكٍ كَانَ اللَّهُ أَنْشَأَهُ
أَوْ صَاغَهُ وَرِقًا^(٥) مَحْضًا وَتَوَجَّهَهُ
إِذَا تَأَوَّدَ آدَتُهُ رِفَاهِيَّةً
كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِلًّا^(٦) فِي أَكْلَتِهِ^(٧)
كَأَنَّمَا أَثْبَتَتْ فِي صَحْنٍ وَجَنَّتِهِ
زُهرُ الْكَوَاكِبِ تَعْوِيذًا وَتَرْبِينًا^(٨)
مِسْكًا^(٩) وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينًا
مِنْ نَاصِعِ التَّبَرِّ إِبْدَاعًا وَتَحْسِينًا
تَوْمُ الْعُقُودِ وَأَدَمَتُهُ الْبُرَى لِينًا^(١٠)
بَلْ مَا تَجَلَّى لَهَا إِلَّا أَحَايِينَا

(١) وفي رواية : « ما اطرفت » استحدثت ، بدلا طريفا ، يقسم أنه ما استحدثت هوى جديدا بعد

هوى أحبابه ، (٢) باكره بالنعيم أول النهار

(٣) هل شغل من تألفه تذكركنا كما شغلنا تذكرك .

(٤) الغب في الزيارة أن تكون كل أسبوع ، والمقصود هنا القلة . يقول الشاعر :

إننا لم نقاض الوصال من الدهر غبا ، ولكننا تقاضينا بالراح فهل ترى الدهر - بعد هذا -

يسعفنا باللقاء ؟

(٥) ليس هذا المحبوب مخلوقا من طين أو تراب كسائر البشر كلا ، وإنما هو طينة من المسك ولا زال

الشعراء المحبون يتناولون فيمن يحبون إلى الآن ، حتى قال بعضهم أخيراً لمحوبته :

أنت روحانية لا تدعي أن هذا الحسن من طين وماء

(٦) فضة ، يريد أن الله أبدعه ناصع البياض وتوجه بشعر ذهبي (٧) يقول إذا نثى آدته أي

أثقلته وشق حملها عليه (توم) أي لآلى العقود وجرحتة (البرى) أي الخلاخيل ، وذلك لرفاسته

(٨) مرضعة (٩) جمع كلة : وهي ستر رقيق يقي من البعوض

(١٠) يعني أن جماله استعمار زهر الكواكب لتكون زينة له ، وتعويزه من عيون حاسديه.

مَا ضَرَّ أَنْ لَمْ نَكُنْ أَكْفَاءَهُ شَرْفًا وَفِي الْمَوَدَّةِ كَافٍ مِنْ تَكَاثُفِنَا

يَا رَوْضَةً طَالَمَا أُجِنْتُ لَوَاحِظِنَا وَزِدَا جَلَاهُ الصَّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا
وَيَا حَيَاةً تَمَلِّينَا ^(١) بِزَهْرَتَيْهَا مُنَى ضُرُوبًا وَلَدَاتِ أَفَانِينَا
وَيَا نَعِيمًا خَطَرَنَا مِنْ غَضَارَتِهِ ^(٢) فِي وَشْيٍ ^(٣) نَعْمَى سَحَبْنَا ذَيْلَهُ حِينَا
لَسْنَا نُسَمِّيكَ إِجْلَالًا وَتَكْرِمَةً وَقَدْرُكَ الْمُعْتَلِي عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا
إِذَا انْفَرَدْتَ وَمَا شُورِكَتَ فِي صِفَةٍ فَحَسَبْنَا الْوَصْفُ إِضَاحًا وَتَبْيِينَا

يَا جَنَّةَ الْخُلْدِ أَبْدِلْنَا بِسِدْرَتَيْهَا وَالْكَوْثَرَ الْعَذْبَ زُقُومًا وَغَسَلِينَا
كَأَنَّكَ لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ ^(٤) مِنْ أَجْفَانِ وَأَشِينَا
سِرَانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلَمَاءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يَكَادَ لِسَانُ الصُّبْحِ يُفْشِينَا ^(٥)
لَا غَرَوْ فِي أَنْ ذَكَرْنَا الْحُزْنَ حِينَ نَهَتْ عَنْهُ النَّهْيَ وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا
إِنَّا قَرَأْنَا الْأَسَى يَوْمَ النَّوَى سُورًا مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا

(١) تَمَلَّيْنَا وَتَمَلَّيْنَا

(٢) نَضْرَتُهُ وَخَفَضَهُ (٣) فِي نَعْمَى كَالثُوبِ الضَّافِي ذِي الْوَشْيِ أَيْ النَفْسِ .

(٤) أَنَامَهُ عَنَّا فَلَمْ يَشْ بِنَا

(٥) قَالَ ابْنُ بَسَامٍ : وَهُوَ مَعْنَى مَشْهُورٌ وَهُوَ فِي الشَّعْرِ كَثِيرٌ ، قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَنْثَى وَيَبَاضُ الصُّبْحُ يَغْرِي بِي

هَلَى أَنْ أَبَا الطَّيِّبِ أَجَادَ وَكَرَّرَهُ فِي مَوَاضِعَ مِنْ شَعْرِهِ كَقَوْلِهِ :

لَا تَلْقَى إِلَّا بَلِيلَ مَنْ تَوَاصَلَهُ فَالْشَّمْسُ نَمَامَةٌ وَاللَّيْلُ قَوَاد

وَكُلٌّ مِنْ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ ، فَيُقَالُ لِلْمَثَلِ دَارٌ ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ : « اللَّيْلُ أَخِي لِلْوَيْلِ »

قَوْلٌ : وَلَمْ تَرَفِ فِي هَذِهِ الْمَعْنَى الَّتِي ذَكَرَهَا ابْنُ بَسَامٍ أَدَقُّ وَأَطْرَفُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ زَيْدُونَ :

« سِرَانٍ فِي خَاطِرِ الظُّلَمَاءِ » الْخ

أَمَّا هَوَاكَ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ
لَمْ نَجْفُ أَفَقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوْكَبُهُ
وَلَا اخْتِيَارًا تَجَبَّنَاهُ عَنْ كَثَبِ
نَاسِي عَلَيْكَ إِذَا حُشَّتْ مُشْعَشَعَةً^(١)
لَا أَكُوْسُ الرِّاحِ تُبْدِي مِنْ شَمَائِلِنَا
دُوبِي عَلَى الْعَهْدِ - مَا دُمْنَا - مُحَافِظَةً
فَمَا اسْتَعَضْنَا خَلِيلًا مِنْكَ يَحْبِسُنَا
وَلَوْ صَبَا^(٢) نَحْوَنَا مِنْ غُلُومِ مَطْلَعِهِ
أَبْهَكِي وَفَاءً - وَإِنْ لَمْ تَبْذُلِي صَلَاةَ -
وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ
عَلَيْكَ مِنَّا سَلَامٌ اللَّهُ مَا بَقِيَتْ

شُرْبًا وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِنَا^(٣)
سَالِينَ عَنْهُ وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا
لَكِنْ عَدَّتْنَا - عَلَى كُرْهِ - عَوَادِينَا^(٤)
فِينَا الشُّمُولُ وَغَنَانَا مُغْنِينَا
سِيمَا أَرْتِيَا حِ وَلَا الْأَوْتَارُ تُلْهِينَا
فَالْحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافًا كَمَا دِينَا^(٥)
وَلَا اسْتَفَدْنَا حَبِيبًا عَنْكَ يُقْنِينَا
بَذَرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكَ يُضْبِغِينَا
فَالطَّيْفُ يُقْنِعُنَا وَالَّذِ كُرُّ يَكْفِينَا
يِيضُ الْأَيْدَى الَّتِي مَا زِلْتَ تُؤَلِّينَا
صَبَابَةً بِكَ نُخْفِيهَا^(٦) فَتَخْفِينَا

(١) قال ابن بسام : « وهذا معنى متداول من أشهره قول الفائل :

ربى إذا ما ازددت من شربه ربا ثناك الرى ظمنا
كالحر - أروى ما يكون الفقى من شربها - أعطش ما كانا

ولابن الرومى فيما يناسبه من بعض الوجوه :

« يارب ربق بات بدر الدجى يعجبـــــــــــــــــه بين ثناياك
يروى ولا ينهاك عن شربه والماء يرويك وينبك »

(٢) لم نتجنبه عن كتب أى قرب اختياراً ، ولكن صرفتنا على كره منا شواغلنا .

(٣) ممزوجة : أى نحزن لغيابك عن مجلسنا إذا حشت الشمول الممزوجة (٤) دوى عافظة على

المهد مادمننا محافظين فالحر المنصف يحزى كما جوزى

(٥) مال (٦) أخفيت الشيء أخفيه سترته ، وخفيته أخفيه نأتى بمعنى سترته ، وبمعنى أظهرته ،
وعلى ذلك فقله « نخفيا » أى نسترها « فنخفينا » بفتح أوله أى تظهرنا ، وشاهد خفاءه نخفيه بمعنى
أظهره . قوله :

فان تكتنوا السر لا نخفه وإن تبعثوا الحرب لا تقعد

وقوله تعالى فى قراءة « أكاد أخفيها » بالفتح أى أظهرها .

في مدح ابن جهور^(١)

مَا لِلْمُدَامِ تُدِيرُهَا عَيْنَاكِ فَيَمِيلُ فِي سُكْرِ الصَّبَا عِطْفَاكِ
هَلَا مَزَجْتَ لِعَاشِقِيكِ سُلَافَهَا يَبْرُودُ ظَلَمُكِ أَوْ يَعَذِبُ لَمَّاكِ^(٢)
بَلْ مَا عَلَيْكِ وَقَدْ مَحَضْتُ^(٣) لَكَ الْهُوَى فِي أَنْ أَفُوزَ بِحُظْوَةِ الْمِسْوَاكِ^(٤)
نَاهِيكِ ظَلَمًا أَنْ أَضْرِبَ الصَّدَى^(٥) بَرْحًا^(٦) وَنَالَ الْبُرْءُ عَوْدُ أَرَاكِ

* *

وَاهَا لِعِطْفَاكِ وَالزَّمَانُ كَأَنَّمَا صُبِغَتْ غَضَارَتُهُ^(٧) يَبْرُدُ صَبَاكِ
وَاللَّيْلُ مَهْمًا طَالَ قَصَرَ طَوْلُهُ هَاتِي وَقَدْ غَفَلَ الرَّقِيبُ وَهَاكِ
وَأَطَا لَمَّا أُعْتَلَّ النَّسِيمُ فَخِلَّتُهُ شَكْوَايَ رَقَّتْ فَاقْتَضَتْ شَكْوَاكِ
إِنْ تَأَلَّفِي سِنَةَ النَّوْمِ خَلِيَّةً فَلَمَّا نَافَرْتِ فِي كَرَاكِ^(٨)
أَوْ تَحْتَبِي بِالْهَجْرِ فِي نَادِي الْقَلَى فَلَكُمْ حَلَلْتُ إِلَى الْوِصَالِ حُبَاكِ^(٩)

* *

أَمَّا مَنَى نَفْسِي فَأَنْتِ جَمِيعُهَا يَا لَيْدَنِي أَصْبَحْتُ بَعْضَ مَنَّاكِ
يَدْنُو بِوَصْلِكَ حِينَ شَطَّ مَزَارُهُ وَهُمْ أَكَادُ بِهِ أَقْبَلُ فَالِكِ

(١) تصدى كثير من الشعراء المعاصرين لمعارضة هذه القصيدة وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في غير هذا المكان من الكتاب فليرجع إليه من شاء .

(٢) الظلم : ماء الأسنان أو بريقها ، واللى : سمرة في الشفة (٣) أخلصت

(٤) يقول : ماضرك - بعد أن أخلصت لك الهوى ، ومحضتك الحب أن أفوز منك بحظ المسواك .

(٥) العطش الشديد (٦) مشقة وشدة (٧) بهجته . يقول الشاعر : ما أحسن عطفك

فيما مضى والزمان كأنما صبغت بهجته بما كسيت أنت به من برد الشباب (٨) يقول أن تعنادي النوم

الآن خالية غير مبالية بي ، فكثيراً ما أسهدك الهوى ، وطابت في نومك (٩) احتجى بالثوب اشتغل

والحجى كهدي جمع حبة مثله الحاء ، فكان الشاعر يقول : إن تجلدى في نادى البغض (القل) محتبة

أو مشتملة بحبوة الهجر ، فكثيراً ما فزعرت إلى الوصال ، وحلت لأجله حبالك .

وَأَنْ تَجَنَّبَ الرَّشَادَ بِفَدْرَةٍ لَمْ يَهْوِ بِي فِي النَّعْيِ غَيْرُ هَوَاكَ (١)

* *

لِلْجَهْوَرِيِّ أَبِي الْوَلِيدِ خَلَّائِقُ كَلَرَوْضِ أَضْحَكُهُ النِّعَامُ الْبَنَّاكِي
مَلِكُ يَسُوسُ الدَّهْرَ مِنْهُ مُهَذَّبُ تَذْيِيرُهُ لِلْمُلُكِ خَيْرُ مَلَاكِي (٢)
جَارِي أَبَاهُ بَعْدَ مَا فَاتَ الْمَدَى فَتْلَاهُ بَيْنَ الْفَوْتِ وَالْإِدْرَاكِ
شَمْسُ النَّهَارِ وَبَذْرُهُ وَنُجُومُهُ أَبْنَاؤُهُ مِنْ فَرْقَدٍ وَسَمَاكِ (٣)
يَسْتَوْضِحُ السَّارُونَ زُهْرَ كَوَاكِبِ مِنْهُمْ تُنِيرُ غِيَابَ الْأَحْلَاكِ (٤)
بُشْرَاكِ يَا دُنْيَا وَبُشْرَانَا مَعًا هَذَا الْوَزِيرُ أَبُو الْوَلِيدِ فَتَاكِ (٥)

* *

تُلْفِي السِّيَادَةَ ثُمَّ إِنْ أَضَلَّتْهَا (٦) وَمَتَى فَقَدْتَ السَّرَّو (٧) فَهَوَ هُنَاكِ
وَإِذَا سَمِعْتَ بِوَاحِدٍ جُمِعَتْ لَهُ فِرْقُ الْمَحَاسِنِ فِي الْأَنَامِ فَذَاكِ
صَمَصَامُ بَادِرَةٍ وَطَوْدُ سَكِينَةٍ وَجَوَادُ غَايَاتٍ وَجَذَلُ حِكَاكِ (٨)

(١) المعنى لئن وقعت في النعي بسبب غدرك بي فاني أنا لم يوقعني في النعي غير هواك .

(٢) ملاك الأمر : بكسر الميم ، أى قوامه الذى يملك به .

(٣) الفرقد والسماك من النجوم النيرة (٤) هم المسترشدين برأيهم إذا دجت الحوادث أمثال

النجوم الزهر للسايرين في ظلمات الليل البهيم (٥) وجاء بعد هذا البيت بحز بيت ناقص هكذا : -

(وصفت جمامك واستلذت جناك)

(٦) ذهبت عنك ونبت ، والخطاب للدنيا في قوله « بشراك يا دنيا » .

(٧) الرودة والشرف والوصف على فعيل يقال سرويسرو فهو سري (٨) البادرة الحدة ، والجذال

أصل شجرة قطع رأسها أو عود ينصب في العطن لتحتك به الابل الجربى يقال هو جذل حكاك ، وهم جذال

حكاك ، ومنه قول الجباب بن المنذر الأصارى يوم سقيفة بنى ساعدة « انا جذيلها المحكاك ، وعذيقها المرجب »

أى إنه يشقى برأيه وعلمه وتجاربه في الأمور كما تشقى الابل الجربى بهذا الجذال ، ومعنى البيت أنه مصمم

كالسيف في الغضب ثابت كالطود في الحلم سباق إلى الغايات مجرب يشقى برأيه صلب لا يلين مكسره .

طَلَّقَ يُفَنِّدُ فِي السَّمَاحِ ، وَجَاهِلٌ مَنْ يَسْتَشْفُ النَّارَ بِالْمُحْرَاكِ (١)

صَنَعَ (٢) الضَّمِيرِ إِذَا أَجَالَ بِمُهْرَقٍ (٣) يُمْنَاهُ فِي مَهَلٍ وَفِي إِشَاكِ (٤)

نَظَمَ الْبَلَاغَةَ فِي خِلَالِ سَطُورِهِ نَظَمَ اللَّالِي الثُّومَ فِي الْأَسْلَاكِ

نَادَى مَسَاعِيَهُ الزَّمَانُ مُنَافِسًا أَحْرَزَتْ كُلَّ فَضِيلَةٍ فَكَفَاكِ

مَا الْوَرْدُ فِي مَجْنَاهُ سَامَرَهُ النَّدَى مُتَحَلِّيًا إِلَّا بِيَعْضِ حُلَاكِ

كَلَّا وَلَا الْمِسْكَ النَّوْمُ (٥) أَرْجِيهِ مُتَعَطِّرًا إِلَّا بِوَسْمِ (٦) ثَنَّاكِ

اللَّهُوُ ذِكْرُكَ لَا غِنَاءَ مُرْجِعِ يَفْتَنُ فِي الْإِطْلَاقِ وَالْإِمْسَاكِ (٧)

طَارَتْ إِلَيْكَ بِأَوْلِيَاكِ هِزَّةٌ تَهْفُو لَهَا أَسْفًا قُلُوبُ عِدَاكِ (٨)

يَأْيُهَا الْقَمَرُ الَّذِي لِسَنَائِهِ (٩) وَسَنَاهُ تَعْنُو السَّبْعُ فِي الْأَفْلَاكِ

فَرَحُ الرِّيَاسَةِ إِذْ مَلَكَتْ عِنَانَهَا فَرَحُ الْعُرُوسِ بِصِحَّةِ الْإِمْلَاكِ (١٠)

(١) الخشبة التي تحرك بها النار ، والمعنى أنه باش الوجه سمح وأن السكرم طبيعة فيه وليس يزيده

تغنيده الجاهلين إلا تماديا في كرمه كلنار يزيدها المحراك اشتعالا

(٢) يقال لسان صنع ، وشاعر صنع ، وبلغ صنع ، إذا كان حاذقا ماهرا ، والمعنى أنه كاتب رائع البيان

بيان رويته ولمسراعه (٣) صحيفة (٤) إسراع

(٥) صيغة مبالغة من نم المسك سطم ، والأريج توهج ربح المسك

(٦) الوسم : العلامة والثناء والمدح - يخاطب على لسان الزمان في هذا البيت والذي قبله مسامي المدوح

مشتبا أن الورد في مجناه ليس متحليا إلا ببعض حلاها ، وأن المسك في سطوع أريجيه لم يكن متعطرا إلا من

انقسامها بالثناء (٧) ما اللهو إلا ذكر تلك المسامي لاغناء مرجع يطلق في الفناء صوته ويمسكه .

(٨) طارت : أسرع ، والخطاب للمسامي ، والهزة تحرك في نشاط وارتياح ، والمعنى أسرع إليك أيتها

المسامي مواكب بالأولياء ، وقد خفقت لها حزنا لئولب الأعداء

(٩) السناء بالمدح الرفعة وبالفقر الضوء (١٠) عقد التماح

مَنْ قَالَ إِنَّكَ لَسْتَ أَوْحَدٌ فِي النَّهْيِ وَالصَّالِحَاتِ فَدَانَ ^(١) بِالْإِشْرَاكِ
قَلَدْنِي الرَّأْيَ الْجَمِيلَ فَإِنَّهُ حَسْبِي لِيَوْمِي زِينَةٌ وَعِرَاكِ
وَإِذَا تَحَدَّثْتَ الْحَوَادِثُ بِالرَّأْيِ شَزْرًا إِلَى فَقُلْ لَهَا إِيَّاكَ ^(٢)
هُوَ فِي ضَمَانِ الْعَزْمِ يَعْبَسُ وَجْهَهُ لِلخُطْبِ وَالْخُلُقِ النَّدَى الضَّحَّاكَ ^(٣)

* *

وَأَحْمَ دَارِي تَضَاعَفَ عِزُّهُ لَمَّا أَهَيْنَ بِمَسْحَقٍ وَمَدَاكَ
وَالدَّجْنُ لِلشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ حَاجِبٌ وَالْجَفْنُ مَثْوَى الصَّارِمِ الْفَتَاكِ
هَنَاتُكَ صَحْتُكَ الَّتِي لَوْ أَنَّهَا شَخْصٌ أَحَاوِرُهُ لَقُلْتُ هَنَّاكَ
دَامَتْ حَيَاتُكَ مَا اسْتُدِّمْتَ فَلَمْ تَزَلْ تَحْيَا بِكَ الْأَخْطَارُ بَعْدَ هَلَاكِ

ذكرى ولادة ^(٤)

وَدَّعَ الصَّبْرَ مُحِبٌّ وَدَّعَكَ ذَائِعٌ مِنْ سِرِّهِ مَا أَسْتَوْدَعَكَ
يَقْرَعُ السَّنَّ عَلَى أَنْ لَمْ يَكُنْ زَادَ فِي تِلْكَ الْخُطَا إِذْ شِيعَاكَ
يَا أَخَا الْبَذْرِ سَنَاءً وَسَنَاءً حَفِظَ اللَّهُ زَمَانًا أَطْلَمَكَ
إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكُمْ بَتُّ أَشْكُو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكَ

(١) أي فذلك الذي قال إنك لست أوجد فيهما قد دان بالشرك

(٢) إذا الحوادث تحدثت بالنظر إلى بمؤخر عينها ، فقل لها حذار (٣) هو أي ذلك الذي تهم الحوادث أن تنظر إليه شزراً في ضمان عزم المدوح العابس في وجه الحوادث وفي ضمان خلقه الندي أي السخي الضاحك عن ثنور الأمانى .

(٤) جاء في فلائذ العقيان :

ولما رحل عنه من كان يهواه ، وفاجأه بينه ونواه ، فسأيره قليلاً وماشاه ، وهو يتوهم ألم الفراق حتى غشاه ، فاستعجل الوداع ، وفي كبده ما فيها من الانصداع ، فأقام يومه بحالة المفجوع ، وبات ليلته نافر الهجوع ، يردد الفكر ، ويحدد الذكر . فقال :

وقد عزا صاحب نفع الطيب هذه الأبيات الأربعة إلى ولادة .

بعد الفرار من السجن^(١)

« بعد أن فرّ ابن زيدون من السجن أرسل يخاطب ولادة
ويستنهض الأديب أبا بكر للشفاعة ويستنزل أبا الحزم ابن جهور
وكان ابن زيدون مخفياً بقرطبة . فقال : وبلغني
أنك أحد الملائمين لي ، ومن أمثالهم : « ويل للشجي من
الخلي » ، وهان على الأملس^(٢) ما لاقى الدبر^(٣) وعلمت أن
العاجز من لا يستبد^(٤) ، فالمرء يهجز لا محالة ، ولم أستجز
أن أكون ثالث الأذلين - العبر والود^(٥) .

وتذكرت أن الفرار من الظلم ، والحرب مما لا يطق من
سفن المرسلين ، وقد قل تعالى على لسان موسى : « ففررت
منكم لما خفتكم »

فنزّلت في مفارقة الوطن ، فقديمًا ضاع الفاضل في
وطنه ، وكسد العلق في معدنه ، كما قال :

أضيع في معشري وكم بلد يكون عود الكباء^(٦) من حطبه
فاستخرت الله في إنفاذ العزم ، وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن
إلا أن النى لم يرتفع ، ومادة البنى لم تنقطع :

شَحَطْنَا وَمَا بِالْدارِ نَأْيٌ وَلَا شَحَطٌ وَشَطَّ بَيْنَ الْمَزَارِ وَمَا شَطُّوا^(٧)

(١) جاء في قلائد العقيان :

وله هند فراره ، وخروجه من مراره ، وقد أقام بقرطبة متواريا يخاطب ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر
للشفاعة ويستنزل أبا الحزم بن جهور

(٢) الصحيح الظهر . (٣) الذي يظهره قرحه ، أي أن السليم الظهر لا يحسن ألم أخيه
للقروح الظهر . (٤) يشير إلى البيتبن المشهورين :

« ليت هنداً أنجزتنا ماتعد وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد »

(٥) يشير إلى قول الفائل :

ولا يقوم على ضيم يراد به إلا الأذلان غير الحمى والود
هذا على الحسف مربوط برمته وذا يشيع فلا يرى له أحد

وابن زيدون يعنى أنه جدير ألا يقيم على الذل ، وأن يتخلص من الضيم بكل ما في وسعه ، ولله درّ الشنفرى
إذ يقول : « ولكن نساحرة لا تقيم بي على الضيم إلا ربها أتحوّل »

(٦) عود البخور أو ضرب منه (٧) شحطت الدار : تشحط بفتح العين شحطاً وشحوطاً وشحطت
تشط بالضم بعدت . يقول : قربت دار من أهوى ، ودنا مزارها . إلا أنه قرب في قايمة البعد لاستحالة اللقاء .

أَحْبَابَنَا أَلُوتٌ بِحَادِثِ عَهْدِنَا حَوَادِثُ لَاعَقْدُهُ عَلَيْهَا وَلَا شَرْطُ^(١)
لَعَمْرُكُمْ إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي قَضَى بِشَتِّ جَمِيعِ الشَّمْلِ مِنَّا لَمُشْتَطُ^(٢)
وَأَمَّا الْكَرَى مُذْ لَمْ أَزُرْكُمْ فَهَاجِرٌ زِيَارَتُهُ غِيبٌ وَالْمَامُ فَرَطُ^(٣)
وَمَا شَوْقُ مَقْتُولِ الْجَوَانِحِ بِالصَّدَى إِلَى نُطْفَةٍ زَرْقَاءَ أَضْمَرَهَا وَقَطُ^(٤)
بِأَبْرَحَ مِنْ شَوْقِي إِلَيْكُمْ وَدُونَمَا أُدِيرُ الْمَنَى عَنْهُ الْقَتَادَةُ وَالْخَرْطُ^(٥)
وَفِي الرَّبْرِ الْإِنْسَى أَحْوَى كِنَاسُهُ نَوَاحِي ضَمِيرِي لَا الْكَتِيبُ وَلَا السَّقَطُ^(٦)

قال هذه القصيدة عند فراره من السجن واختفائه بقرطبة ، يخاطب بها ولادة عن كذب وهو لا يمكنه أن يدنو من دارها ، أو يخف لمزارها ، مشفقا أن يقع فريسة في يد من يعدو عليه أو يسطو ، ملازما مخبأه لا يتحرك ولا يخطو ، جاعلا الأديب « أبا بكر » عوضاً من أبيه والقرني ، مستبظاً من أبي الحزم ابن جهور العتي ، شاكياً إليه فرط إصغائه ، إلى عصبة السوء من أعدائه ، راجياً أن يجريه من شيمته ، على سابق عادته ، وأن يختصه بالشفاعة ، بعد طول البث والضراعة ، وأن يسحفه بطلته ، وتنفيس كربته فإن أبي أن ينفس عن نفسه ذلك الضغط ، فأمره إلى من بيده القبض والبسط .

(١) أَلُوت : ذهبت ، والمقد أوكد العهد ، والمعنى ذهبت بمجديد عهدنا حوادث تجري صروفها على غير مانهوى وزيد ليس بيننا وبينها عهد نؤكد ، ولا شرط نجده . (٢) الشت : التفريق ، والجميع المجتمع ، والشم : الاجتماع . يقال جمع الله شملك أي ماتشت من أدرك ، وفرق الله شمله أي ما اجتمع من أمره ، ومشتط : أي جاز فيها حكم به وقضى . (٣) الكرى : النوم ، وزيارته غيب : أي يزور يوماً بعد انقطاعه أياماً ، ومنه « زرقاً ، تردد جاً » والالمام مصدر ألم به زاره غبا ، والفرط : بفتح فسكون الحين . يقال آتبه في الفرط ، أي في الحين بعد الحين .

(٤) الجوانح : حنايا الضلوع المطبقة على القلب ، والنطفة : الماء الصافي وتجمع على نطف ، والوقت : حفر في الصخر يجتمع فيها ماء السماء .

(٥) بأبرح بأشد برحاً ومشقة وعذاباً من شوقي ، أدير المني عنه : أي ما أطالب المني بتركه والانصراف عنه من قولهم ، أدار فلاناً عن الأمر إذا طلب منه تركه . قال الشاعر :

يديروني عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

والقتادة شجرة قصيرة ذات قضبان مجتمعة كل قضيب منها ملآن ماين أعلاه وأسفله شوكة كالابر ، وخرط القتادة اجتذاب شوكة من أعلى إلى أسفل بإسمرار اليد مقبوضة على أغصانها ، وفي المثل « من دون ذلك خرط القتاد » (٦) الربرب : السرب من الظباء أو التقطيع من بقر الوحش ، والانسى : مقابل الوحشى أحوى في شفتيه حمرة ضاربة إلى السواد ، والكناس : مستقر من الشجر للظباء كالبيت للإنسان والبقرة تستكن فيه من الحر ، والكتيب الرمل المحدود ، والسقط : مثلث الفاء الرقيق من الرمل حيث اقتطع معظمه

غَرِيبُ فُنُونِ الْحُسْنِ يَرْتَاحُ دِرْعُهُ مَتَى ضَاقَ ذَرْعًا بِالَّذِي حَازَهُ الْمِرْطُ^(١)
كَأَنَّ فُؤَادِي يَوْمَ أَهْوَى مُودَّعًا هَوَى خَافِقًا مِنْهُ بِحَيْثُ هَوَى الْقُرْطُ^(٢)
إِذَا مَا كِتَابُ الْوَجْدِ أَشْكَلَ سَطْرُهُ فَمَنْ زَفَرْتِي شَكْلٌ وَمِنْ عَبَرْتِي نَقْطُ^(٣)
أَلَا هَلْ أَتَى الْفَتَيَانُ أَنَّ فَتَاهُمُ فَرِيسَةً مَنْ يَعْدُو وَنَهْزَةً مَنْ يَسْطُو^(٤)
وَأَنَّ الْجَوَادَ الْفَائِتَ الشَّأُو صَافِنُ تَخَوَّنَهُ شَكْلٌ وَأَزْرَى بِهِ رَبْطُ^(٥)
وَأَنَّ الْحُسَامَ الْعَضْبَ ثَائِرٍ بِجَفْنِهِ وَمَا ذَمُّ مِنْ غَرِيْبِهِ قَدْ وَلَا قَطُ^(٦)

* * *

عَلَيْكَ (أبا بكر) بَكَرْتُ بِهِمَّةً لَهَا الْخَطَرُ الْعَالِي وَإِنْ نَالَهَا حَطُ^(٧)
أَبِي بَعْدَ مَا هِيلَ التُّرَابُ عَلَى أَبِي وَرَهْطِي فَذَا حِينَ لَمْ يَبْقَ لِي رَهْطُ^(٨)
لَكَ النِّعْمَةُ الْخَضِرَاءُ تَنْدَى ظِلَالُهَا عَلَى وَلَا جَحْدُ لَدَيَّ وَلَا غَمْطُ^(٩)

(١) الدرع : القبيص ، والمرط : كساء من خز ونحوه يؤزر به ، والقبيص يحوز النهرين والخصر ، والمرط : يحوز الردف ، والردف ثقيل ، والخصر نحيل (٢) أهوى مال إليه حانياً ظهره في حال توديعه ، وهوى القرط ، وهو ما يعلق في شحمة الأذن ، سقط متديلاً فهو فؤاده معه خائفاً (٣) أشكل سطره من أشكل عليه الأمر اختلط ولم بين ، والشكل والنقط تنفيذ الكتاب بحركات الأعراب ، وإيجامه ليظهر معناه . يقول إذا أشكل على من أهوى كتاب الوجد أو ضخته له بما أصعده من زفرات ، وأسفحه من عبرات (٤) الفتيان يريد بهم فتيان قرطبة ، والنهزة : الصيد المعرض لمن يسطو عليه ويفتنه (٥) الشأو : الناية ، والشافن : الذي يقوم على ثلاث ويثنى سنبك يده الرابع تخونته وتخوفه : تنقصه ، ومنه قوله تعالى : « أو يأخذكم على تخوف » ، وشاهد تخونته بمعنى تنقصه قول لبيد : عذافرة قمقم بالرداف تخونها نزول وارتحال أي تنقص لها وشعبها وشكل الدابة : شدقوا أعينها بجبل ، وأزرى به : أهانها وحقره (٦) الحسام العضب : السيف القاطع ، وثاؤ مقيم : يريد أنه كالسيف المتمد في جفنه ، وما عيب من غريبه : أي حديه قد ، وهو القاطع طولاً ولاقط ، وهو القاطع عرضاً . (٧) بدأ يخاطب الأديب (أبا بكر) ويستنهض همته ، ويذكر يده عنده . يقول : إن لي همّة طالية لها خطرها بكرت بها عليك وتموت بك قديماً ، وإن نالها الآن انحطاط بعد علوّ . (٨) أنت أبي بعد فقد أبي وأنت وحدك رهطى حين لم يبق لي رهط . (٩) غمط النعمة غمطاً لم يشكرها أي لك عندى النعمة الخضراء التي تظلى ، والتي مازلت أشكرها ولا أنكرها وأكبرها ولا أحقرها

وَلَوْلَاكَ لَمْ تَتَّقُبْ زِنَادُ قَرِيحَتِي فَيَنْتَهَبَ الظَّلْمَاءُ مِنْ نَارِهَا سِقْطُ^(١)
وَلَا أَلْفَتْ أَيْدِي الرَّيِّعِ بَدَائِمِي فَمِنْ خَاطِرِي نَظَمْتُ وَمِنْ زَهْرِهِ لَقَطْتُ^(٢)
هَرِمْتُ وَمَا لِلشَّيْبِ وَخَطُّ بَعْرِقِي وَكَأَنَّ لِشَيْبِ الْهَمِّ فِي كَبِدِي وَخَطُّ^(٣)
وَطَاوَلَ سُوءَ الْحَالِ نَفْسِي فَأَذْكَرْتُ مِنَ الرُّوضَةِ الْغَنَاءِ طَاوَلَهَا الْقَحْطُ^(٤)
مِثُونَ مِنْ الْأَيَّامِ خَمْسٌ قَطَمْتُهَا أَسِيرًا وَإِنْ لَمْ يَبْدُ شَدُّ وَلَا قَطُّ^(٥)
أَتَتْ بِي كَمَا مِصَّ الْإِنَاءُ مِنَ الْأَذَى وَأَذْهَبَ مَا بِالثَّوْبِ مِنْ دَرَنِ مَسْطُ^(٦)
أَتَذْنُو قُطُوفُ الْجَنَّتَيْنِ لِمَعْشَرِ وَغَايَتِي السَّدْرُ الْقَلِيلُ أَوْ الْحَمْطُ^(٧)

(١) لم تنقب : أى لولاك لم تظهر نار ، قريحى الشبهة بالزناد فى الإبراء ، وينتهب الظلماء أى علىها وبلاشيها ، والسقط : مثلث الفاء ساكن العين ما سقط من النار بين الزندين . يقول : لولاك لم تذك قريحى فيظهر عند اقتداحها نار تنتهب الظلماء . (٢) النظم : نظم الحب فى السلك ، واللقط : التقاطه - أى ولولاك (أبا بكر) ما ألفت بدائمي بسد الربيع ، فهو يلقط من محاسن الزهر ما أنظمه فى سلك الخاطر . (٣) الوخط : فشو الشيب ، واختلاط يابسه بسواد الرأس ، والمفرق : وسط الرأس ، وهو موضع فرق الشعر من الجبين إلى الدائرة ، والمعنى لم أشب شيب الكبرة ، ولكن شبت شيب الهم . (٤) يقول أن مطاولة سوء الحال نفسه ذكرته بحال الروضة الغناء طال عليها أمد القحط . (٥) القحط : هنا قط الأسير ، وهو أن يجمع بين يديه ورجليه بحبل أو نحوه ، والمعنى أنه قطع خمسمائة يوم بقرطبة أسيراً ، ولكن بلا قيد ولا غل لأنه كان مختفياً متوارياً عن الأنظار . (٦) الموص : الفسل ، وميص الثوب : غسل بالأصابع ، ومسط الثوب : بله ثم تحريكه لاستخراج مائه والدرن : الوسخ ، والمعنى جاءت بى أيام الخوف والاعمال عند نهايتها مفسول الذنب كما غسل الإناء من الأذى ، والثوب من الدرن . (٧) السدر : النبق ، والحط : كل نبت أخذ من المرارة طعماً فلم يمكن أكله - يشير بهذا إلى قصة الجنتين فى قوله تعالى - فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل حط وأنل وشىء من سدر قليل - ووصف السدر بالقلّة لكونه أحسن شىء فيما بدلوا ، والعرم بفتح فكسر ، والسكر : بكسر فسكون ، والمسناءة : بضم ففتح فتشديد الزون كلها - كما يؤخذ من اللسان والسكتشاف - أسماء للسد يبنى لحبس ماء العيون والأمطار ويترك فيه فتحات توضع عليها أبواب لاطلاق الماء على حسب ما يحتاجون إليه فى سقيهم ، وقد ورد ذكر المساءة فى بعض قصائد الديوان . يمثل فى هذا البيت حاله بحال سبأ إذ أعرضوا عن الشكر ، تخرب الله جنتيهم بسيل العرم وأبدلها عنها الحط ، والأنل والتليل من السدر ، ومعنى البيت : أيفوز غيبرى بالنعيم ولا أكاد أظنر بالتافه الحفير .

وَمَا كَانَ ظَنِّي أَنْ تَغُرَّنِي الْمَتَى وَلِلْغُرِّ فِي الْعَشَوَاءِ مِنْ ظَنِّهِ خَبْطٌ ^(١)
أَمَّا وَأَرْتَنِي النَّجْمَ مَوْطِيَّ أَخْصِي لَقَدْ أَوْطَأْتُ خَدَيَّ لِأَخْصٍ مَنْ يَخْطُو ^(٢)
وَمُسْتَبْطِلِ الْعُتْبَى إِذَا قُلْتَ قَدْ أَنَى رِضَاهُ تَمَادَى الْعُتْبَى وَاتَّصَلَ السُّخْطُ ^(٣)
وَمَا زَالَ يُدْنِي دُنَى وَيُدْنِي قَبُولَهُ هَوَى سَرَفٍ مِنْهُ وَصَاحِيَةٌ فَرَطُ ^(٤)
وَنَظْمُهُمْ ثَنَاءٌ فِي نِظَامٍ وَلَايَةٍ تَحَلَّتْ بِهِ الدُّنْيَا لَآلِئُهُ وَسَطُ ^(٥)
عَلَى خَضِرِهَا مِنْهُ وَشَاحٌ مُفَصَّلٌ وَفِي رَأْسِهَا تَاجٌ وَفِي جِيدِهَا سِمْطُ ^(٦)
عَدَا سَمْعُهُ عَنِّي وَأَصْنَعِي إِلَى عِدَى لَهُمْ فِي أَدِيمِي كُلَّمَا اسْتَمَكَنُوا عَطُ ^(٧)
بَلَغْتُ الْمَدَى إِذْ قَصَرُوا - فَقَلُّوهُمْ مَكَامِينَ أَضْغَانٍ أَسَاوِدُهَا رُقَطُ ^(٨)

(١) الغرّ: الذي لم يجرب الأمور، وفي المثل: «هو يخبط خبط عشواء» يضرب للذي يركب رأسه، ولا يهتم لمآقبة أمره، كالثلاثة العشواء التي تخبط بيديها كل ما مرّت به لسوء بصرها، والعشواء: هنا ظلمة الليل لا الناقة، يريد أن ظنه حمله على الاغترار بالمتى، تخبط لقرارته في عشواء من ظنه أي في ظلمة ولبس. (٢) أما حرف للاستفتاح بمعنى ألا، ولتحقيق الكلام الذي يتلوّه بمعنى حقا، والأخص باطن القدم الذي لا يلمس بالأرض عند الوطء. يقول: حقا لقد أوطأت خدي لكلّ واطى في حال أنها أرنتني فيما مضى النجم موطيَّ أخصى (٣) العتبى: الرضا، والعتب: السخط، وفي رواية: «قد أنى» (٤) صاغية الرجل من يلمّ به ويفشى مجلسه من أهله وحاشيته، وفرط يريد بهذا أنهم يفرطون عليه في القول أي يسرفون، والمعنى وما زال يقربني منه هوى متجاوز حد الاعتدال وبعده قبوله حاشية مسرفة في القول. وقد جرى في هذا البيت على أسلوب اللف والنشر المرتب، فهو يرى أن ممدوحه مسرف في هواه فهو يدنيه لذلك وإن حاسديه يسرفون في الوشاية به فهو ينثيه عنه لما يسمعه من وشاياتهم التكررة (٥) أي وما زال يقربني منه نظم ثناء أحبه في نظام ولاية كأنه العقد النفيس تحلت به الدنيا كل لؤلؤة منه جديرة أن تكون واسطة العقد لنفاستها.

(٦) أي على خصر الولاية من نظمه وشاح مفصل، وفي رأسها تاج مرصع، وفي جيدها سمط من لؤلؤ (٧) الأديم: الجلد، والقط: شق الثوب طولا أو عرضا من غير إبانة، والمعنى صرف ابن جهور سمعه عني وأصنعي إلى أعداء كلما تمكّنوا من عرضي قدوه كما يتد الأديم وشقوه كما يشق الثوب. (٨) المدى: الغاية، والأضغان: الأحقاد، والأساود، الحيات، والرقط: جمع رقطاء، وهي التي في لونها سواد وبياض، والمعنى بلغت الغاية التي قصروا عنها فكمن في قلوبهم من الأحقاد ما يشبه الحيات الرقط التي تنفث السموم القاتلة.

يُؤْلُونِي عُرْضَ الْكَرَاهَةِ وَالْقَلَى
وَقَدْ وَسَمُونِي بِأَتِي لَسْتُ أَهْلَهَا
فَرَرْتُ فَإِنْ قَالُوا الْفِرَارُ إِرَابَةٌ
وَإِنِّي لَرَجٍ أَنْ تَعُودَ كَبَدُّهَا
وَحِلْمُ أَمْرِي تَعْفُو الذُّنُوبَ لِعَفْوِهِ
فَمَا لَكَ لَا تَخْتَصُّنِي بِشَفَاعَةٍ
يَنِي بِنَسِيمِ الْعَنْبَرِ الْوَرْدِ نَفْحُهَا
فَإِنْ يُسَمِّفِ الْمَوْلَى فَنُعْمَى هَنِيئَةً
وَإِنْ يَأْبَ إِلَّا قَبْضَ مَسْطُوطِ فَضْلِهِ
وَمَا دَهَرُهُمْ إِلَّا النَّفَاسَةُ وَالنَّمْطُ^(١)
وَلَمْ يُنْ أَمْتَالِي بِأَمْتَالِهَا قَطُ^(٢)
فَقَدْ فَرَّ مُوسَى حِينَ هَمَّ بِهِ الْقَبْطُ^(٣)
لِ الشِّيمَةِ الزَّهْرَاءِ وَالْخُلُقِ السَّبْطُ^(٤)
وَتَمَحَّى الْخَطَايَا مِثْلَ مَا مُحَى الْخَطُ
يَلُوحُ عَلَى دَهْرِي لِمِسْمِهَا عِلْطُ^(٥)
إِذَا شَعَشَعَ الْمِسْكُ الْأَحْمَ بِهِ خِلْطُ^(٦)
تُنَفِّسُ عَنْ نَفْسِ الظِّ بِهَا ضَغْطُ^(٧)
فَنِي يَدِ مَوْلى فَوْقَهُ الْقَبْضُ وَالْبَسْطُ^(٨)

(١) وفي رواية: الغبط والمعنى يجعلونني أستقبل منهم ناحية الكراهة والبغض ، وليس منهم أبد الدهر (إلا النفاسة) من نفس عليه بالشيء ضئ به وكره أن يصل إليه ، و (الغبط) : من غبط الرجل ينبطه غبطاً من باب ضرب حسده ، ومن معانيه أيضاً تمنى الوصول إلى نعمة غيرك من غير أن تزول عنه .
(٢) أى جعلوني معروفاً بالسمة والصفة المعيبة التي است متأهلاً لها ، والتي ما منى أى ابتلى بها أمثالي فيما مضى .
(٣) إرابة : سبب في الريبة والشك بالاثام ، والمعنى فررت من السجن ، فان قالوا إن في الفرار ما يجعلني متهماً ، فقد فرّ موسى من القبط حين اتهموا به وهما بقتله يشير إلى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : « فررت منكم لما خفتكم »

(٤) السبط : السهل . (٥) الميسم : المسكواة يوسم بها البعير ، والعلط : الوسم عرضاً في العنق يقول : لماذا لا ترضى عني وتمحى شفاعتك لأنقلب بها على دهرى وأذله وأدممه في قفاه دمعاً بينة الأثر بخط أو خطين أو خطوط . (٦) العنبر : الطيب المعروف ولونه أسود ، ويطلق العنبر أيضاً على الزعفران ، وهو المراد هنا ، والورد حمرة تضرب إلى صفرة حسنة ، وشعشع : مزج ، والأحم : الأسود من كل شيء ، أى بقى نفع هذه الشفاعة براحة الزعفران الورد إذا مزج بالمسك الأسود .

(٧) تنفس : تخرج ، والظ بها - وفي روبة : أظ بها - لازمها . قال أبو العلاء :

أظوا بالقيح وتابعوه ولو أمروا به لتجنبوه

أى لازم الناس القيح عناداً منهم حين نهاهم الله عنه ولو أمرهم به لدفعهم عنادهم إلى تنكبه، ضغط : أى ضيق

في مدينة بطليوس (١)

يَا دَمْعُ صَبْ مَا شِئْتَ أَنْ تَصُوبَا (٢)

وَيَا فُؤَادِي أَنْ تَذُوبَا

إِذِ الرَّزَايَا أَصْـبَحَتْ ضُـرُوبَا (٣)

لَمْ أَرِ لِي - فِي أَهْلِهَا - ضَرِيْبَا (٤)

قَدْ مَلَأَ الشَّوْقُ الْحَشَا نُدُوبَا (٥)

فِي الْغَرْبِ إِذْ رُحْتُ بِهِ غَرِيْبَا

عَلِيلَ دَهْرٍ سَأَمَنِي تَعْذِيْبَا (٦)

أَذَقْنِي (٧) الضَّنَى إِذْ أَبْعَدَ الطَّيِّبَا (٨)



لَيْتَ الْقَبُولَ (٩) أَحْدَثَتْ هُبُوبَا

رِيحٌ يَرْوُحُ عَمَّهَـذْهَا قَرِيْبَا (١٠)

بِالْأَفْقِ الْمُهْدَى إِلَيْنَا طِيْبَا (١١)

- (١) مدينة كبيرة من مدن الأندلس تقع غربي قرطبة. وهذه الأرجوزة تذكرنا بالأرجوزة المشهورة : « دع المطايا تنسم الجنوبا » الخ (٢) انسكب يا دمي ما شئت أن تنسكب ، والأصل في الصوب نزول المطر ، والفعل صاب يصوب والأمر صب . قالوا : وكلّ نازل من علوّ إلى أسفل فقد صاب ، ومنه قوله « كأنهم صابت عليهم سحابة » . (٣) أصنافا . وفي رواية : إن الرزايا (٤) نظيراً أو مثيلاً . يقول : انسكب يادمع فقد صبت عليك ألوان من المصائب والآلام لم تصب على أحد من المرزئين . (٥) آثار الجروح إذا لم ترتفع عن الجلد ، ومنه قول الفرزدق : ومكبل ترك الحديد بساقه ندبا من الرسفان في الأحجال (٦) أمرضني دهر قد جشمتني ذلّ الافتراب وسأمني سوء العذاب . (٧) وفي رواية : أعي الضنى (٨) قرب الدهر مني السقام في وقت أبعد فيه عني الطبيب . (٩) ما يستقبلك بين يديك من الريح إذا وقعت في القبله . (١٠) أي يكون رواح ما تحمله الريح من المطر قريبا ، والعهد هنا معناه المطر الأول الذي يليه الوسمي . (١١) أي متصلاً بالأفق الذي طالما أهدى إلينا من ناحية الحبيب طيباً .

تَعَطَّرَتْ مِنْهُ الصَّبَا جُيُوبًا
يُبْرِدُ حَرَّ الْكَبِدِ الْمَشْبُوبَا^(١)

* * *

يَا مُتَبَعًا إِنْكَادَهُ^(٢) التَّأْوِيَا
مُشْرِقًا قَدْ سَاسَمَ التَّغْرِيَا
أَمَّا سَمِعْتَ الْمَثَلَ الْمَضْرُوبَا
أَرْسَلَ حَكِيمًا^(٣) وَأُسْتَشِرَ لَيْبَا

* * *

إِذَا أُتِنْتَ الْوَطْنَ الْحَيَا
وَالْجَانِبَ الْمُسْتَوْضَحَ^(٤) الْعَجِيَا
وَالْحَاضِرَ^(٥) الْمُنْفَسِحَ الرَّحِيَا
فَحَيَّ^(٦) مِنْهُ مَا أَرَى الْجَنُوبَا

(١) يطفى ذلك الطيب الذى نعطرت منه جيوب الصبا كبدًا مشبوبة فيها نيران الشوق. وفى الأصل «المشوبا»

(٢) الانسداد سیر الليل كله لاتعريس فيه ، والتأويب : سیر النهار كله لاتعريج فيه .

(٣) وفى رواية : أرسل حلما .

(٤) البحوث عنه أو الذى يستوضحه الراكب أى يستشرفه ويستكشفه بأن يضع كفه على عينيه فى الشمس

لينظر هل يراه . (٥) الحاضر : ضدّ البادى . (٦) مرتبط بالأبيات قبله . يقول : أيها

المواصل سیر الليل كله بسیر النهار كله مشرقا قد ملّ السیر إلى الجانب الغربى أنى مرسلك فى حاجة ، ومتبع النمل المشهور :

إذا كنت فى حاجة مرسلًا فارسل حكيمًا ولا توصه

وإن باب أمر عليك التوى فشاور ليلى ولا تمصه

ذلك أنك إذا أتيت ذلك الوطن المحبوب ، والجانب المأهول والحاضرة الفسيحة فحى مما قد ترى الجنوب حيث يقيم الحبيب ، وقوله : ما رأى جملة معترضة وحدث هكذا وحرر .

مَصَانِعُ ^(١) تَجْتَذِبُ ^(٢) الْقُلُوبَا
 حَيْثُ أَلِفَتْ الرَّشَا الرَّيْبَا ^(٣)
 مُخَالَفًا ^(٤) فِي وَضْلِهِ الرَّقِيْبَا
 كَمْ بَاتَ يَذْرَى ^(٥) لَيْلَهُ الْغَرِيْبَا
 لَمَّا أُنْتَنَى فِي سُكْرِهِ قَضِيْبَا
 تَشْدُو ^(٦) حَمَامٌ حَلِيهِ تَطْرِيْبَا
 أَرْشَفَ مِنْهُ الْمَبْسِمُ الشَّيْبَا ^(٧)
 حَتَّى إِذَا مَا أُعْتِنَ لِي مُرِيْبَا ^(٨)
 شَبَابُ أَفْقٍ هَمٌّ أَنْ يَشِيْبَا
 بَادَرْتُ سَعِيًّا ، هَلْ رَأَيْتَ الذِّيْبَا ؟ ^(٩)

(١) ديار وأبنية وقصور . قال ليلى :

بليتا وما تلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعدنا والمصانع

(٢) تجذب . (٣) الرشأ : الظبي إذا قوى وتحرك ومشى مع أمه ، والريب : المربي من قوهم

صبي مربوب وريب . وفي رواية : اللببا

(٤) من المخالفة بمعنى عدم الموافقة أو من قوهم جاء فلان خلاف صاحبه ومخالفته إذا أتى بعده مخالفاً له .

(٥) يذرى يحتال من قوهم دريت الذي أى احتلت له وختلت حتى أصيده ، والغريب : الشديد السواد ومعنى الأبيات تلك دور ومصانع تجذب القلوب إليها ألفت فيها الرشأ المربي في حجر النعمة مخالفاً أى آتيا في غفلة الرقيب ، فكثيراً ما بات يحتال ليله الشديد السواد ليصيب منه غرة ويختلس منه غفله .

(٦) تنفى ، استعار شدو الحمام لوسوسة الحلى (٧) أرشف : كأنصر وأضرب مضارع رشف الماء والريق ونحوهما رشفاً ، وهو المصّ والتقبيل وشرب الماء قليلاً قليلاً ، والمبسم ، المقبل ، والشيب : صفته مأخوذ من الشب وهو برد وعدوبة في الأسنان . قال ذو الرمة :

لمياء في شفيتها حوة لس وفي اللثات وفي أنيابها شنب

(٨) اعتن : اعترض ، ومريبا : ذاريب . (٩) يقول في هذا البيت والأبيات قبله : بتّ ناعما

ليلقى بالعناق والتقبيل حتى إذا اعترضني مارابني من سواد أفقٍ وشك أن يفضحه ضوء الصبح بادرت الطريق أسمى ، هل رأيت الذئب ، يريد : هل رأيت الذئب في خفته وسرعة عدوه وفراره ويعنى : أنه قد فرّ فرار الذئب .

هَصَرْتُهُ (١) خُلُو الْجَنَى رَطِيبًا

أَهَاجِرِي أَمْ مُوسِي تَأْنِيْبًا
مَنْ لَمْ أُسِغْ مِنْ بَعْدِهِ مَشْرُوبًا (٢)
مَا ضَرَّهُ لَوْ قَالَ لَا تَثْرِيْبًا (٣)
وَلَا مَلَامَ يَلْحَقُ الْقُلُوبَا
قَدْ طَالَ مَا تَجَرَّمُ الذُّنُوبَا (٤)
وَلَمْ يَدْعُ فِي الْعُذْرِ لِي نَصِيْبًا

إِنْ قَرَّتِ الْعَيْنُ بِأَنْ أَعُوبَا (٥)
لَمْ آلْ أَنْ أَسْتَرْضِيَ الْعَضُوبَا
حَسْبِي أَنْ أُحَرِّمَ الْمَغِيْبَا
قَدْ يَنْفَعُ الْمَذْنِبَ أَنْ يَتُوبَا

يوم بوصول ساعة

بِاللهِ خُذْ مِنْ حَيَاتِي يَوْمًا وَصِلْنِي سَاعَةً
كَيِّمَا أَنَالَ بِقَرَضٍ مَا لَمْ أَنَلْ بِشَفَاعَةٍ

(١) أمله إلى وعظفته على وهو جواب لما .

(٢) هل هذا الحبيب الذي غصصت بفراقه ولم أجد بعده مساعًا للشراب إلى خلق هاجري أو موسي

لوما وتثريبًا . (٣) أي ضرر عليه إذا هو قبل العذر ونفى الملام والعتاب .

(٤) كثيرًا ما ادعي على ذنوبها لم أفعلها (٥) يقول في هذا البيت والذي بعده : إن قرَّت العين

بالرجوع إلى الوطن بذلت جهدي في استرضائه ، وكفاني أن أحرِّم على نفسي ترك هذا الوطن وأتوب
فقد تنفع توبة المذنب .

في عيد الأضحى^(١)

« لما حلّ ابن زيدون من المعتضد بالمكان الذي حلّ ، وانتكث
عقد شدائده وانحلّ ، تسلت نفسه من شجونها ، وحتت إلى صفا
« ولادة » وحجونها ، وتذكرها وما تناساها ، وعاودته لوعتها
وأساها ، وحنّ إليها حين من حيل بينه وبين ما يشتهي ، وقنع
باهداء تحية تبلغ إليها وتنتهي . فقال يتغزل فيها ويمدح المعتضد^(٢) : »

أَمَّا فِي نَسِيمِ الرِّيحِ عَرَفْتُ مُعَرِّفُ لَنَا هَلْ لِدَاتِ الْوَقْفِ بِالْجَزْعِ مَوْقِفُ^(٣)
فَنَقَضِي أَوْطَارَ الْمَنَى مِنْ زِيَارَةِ لَنَا كَلَفٌ مِنْهَا بِمَا تَتَكَلَّفُ^(٤)
ضَمَانٌ عَلَيْنَا أَنْ تُزَارَ وَدُونَهَا رِقَاقُ الظُّبَا وَالسَّمْهَرِيِّ الْمُثَقَّفُ^(٥)
وَقَوْمٌ عِدَى يُبْدُونَ عَنْ صَفَحَاتِهِمْ وَأَزْهَرُهَا مِنْ ظُلْمَةِ الْحَقْدِ أَكْلَفُ^(٦)
غِيَارِي يَعْبُدُونَ الْغَرَامَ جَرِيرَةً بِهَا وَالْهُوَى ظُلْمًا يَغِيظُ وَيُؤْسِفُ^(٧)

(١) هو أضحى سنة ٤٤٥ هـ . وهذه القصيدة من ضمن قصائده التي يمدح بها المعتضد ، وقد ذكر طرفاً منها ابن إسحاق في الذخيرة ، وقد بعض أبياتها ، وذكر طائفة منها كذلك صاحب فلائد العقيان في ضمن ما ذكره من طرف ابن زيدون وأخباره ، وفقره وأشعاره . (٢) فلائد العقيان .
(٣) أما استفهام فيه معنى التّوبيخ ، والعرف : الريح الطيبة ، والجزع : منعطف الوادي ، والوقف : السوار - من العاج وغيره - قال جرّان الودود النميري :

كوقف العاج من ذكي مك تحيي به من اليمن التجار

أو هو الخلل من الفضّة وغيرها . والمعنى : ليت لنا في هبوب النسيم طيب رائحة يعرفنا هل المحبوبة واقفة بمكان وقوفها من منعطف الوادي فنقض الح . وفي رواية : يعرف .

(٤) المعنى : هل لها وقفة بالمنحني فنقض حاجات النفس من زيارة انا ولع بما تتجشمه من مشقة التعرض لها .

(٥) الظبا : جمع ظبية ، وهي حد السيف ، والسهمري : الريح ، والمثقف : المسوى بالثقاف ، وهي خشبة فيها خرق توضع فيه الرماح لتسوية ما اوج منها ، أي نحن ضامنون على أنفسنا أن نزار ، ودون زيارتها ظبا السيوف الرقيقة ، وأسنة الرماح الصلبة ، وفي بعض النسخ عزيز علينا أن نزار .

(٦) أي ودون الوصول إليها أيضاً قوم معادون يظهر ما يخفونه من العداوة والشر على وجوههم ، والمشرق المضيء من تلك الوجوه أكلف أي به كلف وسواد من ظلمة الحقد .

(٧) غياري وغياري - بفتح الغين وضمة - كسكاري وسكاري جمع غيران من غار الرجل على امرأته يغار غيره ، والجريرة : الذنب والجناية يجنيها الرجل على نفسه أو يجريها على غيره ، ويؤسف : كيفضب وزناً ومعنى ، ومنه قوله تعالى « فلما آسفونا انتقمنا منهم »

يَوَدُّونَ لَوْ يَدْنِي الْوَعِيدُ زَمَاعِنَا وَهَيْهَاتَ رِيحِ الشَّوْقِ مِنْ ذَلِكَ أَعْصَفُ^(١)
يَسِيرُهُ لَدَى الْمُشْتَاكِ فِي جَانِبِ الْهَوَى نَوَى غُرْبَةً أَوْ مَجْهَلًا مُتَعَسِّفًا^(٢)
هَلِ الرُّوعُ إِلَّا غَمْرَةٌ ثُمَّ تَنْجَلِي أَمِ الْهَوَلُ إِلَّا غُمَّةٌ ثُمَّ تُكْشَفُ^(٣)
وَفِي السَّيَرَاءِ الرَّقْمُ وَسَطَ قِبَابِهِمْ بَعِيدُ مَنَاطِ الْقُرْطِ أَحْوَرُ أَوْطَفُ^(٤)
تَبَايَنَ خَلْقَاهُ ، فَعَبَلُ مُنْعَمٍ تَأَوَّدَ فِي أَغْلَاهُ لَدُنْهُ مُهْفَهَفُ^(٥)
فَلِإِلْمَانِكَ الْمُرْتَجِّ مَا حَازَ مِزْرُ وَلِلْغُصْنِ الْمُهْتَزِّ مَا ضَمَّ مِطْرَفُ^(٦)
حَبِيبُ إِلَيْهِ أَنْ نُسَرَّ بِوَصْلِهِ إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهُ وَنَهْنَاهُ وَنُسَعَفُ
وَلَيْلَةً وَافِينَا الْكَثِيبَ لِمَرْعِدِ سُرَى الْأَيْنِ لَمْ يُعْلَمْ لِمَسْرَاهُ مَرْحَفُ^(٧)

(١) الوعيد : التهديد والتخويف ، والزماع : بالفتح المضى في أمر الزيارة والعزم عليه ، وأعصف : امم تفضيل من عصفت الريح تعصف بالكسر فهي عاصف أى شديدة تفضى بما صرت عليه من تراب ونحوه ، أى يودون لو يصرفنا تهديدهم عما أرمعناه من أمر زيارة تلك الحسناء التى يغارون عليها ، وهيهات أن يصرفنا عن ذلك صارف ، فإن ربح الشوق أشد مضيأ بنا إلى ناحيتهم من تهديدهم ووعيدهم .

(٢) يقول يسير علينا فى جانب الهوى الاغتراب واعتساف المجادل .

(٣) الروع : الخوف ، والغمرة : الشدة .

(٤) السيراء : بكسر ففتح نوع من البرود يخاطه حرير كالسبور ، ويقال ثوب رقم إذا رقم أى كتب عليه ثمنه ، أو اسم التاجر ، ومناط القرط مملقة ، وأحور : وصف من حور العين . وهو شدة سواد المقلة فى شدة يياضها ، وأوطف . طويل شعر أهداب العين ، وفى الأصل أوطف ، والمعنى أن حبيته التى تلبس تلك الحلة السراء الثمينة تقيم وسط قباب الأعداء وهى بعيدة مهوى القرط أى طويلة العنق ، فى عيذها حور ، وفى أهدابها وطف . (٥) عبل : أى ردف ضخم تام ، ومنعم : من النعمة والراحة ، وعدم الامتهان فى عمل البيت لتوفر الخدم ، ويلزم ذلك العيالة والامتلاء ، وتأود : نثى ، ولدن أى غصن ابن ، ومهفهب أى خصر دقيق ناعل ، يقول : تباينت خلقة أسفله وأعلاه ، فردف فتيل وخصر نخيل .

(٦) المانك : من الرمال ما تعقد وارتفع ، وفى الأصل : المانك . والمترز : معروف وهو ما يشد على الوسط ، والمطرف - وهى مثلة للميم - من ثياب الخز ما جعل فى طرفيه علمان ، ويجمع على مطارف ، أى فلاكثيب المرتج ما حواه المترز ، ولانصن المهتز ما ضمه المطرف . (٧) وافينا الكثيب : أى توافينا على موعد فى الكثيب ، والسرى : السير بالليل ، والأين : الأعياء والتعب ، والمزحف الغاية وهو من الزحف وهو المشى قليلا قليلا ، أو المراد به هنا أثر المشى ومنه مزحف الحية ، وهو أثر انسياها فى الرمل قال الشاعر :

كأن مزاحف الحيات فيه قبيل الصبح آثار السياط

تَهَادَى أَنَاةَ الْخَطْوِ مُرْتَاعَةَ الْحَشَا كَمَا رِيحَ يَعْفُورٍ الْفَلَا الْمُتَشَوِّفِ^(١)
فَمَا الشَّمْسُ رَقَّ الْغَيْمُ دُونَ إِيَّاتِهَا سِوَى مَا أَرَى ذَاكَ الْجَبِينُ الْمُنْصَفِ^(٢)
فَدَيْتُكَ أَنِّي زُرْتُ نُورُكَ وَاضِحٌ وَعِطْرُكَ نَحَامٌ وَحَلِيكَ مُرْجَفِ^(٣)
هَيْبِكَ أَعْتَرَزْتُ الْحَى وَأَشِيكَ هَاجِعٌ وَفَرَعُكَ غَرِيبٌ وَأَيْمُكَ أَغْضَفِ^(٤)
فَأَنِّي أَعْتَسَفْتُ الْهَوَلَ خَطْوُكَ مُدْمَجٌ وَرِدْفُكَ رَجْرَاجٌ وَخَصْرُكَ مُخْطَفِ^(٥)
لَجَاجٌ، تَمَادَى الْحُبُّ فِي الْمَعْشَرِ الْعِدَا وَأُمُّ الْهَوَى الْأَفْقَ الَّذِي فِيهِ نُشْنَفِ^(٦)
وَأَنْ نَتَلَقَّى السُّخْطَ - عَانِينَ - بِالرَّضَى لَغَيْرِ أَنْ أَجْنَى مَا يُرَى حِينَ يَلْطُفِ^(٧)
كَفَانًا مِنَ الْوَصْلِ التَّحِيَّةُ خُلْسَةً فَيَوْمِي طَرْفٌ أَوْ بَنَانٌ مُطَرْفِ^(٨)

(١) تهادى أصله تهادى أى تمشى فى تمايل وسكون ، وأناة الخطو : متثدة الخطو وصفها بالمصدر ، وهو الاناة بمعنى التؤدة للمبالغة ، ومرتاعة الحشا : متفرعة القلب ، وريح : فزع وأخيف ، واليعفور : الظبي والمتشوف : المتطلع . وفى بعض النسخ المنشرف ، وهو الذى يرفع رأسه ويمد بصره لينظر إلى الشئ .

(٢) إياة الشمس - بالكسر والفتح - حسنهما وضوءها ، وإياة هى الشمس أيضا ، قال أبو العلاء :

وبعض ذا العالم من بعضه لولا إياة لم يكن شئت

أى لولا الشمس لما كان القمر ، والنصف : الذى عليه النصف وهو الحمار ، أى ليست الشمس يستقر الغيم الرقيق حسنهما وضوءها إلا ما أراه ذلك الجبين من حسن يبدو من خلل النصف .

(٣) وفى بعض الروايات : قعيدك وهو مصدر منصوب لثباته عن الفعل والتقدير سألت الله حفظك من

قوله تعالى « عن اليمين وعن الشمال قعيد » أى حفيظ ، والمستعمل قعيدك الله - مثل عمرك الله ، وهو

مصدر منصوب أيضاً ناب عن الفعل تقديره عمرك الله بالنشيد ، ومعناه هنا : ملازمك ، ومرجف : من

أرجف إذا تحرك واضطرب ، ويصح أن يكون من أرجف بالبناء للمجهول فهو مرجف ، وفى بعض النسخ

بدل قعيدك فديتك . (٤) هيبك : يقال هبك فعلت ، وهيبك فعلت كذا ، ولا يقال هب أنك

فعلت ، ولا هب أنك فعلت ، والمعنى احسبى واعددى ، واعتزرت الحى : شبهته وجزت به على غير علم ،

وفرعك غريب : شعرك شديد السواد ، وأغضف حالك السواد ، يقال ليل أغضف إذا ألبس ظلامه .

(٥) مدمج : داخل بعضه فى بعض ، ومخطف : ضامر يقال فرس مخطف الحشا : أى ضامره .

(٦) نشنف : نبغض ، والمعنى أمرى لجلاج فقد تمادى بى حب من أهواه بين المعشر العدا وقصد الهوى :

المكان الذى فيه أمقت وأبغض . (٧) المعنى ولجلاج أيضا أن نتحمل السخط ، وقد عنانا رضا صاحب

غيرة يشتد جفاؤه وغلظته ، حين يظن لطفه ورقته (٨) البنان : الطرف الذى طرف بالحناء .

خَلِيلِي مَهْلًا لَا تَلُومًا فَإِنِّي
فَاعْنَفُ مَا يَلْقَى الْمُحِبُّ لِحَاجَةٍ
وَإِنِّي لَيْسَتْهُوَ يَنِي الْبَرْقُ صَبْوَةً
وَمَا وَلَعِي بِالرَّاحِ إِلَّا تَوَهُّمٌ
وَتَذَكُّرُنِي الْعِمَقْدَ الْمُرْنَ مُجَانَةً
فَفَاقِلْ مَنْ أَهْوَى طَوَى الْبَدْرَ هَوْدَجٌ
وَلَا قَبْلَ «عَبَّادٍ» حَوَى الْبَحْرَ مَجْلِسٌ
فَوَادِي أَلَيْفُ الْبَيْتِ وَالْجِسْمُ مُدْنَفُ
عَلَى نَفْسِهِ فِي الْحُبِّ حِينَ يُعْنَفُ
إِلَى بَرْقٍ ثَغْرِ إِنْ بَدَا كَادَ يَحْطَفُ
إِظْلَمَ بِهِ كَالرَّاحِ لَوْ مَيَّرَشَفُ^(١)
مُرِنَاتُ وَرَقٍ فِي ذُرَا الْأَيْكِ تَهْتَفُ^(٢)
وَلَا صَانَ رِيمَ الْقَفْرِ خِذْرٌ مُسَجَّفُ^(٣)
وَلَا حَمَلَ الطَّوْدَ الْمُعْظَمَ رَفْرَفُ^(٤)

(١) اظلم به : أى بالثغر في البيت قبله . قال في اللسان ، والظلم : الماء الذي يجري ويظهر على الأسنان من صفاء اللون لآمن الريق كالفرند حتى يتخيل لك فيه سواد من شدة البريق والصفاء ، قال كعب بن زهير :
تجلو غوارب ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول
لو يترشف : لو هنا للتمنى ، وفي بعض النسخ إذ يترشف ، والترشف : مص الماء قليلا قليلا . قال ابن بسام :
« أراه بيت أبي الطيب : وما شرق بالماء إلا تذكر الماء به أهل الحبيب نزول
(٢) المرن : اسم فاعل من الأرنان ، وهو الصوت الحزين ، والجان : حب يتخذ من صفار اللؤلؤ ، أو من الفضة أمثال اللؤلؤ ، والورق : جمع ورقاء وهي الحماة التي لونها بين السواد والغبرة وهي ما تسمى في عرف أهل مصر بالتيامة ، وفي مثل هذا يقول الشاعر المحسن جران العود النيري :
..... ثم هاجني حمام ورق بالمدينة هتف

والأيك : جمع أيسكة ، وهي الشجر الكثير اللثف ، وتهتف : تنوح . (٣) الهودج : ما تركب فيه المرأة يكون مقبلا وغير مقبب ، وفي بعض النسخ بدل صان ضم ، والريم : الظبي الخالص البياض ، والخذر المسجف : ما على كل مدخل أو نافذة من نوافذه سيجان أي ستران بينهما مشقوق كالصراعين .
(٤) (ولا قبل عبادة) هو المعتضد بالله أبو عمر عبادة بن الظافر المؤيد بالله أبي القاسم محمد بن إسماعيل قاضي أشبيلية ينسب إلى النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة ، وهو صاحب قرطبة وأشبيلية وما والاها من جزيرة الأندلس ، ولي الملك بعد وفاة أبيه الظافر محمد بن إسماعيل القاسم سنة ٤٣٣ هـ وكان هو وابنه المعتضد أوسع ملوك الطوائف ملكا ، وأشداهم بأسا ، وأكثرهم عددا وعددا ، وكان المعتضد فيما ذكره ابن بسام صاحب الذخيرة قطب رحي الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة في بلاد الأندلس ، وإلى سياسته يعزى السبب في تلك الحروب الطاحنة التي نشبت بين ملوك الطوائف واستعان بعضهم على بعض فيها بالعدو الذي انتهز فرصة ضعفهم ، وتفرق كلتهم فعمل على إزالة ملكهم ، وإخراج المسلمين من بلادهم - والرفرف - الفرش والبسط ، وكل ما أعد للجلوس ، وفي التنبيل العزيز « متكئين على رفرف خضر » وهو جمع رفرفة ورفارف جمع الجمع . قال ابن بسام : وهذا البيت للفسطلي بجملته حيث يقول في ابن أبي عامر :
وكيف أسوى بالبر والبحر مجلس وقام بمعبء الراسيات سرير

هُوَ الْمَلِكُ الْجَمْعُ الَّذِي فِي ظِلَالِهِ تَكْفُ صُرُوفُ الْحَادِثَاتِ وَتُصَرَّفُ^(١)
 مُهَامُّ يَزِينُ الدَّهْرَ مِنْهُ وَأَهْلُهُ مَلِكٌ قَقِيهٌ كَاتِبٌ مُتَفَلِّسٌ
 يَتِيهُ بِمَرْقَاهُ سَرِيرٌ وَمِنْ بَرٍّ وَيَحْمَدُ مَسْعَاهُ حُسَامٌ وَمُصْحَفٌ
 رَوِيَّتُهُ فِي الْحَادِثِ الْإِدِّ لَحْظَةٌ وَتَوَقُّعُهُ الْجَالِي دُجَى الْخَطْبِ أَحْرَفٌ^(٢)
 يَذِلُّ لَهُ الْجَبَّارُ خِيفَةً بِأَسِيهِ وَيَعْنُو إِلَيْهِ الْأَبْلَجُ الْمُتَغَطِّفُ^(٣)
 حِذَارُكَ - إِذْ تَبَغَّى عَلَيْهِ - مِنْ الرَّدَى وَدُونَكَ فَاسْتَوَفِ الْمُنَى حِينَ تُنْصِفُ
 سَتَعْتَامُهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِالتَّوَى كِتَابٌ تُرْجَى أَوْسَفَانُ تُجْدَفُ^(٤)
 أَغْرَى مَتَى نَدْرُسُ دَوَاوِينَ نَجْدِهِ يَرْقُنَا غَرِيبٌ مُجْمَلٌ أَوْ مُصَنَّفٌ^(٥)
 إِذَا نَحْنُ قَرَّظْنَاهُ قَصَّرَ مُطْنِبٌ وَلَمْ يَتَجَاوَزْ غَايَةَ الْقَصْدِ مُسْرِفٌ^(٦)

(١) الجمع : قال في اللسان « والجمع إذا ذهب به مذهب المدح فله معنيان مستحبان ، أحدهما : أن يكون معصوب الجوارح ، شديد الأمر والخلق غير مسترخ ولا مضطرب ، والثاني : أن يكون شعره جمدا غير سبط ، لأن سبوطه الشعر هي الغالبة على شعور العجم من الروم والفرس ، وجعودة الشعر هي الغالبة على شعور العرب ، فإذا مدح الرجل بالجمع لم يخرج عن هذين المعنيين » الخ ما قال في الجمع على كلا الاعتبارين المدح أو الذم فانظره ، والمعنى هو الملك المجتمع الخلق الذي ليس رهلا مسترخي الاعضاء ، أو الجمع الشعر ، أو الكريم الذي في ظله وكنفه تكف غير الحوادث وصروف الدهر وتردها عن أن تقصد المستظلين بظله بالسوء .

(٢) الاد العظيم ، والتوقع : ما يكتبه الملك في الكتاب من جل قصيرة ، وأحرف بسيرة ، لافاذ أوامره ، وإمضاء شؤون دولته ، والمعنى تفكيره في الحادث العظيم الفظيع الداهي سريع لايحتاج إلى تريث ، وعدم تعجل ، وتوقعه الكاشف ظلمة الخطوب كلمات قليلة جامعة لمضمون ما يريد إنفاذه .

(٣) الأبلج : الأبيض ، والمتغطف : السيد السرى المختال في مشيته .

(٤) ستعتامهم : مستخارهم ، والتوى : الهلك ، وترجى : تساق وتسير ، وتجدف تدفع بالمجاديف .

(٥) أغرّ كريم الأفعال وأضحها ، وندرس : أى متى نرض أنفسنا على قراءة ماسطر في دفاتر مجده ، يرقنا : أى يعجبنا الخ ، وفي الأصل : « متى تدرس » ، والغريب : الغامض البعيد عن الفهم ، والمجمل : المحتاج إلى التفسير والبيان ، والمصنف : المميز بعضه من بعض ، والمبين خفاؤه وإجماله .

(٦) قرظناه : من التفريظ وهو المدح والثناء ، وأصله من تفريظ الجلد أى دبه بالقرظ ، والمطنب : السهب المتوسع في القول ، والقصد : التوسط والاعتدال .

وَأَرْوَعُ لَا الْبَاغِي أَخَاهُ مُبَلِّغٌ
مُمرُّ الْقَوَى لَا يَمَلُّ الْخَطْبُ صَدْرَهُ
لَهُ ظِلُّ نَعْمَى يَذْكُرُ الْهَمُّ عِنْدَهُ
جَجِيمٌ لِعَاصِيهِ يُشَبُّ وَقُودُهُ
مَحَاسِنُ ، غَرْبُ الدَّمِّ عَنْهَا مُفَلِّلٌ
تَنَاهَتْ فَعَقْدُ الْمَجْدِ مِنْهَا مُفْصَلٌ
طَلَاقَةٌ وَجْهِهِ فِي مَضَاءٍ كَمَثَلِ مَا
عَلَى السَّيْفِ مِنْ تِلْكَ الشَّهَامَةِ مِدْسَمٌ
سَجَايَا لِمَنْ وَالَاهُ كَالْأَرَى تُجْتَنَى
يُرَاقِبُ مِنْهُ اللَّهُ « مُعْتَصِدٌ » بِهِ

مُنَاهُ وَلَا الرَّاجِي نَدَاهُ مُسَوِّفٌ (١)
وَلَيْسَ لِأَمْرِ فَائِتٍ يَتَلَهَّفُ (٢)
ظِلَالُ الصَّبَا بَلْ ذَاكَ أَنْدَى وَأَوْرَفُ (٣)
وَجَنَّةُ عَدْنٍ لِلْمُطِيعِينَ تُرَافُ (٤)
كَهَامٌ ، وَشَمْلُ الْمَجْدِ فِيهَا مُوَلَّفُ (٥)
سَنَاءٌ وَبُرْدُ الْفَخْرِ مِنْهَا مُفَوِّفُ (٦)
يُرُوقُ فِرْنَدُ السَّيْفِ وَالْحَدُّ مُرْهَفُ (٧)
وَفِي الرُّوضِ مِنْ تِلْكَ الطَّلَاقَةِ زُخْرُفُ (٨)
تَعُودُ لِمَنْ عَادَاهُ كَالشَّرَى يُنْقَفُ (٩)
يَدُ الدَّهْرِ يَقْسُو فِي رِضَاهُ وَيَرَأْفُ (١٠)

(١) الأروع : الذى يروىك حسنه ، وبعبك مرآه ، ومعنى سائر البيت ليس الذى يعنى له مثيلاً ببالغ مناه ، وليس الذى يرجو نداء مؤخرًا عطاؤه . (٢) الأمر : الحبل الذى أجيد فتله ، والقوى : طاقاته يريد أنه مستحكم القوى وليس رخوا ضعيفاً يملأ الهول صدره فزعاً ، وبأسى على مافاتنه تلهناً وتحسراً . (٣) الهم : الشيخ الكبير الفانى ، يعنى أن الشيخ الهم يذكرك عند استظلاله بظل نعماء الوارف أنه فى ظل الشباب الندى المعتدل بل إن ظل نعماء أكثر نداوة وورواً وامتداداً .

(٤) تراف : تقرب ، وفى التنزيل العزيز « وأزلفت الجنة للمتقين » أى قربت . (٥) الغرب : الحد ، مغلل : فيه كسور ، وكهام : كليل ناب عن الضريبة لا يقطع . (٦) السناء : الرفعة ، وبرد مفوف : رقيق من نسج البين . (٧) فرند السيف : جوهره وماؤه الذى يجرى فيه وطرائقه ، والمعنى : يعلو وجهه ماء كفرند السيف المتفرق ، مع مضاء عزم كده المرهف فى التصميم والقطع ، وفى رواية : « طلاقه مجد » (٨) ميسم أثر وعلامة . وفى الأصل : « من تلك الطلاقة مظرف » (٩) الأرى : السمل ، والشرى : الحنظل ، وينقف : أى يشق لأخذ ما فى داخله قال امرؤ القيس :
كأننى غداة البين يوم تحملوا لى سمرة الحى ناقت حنظل
(١٠) يد الدهر : مدى الدهر ، قال أبو العلاء :

فيا ليتنا عشنا حياة بلا ردى — يد الدهر — أو متنا مماتاً بلا نشر
ومعنى البيت أنه يرأف وبمنف دائماً فى سبيل مرضاة الله وحده ، ويقال أيضاً يد الحياة ، قال أبو العلاء :
لو كان لى أمر يطاوع لم يشن ظهر الطريق — يد الحياة — منجم

فَقُلْ لِلْمُلُوكِ الْحَاسِدِيهِ مَتَى أَدْعَى
الْبَنَسَ « بَنُو عَبَّادٍ » الْقِبْلَةَ الَّتِي
مُلُوكُهُ يُرَى أَحْيَاؤُهُمْ فَخَرَّ دَهْرُهُمْ
بِهِمْ بَاهَتِ الْأَرْضُ السَّمَاءُ فَأَوَّجُهُ

أَشَارَحَ مَعْنَى الْمَجْدِ وَهُوَ مُعَمَّسٌ
لَعَمْرُ الْعِدَا الْمُسْتَدْرِجِيكَ بِزَنَمِهِمْ
لَكَالُوكَ صَاعَ الْغَدْرِ لَوْثُ سَجِيَّةٍ
لَقَدْ حَاوَلُوا الْعُظْمَى الَّتِي لَا شَوَى لَهَا

(١) العتيق : النجيب الكريم من الخيل ، والشأو : الناية ، والمقرف : الهجين وهو الذى أمه برذونة وأبوه عربى أو بالعكس . (٢) معكف مصدر ميمي بمعنى المكوف أى إقامة وملازمة .

(٣) أى بنو عبادة ملوك يرى الناس أحياءهم مفخرة الزمان ، ويخلف من بعد موتاهم ذكر حسن وثناء موروث يتحدث به الناس ، ويتناقله الخلف عن السلف .

(٤) الحيا : المطر ، والمزن : السحاب ، وأوكف : أهطل وأغزر والمعنى : فاخرت بهم الأرض السماء فوجوههم أبهى طلعة من النيرات ، وآثار نعمهم ، ومزن أيديهم أغزر وأهطل من السحب الماطلات .

(٥) معمس : ملبس ملتوع جهته مظلم لا يدرى من أين يؤتى له ، ومسفف : نازل من أسف الطائر إذا دنا من الأرض ، والمعنى : يا من بفعالك المجيده أثبت معنى المجد فى حال كونه غامضا ملتبسا ، وأجزلت بأثارك الحميدة حظ الحمد على حين حظ غيرك منه حقير ، وجواب النداء فى الأبيات بعده .

(٦) لعمر العدى : يقسم بحياتهم متهمكاً للإشارة إلى إخفاقهم فيما حاولوا ، المستدرجيك : أى الذين حاولوا فى زعمهم أن يتدرجوا بك قليلا قليلا على غرة ، وبأخذوك على غفلة إلى ما تكاد له الشمس تكسف لجراتهم ، وهول ما أقدموا عليه . (٧) لكالوك : أى لقد كالوك من لؤم سجيئهم صاع الغدر ، وكلتهم صاع الجزاء والمعقوبة على غدرهم ، والمطفف : فى الأصل المنقوص البخوس من طفف الكيل تقصه وبخسه ، وقد يستعمل بمعنى الوافى وهو المراد هنا .

(٨) لقد حاولوا العظمى : أى الفتكة العظمى ، التى لا شوى لها : أى التى لا تصيب الأطراف ولكن تصيب المقاتل ، فأعجلهم عقد : أى رأى وتدير من همك وعزمك ، محصف : محكم شديد لا خلل فيه .



وَلَمَّا رَأَيْتَ الْعُذْرَ هَبْ نَسِيمُهُ تَلَقَّاهُ إِعْصَارُهُ لِبَطْشِكَ حَرْجَفُ (١)
 أَظَنَّ الْأَعَادِي أَنَّ حَزْمَكَ نَائِمٌ لَقَدْ تَعَدَّى الْفَسْلَ الظُّنُونُ فَتُخَلِّفُ (٢)
 دَوَاعِي نِفَاقٍ أَنْذَرْتُكَ بِأَنَّهُ سَيَشْرَى وَيَذْوِي الْعُضْوُ مِنْ حَيْثُ يُشَافُ (٣)
 تَحَمَّلْتَ عِبَاءَ الدَّهْرِ عَنْهُمْ وَكَلِمَهُمْ بِنِعْمَاكَ مَوْصُولُ التَّعْنَمِ مُتَرَفٌ (٤)
 فَإِنْ يَكْفُرُوا النُّعْمَى فَتَمْلِكْ دِيَارَهُمْ بِسَيْفِكَ قَاعُ صَفْصَفِ الرَّسْمِ تُنْسَفُ
 وَطَى الثَّرَى مَثْوًى يَكُونُ قُصَارَهُمْ وَإِنْ طَالَ مِنْهُمْ فِي الْأَدَاهِمِ مَرَسَفُ (٥)
 وَبُشْرَاكَ عِيدٌ بِالشُّرُورِ مُظْلَلٌ وَبِالْحَفْظِ فِي نَيْلِ الْمُنَى مُتَكَنَّفُ (٦)

(١) النسيم : الريح تهب هبوباً خفيفاً ، والأعصار : الريح الشديدة التي تهب من الأرض ، وتثير الغبار فيرتفع كالعمود إلى نحو السماء ، وهي التي تسمى بالزوبعة ، وفي المثل « إن كنت ريحاً لقد لاقيت إعصاراً » يضرب للرجل يلقى نده في البسالة والقوة ، والخرجف : البارد وصف بها الأعصار. وفي الأصل « خرجف »
 (٢) الفسل : الرذل الدنيء الأحمق ، والمعنى لم يتحقق ظن الأعداء أن تديرك نائم عن كيدهم وغدرهم وكثيراً ما آمد الظنون الحق الأرزال فتخلفهم .

(٣) يشري العضو : أى يظهر عليه ورم وقروح تحتاج إلى الكي ، ويذوي : يذبل ويضمحل ، ويشاف أى تكوى شأفته أى قرحته لتذهب بالكي ، والبيت تمثيل لحال طائفة نجيم فيها النفاق والشر فكانت كالعضو المريض لمج به الداء فلم يكن بد من معالجته بالكي لاستئصال شأفته ، وفي رواية « يدوي العضو »
 (٤) أى كفيهم مؤونه السمي ، وحمى عنهم العباء ، فكلمهم في ظل نعمائك دائم التعم والترف .

(٥) قصارهم : يقال تصرك وقصارك وقصارك أن تفعل كذا أى غايتك ، والأداهم : القيود لسوادها جمع أدهم وتسمى بالأساود أيضاً ، والمرسف : مصدر ميمي من الرسفان وهو مشى المقيد ، أى أن هؤلاء الأعداء سيكون ما لهم أن يموتوا في الحبس ، بعد إن تطول عليهم مدته .

(٦) انتقل إلى ذكر مظاهر الدولة عند خروج الملك لصلاة العيد ، وترتيب المملكة في ذلك على ما يؤخذ من صبح الأعشى أن ينادى في طامة البلد ، وأهل الأسواق ليلة العيد فيخرج أهل كل صناعة بظاهر البلد ، وينتجى أهل كل سوق ناحية ، متجملين بأحسن الثياب ، وكل منهم متنكب قوساً أو متقلد سيفاً ، ومع أهل كل سوق علم يختص بهم ، عليه رنك أهل تلك الصناعة بما يناسبهم ، ويكر الملك بالركوب فيركب وعن يمينه ويساره فارسان ، وممسك بركابه رجلان مقلدان سيفين ، ويركب العسكر معه ميمنة وميسرة ، ويصطف الناس صفوفاً يمشون قدامه ، والعلاج خلفه ملتفون به ، والأعلام منشورة وراءه ، والطبول خلفه حتى يصل العيد ، ثم يعود فينصرف طامة الشعب ويمد السباط فيحضر طعامه خواصه وأعيان مملكته ، ومعنى البيت أنه يبشره بالعيد : بظلاله السرور ، ويكتنفه الحظ يبلوغ المنى .

بَشِيرٌ بِأَعْيَادٍ تُؤَافِيكَ بَعْدَهُ كَمَا يَنْسُقُ النَّظْمَ الْمُوَالِي وَيَرْصِفُ^(١)
تَجَرَّدَ فِيهِ سَيْفُ دَوْلَتِكَ الَّذِي دِمَاءُ الْعِدَى دَأْبًا بِغَرَبِيَّةٍ تُظْلَفُ^(٢)
هُوَ الصَّارِمُ الْعَضْبُ الَّذِي الْعَزْمُ حَدُّهُ وَحَلِيَّتُهُ بَذْلُ النَّدَى وَالتَّعَفُّفُ
هُمَامٌ سَمًا لِلْمَلِكِ إِذْ هُوَ يَافِعُ وَتَمَّتْ لَهُ آيَاتُهُ وَهُوَ مُخْلِفُ^(٣)
كَرِيمٌ يَعُدُّ الْحَمْدَ أَنْفَسَ قَنِيَّةٍ فَيُولَعُ بِالْفِعْلِ الْجَمِيلِ وَيُشَفِّفُ
غَدًا بِجَمِيسٍ يُقْسِمُ النَّعِيمُ إِنَّهُ لِأَخْفَلُ مِنْهَا مُكْفَهَرًا وَأَكْثَفُ^(٤)
هُوَ النَّعِيمُ مِنْ زُرْقِ الْأَسِنَّةِ بَرَقَهُ وَلِلطَّبْلِ رَعْدٌ فِي نَوَاحِيهِ يَقْصِفُ

فَلَمَّا قَضَيْنَا مَا عَنَانَا أَدَاؤُهُ وَكُلُّ مَا يُرْضِيكَ دَاعٍ فَلَحِفُ^(٥)
قَرَنَّا بِحَمْدِ اللَّهِ حَمْدَكَ إِنَّهُ لِأَوْكَدُ مَا يُحْظَى لَدَيْهِ وَيُزِلُ^(٦)

(١) ينسق النظم : أى يتابع بينه ويجعله على طريقة نظام واحد ، ويرصف : أى ينظم وينضد ، والمعنى هذا العيد بشير بأعياد تأتى بعده على نسقه وترتيبه .

(٢) بنريه : بحديه ، وتظلف : تهذر من قولهم ذهب دمه ظلفاً أى هدرأ .

(٣) القلام اليافع الذى شارف الاحتلام ، والتخلف : الذى اختلف نظر الناس فيه فبعضهم يقول قد احتلم وأدرك ، وبعض يقول غير مدرك ، والمعنى سباهمته إلى الملك وهو دون الاحتلام ، وتمت له علاماته ورسومه ومميزاته ، وهو مشكوك فى احتلامه .

(٤) الحميس : الجيش الجرار التام الفرق من المقدمة والميمنة والميسرة والغلب والساق وأراد به العسكر السائرين فى موكب الملك عند خروجه لصلاة العيد ، والنيم : السحاب ، وأخفل : أى أكثر منها احتشاداً واجتماعاً فى حال كونه (مكفهراً) أى مظلماً أسود لما على الجند من الدروع والسلاح ، وأكثف : أى أكثر كثافته وتراكمها من السحاب لشدة الزحام وكثرة العدد وأعاد التضمير فى قوله (منها) على النيم مؤثراً مراعاة للمعنى . (٥) أى فلما أدينا ما أهمنا أداؤه من صلاة العيد : وكل الناس داعٍ فلح فى الدعاء بما يرضيك ، وجواب لما يأتى بعد .

(٦) يحظى : أى يوجب الحظوة والتفضيل ، ويزل : يقرب ، والمعنى : ولما انتهينا من صلاة العيد جمعنا بين حمد الله والثناء عليك لأنه أبلغ فى بلوغ الحظوة لديه ، والزلقى لآليه .

وَعُدْنَا إِلَى الْقَصْرِ الَّذِي هُوَ كَعْبَةٌ يُغَادِيهِ مِنَّا نَظِيرُهُ أَوْ مُطَرَفٌ^(١)
فَإِذْ نَحْنُ طَالِعُنَاهُ وَالْأَفْقُ لَابَسٌ عَجَاجَتُهُ وَالْأَرْضُ بِالْخَيْلِ تَرْجُفُ^(٢)
رَأَيْتَكَ فِي أَعْلَى الْمُصَلَّى كَأَنَّمَا تَطْلَعُ مِنْ مِحْرَابِ دَاوُدَ يُوسُفُ^(٣)
وَلَمَّا حَضَرْنَا الْإِذْنَ وَالْدَّهْرُ خَادِمٌ تُشِيرُ فَيَمُضِي وَالْقَضَاءُ مُصَرَّفٌ^(٤)
وَصَلَلْنَا فَقَبَّلْنَا النَّدَى مِنْكَ فِي يَدٍ بِهَا يُتْلَفُ الْمَالُ الْجَسِيمُ وَيُخْلَفُ

* * *

لَقَدْ جُدْتَ حَتَّى مَا بِنَفْسٍ خَصَاصَةٍ وَأَمَنْتَ حَتَّى مَا بِقَلْبٍ تَخَوُّفٍ

(١) يغاديه : أى يباكره ويدعو عليه فى أول النهار ، والمطرف : الذى يديم النظر فى القصر من حب وإعجاب ، وهو فى الأصل الذى أصاب طرفه أى عينه عود فهو دائماً يثبت نظره فى الشيء ، ولا يغمض طرفه أو هو اسم فاعل من طَرَفَ الشيء اختاره ، قال الشاعر :

أطرف أبكاراً كأن وجوهها وجوه عذارى حسرت أن تقما

(٢) طالعناه : أى القصر ، والمعجاجة : ماثبه سناك الخيل من النبار ، وترجف : تضطرب .

(٣) المصلى : المكان المعد لصلاة العيد ، وتطلع : طلع وأشرف عليهم من محراب ، وروى عن الزجاج فى قوله تعالى « وهل أُنَاكَ نبأ الخضم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود » قال : المحراب أرفع بيت فى الدار ، وأرفع مكان فى المسجد ، والمعنى : رأيتك حين عودتنا إلى القصر ومطالعنا إياه مشرفاً بأعلى المصلى من غرفة قصر كَأَنَّمَا أشرق من محراب داود فى يوم نسكه وعبادته وجه يوسف رائعاً فى حسنه وجماله .

(٤) قال ابن بسام : وقوله ولما حضرنا الإذن البيت مع الذى بعده أرى أبا الوليد احتذى فيه حذو الوليد فى أبيات أشدها لحسناً وهى من أحسن ما قيل فى الهية :

ولما حضرنا سدة الأذن أخرت رجال عن الباب الذى أنا داخله
فأفضيت من قرب إلى ذى مهابة أقابل بدر التم حين أقابله
كما انتصب الرمح الردينى ثققت أنا بيبسه واهتز للطعن عامله
وكالبدر وافته لم سعوذه وتم بناءه واستهلت منازلها
وسلمت فاعتافت جناى هيبه تنازهنى القول الذى أنا قائله
فلما تأملنا الطلاقة وانثنى إلى بيشر آنستنى مخايله
دنوت فقبلت الندى من يداى سرى كريم يحياه سباط أنامله
صفت مثل ما يصفو المدام خلاله ورقى كما رقى النسيم شمائله

وقول ابن زيدون وصلنا فقبلنا الندى من يد امرئ معنى مليح ولفظ صحيح ، إلا أنه كما تراه انط بيت البحترى ويقول بعض أدبائنا إن ابن زيدون بحترى زماننا وصدقوا لأنه هذا حذو الوليد فى بعض قصائده .

وَلَوْلَاكَ لَمْ يَسْهَلْ مِنَ الدَّهْرِ جَانِبٌ وَلَا ذَلَّ مُقْتَادٌ وَلَا لَانَ مَعْطِفٌ
لَكَ الْخَيْرُ ، أَنَّى لِي بِشُكْرِكَ نَهْضَةٌ ؟ وَكَيْفَ أَوْدَى فَرَضَ مَا أَنْتَ مُسْلِفٌ ؟^(١)
أَفَدَّتْ بِهَيْمِ الْحَالِ مِنِّي غُرَّةٌ يُقَابِلُهَا طَرْفُ الْجَمُوحِ فَيَطْرِفُ^(٢)
وَبَوَّأَتْهُ دُنْيَاكَ دَارَ مُقَامَةٍ بِحَيْثُ دَنَا ظِلٌّ وَذُلِّلَ مَقْطِفٌ^(٣)

وَكَمْ نِعْمَةٍ أَلْبَسَتْهَا سُنْدُوسِيَّةٌ أَسْرَبَلُهَا فِي كُلِّ حِينٍ وَأُخْلِفَ
مَوَاهِبُ فَيَاضِ الْيَدَيْنِ كَأَنَّمَا مِنَ الْمُزْنِ تُتَمَرَّى أَوْ مِنَ الْبَحْرِ تُغْرَفُ
فَإِنْ أَكْ عَبْدًا قَدْ تَمَلَّكَ رِقَّةُ فَأَرْفَعُ أَحْوَالِي وَأَسْنَى وَأَشْرَفُ^(٤)

(١) نهضة : أى طاقة وقدرة أى كيف يكون لى قدرة على القيام بشكرك ، ومسلم : اسم فاعل من أسلفه أى أقرضه ، وفى رواية : « قرض ما أنت مسلم »

(٢) المعنى اكسبت سواد الحال منى غرة بياض يواجهها طرف الطموح الذى يد بصره إلى الشيء فيطرف أى يثبت فيها نظره من قولهم فلان مطروف العين بفلان إذا كان لا ينظر إلا إليه .

(٣) أى أنزلتنى وأحللتنى من دنياك الشبيهة بدار المقامة جنة دنا ظلها وذلت تطونها .

(٤) فإن أك بما أوليتنى من نعم عبداً مرقوقاً لك فاقى أعدائى إليك بالعبودية والرق أسنى أحوالى وأرفعها وأشرفها ، قال أبو الطيب المتنبي « ومن وجد الاحسان قيدا تنجدا » .

ولنذكر - بمناسبة هذه القصيدة الفذة التى قالها ابن زيدون بحترى الغرب فى المعتضد بالله بمناسبة عيد الأضحى - قصيدة بحترى الشرق التى قالها فى التوكل بمناسبة عيد الفطر - ليرى القارىء صورتين قارب بينهما اتحاد الغرض والشاعرية وإن اختلفت الغافية والبحر :

الله مكن للخليفة جعفر ملكاً يحسنه الخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضلها والله يرزق من يشاء ويفدر
فاسلم أمير المؤمنين ، ولا تزل تعطى الزيادة - فى البقاء - وتشكر
صمت فواضلك البرية ، فالتقى فيها المقل على الغنى والمكثر

بالبرصمت - وأنت أفضل صائم - وبسنة الله الرغنية تفطر
فانعم بيوم الفطر عينا ، إنه يوم أغر - من الزمان - مشهر
أظهرت عز الملك فيه يحجى لى ، لى ، يحاط الدين فيه وينعم

في طرطوشة (١)

غَرِيبٌ بِأَقْصَى الشَّرْقِ يَشْكُرُ لِلصَّبَا (٢)
تَحْمَلُهَا مِنْهُ السَّلَامُ إِلَى الْغَرْبِ
وَمَا ضَرَّ أَنْفَاسَ الصَّبَا فِي أَحْتِمَالِهَا
سَلَامٌ هَوَى يَهْدِيهِ جِسْمٌ إِلَى قَلْبِ (٣)

خلنا الجبال تسير فيه ، وقد غدت
فالخيل تسهل ، والفوارس ندعى ،
والأرض خاشعة تميد بثقلها ،
والشمس مائعة توند بالصبحى
حتى طلعت بضوء وجهك ، فأنجحت
وافتن فيك الناظرون ، فاصبح
يجدون رؤيتك التي فاروا بها
ذكروا لطلعتك التي فهدوا
حتى انتهت إلى المصلى لا بآ
ومشيت مشية خاشع متواضع
فلو أن مشافا تكلف فوق ما
عددا يسير بها العديد الأكثر
والبيض تلمع ، والأسنة ترهر
والجوة معتكر الجوانب أغبر
طورا ، وبطقها المعجاج الأكر
ذلك الدجى ، وأنجحت ذلك المعبر
يومى إليك بها ، وعين تنظر
من أنعم الله الحق لا تكفر
لما طلعت من الصفوف وكبروا
نور الهدى يبدو عليك ويظهر
لله لا يزهي ، ولا يتكبر
في وسعه لسمى إليك المنبر



أيدت من فصل الخطاب بحكمة
ووقفت في برد النى مذكرا
ومواعظ شفت الصدور من الذى
حتى لقد علم الجهول وأخلصت
صلوا وراءك آخذين بعصمة
فاسلم بغفرة الاله فلم يزل
الله أعطاك المحبة فى الورى
ولأنت أملا للعيون لديهم
تنهى عن الحق المبين وتخبر
بالله تنسذر تارة وتبشر
بمتادها وشفاؤها متعذر
نفس المروى واهندى المنجبر
من ربهم وبذمة لا تخفر
يهب الذنوب لمن يشاء وبغفر
وحباك بالفضل الذى لا ينكر
وأجل قدراً فى الصدور وأكبر

(١) هي مدينة بأقصى الشرق من الأندلس على البحر الأبيض المتوسط ، وهي من أعمال بلنسية . قالوا :
وكانت متقنة العمارة ، وهي من الفرض البحرية التي ينتابها التجار ويسافرون منها إلى سائر الأمصار ، وقد
استولى عليها الافرنج وعلى جميع حصونها في سنة ٥٤٣ هـ (٢) ربح الصبا ، وهي التي تهب من
الشرق ، وتقابلها الدبور (٣) ليت الصبا تحتل أنفاسها سلاما من جسم في الشرق إلى فؤاده النائي
منه في الغرب ، وقريب من هذا المعنى قول عبد الرحمن الداخل « صقر قريش » :

لأن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي وساكنيه بأرض
فقدّر الله بالفراق علينا فمضى بإجتماعنا سوف يقضى

إلى الوزير أبي عبد الله^(١)

« لم تزل الأيام تدنى « ابن زيدون » وتبعده ، وتسوءه وتسعده ،
وتقذف به إلى كل نازح ، وتطرف أمله بعين اللاعب المازح ، حتى
أحلت له « بلنسية » وهلال ذكائه كما أقر ، وغصن نباهته يانع قد أثمر ،
وبنو عبد العزيز غرر ملكها ، ودرر سلسلكها ، يفيضون بحور الندى ،
ويومضون في كل منتدى ، فحل منهم محلّ الحيا في الكؤوس ،
ودقع منهم موقع البشائر في النفوس ، وأقام بين مبرة تواصله ، ومسرة
تغازله ، ومكارمة تفاديه ، ومجاملة كراخ القطر وغاديه ، فاما انفصل ،
وحصل ما حصل ، تذكر بعد برهة ذلك العيش ونور عمره قد
صوح ، وغصن سنه قد دوح ، فلم يجد إلا له طيبا ، ولم يهصر غير
فئنه غصنا رطيبا ، فكتب إلى ابن عبد العزيز^(٢) : »

رَاحَتْ فَصَحَّ^(٣) بِهَا السَّقِيمُ رِيحٌ مُعْطَرَةٌ النَّسِيمِ
مَقْبُولَةٌ هَبَّتْ قَبُو^(٤) لَا^(٥) فَهِيَ تَبْقُ فِي الشِّمِّ^(٥)
أَفْضِيضُ مِسْكٍ أَمْ بَلَدٌ سِيَّةٌ لِرِيَّاهَا^(٦) نَمِيمٌ^(٧)
بَلَدٌ حَبِيبٌ أَفْقُهُ لِفَتَى يَحُلُّ بِهِ كَرِيمٌ

- (١) هو الوزير أبو عبد الله بن عبد العزيز . (٢) قلائد المعيان .
(٣) وفي رواية « فراح لها السقيم » راحت أى بردت وطابت ، وراح لها السقيم من قولهم : « راح
للأمر يراح » إذا أخذته أريحية وخفة ونشاط ، أى فارتاح لطيبها السقيم .
(٤) القول : ريح الصبا لأنها تقابل الدبور أو لأن النفس تنبأها .
(٥) أى أن ريح الصبا تحمل معها عطرا تنسم منه طيب الشذى .
(٦) لريحها الطيبة . (٧) يقول لعل نسيم بلنسية الشذى الذى تستروح النفس إليه قد هبّ علينا .



أَيُّهَا أَبَا عَبِيدِ الْإِلَهِ (١) دُعَاءُ مَغْلُوبِ الْعَرِيمِ (٢)
 إِنَّ عَيْلَ صَبْرِي مِنْ فِرَا (٣) قِكْ قَالْعَذَابُ بِهِ أَلِيمٌ (٤)
 أَوْ أَتَبَعْتُكَ حَيْنَهَا (٥) نَفْسِي فَأَنْتَ لَهَا قَسِيمٌ (٦)
 ذِكْرِي لِعَهْدِكَ كَالشَّهَاءِ (٧) دِ (٨) سَرَى فَبَرَّحَ بِالسَّلِيمِ (٩)
 مَهْمَا ذَمَّمْتُ فَمَا زَمَا (١٠) نِي فِي ذِمَامِكَ بِالذَّمِيمِ (١١)
 زَمَنْ كَمَا لَوْ رِ الرِّضَا (١٢) عِ شَوْقُ ذِكْرَاهُ الْفَطِيمِ (١٣)
 أَيَّامٌ أَعْقَدُ نَاطِرَئِي (١٤) بِذَلِكَ الْمَرَأَى الْوَسِيمِ (١٥)
 فَأَرَى الْفُتُوَّةَ غَضَّةً (١٦) فِي ثَوْبِ أَوَاهِ حَلِيمِ (١٧)
 اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ حُبَّكَ مِنْ فُؤَادِي بِالصَّمِيمِ (١٨)
 وَلَنْ تَحْمَلَ عَنْكَ لِي (١٩) جِسْمٌ فَعَنْ قَلْبٍ مُقِيمِ (٢٠)

(١) أَيُّهَا : بكسر الهمزة بمعنى زدني من الحديث ، وفتحها بمعنى اكفف واسكت ، أو للتبعية بمعنى هيهات ، أي بعد دعاء مغلوب العريم ، والعريم : الأمر الداهي العظيم ، والمعنى هيهات يجدي دعائي وأنا من غلبته الحادثات على أمره . وفي الأصل : « مغلوب العريم »

(٢) لي العذر إذا ضجرت بفراقك وعيل صبري فقد اشتدت بي الألم لبعادك .

(٣) التميم : شطر الشيء المقسوم ، أي أنت شطر نفسي الثاني فلا غنى لي عنك .

(٤) وفي الأصل : « كالعداد »

(٥) التمام : الحق والحرمة ، والمعنى مهما ذممت : من عهود الزمان الغادر فلن أدم ذلك العهد الحميد الذي قضيته معك ونعمت فيه بقربك ووطأتك .

(٦) فقد كان في ذلك العهد المحبوب مبعث ذكريات سارة أحن إليها كما يحن الطفل المفقود إلى عهد

الرضاع القريب . وفي الأصل « زمن كاللون الرضاع » (٧) أيام ينعم ناظرى برؤية محياك البهي .

(٨) الأواه : الكثير التأوه لإشفافاً وفرقاً ، قالوا : « وهو الكثير التضرع والدعاء أو الحزن والبكاء

أو هو الرحيم الرقيق » والمعنى : فأرى الفتوة - في عنفوانها - مقترنة بالخشية والتضرع والحلم ، وفي الكتاب

الكريم : « إن إبراهيم لحليم أواه منيب » (٩) الصميم : المحض أو الخالص .

(١٠) وإذا رحل عنك جسمي فإن قلبي لم يرحل عنك ولم يحل عن حبك فهو ثابت مقيم عندك .

قُلْ لِي بِأَيِّ خِلَالٍ سَرَّ وَكَ^(١) قَبْلُ أَفْتَنُ أَوْ أَهِيْمُ^(٢)
أُبْجِدُكَ الْعَمَمَ^(٣) الَّذِي نَسَقَ الْحَدِيثَ مَعَ الْقَدِيمِ^(٤)
أَمْ ظَرَفِكَ الْخُلُو الْجَنَى أَمْ عِرْضِكَ الصَّافِي الْأَدِيمُ
أَمْ بَرِّكَ الْعَذْبُ الْجَمَّا مِ، وَبِشْرِكَ الْغَضُّ الْجَمِيمُ^(٥)
أَمْ بِالْبَدَائِعِ كَاللَّا لِي مِنْ تَنْبِيْرٍ أَوْ نَظْمٍ
وَبِلَاغَةٍ إِنْ عُدَّ أَهْلُهَا قَانَتْ لَهُمْ زَعِيمُ
فَقَرُّهُ تَسْوِغُهُ بِهَا الْمُدَا مُ إِذَا تَكَرَّرَهَا النَّدِيمُ^(٦)
إِنْ أَشْمَسَتْ تِلْكَ الْطَلَا قَةً قَالَتْ لِي مَعْنَهَا مَقْصِدُ

إِنَّ الَّذِي قَسَمَ الْخُطُو ظَ حَبَاكَ بِالْخُلُقِ الْعَظِيمِ
لَا أَسْتَزِيدُ اللَّهَ نَعْمِي فِيكَ ، لَا بَلْ أَسْتَدِيمُ
فَلَقَدْ أَقَرَّ الْعَيْنَ أَنَّكَ غُرَّةُ الزَّمَنِ الْبَهِيمِ
حَسْبِيَ الثَّنَاءُ لِحُسْنِ بَرِّ قِكَ مَا بَدَا بَرِّقُ فَشِيمُ^(٧)
ثُمَّ الدُّعَاءُ بِأَنْ تَهَنِّئَ طُولَ عَيْشِكَ فِي نَعِيمِ
ثُمَّ السَّلَامُ تُبَلِّغْنَاهُ فَغَيْبُ ، مُهْدِيهِ سَلِيمِ^(٨)

- (١) السرو : الفضل والسخاء في المروءة . (٢) لأنني لا أدري أي خلال فضلك جدير بالاشارة والتنويه ، وأي مزايك جدير بأن يهيم به عارفك ويفتن (٣) الشامل .
(٤) انتظم المجد الحديث ، والمجد القديم . (٥) الجمال - جمع جمة بتشديد الميم - الماء الكثير المجتمع ، يقال : جت البئر جوما ، إذا اجتمع ماؤها وارتفع بمد نرح ما فيها ، قال زهير :
« ولما وردن الماء زوقا جماله وضعن عصي الحاضر المتخيم »
والجيم : الثبت الكثير . (٦) كلمات تمذب بها الحمر إذا ردها القديم .
(٧) شام البرق : نظر إليه أين يتصد وأين ينظر ، وفي الأصل : « لحسن برئك » .
(٨) وفي رواية : « ثم السلام تبلفنه بقلب مهديه السليم »

جَوَابُ كِتَابِ

« كتب إليه الوزير أبو بكر بن الطيبي :

أَبَا الْوَلِيدِ وَمَا شَطَّتْ بِنَا الدَّارُ
وَقُلِّ مِنَّا وَمِنْكَ الْيَوْمَ زَوَّارُ
وَيَبْنُنَا كُلُّ مَا تَدْرِي بِهِ رُونَ ذِمِّ
وَالصَّبَا دَرَقُ خَضِرٍ وَنَوَّارُ
وَكُلُّ عَتَبٍ وَإِعْتَابٍ جَرَى فَلَهُ
مَوَاقِعُ حُلُوةٍ عِنْدِي وَأَنَارُ
فَإِذَا كَرَّ أَخَاكَ مَحْزَنٌ - كُلَّمَا لَعِبْتُ
بِهِ اللَّيَالِي - فَأَنَّ الدَّهْرَ دَوَّارُ

فجاء به بديها في ظهر رقعة : «

لَوْ أَنَّنِي لَكَ فِي الْأَهْوَاءِ مُحْتَارُ لَمَّا جَرَتْ بِالذِّى تَشْكُوهُ أَقْدَارُ
لَكِنَّهَا فِتْنٌ فِي مِثْلِ غِيَبِهَا تَعْمَى الْبَصَائِرُ إِنْ لَمْ تَعْمَأْ أَبْصَارُ^(١)
فَأَحْسِنِ الظَّنَّ لَا تَرْتَبْ بِعَهْدِ فِتَى تَعَفُّو الْعُهُودُ وَتَبْقَى مِنْهُ آثَارُ
لَوْ كَانَ يُعْطَى الْمُنَى فِي الْأَمْرِ يُمَكِّنُهُ لَمَّا أَغْبَكَ - يَوْمًا - مِنْهُ زَوَّارُ^(٢)
الْأَيْرِ يَبْنُكَ فِي ذِكْرِ الصَّدِيقِ بِهِ مَنْ لَيْسَ يَجْهَلُ أَنَّ الدَّهْرَ دَوَّارُ

(١) لو كان لي الخيار فيما تهواه ونجبه لما جرى القدر بما يسوءك ويبعثك على الشكوى ، ولكنه قدر

لا سبيل إلى رده ، وفتنة تضل في غيابهها العقول وتعمى الأبصار .

(٢) لو كان الأمر بيدي لما تخلفت عن زيارتك يوما واحداً .

في الغزل

وَضَحَّ الْحَقُّ الْمُبِينُ وَتَفَى الشَّكُّ الْيَقِينُ
وَرَأَى الْأَعْدَاءَ مَا غَرَّ تَهْتَمُّ مِنْهُ الظُّنُونُ
أَمَلُوا مَا لَيْسَ يُمْنَى وَرَجَّوْا مَا لَا يَكُونُ
وَتَمَنَّوْا أَنْ يَخُونُ أَلْعَهْدَ مَوْلَى لَا يَخُونُ^(١)
فَإِذَا الْغَيْبُ سَلِمَ وَإِذَا الْوُدُّ مَصُونُ^(٢)
* * *

قُلْ لِمَنْ دَانَ بِهَجْرِي وَهَوَاهُ لِي دِينُ
يَا جَوَادًا بِي إِنْ بَكَ وَاللَّهِ صَنِينُ
أَرْخَصَ الْحُبُّ فُؤَادِي لَكَ وَالْعَلَقُ^(٣) ثَمِينُ
* * *

يَا هَلَالًا تَتَرَا إِهْ نُفُوسٌ لَا عِيُونُ
عَجَبًا لِلْعَلْبِ يَقْسُو مِنْكَ وَالْقَدُّ يَلِينُ^(٤)
مَا الَّذِي ضَرَّكَ لَوْ سُرَّ بِمَرَاكِ الْحَزِينُ
وَتَلَطَّفَتْ لِصَبِّ حِينُهُ^(٥) فَيْكَ يَحِينُ
فَوُجُوهُ اللَّفْظِ شَتَّى وَالْمَعَادِيرُ فُتُونُ^(٦)

(١) وفي رواية: « وتمنوا أن يخون ال عهده مولى لا يخون »
(٢) تخاب ظن الأعداء وظهر أنني لم أكن لمولاي عهداً ، وأن إخلاصى ووفائى لها سليمان وودى له لا يتغير
(٣) النفيس، وفي رواية: « والعلق الثمين » .
(٤) وفي رواية « والمطف يلين » . (٥) هلاكه . (٦) شتى .

في مدح ابن جهور

قال يمدح الوزير الأجل محمد بن جهور بن محمد بن جهور :

أَمَّا عَلِمَتْ أَنَّ الشَّقِيعَ شَبَابٌ فَيَقْصُرُ عَنْ لَوْمِ الْمُحِبِّ عِتَابُ^(١)
عَلَامَ الصَّبَا غَضٌ يَرِفُ رَوَاؤُهُ إِذَاعَنَّ مِنْ وَصْلِ الْحَسَنِ ذَهَابُ^(٢)
وَفِيمَ الْهُوَى مَحْضٌ يَشِفُ صَفَاؤُهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ عَنْهُ ثَوَابُ^(٣)
وَمُسْنَعِفَةٌ بِالْوَصْلِ إِذْ مَرَّ بِعُ الْحُمَى هَلَا كُلَّمَا قَظْنَا الْجَنَابَ جَنَابُ^(٤)
تَظُنُّ الذُّوَى تَعْدُو الْهُوَى عَنْ مَرَارِهَا وَدَاعِي الْهُوَى نَحْوُ الْبَعِيدِ مُجَابُ^(٥)

(١) ألم تعلم أن خير شافع المحب إذا جنى ذنباً هو غضارة شبابه ، وأن الشباب لحسنه في الأعين ولما فيه من الترفه والخفة يعتبر شافعاً في تخفيف العقوبة وتزيلها من لوم عنيف إلى عتاب خفيف يلطف مدخله على القلب ، وإذا كان الشباب خير شافع للحسان فما أجدرهم بالانقصار عن اللوم ، وما أبدع قول علقمة :

فان تسألوني بالنساء ، فافني خبير بأدواء النساء طيب
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث وجدنه وشرخ الشباب عندهن عجيب

(٢) غرض : طرى ناعم ، يرفّ رواؤه : يتفرق فيه ماء الحسن ، والرواء الحسن ، ومعنى البيت : وما قيمة الشباب وغضارة الصبا إذا اخفقا في ترغيب الحسان وعجزا عن اكتساب ودهن .

(٣) محض : خالص لا شائبة فيه ، ويشف من شغوف الماء أي يبدى ما وراءه أي وفيه حبنا خالص لا يشوب صفاءه كدبر إذا لم يكن من الحسان مشوبة عنه وجزاء عليه .

(٤) المريع : الموضع الذي يتزلون فيه زمن الربيع ، والحمى : موضع فيه كلاً يحميه أهله من أن يرهقه غصيرهم ، وقظنا : من القبط وهو صميم الصيف يقال قظنا بمكان كذا أي أقننا فيه زمن الصيف والقيظ والمصيف بمعنى واحد ، والجناب الأول ما قرب من محلة القوم أي قظنا في المكان القريب من الحمى واتخذناه مصيفاً لنا ، والجناب الثاني الناحية ، أي رب حساء تسعني بوصلها كلما اتخذنا جانب الحمى مصيفاً لنا وكانت لها ناحية الحمى سكناً في زمن الربيع ، وفي هذا البيت جناس متكاف كما ترى .

(٥) تظن مسافة البعديني وبينها تصرف تسمى عن زيارتها والحال إن داعي الهوى الذي يناديني من ناحيتها محاب الدعوة .

وَقَلَّ لَهَا نِضْوٌ بَرَى نَحْضَهُ الشَّرَى وَبِهِمْ غُفْلٌ الصَّحَّحَانِ تَجَابُ^(١)
 إِذَا مَا أَحَبَّ الرَّكْبُ وَجْهًا مَضَوْا إِلَهُ فَهَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ تَحَبَّ رِكَابُ^(٢)
 عَرُوبٌ الْأَحْتِ مِنْ أَعَارِبِ حِلَّةٍ تَجَاوَبُ فِيهَا بِالصَّهِيلِ عَرَابُ^(٣)
 غِيَارَى بْنِ الطَّيْفِ الْمُعَاوِدِ فِي السَّكْرِى مُشِيحُونَ مِنْ رَجْمِ الظُّنُونِ غِضَابُ^(٤)
 وَمَاذَا عَلِمَهَا أَنْ يُسْنَى وَصَلَهَا طِمَآنٌ - فَإِنْ لَمْ يُغْنِنَا - فَضِرَابُ^(٥)
 أَلَمْ تَذَرِ أَنَا لَا نَزَاحُ لِرَيْبَةٍ إِذَا لَمْ يُلَمَّعْ بِالنَّجِيعِ خِضَابُ^(٦)
 وَلَا تَنْشَقُّ الْعِطْرَ النَّمُومَ أَرِيحُهُ إِذَا لَمْ يُشَعَّشَعْ بِالْعَجَاجِ مَلَابُ^(٧)

(١) النضو : المهزول والمراد به البعير الذى أنضاه السفر أى أهزله ، وبرى نحضه السرى : أى أذهب لجه السير بالليل ، والبهاء : الفلاة لا يهتدى فيها ، وغفل : أى لا علامة بها ولا أثر يعرف ، والصحصحان : المستوية الجرداء ، أى وتل لهذه المحبوبة النائية بعير أنضاه السفر وفلاة مجهولة لا أثر فيها للعمارة والطرق تجاب وتقطع سيرا لأجلها . (٢) فى معنى هذا البيت قول الشاعر :

وكننت إذا ما جئت لىلى أزورها أرى اليد تطوى لى ويدنو بعيدها

(٣) العروب : المطيعة لزوجها المتحبة إليه ، والأاحت : ظهرت أولوحت بطرف شىء من مكان بعيد والأعراب : الأعزاب ، والحلة : مجتمع البيوت ، والعراب : الخيل العربية ، والمعنى : زوجة من طاعة زوجها والتجرب إليه بحيث لا تلتفت إلى غيره . قد لوحت بطرف مذبل أو نحوه من ناحية الحلة التى ينزل بها أولئك الأعراب النيورون حيث ارتبطوا خيوطهم وركزوا رماحهم .

(٤) غيارى : جمع غيران من الغيرة وهى الحمية والأفقه . يقال رجل غيور على أهله وكذلك غيران والأفنى فبرى ، والمشيح : الحذر المحذ المسرع إليك لمدافعة الموت أو الدفاع عن الحرم ، ومنه قوله .

أبت لى همى وأبى بلأى وأخذنى الحمد بالثمن الأريج

وأقدمى على المكروه نفسى وضربنى هامة البطل المشيح

(٥) يسنى : أى يسهل ويسر ، ومنه تسنى له كذا أى تسهل وتيسر ، وقال الشاعر :

وأعلم علما ليس بالظن أنه إذا الله سنى عقد شىء تيسرا

والمعنى : وأى تبعة ولوم عليها فى أن يسهل الطريق إلى وصلها مطاعنة بالرماح فإن لم تكن فمضاربة بالسيوف

(٦) نزاح : كنتخاف من قولهم فلان يراح للمعروف إذا أخذته له أريحية وخفة ، ويلمع أى ياون بلون التجميع أى الدم ، يقول نحن لا نستريح لوصل الغافيات إذا لم ندفع ثمنه من دم الأعداء .

(٧) النوم : مبالغة فى التمكن به عن سطوع الرائحة ، والأريج : ما يفوح من العطر ، ويشعشع :

يختلط ، والعجاج : الغبار ، والملاب : كسحاب العطر ، أى لا نستريح إلى انتشاق عطرهن الساطع الأريج

إلا بعد امتشاق الحسام ، واختلاط ما تشبه سنابل الخيل من الثراب ، بما ينوح من رائحة الملأب ، والمعنى أنه

لا يجب أن يظن يظن تلك اللذائذ إلا إذا اغتصبها اغتصابا بحد السيف . فهو لا ينزل الرية إلا بالدم ولا يشق

العطر إلا مشوبا بغبار الهيجاء .

وَكَمْ رَاسَلَ الْغَيْرَانُ يُهْدِي وَعِيدَهُ فَمَا رَاعَهُ إِلَّا الطُّرُوقَ جَوَابُ^(١)
وَلَمْ يَتَنَبَّأَنَّ أَنَّ الرَّبَابَ عَقِيلَةٌ تَسَانَدُ سَعْدُ دُونَهَا وَرَبَابُ
وَأَنَّ رُكُوزَ حَوْلِ الْخُدُورِ أَسِنَّةٌ وَحَفَّتْ بِقُبِّ السَّابِحَاتِ قِبَابُ^(٢)
وَلَوْ نَذَرَ الْحَيَّانُ غِيبَ السَّرَى بِنَا لَكَرَّتْ عُظَالِي أَوْ أَعَادَ كُلابُ^(٣)
وَلَيْلَةٌ وَافَتْنَا تَهَادَى فَنَمْتَرَى أَيْسَمُو حَبَابُ أَوْ يَسِيبُ حُبَابُ^(٤)
يُعَذِّبُهَا عَضُّ السَّوَارِ عِصَمٍ أَبَانَ لَهَا أَنَّ النَّعِيمَ عَذَابُ
لَأَبْرَحْتُ مِنْ شَيْحَانٍ خُطَّ لِثَامُهُ إِلَى خَفِرٍ مَا حُطَّ عَنْهُ نِقَابُ^(٥)
ثَوَى مِنْهُمَا ثَنَى النِّجَادِ مُشَاعٍ نَجِيدُ وَمِيلَاءُ الْوُشَاحِ كَعَابُ^(٦)

(١) الغيران : وصف من الغيرة ، والطروق : طرق الحى بالليل ، وفي التمتع بالوصل رغم الغيور يقول ابن الرومي .

ألا ربما سؤت الغيور وساءني وبات كلانا من أخيه على وحر
وقلت أفواهاً عذاباً كأنها ينابيع خر حصبت لؤاؤ البحر
(٢) القب : جمع قباء وأقب والأقب الضامر من الخيل ، ومعنى هذا البيت والذي قبله لم يصرفنا عن زيارة هذه المحبوبة التي كنى عنها بالرباب أن تساند هاتان القليلتان وتماوتا دون الوصول إليها .

(٣) نذر به كفرح علمه فخره وعظالي وكلاب بضم أولهما يومان من أيام العرب ، أي لو علم بسرنا إليها هذان الحيان لكان لنا معهما يومان كيومي عظامي وكلاب في الشهرة والهور .

(٤) يسمو : أي يرتفع للنظر إليه من بعيد فيستبينه وحجاب — بالفتح — توج الماء وطرافه التي كأنها الوشى أو النسيج وبالضم الحية ، ويسمو الينا حجاب بالفتح وهو الماء في تدافعه وتموجه وإحداثه طرائق كطرائق النسيج وهو تمثيل لاختلاس الخطا في المشى ، والمعنى : واذكر ليلة وافتنا محتفية فنشك أيقبل نحونا حبيب أو تنساب الينا حبة . يقول : لقد كنا لا ندرى أن تكون ليلتنا ليلة أنس واغبطا بقرب الحبيبة ، أم ليلة حرب وضراب بغزو أهدائنا إيانا ، وسمو الحجاب : فيه إشارة إلى قول امرئ القيس :

سموت إليها — بعد ما نام أهلها — سمو حجاب الماء ، حالا على حال

(٥) لأبرحت : لقد أفرطت في الحذر وتوقع مواثبة العدو ومشايخته ، والشبحان : الغيور الحذر على الحرم ، والخفر : الحياء ، واللاثام : لارجل ، والنقاب : للمرأة ، يقول : لقد وضعت اللثام عن وجهي وتمتعت بحبيب لم يرفع عنه وجهه نقاب لفرط حيائه . ولقد كنت — إلى ذلك — دائم الحذر والتوقع لمواثبة العدو .

(٦) ثوى : أنام ، وثى النجاد : بكسر أولهما أي طى الفرش والوسائد ، والمشيع : كمعظم الشجاع ، والنجيد : الأسد — وهو يعني بذلك نفسه — وميلاء الوشاح : يريد أن وشاحها به ميل وانحدار لتهود ثديها وضهور كشحيها ، والسكباب : كسحاب التي كعب ثديها — وهو يعني بها حبيبته — وفي معنى هذا البيت يقول الطنراني :

وبننا على رغم الغيور يعضنا جميعاً حواشي بردها وردائنا
وكانت إساءات الليالي كثيرة فما برحت حتى شكرنا الليالي

يُعَلِّلُ مِنْ إِغْرِيزٍ ثَغْرِ يَعْلُهُ
إِلَى أَنْ بَدَتْ فِي دُفْهَةٍ الْأُفُقِ غُرَّةٌ
وَقَدْ كَادَتْ الْجَوَازُاءُ تَهْوِي فَخِلْتَهَا
كَأَنَّ الثَّرَيَّا رَايَةً مُشْرِعٌ لَهَا
كَأَنَّ سُهَيْلًا فِي رِبَاوَةِ أَفْقِهِ
كَأَنَّ الشَّمَا فَانِي الْحُشَاشَةِ شَفَهُ
كَأَنَّ الصَّبَّاحَ أَسْتَقْبَسَ الشَّمْسَ نَارَهَا
كَأَنَّ آيَةَ الشَّمْسِ بِشْرُ ابْنِ «جَهْوَرٍ»
هُوَ الْبَشْرُ شَمْنَا مِنْهُ بَرَقَ غَمَامَةٌ
غَرِيضٌ كَمَا الْمَزْنُ وَهُوَ رُضَابٌ^(١)
وَنَفَرٌ مِنْ جُنْحِ الظَّلَامِ غُرَابٌ^(٢)
ثَنَاهَا مِنَ الشَّعْرَى الْعَبُورِ جَنَابٌ^(٣)
جَبَانٌ يُرِيدُ الطَّغْنِ ثُمَّ يَهَابُ
مُسِيمٌ نُجُومٍ حَانَ مِنْهُ إِيَابٌ^(٤)
ضَنَى فَخُفَاتٍ مَرَّةً وَمَشَابُ
فَجَاءَ لَهُ مِنْ مُشْتَرِيهِ شِهَابٌ
إِذَا بَذَلَ الْأُمُومَالِ وَهِيَ رِغَابٌ^(٥)
لَهَا بِاللَّهْمَا فِي الْمُعْتَفِينَ مَصَابٌ^(٦)

(١) يعلل : أى يكرر من التعليل وهو جنى الثمرة مرة بعد مرة ، ومنه قول امرئ القيس :

فقلت لها سيري وأرخي زمامه ولا تبعدين من جنائك المعلن

والأغريض : الطلع جعل ما ناله مكررا من تقبيلها بنزلة إغريض أبيض حلو تكرر جناه ، ويعمله أى يسقيه مكررا ، والغريض : ماء الأسنان ، والرضاب : الرق المرشوف ، قالوا : وهو الريق مادام فى الفم .
(٢) الدهمة : سواد الليل ، والفرقة : بياض الصبح ، شبه الصبح فى استعجاله الدجى بمن يطير غرابا ، ونظير هذا قول ابن المعتز :

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى نظير غرابا ذا قوادم جوت

(٣) الجوزاء : نجم يعترض فى جوز السماء أى وسطه ، والشعرى : شعريان « إحداهما » الشعرى العبور وهى كوكب يطلع بعد الجوزاء وسميت العبور لأنها - كما يقال - عبرت السماء عرضاً ولم يعبر السماء عرضاً غيرها وهى التى عبيدها طائفة من العرب فى الجاهلية ، وقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى « وأنه هو رب الشعرى » أى التى تعبدونها « والثانية » النبيضاء ، تقول العرب فى أحاديثها لأنها غمضت من بكائها على العبور ، وثناها : عطفها ، والجناح : الناحية والقناة .

(٤) سهيل نجم ، ورباوة أفقه ما ارتفع منه ، ومسيم : اسم فاعل من أسام الابل أى أرهاها ، شبه سهيلا فى انحداره آخر الليل وراء النجوم براع حان منه رجوع ورواح .

(٥) إياة الشمس : بكسر الهمزة وفتحها ضوؤها وحسنها .

(٦) اللهما : بالضم العطايا ، والمعتنى : كالماتى طالب الفضل والجود ، والمصاب : بالفتح نزول المطر مصدر ميمى من صاب المطر يصوب إذا نزل .

جَوَادٌ مَتَى اسْتَعَجَلَتْ أُولَى هِبَاتِهِ
غَنَى عَنِ الْإِبْسَاسِ دَرُّ نَوَالِهِ
إِذَا حَسَبَ النَّيْلَ الزَّهِيدَ مُنِيلَهُ
عَطَايَا يُصِيبُ الْخَاسِدُونَ بِحَمْدِهِ
مَوْطَأٌ أَوْ كُنَافِ السَّمَاحِ دَنَتْ بِهِ
فَزْرُهُ تَزُرُّ أَوْ كُنَافَ غَنَاءِ طَلَّةٍ
زَعِيمُ الْمَسَاعِي أَنْ تَلِينَ شِدَائِدُهُ
مَهِيْبٌ يُغْضِ الطَّرْفُ مِنْهُ لِأَذِنِ
لِأَبْلَجِ مَوْفُورِ الْجَلَالِ إِذَا أُحْتَبَى
وَذَى تُدْرَأُ يَعْدُو الْعِدَا عَنْ قِرَاعِهِ
إِذَا هُوَ أَمْضَى الْعَزْمِ لَمْ يَكْ هَفْوَةٌ

كَفَاكَ مِنَ الْبَحْرِ الْخُضَمِّ عُبَابُ
إِذَا اسْتَنْزَلَ الدَّرَّ الْبَسْكَى عَصَابُ^(١)
فَمَا لِعَطَايَاهُ الْحِسَابِ حِسَابُ^(٢)
عَلَيْهَا ، وَلَمْ يُحْبَبُوا يَا فَيَحَابُوا
خَلَائِقُ زُهْرُهُ إِذَا أَنَافَ نِصَابُ^(٣)
أَرَبَتْ بِهَا لِلْمَكْرُمَاتِ رَبَابُ^(٤)
يُمَارِسُهَا أَوْ أَنْ تَلِينَ صِعَابُ
مَهَابَتُهُ دُونَ الْحِجَابِ حِجَابُ^(٥)
عَلَا نَظْرُهُ مِنْهُ وَعَزَّ خِطَابُ
غِلَابُ فَهَمَّا عَزَّهُ فَنِجْلَابُ^(٦)
يُؤَثِّرُ عَنْهَا فِي الْأَنَامِلِ نَابُ^(٧)

(١) النانة البسوس : هي التي لا تدر إلا على الإبساس بأن يقال لها « بس بس » تسكيناً لها ، والدرا اللين ، والبسكى النانة التي قل لبها ، والعصاب : بالكسر شد تخذى الناقة لتدر . يقول : إن نواله قريب ميسور لا يكفك مشقة ولا يحوجك إلى إلحاف . (٢) حسب : عد ، والحساب : بالكسر بمعنى الكثرة الكافية صفة لعطاياه ، ومنه قوله تعالى « عطاء حساباً » أى كافياً ، والمعنى : إذا عد العطاء القليل منيله ومعطيه ليحصىه فما لعطاياه الكثرة الكافية عد ولا إحصاء .

(٣) يقال رجل موطأ الأكناف : كعظم أى سهل دمت الأخلاق سمح كريم ، والنصاب : كالتنصيب الأصل ، والمعنى : أنه سهل جوانب السماح يقربه منك ويدنو به إليك دماثة أخلاقه وإن علامنته وسما أصله

(٤) النناء : الكثرة الشجر ، والظلة : الروضة بلها الطل ، وأربت : من أرب بالمكان إذا لزمه والرباب السحاب . (٥) يقول إن ابن جهور مهيب يغضى من مهابته ومع هذا فهو يغض طرفه حياء ، وهذا قريب من قول الفرزدق :

« يغضى حياء ، ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حياء بين يبتسم »

(٦) ذو تدراً : بضم أوله أى صاحب عدة وقوة على دفع أعدائه عن نفسه ، وغلاب : أى مغالبة ، وعزه : غلبه ، وخلاب : من خلبه إذا خدعه ، وفي المثل « إذا لم تغلب فأخلب » .

(٧) يقول إذا أمضى العزم لم يك إمضاؤه هفوة يعنى عليها أنامله ندماً وغيظاً .

عَزَائِمُ يَنْصَاعُ الْعِدَا عَنْ مُرَّهَا كَمَا رَهَبَتْ يَوْمَ النَّضَالِ رِهَابُ^(١)
صَوَائِبُ ، رِيَشُ النَّصْرِ فِي جَنْبَاتِهَا لَوَاءُ ، وَرِيَشُ الطَّائِشَاتِ لُعَابُ^(٢)
حَلِيمٌ تَلَا فِي الْجَاهِلِينَ أَنَاثُهُ إِذَا حَلِمَ عَنْ بَعْضِ الذُّنُوبِ عِقَابُ^(٣)
إِذَا غَرَّ الْجَانِي عَفَا عَفْوٌ حَافِظُ بِنُعْمَى لَهَا فِي الْمَذْنِبِينَ ذِنَابُ^(٤)
شَهَامَةٌ نَفْسٍ فِي سَلَامَةٍ مَذْهَبُ كَمَا الْمَاءُ لِلرَّاحِ الشَّمُولِ قَطَابُ^(٥)
« بَنَى جَهْورٌ » مَهْمَا فَخَرْتُمْ بِأَوَّلِ فَسِرُّ مِنَ الْمَجْدِ التَّلِيدِ لُبَابُ
حَطَّطْتُمْ بِحَيْثُ أَسَدٌ نَطَحَتْ سَاحَةَ الْعَلَا وَأَوْفَتْ لِأَخْطَارِ السَّنَاءِ هِضَابُ
بِكُمْ بَاهَتِ الْأَرْضُ السَّمَاءُ فَأَوَّجُهُ شُمُوسٌ وَأَيْدٍ فِي الْمُحُولِ سَحَابُ

أَشَارِحَ مَعْنَى الْمَجْدِ وَهُوَ مُعَمَّسٌ وَعَامِرَ مَعْنَى الْحَمْدِ وَهُوَ خَرَابُ^(٦)
مُحْيَاكَ بَذَرٌ وَالْبُدُورُ أَهْلَةٌ وَيُمْنَاكَ بَحْرٌ وَالْبُحُورُ ثِعَابُ^(٧)
رَأَيْتُكَ جَارَكَ الْوَرَى فَعَلَبَتْهُمْ لِذَلِكَ « جَرَى الْمَذْ كِيَاتِ غِلَابُ »^(٨)

(١) الانصياع الرجوع أى يرجع الأعداء عما أمره من العزائم خوفا ورهبة كما رهبت يوم النضال رهاب أى نضال رقيقة جمع رهب كحل . (٢) صوائب : صفة العزائم فى البيت قبله يريد أنها عزائم صائبة كالسهم ، واللُعَاب : ريش السهم إذا لم يعتدل فإذا اعتدل فهو لَوَاءُ . (٣) وهذا قريب من قول المتنلى : « ترفق أيها المولى عليهم فان الرفق بالجاني عقاب »
(٤) الذناب : بالسكسر خيط يشد به ذنب البعير لئلا يخطر به أى يحركه يمينا وشمالا فيملأ راحته ، أى أنه بما يسديه إلى الجنة من نعمى يمنهم من الوقوع فى الذنب كما يمنع الذباب ذنب البعير عن تلويث راحته بخطرانه
(٥) قطاب : بالسكسر مزاج . (٦) معمس : خفى مشتبّه ، وناعق : المنزل .
(٧) ثعبان : بالسكسر جمع ثعب وهو الغدير . أو هو مسيل الوادى ، وجمعه ثعاب ، قال ابن دريد : « والناس ضحاضح ثعاب وأضى » ويجمع أيضا على ثعبان ، قال الحريري فى أحاجيه التى ذكرها فى مقاماته : « أيجوز الوضوء من ماء الثعبان » فقيل : « وهل أحسن منه للعربان »
(٨) والمذكيات — والمذكيات بالتضعيف — الخيل التى بلغت تمام السن ونهاية الشباب وفى المنزل : « جرى المذكيات غلاب » أى أن تغالب الجرى غلابا .

فَقَرَّتْ بِهَا مِنْ أَوْلِيَاكَ أَعْيُنٌ وَذَلَّتْ لَهَا مِنْ حَاسِدِيكَ رِقَابٌ

* *

فَتَحَّتْ الْمُنَى مِنْ بَعْدِ إِهْلَامِنَا بِهَا وَقَدْ صَاعَ إِقْلِيدُهُ وَأَبْهَمَ بَابُ^(١)
 مَدَدَتْ ظِلَالُ الْأَمْنِ تَخْضَرُ تَحْتَهَا مِنَ الْعَيْشِ فِي أَعْدَى الْبِقَاعِ شِعَابُ^(٢)
 حَمَى سَأَلْتُ فِيهِ الْبُغَاثَ جَوَارِحُ وَكَفَّتْ عَنِ الْبَهْمِ الرِّتَاجُ ذِيَابُ^(٣)
 فَلَا زِلْتَ تَسْعَى سَعَى مَنْ حَظَّ سَعْيِهِ نَجَاحُ وَحَظُّ الشَّائِنِيهِ تَبَابُ
 فَإِنَّكَ لِلدِّينِ الشَّعِيبِ لِمَلَامُ وَإِنَّكَ لِلْمُلْكِ الشَّيْ لِرِثَابُ^(٤)
 إِذَا مَعَشَرُ الْهَاهُمْ جُلَسَاؤُهُمْ فَلَهُوْكَ ذِكْرُ وَالْجَلِيسُ كِتَابُ^(٥)
 نُعْزِيكَ عَنْ شَهْرِ الصِّيَامِ الَّذِي انْقَضَى فَإِنَّكَ مَفْجُوعٌ بِهِ فُصَابُ
 هُوَ الزُّورُ لَوْ تُعْطِيَ الْمُنَى وَضَعَ الْعَصَا لِيَزْدَادَ مِنْ حُسْنِ الثَّوَابِ مُثَابُ
 شَهِدْتُ لَأَدَى مِنْكَ وَاجِبَ فَرْضِهِ عَلِيمٌ بِمَا يُرْضَى الْإِلَهِ تِقَابُ^(٦)
 وَجَاوَرْتَ يَبْتَ اللَّهُ أَنْسَا بِمَعَشَرِ خَشُوهُ فَخَرُّوا رُكْعًا وَأَنَابُوا
 لَقَدْ جَدَّ إِنْخِبَاتٌ وَحَقَّ تَبْتُلُ وَبَانَغَ إِخْلَاصُ وَصَحَّ مَتَابُ^(٧)

- (١) إيهام : الباب إغلافه ، وباب : مبهم أى مفقود ، وإقليد : المفتاح .
 (٢) أهدى : أفعل تفضيل من عذبت الأرض يقال أرض عذاة وهى الطيبة التربة الخامة من الزرع البعيدة من ماء الأنهار والجداول ، والشعاب : جمع شعب بالكسر وهو الطريق فى الجبل ومسيل الماء ، يقول أنه مد ظلال الأمن على البلاد النائية ، وجعل الخصب يمتد إلى الجهات البعيدة من مياه الأنهار .
 (٣) البغاث : ضعاف الطير ، البهم : واحدتها بهمة بالفتح وهى أولاد الضأن والمز والبقر . وهذا البيت من أبدع ما قرأناه فى وصف استنباب الأمن .
 (٤) الشعيب : المنفرد ، والشئ : الفاسد من ثأى يثأى فهو ثأى كذا إذا فسد ، ورثاب : جمع رؤبه وهى القطعة من الخشب يشعب بها الاناء ويسد بها ثلمة الجفنه
 (٥) يشير إلى قول النبي : « وخير جليس فى الزمان كتاب »
 (٦) التقاب : بالكسر العالم بالأمور .
 (٧) الاخبات : مصدر اخبت إلى ربه اطمأن إليه وتخضع وتواضع ، والتبتل : الانقطاع إلى الله تعالى .

سَيَخْلُدُ فِي الدُّنْيَا بِهِ لَكَ مَفْخَرٌ
وَبُشْرَاكَ أَعْيَادُ سَيَنْمِي أَطْرَادُهَا
تَرَى مِنْكَ سَرَّوَالْمَلِكِ فِي قَشْفِ الثُّقَى
قَابِلِي وَأَخْلِنِي إِنَّمَا أَنْتَ لَابِسٌ
فَدَيْتُكَ كَمْ أَلْقَى الْفَوَاغِرَ مِنْ عِدَا
عَمَّا عَنْهُمْ قَدَرَى الرَّفِيعُ فَأَهْجَرُوا
وَقَدْ تَسْمَعُ الْمَيْتَ الْجِحَاشُ نَهَيْقَهَا
إِذَا رَاقَ حُسْنُ الرُّوضِ أَوْ فَاحَ طَيْبُهُ
فَلَا بَرَحَتْ تِلْكَ الضُّعْفَانُ بِهَا
يَقُولُونَ شَرِّقْ أَوْ فَغَرِّبْ صَرِيعةً
فَأَنْتَ الْحَسَامُ الْعَضْبُ أَصْدَى مَتْنُهُ
وَمَا السَّيْفُ مِمَّا يُسْتَبَانَ مَضَاوُهُ
وَإِنَّ الَّذِي أَمَلْتُ كُدَّرَ صَفْوُهُ
وَقَدْ أَخْلَفْتُ مِمَّا ظَنَنْتُ مَخَايِلُ
فَنَنْ لِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ عَلَيْهِمُ
لِيُخْزِيَهُمْ إِنْ لَمْ تَرُدَّنِي نَبْوةً
وَيَحْسُنُ فِي دَارِ الْخُلُودِ مَنَابُ
كَمَا أُطْرَدَتْ فِي السَّمْهَرِيِّ كِمَابُ
فَيَبْرِقُهَا مَرَأَى هُنَاكَ عُجَابُ
لِهَذِي اللَّيَالِي الْغُرِّ وَهِيَ ثِيَابُ
قِرَاهُمُ - لِنِيرَانِ الْفَسَادِ - ثِقَابُ (١)
وَبَيْنَهُمْ خُلِقَ الْجَمِيعُ فَعَابُوا
وَتَعَلَّى إِلَى الْبَدْرِ النَّبَاحُ كِلَابُ
فَمَا ضَرَّهُ أَنْ طَرَفَ فِيهِ ذُبَابُ
أَفَاعٍ لَهَا بَيْنَ الضُّلُوعِ لِصَابُ (٢)
إِلَى حَيْثُ آوَلُ النُّفُوسِ نِهَابُ (٣)
وَعُطِّلَ مِنْهُ مَضْرَبُ وَذُبَابُ (٤)
إِذَا حَازَ جَفْنٌ حَدَّهُ وَقِرَابُ
فَأَضْحَى الرِّضَا بِالسُّخْطِ مِنْهُ يُشَابُ
وَقَدْ صَفَرْتُ مِمَّا رَجَوْتُ وَطَابُ
إِذَا لَجَّ بِالْخَصْمِ الْأَلَدُ شِغَابُ
يُسَاءُ الْفَتَى مِنْ مِثْلِهَا وَيُرَابُ

(١) الفواغِر : جمع فاغره من فغرفاه إذا فتحه أراد بها المخاوف ، والثقاب : ما انقبت به النار واشعلتها به من صفار العيدان . يقول : نمتى فداؤك ، كم ألقى الكوارث من أعداء خبيثاء ذوى مكر خفى في تدبير ألفن ، ودهاء في نصب الفراك . (٢) لصاب : بالكسر من لصب الجلد باللحم لرق به من شدته الهزال يريد ان ما يحملونه من ضعف له لدع في صدورهم كلذع الأفاعى سبب لهم الهزال (٣) الصريمة : الصرعة وقطع الأمر ، والنهاب : بالكسر الغنائم جمع نهب . (٤) مضرب السيف : بالفتح والكسر ، وذبابه : بالضم حده .

فَقَدْ تَغَشَّى صَفْحَةَ الْمَاءِ كُذْرَةٌ وَيَغْطُو عَلَى ضَوْءِ النَّهَارِ ضَبَابٌ ^(١)
 سُورُورُ الْغِنَى مَا لَمْ يَكُنْ مِنْكَ حَسْرَةٌ وَأَرَى الْمُنَى مَا لَمْ تُدَلِّ بِكَ صَابٌ ^(٢)
 وَإِنْ يَكُ فِي أَهْلِ الزَّمَانِ مُؤَمِّلٌ فَأَنْتَ الشَّرَابُ الْعَذْبُ وَهُوَ سَرَابٌ
 أَيْعُورُ مِنْ جَارِ السَّمَاءِ كَيْنِ جَانِبٌ وَيُعْمَرُ فِي ظِلِّ الرَّيْسِ جَنَابٌ ^(٣)
 فَأَيْنَ ثَنَاءُ يَهْرُمُ الدَّهْرُ كِبَرَةً وَحِلْيَتُهُ فِي الْغَايِرِينَ شَبَابٌ
 سَأَبِكِي عَلَى حَظِّي لَدَيْكَ كَمَا بَكَى رَيْبَةً لَمَّا ضَلَّ عَنْهُ ذُؤَابٌ
 وَأَشْكُو نُبُو الْجَنْبِ عَنْ كُلِّ مَضْجَعٍ كَمَا يَتَجَفَّى بِالْأَسِيرِ ظِرَابٌ ^(٤)
 فَتَقِ بِهَزْزِ الشَّعْرِ وَأَصْفَحْ عَنِ الْوَرَى فَإِنَّهُمْ - إِلَّا الْأَقْلَ - ذُبَابٌ
 وَلَا تَعْدِلِ الْمُثْنِينَ بِي فَإِنَّا الَّذِي إِذَا حَضَرَ الْعَقْمُ الشَّوَارِدُ غَابُوا
 يَنْوُبُ عَنِ الْمَذَاحِ مِنِّي وَاحِدٌ جَمِيعُ الْخِصَالِ أَيْسَ عَنْهُ مَنَابٌ
 وَرَدْتُ مَعِينَ الطَّبْعِ إِذْ زِيدَ دُونَهُ أَنَاسُ لَهُمْ فِي حَجَرَتَيْهِ لُؤَابٌ ^(٥)
 وَتَحَدَّنِي عِلْمٌ تَوَالَتْ فُنُونُهُ كَمَا يَتَوَالَى فِي النَّظَامِ سِيخَابٌ ^(٦)
 فَعُدْ يَدِي بِيَضَاءٍ يَصْدَعُ صِدْقُهَا فَإِنْ أَرَا جَيْفَ الْعُدَاةِ كِذَابٌ
 وَحَاشَاكَ مِنْ أَنْ تُسْتَمَرَ مَرِيرَةٌ لِعَهْدِكَ أَوْ يُخْفَى عَلَيْكَ صَوَابٌ ^(٧)

- (١) غطا يغطو : ستر والضباب سحاب رقيق يشبه الدخان .
 (٢) الأرى : العسل ، والصاب : شجر مر واحدته صابه .
 (٣) يعور : من أعور المكان إذا بدت منه عورة ، ويعمر : أى يصاب ومنه المراء للأرض الصلبة .
 (٤) الظرب : ككتف ما نأ من الحجارة وحد طرفه والجمع ظراب بالكسر .
 (٥) زيد : بالبناء للمجهول منع ، والحجرة : بفتح فسكون الناحية ، ولؤاب : بالضم عطش ، والمعنى : أنه طبع على الشعر وورد معين الطبع في حين أن غيره من الشعراء حبس عن وروده فله في جانيبه لؤاب أى عطش
 (٦) المنجد : كمظم الذى جرب الأمور وقاسها بعقله وعلمته التجارب ومثله المنجد بالذال المعجمة والسحاب : بالكسر العقد .
 (٧) المرير : والمريرة الحبل ، والاستمرار إحكام فله ، يقول حشاش أن أدعوك إلى إصلاح حادث من عهدك ، أو يخفى عليك وجه الصواب .

بعد خمسمائة يوم في السجن

« نظم ابن زيدون هذه القصيدة في مدح ابن جهور واستعطافه ،
وقد وردت في آخر رسالته الجديدة التي بعث بها إلى ابن جهور ^(١)
بعد أن مهد لتلك القصيدة بقوله مخاطبا ابن جهور :

وإنك إن سنيت عقد أمرى تيسر ^(٢) ، ومتى أَعذرت ^(٣)
في فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ،
والشفاعة زكاة المروءة ، وفضل الجاه تعود به صدقة ^(٤)

وإذا امرؤ أهدي إليك صنعة من جاهه ، فكأنها من ماله
لعل ألقى العصا بذراك ^(٥) ، وتستقر بي النوى في ظلك ، وأستأنف
التأدب بأدبك ، والاحتمال على مذهبك ، فلا أوجد للحاسد مجال
لحظه ^(٦) ، ولا أدع لقادح مساغ لفظه ، والله ميسرك من إطلابي ^(٧)
بهذه الطلبة ، واشكائي من هذه الشكوى بصنعة تصيب منها
مكان المصنع ، وتستودعها أحفظ مستودع ، حسبما أنت خليق له ،
وأنا منك حري به ، وذلك بيده ، وهين عليه .

ولما توالى غرر هذا النثر واتسقت ^(٨) درره ، فوز عطف
غلاوته ، وجرد ذيل خيلائه ^(٩) ، عارضه النظم مباهيا ، بل كأيده
مداهيا ، حين أشفق من أن يعطفك استعطافه ، وتميل بنفسك
الطافه ، فاستحسن العائدة منه ، واعتد بالفائدة له ، وما زال

(١) وقد أثبتنا هذه الرسالة في مكان آخر من الكتاب فليرجع إليها القارئ إذا شاء .

(٢) ان يسرت ما تمعد من أمرى تيسر وسهل . (٣) قبلت العذر .

(٤) قال الشاعر :

قد فضت العنول أن الشفقة على الصديق والعدو صدقه
وأفضل العالم عند الله من ساعد الناس بفضل الجاه
ومن أغاث البائس الملهوفا أغاثه الله إذا أخيفا

(٥) في كنفك . (٦) فلا يجد الحاسد سبيلا إلى الشتمة بي وتمتعه بالنظر إلى وأنا منكوب .

(٧) أسعافى وإنالتي ما أبتغيه . (٨) انتظمت . (٩) كبره وزهوه .

يستكد الذهن العليل ، والخطاطر الكليل حتى زف إليك عروسا
مجلوة في أنوابها ، منصوصه ^(١) بحليها وملابها ^(٢) وهاهي القصيدة »

١. الهوى في طلوع تلك النجوم والمنى في هبوب ذاك النسيم
سرنا عيشنا الرقيق الحواشي لو يدوم السرور للمستديم
وطر منه ما انقضى إلى أن تنقضى زمن ما ذمامه ^(٣) بالذميم ^(٤)
إذ ختام الرضا المسوغ مسك وزاج الوصال من تسنيم
وغريض الدلال ^(٥) غرض ^(٦) جنى الصبوة ^(٧) نشوان من سلاف ^(٨) النعيم
طالما نافر الهوى ^(٩) منه غر ^(١٠) لم يطل عهد جيده بالتميم ^(١١)

أيها المؤذني بظلم الليالي ليس يومي بواجد من ظلم ^(١٢)
قمر الأفق - إن تأملت - والشمس هما يكسفان دون النجوم

(١) مرفوعة .

(٢) اللاب : الزعفران . قال الشاعر : « كالخفة الصغراء صاك عبيرها بملاها »

(٣) ذمامه : عهده . (٤) لم ينقض لنا وطر من السرور بتلك الحياة الناعمة والعيش الرغد

حتى تولى ذلك الزمن غير مذكوم العهد . (٥) وذلك الدلال اللطيف الحسن .

(٦) الغرض : الطرى ، الناعم : الناضر . (٧) الهوى . (٨) خمر .

(٩) نافر الهوى : غلبه . (١٠) لم يجرب الأمور .

(١١) التميم : جمع تيممة ، وهو الموذ : جمع عوذة . أى الحُرزات ونحوها مما يعلق على الصبي لينبئ

عنه تميم ، وقد أنكر الإسلام ذلك ، وفي هذا يقول القائل :

وإذا المنيمة انشبت أظفارها الفيت كل تيممة لا تنفع

ومعنى ذلك البيت : أن حبيبته قد عادى الهوى وجافاه لأنه غر حدث لا يزل قريب العهد بالتمائم ، فهو

لا يفتك كالنزال النافر لفرارته وحداثة عهده .

(١٢) أيها الخبيث بما تدخره لى الليالي من كيد ، رويدك لا تخفى بذلك فلست بحاق يوماً على دهرى

لأنى أفت منه الظالم دائماً .

وَهُوَ اللَّهُمُّ لَيْسَ يَنْفَكُ يَنْجُو بِالْمَصَابِ الْعَظِيمِ نَحْوِ الْعَظِيمِ^(١)

بَوَّأَ اللَّهُ « جَهْوَراً » شَرَفَ السُّوِّ دَدٍ فِي السَّرْوِ^(٢) وَالْبَابِ الصَّمِيمِ^(٣)
وَاحِدٌ سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْأَمْرَ رَ، فَكَانَ الْخُصُوصُ^(٤) وَفَقَ الْعُمُومُ^(٥)
قَلَدَ الْعُمُرِ^(٦) ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ وَأُكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ^(٧)
خَطَرُهُ يَفْتَضِي الْكَمَالَ بِنَوْعِي خُلِقَ بَارِعٌ وَخُلِقَ وَسِيمِ^(٨)

أَيْهَا ذَا الْوَزِيرُ هَا أَنَا أَشْكُو وَالْمَصَلَّةُ بَدَأَ قَرَعَهَا لِلْحَلِيمِ^(٩)

(١) أكثر الشعراء من ذكر هذا المعنى في صور مختلفة ، وكادوا يذكرونه بنفس هذه الألفاظ ، وقد ذكره أبو تمام بأسلوب آخر فقال :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى فالسبيل حرب للمكاث العالي

ومنه قول أبي العلاء :

والخطاب يحتاج الجليل وكم شكاً نبأ على ، ما شكاه قنبر

(٢) الرواة . (٣) المحض : الخالص . (٤) الخصوص : الخاصة ، قال الشاعر :

اباغ خليلي عند هند فلا زلت قريباً من سواد الخصوص

(٥) اتفق الخاصة والعامة على تسليمه مقاليد الأمور (٦) العمر : بالضم والفتح ، الذي لم يجرب الأمور

(٧) سلم الجميع مقاليد أمورهم إليه ، واتفق طاعتهم وخاصتهم على الاعتراف له بالفضل فأولو العلم عرفوا بالعلم فضله ، ثم قلدهم في ذلك الجاهلون ، واكتفى العمر الجاهل بعلم الخبير المجرب ، قالوا : وابن زيدون ينظر من طرف خفي إلى قول البحترى :

وذوو الفضل يجمعون على فضلك من بين سيد ومسود

عرف العالمون فضلك بالعلم . ثم وقال الجاهل بالتقليد

(٨) خطر : شرف وارتفاع قدر ، وعلو منزلة ، يقتضى الكمال : يستلزم الكمال وبلوغ الغاية لما أحرزه من جلال السجايا ، ووسامة الخلفاء .

(٩) والمصا بده قرعها للحليم : تضمين المثل العربي المشهور : « إن المصا قرعت لذى الحلم » وهم يضربون هنا المثل للذي الذي إذا نهته انتبه .

مَا عَنَّا أَنْ يَأْتَفَ السَّابِقُ الْمَرْ
وَبَقَاءَ الْحُسَامِ فِي الْجَفْنِ يَثْنِي
أَفْصَبَرُهُ مِثْلِينَ خَمْسًا مِنَ الْآيَا
وَمَعْنَى مِنَ الضَّغْنِ بِهِاتِ
سَقَمٌ لَا أَعَادُ فِيهِ وَفِي الْعَمَا
نَارُ بَغْيٍ سَرَى إِلَى جَنَّةِ الْأَمْنِ لَظَاهَا فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (١)

بِأَبِي أَنْتَ - إِنَّ تَشَأْ - تَكُ بَرْدًا وَسَلَامًا كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ (٢)

(١) السابق : الفرس ، المربط : اسم مكان - بكسر العين وفتحها - والعنق في الحبل : الكرم ، والتطهير : تمام الحسن فيها يشبه نفسه - وهو على هذه الحال من الاعتقال - بالضافن الذي سُم مكانه الذي ربط فيه - لعنقه وكرمه ، وقد وجد هذا البيت في ديوانه على هذه الصورة :
..... يَأْتَفَ الْمَرْ بَطَ فِي الْعَتَقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ

فأكلناه مما ورد في الروايات الأخرى .

(٢) المعنى : المحبوس من التعنية وهي الحبس الطويل ، والضنى : المرض الملازم ، والهنت : جمع هنة وهي الشدائد أو كنى بها عن الأشياء ، ونكأت : أى قصرت الجرح قبل أن يبرأ فأدتمته ، والكوم : الجراحات والمعنى : ومحبوس من المرض الملازم بسبب أشياء أدمت قرح جراحاته بجراحات أخرى ، يريد أن عناء السجن أضيف إليه عناء المرض فهو في محبين ، يعانى ألم شديتين .

(٣) أى مرض لا يعودنى فيه - وأنا في السجن - طائد وفي عيادة من يزورنى ما يكفى وبني بشغائى لو أمكن ذلك (٤) أى نار بغي وظلم استعر لظاها في جنة الدعة والراحة والأمن فأصبحت كالصريم : أى كالإبل في السواد بعد الاحتراق ، وفيه تلميح إلى قصة أصحاب الجنة المذكورة في قوله تعالى في سورة القلم «إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين» الآيات ١٧ : ٣٣ وهم قوم كانت لأبيهم هذه الجنة فكان يأخذ منها قوت سذنه ويتصدق بالباقي ، فلما مات رأى بنوه أن يستأثروا بما فيها لأنفسهم وغيابهم خلفوا ليصرمنها مصبحين ، أى ليقطعن ثمارها ميكرين في الصبح خفية عن أعين المساكين « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم » أى احترقت فصارت في السواد كفجعة الليل .

(٥) أفديك أنت أيها الممدوح بأبى ، إن تشأ تكن تلك النار التى سرت إلى جنة الأمن برداً وسلاماً فلا تحترق كنار إبراهيم إذ فذف فيها بأمر نمرود فكانت برداً وسلاماً عليه فلم يحترق ، وفيه تلميح إلى قوله تعالى « قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » .

لِلشَّفِيعِ الثَّنَاءُ ، وَالْحَمْدُ فِي صَوْنِ بِحَيَا لِلرِّيَّاحِ ، لَا لِلْغُيُومِ (١)
 وَزَعِيمٌ بِأَنْ يُذَلَّلَ لِي الصَّنَعَبَ مَشَانِي إِلَى الْهُمَامِ الزَّعِيمِ (٢)
 وَوِدَادُ يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَاءَ ، وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْدِ الْكَرِيمِ -
 وَثَنَاءُ أَرْسَلْتُهُ سَلْوَةَ الظَّأِ عَنِ عَن شَوْقِهِ وَلَهُوَ الْمُقِيمِ (٣)
 فَهُوَ رِيحَانَةُ الْجَلِيسِ - وَلَا فَخْرَ - وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ -
 لَمْ يَزَلْ مُغْضِيًّا عَلَى هَفْوَةِ الْجَا نِي مُصِيخًا إِلَى أُعْذَارِ الْكَرِيمِ -
 وَمَتَى يَبْدَأِ الصَّنِيعَةَ يُؤَلِّفُكَ تَمَامُ الْخِصَالِ بِالتَّعْمِيمِ (٤)

(١) أى للشفيع الثناء والحمد لا للشفوع إليه ، كما ان الحمد في نزول المطر للرياح التي تؤلف بين الغيوم فينزل المطر بسببها لالنفس الغيوم ، وهو كقول البحترى :

حاز حمدي وللرياح اللواتي تجلب الغيث مثل حمد الغيوم

(٢) كفيل بتذليل ما استصعب تذليله رجوعى إلى الهمام الرئيس . وقد ورد في بعض النسخ البيت التالي بعد هذا البيت :

أمل يرغم الحفاء إليه وهو ثبت المقام ماضى العزيز

(٣) أى مدح أرسلته فسار على ألسنة الناس مسير المثل إذا تلاه الذاعن تسلى به عن شوقه إلى وطنه وحنينه إلى أهله ، وإذا تلاه المقيم كان فيه لهوه وأنه .

(٤) أى متى يبتدئك بالجميل تغفلك خصاله الثامة ، وتحملك أخلاقه الكاملة على المطالبة بتنميم ما ابتدأك به من معروف ، وتكفيل ما شرع فيه من صنيع يريد - بعبارة أوضح - أن ماله عليه من نعمة مبتدأة ، ويد سابقة يبعث في نفسه أملا قويا في إتمام تلك النعمة بانجاز ما وعده به ، وفي هذا المعنى يقول أبو تمام :

هذا سحاب أنت سقت غمامه فعليك - بمد الله - فيض غمامه

إن ابتداء العرف مجد باسق والمجد - كل المجد - في استتمامه

وقرب منه قول المتنبي :

لم أدر في عيوب الناس شيئا كنتص القادرين على التمام

وقول القائل :

إذا أسديت مكرمة فأنعم فان البدر يسطم بالتمام

من قصيدة صنعها يبطليوس^(١)

« قال هذه القصيدة عند فراره من السجن والتجأه إلى بني عباد باشيلية سنة ٤٤١ هجرية ، وكان قد وافاه الفطر فالأضحى وهو على حاله من الذكرى والشوق إلى معاهد قرطبة ، كان يخرج إليها في العيد ، ويتفرج بمنازرها ، ويلهو بحاسنها مع من يهوى ، وقد أذكي تذكرها في فؤاده لاعج الشوق ، ونبه كامن الوجد ، فأخذ يذكرها ممهداً ممهداً ، ويصف ما خلفته في نفسه من الأثر ، وبين ما أثارته دواعي الذكرى في قلبه من الصباية والأسى والشوق ، ويقول صاحب فلاند العقيان في هذه الأماكن التي يذكرها بهد : — « هذه معاهد لبني أمية نعمت بها ليالي وأياما ، وظلت فيها الحوادث عنهم نياما ، فهاموا (بشرق العقاب) وشاموا به برقاً يبدو من نقاب ، ونموا (بجوف الرصافة) ، وطعموا عيشاً تولى الدهر جلاءه وزفاه ، وأبعدوا نصح الناصح ، وحمدوا أمس (مجلس ناصح) ، وعموا (بالزهراء) ، وصموا عن نبأ صاحب (الزوراء) حتى رحلهم الموت عنها وقوضهم ، وعوضهم منها ما عوضهم » إلى آخر مقال » .

خَلِيٍّ لِي لَا فِطْرُهُ يَمُرُّ وَلَا أَضْحَى فَمَا حَالُ مَنْ أَمْسَى مَشُوقًا كَمَا أَضْحَى
لَنْ شَاقِيَنِي (شَرْقُ الْعُقَابِ) فَلَمْ أَرْزَلْ أَخْصُ بِمَحْوُضِ الْهُوَى ذَلِكَ السَّفْحَا^(٢)
وَمَا أَنْفَكُ جُوفِي (الرُّصَافَةَ) مُشْعِرِي دَوَاعِي ذِكْرِي تُعْقِبُ الْأَسْفَ الْبَرَحَا^(٣)

(١) بطليوس : بفتحين وسكون اللام ، وياء مضمومة ، وسين مهملة مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر « آنه » غربي قرطبة كما في معجم البلدان . (٢) العقاب : بالضم العلم الضخم والصخرة العظيمة في عرض الجبل اسم موضع بقرطبة ، ومحوض الهوى : خالصه .

(٣) (جوف الرصافة) : الجوف بضم الجيم الواسع الجوف . قال في اللسان وشيء جوف أي واسع الجوف ، ودلاء جوف : أي واسعه ، و (الرصافة) : بضم ففتح اسم لمدة مواضع منها بالأندلس موضعان أحدهما بليدة صغيرة عند بلنسية ينسب إليها الرفاء الأندلسي الرصافي الشاعر المشهور والأخرى وهي التي ذكرها هنا عند قرطبة أنشأها عبد الرحمن الداخل أول ملوك الأندلس من بني أمية وسماها برصافة جده هشام بن عبد الملك بن مروان التي كانت بالشام كما يؤخذ من ابن خلكان نقلا عن كتاب ليافوت الحموي اسمه « المشترك وضعاً المختلف صنعا » ، والبرح : بنتج فسكون العذاب والشدة وصف به الأسف مبالغة والمراد أنها تعقب أسفاً مبرحاً شاقاً شديداً .

وَيَهْتاجُ (قَصْرُ الْفَارِسِيِّ) صَبَابَةً لِقَلْبِي لَا تَأْلُو زِنَادَ الْأُمَى قَدْحًا^(١)
وَلَيْسَ ذَمِيمًا عَهْدُ (مَجْلِسِ نَاصِحِ) فَأَقْبَلَ فِي فَرْطِ الْوُلُوعِ بِهِ نُصْحًا
كَأَنِّي لَمْ أَشْهَدْ لَدَى (عَيْنِ شَهْدَةٍ) نِزَالَ عِتَابٍ كَانَ آخِرُهُ الْفَتْحَا^(٢)
وَقَائِعُ جَانِبَيْهَا التَّجَنَّى فَإِنْ مَشَى سَفِيرُ خُضُوعٍ يَدْنِنَا كَدَّ الصُّلْحَا^(٣)
وَأَيَّامُ وَصِلِ (بِالْعَقِيقِ) أَقْتَضَيْتُهُ فَإِلَّا يَكُنْ مِيعَادُهُ الْعِيدَ فَالْفِصْحَا^(٤)
وَأَصَالُ لَهْوٍ فِي مُسْنَنَةِ مَالِكٍ مُعَاطَاةً نَدْمَانٍ إِذَا شِئْتُ أَوْسَبَحَا^(٥)
لَدَى رَاكِدٍ يُضْبِدُكَ مِنْ صَفَحَاتِهِ قَوَارِيرُ خُضْرٍ خِلْتَهَا مُرَدَّتْ صَرْحَا^(٦)

- (١) يقول : تثير ذكرى قصر الفارسي لقلي صبابة لا تفر عن قدح زناد الحزن ، والزناد ما يقتدح به النار
(٢) يعنى أنه عباً لمحبوبته في هذا المكان جيش عتاب أحرز به نصراً عليها وفتحاً .
(٣) التجنى أداؤها عليه ذنباً لم يفعله ، والسفير الصلح بين القوم ، والمعنى أن هناك وقائع جناها أداؤها
الذنوب عليه كان خضوعه فيها رسول سلام لتوكيد الصلح بينهما . (٤) يقال اقتضيت الدين أى
قبضته وأخذته ، والفصح بالكسر عيد النصارى ، والمعنى أن أياماً معلومة من السنة كنت أحصل فيها
(بالعقيق) على الوصل واقتضيه في ميعاده كما يقتضى أى يقبض الغريم دينه ، فإن لم يكن ذلك الاقتضاء
موعده العيد فالنصح . (٥) الأصال : جمع أصيل وهو ما بعد العصر إلى المغرب ، والمسننة : سدّ
يبني في وسط الوادى لاحتجاز الماء ورد ما لا يغلب منه ومنعه عن الجرى في طريقه المعتاد ، له أبواب
تفتح لاطلاق الماء بحسب الحاجة ، وهى العرم . قل فى الصّحاح ، « والمسننة العرم لا واحد له
من لفظه » ، والمعنى أنه يذكر تلك الأيام التى كان يلهو بها مع الأصيل فى تلك المسناة الملكية مرة بمعاطة
الراح إذا شاء ، وأخرى بالسبح والعموم فى الماء ، وهذا مما ثبت أنهم كانوا يبدون (الخزانات) لاختصاص
الأرض وإمداد البرك بالماء بعد تطلّبه . (٦) قال بعض المفسرين فى قوله تعالى (قيل لها ادخلى
الصرح) . الصرح : بلاط اتخذ لها من قوارير ، ومن معانى الصرح الساحة أيضاً ، فكانه أراد تشبيه
ماء المسناة الراكدة فى خضرته واستوائه بزجاج أخضر مرد (بالتشديد) أى ماس صرحاً أى ساحة مستوية
من زجاج .

مَعَاهِدُ لَدَاتٍ وَأَوْطَالُ صَبْوَةٍ . أَجَلْتُ الْمُعَلَّى فِي الْأَمَانِي بِهَا قِدْحًا ^(١)
 الْأَهْلَ إِلَى (الزَّهْرَاءِ) أَوْبَةً نَارِحٍ . تَقْضَى تَنَائِيهَا مَدَامِعُهُ تَرْحًا ^(٢)
 مَقَاصِيرُ مُلْكٍ أَشْرَقَتْ جَنَبَاتُهَا . فَخِزَانَا الْعِشَاءَ الْجَوْنَ أَمْنَاءَهَا صُبْحًا ^(٣)
 يُمَثِّلُ قُرْطَيْنَا لِي الْوَهْمُ جَهْرَةً . فَكُبَّتْهَا فَالْكَوْكَبُ الرَّحْبُ فَالسَّطْحَا ^(٤)
 مَحَلُّ أَرْتِيَاكِ يُذَكِّرُ الْخُلْدَ طِيبُهُ . إِذَا عَزَّ أَنْ يَصْدَى الْفَتَى فِيهِ أَوْ يَضْحَى ^(٥)

(١) القدح : بكسر فسكون واحد السهام التي كانوا يستقسمون بها الجزور في الميسر ، وكانت قداح الميسر عشرة عشرة ثلاثة منها غفل ، وسبعة من ذوات الانصباء ، وكان المعلى أوفرها خطا له سبعة أجزاء من الجزور ، فاذا أجال مخرج القدح يده في الخريطة ، وأخرج المعلى باسم أحد المتقامرين كان هو الفائز بأكبر الأقسام وأوفر الحظوظ . يقول : هذه معاهد لذات قضيت فيها من اللذات ، وبلغت فيها من الأمانى ما جعل قدحى فيها المعلى . (٢) الزهراء من عجائب أبنية الدنيا أنشأها أبو المفطر عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموى الملقب بالناصر أحد ملوك بني أمية بالأندلس بالقرب من قرطبة في سنة ٣٢٥ هـ والمسافة بينها وبين قرطبة ستة أميال تقريبا ، وطول الزهراء من الشرق إلى الغرب ٢٧٠٠ ذراع ، وعرضها ١٥٠٠ ذراع ، وعدد الدواري التي فيها ٣٠٠ : سارية ، وأبوابها نحو ١٥ بابا ، وكان الناصر ينفق على عمارتها ثلث جباية بلاد الأندلس التي كانت تبلغ في ذلك الوقت نحو ستة ملايين من الدنانير ، وهي من أحسن منازل الدنيا وأبدعها ، وقد أكثر أهل قرطبة في وصفها وما قاله الشعراء فيها ، ولهم في ذلك تصانيف ، والأوبة : الرجوع ، والنارح : البعيد ، وتقضى أخذ وتناول حقه من غريمه ، وهي المدامع هنا ، والنزح : من نزع البئر ، وهو استنزاف مائها ، ورأيت في بعض النسخ (تقضت مبانها مدامعه سفحا) (٣) المقصورة : ناحية من البناء على حيالها تقصر على الملك ، أو على صاحب الدار ، أو هي الدار الواسعة المحصنة ، وتجمع على مقاصر ومقاصير ، والجنبات : جمع جنبه كسجدة ومسجدات ، وفي اللسان ما يفيد اختلاف اللغويين في إسكان النون وفتحها في المفرد ، ونقل عن ابن جني قوله : وقد غرى الناس بقولهم ، أنا في ذراك وجنبتك بفتح النون قال والصواب إسكان النون ، واستشهد على ذلك بقول أبي صعتره البولاني :

فناظفة من حبّ مزن تقاذفت بها جنبنا الجودى والليل دامس
 بأطيب من فيها وما ذقت طعمها ولكننى فيما ترى العين فارس

والجون : هنا الأسود ، والمعنى أن تلك المقاصير أضيئت نواحيها بالمصابيح والسرج ، فجنبنا العشاء في داخلها صبحا (٤) يمثل له الوهم هذه الموضع من الزهراء كأنه يراها جهرة (٥) في بعض النسخ عن بدل عن وفي بعضها بغذى بدل يصدى ، ولعلها مصححة عن يبرى ، والأشبه بالصواب ما هنا ، ومعنى البيت أن

هُنَاكَ الْجِمَامُ الزُّرْقُ تَنْدَى حِفَافَهَا ظِلَالُ الْعَهْدِ تُدْهِرُ فِيهِمْ أَوْقِي سَمَحًا^(١)
تَعَوَّضْتُ مِنْ شِدْوِ الْقِيَانِ خِلَالَهَا صَدَى فَلَوَاتٍ قَدْ أَطَارَ الْكَرَى ضَبْحًا^(٢)
وَمِنْ حَمْلِ الْكَأْسِ الْمُفَدَّى مُدِيرُهَا تَقَحُّمُ أَهْوَالٍ حَمَلْتُ لَهَا الرُّمَحَا
أَجَلٌ إِنْ لَيْلِي فَوْقَ شَاطِئِ نَيْطَةٍ لَا أَقْصُرُ مِنْ لَيْلِي بِآنَةِ قَالِبُطَحَا^(٣)

في الغزل

عَلَامَ صَرَمْتَ حَبْلَكَ مِنْ وَصُولِ فَدَيْتُكَ وَأُعْتَزَلْتُ عَلَى ذَلِيلِ^(٤)
وَفِيمَ أَفْتَتَ مِنْ تَعْلِيلِ صَبٍّ صَبِيحِ الْوَدِّ ذِي جِسْمٍ عَلِيلِ
فَهَلَّا عُدَّتْنِي إِذْ لَمْ تُعَوِّذْ بِشَخْصِكَ بِالْكِتَابِ أَوْ الرَّسُولِ^(٥)
لَقَدْ أَعْيَا تَلَوْنُكَ أَحْتِمَالِي وَهَلْ يُغْنِي أَحْتِمَالٌ فِي مَلُولِ^(٦)

الزهراء محل ترناح النفس إليه يذكر طيبه جنة الخلد حيث يتمتع أن يصدى التي أي يعطش أو يضحى أي يبرز للشمس ، وفيه الإشارة إلى قوله تعالى « إِنَّ لَكَ أَلَا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى » ولا شك أن الجوع ، والعري ، والظمأ ، وعدم السكن أركان الشقاء في هذه الحياة وبدونها يكون النعيم والراحة والسعادة ، وأن الشخص في الحياة الدنيا معنى بطلب هذه الأشياء بخلافه في دار النعيم والخلد ، وقد توفرت له في الزهراء أسباب الراحة والنعيم فاذكره ذلك جنة الخلد .

(١) الجمام : جمع جمة ، وهي مكان اجتماع الماء ، والزرق : صفة للجمام بمعنى المياه المجمعة ، وحفافها : جوانبها وما يطيف بها من حولها ، والمعنى هناك في الزهراء البرك ذات الأمواه الزرق تظلنا حفافها وحولها ظلال بليلة ندية (٢) أي أبدلت من سماع صوت المنيات خلال تلك النوادي الآهله بأنواع الطرب سماع صدى هذه الفلوات الخيفة يتردد فيها ضبح العاديات من الخيل فيطير النوم من العين (٣) نيطه وآنه : نهرا ن يقول : لماذا قطعت جبل محب دائم الوصال لك ولماذا تكبرت على عبدك الخاضع الذليل .

(٥) هلاعدتني بالكتاب أو الرسول إذ لم يكن من عادتك أن تعودني بشخصك .

(٦) من أجل ما قرأناه في هذا المعنى قول العباس بن الأخنف :

لو كنت طائفة لسكن لوعتي أهلى رضاك وزرت غير معاتب
لكن مللت فليس لى من حيلة صدّ الملل خلاف صدّ العاتب

وقريب منه قول ابن الرومي :

ولكنكم كنتم تريدون علة فهاجكم أدنى عتاب إلى الصد
أردت صلاح القبل بالبعد فانبرى لنا ظلمكم فاستفسد القبل بالبعد

بين صديقين

« كتب اليه ذو الوزارتين أبو عامر معاتباً :

تباعدنا على قرب الجوار
كأننا صدنا شحط المزار
تطلع لي هلال الهجر بدراً
وصار هلال وصلك في سرار
وشاع شنيع وصلك لي وهجرى
فهلاً كان ذلك في استنار
أجمل أن ترى عنى صورا
وأصبح مولعاً دون اصطبار ؟
ولما أن هجرت وطال غفري
عقرت هموم نفسى بالعقار
وكنت أريد سمعك من عتاني
ولكن عافى قرب الخمار
فراع مودتى واحفظ جوارى
فإن الله أوصى بالجوار
وزرنى منعماً من غير أمر
وأنس موحشاً من عقردار
لجأ به ابن زيدون : »

هَوَاىَ - وَإِنْ تَنَاءَتْ عَنْكَ دَارِى -
مُقِيمٌ لَا تُغَيِّرُهُ عَوَادِ
رَأَيْتُكَ قُلْتَ : إِنَّ الْوَصْلَ بَدْرٌ
وَرَأَيْتُكَ أَنْنِي جَلْدٌ صَبُورٌ
كَمَثَلِ هَوَاىَ فِي حَالِ الْجَوَارِ
تُبَاعِدُ بَيْنَ أَحْيَانِ الْمَزَارِ
مَتَى خَلَّتِ الْبُدُورُ مِنَ السَّرَارِ (١)
وَكَمْ صَبْرٌ يَكُونُ عَنِ اصْطِبَارِ (٢)

(١) متى أفردت أن الوصل بدر فأنت خلى أن تلم أن للبدر حالات شتى فهو إذا اكتمل نموه في وسط الشهر لحقه الحاق في آخره .

(٢) لأن صبرى ليس طبعياً ولكنى انكفاه اضطراراً إليه لأننى لا أجده منروحة عنه .

وَلَمْ أَهْجُرْ لِعَتَبٍ غَيْرَ أَنِّي أَضَرْتُ بِي مُعَاوَرَةَ الْمُقَارِ
وَأَنَّ الْخَمْرَ لَيْسَ لَهَا خِمَارٌ^(١) تَبَرَّحُ بِي ، فَكَيْفَ مَعَ الْخِمَارِ^(٢)

* *

وَهَلْ أُنْسَى لَدَيْكَ نَعِيمَ عَيْشٍ كَوَشِيِ الْخَدِّ طُرُزَ بِالْعِذَارِ
وَسَاعَاتٍ يَجُولُ اللَّهُوُ فِيهَا مَجَالِ الطَّلِّ فِي حَدَقِ الْبَهَارِ^(٣)
وَإِنْ يَكُ قَرَّ عَنْكَ الْيَوْمَ جِسْمِي - فَمَا لِقَلْبِي مِنْ قَرَارِ^(٤)
وَكُنْتَ عَلَى الْبِعَادِ أَجَلٌ عَلِقَ^(٥) لَدَيَّ ، فَكَيْفَ إِذَا صُبَحْتَ جَارِي^(٦)؟

دعوة

« كتبها إلى ذى الوزارتين أبي عامر يدعوهُ إلى زيارته »

طَابَتْ لَنَا لَيْلَتُنَا الْخَالِيَةِ فَلَتُنْسِنَاهَا هَذِهِ التَّالِيَةِ^(٧)
أَبَا الْمَعَالِي نَحْنُ فِي رَاحَةٍ فَأَنْقُلْ إِلَيْنَا الْقَدَمَ الْعَالِيَةَ
لَيْلَتُنَا عَاطِلَةٌ إِنْ تَغِيبَ عَنَّا ، فَرُزْنَا كَيْ تَرَى حَالِيَةَ
أَنْتَ الَّذِي لَوْ تَشْتَرَى سَاعَةً مِنْهُ بِدَهْرٍ لَمْ تَكُنْ خَالِيَةَ

(١) سورة . (٢) إذا كانت الحر التي لا سكر فيها تبرح بي فما بالك بها إذا أسكرت .

(٣) البهار : نبت طيب الريح . (٤) إذا كان جسمي قد قرَّ قراره بعيداً عنك فإنّ قلبي لا يزال يرفو إليك . (٥) العاق : النفيس ، قال الشاعر :

« أبيت اللعن ان سكاب علق نفيس لا يعار ولا يباع »

(٦) إنك - مع البعاد الذى يندى الألف - كنت أجل مخلوق لدى ، فكيف أنساك وقد زادنى الجوارح بافك

(٧) لقد طابت ليلة أمس بقربك منا فلنكررها ، وليندنا ما يغمرنا من السرور فى ليلتنا التالية ما نعمنا

به فى ليلتنا الماضية .

قال في الوزير الشيخ أبي الحزم

« بَنِي جَهْوَرٍ » أَحْرَقْتُمْ بِجَفَائِكُمْ جَنَانِي وَلَكِنَّ الْمَدَائِحَ تَعْبَقُ ^(١)
تَعْدُونَنِي كَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ ^(٢) إِنَّمَا تَطْيِبُ لَكُمْ أَنْفَاسُهُ ^(٣) حِينَ يُحْرَقُ

قُلْ لِلْوَزِيرِ وَقَدْ قَطَعْتُ بِمَدْحِهِ زَمَنًا فَكَانَ السَّجْنُ مِنْهُ ثَوَابِي
لَا تَخْشَى فِي حَقِّ عِمَا أَمْضِيَّتُهُ مِنْ ذَاكَ فِيَّ وَلَا تَوَقَّ عَنَابِي ^(٤)
لَمْ تُخْطِ ^(٥) فِي أَمْرِي الصَّوَابَ مُوَفَّقًا هَذَا جَزَاءُ الشَّاعِرِ الْكَذَّابِ

وصال

وَشَادِنِ أَسْأَلُهُ قَهْوَةً ^(٦) فَجَادَ بِالْقَهْوَةِ وَالْوَرْدِ ^(٧)
فَبِتُّ أَسْقَى الرَّاحَ مِنْ رِيْقِهِ وَأَجْتَنِي الْوَرْدَ مِنَ الْخَدِّ

(١) عبق : الطيب يعبق من باب فرح بقيت رائحته زمانا ، يقول بالرغم من أنكم أحرقتن فؤادي بنار الجفاء ، وقابلتم شكواي بعدم الاصغاء ، فإن مديحي باق فيكم ملازم لكم ملازمة الطيب صاحبه .
(٢) الزعفران لمرته . (٣) ما يذبت عنه عند الاحراق من الروائح الطيبة ، والمعنى : تجعلونني في صداد ما يحرق من الطيب الذي ليس لكم من إحراقه إلا طيب أنفاسه . قال ابن بسام عند إيراده هذين البيتين ، وأراه توارد مع أبي علي بن رشيقي التقيرواني حيث يقول :
أراك اتهمت أخاك القمه وعندك مقت وعندي مقه
وأثني عليك وقد سؤوني كما طيب العود من أحرقه
وأخذاه معا من قول أبي تمام :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
(٤) لا تخش في حق لوما بما أنذته في من حكم السجن ولا تتوق عنابي فاني أنا الحقيق باللوم والعتاب
(٥) أبدل الهمزة من الياء وحذفها للجازم كما يحذفها من المعتل وأصله لم تخطي ، يقول : لم تعد في أمرى الصواب وقد وفقت في حكمك علي بالسجن بعد أن انقطعت زمانا لمحك ، وهذا جزاء من يكذب في شعره ويمدح من لا يستحق المدح ، وقريب من هذا المجاء قول ابن الرومي :
إن كنت من جهل حق غير معتذر وكنت من رد مدحى غير مثب
فأعطى من الطرسى الذى كتبت فيه القصيدة أو كفاة الكذب
(٦) خرا : يعنى خرد ريقه . (٧) أى ورد وجنته .

وقال معاتباً من قصيدة أولها

بَنَيْتَ فَلَا تَهْدِمِ وَرِشْتَ ^(١) فَلَا تَبْرِي
أَرَى نَبُوَّةً لَمْ أَذِرْ سِرًّا أُعْتَرِاضَهَا ^(٢)
جَفَاءَ هُوَ اللَّيْلُ أَدْلَهُمْ ظَلَامُهُ ^(٣)
هَبِ الْعَزْلَ أَضْحَى لِلْوِلَايَةِ غَايَةً ^(٤)
فَقِيمَ أَرَى رَدَّ السَّلَامِ إِشَارَةً ^(٥)
أَنَاسُ هُمْ أَخْشَى لِلذَّعَةِ مِقْوَلِي ^(٦)
فَإِنْ عَاقَتِ الْأَقْدَارُ فَالْنَفْسُ حُرَّةٌ ^(٧)
وَأَمْرَضْتَ حُسَادِي وَحَاشَاكَ أَنْ تُبْرِي ^(٨)
وَقَدْ كَانَ يَجْلُو عَارِضَ الْهَمِّ أَنْ أَذْرِي ^(٩)
فَلَا كَوْنُ كَبِّ لِلْعُذْرِ فِي أَفْقِهِ يَسْرِي ^(١٠)
فَمَا غَايَةُ الْمُؤْفَى مِنَ الظِّلِّ أَنْ يُكْرِي ^(١١)
نُسُوغُ بِي إِزْرَاءَ مَنْ شَاءَ أَنْ يُزْرِي ^(١٢)
إِذَا لَمْ يَكُنْ مِمَّا فَعَلْتَ لَهُمْ مُضَرٌّ ^(١٣)
وَإِنْ تَكُنِ الْعُتْبَى فَأَحْرِ بِهَا أُخْرِي ^(١٤)

موقف وداع

وَلَمَّا التَّقِينَا لِلْوَدَاعِ غُدِيَّةً ^(١)
وَقُرْنَتِ الْجُرْدُ الْعِتَاقُ ^(٢) وَصَفَّقَتْ ^(٣)
بَكَيْنًا دَمًّا حَتَّى كَانَ عِيُونُنَا ^(٤)
وَكُنَّا نُرْجَى الْأَوْبَ بَعْدَ ثَلَاثَةِ ^(٥)
وَقَدْ خَفَقَتْ فِي سَاحَةِ الْقَصْرِ رَايَاتُ ^(٦)
طُبُولٍ وَلَا حَتَّ لِلْفِرَاقِ عِلَامَاتُ ^(٧)
لَجَرِي الدُّمُوعِ الْحُمُرِ فِيهَا جِرَاحَاتُ ^(٨)
فَكَيْفَ وَقَدْ كَانَتْ عَلَيْهَا زِيَادَاتُ ^(٩)

- (١) من راحش صديقه كساه وأصليح حاله . (٢) من البره : وهو الشفاء من المرض .
(٣) أرى نبوة لم أدر سرها اعتراضها أى منعه الود من أن يسير في طريقه الأول ، وقد يكشف ما عرض
فى من الهم والحزن بسبب ذلك أن أعرف سر تلك النبوة والجفوة .
(٤) جفاء كالليل اشتد ظلامه فلم يسر فى أفقه كوكب عذر واضح . وفى الأصل :
« حياء هو الليل ادلهم ظلامه »
(٥) أكرى : الظل يكرى نقص ، والمعنى : هب العزل أضحى خاتمة ما وليته من عمل فلا ينبغي أن تكون
غاية ما أوفى على من ظلاك ورعايتك أن يكرى أى ينقص . (٦) معنى البيت : فى أى ذنب أراك تشير
بالسلام إشارة تسيع وتجاوز لمن شاء أن يزرى بى الازراء بى والتحقير لثنائى .
(٧) اضراء : بالصيد ونحوه أغراه به فهو مضر أى مفر ، يقول : أولئك الزارون على المحترقون لثنائى
أناس هم أخوف الناس من لسانى لو لم تكن مما فعلته معى قد اضريتهم بى وأغريتهم بالزراية على .
(٨) الجياد الكريمة . (٩) دقت الطبول إيذاناً بالمسير .

وقال أيضا يمدح أبا الوليد بن جهور

هَلْ عَهْدَنَا الشَّمْسُ تَعْتَادُ الْكِلَانَ ^(١) أَمْ عَهْدَنَا الْبَدْرُ يَجْتَابُ ^(٢) الْحُلُلَ
أَمْ قَضِيبُ الْبَابِ يَعْنِيهِ الْهَوَى أَمْ غَزَالُ الْفَقْرِ يُصْبِيهِ الْغَزَلُ ^(٣)
خَرَقَ الْعَادَاتِ مُبْدَى صُورَةٍ حَشَدَ ^(٤) الْحُسْنِ عَلَيْنَهَا فَأَحْتَفَلَ ^(٥)
مُشْرَبُ الصَّفْحَةِ مِنْ مَاءِ الصَّبَا مُشْبَعُ الْوَجْنَةِ مِنْ صَبْغِ الْخَجَلِ
مَنْ عَذِيرِي ^(٦) مِنْهُ إِنْ أَغْبَيْتُهُ ^(٧) نَسِيَ الْعَهْدَ وَإِنْ عَاوَدْتُ مَلًّا

(١) جمع كله بالكسر ، وهي ستر رقيق يخاط كالبيت يتوق فيه من البعوض ونحوه ، وتقدم هذا المعنى عند قوله في القصيدة النونية :

كانت له الشمس ظئرا في أسكنته بل ما تجلى لها إلا أطيننا

(٢) يجتاب يلبس من قولهم : اجتتاب الفميص إذا لبسه ، وشاهده قول لبيد :

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحي واجتباب أردية السراب اكلمها

أي ابست الاكلام أردية السراب ، والحلل بالضم جمع حلة أثبت أن من يهواه شمس وأنه بدر على الحقيقة ، وتعجب من اجتباب الشمس في السكال ، واجتباب أي لبس البدر الحلال ، وأنكر أن يكون ذلك معهودا في العادة . (٣) يعنیه : يهيمه ، ويصبيه : يشوقه ويدعوه إلى الصبا والحسين إلى من يحب ، والغزل : مغازلة النساء ومحادثتهن ، أي ولم نعهد أيضا أن الهوى يهيم قضيب الباب ، وأن المغازلة تدعو غزال القفر إلى الصبا فيحن إلى من يهوى . (٤) اجتمع .

(٥) احتشد واجتمع : أي أتى بالمعجزات ذلك الذي طلع علينا بصورته الفاتنة الجامعة لفنون الحسن ، الحافلة بأنواع الجمال .

(٦) يقال من عذيري من فلان أي من نصيري ، ويقال : عذير فلان بالنصب أي هات عذرا له ، ومنه قول ذي الاصبع العدواني :

عذير الحمى من عدواني كانوا حية الأرض

بغى بعض على بعض فلم يرعوا على بعض

أي هات عذرا فيما فعل بعضهم ببعض من البغى ، والقتل ، والتباعد ، والتباغض ، ولم يرع بعضهم على بعض بعد ما كانوا حية الأرض التي يحذرها كل أحد ، ويقال عذيري من فلان أي من يعذرنى ، ومنه قول الآخر :

عذيري من الانسان لأن جفوته صفارلى ولاإن كنت طوع يديه

ولانى لمشتاق إلى ظلّ صاحب يروق ويصفوإن كدرت عليه

(٧) من الغب في الزيارة ، أي جئته زائرا يوما وتركته يوما أو أكثر يقال : « زرغبنا تردد حبا » وفي اللسان : « الغب في الزيارة قال الحسن في كل أسبوع »

قَاتِلْ لِي بِالتَّجَنِّي ، مَا لَهُ لَيْتَ شِعْرِي أَحْلَالَ مَا أُسْتَحَلُّ ؟

* * *

أَيُّهَا الْمُخْتَالُ ^(١) فِي زِينَتِهِ أَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالْخَالِ ^(٢) فَخَلْ ^(٣)
لَكَ إِنْ أَذَلَّتْ ^(٤) عُذْرُ وَاضِحٌ كُلُّ مَنْ سَاعَفَهُ ^(٥) الْحُسْنُ أَذَلُّ
سَبَبُ الشَّقَمِ الَّذِي بَرَّحَ بِي صِحَّةٌ كَالشَّقَمِ فِي تِلْكَ الْمُقَلِّ ^(٦)
إِنَّ مَنْ أَضْحَى أَبَاهُ « جَهْوَرٌ » قَالَتْ الْآمَالُ عَنْهُ وَقَعَلَنْ ^(٧)
مَلِكٌ لَدَّ جَنَنِي الْعَيْشِ بِهِ حَيْثُ وَرَدُ الْأَمْنِ لِلصَّادِي عَمَلٌ ^(٨)

(١) ذو الخيلاء المعجب بنفسه المتباهي بزِينَتِهِ وجماله .

(٢) الخال له معان كثيرة منها الخيلاء ، وهو المراد هنا ، وقد أورد صاحب اللسان عن ابن بري أياً نأ في معاني الخال ، والمناسب منها لما نحن فيه قوله :

وَإِذَا أَنَا خَدَنَ لِلنَّوَى أَخِي الصَّبَا وَلِلنَّوَلِ الْمَرْيَحِ ذِي الْهَوَى وَالْخَالِ

أَيُّ الْخِيَلَاءِ . (٣) أَيُّ كُنْ ذَا خِيَلَاءٍ وَزَهْوٍ وَتَكْبَرٍ ، مَنْ خَالَ بِخَالٍ بِمَعْنَى اخْتَالَ ، وَمِنْهُ بَيْتُ الْحَمَاسَةِ :

فَإِنْ كُنْتُ سَيِّدُنَا سَدَقْنَا وَإِنْ كُنْتُ لِلْعَالِ فَاهِزٌ نَخَلْ

مَعْنَاهُ : إِنْ فَعَلْتَ مَا يَوْجِبُ لَكَ السِّيَادَةَ عَلَيْنَا سَدَقْنَا ، وَإِنْ حَاوَلْتَ أَنْ تَسُودَنَا لِحُجْرَةِ الْكِبَرِ وَالْاِخْتِيَالِ فَاهِزٌ فَاخْضَلْ مَا شِئْتَ أَنْ تَخْتَالَ ، فَإِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَسُودَنَا حِينَئِذٍ ، وَمَعْنَى الْبَيْتِ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِهِ :

أَيُّهَا الْمُخْتَالُ الزَّهْوُ صُلْفَا وَكِبَرُ زِينَتِهِ وَجَمَالُهُ كُنْ ذَا خِيَلَاءٍ وَغَرٍّ وَاجْبَابٍ فَأَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ لِفَرْطِ جَمَالِكَ .

(٤) يُقَالُ أَذَلَّ عَلَيْهِ وَتَدَالَّ : انْبَسَطَ وَاجْتَرَأَ وَتَجَنَّى فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ تَجَنَّى .

(٥) سَاعَدَهُ وَوَاتَاهُ وَأَسْعَفَهُ بِاجْتِمَاعِ أَسْبَابِهِ لَدَيْهِ ، وَمَعْنَى الْبَيْتِ : إِنْ أَفْرَطْتَ فِي الدَّالَةِ عَلَى ثِقَةٍ بِمُجِبَّتِي لَكَ ، وَاعْتِدَادَا بِسَاعِفَةِ الْحَسَنِ وَمَوَاتَاتِهِ فَتَكُ فِي الْإِدْلَالِ عُذْرٌ وَاضِحٌ .

(٦) يَقُولُ : أَنَّ سَبَبَ الضَّنَى وَالسَّقَمِ الَّذِي اشْتَدَّ بِي تَبَرُّيهِ وَأَذَاهُ فَتَوَّرَ فِي لَحْظِ تِلْكَ الْعَيُونِ الصَّحِيحَةِ

الْمَرِيضَةِ ، وَهَذَا مَعْنَى مَطْرُوقِ الشُّعْرَاءِ ، وَمَنْ أَحْسَنَ مَاجَاءَ فِي مَرَضِ الْعَيُونِ قَوْلُ ابْنِ الْمُعْتَزِّ :

عَلِمَ بِمَاجَعَتِ الصَّدُورِ مِنَ الْهَوَى سَرِيعَ بَكْرِ الْهَضْبِ وَالْقَلْبِ جَاوِزَ

وَيَجْرَحُ أَحْشَاءِي بِعَيْنٍ مَرِيضَةٍ كَمَا لَانَ مَتْنُ السِّيفِ وَالسِّيفُ قَاطِعٌ

(٧) يَعْنِي أَنَّ « ابْنَ جَهْوَرٍ » : إِذَا قَالَتْ الْآمَالُ عَنْهُ قَوْلًا صَدَقَ قَوْلُهَا فَعَلَهُ .

(٨) شَرِبَ بَعْدَ شَرَبٍ .

أَحْسَنَ الْمُحْسِنِ مِنَّا فَجَزَى مِثْلُ مَا لَجَّ مُسِيٌّ فَاحْتَمَلَ ^(١)
 سَعِيَّهُ فِي كُلِّ بَرٍّ مِثْلٌ ^(٢) إِذْ مَسَاعِي مَنْ يُنَاوِيهِ ^(٣) مِثْلٌ ^(٤)
 لَا يَزَلُ مِنْ حَاسِدِيهِ مُكْتَبِرٌ أَوْ مُقِلٌّ ، سَبَقَ السَّيْفُ الْعَذْلَ ^(٥)

* *

« يَا بَنِي جَهْوَرٍ » الدُّنْيَا بِكُمْ حَلَيْتَ أَيَّامَهَا بَعْدَ الْعَطَلِ ^(٦)
 إِنَّمَا دَوَّلْتُكُمْ وَاسِطَةً ^(٧) أَهْدَتِ الْحُسْنَ إِلَى عِقْدِ الدُّوَلِ
 نَحْنُ مِنْ نَعْمَائِكُمْ فِي زَهْرَةٍ جَدَّدَتْ عَهْدَ الرَّيِّعِ الْمُقْتَبِلِ ^(٨)
 طَابَ كَانُونٌ ^(٩) لَنَا أَثْنَاءُهَا فَكَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ بِالْحَمَلِ ^(١٠)
 زَهَرَتْ أَخْلَاقُكُمْ فَأَبْتَسَمَتْ كَأَبْتَسَامِ الْوَرْدِ عَنِ لَوْلُؤِ طَلٍّ

- (١) أحسن المحسن منا جزاءه وكافأه على إحسانه ، كما تكررت إساءة المسى ، فاحتملها عفوا منه وكرما .
 (٢) أى كمثل السائر يشيع في الناس ذكره ، ويحمد أثره .
 (٣) يفاخره ويعاديه . (٤) جمع مثال ، أى أمثلة وصور يقول أن مساعي المدح في صلة الناس بأنواع البر والاحسان أصبحت مضرب الأمثال ، في حين أن مساعي أعدائه المناوئين له صور جائمة أمامك - كما ترى - لم يشع لها ذكر ولم يعرف عنها أثر . (٥) يدعو باستمرار حاسديه على الاكثار أو الافلال من لومه على ما يصبه على رءوسهم من ويلات ، وينزله بهم من عقوبات ويقول « سبق السيوف العذل » أى فلامعنى لاوم أكثر الأعداء منه أم أفلوا ، وهو مثل مشهور بضرب للأمر الذي فات فلم يمكن تداركه .
 (٦) مصدر عطلت المرأة كفرح لم يكن عليها حلى ، وهو ضد « حليت » .
 (٧) هى الدرّة التى فى وسط العقد وتمد أنفوس جوهره فيه .
 (٨) يقول : نحن قد حللنا من نعمائكم فى بهجة من الزمان ، ونضرة من الحياة ، جددت لنا عهد الربيع عهد استقبال أيامه ، وتجدد أوانه ، والربيع عند العرب ربيعان . الربيع الذى فيه النور والسكران ، والربيع الذى تدرك فيه الثمر . (٩) شهر ، وهو اثنان : كانون الأول ، وكانون الثانى .
 (١٠) الحمل : برج من بروج السماء .

* *

أَيُّهَا الْبَحْرُ الَّذِي مَهَّمَا تَقْضِ بِالَّذِي ^(١) يُمْنَاهُ فَالْبَحْرُ وَشَلْ ^(٢)
مَنْ لَنَا فِيكَ بَعِيبٍ وَاحِدٍ تُحَذِّرُ الْعَيْنُ إِذَا الْفَضْلُ كَمُلْ ^(٣)
شَرَفُ تَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ بِهِ مِثْلُ مَا يَغْنَى عَنِ الْكُحْلِ الْكَحْلُ ^(٤)

* *

أَنَا غَرَسٌ فِي ثَرَى الْعَلِيَاءِ لَوْ أَبْطَأْتُ سُقْيَاكَ عَنْهُ لَدَبُلْ
لِي ذِكْرُ بِالَّذِي أَسْدَيْتَهُ نَابَهُ وَدَّ حَسُودٌ لَوْ خَلْ ^(٥)
فَلَيْمَتْ بِالْدَاءِ مِنْ حَالٍ فَتَى أَدَبْتَهُ سَيْرُ النَّاسِ الْأَوَّلِ
فَوَعَى الْحِكْمَةَ عَنْ قَائِلِهِمْ : « الزَّمِ الصَّحَّةَ يَلْزَمُكَ الْعَمَلُ »

* *

أَقْبَلْتَ نِعْمَاكَ تُهْدِي نَفْسَهَا لَمْ أَرْغ ^(٦) حَظِّي مِنْهَا بِالْحَيْلِ
فَقَبِلْتُ الْيَدَ ^(٧) مِنْ بَطْنِ يَدٍ ظَهَرُهَا - الدَّهْرُ - مَحَلٌّ لِلْقَبْلِ
كَلْنَا بُلْغَ مَا أَمَلَهُ فَابْلُغِ الْغَايَةَ مِنْ كُلِّ أَمَلٍ
وَإِذَا مَارَامَكَ الدَّهْرُ فَفُتْ وَإِذَا رُمْتَ الْأَمَانِي فَتَلْ

(١) الكرم . (٢) ماء قليل يتحلب من جبل أو صخرة .
(٣) يقول من لنا بمن يعد فيك عيباً واحداً فانا نحن نحذر عليك وقد كنت فناء لك عيون الحاسدين ،
وهو نظير قول الآخر :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين

(٤) الكحل : محرّكة أن تسود مواضع الكحل من العين خافة ، أي شرف تستغنى بسببه عن المدح كما
تستغنى العين المكحولَة خلفة عن التكحل بالكحل صناعة . (٥) أسديته : أعطيته ، والذكر
الناية : اللصيف المشتهر ، وهو خلاف الحامل . (٦) لم أطلب وفي الأصل : « لم أدع » .
(٧) الجليل .

مداعبة

« كتبها إلى أبي عبد الله بن القلاس البطليوس

يداعبه بها »

أَصْبَحُ لِمَقَالَتِي وَأَسْمَعُ وَخُذْ - فِيمَا تَرَى - أَوْ دَعْ
وَأَقْصِرْ - بَعْدَهَا - أَوْ زِدْ وَطِرْ - فِي إِثْرِهَا - أَوْ قَعْ

* *

أَلَمْ تَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ - يُعْطِي بَعْدَ مَا يَمْنَعُ
وَأَنَّ السَّعْيَ قَدْ يُكْذِبُ^(١) وَأَنَّ الظَّنَّ قَدْ يَخْدَعُ
وَكَمْ ضَرَّ أَمْرًا أَمْرًا تَوَهَّاهُمْ أَنَّهُ يَنْفَعُ

* *

فَإِنْ يُجْدِبُ مِنَ الدُّنْيَا جَنَابُ طَالَمَا أَمْرَعُ
فَمَا إِنْ غَاضَ لِي صَبْرُ وَمَا إِنْ فَاضَ لِي مَدَمَعُ
وَكَأَنَّ رَامَتِ الْأَيَّامُ مُ تَرْوِيحِي فَلَمْ أَرْتَعْ^(٢)
إِذَا صَافَقَنِي الْجُلَى تَجَلَّتْ عَنْ فَتَى أَرْوَعِ^(٣)
عَلَى مَا قَاتَ لَا يَأْسِي وَمِمَّا نَابَ لَا يَجْزَعُ
تَدِبُ إِلَى مَا تَأْلُو عَقَارِبُ مَا تَنِي تَلْسَعُ

(١) يخفق ، وقد كرر هذا المعنى في سينيته فقال :

« ولكم أجدى قعود ولكم اكدى التماس »

(٢) حاولت الأيام أن تخيفني فلم أخف .

(٣) أى أن المصائب لا تنال منه مثلاً ، صافت من صافه لهم لما نزل به ، والجلى : الأمر العظيم والحادث المروع ، والأروع : الذكي الحديد الفؤاد الحى النفس ، والمعنى : إذا نزلت بي جلى الحوادث تكشفت عن فتى حاضر العقل حديد الفؤاد ، وفي الأصل « صابتنى » من صاب السهم القرمطاس بمعنى أصاب وهي لغة قليلة لا نطق أن ابن زيدون يلجأ إلى استعمالها مع غزارة مادته .

كَأَنَّا لَمْ يُوَافِقْنَا زَمَانُ لَيْنِ الْأَخْدَعِ ^(١)
 إِذِ الدُّنْيَا - مَتَى نَقَعْدُ أَبِي سُورِهَا - يَتَّبَعُ ^(٢)
 وَإِذْ لِلْحَظِّ إِقْبَالُ وَإِذْ فِي الْعَيْشِ مُسْتَمْتَعٌ
 وَإِذْ أَوْتَارُنَا تَهْفُو وَإِذْ أَقْدَحُنَا مُتْرَعٌ ^(٣)
 وَأَوْطَارُ الْمُنَى تُقْضَى وَأَسْبَابُ الْهَوَى تَشْفَعُ
 فَمِنْ أَدْمَانَةٍ ^(٤) تَعْطُو ^(٥) وَمِنْ قُمْرِيَّةٍ تَسْجَعُ
 أَعِدْ نَظْرًا فَإِنَّ الْبَغْدَ سَى مِمَّا لَمْ يَزَلْ يَصْرَعُ
 وَلَا تُطِيعِ الَّتِي تُغْوِيكَ، فَهِيَ لِبَغْيِهِمْ أَطْوَعُ ^(٦)
 تَقَبَّلْ - إِنْ أَتَى - خَطْبًا وَأَنْفُ الْفَحْلِ لَا يَقْرَعُ ^(٧)

- (١) يقول : إنك مولع الآن بالكيد والاساءة إلى مناسيا تلك الأيام التي ألف فيها بيننا الزمن المواتي ، حين كنا أخوين متآلفين ، وفي الأصل : « كأنا لم يولينا » .
- (٢) وفي الأصل : « إذ الدنيا منى » . (٣) تملأ .
- (٤) الأدمان - بالفتح - شجر الجنة ، وهي أكبر من البقول وأصغر من الشجر ، الأدمانة : بضم فسكون قالوا إنه جمع إدماء كحمراء وهي الظبية الخالصة البيضاء ، قال ذو الرمة :
 من المؤلفات الرمل أدماء حرة شعاع الضحى في منها يتودح
 وصحح بعض اللغويين أن أدمانة مفرد تخمصة وإذن فهي مرافاة لأدماء ، وتعطوا : تتناول إلى الشجر لتناول منه . (٥) تميل .
- (٦) دع غواية هذه الماكرة فانها أطوع لغواية أعدائك ومنافسيك ولن تستطيع أن تتغلب على كيدهم وغوايتهم ، وفي الأصل : « فهي لبغيهم أطوع » .
- (٧) قرع الأنف رمز للهوان ، قالوا : وخص الأنف بالضرب لأنه محل الأنفة والكبر والشم .
 والعرب تقول في امثالها : « أنف الفحل لا يقرع » وهي تقوله : للاخطاب الكفاء .
 والأصل فحل الأبل إذا ضرب وجهه عن الناقة التي يريدون نتاجها منه .
 قالوا : وتمثل به أبو سفيان بن حرب حين بلنه زواج النبي (صلى الله عليه وسلم) ابنته أم حبيبة فقال :
 « ذاك الفحل لا يقرع أنفه » .
- وفي الأصل : « وأنف النمل لا يقرع » يقول : إن العظيم لا يهن عزمة أمام الخطوب والكوارث ، فليكن لك في هذا عزاء ولتقبل أى خطب إن أذاك بصدر رحيب ، غير واجد على تلك المرأة الفادرة التي لا قيمة لها ولا خطر .

وَلَا تَكُ مِنْكَ تِلْكَ الدَّارُ بِالْمَرَأَى وَلَا الْمَسْمُوعُ .
فَإِنْ قُصَّارُكَ الدَّهْلِيْزُ ، حِينَ سَوَّالُكَ فِي الْمَضْجَعِ ^(١)

جَرَّبَ النَّاسَ وَأَمْتَحَنَ

خُنْتُ عَهْدِيْ وَلَمْ أَخُنْ بَعْتَ وَدَى بِلَا ثَمَرٍ
قَائِلًا : « هَلْ مُزَايِدٌ رَاجِحًا ؟ ثُمَّ مَنْ يَزِنُ ^(٢) »
عُدَّتِي كُنْتُ لِلزَّمَانِ ، فَقَدْ حُلَّتِ وَالزَّمَانُ ^(٣)
أَرْخِصَ الْبَيْعَ كَيْفَ شِئْتُ وَدَكَّرَنِي ، لَتَنْدَمَنَّ ^(٤)
سَوْفَ تُبَيِّلِي بَغَيْرِنَا ، جَرَّبَ النَّاسَ وَأَمْتَحَنَ

(١) وتناس تلك الدار التي كانت ذكرياتها مبعث آلامك وأحزانك ، فليس لك أمل في اكتساب ودها ، وقصارى ما تصل إليه أن تكون في الدهليز حين ينعم غيرك بالمضجع .

(٢) بعث عهدي رخيصة مع صدق ودادي لك ، وأخذت تدال عليه في السوق زاهداً فيه باحثاً ممن يشتريه بأجنس الأثمان . (٣) كنت عدتي التي أحارب بها الزمن فأصبحت حرباً على أنت والزمن . وقريب من هذا المعنى وأدق منه وأروع قول ابن الرومي :

« تَخَذْتُمْوْ دُرَّاهِمًا مِّنِيَّامًا لَتَمْنَعُوا سَهَامَ الْعَدَا عَنِي فِكْتَمُ نَصَالِهَا
وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو مِنْكُمْ خَيْرَ نَاصِرٍ عَلَى حِينِ خِذْلَانِ الْيَمِينِ شِمَالِهَا »

إلى أن يقول :

« قَفُوا وَقِفَةُ الْمَعْدُورِ عَنِي بِنَجْوَةٍ وَخَلُّوا نَبَالِي لَلْعَدَا وَنَبَالِهَا »

وقول القائل :

« وَآخَوَاتٍ حَسِبْتُهُمْوْ دُرَّاهِمًا فَكَانَتْوَهَا ، وَلَكِنْ لِلْأَعْدَى
وَخْتُهُمْوْ سَهَامًا صَائِبَاتٍ فَكَانَتْوَهَا ، وَلَكِنْ فِي فُؤَادِي
وَقَالُوا : « قَدْ صَفَتْ مِنَّا قُلُوبٌ لَقَدْ صَدَقُوا ، وَلَكِنْ هُنَّ وَدَادِي »

(٤) ازهد في ودي كما شئت فوالله لتندمن على زهادتك في ، وما أجل قول ابن الرومي .

« وَارِبًا بُوْدِي أَنْ يَذَالَ قَانِي فِي غَيْرِ ذَاكَ مِنَ الْأُمُورِ أَرْخِصَ
إِيَّاكَ لَا تَسْتَفِلْ مَا أَرْخِصْتَهُ بَطَرًا ، فَأَغْلَى مِنْهُ مَا لَا أَرْخِصُ
سَتْرِي - مَنِي اسْتَغْفِرْتَنِي وَطَلَبْتَنِي - أَنِي سَأَزْهَدُ عِنْدَ ذَاكَ - وَتَحَرَّصُ »

في مدح ابن جهور

« قالها في مدح أبي الحزم بن جهور
أحد ملوك الطوائف »

هَذَا الصَّبَاحُ عَلَى سُرَاكِ رَقِيبَا فَصَلِّي بِفِرْعَكَ لَيْلَكَ الْغَرِيبَا ^(١)
وَلَدَيْكَ - أَمْثَالَ النُّجُومِ - قَلَايِدُ أَلْفَتْ سَمَاءَ لَبَّةٍ وَتَرِيبَا ^(٢)
لَيَنْبُ عَنِ الْجَوَازِ قُرْطُكَ كَلَّمَا جَنَحَتْ تَحْتُ جَنَاحَهَا تَغْرِيبَا ^(٣)
وَإِذَا الْوِشَاحُ تَعَرَّضَتْ أَثْنَاؤُهُ طَلَعَتْ ثُرْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَغْيِيَا ^(٤)

(١) سراك : سيرك ليلا ، الغريب : الشديد السواد يقول كاد الصباح يفضحك فصلى سواد الليل بسواد شعرك ، أليس شعرك كالليل ، قال ابن بسام :
قوله : « فصلى بفرعك ليلك الغريب » من قوله أبي الطيب :
« كشفت ثلاث ذوائب من شعرها في ليلة فأرت ليلي أربعا »
وينظر إلى قول المعري :

« يود أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر »

والتهامى :

« وتود لو جعلت سواد قلوبها وسواد أعينها سواد عذار »

وقال محمد بن هاني :

قد أظلموا بالدهم منها فجرهم فتكورت شمس النهار تنضبا

واستأنفوا بشباتها بحرا ، فلو عقدوا نواصيها أعادوا النهبيا

(٢) اللب بوزن الحبة المنحر - والتريب : واحد ترائب الصدر ، وهي موضع القلادة منه - والمعنى لديك قلايد شبيهة بالنجوم تسكن سماء النحر والصدر منك كما تسكن النجوم السماء - وأمثال النجوم بالنصب حال من قلايد النكره متقدم عليه ، وهو الذي سوغ مجيء صاحب الحال نكره ، قال ابن مالك :

« ولم يتكرر غالبا ذو الحال إن * لم يتأخر » ومن شواهد قوله : « وما لام نفسي مثلها لي لام »
فشلتها بالنصب حال من لائم النكرة ، ويجوز أن يكون أمثال مبتدأ خبره لديك وقلايد بدلا منه .

(٣) الجوزاء : نجم يعترض في جوار السماء أي وسطه ، شبه قرطها بالجوزاء وجذعت أي مالت مغربة كأنها طائر يحث جناحه . يقول أنبى عن الجوزاء قرطك إذا مالت مغربة لتنب في الأفق .

(٤) الوشاح : أديم ينسج عريضا ويرصع بالجواهر وتشده المرأة بين عاتقها وكشحيها وتشبه الثريا إذا تعرضت أي سارت معوجة بالوشاح المعوجة أثناؤه - وأثناء الوشاح ما أثنى منه ، قال امرؤ القيس :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل

أي أعوجت ولم تستقم في سيرها أعوجاج ما أثنى من الوشاح على جارية اتشحت به .

وَأَطْلَمَا أَبْدَيْتِ إِذْ حَيَّتِنَا كَفَاهِيَ الْكَفُّ الْخَضِيبُ خَضِيبًا

أُظْنِئَنَّةً ، دَعَوَى الْبَرَاءَةَ شَأْنَهَا أَنْتِ الْعَدُوُّ فَلِمَ دُعِيتَ حَبِيبًا^(١)
مَا بَالُ خَدِّكَ لَا يَزَالُ مُضَرَّجًا يَدَمٍ وَلَحْظُكَ لَا يَزَالُ مُرِيًّا^(٢)
لَوْ شِئْتُ مَا عَذَّبْتُ مُهْجَةَ عَاشِقٍ مُسْتَعَذِّبٍ فِي حُبِّكَ التَّعْذِيبَا
وَلَزُرْتِهِ - بَلْ عَذَّبْتِهِ - إِنَّ الْهَوَى مَرَضٌ يَكُونُ لَهُ الْوِصَالُ طَبِيبًا
مَا الْهَجْرُ إِلَّا الْبَيْنُ لَوْ لَا أَنَّهُ لَمْ يَشْحُ فَاهُ بِهِ الْغُرَابُ نَعِيبًا^(٣)

(١) يا متهمة بقتل العاشقين يا مخضوبة الكف بدمائهم أنت العدو فكيف دعوت نفسك حبيبا .
(٢) مثله قول الحمصى :

« عيناك قد اعترفا بدمي وعلى خديك نوره »

(٣) شحا فاه يشجوه : فتحه ، والنعيب والنعب : صوت الغراب ، والمعنى : ما الهجر إلا البين إلا أن الغراب في هذه المرة - لم يفتح فاه لينذرنا بذلك الهجر الميت ، والنعيب نذير الفراق عند العرب ، ويسمون الغراب الأبقع غراب البين ، قال عنقرة :

« ظعن المدين فراقهم أتوقع وجرى بينهم الغراب الأبقع »

وقال النابغة الذبياني :

« زعم الأجنة أن رحلتهم غدا وبذاك تنعب الغراب الأسود
لا مرحبا بقد ، ولا اهلا به إن كان تفريق الأجنة في غد »

وقال قيس ابن ذريح :

« ألا يا غراب البين ، قد طرت بالذي أحاذر من لبى فهل أنت واقع
ولمك لو أبلغتها : قبلى اسلمى بكت حذرا وأرفض منها المدامع »
وقال المعري : « نبي من الغربان ليس على شرع يخبرنا أن الشعوب إلى صدع
أصدفه في صرية ، وقد امترت صحابة موسى بعد آياته التسع »

وقال في رثاء الشريف المرتضى :

« من شاعر للبين قال قصيدة يرثي الشريف على روى الغاف »

إلى آخر هذه الأبيات التي لاجبة بنا إلى تفصيلها .

وقد شد أحد الشعراء فأنهى باللائمة على من يذهب هذا المذهب الخاطيء في ذم الغراب ، وبرأه من تهمة

التفريق ، فقال :

والناس يلحون غراب البين لما جهلوا
وهل غراب البين إلا ناقة أو جل
وما على ظهر غراب البين تطوى الرحل

وَلَقَدْ قَضَىٰ فِيكَ التَّجَلُّدُ نَجْبَةً فَقَوَىٰ وَأَعْقَبَ زَفْرَةً وَنَحِيًّا
وَأَرَىٰ دُمُوعَ الْعَيْنِ لَيْسَ لِفَيْضِهَا غِيْضٌ إِذَا مَا الْقَلْبُ كَانَ قَلِيًّا

مَالِي وَلِلْأَيَّامِ لَجَّ مَعَ الصَّابَا عُدُوتَاهُمَا فَكَسَا الْعِذَارَ مَشِيْبَا
مَحَقَّتْ هِلَالَ السَّنِّ قَبْلَ تَمَامِهِ وَذَوَىٰ بِهَا غُصْنُ الشَّبَابِ رَطِيْبَا
لَا لَمْ بِي مَا لَوْ أَلَمْ بِشَاهِقِي لِأَنْهَالَ جَانِبُهُ فَصَارَ كَثِيْبَا^(١)
فَلَنْ تَسْمِنِي الْحَادِثَاتُ فَقَدْ أَرَىٰ لِلْجَفْنِ فِي الْمَضْبِ «الطَّرِيرِ نُدُوبَا»^(٢)
وَلَنْ عَجِبْتُ لِأَنْ أَضَامَ «وَجَهْوَرُ» نِعَمَ النَّصِيرُ لَقَدْ رَأَيْتُ عَجِيْبَا
مَنْ لَا تُعَدِّي النَّائِبَاتُ لِجَارِهِ زَحْفًا وَلَا تَمُشِي الضَّرَاءُ دَيْبَا^(٣)
مَلِكٌ أَطَاعَ اللَّهَ مِنْهُ مُوَفَّقٌ مَا زَالَ أَوَّابًا إِلَيْهِ مُنِيْبَا
يَأْتِي رِضَاهُ مُعَادِيَا وَمُوَالِيَا وَيَكُونُ فِيهِ مُعَاقِبَا وَمُشِيْبَا
مُتَمَرِّسٌ بِالْدَّهْرِ يَقْعُدُ صَرْفُهُ إِنْ قَامَ فِي نَادِي الْخُطُوبِ خَطِيْبَا

- (١) المعنى : لقد نزل بي مالمو نزل بجبل شاهق لسقط جانبه فصار كثيبا مهيلا أى رملا قد هيل وانتثر — وهو مأخوذ من قوله تعالى « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا »
- (٢) تسنى : أى تجشنى مكروها من قولهم سامه خسفا إذا أولاه إياه وأراده عليه — والجفن : القعد — والعصب : السيف — والطير : القاطع — والندوب : جمع ندب بفتحيتين وهو فى الأصل أثر الجرح فى الجسم إذا لم يرتفع عن الجلد — وأراد به هنا أثر الصدأ الذى يعلو فرند السيف لطول مكثه فى القعد — والمعنى فلن يغيرنى طول المكث فى السجن فان السيف يصدأ بطول المكث فى الجفن .
- (٣) تعدى : بالتضعيف تحضر وتسرع فى العدو — وزحفا من زحف الجيش — والضراء : من قولهم فلان يمشى الضراء إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر — والديب : مصدر دب النمل والشيخ متى على هيئته والمعنى : نعم النصير جهور من لا تسرع النائبات إلى جاره زحفا ولا تدب إليه مستخفيا .

لَا يُوسَمُ الرَّأْيُ الْفَطِيرُ بِهِ وَلَا
تَأْنِي ضَرَائِبُهُ الضُّرُوبَ نَفَاسَةً
بَسَامُ ثَغْرِ الْبَشْرِ إِنْ عَقَدَ الْحُبَا
مَلَأَ النَّوَاطِرَ صَامِتًا وَلَرُبَّمَا
عَقْدُهُ تَأَلَّفَ فِي نِظَامِ رِيَّاسَةٍ
يَفْشَى التَّجَارِبَ كَهْلَهُمْ مُسْتَغْنِيَا
وَإِذَا دَعَوْتَ وَلِيدَهُمْ لِعَظِيمَةٍ
يَعْتَادُ إِزْسَالَ الْكَلَامِ قَضِيًّا^(١)
مِنْ أَنْ تَقِيسَ بِهِ النَّفُوسُ ضَرِيًّا^(٢)
فَرَأَيْتَ وَضَاحًا هُنَاكَ مَهِيًّا^(٣)
مَلَأَ الْمَسَامِعَ سَامِعًا وَحُجِيًّا^(٤)
نَسَقَ اللَّالِي مَنْجِبًا وَنَجِيًّا
بِقَرِيحَةٍ هِيَ حَسْبُهُ تَجْرِيًّا
لَبَّاكَ رَقْرَاقَ السَّمَاحِ أَدِيًّا^(٥)

(١) الرأى الفطير : ما فيه عجلة وأصله من اختباز العجين قبل أن يختمر - وانقضب : المقتضب من قولهم انقضب الخطبة والكلام أى أرسلها من غير إعداد وتهئية - والمعنى : أنه لا ينتم بسمة العجلة فى الرأى ولا يرسل الكلام مقتضيا مرتجلا من غير إعداد له وريضة عليه .

(٢) ضرائبه : سجاياه - والضروب : جمع ضرب وهو المثل والشبيه كالضرب ، أى تمتع سجاياه أن يكون له أمثال وأشياء نفاسة بتلك الللال الكريمة أى ضنا بها وأبأء من أن تقيس به النفوس ضريبا وشديها (٣) الحبوة : كدرة وسدرة تجمع على حبأ كدرف وسدر ، والاحتباء أن يضم الجالس رجله إلى بطنه ومجمعهما مع ظهره ثوب وقد يحمي يديه ، وهو يقوم مقام إسناد الظهر إلى حائط أو نحوه ، يعنى أنه كثير الابتسام فى طلاقة وبشر أن جلس محتبيا فنظرت منه وضاح الجبين مشرق الطلعة مهييا .

(٤) المعنى : أنه ملأ النواظر - روعة وهيبة فى حال صمته والمسامع حكمة وبياناً سامعا من الناس ومجيبا قال ابن بسام :

قوله : « ملأ النواظر صامتا » من قول ابن زيدون أيضا :

اسألها واجعل بكاك جوابا تخدم الشوق سائلا ومجيبا

وينظر أيضا إلى لفظ هذا البيت دون معناه قول أبى الطيب :

فدعاك حاسدك الرئيس وامسكوا ودعاك خالفك الرئيس الأكبرا

خلقت صفاتك فى العيون كلامه كالخط يملأ مسمى من أبصرا

ويلمح أيضا هذا البيت قول أبى نواس - على ما فسره بعض الناس -

« ألا فاستنى خرا وقل لى : هى الحر » وهذا التفسير فيه أضعف الوجوه ، وبيت بن عرفة أشبه من هذه

كلها بيت ابن زيدون ، وهو قوله يمدح صاحب القيروان :

سل عنه وانطق به وانظر إليه تجد ملء السامع والانفواه والقل

(٥) لباك : أجابك - ورقراق السماح : يريد أن سماحه يترقرق أى يجرى كالماء جريا مهلا - وأديا :

لعلها أديا بالراء المهملة أى عافلا .

هَمُّ تَنَافُسِهَا النُّجُومُ وَقَدْ تَلَا فِي سُودَدٍ مِنْهَا الْعَقِيبُ عَقِيبًا
وَمَحَاسِنُ تَنْدَى رِقَائِقُ ذِكْرِهَا فَكَادُ تَوْهَمِكَ الْمَدِيحُ نَسِيبًا ^(١)
كَالَاسٍ أَخْضَرَ نَضْرَةً، وَالْوَرْدِ أَحْمَرَ بَهْجَةً، وَالْمِسْكِ أَذْفَرَ ^(٢) طِيبًا
وَإِذَا تَفَنَّنَ فِي اللِّسَانِ ثَنَاؤُهُ فَافْتَنَّ لَمْ يَكُنِ الْمُرَادُ غَرِيبًا ^(٣)
غَالِيًا بِمَا فِيهِ فَغَيْرُ مُوَاقِعٍ سَرَفًا وَلَا مَتَوَقِّعٍ تَكْذِيبًا ^(٤)

* *

كَانَ الْوُشَاةُ وَقَدْ مُنِيتُ بِإِفْكَهِمْ - أَسْبَاطَ يَعْقُوبٍ وَكُنْتُ الدِّيَا ^(٥)
وَإِذَا الْمُنَى بِقَبُولِكَ الْغَضَّ الْجَنَى هَزَّتْ ذَوَابُّهَا فَلَا تَثْرِيَا
أَنَاسِيْفُكَ الصَّدَى الَّذِي - مَهْمَا تَشَأْ تُعِدِ الصَّقَالَ إِلَيْهِ وَالتَّذْرِيَا ^(٦)
كَمْ ضَاقَ بِي مِنْ مَذْهَبٍ فِي مَطْلَبٍ فَتَنِّيَتْهُ فُسُوحُ الْمَجَالِ رَحِيَا
«وَزَهَا» جَنَابُ الشُّكْرِ - حِينَ مَطَرَتْهُ بِسَحَابِ النُّعْمَى - فَرَدَّ خَصِيْبًا ^(٧)

(١) قال ابن بسام :

قوله : « فَكَادُ تَوْهَمِكَ الْمَدِيحُ نَسِيبًا » من قول أبي تمام :

(٢) أذفر : ذكي طيب الريح .

طاب فبك المدح والتذ حتى طاق وصف الديار والتشييبا

(٣) إِذَا تَفَنَّنَ : أى أطرده مديحه في اللسان - فَافْتَنَّ : أى أخذ في فنون وضروب من المدح لم يكن مراد المادح غريباً لأنه يستعمل من صفاته فيقول .

(٤) موافع : مدان ، والمتوقع : المنتظر - والمعنى : بالغ مادحه بما فيه من الصفات فلم يكن مدانياً إفراطاً ولا متخوفاً تكذيباً .

(٥) منيت بليت - والافك الكذب والتحديث بالباطل ، يريد انه يرى مما ابتلى به من إفكهم براءة الغيب من دم ابن يعقوب .

(٦) التذريب : التعديد .

(٧) وجد هذا البيت في الأصل وفي غيره من المطايع ناقصاً ، والزيادة يعطيها السياق .

* * *

فَتَهَنَّنِي الْأَعْيَادَ عَادَةً لِأَبْسِ يُبْلِي الدَّرِيسَ فَيَسْتَجِدُّ قَشِيبًا^(١)
وَمَتَى سَعَيْتَ لِنَارِ حِمْيَرٍ مُتَعَذِّرٍ فَوَجَدْتَهُ سَهْلَ الْمَرَامِ قَرِيبًا^(٢)
وَأَرَادَ فِيكَ مُرَادَكَ الْقَدَرُ الَّذِي لَا تَسْتَطِيعُ لِحُكْمِهِ تَعْقِيًا

عتاب

أَحِينَ عَلِمْتَ حَظَّكَ مِنْ وِدَادِي وَلَمْ تَجْهَلْ مَحَلَّكَ مِنْ فُؤَادِي
وَقَادَنِي الْهُوَى فَأَنْقَذْتُ طَوْعًا وَمَا مَكَّنْتُ غَيْرَكَ مِنْ قِيَادِي
رَضِيتَ لِي السَّقَامَ لِأَبْسِ جِسْمٍ كَحَلَّتِ الطَّرْفَ مِنْهُ بِالسُّهَادِ^(٣)

* * *

أَجَلُ عَيْنِكَ فِي أَسْطَارِ كُتُبِي تَجِدُ دَمْعِي مِرَاجًا لِلْعِدَادِ^(٤)
فَدَيْتُكَ إِنِّي قَدْ ذَابَ قَلْبِي مِنْ الشُّكُوى إِلَى قَلْبِ جَمَادٍ

(١) يقال تهنا الطعام ونهنا به كما يقال تعلق الشيء وتعلق به — أي تهنا بالأعياد غير مخالف طاعتك فيها من إبلاء الثوب الدريس أي الخلق ، ولبس القشيب أي الجديد ، وهذا نظير قوله في البائية .
فأبل وأخلف إنما أوت لا بس لهذا الليالي الغر وهي ثياب

(٢) ومتى سعيت لعل الأصل ولكم سعيت البيت — والذي يظهر أن هذه الأبيات التي ختمت بها هذه القصيدة وقع فيها شيء من التعريف فليحرر .

(٣) يقول : « أحين أبقت انني لا أهل أحدًا محلك من فلي وعلمت أنني أسير هواك جزيتني على ذلك الاخلاص في الحب سقاما وتسهيذا . وما أجل قول المجنون : »

وأدبني حتى إذا ما فتنني بقول يحل العصم سهل الأباطح

تناوت عني حين لالي حيلة وغادرت ما غادرت بين الجوانح

(٤) تأمل في سطور الكتب التي أبعث بها إليك تجد دمي مختلطا بمداها .

رثاء فتاة

« قال يرثي ابنة المعتضد المتوفاة قبل وفاته بثلاث »

- سَرَّكَ الدَّهْرُ وَسَاءَ قَافِنَ شُكْرًا وَعَزَاءَ (١)
 كَمْ أَفَادَ الصَّبْرُ أَجْرًا وَأَقْتَضَى الشُّكْرُ نَمَاءَ (٢)
 أَنْتَ إِنْ تَأَسَّ عَلَى الْمَفْقُودِ الْفَاءَ وَاجْتَبَاءَ (٣)
 فَاسْأَلْ عَنْهُ غَيْرَةً وَأَخْنِ تَمَلِ الرُّزْءَ إِبَاءَ (٤)
 أَيُّهَا « الْمُعْتَضِدُ » الْمَنْصُورُ مَلَيْتَ الْبَقَاءَ (٥)
 وَتَزَيَّدْتَ مَعَ الْأَيَّامِ عِزًّا وَعَلَاءَ (٦)
 إِنَّمَا يُكْسِبُنَا الْحُزْنَ نَ عَنَاءَ لَا غِنَاءَ (٧)
 أَنْتَ طَبِّ أَنْ دَاءَ الْمَوْتِ قَدْ أَعْيَا الدَّوَاءَ (٨)
 فَتَأَسَّ (٩) إِنَّ ذَاكَ الْخَطْبَ غَالِ الْأَنْبِيَاءِ
 وَسَيَفْنِي الْمَلَأَ الْأَعْلَى إِذَا مَا اللَّهُ شَاءَ
- *
* *

حَبَّذَا هَدَى عَرُوسٍ دَفْنُهَا كَانَ الْهِدَاءَ
 مَرَّتْ حِينًا وَمَاءَ الْمُزْنِ شَكْلَيْنِ سَوَاءَ

(١) اقن : الزم من تولهم تنبت حياقي أى لزمته ، قال عنتره :

فأجبتها إن النيسة منهل لا بد أن أسقى بذاك المنهل
 فاقنى حياك لا أبالك واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل

والمعنى : مرك الدهر وساءك فاشكره على أن مرك وتمز بذلك عما ساءك .

(٢) زيادة . (٣) الاجتباء : الاصطفاء .

(٤) ملئت البقاء : متمك الله بالبقاء . (٥) البلاء : الرفعة .

(٦) إنما يكسبنا الحزن ألما لا فائدة فيه ولا جدوى منه .

(٧) أنت عالم خير بأن داء الموت لا دواء له . (٨) اصبر .

ثُمَّ وَلَّتْ فَوَجَدَنَا أَرْجَ (١) الْمِسْكِ ثَنَاءً
جَمَعَتْ تَقْوَى وَإِخْبَاءً (٢) وَفَضْلاً وَذِكَاً
سَتُوفَى مِنْ جَهَامِ الْكَوْثَرِ الْعَذْبِ رَوَاءَ (٣)
حَيْثُ تَلْقَى الْأَتْقِيَاءَ الشُّعَدَاءَ الشُّهَدَاءَ

* * *

هَانَ مَا لَاقَتْ عَلَيْهَا أَنْ غَدَتْ مِنْكَ فِدَاءً (٤)
غُنِمَ أَحْبَابِكَ أَنْ تَبْقَى وَإِنْ عُمُوا فَنَاءً (٥)
قَالَ بَسِ الصَّنْعَ مُلَاءً وَأُسْحَبِ السَّعْدَ رِدَاءً (٦)
وَرِثِ الْأَعْدَاءَ أَنْعَمًا رَهْمُ وَالْأَوْلِيَاءَ (٧)

في الغزل

مَا ضَرَّ لَوْ أَنَّكَ لِي رَاحِمٌ وَعِلَّتِي أَنْتَ بِهَا عَالِمٌ
يَهْنِيكَ يَا سُوْلِي وَيَا مُبَغِيَّتِي أَنْكَ مِمَّا أَشْتَكِي سَالِمٌ (٨)
تَضْحَكُ فِي الْحُبِّ وَأَبْكِي أَنَا اللَّهُ - فِيمَا يَنْتَنَا - حَاكِمٌ
أَقُولُ لِمَا طَارَ عَنِّي الْكَرَى قَوْلَ مُعْنَى قَلْبُهُ هَائِمٌ
« يَا نَائِمًا أَيْقِظْنِي حُبُّهُ هَبْ لِي رُقَادًا أَيُّهَا النَّائِمُ » (٩)

-
- (١) طيب . (٢) الاخبات : الخشوع . (٣) ستروى من ماء الكوثر .
(٤) هون عليها خطب الموت أنها افقدتك بنفسها من الردى .
(٥) إن أحبابك ليرون في بقائك أ كبر فوزهم ولو افقدوك بأنفسهم .
(٦) اللاء والملاءة : الربطة ذات لفقين ، والمعنى : ارفل في حلل المعروف والسعادة .
(٧) وهبك الله أعمار أعدائك وأصفيائك .
(٨) من أبدع ما قرأناه في هذا المعنى قول الشريف الرضى :
« أهون عليك - إذا امتلأت من الكرى - أنى أبنت بليلة اللس - وع »
(٩) يقول : « ليس من العدل أن تنام وأسهر ، فانهم على الكرى بعد أن أيقظني هجرتك » .

تهنئة

« وقال يهنئ المعتضد وقد شرب دواء »

أُحْدِثَ عَاقِبَةَ الدَّوَاءِ وَنِلْتَ عَافِيَةَ الشِّفَاءِ
وَحَرَجْتَ مِنْهُ مِثْلَمَا خَرَجَ الحُسَامُ مِنَ الْجِلَاءِ
وَبَقِيتَ لِلدُّنْيَا فَأَنْتَ دَوَاوُهَا مِنْ كُلِّ دَاءِ
وَوَرِثْتَ أَعْمَارَ الْعَدَى وَقَسَمْتَهَا فِي الْأَوْلِيَاءِ ^(١)
يَا خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْجِيَاءِ دَسَارَ فِي ظِلِّ اللُّوَاءِ
وَأَجْتَالَ يَوْمَ الْحَرْبِ قُدَّ مَا وَاحْتَبَى يَوْمَ الْحِبَاءِ ^(٢)
بُشْرَاكَ عُقْبَى صَحَّةٍ تَجْرِي إِلَى غَيْرِ انْتِهَاءِ
فِي دَوْلَةٍ تَبْقَى بَقَا الدَّهْرِ أَمِنَةَ الْفَنَاءِ
وَمَسْرَّةٍ يُفْضَى بِهَا زَمَنٌ كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ
وَأَشْرَبَ فَقَدْ لَذَّ النَّسِيمُ وَرَقَّ سِرْبَالُ الْهَوَاءِ
لِنَزَى بِكَ الْبَهْوِ الْمُطْلَ عَيْسُ فِي حُلُلِ الْبَهَاءِ
وَبَقِيتَ مَفْدِيًّا بِنَا إِنْ نَحْنُ جُزْنًا فِي الْفِدَاءِ ^(٣)

(١) قوله : « وقسمتها في الأولياء » يذكرنا قول العباس الأحنف :

لو كانت هذا الحب يد فغذفيه حكى أو قضائي
لطلبت به فجمعته من كل أرض أو سماء
فقسمته بيني وبين من حبيب نفسي بالسواء
حتى إذا متنا جيع بما ، والأمور إلى انتهاء
مات الهوى - من بعدنا - أو عاش في أهل الوفاء

(٢) أجال : من إجاله القداح في اليسر ويناسبه قدما أى فاز بالظفر والنصر على الأعداء ، واجتال في الحرب وجال بمعنى واحد ويناسبها قدما بضمين - والتخفيف بالإسكان في مثله جائز - ومعناه جال في الحرب يفضى قدما أى إلى الامام ، والحباء : بالكسر العطاء .
(٣) فذلك أعمارنا إن كان يقبل منا هذا الفداء .

تهنئة بفصد

« وقال يهنيه بفصد »

إِيهْنِكَ أَنْ أُحْدِثَ عَاقِبَةَ الْفُصْدِ فَلِلَّهِ مِنَّا أَجْمَلُ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ
وَيَا عَجِبًا مِنْ أَنْ مَبْضَعَ قَاصِدٍ تَلَقَّيْتَهُ لَمْ يَنْصَرِفْ نَابِي الْخَدِّ
وَمِنْ مُتَوَلَّى فَصْدٍ يُمْنَاكَ كَيْفَ لَمْ يَهْلُهُ عُبَابُ الْبَحْرِ فِي مُعْظَمِ الْمَدِّ
وَلَمْ تَغْشُهُ الشَّمْسُ الْمَنِيرُ شُعَاعُهَا فَيُخْطِئَ فِيمَا رَامَهُ سَنَنُ الْقَصْدِ

صَرَى دَمُكَ الْمُهْرَاقُ فِي الْأَرْضِ فَكَتَسَتْ أَفَانِينَ رَوْضٍ مِثْلَ حَاشِيَةِ الْبُرْدِ
فِصَادُ أَطَابِ الدَّهْرِ فَالْقَطْرُ فِي الثَّرَى كَمَا طَابَ مَاءُ الْوَرْدِ فِي الْعَنْبَرِ الْوَرْدِ
لَقَدْ أَوْفَتْ الدُّنْيَا بِعَهْدِكَ نُصْرَةً كَأَنَّكَ قَدْ عَلَّمْتَهَا كَرَمَ الْعَهْدِ^(١)
لَدَى زَمَنِ غَضٍّ أُنِيقَ فِرْنْدُهُ^(٢) كَمَلِ فِرْنِدِ الْوَرْدِ فِي خَجَلَةِ الْخَدِّ
تَسَوَّخُ مِنْهُ الْعَيْشُ فِي ظِلِّ دَوْلَةٍ مُقَابَلَةُ الْأَرْجَاءِ بِالْكَوْكَبِ السَّعْدِ

فَهَبْ إِلَى اللَّذَاتِ مُؤَثِّرَ رَاحَةٍ تُجِمُّ بِهَا^(٣) النَّفْسُ النَّفِيسَةَ لِلْكَدِّ^(٤)
وَوَالِ بِهَا فِي لَوْلُؤٍ مِنْ جَنَابِهَا^(٥) كَجِيدِ الْفَتَاةِ الرُّودِ فِي لَوْلُؤِ الْعِقَا
وَإِنْ تَدْعُنَا لِلْأُنْسِ - عَنْ أَرْحِيَّةٍ - فَقَدْ يَأْنِسُ الْمَوْلَى إِذَا أُرْتَاحَ بِالْعَبَا

(١) يقال وفي بالعهد أوفى بالعهد وكلاهما بمعنى واحد قال تعالى « وأوفوا بعهد الله » ومعنى البيت أنه طاهدتك الدنيا على النصرة ووفت بالعهد ولم تنقضه فكأنك قد علمتها الوفاء وكرم العهد .

(٢) أنيق الوشي . (٣) ترتاح بها .

(٤) تجم : يقال جمت وأجمها هو أي تركها تستجمع ما فقدته ، والمعنى : انشط إلى اللذات مفضلا إلّا .
فليلا ، وارك نفسك تستجمع ما فقدته من قوتها لثمتانف السكد والعمل لمهام الدولة .

(٥) الجناب : الناحية وما قرب من محلة القوم .

في مدح ابن جهور

- مَا طَوَّلُ عَذْلِكَ لِلْمُحِبِّ بِنَافِعِ (١)
 فَتَدَّتْ حِينَ طَمِعَتْ فِي سُلُوءَانِهِ (٢)
 فَدَعِيهِ حَيْثُ يَطْوُلُ مَيْدَانُ الصَّبَا (٣)
 مَاذَا يَرِيكَ مِنْ فَتَى عَزِّ الْهُوَى (٤)
 هَلْ غَيْرُ أَنْ مَحْضَ الْوَفَاءِ لِعَادِرِ (٥)
 لَمْ يَهْوَ مِنْ لَمْ يُنْسِ قُرَّةَ عَيْنِهِ (٦)
 وَاهَا لِأَيَّامٍ خَلَّتْ مَا عَهْدُهَا (٧)
 زَمِنْ كَمَا رَاقَ السَّقِيطُ مِنَ النَّدَى (٨)
 أَيَّامٍ إِنْ عَتَبَ الْحَيِيبُ - لِهَفْوَةٍ - (٩)
 ذَهَبَ الْفُؤَادُ فَلَيْسَ فِيهِ بِرَاجِعِ (١)
 هَيْهَاتَ لَا ظَفَرُ هُنَاكَ لِطَامِعِ (٢)
 كَيْمَا يَجْرُ بِوَ عِنَانِ الْخَالِجِ (٣)
 فَعِنَّا لِنُخْوَتِهِ بِذِلَّةٍ خَاضِعِ (٤)
 أَوْ غَيْرُ أَنْ صَدَقَ الْوَصَالُ لِقَاطِعِ (٥)
 سَهْرُ الصَّبَابَةِ فِي خَلِيٍّ هَاجِعِ (٦)
 - فِي حِينَ ضَيَّعْتَ الْعُهُودَ - بِضَائِعِ (٧)
 يَسْتَنْ فِي صَفَحَاتٍ وَزِدِ يَانِعِ (٨)
 شَفَعَ الشَّبَابُ فَكَانَ أَكْرَمَ شَافِعِ (٩)

(١) العذل : اللوم ، والمعنى : لا تمذلي فليس العذل بنافع مجا ذهب فؤاده مع من يرواه فليس يرجعه كثرة الوم والتعنيف . (٢) فتدت : أى نسبت إلى الكذب وضعف الرأى حين ططمعين في سلو محب يبعد كل البعد أن يظفر طامع في سلوانه بطائل .

(٣) الخالغ : من خلع الفرس عذاره ألفاه عن نفسه فعدا بشر ، وهو مثل يضرب لمن أطلق من قيده ، يقول : اتركه وشأنه في الهوى حيث يتسع له مجال الصبا ، وسراج الشباب ، كي يطلق لنفسه العنان في اللهو والراح . (٤) ماذا يريك : ماذا تكرهينه ويسوءك من فتى ، أو أى شيء يجعلك منه فى رية وشك ، وعنا : خضع وأطاع ، والنخوة : العظمة والكبر ، وهذا البيت يذكرنا بقول الشريف الرضى :

« لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزه وخضوعي »

(٥) معناه : هل يعرف غير محض الوفاء لمن غدر ، وحسن الصلة لمن هجر .

(٦) لم يذق طعم الهوى من لم يكن سهر الصبابة في خلى نائم حبيبا إلى نفسه ، وقررة لعينه .

(٧) واهها : كلمة يتعجب بها من طيب الشيء وحسنه ، والمعنى : ما عهد تلك الأيام التى تروق بهجتها بضائع عندي في حين ضيعت أنت كل العهود .

(٨) راق : أعجب ، والسقيط : ماسقط من الندى على الزهر ، ويستن : ينصب كالدمع في صفحة الورد

(٩) قريب من هذا المعنى قوله في مطلع بائيته :

أما علمت أن الشفيع شباب فيظفر عن لوم الهب عتاب

علام الصبا غص يرف رواؤه إذا عن من وصل الحسان ذهاب

انظر « ص ٤٠ »

مَالِي وَلِلدُّنْيَا غُرُزْتُ مِنَ الْمُنَى فِيهَا بَيَارِقَةُ السَّرَابِ الْخَادِعِ
مَا إِنِّ أَزَالُ أُرُومُ شُهْدَةً عَاسِلٍ أَنْحَى مُجَاجَتَهَا بِإِبْرَةِ لَاسِعٍ^(١)

☆☆

مَنْ مُبْلَغٌ عَنِ الْبِلَادِ إِذَا نَبَتْ أَنْ لَسْتُ لِلنَّفْسِ الْأُلُوفِ بِيَاخِعٍ^(٢)
أَمَّا الْهُوَانُ فَصُنْتُ عَنْهُ صَفْحَةً أَغَشَى بِهَا حَدَّ الزَّمَانِ الشَّارِعِ^(٣)
فَلْيُرْغِمِ الْحَظُّ الْمَوْلَى أَنَّهُ وَلَّى فَلَمْ أَتْبِعْهُ خُطْوَةً^(٤) تَابِعِ
إِنَّ الْغَنَى لَهُوَ الْقَنَاعَةُ لَا الَّذِي يَشْتَفُ نُظْفَةً مَاءٍ وَجْهَ الْقَانِعِ^(٥)

☆☆

اللَّهُ جَارُ « الْجَهْوَرِيِّ » فَطَالَمَا مُنِيتُ^(٦) صَفَاءُ^(٧) الدَّهْرِ مِنْهُ بِقَارِعِ

(١) شهدة : بالضم والفتح واحدة الشهد وهو العسل مادام لم يعصر من شحمه ، والعاسل : الذي يشتر العسل أى يأخذه من الخلية ، والمجاجة : ما يحبه النحل من العسل ، وبين « عاسل » و « لاسع » جناس القلب ، والمعنى : ما زلت أطلب من الدنيا أملاً يحكى مجاجة عاسل حتمها لمزعة لاسع .

(٢) نبت : لم يوافقها المقام بها قال : « وإذا نباك منزل فتحول » ، وبأخ : مزهق نفسى وقتلها . والمعنى : من يبلغ عنى ساكنى تلك البلاد التى ترحت عنها مع شدة تعلقى بها أنى لست بقاتل نفسى أسفاً ونحماً على مفارقتها إذا نبت بى ولم توافقنى الإقامة فيها ، وفى معنى التحول عن منزل الضيم يقول بشار :
إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها خرجت مع البازى على سواد

أى على بقية من سواد الليل .

(٣) الشارِع : من شرع نحوه حد السيف أو الرمح وأشرعه سدده له وهو نظير قول الآخر :
نعرض للطعان إذا التقينا وجوها لا تعرض للسباب

(٤) بالضم ما بين القدمين وتجمع على خطأ وخطوات .

(٥) النظفة الماء : القليل ، ويشتمها : يشربها عن آخرها ، يقال اشتفى فى شربه إذا أتى على آخر ما فى الإناء فلم يستر ، والمراد هنا أنه يريقها كلها عند السؤال ، والقانع : السائل ، وفى الكتاب العزيز « وأطعموا القانع والمعتر » وهو من قنع - بالقنع - قنوطاً إذا سأل ، لا من قنع - بالكسر - قناعة إذا رضى ولم يرق ماء وجهه بذل السؤال ، يقول أن الغنى عنى النفس بالقناعة لا غنى المال الذى يستنزف فيه السائل ماء وجهه ، ويشتم آخر قطرة من حياته .

(٦) ابتليت .

(٧) الحجر العريض الأماس ويجمع على صفا .

مَلِكٌ دَرَى أَنَّ الْمَسَاعِيَ مُنْعَةٌ فَسَعَى فَطَابَ حَدِيثُهُ لِلْسَّامِعِ
 شِيمٌ هِيَ الزَّهْرُ الْجَنِيُّ تَبَسَّمَتْ عَنْهُ الْكَمَامُ فِي الضَّحَاءِ ^(١) الْمَاتِعِ ^(٢)
 أَغْرَى مُنَافِسَهُ إِيذْرَكَ شَأْوَهُ فَشَأَاهُ بِالْبَاعِ الطَّوِيلِ الْوَاسِعِ ^(٣)
 ثَبَّتُ السَّكِينَةَ فِي النَّدَى كَأَنَّمَا تِلْكَ الْحَبَا لِيَثَّتْ بِهَضْبِ مَتَالِعِ ^(٤)
 عَذَبُ الْجَنَى لِلْأَوْلِيَاءِ فَإِنْ يَهْجِ فَالَسَّمُ يَا بَنِي أَنْ يَسُوغَ لِحَارِجِ

يَأْيَاهَا الْمَلِكُ الَّذِي حَاطَ الْهُدَى لَوْلَاكَ كَانَتْ حَمَى قَلِيلِ الْمَانِعِ
 أَنَسَ الْأَنَامُ إِلَيْكَ فِيهِ ، فَهَمُّ بِهِ مِنْ قَائِمٍ أَوْ سَاجِدٍ أَوْ رَاكِعِ
 مَتَّبِعُونَ جَنَابَ عَيْشٍ مُوْنِقٍ مُتَفَقِّهُونَ ظِلَالَ أَمْنٍ شَانِعِ
 فَلَتَضُرِبَنَّ مَعَهُمْ بِأَوْفَرِ شِرْكَةٍ فِي أَجْرِهِمْ مِنْ مُوتِرٍ أَوْ شَافِعِ
 خَيْرُ الشُّهُورِ أُخْتَرَتْ عِنْدَ طُلُوعِهِ خَيْرَ الْبَقَاعِ لَهُ بِأَسْعَدِ طَالِعِ ^(٥)

(١) النهار قبل انتصافه بقليل وزمنه بعد زمن الضحى .

(٢) المرتفع .

(٣) الشَّوْ : الطاق والشوط والغاية ، وشَأَاهُ : سبقه .

(٤) الندى : المجلس ، والحبَا : بالضم والكسر جمع حبوه وهي أن يجمع الجالس ساقيه إلى بطنه يديه أو يجمع ظهره وساقيه بثوب ، والاحتباء من حادة العرب وهو يمنع الجالس من السقوط ويمنيه عن الجدار الذي يسند إليه ظهره ، وليثت : لفت وطويت حوله كما تطوى العمامة ، والمعنى : أنه وقور في مجلسه رابط الجأش كأنما شدت تلك الحبا منه على طود من الصخر تنحدر عنه مسابيل الماء .

(٥) يقول إن شهر الصيام وهو خير الشهور قد اخترت له خير البقاع عند طلوعه بأسعد طالع .

شكر

« وقال أيضا وقد أباح له المعتضد التنزه مع
حرمة في إحدى جناته . »

فَمَرَّتَنِي لَكَ الْأَيَادِي ^(١) الْبَيْضُ نَشَبٌ ^(٢) وَافِرٌ وَجَاهٌ عَرِيضُ
كُلِّ يَوْمٍ يَجِدُ مِنْكَ أَهْتِبَالَ ^(٣) ، عَهْدُ سُكْرِي عَلَيْهِ غَضٌّ غَرِيضُ ^(٤)
بَوَّأْتَنِي ^(٥) نِعْمَاكَ جَنَّةَ عَدْنٍ جَالٌ فِي وَصْفِهَا فَضْلُ الْقَرِيضُ
مُجْتَنِي مَدَنٍ ، وَظِلٌّ بَرُودٌ ، وَلَنَسِيمٍ - يَشْفِي النُّفُوسَ - مَرِيضُ ^(٦)
وَمِيَاهُ قَدْ أَخْجَلَ الْوَرْدَ أَنْ حَا رَضَ تَذْهِيبُهُ لَهَا تَقْضِيضُ
كُلَّمَا غَنَّتِ الْحَمَامُ قُلْنَا : « مَعْبِدٌ إِذْ شَدَا - أَجَابَ الْغَرِيضُ ^(٧) »

- (١) النعم . (٢) النشب : المال والمقار . (٣) غم .
(٤) الغريش : ماء المطر ، وكل أبيض طرى ، والمعنى : إني أظفر منك كل يوم بغم جديد أقابله منك
بشكر جديد . (٥) أحتني أو أنزلتني أو أسكنتني .
(٦) يصف الجنة التي أحلها فيها ممدوحه بأن فطوفها دائية وظلها ظليل ونسيمها عليل يشفي النفوس .



(٧) معبد والغريش

علمان من أعلام الموسيقى العربية وقد كانا متعاصرين ، وقد ذاع صيتهما حتى أصبحا مضرب الأمثال في
إجادة البناء والافتنان فيه ، وقد كان معبد يتدر نبوغ الغريش ويشيده به ، كما تدل على ذلك قصة تعارفهما
التي ترك لمعبد روايتها بأسلوبه الممتع ، قال :

« خرجت إلى مكة في طلب لقاء الغريش ، وقد بلغتني حسن غناؤه في لحنه :

وما أنس ملأ شياء لا أنس شاذنا بكة مكحولا أسبلا مدامعه

وقد كان بلغني أنه أول لحن صنعه ، وأن الجنّ نهته أن يغنيه لأنه فتن طائفة منهم فانتقلوا عن مكة من أجل حسنه
وفي هذا التمهيد ما يدل على تصورهم واعتقادهم في ذلك العصر ، فقد سحرتهم ألحان الغريش فانسوا إليها
المعجزات وأنشأوا حولها الأساطير .

قال معبد :

فلما قدمت مكة سألت عنه فدلت على منزله فأتيته ، فقرعت الباب ، فما كلمني أحد ، فسألت بعض الجيران فقلت : هل في الدار أحد ؟ فقال لي : نعم فيها الغريض ، فقلت : إني قد أكرت دق الباب فما أجابني أحد قالوا : إن الغريض هناك ، فرجعت فدفقت الباب ، فلم يجبني أحد ، فقلت : إن تعني غنائى يوما تعني اليوم فاندفعت فنييت لحنى في شعر جميل ، فوالله ما سمعت حركة الباب ، فقلت : بطل سحرى ، وضاع سفرى وجئت أطلب ما هو عسير على واحتقرت نفسي ، وقلت : لم يتوهمني لضعف غنائى عنده ، فما شعرت إلا بصائح يصيح يا معبد المعنى ، افهم وتلق عني ، شعر جميل الذى تنى فيه ياشقى البخت ، وغنى : «وما أنس مل أشياء لا أنس قولها . . . »

(قال) فلقد سمعت شيئا لم اسمع احسن منه وقصر إلى نفسي وعلمت فضيلته على بما احسن من نفسه ، وقلت : انه لحرى بالاستتار من الناس تنزيها لنفسه وتعظيما لقدره وان مثله لا يستحق الابتذال ، ولا ان تتداوله الرجال ، فأردت الانصراف إلى المدينة راجعا ، فلما كنت غير بعيد إذا بصائح يصيح بى : يا معبد انظر أكلك فرجعت ، فقال : إن الغريض يدعوك ، فأمرعت فرحاً فدنوت من الباب . فقال لي : أحب الدخول ، فقلت : وهل إلى ذلك من سبيل ، فقرع الباب ففتح ، فقال لي : ادخل ولا تطل الجلوس فدخلت فاذا شمس طالعة في بيت ، فسلمت فرد السلام ثم قال : اجلس فجلست ، فاذا أنبل الناس وأحسنهم وجهاً وخلقا وخلقا ، فقال : يا معبد كيف طرأت إلى مكة ، فقلت : جعلت فداءك وكيف عرفتنى ؟ فقال : بصوتك فقلت : وكيف وأنت لم تسمعه قط ؟ قال : لما غنيت عرفتك به وقلت : إن كان معبد في الدنيا فهذا ، فقلت : جعلت فداك فكيف أجبني بقولك : «وما أنس مل أشياء لا أنس قولها » ، فقال : قد علمت أنك تريد أن أسمعك صوتى :

«وما أنس مل أشياء لا أنس شادنا بمكة مكحولا أسىلا مدامعه»

ولم يكن إلى ذلك سبيل لأنه صوت قد نهيت أن أغنيه ففنيك هذا الصوت جواباً لما سألت وغنيت ، فقلت : والله ما عدوت ما أردت فهل لك حاجة ، فقال لي : يا أبا عباد لولا ملامة الحديث وتغل إطالة الجلوس لا ستكثرت منك فاعذر ، فخرجت من عنده وإنه لأجل الناس عندى ورجعت إلى المدينة ، فتحدثت بحديثه وعجبت من فطنته وقيافته ، فما رأيت انساناً إلا وهو أجل منه في عيني .



ومما نخناره من أخبار معبد الطريفة ما حدث له في السفينة ، فقد رووا عنه أنه كان قد علم الغناء جارية من جوارى الهجاز تدعى ظبية وهى بتخريجها ، فاشتراها رجل من أهل العراق فأخرجها إلى البصرة وباعها هناك فاشتراها رجل من أهل الأهواز فأعجب بها وذهب به كل مذهب وغلب عليه ، ثم مات - بعد أن أقامت عنده برهة من الزمان - وأخذ جواريه أكثر فغناها عنها ، فكان لمحبته

إياها وأسفه عليها لا يزال يسأل عن أخبار معبد وأين مستقره ويظهر التعصب له ولليل إليه والتقديم لفنائها على سائر أغاني أهل عصره إلى أن عرف ذلك منه وبلغ معبداً خبره فخرج من مكة حتى أتى البصرة ، فلما ورد لها صادف الرجل وقد خرج عنها في ذلك اليوم إلى الأهواز فاكترى سفينة ، وجاء معبد يلتبس سفينة ينحدر فيها إلى الأهواز فلم يجد غير سفينة الرجل ، وليس يعرف أحد منهما صاحبه ، فأمر الرجل الملاح أن يجلسه معه في مؤخر السفينة ففعلوا وانحدروا ، فلما صاروا في فم نهر الأبله تغدوا وشربوا وأمر جواريه ففتنوا ومعبد ساكت وهو في ثياب السفر وعليه فروة وخفان غليظان وزى جاف من زى أهل الحجاز إلى أن غنت إحدى الجوارى :

بات سعاد وأمسى حبلها انصرما واحتلت النور فالاجراع من إضما

(والغناء لمعبد) فلم تجد أداءه فصاح بها معبد : يا جارية إن غناءك هذا ليس يستقيم (قال) فقال له مولاهما - وقد غضب - أنت ما يدريك الغناء ؟ ما هو إلا أن تمسك وتلزم شأنك فأمسك ، ثم غنت أصواتاً من غناء غيره وهو ساكت لا يتكلم حتى غنت « يا بنة الأزدي قلبي كئيب . . . » (والغناء لمعبد) فأخلت بيمضه ، فقال لها معبد : يا جارية لقد أخلت بهذا الصوت لإخلالا شديداً . فغضب الرجل وقال له : وبلك ما أنت والغناء ، ألا تكفّ عن هذا الفضول . فأمسك ، وغنى الجوارى ملياً ثم غنت إحداهن :

خليلى عوجاً منكما ساعة ممي على الربيع تقضى حاجة ونودع

(والغناء لمعبد) فلم تصنع فيه شيئاً ، فقال لها معبد : يا هذه أما تقوين على أداء صوت واحد ؟ فغضب الرجل وقال له : ما أراك تدع هذا الفضول بوجه ولا حيلة ، وأقسم بالله لئن طودت لأخرجنك من السفينة فأمسك معبد حتى إذا سكنت الجوارى سكنت اندفع بغنى الصوت الأول حتى فرغ منه ، فصاح الجوارى : أحسنت يا رجل فأعده ، فقال : لا والله ولا كرامة ، ثم اندفع بغنى الثاني ، فقلن لسيدهن : ويحك هذا والله أحسن الناس غناء فسله أن يعيده علينا ولو مرة واحدة لعلنا نأخذه عنه فإنه إن فاتنا لم نجد مثله أبداً فقال : قد سمعتن سوء ردة عليكن وأنا خائف مثله منه وقد أسلفناه الإساءة فاصبرن حتى نداريه ، ثم غنى الثالث فزلزل عليهم الأرض ، فوثب الرجل فخرج إليه وقبل رأسه ، وقال : ياسيدي اخطأنا عليك ولم نعرف موضعك ، فقال له : فهبك لم تعرف موضعى قد كان ينبغي لك أن تتثبت ولا تسرع إلى بسوء العشرة وجفاء القول . فقال له : قد أخطأت وأنا أعترز لىك مما جرى وأسألك أن تنزل إلى وتحتلط بى ، فقال : أما الآن فلا . فلم يزل يرفق به حتى نزل لانيه ، فقال له الرجل : ممن أخذت هذا الغناء . قال : من بعض أهل الحجاز ، فن أين أخذته جواريك ، فقال : أخذته عن جارية كانت لى ابتاعها رجل من أهل البصرة من مكة ، وكانت قد أخذت عن أبى عباد معبد وعنى بتخريجها فكانت تحلّ منى محل الروح من الجسد ، ثم استأثر الله عز وجل بها وبقي هؤلاء الجوارى وهن من تعليمها فأنا إلى الآن اتمصب لمعبد وأفضله على المغنين جميعا وأفضل صنعته على كل صنعة . فقال له معبد : أو لىك لأنت هو افتعرفنى ؟ قال : لا (قال) فضك معبد بيده صلته ، ثم قال : فأنا والله معبد ولىك قدمت من الحجاز ووافيت البصرة ساعة نزلت السفينة لأفصذك بالأهواز ووالله لا تقصرت فى جواريك هؤلاء ولأجعلن لك فى كل واحدة منهن خلفاً من الماضية ، فأكب

الرجل والجواري على يديه ورجليه ، يقبلونها ويقولون : كتمتنا نفسك طول هذا حتى جفوناك في المخاطبة وأسأنا عشرتكم وأنت سيدنا ومن تمنى على الله أن نلقاه . ثم غيّر الرجل زيّه وحاله وخلع عليه عدّة خلج وأعطاه في وقته ثلثمائة دينار وطيباً وهدايا بثملها، وانحدر معه إلى الأهواز فأقام عنده حتى رضى حذق جواريه وما أخذنه ، ثم ودّعه وانصرف إلى الحجاز .

وقد روى أبو الفرج قصة قدوم معبد إلى مكة وسماعه من المغنين وغناؤه لهم فقال :

قال معبد : غنيت فأعجبني غنائى وأعجب الناس وذعّب لى به صيت وذكر ، فقلت : لآتين مكة فلا أسمع من المغنين بها ولا أغنيهم ولا أتعرفن إليهم ، فابتعت حمرا فخرجت عليه إلى مكة ، فلما قدمتها بعث حمارى وسألت عن المغنين أين يجتمعون ، فقبل : بقية عمان في بيت فلان فجئت إلى منزله بالنفس فقرعت الباب ، فقال من هذا ، فقلت : انظر طافك الله ، فدنا وهو يسبح ويستعبد — كأنه يخاف — ففتح ، فقال : من أنت طافك ، الله ؟ قلت : رجل من أهل المدينة . قال : فما حاجتك ؟ قلت : أنا رجل أشتهى الغناء وأزعم أنى أعرف منه شيئا وقد بلغنى أن القوم يجتمعون عندك وقد أحببت أن تنزلى فى جانب منزلك وتخلطنى بهم فانه لا مؤونة عليك ولا عليهم منى ، تلوى شيئا ثم قال : انزل على بركة الله (قال) فقلت متاعى فنزلت فى جانب حجرته ثم جاء القوم حين أصبحوا واحداً بعد واحد حتى اجتمعوا فأنكرونى وقالوا : من هذا الرجل . قال : رجل من أهل المدينة خفيف يشتهى الغناء ويطرب عليه ليس عليكم منه عناء ولا مكروه . فرحبوا بى وكلتهم ثم انبسطوا وشربوا وغنوا ، فجعلت أعجب بننائهم وأظهر ذلك لهم ويعجبهم منى حتى أقننا أياماً وأخذت من غنائهم وهم لا يدرون أصواتاً وأصواتاً وأصواتاً ، ثم قلت لابن صريح : فديتك امسك على صوتك :

قل لهند وترها قبل شحط النوى غدا

قال : أو تحسن شيئا ، قلت : تنظر وصى أن أصنع شيئا . واندفعت فيه فننيتة فصاح وصاحوا وقالوا : أحسنت فأتاك الله . قلت : فأمسك على صوت كذا فامسكوه على فننيتة فازدادوا عجباً وصياحا . فما تركت أحداً منهم إلا غنيتة من غنائها أصواتاً قد تحيرتها (قال) فصاحوا حتى علت أصواتهم وهرقوا بى ، وقالوا : لأنت أحسن بأداء غنائنا عنا منا ، قلت : فامسكوا على ولا تضحكوا بى حتى تسمعوا من غنائى ، فامسكوا على فننيت صوتنا من غنائى فصاحوا بى ثم غنيتهم آخر وآخر فوثبوا إلى وقالوا : نخاف بالله إن لك لصيتا واملاؤ كراً وإن لك فيها هاهنا لهمماً عظيماً فن أنت ؟ قلت أنا معبد فقبلوا رأسى وقالوا : انفت علينا وكنا تنهون بك ولا نعدك شيئا وأنت أنت . فأقت عندهم شهرا أخذ منهم وبأخذون منى ثم انصرفت إلى المدينة .

ومن الطرف النادرة ما حدث لمعبد والأسود .

قال معبد : بعث إلى بعض أسراء الحجاز وقد كان جمع له الحرمان إن اشخص إلى مكة فشخصت ، قال : فتقدمت غلامى فى بعض تلك الأيام واشتدت على الحر والمطش فأتيت إلى خباء فيه أسود ، وإذا حباب

جَاوَزَتْ سَمَّةً ^(١) مُشَيِّدَةَ الْمُبْنَى لِبَرْقِ الرَّخَامِ فِيهِ وَمِيضُ
مَرَمَرُهُ أَوْقَدَ الْفَرِنْدَ ^(٢) عَلَيْهِ سَلْسَلُهُ بِحَرُّهُ الزُّلَالُ يَفِيضُ
وَسَطَهَا دُمِيَّةٌ يَرُوقُ أَجْتِلَاءُ الْكُلِّ مِنْهَا وَيَفْتِنُ التَّبَعِيضُ ^(٣)

ماء قد بردت قلت إليه فقلت : يا هذا اسقني من هذا الماء ، فقال لا ، فقلت : فأذن لي في الكن ساعة
قال : لا ، فأنتجت نائتي ولبأت إلى ظاهها فاستترت به ، وقلت : لو احدثت لهذا الأمير شيئاً من الغناء أقدم
به عليه ولعلني إن حررت لسانى ان يبل حلقى ريقى فيخفف عني بعض ما أجده من العطش. فترنمت بصوتى :
« القصر فالنخل فالجاء بينهما » فلما سمعنى الأسود ما شعرت به إلا وقد احتملتنى حتى ادخلنى خباءه ثم قال
اى بأبى أنت وأمى ، هل لك فى سويق السلت بهذا الماء البارد ، فقلت : قد منمتنى أذل من ذلك وشرية ماء
تجزئى (قال) فسقانى حتى رويت وجاء الغلام فأقت عنده إلى وقت الرواح ، فلما أردت الرحلة قال : اى
بأبى أنت وأمى المر شديد ولا آمن عليك مثل الذى أصابك فأذن لى أن أحمل معك قربة من ماء على عنقى
وأسمى بها معك فكلما عطشت سقيتك وغنيتنى صوتاً (قال) قلت : ذلك لك ، فوالله ما فارقتنى
يسقينى وأغنيه حتى بلغت المنزل .

وأخبار معبد والغريض طويلة متفرقة فى كتاب الأغانى فليرجع إليها من شاء .

(١) الحمة - بالنسج - العين الحارة الماء يستشفى بها الأعداء ومنه الحديث : « مثل العالم كمثل الحمة
يأتياها البعداء ويتركها القرباء ، فبينما هى كذلك إذ غار ماؤها وقد انتفع بها قوم وبقى أتوام يتفكرون أى
يتندمون » والحمة مدينة ذات ينابيع معدنية حارة وباردة بالقرب من مدينة «لوشة» وقد زارها «ابن بطوطة»
ودخل مسجدتها ووصف ما فيها من صيد البر والبحر ، والحمة - أيضا - اسم لمدين أخرى ذات ينابيع
معدنية حارة فى إقليم «غرناطة» وإقليم مرسية وغير ذلك ، وحة غرناطة ، وتسمى مدينة الحمة عند
أهل غرناطة .

(٢) الفرند : السيف ووشيه وجوهره ، وهو ما يرى فيه شبه غبار أو مدب نعل ، والفرند : الورد
الأحمر أيضاً .

(٣) أخذ هذا المعنى من قول ابن الرومى فى وحيد الغنية :

وغرير بحسنا قال : « صفها » قلت : « أمران ، هين وشديد .

يسهل القول : إنها أحسن الأشياء طرا ويصعب التحديد »

وفى هذه القصيدة يقول :

غادة زانها - من النض - قد ومن الظبي مقلتان وجيمس

وزهاها من فرعها ومن الحدين ذاك السواد والتوريد

فهى برد - بخدتها - وسلام وهي للعاشقين جهد جهيد

مالما نصطليه - من وجنتها - غير ترشاف ريقها تبريد

مثل ذاك الرضاب أطفأ ذاك الوجود ، لولا الأباء والتصريد

وفىها يقول : تنجلي للناظرين إليها فبقى بحسنا وسعيد

ظلية - تسكن القلوب وترعاها - وقرية لها تغريد

بَشَرٌ نَاصِعٌ وَخَدُّ أَسِيلٌ وَحَيًّا طَلَقٌ وَطَرْفٌ غَضِيضٌ
وَقَوَامٌ كَمَا اسْتَقَامَ قَضِيبُ السَّبَانِ إِذْ عَلَّهٗ ^(١) تَرَاهُ الْأَرِيضُ ^(٢)
وَأُبْتِسَامٌ لَوْ أَنَّهَا اسْتَعْرَبَتْ فِيهِ أَرَاكَ اتِّسَافَهُ الْإِغْرِيسُ ^(٣)
وَالْتِفَاتٌ كَأَنَّمَا هُوَ بِالْإِيحَاءِ - مِنْ فَرَطٍ لُطْفِهِ - تَغْرِيسُ

لَمْعٌ طَلَّةٌ مِنَ الْعَيْشِ مَا إِنْ لِلْهَوَى عَنْ مَحَلِّهَا تَغْوِيضُ
سَوَّغَتْنِي نَعِيمَهَا نَفَحَاتُ الْمُنَى - مِنْ سَحَابِهَا - تَرْوِيضُ
تَابَعَتَهَا يَدُ الْهَمَامِ أَبِي عَمْرٍو فَمَا غَمَرُهَا لَدَى مَغِيضُ ^(٤)

تنفسي كأنها لا تنفسي - من سكون الأوصال - وهي تجيد
لا تراها هناك تحفظ عين - لك منها - ولا يدر ويريد
من هدوٍ وليس فيه انقطاع ، وسجود وما به تبليد
مد في شأو صوتها نفس كما ف - كأنفاس عاشقها - مديد
وأرق الدلال والذئب منه وبراء الشبا ، فكاد يبيد
فترام يموت طورا ويحيى مستلذ بسبطه والنشيد
فيه وشى وفيه حل من النغ - م مصوغ يخال فيه القصيد
طاب فوها وما ترجع فيه كل شيء لها بذاك شهيد
ثقب ينقع الصدى ، وغناء عنده يوجد السرور الفقيد
فلها - الدهر - لاثم مستزيد ولها - الدهر - سامع مستعيد
في هوى مثلها يخف حلیم - راجح حله - ويفوى رشيد
ما تعاوى القلوب إلا أصابت به - وأها من حيث تريد
إلى آخر هذه القصيدة الفذة التي نجتزئ منها بهذا القدر اليسير فليرجع إليها من شاء في ديوانه ليقرأ بين
هذه القصيدة وقصيدة ابن زيدون .

(١) علّه : سقام ، والأريض : الزكي القربة الخلق للنبت . (٢) المعجب .

(٣) استعربت : بالفت في الضحك ، والإغريس : الطلع وكل أبيض طرى .

(٤) اليد : النعمة ، والغمر : الماء الكثير ، ومغيض : اسم مفعول من غيض الماء فهو مغيض إذا غار
ونضب ، أي تابعت لك اللع من رغد العيش يد مضافة إلى « أبي عمرو » لا تزال تغمرنا بمعينها الذي
الذي لا يفيض ماؤه فليس معينها الغزير الماء ناضيا عندي .

مَلِكٌ ذَادَ عَنْ حِمَى الدِّينِ مِنْهُ مَنْ إِلَيْهِ فِي نَصْرِهِ التَّفْوِيزُ
وَسَمًا نَاطِرٌ مِنَ الْمَجْدِ فِي دُنْيَاهُ قَدْ كَانَ كَفَّهُ التَّغْمِيزُ^(١)
إِنْ أَسَاءَ الزَّمَانُ أَحْسَنَ دَأْبًا مِثْلَمَا بَانَ النَّقِيزُ النَّقِيزُ^(٢)

* *

يَا مُعِزُّ الْهَدَى الَّذِي مَا لَسَمَا هُ إِلَى غَيْرِ سَمْتِهِ تَغْرِيزُ
يَا مُحِلِّي بَقَاعِ حَالٍ ، مَكَانُ النَّجْمِ - مَهْمَا يُقَسِّ إِلَيْهِ - حَضِيزُ^(٣)
إِنْ أُنْزِلَ أَيْسَرَ الرِّغَائِبِ فِيهِ يَرْضَى فَوْزَ الْقِدَاحِ مَنِ مَفِيزُ^(٤)
لَوْ يَفَاقُ الْمَجَرَّةَ أَعْتَضَتْ مِنْهُ رَاحَ يَدْعُو بُورُهُ الْمُسْتَعِيزُ
حَظُّ سِنِّ أُمْرِي نَأَى مِنْكَ قَرْعُ وَصَارِي بَنَانِهِ تَعْضِيزُ

* *

حَسْبِيَ النُّصْحُ وَالْوِدَادُ وَشُكْرُ عَطَرِ الدَّهْرِ مِنْهُ مِسْكٌ فَضِيزُ
دُمُ مَوْقَى وَلِيكَ - الدَّهْرُ - مَحْبُورُ رُ مَسَاعِيكَ ، وَالْعَدُوُّ مَهِيزُ
فَاعْرِفِ الْمُلُوكَ أَنَّكَ مَوْلَا هُمْ حَدِيثُ مَا يَبْنِيهِمْ مُسْتَفِيزُ

(١) وتطلع إليك ناظر المجد بعد أن كف ناظره كثرة التغميز ، يريد أنه بعد أن ذاد عن حوزة الدين
سما بنظره في شؤون دنياه كان قد صرفه عنها كثرة التغميز والاعراض .
(٢) وقريب من هذا قول الشاعر :

ضدَّان لما استجمعا حسنا والصدَّ يظهر حسنه الصدَّ .

(٣) البقاع : ما ارتفع من الأرض . يقول : يامن أحللتني حالا رفيعا ، إذا قيس إليه النجم - على رفعتة -
عد حضيزا . (٤) المنيع : من أفاض الرجل بقداح الميسر إذا ضرب بها فوقعت منبئة متفرقة .

شفاعة

قال هذه القصيدة يمدح أبا الحزم بن جهور ويتعزى بمجانبه ويطلب شفاعته ، قال ابن بسام :

« كان أبو الوليد ممن أنشأته دولة الجهاورة واصطفاه اصطفا الفرس للأساورة ، وقد اختص بأبي الوليد اختصاص الفرع بالنور وارتبطهم ارتباط الأفاضة بالفور ، وأبو الحزم بن جهور — إذ ذاك — رأس الجماعة وأصل تلك الأسرة المطاعة من رجل أدهى من عمان وأجراً من ليت خفان وأدهى من صمرو بن الحفان . وكان ابن زيدون متصلاً بابنسه أبي الوليد أطول حقه اتصال أبي زيد بوليد بن عتبة وبينهما تآلف أحرم بكعبته وطافا وسقيا من تصافيهما نطافا وابن زيدون يمتد ذلك حساما مسلولاً ويرى أنه يرد به صعب الخطوب ذلولاً ، إلى أن طلب عند أبيه أبي الحزم وتوسل فاستدفع به تلك الأسنة والأسل فأتى إليه عنان عطفه ولا كف عنه سنان صرفه مع استعطافه له بكل مقال يحل سخائم الاحقاد واستلطافه إياه بما يرد الصعب سلس القياد ، فن بدع ذلك وأحسنه قوله :

أيه أبا الحزم اهتبل غرة ألسنة الشكر عليها فصاح

أَمَّا وَالْحَاطِظُ مِرَاضٍ صِحَاحُ تُصْنِي وَأَعْطَافٍ نَشَاوِي صَوَاحُ
لِبَائِنٍ بِالْحُسْنِ فِي خَدِّهِ وَرَدُّ وَأُتْنَاءُ ثَنَائِيهِ رَاحُ
لَمْ أُنْسَ إِذْ بَاتَتْ يَدِي لَيْلَةً وَشَاخَهُ اللَّاصِقَ دُونَ الْوِشَاحِ^(١)
أَلَمْتُ بِالْأَلْطَفِ مِنْهُ وَلَمْ أَجْنَحْ إِلَى مَا فِيهِ بَعْضُ الْجُنَاحِ
لَأَصْفَيْنَ الْمُصْطَفَى^(٢) « جَهْورًا » عَهْدًا لِرَوْضِ الْحَزَنِ عَنْهُ أَنْتِضَاحُ

(١) قال ابن بسام : قوله : « وشاخه اللاصق دون الوشاح » معنى متداول ، ومن أثر به عصرًا قول الفحل من أهل وقتنا :

« إن العزيز على حقوك انه بالردف حمل منك مالا يحمل

نفذى له جسمي مكان وشاخه إن العليل بشكاه يتعملل »

وقريب من هذا المعنى قول العباس بن الأحنف :

« يا ليت عباس سربال على جسدي أو ليتني كنت سربالا لعباس »

(٢) وفي رواية ابن بسام : « لأصنين المرتضى جهورا »

جَزَاءَ مَا رَفَعَهُ شُرْبَ الْمُنَى وَأَذَنَ السَّعَى بِوَشَكِ النَّجَاحِ ^(١)
يَسَّرْتُ آمَالِي بِتَأْمِيلِهِ فَمَا عَدَانِي مِنْهُ فَوْزُ الْقِدَاحِ ^(٢)
لَمْ أَشِمِ الْبَرْقَ جَهَامًا وَلَمْ أَقْتَدِحِ الصَّمَّ بِيَيْضِ الصَّفَاحِ ^(٣)
مَنْ مِثْلُهُ - لَا مِثْلَ يُلْفِي لَهُ - إِنْ فَسَدَتْ حَالُهُ فَعَزَّ الصَّلَاحُ
يَا مُرْشِدِي جَهْلًا إِلَى غَيْرِهِ أَغْنَى عَنِ الْمِصْبَاحِ ضَوْؤُهُ الصَّبَاحُ
رَكِينُ مَا تُثْنِي عَلَيْهِ الْحُبَا يَهْفُو بِهِ نَحْوَ الثَّنَاءِ أَرْتِيَاخُ ^(٤)
ذُو بَاطِنٍ أَقْبَسَ نُورَ الثُّقَى وَظَاهِرٍ أَشْرَبَ مَاءَ السَّامَاخِ
أَنْظُرْ تَرَى الْبَدْرَ سَنَا وَأَخْتَبِرْ تَجِدُهُ كَالْمِسْكِ إِذَا مِثَ فَاحُ ^(٥)

إِيَّاهُ « أَبَا الْحَزْمِ » أَهْتَبِلُ غِرَّةً أَلْسِنَةُ الشُّكْرِ عَلَيْنَهَا فِصَاحُ ^(٦)
لَا طَارَ بِي حَظٌّ إِلَى غَايَةٍ إِنْ لَمْ أَكُنْ مِنْكَ مَرِيشَ الْجَنَاحِ

- (١) رَفَعَهُ : من ورود الابل رَفَعَهَا ، وهى أن ترد الماء في كل يوم متى شاءت .
(٢) يَسَّرْتُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنَى مَهَّلْتُ وَبِالتَّخْفِيفِ مِنْ يَسَّرَ إِذَا ضَرَبَ بِقِدَاحِ الْمِيسَرِ -
وَالْمَعْنَى عَلَى الثَّانِي ضَرَبْتُ بِقِدَاحِ آمَالِي يَأْسَرًا فَلَمْ يَمْدُقْنِي أَنْ فُزْتُ بِأَوْفَرِ الْقِدَاحِ حُظُوظًا ، وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ بَسَامٍ :
« نَشَرْتُ آمَالِي بِتَأْمِيلِهِ »
(٣) أَى لَمْ أَنْظُرِ الْبَرْقَ لَيْسَ فِيهِ مَطَرٌ ، وَلَمْ أَقْتَدِحِ صُلْدًا لَمْ يُوْر نَارًا .
(٤) رَكِينٌ مِنَ الرِّكَائَةِ أَى الرِّزَانَةِ - وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ وَقُورُ الْحَبْوَةِ رَزِينُهَا يَهْفُو بِهِ وَيَحْرُكُهُ نَحْوَ الْمَدْحِ أَرْتِيَاخِيَّةً
فِيهِتَزُّ بَعْدَ سَكُونٍ فِي مَجْلِسِهِ وَوَقَارٍ .
(٥) مَاثُ الثُّقَى يَمِثُّهُ إِذَا مَرَسَهُ يِيْدُهُ فِي الْمَاءِ فَذَابَ مِنْ مَسْكِ وَنَحْوِهِ - يَقُولُ أَنْظُرْ تَرَاهُ كَالْبَدْرِ سَنَا وَبِهَاءٍ
وَأَخْتَبِرْهُ تَجِدُهُ كَالْمِسْكِ فَاحٌ شَذَاهُ وَقَدْ مِثَّ أَى مَرَسَ بِالْيَدِ ، وَالْمِسْكُ - إِذَا سَحَقَ - فَاحٌ شَذَاهُ ، وَقَدْ قَالَ
لِلْمَعْرِى فِي هَذَا الْمَعْنَى وَأَجَادَ مَا شَاءَ أَنْ يَجِدَ .
« عَلِ الْبَلْبَى سَيْفِيْدُ الْمَرْءِ فَائِدَةٌ فَالْمِسْكُ يَزْدَادُ مِنْ طَلِبٍ إِذَا سَحَقَا »
(٦) اِهْتَبَلُ : اِغْتَنَمَ يُقَالُ اِهْتَبَلْتُ غَفْلَتَهُ - وَالْغَرَّةُ : بِالسَّكْرِ الْغَفْلَةُ ، وَفِي الْمَثَلِ « الْغَرَّةُ تَجْلِبُ الدَّرَهَ »
أَى الْغَفْلَةُ تَجْلِبُ الرِّزْقَ - وَالْمَعْنَى : أَسْتَكْثِرُ أَبَا الْحَزْمِ فِي غَفْلَةٍ أَعْدَائِكَ مِنَ الْمَغْنَمِ وَالْأَمْوَالِ تَنْطَلِقُ الْأَلْسَنَةُ
مَفْصَحَةً بِشُكْرِكَ ، وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ بَسَامٍ : « أَلْسِنَةُ الدَّهْرِ عَلَيْهَا فِصَاحٌ »

عُتْبَاكَ - بَعْدَ الْعُتْبِ - أُمْنِيَّةٌ
لَمْ يَشْنِ عَنِّ أَمَلٌ مَا جَرَى
فَأَشْحَذُ بِمُحْسِنِ الرَّأْيِ - عَزَمِي يُرْعِ
وَأَشْفَعُ فَلِلشَّافِعِ نَعْمَى بِمَا
إِنَّ سَحَابَ الْأَفْقِ مِنْهَا الْحَيَا
وَقَاكَ مَا تَخْشَى مِنَ الدَّهْرِ مَنْ
مَالِي عَلَى الدَّهْرِ سِوَاهَا أَفْتِرَاحٌ^(١)
قَدْ يُرْفَعُ الْخَرْقُ وَتُؤَسَّى الْجِرَاحُ
مِنِّي الْعِدَا، أَلَيْسَ شَاكِي السَّلَاحِ؟^(٢)
سَنَاهُ مِنْ عَقْدٍ وَثِيقِ الدَّوَاخِ^(٣)
وَالْحَمْدُ فِي تَأْلِيفِهَا لِلرِّيَّاحِ^(٤)
تَعَبْتُ فِي تَأْمِينِهِ وَأُسْتِرَاحُ

هدية تفاح

« وقال في تفاح أهدها إلى المعتضد بالله

أبي عمرو عباد بن محمد بن عباد »

يَا مَنْ تَزَيَّنْتَ الرِّيَا سَةِ حِينَ أَلْبَسَ ثَوْبَهَا
وَلَهُ يَدٌ يَدِسُ الْغَمَا مٌ مِنْ أَنْ يُعَارِضَ صَوْبَهَا^(٥)
جَاءَ تَكَ جَامِدَةُ الْمَدَا مَ فَخُذْ عَلَيْهَا ذَوْبَهَا^(٦)

- (١) العتي : الرجوع إلى ما يرضى العاتب أي رجوعك بعد العتاب إلى ما يرضيني أمنيته لا اقترح على الدهر سواها . (٢) قوَّ بمحسن الرأي عزمي يخف مني العدا ، أليس عزمي شاكي السلاح ؟ (٣) سناه : سهله ويسره - من دقد : أي من حل دقد - وثيق الدواخ : أي عسر الحل من أي نواحيه أتيته ، وقرأت شاهدا على هذا في أمالي أبي القاسم الزجاجي ، إن معاوية بن أبي سفيان صرف روح ابن زبناح عن عمله لحياة بلغته عنه ، وأمره بالقدوم عليه ففعل ، فأمر بضربه فلما أخذه الشياطين قال : « نشدتك الله يا أمير المؤمنين أن تهدم مني ركننا أنت بنيتي ، أو تضع مني خسيصة أنت رفعتها » الخ ما قال ، فقال معاوية . « إذا الله سنى حل عقد تيسر ، خليا عنه » - ومعنى البيت أنه يطلب شفاعته ، ويبين أن للشافع على المشفوع له يد ونعمة بسبب ما سهله ويسره من حل عقد تيسر بعد أن تعقدت أواحيه وتوقعت نواحيه . (٤) الحيا : المطر - يريد أن الحمد للشافع لا للذي قبل منه الشفاعة ، كما أن الحمد ليس للسحب التي منها المطر بل للرياح التي ترجيها ثم تؤلف بينها فتطر ، وقد كرر هذا المعنى في بعض قصائده فقال : للشفيع الثناء - والحمد في صوب الحيا للرياح لا للغيوم انظر (ص) من هذا الديوان . وقد سبقه البحرى إلى هذا المعنى فقال وأبدع : « حازمدي ، وللرياح - اللواتي تجلب الغيث - مثل حمد الغيوم » (٥) نزول المطر . (٦) جعل اللدما وهي الخمر نوعين جامدة وهي التفاح وذائبة وهي الراح وطلب إلى المدوح أن يشرب عليها ذوبها وهي الراح الحقيقية .

لا يهنا الشامت

« قال يمدح أبا الحزم بن جهور وقد كتبها
إليه من السجن . »

مَا جَالَ بَعْدَكَ لَحْظِي فِي سَنَا الْقَمَرِ إِلَّا ذَكَرْتُكَ ذِكْرَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ ^(١)
وَلَا أُسْتَطَلْتُ ذِمَاءَ اللَّيْلِ مِنْ أَسْفِ إِلَّا عَلَى لَيْسَلَةٍ سَرَّتْ مَعَ الْقَصْرِ ^(٢)
نَاهِيكَ مِنْ سَهَرٍ بَرَحَ تَأَلَّفَهُ شَوْقٌ إِلَى مَا أَنْقَضَى مِنْ ذَلِكَ السَّعْرِ
فَلَيْتَ ذَلِكَ السَّوَادَ الْجَوْنَ مُتَّصِلٌ لَوْ أُسْتَعَارَ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصْرِ ^(٣)

أَمَّا الضَّنَى فَجَنَّتُهُ لَحْظَةٌ عَنْ كَأَنَّمَا وَالرَّدَى جَاءَ عَلَى قَدَرٍ ^(٤)
فَهَمْتُ مَعْنَى الْهُوَى مِنْ وَحْيِ طَرْفِكَ إِلَى إِنَّ الْخَوَارَ لَمَفْهُومٌ مِنَ الْخَوَرِ
وَالصَّدْرُ مُذْ وَرَدَتْ رِفْهًا نَوَاحِيَهُ تَوْمَ الْقَلَائِدِ لَمْ تَجْنَحْ إِلَى صَدْرِ ^(٥)

(١) أي لم أجل بلحظي في نور القمر بعد غيبتك عني إلا ذكرتك كما يذكر الرائي عين الشيء وذاته بما يراه من آثاره . (٢) الذماء : بالفتح البقية الباقية من الليل - أي ما تمت أن يطول ما بقي من عمر الليل إلا أسفا على ليسلة اشتملت على ما يسر مع قصرها والشعراء كثيرا ما يذمتون ليل الوصال بالقصر ، ومن أبدع ما قرأناه في ذلك قول الشريف الرضي :

« أشكو الليالي غسير معتبة لما من الطول أو من القصر
تطول في هجرهم وتقص في الوصل - فلا نلتقي على القدر
يا ليسلة كاد من تقاصرهما يعثر فيها العشاء بالسحر »

(٣) يعني أن يصل ظلام الليل بما يستعيره من سواد القلب والبصر ، ولو لنتنى أي وليته استعمار ، ولا خفاء أن سويداء القلب وسواد العين من أنفس الأشياء وأعزها ، ولكنه يذمها طارية في سبيل استدامة الليل وطوله ، وجاء لابن بسام في الذخيرة في نقد هذا البيت . قوله : « لو استعار سواد القلب والبصر » لفظ المعري حيث يقول :

يود أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سواد القلب والبصر

(٤) المنن : بفتحين من عن الشيء إذا ظهر أمامك واعترض .
(٥) رفها : هو أن ترد الابل الماء كل يوم - توم القلائد : جمع تومه بالضم وهي الاؤلؤة ، استعار ورود الابل رفها للازمة الحلي صدرها من غير أن تجنح بعد الورد إلى الصدر .

حُسْنُ أَفَانِينَ لَمْ تَسْتَوْفِ أَعْيُنُنَا غَايَاتِهِ بِأَفَانِينَ مِنَ النَّظَرِ
وَاهَا لِنَعْرِكَ ثَغْرًا بَاتَ يَكْلُوهُ غَيْرَانُ تَسْرِي عَوَالِيهِ إِلَى الثَّغْرِ (١)
يَقْظَانُ لَمْ يَكْتَحِلْ غَمَضًا مُرَاقَبَةً لِرَابِطِ الْجَاشِ مِقْدَامٍ عَلَى الْغَرَرِ (٢)
لَا لَهْوُ أَيَّامِهِ الْخَالِي بِمُرْتَجِعٍ وَلَا نَعِيمُ لَيَالِيهِ مُنْتَظَرٍ
إِذْ لَا التَّحِيَّةُ إِيمَاءَ مُخَالَسَةٍ وَلَا الزِّيَارَةُ إِمَامٍ عَلَى خَطَرٍ
مَنْ كَانَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَذَكُّرُهَا إِنَّ الْفَرَامَ لَمُعْتَادٍ مَعَ الذِّكْرِ

* *

مَنْ يَسْأَلِ النَّاسَ عَنْ حَالِي فَشَاهِدُهَا مَحْضُ الْعِيَانِ الَّذِي يُعْنِي عَنِ الْخَبَرِ
لَمْ تَطْوِ بُرْدَ شَبَابِي كِبَرَةً وَأَرَى بَرَقَ الْمَشِيبِ أَعْتَلَى فِي عَارِضِ الشَّعْرِ (٣)
قَبْلَ الثَّلَاثِينَ إِذْ عَهْدُ الصَّبَا كَثَبٌ وَلِلشَّبِيَّةِ غُصْنٌ غَيْرُ مُهْتَصِرٍ

(١) يكلوه : يحفظه ويغار عليه - وغيران : وصف من الغيرة - والعوالى صدور الرماح - الثغر : جمع ثغره بالضم وهي الطرق والمنافذ المسلوكة أو أراد بها جمع الثغرة وهي الثقرة في النعر .
(٢) الغرر : جمع غرة بالكسر وهي الغفلة ، والمعنى : أنه يتنزه غررات الرقيب الساهر طول ليله غيرة وحفاظا ومراقبة ، فيقدم رابط الجأش بالرغم من يقظته وتنبيهه ومراقبته إياه ، ولا يحجم عما اعتزمه من موافاة حبيبه .
(٣) الكبرة : بفتح فسكون كبر السن - والعارض : الخد يقال أخذ الشعر من عارضيه - والمعنى : أن بياض المشيب وخط عارضيه قبل أن يغلغ برد الشباب وقبل أن يعد من سنه ثلاثين ربيعا ، وأبدع أبو نواس في هذا المعنى أيما إبداع لما يقول في سينيته :

« وإذا عددت سني ، كم هي لم أجد للشيب عذرا في النزول براسي
قالوا كبرت فقلت ما كبرت يدي عن أن تسير إلى في بالكس »
وقال ابن الرومي : « قد يشيب الفتى وليس عجيبا أن يرى النور في التضييب الرطيب »
وقال الآخر : « يا عز هل لك في شيخ فتى أبدا وقد يكون شباب غير فتيان »
وقال أبو العلاء : ارجع إلى السن فانظر ما تقدمها فاحكم عايه ولا تحكم على الشعر
فكم ثلاثين حولا شيبت ، ومضت ستون ، والشيب فيها غير مستعر
وليس ذلك إلا صبغة جعلت طبعها ، وإن قيل : شاب الرأس للذهر .

هَإِئِنَّهَا لَوَوعَةٌ فِي الصَّدْرِ قَادِحَةٌ نَارَ الْأَسَى وَمَشِيبِي طَائِرُ الشَّرَرِ (١)

لَا يُهْنِي الشَّامِتَ الْمُرتَاحَ خَاطِرُهُ أَنِّي مُعَنَى الْأَمَانِي ضَائِعُ الْخَطَرِ (٢)
هَلِ الرِّيحُ بِنَجْمِ الْأَرْضِ عَاصِفَةٌ؟ أَمْ الْكُسُوفُ لِغَيْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ (٣)
إِنْ طَالَ فِي السَّجْنِ إِيْدَاعِي، فَلَا عَجَبٌ قَدْ يُودَعُ الْجَفْنُ حَدُّ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
وَإِنْ يُثَبِّطُ - «أَبَا الْحَزْمِ» الرِّضَى - قَدَرٌ عَنْ كَشْفِ ضُرِّي فَلَا عَتَبٌ عَلَى الْقَدَرِ

مَا لِلذُّنُوبِ - الَّتِي جَانِي كَبَائِرِهَا غَيْرِي - يُحَمَّدُنِي أَوْزَارَهَا وَزَرِي (٤)

(١) أي أنها لوعة تقذح نار الأمل والحزن في صدره ، ومشيب رأسه ما تطير من شر تلك النار الموقدة فيه ، وجاء في الذخيرة لابن بسام قبل هذا البيت قوله :

يا للرزايا لقد شانهت منهلها غمرا فما اشرب المسكروه بالغم
والغم القدح الصغير ، فهو يعني أنه لا يشرب من المصائب بالقدح الصغير .

وجاء بعده في نسختي الديوان المخطوطتين هذا البيت ناقصا هكذا :

حوادث استعرضتني ما نذرت لها غرارها

ونحن تثبتها هنا كما وجدناها .

(٢) لا يهين : يقال هناه الأمر أي تهنا به - معنى الأمانى : اسم مفعول من العناء وهو التعب - والخطر الشرف والمنزلة - والمعنى : لا يتهنأ الشامت المثلوج الفؤاد بكوني في عناء ونصب بسبب الأمانى وبكوني ضائع القدر والمنزلة .

(٣) أراد بنجم الأرض ما نجم على وجهها من النبات ولم يبق على ساق ومنه قوله تعالى « والنجم والشجر يسجدان » وهذا البيت تمليل للبيت قبله أي لا تفرح أبها الشامت فالريح لا تعصف إلا بما له ساق من الشجر ، والكسوف : لا يكون لغير الشمس والقمر - وهو معنى طرده الشعراء كثيرا ، ومنه قول أبي تمام
إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت عيذان نجد ولم يعبأ بالرم
بنات نعش ونعش لا كسوف لها والشمس والبدر منها الدهر في رقم
وقريب منه قوله أيضاً :

لا تنكرى عطل الكريم من الأذى فالسيل حرب للمكاث العالي

(٤) الوزر : بالكسر الذنب والوزر بفتحين المعين والمالجا - والمعنى : لأي سبب يحملني ملجئ ومعتصم

تبعه ما جناه غيري من كبائر الذنوب ، وهو نظير قول المعري :

وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جازمه العقاب

مَنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ تَأْنِيهِ عَلَى ثِقَةٍ ذُو الشِّيمَةِ الرَّسُلِ - إِنَّ هِيجَتِ حَفِيزَتُهُ -
وَلَمْ أَبْتَ مِنْ تَجَنُّهِ عَلَى حَذَرٍ (١)
وَالْجَانِبِ السَّهْلِ وَالْمُسْتَعْتَبِ الْبَسْرِ (٢)
جَمَالَ مَرَأَى عَلَيْهِ سَرُّو مُخْتَبَرٍ (٣)
عَلَيْهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ النَّفْسِ وَالنَّفَرِ (٤)
شَوْمُ الْحُرُوبِ وَرَأَى مُنْهَضُ الْمِرَرِ (٥)
وَنَابَتْ اللَّامِحَةُ الْعَجَلَى عَنِ الْفِكْرِ (٦)
هَدُوءِ عَيْنِ الْهَدَى فِي ذَلِكَ السَّهْرِ
عَنْهَا ، وَنَامَ الْقَطَا فِيهَا فَلَمْ يَثُرْ
يُلْهِيه عَنْ طِيبِ آصَالٍ نَدَى بُكْرِ
- مُذْ سَاسَهَا - وَيُفِضُ الْمَاءَ مِنْ حَجَرٍ (٧)

* *

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُنِي وَالنَّجْمَ فِي قَرْنٍ فَفِيمَ أَصْبَحْتُ مُنْهَضًا إِلَى الْعَفْرِ (٨)

- (١) التأني : التمهّل ، والتجني : ادعاء ذنب لم يفعله - أي أنا على ثقة من الحصول على أُنْبِي ، وإن تأني ، ولا أخطر أن ينسب إليّ ذنبا لم أفعله .
(٢) الشيمة الرسل : الخلق السهل السمح - والحفيظة : الغضب - والمستعتب : مصدر ميمي بمعنى الاستعتاب أي الاسترضاء يقال استعته أي استرضاه فأعته أي أرضاه - والبسر : الميسر .
(٣) المجتلي : الناظر ، والمبتلى : المختبر ، والسرو : الشرف أي مختبر سرى شريف .
(٤) المساعي المآثر أي مذلّل لمساته أن تشنط عليه في الحكم وهو العزيز النفس للمنع الجانب .
(٥) محصد المرر : مقتول القوى .
(٦) يقول انه لألمعيته لا يحتاج إلى تجارب وان بداعته تمنى عن رويته ونظراته المريعة أنني عن إطالة الفكر وقديماً قالوا :

الألمى الذى يظن بك الظن - كأن قدرأى وقد سمعا

- (٧) الجلد : الأرض الصلبة ، أي أنه مذلّ ساس الملكة وهو دائب على بثّ النبات والزرع في أرض لاتنتب لصلاحها وإفاضة الماء إليها من عيون تنفجر من الصخر .
(٨) يقول : ما بالك أخلفت آمالي وبدلت مكاني العالية عندك التي كنت تحلني بها فوق ذروة النجم فأنزلتني إلى حضيض الموان .

أَحِينَ رَفَّ عَلَى الْآفَاقِ مِنْ أَدْبِي غَرْسٌ لَهُ مِنْ جَنَاهُ يَانِعُ الثَّمَرُ ^(١)
وَسِيْلَةٌ سَبَبًا - إِلَّا تَكُنْ نَسَبًا - فَهُوَ الْوِدَادُ صَفَا مِنْ غَيْرِ مَا كَدَرَ

* *

وَبَائِنٍ مِنْ ثَنَاءٍ حُسْنُهُ مَثَلُ وَشْيِ الْمَحَاسِنِ مِنْهُ مُعَلِّمُ الطَّرْرِ
يُسْتَوْدَعُ الصَّحْفَ لَا تَخْفَى نَوَافِحُهُ إِلَّا خَفَاءَ نَسِيمِ الْمِسْكِ فِي الصُّرَرِ ^(٢)
مِنْ كُلِّ مُخْتَلَةٍ بِالْجَبْرِ رَافِلَةٍ فِيهِ اخْتِيَالُ الْكَعَابِ الرُّودِ بِالْجَبْرِ ^(٣)
تُجْنَى لَهَا الرُّوْضَةُ الْغَنَاءُ أَضْحَكُهَا بَحَالُ دَمْعِ النَّدَى فِي أَعْيُنِ الزَّهْرِ ^(٤)

(١) رف النبات اهتز - يقول : هل حين انتشرت آدابي ومدائحي في الآفاق فاجت يانع الثمر ، ولم يذكر جواب الاستفهام في البيت بعده لأنه مفهوم من السياق ، وهي عادة مألوفة كما قال الشاعر :

«الآن لما كنت أكل من متى واقترب نابتك عن شبة الفارح
وتكملت فيك المروءة والنقى وأعنت ذلك بالفعال الصالح»

وقول القائل :

«أبت لي همي وأبي بلائي وأخذني الحمد بالثمن الربيع
ولجشامي على الكروم نفسي وضربني هامة البطل المشيع
وقولي - كلما جشأت وجاشت - مكانك تحمدي أو تستريحني»

وربما ذكر الجواب كما ترى في قول ابن الرومي :

«الآن حين زارت واستمع الوري زأري وأنذر كلب شر ذيبه
الآن حين سبقت كل مسابق فتركت اسرع جريه تقريبه
يتكاف المتكافوت رياضتي ليطل بذلك معجب تعجيبه»

(٢) أي يستودع ذلك الثناء - المضروب بحسنه المثل - بطون الصحف ولا يمكن أن يخفى ما يفوح من أريجها إلا إذا خفي ربح المسك في الصرر .

(٣) أي من كل صحيفة تختال بما فيها من المداد الذي سطرت به آيات بيانه وسحر بلاغته اختيال الجارية التي كعب ثدياها بما تلبسه من وشى منور وبرد مخبر .

(٤) أي أنه يصطبغ المحبرة التي يكتب بمدادها آيات بلاغته ويحفو لأجلها الروضة الغناء أضحكها الحيا ، وجالت في أعين أزهارها دموع الندى .

يَا بَهْجَةَ الدَّهْرِ حَيًّا وَهَوًّا - إِنَّ فَنَيْتَ
لِي فِي اعْتِمَادِكَ - بِالتَّائِمِلِ - سَابِقَةً
فَقِيمَ غَضَّتْ هُمُومِي مِنْ غَلَا هُمَمِي
هَلْ مِنْ سَبِيلٍ فَمَاءَ الْعُتْبِ لِي أَسْنُ
نَذَرْتُ شُكْرَكَ لَا أَنْسَى الْوَفَاءَ بِهِ
حَيَاتُهُ - زِينَةُ الْآثَارِ وَالسَّيْرِ (١)
وَهَجْرَةٌ - فِي الْهَوَى - أَوْلَى مِنَ الْهَجْرِ
وَحَاصَ بِي مَطْلَبِي عَنْ وَجْهَةِ الظَّفَرِ (٢)
إِلَى الْمُدُوبَةِ مِنْ عُتْبَاكَ وَالْخَصْرِ (٣)
إِنْ أَسْفَرْتُ لِي عَنْهَا أَوْجُهُ الْبُشْرِ (٤)

لَا تَلُهُ عَنِّي فَلَمْ أَسْأَلْكَ مُعْتَسِفًا
وَأُسْتَوْفِرِ الْحَظَّ مِنْ نُصْحٍ وَصَاحِيَةٍ
هَبْنِي جَهْلْتُ فَكَانَ الْعِلْقُ سَيِّئَةً
إِنَّ السِّيَادَةَ بِالْأَغْضَاءِ لَا بِسَةِ
رَدَّ الصَّبَا بَعْدَ إِيْفَاءٍ عَلَى الْكِبَرِ (٥)
كِلَاهُمَا الْعِلْقُ لَمْ يُوهَبْ وَلَمْ يُعَرِّ (٦)
لَا عُذْرَ مِنْهَا سِوَى أَنِّي مِنَ الْبُشْرِ
بِهَاءَهَا وَبِهَاءِ الْحُسْنِ فِي الْخَفْرِ

(١) نعى في هذا البيت ممدوحه وهو لا يزال حيا برزق ، وقد أخذ هذا المعنى - ولم يحسن الأخذ - من قول أبي العلاء :

« جمال ذى الأرض كانوا في الحياة وهم بعد الممات جمال الكتب والسير . »

(٢) حاص : حاد ومال .

(٣) العتب : السخط وإظهار الوجدة لمخالفة ارتكبت ، والمعنى : الرضا والرجوع إلى الدرّة بعد السخط ، والخصر : البرودة ، والمعنى : هل من سبيل بعد العتب الشبيه بالماء الأسن أى التغير الذى لا يستسيغه شارب به إلى العتب الشبيه بالماء العذب البارد السائح شرابه - وقد أحسن أبو العلاء في جعل برد الماء الذى يصير به أطيب لشاربه سببا في هجره لا فراطه في الخصر والبرودة وذلك حيث يقول :

« لو اختصرتم من الاحسان زرتكم والعذب يهجر للافراط في الخصر . »

(٤) الضمير في « عنها » طائد إلى العتبى ، والبشر : جمع بشرى .

(٥) أى لم أعتسف في السؤال ولم أطلب مستجيلا .

(٦) استوفى : استكثر ، وصاحبة : الانسان خاصته الذين يملون إليه ويغشون مجلسه ويطلبون ما عنده والعاق : الشيء النفيس الذى يضمن به لنفسه فلا يوهب ولا يعار ، وقد ورد في ديوان الحماسة قول الشاعر :

« أبيت اللعن إن سكاب عاقى نفيس لا يعار ولا يباع
مفسدة مكرمة علينا يجاع لها العيال ولا تجاع
سلية سابقين تناجلها إذا لسا يضمهما الكراع . »

لَكَ الشَّفَاعَةُ لَا تُذْنِي أُعْتَمِتُهَا (١) دُونَ الْقَبُولِ بِمَقْبُولٍ مِنَ الْعِذْرِ
وَالْبَسَ مِنَ النِّعْمَةِ الْخَضِرَاءِ أَيْكَتَهَا (٢) ظِلًّا حَرَامًا عَلَى « الْآفَاتِ وَالْغَيْرِ »
نَعِيمَ جَنَّةٍ دُنْيَا - إِنْ هِيَ أَنْصَرَمَتْ - نَعِمْتَ بِالْخُلْدِ فِي الْجَنَّاتِ وَالنَّهْرِ

أترع الكأس

أَدْرِهَا فَقَدْ حَسَنَ الْمَجْلِسُ وَقَدْ آتَى أَنْ تُتْرَعَ الْأَكْوُسُ
وَلَا بَأْسَ إِنْ كَانَ وَلَّى الرَّبِيعُ إِذَا لَمْ تَجِدْ فَقْدَهُ الْأَنْفُسُ (٣)
فَإِنَّ خِلَالَ أَبِي عَامِرٍ بِهَا يَحْضُرُ الْوَرْدُ وَالزَّرْجِسُ (٤)

لا حيلة في الحب

يَا مُخْجِلَ الْغُصْنِ الْفَيْنَانِ إِنْ خَطَرَا وَفَاصِحَ الرَّشَاءِ الْوَسْنَانِ إِنْ نَظَرَا (٥)
يَفْدِيكَ مِنِّي مُحِبُّ شَأْنِهِ عَجَبٌ مَا جِئْتَ بِالذَّنْبِ إِلَّا جَاءَ مُعْتَذِرَا (٦)
لَمْ يُنْجِنِي مِنْكَ مَا اسْتَشْعَرْتُ مِنْ حَذَرٍ هَيْهَاتَ كَيْدُ الْهَوَى يَسْتَهْمِلُكَ الْحَذَرَا
مَا كَانَ حُبُّكَ إِلَّا فِتْنَةً قَدِرتَ هَلْ يَسْتَطِيعُ الْفَتَى أَنْ يَدْفَعَ الْقَدَرَا (٧)

- (١) العذر : جمع عذره كسدره مصدر كالعذر . (٢) وجد هذا البيت في الأصل ناقصاً هكذا :
وَالْبَسَ مِنَ النِّعْمَةِ الْخَضِرَاءِ أَيْكَتَهَا ظِلًّا حَرَامًا عَلَى الْآفَاتِ
ووجد في هامش بعض النسخ تكملة لهذا البيت كلمة (والغير) وهذه الكلمة يناسبها الآفات لا الارفات
لخصت تكملة البيت بكلمتين كما ترى إحداهما من هامش بعض الأصول ، والأخرى يعطيها السياق .
(٣) أدر الكأس فقد صفا المجلس واغناه حسنه عن حسن الربيع فلم نعد نحس للربيع فقدا .
(٤) فان خلال أبي عامر تذكرنا بالورد والزرجس وينينا طيبها عنهما .
(٥) يقول : « لئنك تزدري بالغصن المورق إن مشيت وتردى بالظلي الغرير الطرف إن نظرت .
(٦) يقدم لك القداء محب أمره عجب ، فانك كلما أثبت ذنباً أبى إلا أن يتلمس لك الأعذار ويخلفها لك خلفاً
(٧) كنت أقدر أنك تهجرني بعد الوصال وكنت اتلافى كل سبب يؤدي إلى ذلك وأحاذر جهدي ألا يقع
ماخفته ولكن القدر لابد أن ينفذ حكمه وليس يدفعه حذر . وما أجل قول الشاعر النابغ محمود أبي الوفا:
« يالأنمي في الهوى دعني وما خلقت روحى له ، ليس أرى في الهوى يدي . »
وقول العباس بن الأحنف :
« لقد ولدت حواء منك بليسة على أفاسيها ، وخيلا من الخيل . »

في مدح ابن جهـور

مَرَادُهُمْ حَيْثُ السَّلَاحُ خَمَائِلُ وَمَوْرِدُهُمْ حَيْثُ الدَّمَاءُ مَنَاهِلُ ^(١)
 وَدُونَ الْمَنَى فِيهِمْ جِيَادُ صَوَافِنُ ^(٢) وَمَا تُورَةُ بِيضٌ وَسُمْرٌ عَوَامِلُ ^(٣)
 لِكُلِّ نَجِيدٍ فِي النَّجَادِ كَأَنَّمَا تُنَاطُ بِمَتْنِ الرُّمُحِ مِنْهُ الْحَمَائِلُ ^(٤)
 طَوِيلٌ عَلَيْنَا لَيْلُهُ مِنْ حَفِيفَةِ ^(٥) كَأَنَّ صَبَابَاتِ النُّفُوسِ طَوَائِلُ ^(٦)
 كِنَاسٌ ذَنَا مِنْهُ الشَّرَى فِي مَحَلَّةٍ بِهَا اللَّيْثُ يَعْدُو وَالْعَزَالُ يُغَارِلُ ^(٧)

(١) المراد : اسم مكان من راد يرود أى ارتاد طلباً للنجاة والكلأ ، والخمائل : جمع خيلة وهى الشجر الكثير المجتمع المتنفس الذى يستتر ما فى داخله ، والمناهل - جمع منهل - وهو موضع النهل وهو الشرب أولاً يقال شرب عللاً بعد نهل يريد أنهم ينهالون من دم واردهم ، والمعنى : الذى يرود حى أولئك العرب الانجاد حيث تسكن الحبيبة يرود هناك خمائل بكثرت فيها السلاح وتشتجر الرماح ، ومن يرد منتجعهم يجد مناهل تنهل فيها الدماء ويتعرض واردها لاسباب الفناء .

(٢) الصوافن : من الخيل جمع صافن وهو الذى يقوم على ثلاث ويثي سنبك الرابعة ، ومأثورة صفة السيوف ، يقال سيف مأثور أى فى مثنه أثر بفتح فسكون وهو فرند السيف وجوهره وديباجه ، والسمر الرماح ، والعوامل : صدورها جمع عامل ، يقول دون ما تتمناه حى منبع بالصافنات الجياد بحى ببيض السيوف وسمر الرماح .

(٣) نجيد : شجاع ذو نجدة وبأس ، والنجاد : حمائل السيف ، وتنطاط : تعاقب ، بتن الرمح أى بقامة كالرمح فى الطول ، والعرب تمدح بالطول وتذم الدمامة والقصر ، قال رجل من بني :

«ولما التقى الصفان واختلف القنا نهالا وأسباب المنايا نهالها

تبين لى أنت القماعة ذلة وأن أعزاء الرجال طوالها

دعوا يا لسعد واتمينا لطى أسود الشرى إغدامها ونزالها»

وقد أجاد أبو العلاء فى مدح القصر ، فقال :

«عجب الأنام لطول همه ماجد أوفى به قصر على أضرايه

سهم الفتى أنهى مدى من سيفه والرمح ، يوم طمانه وضرايه»

(٤) الحفيظة : الغضب ، والصبابات : جمع صبايه وهى العشق ، والطوائل : جمع طائلة وهى الترة والثأر يقول يطول على كل طويل النجاد ليله من حفيظة وغضب علينا ، وكأن العشق وصبابات النفوس أوجبت له قتلنا طوائل وترات فهو كمن يطلبنا ليثأر منا .

(٥) الكناس : مأوى الظباء والبقر الذى تستكن فيه من الحر ، والشرى : موضع تنسب إليه الأسود .

أَعْمَرُ الْقَبَابِ الْحُمْرِ وَسَطَ عَرِينِهِمْ لَقَدْ قُصِرَتْ فِيهَا السَّرُوبُ الْعُقَائِلُ^(١)
 أَمْحُجُوبَةٌ لَيْلَى وَلَمْ تُخْضَبِ الْقَنَا وَلَا حَجَبَتْ شَمْسُ الضَّحَاءِ الْقَسَاطِلُ^(٢)
 أَنَاةٌ عَلِمَتْهَا مِنْ سَنَا الْبَدْرِ مَيْسَمٌ وَفِيهَا مِنَ الْعُصْنِ النَّضِيرِ شَمَائِلُ^(٣)
 يَجُولُ وَشَاكَاها عَلَى خَيْرِ زُرَانَةٍ وَتُشْرِقُ فِي «مَوْشِيَتَيْنِ» الْخَلَائِلُ^(٤)
 وَلَيْلَةٌ وَافْتَنَّا الْكَثِيبَ لِمَوْعِدٍ كَمَا رِيعَ وَسَنَانُ الْعَشِيَّاتِ خَاذِلُ^(٥)
 تَهَادَى - أَنْسِيَابَ الْأَيْمِ - يَعْفُو إِنْ آرَاهَا مِنْ الْوَشْيِ مَرْقُومُ الْعِطَافَيْنِ ذَائِلُ^(٦)

(١) العرين : مأوى الأسد ، وقصرت : حبست قال تعالى « حور مقصورات في الخيام » أى محبوسات في الخيام محذرات على أزواجهن في الجنات ، والسروب : جمع سرب بالكسر وهو القطيع من الظباء والنساء والظير ، والمنصوص في كتب اللغة أنه يجمع على أسراب وسراب ، وقد جمعه هنا على سروب ، والقياس لا يأباه كما في حمل وجول وضرس وضروس ، والعقائل : جمع عقيلة وهى من النساء الكريهة المخدرة ، والمعنى أقسم بحياة القباب الحمر وسط عرين حماها والذابين عنها من أولئك الأسود لقد حبست فيها أسراب العقائل ومنعت من السروب إلينا والخروج لملاقاتنا .

(٢) الضحاء : ارتفاع النهار ووقته عقب الضحى قبل انقضاء النهار ، والقساطل : جمع قسطل وهو الغبار الساطع
 (٣) الاناة : المرأة التى فيها فتور عن القيام وتأن ، قال الشاعر :

أناة تزين البيت إما تلبست وإن قعدت هلا فأحسن بها هلا

أى تزين البيت لابسة حلتها ومتفضلة بثوب واحد ، والسنا : الضوء ، والميسم : ما عليها من أثر الوسامة والحسن ، والشمائيل : الطباع .

(٤) وفي الأصل « وتشرق في بردتين الخلاخل » وهذه الرواية تختل وزن البيت ، وقد أبدلناها بلفظة « موشيتين » الموضوعية بين قوسين لأنها بمعنى بردتين منقوشتين ولأنها قريبة منها في رسم الحروف ، إلى أن يظهر خلاف ما أثبتناه هنا .

(٥) ريع : فرع لأمر مفاجئ ، والوسنان : الفاتر الطرف شبه بالمرأة الوسى من النوم ، والعشيات : جمع عشية وهى آخر النهار ، والخاذل : من خذلت الظبية فهى خاذل تخلفت عن صوابها وانفردت ، يقول ما أنس لا أنس ليلة وافتنا فى الكتيب لوقت حددناه موعدا للقاء فكانت كما ريع ظي فاتر لاحظ انفراد عن سائر سرب الظباء ، وقد مرّ الشطر الأول من هذا البيت فى قصيدته الفائية ص (٢٤) من هذا الكتاب إذ قال :

وليلة وافتنا الكتيب لموعده سرى الأبن لم يعلم لسراه مزحف

تهادى أناة الخطو مرتاعة الحشا كما ريع يعفور الفلا المنتشر

(٦) تهادى : أصله تهادى ، وهو مضى فى تئاتل وتمايل وسكون ، والأيم : والأين الحية ، ويعفو : يعبر والاثار : جمع أثر جمعه على فعال بالكسر جمعا قياسيا كما فى جبل وجبال وجبل وجبال ، قال ابن مالك : « وفعل أيضا له فعال مالم يكن فى لامة اعتلال . »

قَعِيدُكَ ، أَنَّى زُرْتَ ضَوْءُكَ سَاطِعُ وَطَيْبُكَ نَفَّاحُ وَحَلِيكَ هَادِلُ ^(١)
 هَبِيكَ اغْتَرَزْتَ الْحَىَّ وَاشِيكَ هَاجِعُ وَفَرَعُكَ غَرِيبُ وَلَيْتُكَ لَائِلُ ^(٢)
 فَأَنَّى اُعْتَسَفْتَ الْهُوْلَ خَطُوكِ مَدْمَجُ وَرِدْفُكَ رَجْرَاجُ وَعِطْفُكَ مَائِلُ
 خَلِيلِي مَالِي كُلَّمَا رُمْتُ سَلْوَةَ تَعَرَّضَ شَوْقُ دُونَ ذَلِكَ حَائِلُ
 أَرَاكِ إِذَا رَاحَ النَّسِيمُ شَامِيًا كَأَنَّ شَمُولًا مَا تُدِيرُ الشَّمَائِلُ ^(٣)
 ضَلَالًا تَمَادَى الْحُبُّ فِي الْمَعْشَرِ الْعِدَا وَلَجَّ الصَّوَى فِي حَيْثُ تُخَشَى الْغَوَائِلُ ^(٤)

ولم نعتز فيما راجعناه من كتب اللغة على هذا الجمع ، والعطاف : بالكسر والمعطف كل ثوب كالرداء والطيلسان تعطفت أى تردت به ، وسمى عطافاً لوعده على عطفي الابس وهما ناحيتا عنقه ، والمرقوم : ذو الوشى والنش أو المكتوب عليه رقم التاجر ، والدائل ذو الذيل ، وهو أيضاً من الدالان وهو مشى مقارب الخطو فيه ضعف وعجلة شبيهة بمشية الذئب أو المقل من حمل ، أو هو مشى سريع خفيف في ميس وسرعة وبه سمي الذئب ذواله ^(١) والمعنى الأول هو المقصود هنا ، يقول واقتنا للموعدي تلك الليلة تنهادى في مشيتها كالنسياب الحية في الرمل يحو ما تركته من آثار المشى ، ذيل ثوبها المشى ، وهو قريب من قول امرئ القيس : « خرجت بها أششى تجر وراءنا على أثرينا ذيل مرط مرهل . »

(١) قعيدك : مصدر منصوب لنيايته عن الفعل والتقدير سألت الله حفظك ، وهادل : مرسل مسترخ إلى أسفل (٢ و ٣) مكرران مع قوله فيما تقدم في الفائية :

« هيك اغتررت الحى واشيك هاجع وفرعك غريب وليك اغضف
 فأنى اعتسفت الهول خطوك مدمج وردفك رجراج وخصرك مخطف . »

ولكن بتغيير الفائية كما ترى ، واغتررت : بالعين المعجمة أنست منهم غرة وغفلة فزرتنا ، وقد ضمته معنى خدعت فعدها إلى المفعول بنفسه ، وتقدم تفسيره بالعين المهملة بمعنى جئت الحى وطفت به سائلة على غير علم من أهله ، إلا أن هذا يستعمل غالباً في المعتر أى طالب المروف . قال حاتم الطائي :
 « أوقد فان الليل ليل قرّ والريح يا غلام ريح صرّ
 لعل أن يبصرها المعتر إن جلبت نيفاً فأنت حر . »

(٣) أراح : كأخف من الارتياح ، وراح : من الرواح ، والشمول : من أسماء الحر ، والشمايل : جمع الشمال بالفتح وهى ريح تهب من قبل الشام عن يسار القبلة ، وفي الشمال والشمول يقول الشاعر :
 « أملت سليمى والنسيم عليل غليل لى أن الشمال شمول
 كأن الحزامى صفقت منه قرناً فلكسر أعناق المطى تطول . »

(٤) معنى مكرر بالفظه ولكن بتغيير الفائية مع قوله في النائية المتقدمة :
 « لجاج تمادى الحب في المعشر العدا وأم الهوى الأفق الذى فيه نشف . »

كَأَنَّ لَيْسَ فِي عُيُنِ الْهَمَامِ «مُحَمَّدٍ»
 أَغْرَتْ إِذَا شِمْنَا سَحَابَ جُودِهِ
 يَبْشُرُنَا بِالنَّائِلِ الْغَمْرِ «جُودُهُ»
 لَدَيْهِ رِيَاضٌ لِلْسَّجَايَا أُنِيقَةٌ
 أَتَى فَمَا تِلْكَ السَّمَاحَةُ نَهْزَةٌ
 زَعِيمُ الدَّهَاءِ أَنْ تُصِيبَ مِنَ الْعِدَا
 فَمَا سَيْفُ ذَلِكَ الْعَزْمِ فِيهِمْ عِمَاضِدُ
 بَنِي «جَهْوَرٍ» عَشْتُمْ بِأَوْفَرِ غَبِطَةٍ
 تَفَاضَلَ فِي السَّرْوِ الْمُلُوشُ، فَخَلَّاهُمْ
 مُسَلٍّ وَفِي مَثْنَى أَيْدِيهِ شَاغِلُ (١)
 تَهَلَّلَ وَجْهَهُ وَأُسْتَهَلَّتْ أَنْائِلُ (٢)
 وَقَبْلَ الْحَيَا مَا تَسْتَطِيرُ الْمَخَايِلُ (٣)
 تَغْلَغُلُ فِيهَا لِلْعَطَايَا جَدَاوِلُ
 وَفِي فَمَا تِلْكَ الْجِبَالُ حَبَائِلُ (٤)
 مَكَايِدُهُ مَا لَا تُصِيبُ الْجَحَافِلُ
 وَلَا سَهْمُ ذَلِكَ الرَّأْيِ أَفُوقُ نَاصِلُ (٥)
 فَلَوْلَا كُفُّ مَا كَانَ فِي الْعَيْشِ طَائِلُ
 أَنْيَبَ رُمُحٍ أَنْتُمْ فِيهِ عَامِلُ

- (١) مثل : أى صارف عن الخوى لدى تحدث عنه فيما سبق من أبيات القصيدة ، ومثنى الأيادي : إعادة المعروف مرتين فأكثر ، والانصباء من جزور اليسر يشربها الجواد فيقطعها الأبرام ، قال النابغة :
 « يذيك ذو عرضهم عبي وعلمهم وليس جامل أمر مثل من علما
 أني أعم أسارى وأمنحهم مثنى الأيادي وأكسوا الجفنة الأدماء »
 واليت من أحسن أبيات التخلص من الذيب إلى اندح .
- (٢) تهلل : أشرق وظهرت عليه أمارات السرور ، واستهلت : من استهلل المطر وهو انصبابه بشدة حتى يسمع له صوت ، شبه أنامله في الجود بالسحاب المنهل .
- (٣) الحيا : المطر ، ما تستطير : ما زائدة أو مصدرية ، وتستطير : تنتشر وتعم الأفق ، والمخايل : جمع مخيلة وهي أن ترجو وتظن أن السماء خليفة المطر ، وفي الأصل « يبشرنا بالنائل الغمر » وبعده يياض وقد أكلنا الشطر بلفظ « جوده » الموضوعه بن هلاين أخذنا من السياق ، ومعنى البيت يبشرنا بالمطاء الكثير جوده وقبل استهلل المطر تنتشر مخايله وعلاماته في السماء .
- (٤) الأتي : النافذ الذي يتأتى للأمر ، ونهزة : يريد أنه لا يقبل السباحة انتهاراً واقتراصاً إذا صنعت له الفرصة بل يتأتى لها ورفض عليها في كل وقت غير متحين لها أنفرص ، والحل : العهد والذمة والتواصل وعدم التفاضع ، والحبايل : جمع حباله وهي القصيدة وفي الحديث « النساء حبايل الشيطان » أى مصادمه .
- (٥) المنعصد والمنعصاذ : سيف متهين على شكل اللجل يتخذهُ القضاة لقطع العظام ، والزراعة لقطع فروع الشجر ليملاوا بما يسقط من ورقها غنمهم وإبلهم ، وأفوق : مكسور الفوق بالضم وهو حرف السهم وإذا كان في إحدى زوايا السهم أى حرفه انكسار فذلك السهم أفوق ، والناصل : الساطع النصل وهو حديدة السهم ، والمعنى : أنه ماضى للزينة صائب الرأي ، وفي الأصل : « أفوف ناضل » .

لَبِثُ قَلَّ فِي أَهْلِ الزَّمَانِ عَدِيدُكُمْ
فِدَاؤُكُمْ مَنْ إِنْ تَعِدُهُ ظَنُّونَهُ
مَنَاكِيدُ^(١) فِعْلُ الْخَيْرِ مِنْهُمْ تَكْلُفُ
فَإِنْ سُرِيتْ أَخْلَاقُهُمْ يَتَخَلَّقُ
لَكَ الْخَيْرُ ، إِنِّي قَائِلٌ غَيْرُ مُقْصِرٍ
لَعَمْرُ سَرَاةِ الشَّعْرِ وَافَاكَ وَفَدُهُمْ
لَا عَذْرَتَ لَمَّا لَمْ يُمَلِّكَ مُكْتَنُهُمْ
نَضَدْتَ رِيَاحِينَ الطَّلَاقَةِ غَضَّةً
فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا تَسَدِيدُهُ نَزَاعُهُ
صَمَانٌ عَلَيْهِمْ أَنْ سَيُؤْثَرُ عَنْهُمْ

فَإِنْ دَرَارِي النَّجُومِ قَلَائِلُ^(٢)
لِحَاقِكُمْ فِي الْمَجْدِ فَالْدَّهْرُ مَا طِلُ
إِذِ الشَّرُّ طَبَعَ مَا لَهُمْ عَنْهُ نَاقِلُ
فَكُلُّ خَضِيبٍ لَا مَحَالَةَ نَاصِلُ^(٣)
فَرَنْ لِي بِأَسْتِيفَاءٍ مَا أَنْتَ فَاعِلُ ؟
لَمَّا ذَمَّ مِنْهُمْ ذَلِكَ النَّزْلَ نَازِلُ
إِذَا عَذَرَ الْمُسْتَنْقِلَ الْمُتَنَاقِلُ^(٤)
وَرَقَرْتِ مَاءَ الْبَرِّ وَهُوَ سَلَاسِلُ
إِلَيْكَ مُقِيمُ الْقَلْبِ وَالْجِسْمِ رَاحِلُ
عَلَيْكَ تَنَاهٍ فِي الْمَحَافِلِ حَافِلُ^(٥)

(١) ألم كثير من الشعراء بهذا المعنى في صور مختلفة فختار منها قول السموأل في لاميته المشهورة :

« تعبرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها : إن الكرام قليل

وما قل من كانت بقاياها مثلنا شباب تسامى للعلا وكهول . »

وقول العباس بن مرداس :

« يفاث الطير أكثرها فراخا وأم الصقر مقلدة تزور . »

(٢) جمع منكود من نكد الرجل بالبناء المجهول فهو منكود إذا كثر سؤاله وقل خيره .

(٣) خضيب : محضوب ، وناصل : وصف من فصل الشعر ينصل بالضم زال عنه الحضاب ، وهو معنى

كثير الورود في كلام الشعراء ، قال زهير .

« ومهما تكن عند امرئ من خليفة وإن خالها تخفى على الناس تعلم . »

وقال الآخر : « ومن يتخذ خيما سوى خيم نفسه يدعه ويفلحه على النفس خيمها . »

وقال ذو الأصبع العدواني .

« كل امرئ صائر يوما لشيمته وإن تخلق أخلاقا إلى حين . »

(٤) لأعذرت : لقد بدا عذرك واتضح ، والمستنقل : المستقبلي ، لمكتنهم أكثر مما تستلزمه موجبات

الضيفاء ، والمتناقل : المتباضي الذي أثقل على مضيقه فأله وأشجره ، يقول أثبت عذرا لنفسك وانحما حين

لم تقل ولم تسأم طول مكث سرارة الشعر الوافدين عليك في وقت يعرف فيه المتناقل عذر مضيقه إذا مل مكثه

وعده ثقلا .

(٥) صمان على هؤلاء الوافدين أنه سيؤثر ويروى عنهم ثناء عليك في المحافل حافل بأنواع الحماد والمدائح .

مَسَاجِدُ هِيَ الْعِقْدُ أَنْظَامَ مُحَاسِنِ
تُنِيرُ بِهَا الْأَمَالُ وَاللَّيْلُ وَقَبْ^(١)
تَحَلَّى بِهَا جِيدُهُ مِنَ الدَّهْرِ عَاطِلُ
وَتَحْصِبُ مِنْهَا الْأَرْضُ وَالْأَفْقُ مَاحِلُ

هَبْنِيَا لَكَ الْعَيْدُ الَّذِي بِكَ أَصْبَحْتَ
تَلْقَاكَ بِالْبُشْرِ وَحَيَاكَ بِالْمُنَى
أَنْ يَنْصَرِمَ شَهْرُ الصَّيَامِ لِبَعْدِهِ
رَأَيْتَ أَدَاءَ الْفَرَضِ ضَرْبَةً لَازِمٍ
سَدَنْتَ^(٢) بَيْتَ اللَّهِ حُبَّ جَوَارِهِ ،
هَجَرْتَ لَهُ الدَّارَ الَّتِي أَنْتَ آفِلُ
فَإِنْ تَتَنَاقَلَ الدِّيَارُ فَطَالَمَا
أَلَا كُلُّ - رَجَوَى فِي سِوَاكَ - غَلَالَةٌ
فَمَا لِعِمَادِ الدِّينِ - حَاشَاكَ - رَافِعُ

لَأُمْنِنِي الْخَطْبَ الَّذِي أَنَا خَائِفُ
أَرَى خَاطِرِي كَالصَّارِمِ الْعَضْبِ لَمْ يَزَلْ
وَمَا الشُّعْرُ مِمَّا أَدْعِيهِ فَضِيلَةٌ
بَقِيَتْ كَمَا تَبَقِيَ مَعَالِيكَ إِنَّهَا
فَمَا نَسْتَزِيدُ اللَّهَ بَعْدَ نَهَايَةٍ
وَبَلَّغْتَنِي الْحِظَّ الَّذِي أَنَا آمِلُ^(٣)
لَهُ شَاحِدٌ مِنْ حُسْنِ رَأْيِكَ صَاقِلُ
تَزِينُ ، وَلَكِنْ أَنْطَقْتَنِي الْفَوَاضِلُ
خَوَالِدُ حِينَ الْعَيْشِ كَالظِّلِّ زَائِلُ
لِنَفْسِكَ غَيْرَ الْخُلْدِ إِذْ أَنْتَ كَامِلُ^(٤)

(١) في الأصل «رائد» (٢) وفي الأصل «سدك» (٣) وقد ورد بعد هذا البيت قوله :

« أَلْهَمْ هَمِّي فَمَا أَنَا لَا غُفْلَ وَلَا أَنْتَ قَافِلٌ . »

وقد أثبتناه نافصا كما ورد بالأصل .

(٤) قريب من هذا المعنى قوله من قصيدة سابقة :

« لَا أَسْتَزِيدُ اللَّهَ نَدَى سِوَى فَيْكِ ، لَا بَلَّ أَسْتَدِيمُ »

إلى ابن جهور

« وقال أيضا مع تفاح أهده إلى ابن جهور . »

أَتَتْكَ بِلَوْنِ الْمُحَبِّ الْحَبْلُ تُخَالِطُ لَوْنَ الْمُحِبِّ الْوَجْلُ^(١)
 ثَمَارُهُ تَضَمَّنَ^(٢) إِذْرَاكَهُمَا هَوَايَ أَحَاطَ بِهَا مُعْتَدِلُ
 تَأْتِي^(٣) لِلْإِطَافِ تَدْرِيجُهَا فَمِنْ حَرِّ شَمْسٍ إِلَى بَرْدِ ظِلِّ^٤
 إِلَى أَنْ تَنَاهَتْ شِفَاءَ الْعَدِيلِ وَأَنْسَ الْمَشُوقِ وَلَهُوَ الْغَزْلُ
 فَلَوْ تَجَمَّدُ الرِّاحُ لَمْ تَعُدْهَا وَإِنْ هِيَ ذَابَتْ فَخَمَرُ تَحِلِّ^(٥)
 لَهَا مَنَظَرُ حَسَنٍ فِي النُّفُوسِ كَذُنْيَاكَ لَكِنَّهُ مُنْتَقِلُ^(٦)
 وَطَعْمُ يَلْدُ لِمَنْ ذَاقَهُ كَلِذَّةِ ذِكْرَاكَ لَوْ لَمْ يُعْمَلُ^(٧)
 وَرَيًّا إِذَا نَفَحَتْ خَلِيقُهَا تُمَلِّ ثَنَاءَكَ أَوْ تَسْتَهِّلُ^(٨)
 يُعْمَلُ مَلَسُهَا لِلْأَكْفِ لَيْنَ زَمَانِكَ أَوْ يُمْتَلِّ^(٩)

- (١) معنى البيت: أتتك هذه التفاحات بحمرة كحمره حلكود الملاح عند الحبل، تخالطها صفرة كصفرة خدود العاشقين عند الوجل . (٢) أى تكفل بانضاج هذه الثمار هواء معتدل متوسط بين الحرارة والبرودة (٣) تأتى للامر ترفق له وأناه من وجهه ، والمعنى : تلطف ذلك الهواء فى تدرج ثمرها وصبغها بترك الألوان الزاهية فتنتقل معها من حر شمس إلى برد ظل حتى فضجت وأبنت . (٤) يقول لو أن ذوب الراح تحول إلى جد لم يعد أن يكون ذلك التفاح ، ولو أن جامد التفاح تحول إلى ذوب أحر لم يعد أن يكون خرا حلالا لا إثم على شاربها . (٥) معنى : أن منظرها حسن ينتظم ما فى دنياك من محاسن إلا أنه حسن منتقل حائل ، وحسن دنياك لا يحول ولا ينتقل . (٦) ولها طعم حلو المذاق لذيد كلذة ذكراك فى الأسماع إلا أنه يمل وترديد ذكراك لا يمل . (٧) ولها ريا : أى ربح طيبة ، تمل : أى تملئ مدحك ، أو تستهل : أى ترفع صوتها بالثناء عليك . (٨) يصور ملس التفاح الناعم للأكف لئن زمانك حتى كأنها تحسه ، أو يمتثل أى يضرب نفسه مثلا لئن زمانك .

صَفَوْتُ فَأَذَلَّتْ^(١) فِي عَرْضِهَا وَمَنْ يَصِفُ مِنْهُ الْهُوَى فَلْيُدِلْ
قَبُولُكُمَا نِعْمَةٌ غَضَّةٌ وَفَضْلٌ - بِمَا قَبْلَهُ - مُتَّصِلٌ
وَلَوْ كُنْتُ أَهْدَيْتُ نَفْسِي اخْتَصَرَ تَ عَلَى أَنَّهَا غَايَةُ الْمُحْتَفِلِ^(٢)

مجلس أبي علي

« لما ورد ابن زيدون إشبيلية نزل في دار
ذى الوزارتين الكاتب أبي علي بن جلة وهو
يبنى فيها مجلساً ، فصنع أبياتاً فكتبت فيه : »

عُمِّرَ مَنْ يَعْمُرُ ذَا الْمَجْلِسِ أَطْوَلَ عُمُرٍ يُهْجُ الْأَنْفُسَا
وَبَعْدَ ذَا غَوْضَ عَنْ دَارِهِ عَدْنَا وَمَنْ دِيَابِجِهِ السُّنْدُسَا
وَوُفَى الْفَوْزَ بِهَا وَالرَّضَى وَوُفَى الْأَسْوَاءِ وَالْأَبْوُسَا^(٣)
وَدَامَ عِبَادُ لِعَهْدِ الْهُدَى يَحْرُسُ حَتَّى يُفْنِيَ الْأَحْرُسَا^(٤)

* *

مُعْتَصِدٌ بِاللَّهِ إِحْسَانُهُ جَمَّ إِذَا مَا الدَّهْرُ يَوْمًا أَسَا
الْمَلِكُ الْغَمْرُ النَّدَى الْمُقْتَنَى مِنْ كُلِّ حَمْدٍ عِلْقَهُ الْأَنْفَسَا^(٥)
إِنْ رَامَ يَوْمًا وَصَفَ عَلَيَّاهُ مُمَوَّةٌ مُقْتَدِرُهُ أَخْرَسَا^(٦)
لَا زَالَ بَدْرًا طَالِعًا نِيرًا يَكْشِفُ مِنْ آمَالِنَا الْحِنْدِسَا^(٧)

(١) الادلال التدلل والانبساط والجرأة على من تحب باظهار الدالة عليه ، أى وثقت بما بيننا من الصفاء والود فأفرطت في الدالة عليك بعرض هذا التفاح الذى يتهاذى بمثله الأضياف المحاصون ، ومن يصف في الهوى فليظهر الدلال على من يحبه .

(٢) المحتفل المبالغ في الاهداء ، والمعنى : لو كنت حين أردت الاهداء أهديت نفسى لاختصرت ، على أنها غاية ما احتفل وأبالغ في تقديمه إليك هدية . (٣) الأسواء : جمع سوء والأبؤس جمع بؤس .

(٤) الأحرس : الدهور ، جمع حرس يفصح فمكون وهو الدهر .

(٥) الملك العظيم الاحسان الذى ظفر من الشاء بما لم يظفر به غيره من آيات الحمد .

(٦) إذا رام النلس المبين أن يصف مجده أعياه الحرس لأنه يحاول بذلك أن يظفر بالاستعيل .

(٧) الظلام .

جواب

« كتب الوزير الفقيه صاحب الأحكام والأحكام

« أبو طالب بن مكي » يبتين وهما :

« يا بعيد الدار موصو

لا بقلبي ولساني

ربما باعدك الدهر

رفأدتك الأمانى . »

فكتب إليه الآيات التالية :

لَا أَفْتِنَانِ كَأَفْتِنَانِي فِي حُلَى الظَّرْفِ الْحِسَانِ^(١)

خَصَّنِي بِالْأَدَبِ اللَّهُ فَأَعْلَى فِيهِ شَانِي

خَاطِرِي أَنفَدُ - مَهْمَا قَبَسَ - مِنْ حَدِّ السَّنَانِ

أَيُّهَا الْمُرْسِلُ أَطْيَا رَ الْمَعْنَى لِامْتِحَانِي

هَآكَ كَيْ تَزْدَادَ فِي الْآدَابِ عِلْمًا بِمَكَانِي

قَدْ أَتَمْنَا الطَّيْرُ تَشْدُو بَعْضَ أَيْآتِ الْأَغَانِي

بِرِطَانَاتٍ قَضَيْنَا مَا أَقْضَيْنَا مِنْ بَيَانِ

إِنْ تَغَنَّى الْبُلْبُلُ أَهْتًا ج غِنَاءَ الْوَرَشَانِ^(٢)

(١) قال في اللسان : الظرف البراعة وذكاء القلب بوسيلة به التبيان الأروال والفتيات الزولات ولا يوصف به الشيخ ولا السيد، وقد وصف الحسان بالظرف مبالغة، ويبرز أن يكون بانهم جمع ظريف، فانه يجمع على ظرف بضمين، والاسكان في مثله جبر، والمعنى : ليس يجيد أحد - كما أجيد - الافتنان في صوغ تلك الحلى الحسان التي يملها الظرف واللباقة .

(٢) الورشان : طائر لجه - فيما يقولون - أخف من الحمام، والمعنى : أن غناء البلبل يحتاج غناء الورشان يشير بذلك إلى أن شعر صديقه الوزير اهانجه تحرك فيه بواحد الشعر كما احتاج غناء البلبل غناء الورشان .

فَتَأْدَى مِنْهُ يَدْتَا غَزَلٍ مُنْفَرِدَانِ
لِمُحِبٍّ فِي حَبِيبٍ عَنْهُ نَزْءٌ مِنْهُ دَائِبٌ :
« يَا بَعِيدَ الدَّارِ مَوْصُو لَا بِقَلْبِي وَلِسَانِي
رُبَّمَا بَاعَدَكَ الدَّهْرُ فَأَذَاتَكَ الْأَمَانِي »

كن كيف شئت

يَا غَزَلَ الْأَصَارَنِي مُوْتَقًا فِي يَدِ الْمِحَنِ
إِنِّي - مَذْهَجَرْتَنِي - لَمْ أَذُقْ لَذَّةَ الْوَسَنِ
لَيْتَ حَظِّي إِشَارَةً مِنْكَ، أَوْ لِحْظَةً عَنْكَ^(١)
شَافِعِي يَا مُمَذَّبِي - فِي الْهَوَى - وَجْهَكَ الْحَسَنِ
كُنْتُ خِلَوًا مِنَ الْهَوَى . فَأَنَا الْيَوْمَ مُرْتَهَنٌ^(٢)
كَانَ سِرِّي مُكْتَمًا وَهُوَ الْآنَ قَدْ عَلَنَ^(٣)
لَيْسَ لِي عَنْكَ مَذْهَبٌ فَكَمَا شِئْتُ لِي فَكُنْ^(٤)

(١) يقول : إني اقنع منك بالذي ، القليل النافه وأكتفي بأن يكون حظي من حبك إشارة أو افنة سريعة ، وقد دار الشعراء حول هذا المعنى ، ولعل أبداع ما قيل فيه قول جميل بثينة :

« وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي افرت بلابه
بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمنى ، وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضى أواخره - لانتقى - وأوائله . »

(٢) الخلو : الخالي . يقول « كنت طليقاً خالياً من إيسار الهوى فصرت اليوم أسيراً مرتينها . »

(٣) يقول : « كان سري خائياً لا يعلمه أحد فأصبح معلناً ، وما أجل قول صرود في شبيه هذا المعنى :

« وقد كشف الغطاء فما نبألى أصرحنا بذكرك أم كنبنا
نسائل عن ثمامات مجزوى وبات الرمل يعلم من عنيها
ولو أنا فتأدى « ياسليمي » لقالوا : ما عنيبت سوى لبني »

(٤) يقول : « لا فكاك لي من إيسار حبك فاصنع بي ما أنت صانع . »

حنين

هَلْ رَاكِبٌ ذَاهِبٌ عَنْهُمْ يُحْيِي
قَدْ مِتُّ إِلَّا ذَمَاءٌ فِي يُمْسِكُهُ
مَا سَرَّحَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنِي وَأَطْلَقَهُ
صَبْرًا لَعَلَّ الَّذِي بِالْبُعْدِ أَمْرَضَنِي ،
كَيْفَ أَصْطَبَارِي وَفِي كَانُونٍ^(١) فَارَقَنِي
شَخْصٌ يُدْكَرُنِي فَاهُ وَغُرَّتَهُ
لَنْ عَطِشْتُ إِلَى ذَاكَ الرُّضَابِ لَكُمْ
وَإِنْ أَفَاضَ دُمُوعِي نَوْحٌ بَاكِيةً
وَإِنْ بَعُدْتُ وَأَضْنَتَنِي الْهُمُومُ لَقَدْ
أَوْ حَلَّ عَقْدَ عَزَائِي نَأْيُهُ فَلَكُمْ
إِذْ لَا كِتَابَ يُوَفِّيَنِي فَيُحْيِي^(٢)
أَنَّ الْفُؤَادَ يُلْقِيَاهُمْ يُرَجِّي^(٣)
إِلَّا أَعْتِيَا ذَأْسِي فِي الْقَلْبِ مَسْجُونِ^(٤)
بِالْقُرْبِ يَوْمًا يَدَاوِينِي فَيَشْفِينِي
قَلْبِي وَهَاتِحُنْ فِي أَعْقَابِ تَشْرِينِ^(٥)
شَمْسُ النَّهَارِ وَأَنْفَاسُ الرِّيَاحِينَ
قَدْ بَاتَ مِنْهُ يُسَقِّيَنِي فَيُرْوِينِي
فَكَمْ أَرَاهُ يُغْنِيَنِي فَيُشْجِينِي^(٦)
عَهْدُهُ وَهُوَ يُذْنِبُنِي فَيُسْلِينِي
حَلَلْتُ عَنْ خَصْرِهِ عَقْدَ الثَّمَانِينَ^(٧)

- (١) هل يوافيني رسول من قبل من أحبه فيحمل إلى تحبهم بعد أن حرمت كتبهم التي كانت تعبد إلى الحياة.
(٢) لقد كدت أحسب في عداد الهلكى لولا بقية قليلة من الروح يبعثها في الرجاء والامل في لقاءهم .
قال ابن الرومي في رثاء ابنه :

« ولقد تعزى القلب سلوته أنى بأن ألقاك مرتين . »

- (٣) لم يقض دمي إلا ذكريات مؤلمة مسجونة في قلبي تمتدني حيناً بعد حين وتطيف بنفسى فتطلق
(٤) شهر من شهور الشتاء وهو ديسمبر ، قال أبو العلاء :

مضى كانون ما استعملت فيه حيم الماء ، فاقدم يا شباط

تشابه أنفاس الحشرات نفسى يكون لمن بالصيف ارتباط

- (٥) شهر من شهور السنة الرومية وهو يوافق ١٤ أكتوبر ، وهما تشرينان أحدهما في ١٤ أكتوبر
والثاني في ١٤ نوفمبر ، ولعل المراد تشرين الثاني . (٦) في الأصل : فيرويني .

- (٧) عقد عزائي : العقد ضدّ الحلّ ، والعزاء : الصبر ، والنأى : البعد . وعقد الثمانين : أحد عقد
الأصابع التي يفهم بها عدد الثمانين والاشارة إلى عقد الثمانين تكون ببسط الابهام والسبابة معا متلاصقتين
بلا فرجة ظاهرة بينهما ، والمعنى : لئن حل نأى الحبيب وبعدة عقد عزائي وسلوانى عنه ، فكثيراً ما حلت
عن خصره نطاقاً يشبه في الضيق عقد الثمانين ، وهذا الحصر الذي وصفه ابن زيدون يدق في الوهم ،
ويلطف في الخيال والحس إلى حدّ أنا لا نعتز له على شبيه ومثيل حتى ولا في خصور الناحلات الرشيقات



يَا حُسْنَ إِشْرَاقِ سَاعَاتِ الدُّنُوبِ بَدَتْ كَوَاكِبًا فِي لَيَالِي بُعْدِ الْجُونِ (١)

من بنات أوروبا وباريس في العصر الحاضر عصر التفنن في الرشاقة ، ودفة الحضور ، والافراط في تضيق عقد النطاق .

عقد الأصابع

لما كانت كلمة « عقد الثمانين » الواردة في بيت « ابن زيدون » هذا لا بين فيها وجه التعقيد والمعاظلة التي يعمد إليها ابن زيدون أحيانا ، إلا بعد بيان ما تدلّ عليه عقد الأصابع من الأعداد العربية للحساب ، وهو اصطلاح قديم استعمله العرب ، وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم عقد ثلاثة وخمسين في التشهد ، أي قبض الخنصر والبنصر والوسطى على هيئة خاصة تدلّ على العدد المذكور ، فنحن نستطرد بتلخيص ماهو مبسوط في بعض كتب اللانة والنحو متعلقاً بهذا الموضوع فقول :

جعلوا للدلالة على الآحاد من أصابع اليد اليمنى الخنصر والبنصر والوسطى ، وللمشرات إلى التسعين الوسطى والسيابة .

فالعقد الدالّ على الواحد يكون بالصاق الخنصر بإطن الكف مع بسط سائر الأصابع ، وعلى الاثنين بالصاق البنصر معها كذلك ، وعلى الثلاثة بضم الوسطى إليهما كذلك ، وعلى الأربعة بالصاق البنصر والوسطى وحدهما كذلك ، وعلى الخمسة بالصاق الوسطى وحدها كذلك ، وعلى الستة بالصاق البنصر وحدها كذلك ، وعلى السبعة بالصاق الخنصر وحدها ممدودة إلى أسفل الكف على شكل يخالف شكل الواحد . وعلى العشرة بوضع ظفر السيابة في وسط باطن أنملة الإبهام بحيث يحصل شكل حلقة ، ولكن مع نشوز رأس الإبهام بقدر نصف الأنملة ، وعلى العشرين بجمل المفصل الأوّل من السيابة على ظفر الإبهام بحيث تكون السيابة على شكل الدال ، وعلى الثلاثين بضم رأس باطن السيابة إلى باطن رأس الإبهام على هيئة لاقط الابرة ، وعلى الأربعين بوضع باطن أنملة الإبهام على ظاهر أصل السيابة مما يلي الكف ، وعلى الخمسين بوضع الطرف الأيمن للإبهام على محز العقدة السفلى للسيابة بحيث تكون قائمة ، والجانب الأعلى للإبهام منحنيّاً عليها ، وعلى الستين بوضع باطن أعلى أنملة الإبهام على باطن أعلى أنملة السيابة ، بحيث تكون السيابة على شكل قوس وتره الإبهام ، وعلى السبعين بوضع حرف ظفر الإبهام على العقدة الوسطى لباطن السيابة على هيئة رامي الحصاة بالخذف « وهو رمي صغار الحصا بعد أخذها بين طرفي السيابة والإبهام » ، وعلى الثمانين بسطهما معاً لاصقتين بلافرجة بينهما كما أسلفناه في شرح البيت الذي نحن بصدده ، وعلى التسعين بطن السيابة إلى أصلها ووضع الإبهام على ظهر العقدة الوسطى للسيابة كما تتحوى الحية .

وجعلوا للدلالة على المئات من أصابع اليد اليسرى السيابة والإبهام طبق ما في اليد اليمنى . فالمائة في اليسرى كالعشرة في اليمنى ، والمئتان كالعشرين ، وهكذا إلى التسعمائة ، والألف في اليسرى كلواحد في اليمنى ، والألفان كالاثنين ، وهكذا إلى تسعة آلاف ، والعشرة آلاف بضم أنملة السيابة والإبهام بطناً لبطن ، وتستعمل عقد أصابع اليدين معاً للدلالة على الأعداد المركبة من الآحاد والعشرات والمئات والآلاف بنفس الهيئات المقدمة .

(١) أي أن ليالي الوصال تبدو مضيات لامعات في ليالي العباد السود .

وَاللّٰهُ مَا فَارَقُونِيْ بِاخْتِيَارِهِمْ - وَإِنَّمَا الدَّهْرُ بِالْمَكْرُوهِ يَرْمِينِيْ
وَمَا تَبَدَّلْتُ خُبًا غَيْرَ حُبِّهِمْ - إِذَا تَبَدَّلْتُ دِينَ الْكُفْرِ مِنْ دِينِيْ ^(١)
أَفْدَى الْحَبِيبِ الَّذِي لَوْ كَانَ مُقْتَدِرًا - لَكَانَ بِالنَّفْسِ وَالْأَهْلِيْنَ يَفْدِينِيْ
يَا رَبِّ قَرِّبْ - عَلَى خَيْرٍ - تَلَاوِينَا - بِالطَّالِعِ السَّعْدِ وَالطَّيْرِ الْمَيَّامِيْنَ .

في الغزل

أَيُوحِشُنِي الزَّمَانُ وَأَنْتَ أَنْسِي - وَيُظِلُّ لِي النَّهَارُ وَأَنْتَ تَشْمِسِي
وَأَغْرِسُ فِي مَحَبَّتِكَ الْأَمَانِي - فَأَجْنِي الْمَوْتَ مِنْ ثَمَرَاتِ غَرَمِي ^(٢)
لَقَدْ جَاوَزْتَ غَدْرًا عَنْ وَفَائِي - وَبَعْتَ مَوَدَّتِي ظُلْمًا بِبَخْسِ
وَلَوْ أَنَّ الزَّمَانَ أَطَاعَ حُكْمِي - فَدَيْتُكَ - مِنْ مَكَارِهِهِ - بِنَفْسِي ^(٣)

في بعض مجالس الأُنس

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ بِكُلِّ أَلْسُنِنَا جَلَالُكَ
انْظُرْ إِلَى مُحْتَلَّنَا ^(٤) قَدْ زَانَ سَاحَتَهُ اخْتِلَالُكَ
نَهْرُ وَرَوْضُ نَحْنُ يَنْتَهَمَا تَهَيُّنُنَا ظِلَالُكَ ^(٥)
قَدْ فَاضَ فِي هَذَا نَدَا لَكَ وَنَعَمْتُ هَذَا خِلَالُكَ .

(١) إن إيماني بحبهم كإيماني بديني سواء بسواء وليس في مقدور أحد أن يبدلي بين أحب إلا إذا استطاع أن ينقلني من ديني إلى الكفر .

(٢) يقول : « هل من العدل أن أكثر من الآمال والأمانى فلا أجن من ذلك كله إلا الاخفاق :

(٣) ليت الزمان يقبل حكمي ، اذق لغديتك بنفسى ، وإن كنت لا تجازيني بحبي إلا بالغدر .

(٤) المكان الذى حللنا فيه .

(٥) وفي الأصل : « توافنا ظلالك . » والظلال : ما أظلك من سحاب ونحوه ، وظلال البحر : أمواجه ، والمقصود هنا النعيم والراحة ، ولما كانت بلاد العرب في غاية الحرارة وكان الظل عندهم من أعظم أسباب الراحة جعلوه كناية عن الراحة .

شكوى وألم !

« قال في مدح ابن جهور »

رَأَيْتُ أَلَمْ يَأْنِ أَنْ يَبْكِيَ الْغَمَامُ عَلَى مِثْلِي وَيَطْلُبُ ثَأْرِي الْبَرْقُ مُنْصَلِتَ النَّصْلِ^(١)
وَهَلَّا أَقَامَتْ أَجْمُ اللَّيْلِ مَا تَمَّا لَتَنْدُبَ فِي الْآفَاقِ مَاضِعَ مَنْ تَشْلِي^(٢)
وَلَوْ أَنْصَفْتَنِي - وَهِيَ أَشْكَالُ هِمَّتِي - لَأَلْقَتْ بِأَيْدِي الذُّلِّ لَمَّا رَأَتْ ذُلِّي
وَلَا فَرَّقَتْ سَبْعُ الثَّرَيَا وَغَاضَهَا^(٣) بِمَطْلَعَهَا مَا فَرَّقَ الدَّهْرُ مِنْ شَمْلِي

رَعَمْتُ اللَّيَالِي إِنْ يَكُنْ طَالَ نَزْعُهَا لَقَدْ قَرَّطَسْتُ بِالنَّبْلِ فِي مَوْضِعِ النَّبْلِ^(٤)
رَتَحَلْتُ بِأَدَابِي وَإِنْ مَارِي لَسَانِحَةً فِي عَرْضِ أُمْنِيَّةٍ عُطْلِي
أَخْصُ لِفَهْمِي بِالْقَلْبِ وَكَأَنَّمَا يَبِيْتُ لِدَى الْفَهْمِ الزَّمَانُ عَلَى ذَحْلِي^(٥)
وَأَجْفَى عَلَى نَظْمِي إِكْلٌ قِلَادَةٍ مُفْصَلَةٌ السَّمُطَيْنِ بِالْمَنْطِقِ الْفَصْلِ
وَلَوْ أَنَّي أَسْطِيعُ كَيْ أَرْضِي الْعِدَا شَرِيتُ بَعْضَ الْحِلْمِ حَظًّا مِنَ الْجَهْلِ^(٦)

(١) الذي في الأصل المقول « ألم بأن أن يبكي الغمام على قتلي » والذي أثبتناه هنا هو ما نقلناه من

الذخيرة لابن إسحاق وهو أنسب مما ذكر في الأصل لأنه يريد من الطبيعة أن تبكي لبكائه ، وتثار من أعدائه .

(٢) تشلي : أي ما انتقلته واستخرجته في حياتي من جاه ومنصب ومال .

(٣) غاضها : غيضا أي أخفاها .

(٤) نزعها : جذبها وتر القوس مصوغة نحوى سهام المصائب ، وقرطس : أي أصاب القرطاس ، وهو

فرض من أديم يتخذ للنضال وتسديد الرماية .

(٥) الفلي - بالكسر - البغض ، والدحل الثأر ، يريد أن غيره من أهل الجهل نالوا الخطوة والقربي ،

وهو لفهمه خص بالقل والبد وكأنه قد جنى على الزمان فبات يطالبه بثأره .

(٦) الحلم : العقل ، والحظ : النصيب . يقول : لو أستطيع إرضاء العدا وشفاء ما في نفوسهم من

الحقد لاستبدلت بشيء يسير من الجهل ، حظا عظيما من العقل .

أَمَقْتُوَلَةَ الْأَجْفَانِ مَالِكٍ وَالْهَامِ أَلَمْ تَرْكِ الْأَيَّامَ مُجَمَّماً هَوَى قَبْلِي ^(١)
 أَقْلَى بُكَاءٍ لَسْتُ أَوَّلَ حُرَّةٍ طَوْتُ بِالْأَسَى كَشْحًا عَلَى مَضَضِ الشُّكْلِ ^(٢)
 وَفِي « أُمِّ مُوسَى » عِبْرَةٌ أَنْ رَمَتْ بِهِ إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ فَأَعْتَبِرِي وَأُسْلِي ^(٣)
 لَعَلَّ الْمَلِيكَ الْمُجْمِلَ الصَّنْعِ - قَادِرًا لَهُ - بَعْدَ يَأْسٍ سَوْفَ يُجْمِلُ صُنْعًا لِي ^(٤)
 وَلِلَّهِ فِينَا عِلْمٌ غَيْبٍ وَحَسْبُنَا بِهِ - عِنْدَ جَوْرِ الدَّهْرِ - مِنْ حَكَمٍ عَدْلٍ ^(٥)

هُمَامٌ عَرِيقٌ فِي الْكَرَامِ ، وَقَلَمًا تَرَى الْفَرْعَ إِلَّا مُسْتَمَدًّا مِنَ الْأَصْلِ
 يَهْوِضُ بِأَعْبَاءِ الْمُرُوءَةِ وَالشُّقَى سَحُوبٌ لِأَذْيَالِ السِّيَادَةِ وَالْفَضْلِ
 إِذَا أَشْكَلَ الْخَطْبُ الْمِلْمُ فَإِنَّهُ وَآرَاءُهُ كَالْخَطِّ يُوضَحُ بِالشُّكْلِ

وَذُو تَدْرٍ لِلْعَزْمِ - تَحْتَ أَنْاتِهِ - كُمُونُ الرَّدَى فِي قَتْرَةِ الْأَعْيُنِ الشُّجْلِ ^(٦)

(١) أمقوتلة الأجفان ، الهزرة فيه للتداء أى يامن فى أجفانها فتور وتكسر ، ولواله : الشديدة الحزن على فقد ولدها شبيها فى شدة حزنها على نجمه الهاوى فى غيابة السجن بالمرأة التكللى التى لا تفر أجفانها الفاترة للفرحة عن البكاء لفقد الحبيب .

(٢) الكشج : الخاصرة ، وطوى كشحه على كذا استمر عليه ، والمضض : ألم المصيبة ، والشكل - بالضم - فقدان الولد والحبيب : أى لا تبكى باستمرار فليست أول حرّة لازمها وجع مصيبة الشكل .

(٣) يشير بهذا إلى قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فالأنه في اليم ولا تخفى ولا نخزى إنا رادوه إليك » أى اعتبرى بهذه القصة واصبرى .

(٤) لعل الملك المعتاد صنع الجميل - قادرا لخدمته قدره - سوف يعمل على خلاصى بعد يأس .

(٥) بلى هذا البيت بيت وجد فى الأصل نائضا هكذا :

رأيت رجلا من آل جهور مستحكما الأسباب مستحصدا الحبل

(٦) ذو تدرى - بالضم - أى ذو عتدة وقوة على مدافعة أعدائه إذا وجه عزيمته لفعل أمر كمن الردى تحت تأنيه كونه تحت فتور الأعين النجل أى الواسعة جمع نجلاء ، واستعمل الفقرة بمعنى انكسار جفون العين وضعفها ليعقد بينها وبين الأناة مناسبة وموافقة .

يَرِفَ عَلَى - التَّامِيلِ - لَأَلَاءِ بَشَرِهِ
مَحَاسِنُ مَا لِلْحُسْنِ فِي الْبَدْرِ عِلَّةٌ
كَمَارَفَ لَأَلَاءِ الْحُسَامِ عَلَى الصَّقْلِ (١)
سِوَى أَنَّهَا بَاتَتْ تُمَلُّ فَيَسْتَمَلِي (٢)
سِوَارُ الْفَتَاةِ الرَّادِ بِالْمَعْصَمِ الْخَذَلِ (٣)
وَتَغْنَى عَنِ الْمَدْحِ - اكَتِفَاءً بِسَرَوِهَا -
غِنَى الْمُقَلَّةِ السَّكَنَاءِ عَنْ زِينَةِ السَّكُحْلِ

« أَبَا الْحَزْمِ » إِنِّي فِي عِتَابِكَ - مَائِلٌ
تَحَامُّمٌ شَكْوَى صَبَّحَتْكَ هَوَادِلًا
عَلَى جَانِبٍ - تَأْوِي إِلَيْهِ الْعُلَا - سَهْلٌ
جَوَادُ إِذَا أُسْتَنَّ الْجِيَادُ إِلَى مَدَى
تُنَادِيكَ مِنْ أَفْنَانِ آذَانِ الْهُدَلِ (٤)
تَمَطَّرَ فَاسْتَوَلَى عَلَى أَمَدِ الْخَصْلِ (٥)
يَتَصَهَّالُهُ مَا نَالَهُ مِنْ أَذَى الشَّكْلِ (٦)
ثَوَى صَافِنًا فِي مَرْبَطِ الْهُونِ يَشْتَكِي

(١) يرف - بالكسر - يبرق ويتلألأ ، أى يلوح لألاء بشره مع التأميل كما يبدو بريق السيف ولمعانه حين تصقله وتجلوه .

(٢) تمل مضارع أمل : يقال أملاه القول وأمله أغماه عليه ليكتبه ، ومنه قوله تعالى : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه » وقوله تعالى : « فليمل وليه بالمدل » واستعملته السكبان طلبت أن يمليه على ، أى هذه محاسن المدوح الشبيه بالبدر لا عيب فيها سوى أنها باتت تملى على الشاعر وهو يكتب ، ويستكتبها فتمليه .

(٣) تنص ثنائى : أى تجمله ينص كما ينص الشارب بالماء فلا يمكنه أن يستوفي هذه المحاسن كلها أو يسفها ، وكما ينص سوارا لفتاة الراد أى التى ترود بيوت جاراتها بالمعصم الخذل - بالدال المهملة - أى المتلى فلا يتحرك (٤) الهوادل : جمع هادلة ، والهديل : صوت الحمام ، والهدل : جمع أهدل ، وهو صفة الأفنان ، يقال : تهدت أغصان الشجرة أى تدلت - يمتل شكوى رفعها إليه بالحمام الهوادل تناديه بهذيلا من أعلى شجرة الأدب وقد تدلت أفنانها ، وتهدت أفصانها .

(٥) استنت الجياد : مضت على وجهها فى السابق ، والمضى : الغاية تمطر : جاء إلى النابة مسرعا ، فاستولى على الحصن : غلب على الرهان - يصف الشاعر نفسه بالسبق على غيره .

(٦) ثوى : أقام ، والصائن : من الجياد الذى قام على ثلاثة قوائم وقلب حائر الرابعة ، والشكل - بفتح فسكون - شد قوائم الدابة بالشكال - يصف حاله فى محبسه وما يشه من الشكوى بحال الجواد المقيم على الهون يشكو بتصهاله ، أى شكاكه ، قال ابن بسام فى الذخيرة : « وقوله ثوى صافنا » كقول المتنبي :

« وإن تكن محكمات الشكل تمنعني ظهور جرى فلي فيهن تصهال . »

✱
✱

أَفِي الْعَدْلِ أَنْ وَافْتَكِ تَرَى رَسَائِلِي فَلَمْ تَتْرُكْ وَضْعًا لَهَا فِي يَدَيَّ عَدْلٍ
أُعِدُّكَ لِلْجَلِّي وَأَمَلُ أَنْ أَرَى بِنِعْمَتِكَ مَوْسُومًا وَمَا أَنَا بِالْغُفْلِ
وَمَا ذَاكَ وَعْدُ النَّفْسِ لِي مِنْكَ بِالْمُنَى كَأَنِّي بِهِ قَدْ شَمْتُ بَارِقَةَ الْمَحِلِّ (١)

✱
✱

أَنْ زَعَمَ الْوَأَشُونَ مَا لَيْسَ مَزْعَمًا تُعَذِّرُ فِي نَصْرِي وَتُعَذِّرُ فِي خَذْلِي
وَأَصْدَى إِلَى إِسْعَافِكَ السَّائِعِ الْجَنَى وَأَضْحَى إِلَى إِنْصَافِكَ السَّابِغِ الظِّلِّ (٢)
وَلَوْ أَنَّي وَاقَعْتُ عَمْدًا خَطِيئَةً لَمَا كَانَ بِدُعَائِي سَجَايَاكَ أَنْ تُثْمَلِي (٣)
فَلَمْ أَسْتَثِرْ حَرْبَ « الْفِجَارِ » وَلَمْ أُطِيع « مُسَيِّمَةً » إِذْ قَالَ: إِنِّي مِنَ الرُّسُلِ (٤)

(١) في معنى هذه الأبيات يقول ابن الرومي معاني :

« إذا أنت أزمعت الصنيعة مرة فلا تتهصر ماء الصنيعة بالمطل
ولا تخلط الحسنى بسوء فانه يحشمنا أن نخلط الشكر بالعذل
أترضى بأن تكني بسهل وأن ترى وما مطلب الخاجات عندك بالسهل
أنت لمشايق المسكارم أن ترى مواعيدهم مثل البوارق في المحل . »

(٢) أصدى : مضارع صدى - بالكسر - أى أعطش ، وأضحى مضارع كل من ضحا وضحي - بالفتح
والكسر - أى أبرز للشمس ، ومنه قوله تعالى : « وأنت لا تعلم فيها ولا تضحى » واستعمله هنا
في البروز إلى إنصافه السابغ الظل ، لا في البروز إلى الشمس ، وبعد هذا البيت وجد في الأصل بعض بيت
على هذه الصورة :

وحاشاك رام العذب لإبلاغ سمعه فضم

(٣) واقعت دأيت ، وتثمل ولا تتعجل العقوبة ، أى لو أننى دأيت متعمدا الوقوع في الخطيئة لم يكن
من سجاياك غير العفو والامهال .

(٤) يقول : إن هفتى صنية لا ينبغي أن تجسم إلى حد أن أكون كثير حرب الفجار أو كطبيع مسيلة
في دعواه الرسالة ، والفجار : بالكسر بمعنى المفاجرة كالقتال والمقاتلة ، وسميت حرب الفجار لأن العرب
جفروا فيها إذ قاتلوا في الأشهر الحرم ، وكانت للعرب قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم أربع فجارات
تخرها حرب الفجار التي ذكرت في كتب السير ، وكانت بين قريش ومن معها من كنانة ، وبين قيس عيلان
وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض أيامها وسنة عشرون سنة ولم يقاتل ولكنه كان ينبل على
أهله أى يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم ، وأما « مسيلة » فكان من خبره أن وفد مع قومه

وَمِثْلِي قَدْ تَهَمُّوْهُ نَشْوَةُ الصَّبَا
وَإِنِّي لَتَنْهَانِي نُهَائِي عَنِ الْقِي
وَمِثْلَكَ قَدْ يَمْفُوْهُ، وَمَا لَكَ مِنْ مِثْلٍ
أَشَادَ بِهَا الْوَائِي وَيَعْقِلُنِي عَقْلِي^(١)

أَأَنْكَثُ فِيكَ الْمَدْحَ - مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ -
ذَمَّتْ إِذَا عَهْدَ الْحَيَاةِ وَلَا يَزَلْ
وَمَا كُنْتُ بِالْمُهْدَى إِلَى السُّودِ الْخَنَاءِ
وَمَا لِي لَا أَتْنِي بِالْآءِ مُنْعَمٍ
هِيَ النَّعْلُ زَاتِي، فَهَلْ أَنْتَ مُكْذِبٌ
وَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تَشْفَعَ الطَّوْلَ شَافِعًا
وَلَا أَقْتَدِي إِلَّا بِنَاقِضَةِ الْغَزْلِ !^(٢)
مُمرًا عَلَى الْأَيَّامِ طَعْمُهُمَا الْمَحْلِي^(٣)
وَلَا بِالْمُسَىءِ الْقَوْلِ فِي الْحَسَنِ الْفِعْلِ
إِذَا الرَّوْضُ أَتْنِي بِالنَّسِيمِ عَلَى الطَّلِّ
لِقِيلِ الْأَعَادِي إِنَّهَا زَلَّةُ الْحُسْلِ^(٤)
فَتُنْجِحَ مَيْمُونِ النَّقِيبَةِ أَوْ تُتْلِي^(٥)

« بنو حنيفة » عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما رجع ومن معه من قومه إلى « اليمامة » ادعى النبوة ، وأنه أشرك مع محمد بالأمر ، واجتمع عليه « بنو حنيفة » وكانوا أربعين ألف مقاتل ، وفي عهد الخليفة « أبي بكر » رضى الله عنه أرسل إليه « خالد بن الوليد » على رأس جيش ، وجرت حرب بين الفريقين انتهت بقتل « مسيلة » وتفرق أصحابه .

(١) نهائى أى عطفى فاسد عمله مفردا ، قال فى اللسان : « والذهى العقل يكون واحدا وجما ، وفى التزويل العزيز : إن فى ذلك لآيات لأولى الذهى » اهـ ، وكان عليه حيث اعتبره مفردا وأضافه إلى نفسه أن مجرد الفعل من علامة التأييد إلا أن يكون قد أراد جمع نبيه ، وأن عقله لقوته بثابة نهى متعددة ، عن التلى : أى التهمة التى ، أشاد بها : أشاعها وندد بها ، ويعقلنى يحبسنى ويعتقنى .

(٢) ناقضة الغزل ، فى الكشف عند قوله تعالى : « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا » قيل هى ربطة بنت سعد بن تميم وكانت خرقاء اتخذت مغزلا قدر ذراع ، وصنارة مثل أصبع ، وفلكة عظيمة على قدرها ، فكانت تغزل هى وجواربها من النداء إلى الظهر ، ثم تأمرهن فينقضن ماغزلن .

(٣) ممرًا من أسر الطعام صيره مرا ، والمحلى اسم مفعول من حليت العيش أحلاه أى استعليلته .

(٤) الخسة والدناءة ، والحسل - بالكسر - ولد الضب ، ويكنى الضب : « أبا الحسل » .

(٥) تشفع : من قولهم شفع الوتر من العدد شفعا صيره زوجا ، والطول : القدرة والفضل ، وتلى : تتبع مضارع أتليه بإياه أتبعته ، والمعنى هل لك أن تضم إلى طولك وإحسانك شافعا منك يشفع لى فى الخلاص من السجن فتدفعنى بإدراك حاجتى فى حال كونك ميمون النقية أو تتلى أى تتبع الاحسان والشفاعة بأمثالهما : هذا مبالغ مايفهم من البيت ، وقد وجد فى الأصل « تبلى » بالياء الموحدة ، وقد فهمنا من السياق أنها تتلى لا تبلى ليناسب قوله « تشفع » أى تضم .

أَجْرُ أَعْدٍ آمِنْ أَحْسَنِ أَبْدَأُ كُنْ حُطَّ تَحَفَّ أَبْسُطِ اسْتَأْفِ صُنْ أَحْمِ اصْطَنِعْ أَعْلِ^(١)
مُنَى - لَوْ تَسَنَّى عَقْدُهَا يَبْدِ الرِّصَا - تَبَسَّرَ مِنْهَا كُلُّ مُسْتَضْعَبٍ الْحَالِ^(٢)

إِلَّا إِنْ ظَنَى - بَيْنَ فِعْلَيْكَ - وَاقِفٌ وَقُوفَ الْهُوَى بَيْنَ الْقَطِيعَةِ وَالْوَصْلِ^{***}
فَإِنْ تُتَمَنَّ لِي مِنْكَ الْأَمَانِي فَشِيَمَةٌ لِذَلِكَ الْفَعَالِ الْقَصْدِ وَالْخُلُقِ الرَّسْلِ^(٣)
وَالْأَجْنِيَتْ الْأَنْسَ مِنْ وَحْشَةِ النَّوَى وَهَوْلِ السَّرَى بَيْنَ الْمَطِيَّةِ وَالرَّحْلِ^(٤)

سَيَعْنِي بِمَا ضَيَّعْتَ مِنِّي حَافِظٌ وَيُلْقِي لِمَا أَرَخَصْتَ مِنِّي خَطَرِي مُغْلِي^{***}
وَأَيْنَ جَوَابُ عَنْكَ تَرْضَى بِهِ الْعَلَا إِذَا سَأَلْتَنِي بَعْدُ أَلْسِنَةُ الْحَفْلِ^(٥)

(١) في هذا البيت كما يرى القاريء محاكاة لقول المتنبي ، وقد سئل بيتاً يتضمن أكثر ما يمكن من الحروف ، فقال :

« حش ، ابق ، اسم ، سد ، جد ، قد ، مر ، انه ، اسر ، فه ، تسل »

غظ ، ارم ، صب ، احم ، اغز ، اسب ، رع ، زع ، دل ، اثن ، تل
وهذا دعاء لو سكت كفيته لأنني سألت الله فيك ، وقد فعل .
وخير من هذه المعازلة قول ابن الرومي :

« ألتني ، ورفعتني ، وأجزل مثوبي وثابر علي إدرار برى وواظب
لئلا تبني جسدواك - وهي سليمة من الظم - ما فيها اعتلال لما لب . »

(٢) لو تسنى : أي تسهل وتيسر لإحكام أمر تلك التي بيد الممدوح لتسهل منها ما استصعب حله .

(٣) تمنى : تقدر من مناه الله بعينه قدره ومنه قول الشاعر :

« لا تأمن الدهر في حل وفي حرم إن المنايا توافي كل إنسان »

واسلك طريقك فيها - غير محتشم - حتى تلاق ما يعني لك الماني .

أي يقدر لك القادر ، والفعال - بالفتح اسم جامع لكل فعل حسن ، والقصد المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ، والرسل - بالكسر - الرفق والتؤدة يقال أفل كذا على رسلك أي دلي هينتك وليس مراداً هنا بل المراد الرسل - بالفتح - أي السهل يقال سبر رسل أي سهل .

(٤) وإن لم يقدر الله حصول تلك الأمانى على يديك ولم تبحر على عادتك وخلفك في إسعافى بمحاجتى فأخلق سراحي لأضرب في الفيافي وأجنى من وحشة النوى وهول السرى أنسا .

(٥) وأين جواب عنك أي بماذا يكون جوابى عنك إذا سئلت عما أسديت من معروف أو قدمت من معونة . قال ابن بسام في باب الموازنة والنقد : « وأين جواب فيك ترضى به العلاء » مأخوذ من قول الآخر :

« فاختر لفك ما أقول فاني لا بد أخبرهم وإن لم أسأل . »

جواب

« كتب اليه الوزير الكاتب أبو بكر بن القصيرة
في يوم أخذه فيه دواء :
مَوْلَايَ نَفْسِي إِلَى مُطَالَعَةِ الْ
حَسَنِيِّ بِعَقَبِي الدَّوَاءِ مُطْلَعَهُ
وَكَيْفَ ذَلِكَ الْحَسَنِيِّ الذِّكْرِي، وَقَدْ
بَاشَرَ تِلْكَ الْمَذَاقَةَ الْبَشْعَهُ
وَدِدْتُ كَلُؤَاتِي خُصَصْتُ بِمَا اسَّ
تَبَشَّعْتُ مِنْهُ، وَخَرْتُ مُنْتَفِعَهُ
أَعْقَبَكَ اللَّهُ مِنْ فُظَّاعَتِهِ
أَسْوَعُ صُنْعٍ فِي مِثْلِهِ صُنْعَهُ
بِصِحَّةِ تَصَحُّبِ الزَّمَانِ فَتَهُ
لِيهِ، وَنَتَقَى جَدِيدَهُ نَصْعَهُ
فَإِنَّتِ رُوحَ الْعَلَاءِ نَسَاءَهُ
لَهُ، وَشَمِلَ الْوَفَاءِ لَا صَدْعَهُ

جوابه ابن زيدون : «

قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ فِي الذِّنَى صُنْعَهُ عَارِضُ كَرْبٍ بِالْطُّفَةِ رَفْعَهُ
تَبَارَكَ اللَّهُ إِنَّ عَادَةَ حُسْنَانَهُ - مَعَ الشُّكْرِ - غَيْرُ مُنْتَزَعَةٍ

المُسْتَبَدُّ
* *

يَاسِيدِي الْمُسْتَجِدَّ (١) مِنْ مَقَتِي (٢) بِخُطَّةٍ فَاتَتْ الْحِسَابَ سَعَهُ
وَأَفَانِي الْعِقْدُ - زَيْنَ نَاطِمُهُ - وَالْوَشْيُ لَأَرَاعَ حَادِثُ صُنْعَهُ (٣)
بَثَّتْ فِيهِ الْبَدِيعَ مُنْتَقِيًا كَالرَّوْضِ إِذْ بَثَّ فِي الرُّبَا - قِطْعَهُ

(١) في الأصل : المستبد . (٢) من مقتي . (٣) صائمه .

(١) اسمية : تصرفه

أَزَاحَ كَرَبَ الدَّوَاءِ مَطْلَعُهُ لَمَّا بَدَأَ طَالِعُ السُّرُورِ مَعَهُ ^(١)
 كَمْ دَعْوَةٍ - قَدْ حَوَاهُ - صَالِحَةٍ ، مِنْ أَمَلِي أَنْ تَكُونَ مُسْتَمَعَةً ^(٢)
 مُجَلَّةٌ مَا نَفْسُكَ السَّرِيَّةُ مِنْ حَا لِي إِلَى عِلْمِ كُنْهِهِ طُلْعَةٍ
 أَنْ الدَّوَاءِ التَّدَّتْ عَوَاقِبُهُ مِنْ نَفْسٍ تَبَشَّعَتْ جُرْعَةً ^(٣)
 فَالْحَمْدُ لِلَّهِ - لَا شَرِيكَ لَهُ - إِنْ بَدَأَ الطَّوَلُ مُنْعِمًا شَفَعَةً

حبيب

وَرَامِشَةً ^(٤) يَشْفِي الْعَلِيلَ نَسِيمَهَا مُضْمَخَةً ^(٥) الْأَنْفَاسِ طَيِّبَةَ النَّشْرِ ^(٦)
 أَشَارَ بِهَا نَحْوِي بَنَانٌ مُنْعَمٌ لِأَغْيَدِ مَكْحُولِ الْمَذَامِعِ بِالسَّحْرِ ^(٧)
 سَرَتْ نَضْرَةً - مِنْ عَهْدِهَا - فِي غُصُونِهَا وَعُلَّتْ بِمِسْكٍ مِنْ شَمَائِلِهِ الزُّهْرِ
 إِذَا هُوَ أَهْدَى الْيَاسَمِينَ بِكَفِّهِ أَخَذَتْ النُّجُومَ الزُّهْرَ مِنْ رَاحَةِ الْبَذْرِ
 لَهُ خُلُقٌ عَذْبٌ وَخُلُقٌ مُحَسَّنٌ ^(٨) وَظَرْفٌ كَعَرَفِ الطَّيِّبِ أَوْ نَشْوَةِ الْخَمْرِ ^(٩)
 يُعَلِّلُ نَفْسِي مِنْ حَدِيثٍ تَلَذُّهُ كَمَثَلِ الْمُنَى وَالْوَصْلِ فِي عُقْبِ الْمَجْرٍ ^(١٠)

- (١) لما بدا شعرك الجليل ومعه طالع السرور أنساني سرارة الدواء .
 (٢) كم دعوة حواها شعرك ادعو الله أن نكون مستجابيه .
 (٣) كانت طاقبة الدواء حميدة وإن جرعت نفسى من شربه .
 (٤) فى الناموس الرمش : الطائفة من الريحان ونحوه . وفى شفاء الغليل ، رامشه : قال الصولى فى ورقة آس لها رأسان . قال أبو نواس :
 « لها روامش ينتحين لنا تظل آذاننا مطاياها . »
 (٥) ممطرة . (٦) طيبة : الرائحة .
 (٧) رب طاقة من الزهر ممطرة الشذى طيبة الأنفاس قدمها إلى من أهواه .
 (٨) خلقة حسنة . (٩) يعنى أن سحر عيذه يفعل فى النفس ما يفعله الطيب أو الخمر .
 (١٠) العقب : ضممتين ، والعقب بضم فسكون العاقبة مثل صبر وعسر . قال تعالى : « هو خير ثوابا وخير عقبا . »

في مدح ابن جهور

« قال يمدح ابن جهور ويذكر جوار الميرمه ، وأملأ ضيقه ، ويتمنى إنجاحه في طلبته ، وإسماعفه بأمنيته . »

« جَنَاحِي » فِي جِوَارِكُمُ الدَّلِيلُ وَحَدَى فِي رَجَائِكُمُ الْكَالِيلُ ^(١)
نَصِيبٌ مِنْ وَلَايَتِكُمْ كَثِيرٌ وَحَظٌّ مِنْ عِنَايَتِكُمْ قَلِيلٌ !
لِمُخْتَلِفَاتٍ مِنْ حَالٍ مَهْمَا أَجَالُ الْفِكَرِ بَيْنَهُمَا مُجِيلٌ ^(٢)
أَتَحْيَا أَنْفُسُ الْأَمَالِ فِيكُمْ وَلِي - أَثْنَاءَ هَا - أَمَلٌ قَتِيلٌ ؟ ^(٣)
وَأَعْجَبُ حَادِثٍ نَظَرِي لَدَيْكُمْ إِلَى غَلَلِ النَّجَاحِ وَبِي غَلِيلٌ ! ^(٤)
وَقَدْ حَيَّ فِي وِدَادِكُمْ مَعْلَى وَبَاعِي فِي أَعْتَادِكُمْ طَوِيلٌ ^(٥)
وَكَاثُنٌ لِي ثَنَاءُ رَاحَ يَثْنِي إِلَيْهِ الْمُطَفُّ مَجْدُكُمْ الْأَمِيلُ ^(٦)

(١) وجد هذا البيت في نسخة الديوان على هذه الصورة .

..... في جواركم الدليل وحدي في رجائكم الكاليل

والتكملة من عندنا كما يعطها السياق .

(٢) يقول : إن حالي لاختلافان عند إجابة النظر ، فنصيب من ولايتكم ونصرتكم وحي لسكم كثير ، وحظي من عنايتكم وتقدمكم قليل .

(٣) ينكر عليهم أن تكون آمال الناس حية بسببهم وأمله بينها كالأقetil بين الأحياء .

(٤) الدال : السبيل الضعيف الذي يجري في أصول الشجر فيروها قبل أن تضعف ، والدليل : العطش أي وأعجب ما حدث لي أن أنظر إلى مسيل ماء من ناحيتكم فيه نجاحي وانتعاش أقال ، وبني ظمأ شديد فيحال بيني وبين ما يبرد غلتي ويشق غليلي .

(٥) المعلى من قداح الميسر العشرة ، والفدح : بالكسر اسم للسهم ، وكانت قداح الميسر عندهم معروفة بعلامات خاصة ، يضمنونها في خريطة على يدي عدل يحولها ويخرج باسم كل واحد من اليا مرين قدحا ، فان كان غللا أي لا نصيب له غرم صاحبه ، وإن كان من ذوات الانصبا ، أخذ نصيبه بحسبه ، والذي يخرج له الفدح المعلى إما أكبر فائز بأوفر نصيب لأن له سبعة أنصبا ، وكانوا يتقامرون على جزور يفتسمونها والذي يخرج لهم من الانصبا ، يوزعون على الفقراء .

(٦) وك من ثناء ومدح راح يثنى إليه مجدكم التناصل عطفه .

تَنَافُسُهُ الرِّيَاضُ مُنَوَّرَاتٍ تَنَفَّسَ عَنْ نَوَافِحِهَا الْأَصِيلُ^(١)
 «أَبَا الْحَزْمِ» الزَّمَانُ - بِأَنْ تُدْنَى[✱] إِذَا عُدَّتْ فَوَاضِلُكُمْ - بِخَيْلٍ^(٢)
 عَلَوْتَ النَّجْمَ إِذْ مَلَ الْمُسَامِي وَحُزَّتْ الْخُصْلُ إِذْ كَلَّ الرَّسِيلُ^(٣)
 رَأَيْتُ النَّاسَ - مَا أَصْبَحْتَ فِيهِمْ - بَلَاءُ اللَّهِ عِنْدَهُمْ حَيْلُ
 وَمَاءُ الْعَيْشِ يَنْتَهُمُ فَضِيضٌ وَظِلُّ الْأَمْنِ فَوْقَهُمْ ظَمِيلُ^(٤)
 وَلَوْ فَقَدُوا - لَا فَقَدُوا - حَوَاهِمُ مَرَادٍ مِنْ زَمَانِهِمْ وَيَيْلُ^(٥)
 وَشَاقَ نُفُوسَهُمْ رَسْمُ مُحِيلٍ - مِنَ الدُّنْيَا - وَعَهْدُ مُسْتَحِيلٍ^(٦)
 فَخَاصِرُ دَوْلَةٍ تَفْنَى لِلْيَالِي وَلَمْ يُلَمِّمْ بِسَاحَتِهَا مُدِيلُ^(٧)
 وَلَا زَالَتْ نِبَالُ الدَّهْرِ تُصْمِي عُدَاتَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّبِيلُ
 أَيْدُسُ مِنْ مُسَاعَفَةِ اللَّيَالِي وَأَنْتَ - إِلَى نِهَائِهَا - سَبِيلُ؟

- (١) النوافح : جمع نافحة وأراد بها ألقاس الرياض التي تحملها نسبات الأصيل فتفوح منها نفحات طيبة ، يقول إن ذلك الثناء الطيب تنافسه الرياض وهي منورات قد تنفس الأصيل عن نوافحها أى ما يفوح من طيب روائحها ، ويجوز أن يكون عن نوافحها جمع نافحة المسك . (٢) ثناه بثنيه جعل له ثانيا ، أى يا أبا الحزم الزمان بخيل بأن يعد لك ثانيا في الفضل إذا عدت فواضلكم .
- (٣) حزت الخصل : أى أحرزت النبل في الرهان أو أدركت الغاية في السبق ، والرسيل المناضل ، أو المسابق ، وقد جاء في الأصل «المسامي» فوضعنا في مكانها «المسامي» كما يرشد إليه المعنى .
- (٤) الفضيض : الماء العذب الكثير المتدفق ، أو ماء السحاب الغزير المتفرق ، وظل ظليل : أى دائم لا ينسخه الضح . (٥) مراد - بالفتح - اسم مكان من رادت الأبل تروء ، أى اختلف ذهابها ومجيئها في المرعى ، والوبيل الوجيم الذي لا يستمر ، والمعنى : لو فقدوك - لا قدر الله - ولم يستظلوا بظل دولتك لاحتواهم من زمانهم مرعى وبيل فلم يهنأ لهم عيش ولم ينعم لهم بال .
- (٦) الرمم ما بقي من آثار الدار بعد ارتحال ساكنيها ، والمحيل : المتقادم العهد الذي مريت عليه أحوال ، والمستحيل : المتغير ، أى لو فقدوك لاستوخوا العاقبة ، ولذا زعمهم نفوسهم - إذا استمرروا فقدك ولم يقوموا بنصرتك - إلى دنيا تحول جديتها إلى بلى ، وشبابها إلى هرم ، وتغير عهدها من سعادة وهناء إلى محنة وشقاء . (٧) المحاصرة أخذ الرجل بيد صاحبه إذا ماشاه ، ومنه قوله : ثم خاضرتها إلى القبة الخضر راء تمشي في مرمر مسنون معناه ماشيتها إلى القبة الخضراء تمشي على مرمر مجلس ، والمديل المتغلب الذي تنتقل إليه الدولة ، يدعوا للدعوى ببقاء الدولة له من غير تحول ولا انتقال .

إلى المظفر

« كتب إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر محمد بن
عبد الله بن محمد بن مسلم صاحب بطليوس . »

لَبِيضِ الطَّلَى وَلِسُودِ اللَّمَمِ بَعْقَلِي - مُذْنِبٌ عَنِّي - لَمَمٌ ^(١)
فَنِي نَاطِرِي - عَنْ رَشَادٍ - عَمَى وَفِي أُذُنِي - عَنْ مَلَامٍ - صَمَمٌ ^(٢)
قَضَتْ بِشِمَاسِي عَلَى الْعَاذِلِينَ شُمُوسٌ مُكَلَّلَةٌ بِالظُّلَمِ ^(٣)
فَاسْقَمَتِ لَحَظَاتُ الْعُيُوفِ نِ إِلَّا لِتُغَرِّبَنِي بِالسَّقَمِ
يَلُومُ الْخَلِيَّ عَلَى أَنْ أَجَنَّ وَقَدْ مَرَجَ الشَّوْقُ دَمْعِي بِدَمٍ ^(٤)
وَمَا ذُو التَّذَكُّرِ مِمَّنْ يُلَامُ وَلَا كَرَمُ الْعَهْدِ مِمَّا يُذَمُّ ^(٥)
أَوَانِي أَرَاخُ إِذَا مَا الْجَنُوفِ ب رَاحَتِ بَرِيًّا جَنُوبِ الْعَلَمِ ^(٦)

- (١) الظلاة : بضم الظاء هي العنق والجمع طلى مثل نقاة وتقى ، واللمم : بكسر اللام جمع له - الشعر المجاور شحمة الأذن - لم بفتح اللام - الجنون .
- (٢) في هذا البيت والذي قبله يقول الشاعر أنه عمى عن الرشاد وصمم عن الملام وصار في حال جنون مذ بان وبعد عنه الحسان بيض الأعناق سود اللمم .
- (٣) شمس الفرس شموسا وشماسا منع ظهره - العرب تقول روضة مكلاة ، يعني محفوفة بالنور ، فقول الشاعر : شموس مكلاة : أي مجللة ببلل الشعر الأسود - وهذا البيت بمثابة التكملة لوصف حالته في البيتين السابقين فكأنه يقول وكما عميت عن الرشاد وصممت عن الملامة كذلك فقد قضى على هذا الجمال أن أشمس على العاذلين . (٤) الخلى : كغنى الفارغ ، وفي المثل العربي القديم « ويل للشجي من الخلى » .
- (٥) انتقل الشاعر لتبرير جنونه في غرامه وفي دموعه التي مزجت بالدم فألزم لونه بالحجة وقذف في وجوههم بالبرهان الذي ليس وراءه برهان ، فقال : إن بكائي وحنوني ولوعتي كل أولئك لا لوم فيه ولا بأس منه في سبيل الذكرى والحفاظ بالعهد فليس كرم العهد مما يذم ، وفي القرآن الكريم : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا »
- (٦) أراح - استريح - ربح الجنوب هي المقابلة لريح الشمال - « راحت » - من الرواح ، وهو ضد الغدو يقول : إنى لكثرة تذكرى الأحبة ولكثرة حفاظي بهودهم أستريح إذا ربح الجنوب عادت إلى براحة أمكنتهم المقدسة المحبوبة .

وَأَصْبُوْا لِعِرْفَانَ عَرَفَ الصَّبَا وَأَهْدَى السَّلَامَ إِلَى «ذِي سَلَمٍ»^(١)
وَمِنْ طَرَبٍ عَادَ نَحْوَ «الْبُرُودِ» قِ «أَجْهَشْتُ لِلْبَرْقِ حِينَ ابْتَسَمَ»^(٢)
أَمَّا وَزَمَانٍ - مَضَى عَهْدُهُ حَمِيدًا - لَقَدْ جَارَ لِمَا حَكَمَ
قَضَى بِالصَّبَابَةِ ثُمَّ انْقَضَى وَمَا اتَّصَلَ الْأَنْسُ حَتَّى انْصَرَمَ^(٣)
لِيَالِي نَامَتْ عِيُونُ الْوُشَاةِ عِنَّا ، وَعَيْنُ الرِّضَى لَمْ تَنَمْ^(٤)
وَمَالَتْ عَلَيْنَا غُصُونُ الْهُوَى فَأَجْنَتْ ثِمَارَ الْمُنَى مِنْ أُمَمٍ^(٥)
وَأَيَّامُنَا مُذْهَبَاتُ الْبُرُودِ رِقَاقُ الْحَوَاشِي صَوَافِي الْأَدَمِ^(٦)

(١) أصبو - أمل - وعرفان - معرفة ، والعرف هو الشذى . يقول : أنى أيضا أمل صبوة وحبا إذا هبت الصبا - ربح الشمال - لأنها معطرة بشذى من يحبهم ويهواهم فيهدى السلام إلى ذى سلم الموضع الذى حملت منه الصبا ذلك الشذى المحبوب .

(٢) أجھشت : ارتفع صوتى باكيا ، يقول : كما أنى أسترخى للجنوب إذا طادت برياً ربح الدلم وأصبو إلى شذى الصبا كذلك أبكى من طرب يماودنى إذا ابتدم البرق ولمع ، والمعنى فى هذه الأبيات أنه يستريح لـكل قادم من جهات أحبته لأن فى ذلك نوما من الذكرى . ولانظن شاعرا لم يبك لا بتسام البروق ولم ينش من ربا الصبا والجنوب .

(٣) انصرم : هو القطع ، والمعنى أن الزمان الذى مضى حميدا حاد عن العدل حين حكم وهل أقل من وسم هذا الزمن بمجانفة العدل ، وهو الذى ما كاد يقضى لنا بالصباية والاستمتاع حتى انقضى وشيكا ، وما كادت تنصل أوقات الأنس حتى صرمة عنا وحال بيننا وبينه .

(٤) الوشاة : فى الأصل هم الذين يعيشون بالشر والسعاية فيذبعون الأسرار ، والراد بهم هنا الخصوم على الإطلاق والمراد بعين الرضى حالة السعادة التى ينعم بها المحبوب فى ساعات الوصال ، وكأنك بالشاعر فى هذا البيت شرع يفصل الصباية التى انتفضت والانس الذى انصرم ، فقال : ليالى نامت عيون الوشاة إلى آخر هذا الوصف الذى يتخلص به إلى المديح فى أبى بكر .

(٥) أجنت ثمار المنى : أى أعطت ، والأمم هو القرب ، تقول : رأيته من أمة ، أى من قرب ، يقول أيضا فى تفصيل الأنس الذى انصرم : ومالت علينا غصون الهوى أى وليالى ظلماتنا هذه النصوص - فجئنا منها ماشئنا -

(٦) منزهات البرود : أى مموهة البرود - جمع برد - بالذهب ، وقوله « رقاق الحواشى » كناية عن رقة وخضرة العيش فى تلك الأيام ورغده ، وكذلك قوله صوافى الأدم ، والأدم هو الجلد . فالالتمنى :

« فبأيما قدم سعت إلى العلا أدم الهلال لأخصيك حذاء . »

كَأَنَّ «أَبَا بَكْرٍ» الْأَسْلَمِيَّ أَجْرَى عَلَيْهَا فِرْنِدَ الْكَرْمِ^(١)
 وَوَشَّحَ زَهْرَةَ ذَلِكَ الزَّمَانِ بِمَا حَازَ مِنْ زُهْرٍ تِلْكَ الشَّيْمِ^(٢)
 هُوَ الْحَاجِبُ الْمُعْتَلِي لِلْمَلَا شَمَارِيخَ كُلِّ مُنِيفٍ أَشْمِ^(٣)
 مَدِيكَ إِذَا سَابَقَتْهُ الْمُلُوكُ حَوَى الْخِصْلَ أَوْ سَاهَمَتْهُمْ^(٤)
 فَأَطَوْهُمْ - بِالْأَيْدِي - يَدًا ، وَأَثْبَتَهُمْ - فِي الْمَعَالِي - قَدَمَ^(٥)
 وَأَرْوَعَ لَا مُعْتَنِي رِفْدِهِ[✱] يَحْبِيبُ وَلَا جَارُهُ يُهْتَضَمُ^(٦)

(١) كأنَّ أبا بكر الأسلمي أجرى مجازاً جوده وديباجة كرمه على تلك الليالي والأيام التي نامت عنها هيون الوشاة وظلته غصون الهوى فيها ، وهذا مما يفعل للشعراء كثيراً تخلصاً من النزل والذنب إلى المدح وهو ما يسميه علماء البديع : حسن التخلص .

(٢) وكانَّ أبا بكر بما أحرز من شمائل يبيض كأنها زهر النجوم قد وشح تلك الأيام بما وشحها به من نضرة وحسن .

(٣) شَمَارِيخُ : جمع شِمارِخٍ أو شِمارِخٍ - أعالي الجبال - كل منيف أشم : أى كل عال مرتفع . يقول : إنَّ أبا بكر هذا لا يقف في الملا عند حدٍّ فهو في سبيلها قد تسنم ذرا كل منيف ، وعلا فوق كل عال .

(٤) حوى الخِصْلَ : أحرز الشيء المعلوم الذي تراهوا عليه في السباق ، يعنى أحرز قصب السبق ، وساهمته : أى قارعته الملوك ونازلته فسهوهم أى غلبهم ، والمعنى : أن هذا الملك سابقه الملوك في المجد فأحرز دونهم قصب السبق ، وفارعه في مضمار النضال فقرعهم وغلبهم .

(٥) بِالْأَيْدِي : بالنعم ، وبدا : يريد بآءاً ، وهذا البيت توضيح أو تأكيد لسابقه أو هو بيان للميزات التي بها يغلب هذا الملك أقدار الملوك من أمثاله ويسبقهم .

(٦) الأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته كالرائع ، وقالوا في الأروع : إنه الرجل الكريم الحى النفس الذكي الجميل الذى يروعك بحسنه ، ويعجبك إذا رأيته ، والمعنى : كالماعى كل من جاء يطلب رفقاً وعطاء وفضلاً ، قال الأعشى :

« تطوف العفافة بأبوابه طواف النصارى بيت الوثن . »

وقال مسلم بن الوليد :

« ترى العفافة عكوفاً حول حجرته يرجون أروع ربح الباع بساما . »
 وقال أبو تمام :

« كم أعطيت راحتاه من نسب سلامة المعتنين في عطبه . »

والرغد : العطاء - وقوله لا معتنى - فى التاموس اعنت الابل اليبس واستعنت أخذته بلسانها فوق التراب مستصفاً له ، والرغد هو العطاء ولا جاره يهتضم هضم الجار وتهضمه بمعنى ظلمه يقول إن هذا الملك اجتمع له حسن الخلق فهو يعجب الناظر إليه بحسنه وجمال هيئته كما اجتمع له حسن الخلق ، لأنه لا يحبب طالب رفقده ولا يظلم جاره .

ذَلُولُ الدَّمَائَةِ صَعْبُ الْإِبَاءِ ثَقِيفُ الْعَزِيمِ إِذَا مَا اعْتَزَمَ ^(١)
 سَمَاءَ الْمَجَرَّةِ فِي أَفْقِهَا فَجَرَ عَلَيْنَهَا ذُيُولَ الْهِمَمِ ^(٢)
 وَنَاصَتْ مَسَاعِيهِ زُهْرَ النُّجُومِ وَبَارَتْ عَطَايَاهُ وَطْفَ الدِّيمِ ^(٣)
 نَهَيْكَ إِذَا جَنَّ لَيْلُ الْعِجَاجِ سَرَى مِنْهُ فِي جُنْحِهِ بَدْرُ تَمِّ ^(٤)

(١) الدماءة سهولة الخلق - وقوله ثقيف العزيم - ثقف إذا صار حاذقا حصيفا فطنا، وثقيف إذا عظمت فيه هذه الصفات ، والعزيم والعزيمة والعزم واحد ، يعنى أن المدحوخ مع ما تقدم من صفات رجولته وسمو فروسته وبطولته ليس بمتكبر ولا متعجرف ، وإنما هو سهل الخلق دمث الطبع ولكن في إباء ، كما أنه كثير الحدق والفتنة منتقف العزيم إذا ما اعتزم الأمور أو طلب القنائس والرباب .

(٢) المجرة : إحدى كواكب السماء فهذا المدحوخ قد سما للمجرة أى علا إليها وزاد عليها بما لو الهمم التي فصلها بقوله في الأبيات السابقة لامتحنى رفته يحجب ولا جاره يهتضم وأنه إذا سابق الملوك فليهم ، وأنه أطولهم يدا ، وأثبتهم قدما ، وليس للمجرة من المآثر في الناس ما يعادل ما آثرهم هذا المدحوخ .

(٣) ناصت مساعيه زهر النجوم : أى أن مساعيه ارتفعت حتى ساوت النجوم الزاهرة كالمجرة والنثرة والأكايل ، وقوله وطف الديم ، وطف : جمع وطفاء ، وهى السحابة المسترخية من المطر ، والديم : جمع ديمة ، وهى مطر يدوم فى سكون بلا رعد ، يقول : إن عطاياه تبارى السحب الممطرة الدائمة بلا جلبة ولا ضوضاء فكان هذا البيت برهان سابقه ، وكأنه يقول : لم لا تفضل على المجرة من هذه صفات مساعيه وسحب مبراته وعطاياه .

(٤) التهميك : الشجاع القوى المبالغ فى الشجاعة لأنه ينهك عدوه فيبلغ منه ما يريد ، جن ليل العجاج : كل ما ستر عنك فقد جن عنك ، والعجاج : الغبار المثار واحده عجاجه ، وجنح الليل - بكسر الجيم ويضم - الطائفة من الليل ، وبدر تم : هو القمر إذا أبدر فى ليلة تمامه أربع عشرة ، يقول : حسبك من هذا المدحوخ أنه إذا جن ليل الحرب سرى منه وجه مشرق أو سيف لامع يشبه البدر فى ليلة التمام يكشف ظلام هذا العجاج ، ويبين عن جبهة النصر والفوز ، فهو بعد أن فرغ من إثبات كرم ومدوحه ، وحسن خلقه بما يعلو به على مكانة النجوم ويزهو بقدره فوق هام السكواكب شرع يثبت له أنه فارس خيل ، وكاشف وبل ، وأنه لا يسطع بدر كلما ثارت عجاجة الهيجاء ، وادهمت الحرب الهوجاء .

فَشَامَ السَّيُوفَ بِهَامِ الْكُمَاةِ وَرَوَّى الْقَنَا فِي نُحُورِ الْبِهِمِ^(١)
جَوَادُ ذَرَاهُ مَطَافُ الْعُفَاةِ وَيُمْنَاهُ رُكْنُ النَّدَى الْمُسْتَلَمِ^(٢)
يَهِيْجُ النَّزَالُ بِهِ وَالسُّوَا لُ لَيْشَاهُ صُورًا وَبَحْرًا خُضَمِ^(٣)
شَهِيدَنَا ، لَأَوْتَى فَضْلَ الْخُطَابِ وَخُصَّ بِفَضْلِ النَّهْيِ وَالْحِكَمِ^(٤)
وَهَلْ فَاتَ شَيْءٌ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ جَرَى السَّيْفُ يَطْلُبُهُ وَالْقَلَمُ^(٥)

(١) فشام السيوف : معناه أغمدها أو سلها فهو من الاضداد ، ولكن يعين هنا أن يكون معناه أغمدها في هام الكمأة ، يقال شام الشيء في الشيء أدخله فيه أي جعل من رؤوس الكمأة أغمادا للسيوف - هام : جمع هامة ، وهي الرأس ، والكمأة : جمع كمي ، وهو الفارس المدجج في السلاح والقنا : جمع قناه ، وهي الرمح ، والبهيم : جمع بهيمة بضم الباء وسكون الهاء الشجاع الذي لا يهتدي من أين يؤتى - أو هو الجيش ، فهو يقول : إذا جن ليل العجاج وسرى من ذلك المددوح في تلك الداجية - بدرتم - هناك رأيت كيف يتمد السيوف في رؤوس الفرسان المدججين في السلاح ، ورأيت كيف تسقى الرماح من دم نخور الشجعان الذين لا تعرف ما آتيهم في الحروب .

(٢) يقول : ان مددوحي جواد وإن في داره مطافا وثابة للعفاة من طلاب الرغد والمطاء وإن يده اليمنى كأنها لكثرة ما تقبل من شفاه المرقودين أصبحت كالجعر الأسود المستلم الذي يقبله حجاج بيت الله الحرام .

(٣) الخضم : السيد المحول المعطاء . قال في القاموس : هو خاص بالرجال ومن معانيه البحر أيضا - النزال : بالسكر أن ينزل الفريقان المتحاربان عن إبلهما إلى خيلهما فيتضاربوا ، ويقال : نزال : كقطام ، أي انزل - لواحد والجمع والمؤنث ، والليلث من أسماء الأسد ، والمصور - كالمهصار - والمهصير - أمما ، للأسد أيضا ، وقوله « وبجرا خضم » ، وكذلك قوله في بيت سبق في هذه القصيدة نفسها : « فأطولهم بالأيدى يدا وأبئتهم في المعالي قدم »

أجرى فيه المنصوب المتنون في الوقف مجرى المرفوع والمجرور ، فوقف عليه بالسكون ولم يقف عليه بالألف . وذكر النحاة أن اللغة الفاشية من لسان العرب قلب التنوين ألفا في المنصوب المتنون عند الوقف نحو رأيت زيدا ، وبجرا خضما ، وربمة يجيزون إجراءه في لوقف مجرى المرفوع والمجرور ، قال الشاعر : « ألا حسدا غم وحسن حديثها فقد تركت ناي بها هائما دنف . » « وابن زيدون » على قولته ما كان ينبغي له أن يضطر إلى استعمال هذه اللغة القليلة في شعره . ومعنى البيت أن دعوة الحرب تهيج من هذا المددوح ليشاه صورا كما أن سؤال رفته وعطائه يهيج منه سيدا حولا لما يكلف معطاء لما يسأل كالبحر .

(٤) في هذا البيت الجناس بين فصل الخطاب وفضل النهي ، ومعنى البيت أن المددوح حكيم لا في غبا وبكم وذرب اللسان والمنطق ولكن لا في طيش وخفة ، وهذا فلما يتاح إلا لمن هيأهم الله لنصرة الحق والدفاع عن حوزة الدين ، وجدير بمن يؤتى فصل الخطاب وفضل النهي أن يشهد له زمنه ويعترف له بالزامة . والرياسة والفضل . (٥) يؤكد ما قاله في البيت السابق ، فيقول : هل ترك المددوح أوقات شيئا من المكرمات يمكن السيف والقلم إحرازه من غير أن يحرزه ؟



وَمُسْتَحَمِدٍ بِكَرِيمِ الْفَعَا لِي عَفْوًا إِذَا مَا اللَّئِيمُ اسْتَدَمَ^(١)

شَمَائِلُ شُهُجَرٍ عَنْهَا الشَّمُولُ وَتُجْفَى لَهَا مُشْجِيَاتُ النَّعَمِ^(٢)

عَلَى الرَّوْضِ مِنْهَا رُوءٍ يَرُوقُ وَفِي الْمِسْكِ طِيبٌ أَرِيحُ يُشَمُّ^(٣)



أَبُوهُ الَّذِي فَلَّ غَرْبَ الضَّلَالِ وَلَا أَمَّ شَعْبَ الْهُدَى فَالْتَأَمَ^(٤)

وَلَاذَ بِهِ الدِّينُ مُسْتَعَصِمًا بِذِمَّةِ أَبْلَجٍ وَافِي الدِّمَمِ^(٥)

وَجَاهِدَ - فِي اللَّهِ - حَقَّ الْجِهَامِ دِمْنِ دَانٍ - مِنْ دُونِهِ - بِالصَّنَمِ^(٦)

(١) مستحمد : أى منسوب إلى الحمد ، ويقال فعل الشيء ، عفواً أى من غير تعمل ولا طلب ، واستدم : فعل ما يذم عليه ، والمعنى فى هذا البيت أنه من طبيعته الاستحمام - عفواً - لأنه كريم الفعائل التى من شأنها أن تعود على صاحبها بالحمد ، وذلك فى الوقت الذى يصدر فيه أوم الأؤماء عفواً أيضاً . يقول إن ممدوحه فى الوقت الذى يبدو فيه أوم الأؤماء رغم أومهم وديانهم يظهر كرمه الفطرى وميوله الحفية التى ترغمه أيضاً على إحراز المحامد .

(٢) الشمول : من أسماء الحر - تجفى : تهجر ، والمعنى أن شمائل ممدوحه تغنى عن الحر والغناء الشجى لأنها يتغنى بها فتطرب ويتحدث عنها فتسكر .

(٣) الرواء الحسن - الأريج : الرائحة الطيبة ، يقول : إن هذه الشمائل تافى فى رواء الحسن الذى يروق الناظر فى الروض ، وكذلك تافى فيما يلد المعاطس فى الأريج الطيب المشوم من المسك .

(٤) فلَّ غرب الضلال : أى نلم حده الذى يشبه حدَّ السيف فى المضاء ، وقوله - ولا أمَّ شعب الهدى فاللتأم - معناه أصلح شعب الهدى فانصلح ، والمعنى أن أباه رأب صدع الهدى وفرق حزب الضلال وخضد شوكته .

(٥) الأبلج : هو كل واضح ، ويقال : أبلج الصبح وضع يقول بابى الممدوح احتفى الدين منه واعتصم بإوضح المسكنة وافي الدمم .

(٦) يقول : وإن أباهذا الممدوح أبلى البلاء الحسن فى الجهاد لله وفى مجاهدة من دان من دون الله بالصنم ، يعنى أنه عاش لله ولأوليائه عدواً لدوداً لأعدائه .

فَلَا سَامِيَ الطَّرْفِ إِلَّا أَذَلَّ وَلَا شَامِيخَ الْأَنْفِ إِلَّا رَغَمَ^(١)
تَقِيلَ فِي الْعِزِّ - مِنْ حَمِيرٍ - مَقَاوِلَ عَزُّوا جَمِيعَ الْأُمَمِ^(٢)
هُمْ نَاعَشُوا الْمُلْكَ حَتَّى اسْتَقَلَّ وَهُمْ أَظْلَمُوا الْخَطْبَ حَتَّى أَظْلَمَ
نُجُومُ هُدًى - وَالْمَعَالِي بُرُوجُ - وَأَسْدُ وَغَى وَالْعَوَالِي أَجَمَ^(٣)

☆☆

« أَبَا بَكْرٍ » أَسْلَمَ عَلَى الْحَادِثَاتِ وَلَا زِلْتَ مِنْ رَيْبِهَا فِي حَرَمٍ^(٤)
أَنَادِيكَ - عَنْ مِقَّةٍ - عَهْدُهَا كَمَا وَشَتِ الرُّوضُ أَيْدِي الرَّهْمِ^(٥)
وَإِنْ يَعُدُّنِي عَنْكَ شَحَطُ النَّوَى فَحَظِّي أَخْسَرَّ وَنَفْسِي ظَلَمَ^(٦)

(١) رغم : أرغم يقول : إنه لم يترك من أعدائه ، سامي الطرف إلا أدله ، ولا أشم الأنف إلا أرغمه ، ويقال رغم أنفه يعني أدله عن كبره بمعنى أرغمه .

(٢) تقيل أباه أشبهه - مَقَاوِلَ ومَقَاوِلَةٌ وأَقْيَالٌ وأَقْوَالٌ جمع مقول كبير أو جمع قيل - الملك من ملوك حمير - وأهو مادون الملك الأعلى ، وسمى قبلاً لأنه يقول ماشاء فينفذ ، وحينئذ فمعنى البيت أنه في عزه ومجده ومناعته أشبه أباه وأجداده من ملوك وأنبال حمير الذين سادوا وغلبوا جميع الأمم .

(٣) بروج السماء معروفه - الوغى : غبار الحرب أو الحرب - العوالى صدور الرماح - والأجهم بالضم وبضمين وبالتحريك جمع أجهم - محرك الشجر الكثير الملتف ، والمعنى أن المقاوله الأقيال أباه هذا المدوح كانوا في المعالي يشبهون النجوم في بروجها في السماء كما كانوا في الحروب يشبهون الأسد تظلمهم رماح كأنها أجهم الأسد .

(٤) يدعو له أن يظل في مأمن من أحداث الدهر ومصائبه ، وأن يظل في موضع لا تهتكه الحادثات ولا تصل إليه ريبها .

(٥) المقة : الهبة ، والرهْم : كعب جمع رهمه بكسر الراء وسكون الهاء وهي المطر الضعيف الدائم ويقال روضة مرهومة ، يقول الشاعر : أناديك نداء صادراً عن مقة ومحبة - عهدها في الجدة والشباب كما نقشت أيدى السحاب الماطر ، أديم الروض الناضر ، بألوان الربيع الزاهر .

(٦) عداه عن الأمر صرفه وشغله ، ويعدني عنك : يصرفني ويشغلي عنك ، والشحط : البعد ، والنوى الاغتراب . يقول : إذا كان الاغتراب يشغلي ويصرفني عنك فانه لم يرخص إلا حظي ولم يظلم إلا نفسي فضرر هذا البعد واقع بي وحدي وليس يقع منه شيء عليك .

وَإِنِّي لِأَصْفِيكَ مَحْضَ الْهُوَى وَأَخْنِي لِبُعْدِكَ بَرَحَ الْأَلَمِ ^(١)
وَعَايِرُكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الدُّمَامِ إِذَا حُسْنُ ظَنِّي عَلَيْهِ أَذَمَّ ^(٢)

وَمُسْتَشْفِعِ بِي بَشَرَتَهُ - عَلَى ثِقَةٍ - بِالنَّجَاحِ الْآتَمِ ^(٣)
وَقَدَمًا أَقَلَّتْ الْمُسَىءَ الْعِثَارَ وَأَحْسَنْتَ بِالصَّفْحِ عَمَّا اجْتَرَمَ ^(٤)
وَعِنْدِي - لِشُكْرِكَ - نَظْمُ الْعُقُودِ تَنَاسَقَ فِيهَا اللَّالِي التَّوَمَ ^(٥)
تُجِدُّ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ إِذَا لَبَسَ الدَّهْرُ بُرْدَ الْهَرَمِ ^(٦)
فَعِشْ مُعْصَمًا بِيَفَاقِ السُّعُودِ وَدُمُ نَاعِمًا فِي ظِلَالِ النِّعَمِ ^(٧)
وَلَا يَزَلِ الدَّهْرُ أَيَّامُهُ لَكُمْ حَشَمٌ وَاللَّيَالِي خَدَمَ ^(٨)

(١) محض الهوى : خالصة - والبرح : الشدة يدعم بهذا البيت معنى سابقه فيقول إني لأصفيك وأمحضك الهوى خالصا لاشائبة فيه وإني في بعديك لأشعر في نفسي بالألم المبرح واللوعة المرة ولكنني أخفي ذلك في حنايا الضلوع وفي موضع الأسرار من القلوب .

(٢) أخفر به : نقض عهده وغدره - الدمام : الحرمة ويجمع على أذمة ويقال - أذم له عليه أي أخذ له ذمة أي حرمة أو اجارة . يقول : إن غيرك يأبأ بكر هو الذي يخفر عهد الدمام ويضييعه ويفدر به إذا جعل حسن ظني وطيب قلبي له حرمة عندي أو أذما لي عليه ذمة .

(٣) يقول : ما بشرت المستشفع بي لديك بالنجاح إلا تم له مطلبه وقيل له ثق بنجاحك فقد تشبعت بالذي لا ترد شفاعته عند أبي بكر ولا يخيب له رجاء لديه .

(٤) قدما أي قديما وأقلت فلانا من كذا : يعني أعنيته منه واجترم أي أتى الذنب أو الجريمة والصفح هو العفو يقول وأنا نعرفك تقبل المآثر من عثرته وتغفر عن الباغي في جريمته .

(٥) التناسق هو الشأم حبات العقود ولآلئها واللائي التوأم أي المتشابهة ونسي الأواؤة التوأمية وتوأم النجوم واللؤلؤ ما تشابك منها يعمد الشاعر إلى تشويق المدح لافتناء مدائحه وشمره الذي يشبه العقود المنخومة المتناسقة بتوأم اللآلي .

(٦) أجد الثوب صيره جديدا : يعني أن نظم هذه العقود المنسقة يجد ويعيد إيراد الشباب من الفخر بها جديدة في الوقت الذي يلبس فيه الزمن ثوب الهرم ، أو أن ثغر المدح نفسه هو الذي يظل بتلك المدائح الجديدة .

(٧) يفاق : كسحاب التل والمقصود به هنا المرتفع يدعو المدح أن يعيش معتمدا بمرتفعات السعود وإن يدوم مظلا بالنعم الظليلة لوارفة .

(٨) حشم الرجل وحشمته الذين يفضول له من أهله وعبيده وجيرانه ، والحشم للواحد والجمع والخدم جمع خادم . يقول : لا زال الدهر خادما لك .

في نكبة بني ذكوان

«قل عند نكبة بني ذكوان وابن حذام
في سنة . ٤٤ هـ أربعين وأربعمائة .»

هَلِ النَّدَاءُ - الَّذِي أَعْلَنْتُ - مُسْتَمَعٌ أَمْ فِي الْمِثَالِ الَّتِي قَدَّمْتُ مُسْتَفْعٌ ^(١)
إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ حَظِّ يُسَوِّفُ بِي كَأَلْيَاسٍ مِنْ نَيْلِهِ أَنْ يَجْذِبَ الطَّمَعُ ^(٢)
تَأْتِي الشُّكُونُ إِلَى تَعْلِيلٍ دَهْرِيٍّ لِي نَفْسٌ - إِذَا خُودِعَتْ - لَمْ تُرْضِهَا الْخُدَعُ ^(٣)
لَيْسَ الرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا دَلِيلَ حِجَا فَإِنَّهَا دَوْلٌ أَيَّامُهَا مُتَعٌ ^(٤)
تَأْتِي الرِّزَايَا نِظَامًا مِنْ حَوَادِثِهَا إِذِ الْفَوَائِدُ فِي أَثْنَائِهَا لَمْعٌ ^(٥)
أَهْلُ النَّبَاهَةِ أَمْثَالِي لِدهْرِهِمْ بِقَصْرِهِمْ دُونَ غَايَاتِ الْمُنَى وَلَمْعٌ ^(٦)

(١) يقول : هل وصل إلى سمعكم ذلك النداء الذي أعلنت فيه شكواي ، أم هل فيما قدمته من مثال القصائد والرسائل غناء ونفع ، وهو بهذا الاستفهام ينكر أن تكون شكواه قد سمعت ، وأن تكون قصائده قد نفعت .

(٢) الطمع : ضد اليأس ، والمعنى : إني لأعجب من حظ امتدّ بي في فيه تسويف المدح ومطله ، حتى لقد أصبح شبيهاً باليأس منه طمع يجذبني إليه يريد أن الطمع فيه أخو اليأس منه
(٣) يقول : إن دهرى يملأني بنيل تلك الأمانى البعيدة ، ولكن نفسي لا تسكن إلى هذا التعليل لأنها لا تنخدع إذا خودعت .

(٤) الحجا : العقل والفطنة ، معناه أن الركون إلى الدنيا ليس فيه دليل على ذكاء وفطنة من يركن إليها لأنها زائلة متحولة ، والتمتع بها مفرور مفتون .
(٥) يقول : إن الرزايَا في هذه الدنيا تأتي على نسق ، تتابع من الحوادث التي يتخلل سوادها بصيص من لمع الفوائد .

(٦) القصر : الحبس والمنع ، والولع : مصدر ولع فلان بكذا إذا لَجَّ فيه وحرص عليه ، يعني أن الدهر مولع بالحيلولة بين النابه الشريف وبين بلوغ أمانيه .



لَوْلَا بَنُو « جَهْوَرٍ » مَا أَشْرَقَتْ هَمَمِي كَمَثَلِ بَيْضِ اللَّيَالِي دُونَهَا الدُّرْعُ ^(١)
 هُمْ الْمُلُوكُ مُلُوكُ الْأَرْضِ دُونَهُمْ غَيْدُ السَّوَالِفِ فِي أَجْيَادِهَا تَلَعُ ^(٢)
 مِنَ الْوَرَى إِنْ يَفُوقُوهُمْ فَلَا عَجَبُ لِذَلِكَ الشَّهْرُ مِنْ أَيَّامِهِ الْجُمُعُ ^(٣)
 قَوْمٌ مَتَى تَحْتَفِلُ فِي وَصْفِ سَوَدَدِهِمْ لَا يَأْخُذُ الْوَصْفُ إِلَّا بَعْضَ مَا يَدْعُ ^(٤)
 تَجْهَمُ الدَّهْرُ فَأَنْصَاتِ لَهُمْ غَرَرُ مَاءُ الطَّلَاقَةِ فِي أَسْرَارِهَا دُفَعُ ^(٥)
 بَاهَتْ وَجُوهُهُمُ الْأَعْرَاضَ مِنْ كَرَمٍ فَكُلَّمَا رَأَى مَرَأًى طَابَ مُسْتَمِعُ
 سَرَوْ تَزَاحَمُ فِي وَصْفِ الْمَدِيحِ لَهُ مَحَاسِنُ الشَّعْرِ حَتَّى يَنْتَهَا قُرْعُ ^(٦)

(١) الدرع : الليالي التي اسودت أوائلها وبيض سائرها ، والليالي البيض هي التي يطلع فيها القمر من أولها إلى آخرها ، أي لولا الجهاورة ما أشرقت همي إشرافا كاشراق الليالي البيض دونها في البياض الدرع أي الليالي التي أظلمت أوائلها .

(٢) غيد جمع أغيد : أي مائل ، والسوالف : جمع سائلة ، وهي صفحة العنق مما يلي الأذن ، والتلع : طول العنق وامتداده ، يقول : بنو جهور هم ملوك الأرض لا يدانيهم في المنزلة أولئك الملوك الذي أمالوا سوالفهم ، ومدوا أعناقهم خيلاء وكبرا .

(٣) أي هم من الوري وليس عجيبا أن يفوقوهم ، كما أن الجمع من أيام الدهر ولكنها تفوق سائر .

(٤) تحتفل : تبالغ يريد أنك مهما تبالغ في وصف سوددهم فلا يمكنك أن تثبت من صفاتهم في السيادة والمجد إلا جزءا صغيرا مما تدعه لكثرة ، وعجزك عن الإحاطة به .

(٥) تجهم : عبس وتكرت أيامه ، وانصات : اشتهرت ، والأسرار : جمع سر ، ويجمع أيضا على أسابير ، وهي خطوط في الغرة والجبين ، والدفع : جمع دفعة ، وهي الدفقة من المطر ونحوه ، والمعنى عبس وجه الزمان واسودت جوانب العيش فاشتهرت لهم في أثناء تجهمه غرر بيض يجري في غضوناتها ماء الطلانة والبشر مترقرا متسلسلا .

(٦) جمع قرعه ، وهي السهمة ، أي حق يساهم ويقرع بين جيد الأشعار أيها أدق وأحسن وأجدر بسنن الجوائز .



« أَبُو الْوَلِيدِ » قَدْ اسْتَوْفَى مَنَاقِبَهُمْ فَلِلتَّفَارِيقِ مِنْهَا فِيهِ مُجْتَمَعٌ ^(١)
هُوَ الْكَرِيمُ الَّذِي سَنَّ الْكَرَامَ لَهُ زُهِرَ الْمَسَاعِي فَلَمْ تَسْتَهْوِدِ الْبِدْعُ
مِنْ عِتْرَةٍ أَوْهَمَتْهُ فِي تَعَاقِبِهَا أَنَّ الْمَكَارِمَ إِيصَاءٌ بِهَا شَرَعُ ^(٢)
مُهَذَّبٌ أَخْلَصَتْهُ أَوْلِيَّتُهُ كَالسَّيْفِ بَالِغٌ فِي إِخْلَاصِهِ الصَّنْعُ ^(٣)

(١) يعني أن (أبا الوليد) استوفى مناقب الملوك حتى اجتمع فيه ما تفرق في غيره منها وعبر بالتفاريق للإشارة إلى قولهم في المثل السائر « هو خير من تفاريق العصا » ، يريد أن مناقبه كالعصا جمعت كثيرا من المنافع ، وأن مناقب غيره من الملوك كتفاريق العصا اختصت كل واحدة منها بفائدة ومنفعة ، وجاء في كتاب العصا من البيان والتبيين للجاحظ ما نسخته : « ومن جل القول في العصا » وما يجوز فيها من المنافع والمراقى ، تفسير شعر « غنية » الأعرابية في شأن ابنها ، وذلك أنها كان لها ابن شديد العراة كثير التلفت إلى الناس مع ضعف أسر ، ودقة عظم ، فوالت مرة فتى من الأعراب ، فقطع الفتى أنفه وأخذت « غنية » دية أنفه ، فحسنت حالها بعد فقر مدقع ، ثم واثب آخر فقطع أذنه فأخذت الدية فزادت دية أذنه في المال وحسن الحال ، ثم واثب بعد ذلك آخر فقطع شفته ، فلما رأت ما قد صار عندها من الأبل والنم والمناع والسكسب بجوارح ابنها ، حسن رأيها فيه فذكرته في أرجوزة لها تقول فيها :

« أحلف بالمروة يوما والصفاء إنك خير من تفاريق العصا . »

فسئل ابن الأعرابي ، ما تفاريق العصا ؟ قال : العصا تقطع ساجورا وتقطع عصا الساجور فتصير أوتادا ، ويفرق الوتد فتصير كل قطعة شظاظا ، فان كان رأس الشظاظ كالفلكة صار للبخن مهارة ، وهو العود الذي يدخل في أنف البخن ، وإذا فرق المهار جاءت منه التوادى ، والسواجير تكون للكلاب والأسراء من الناس - وقال النبي صلى الله عليه وسلم ، « يؤتى بناس من هاهنا يقادون إلى حظوظهم بالسواجير » - وإذا كانت قناة فكل شقة منها قوس بندق ، قال فان فرقت الشقة صارت سهاما ، فان فرقت السهام صارت حطاء ، وهي سهام صغار ، والواحدة حظوة وسروه ، فان فرقت الحظاء صارت مغازل ، فان فرق المغزل شعب به الشماب أفداحه المصدوعة المشقوق على أنه لا يجد لها أصلح منها . وقال الشاعر :

« نوافذ أطراف الفتا قد شككته كشكك بالشعب الاماء المتلما . »

فاذا كانت العصا صحيحة سالمة ففيها من المنافع الكبار ، والمراقى الأوساط والصغار ، مالا يحصيه أحد ، فاذا فرقت ففيها مثل الذي ذكرنا وأكثر . إلى آخر ما أورده الجاحظ في هذا الباب .

(٢) جمع شرعة بكسر أوله أى شرائع ومناهج يجرى فيها على سنة الملوك من آباءه . يريد أن آباءه من الملوك لتعاقبهم على سن المكارم فيمن يتخلفهم من أبنائهم أو هموه لكثرة ما أوصوا بها أنها شرائع منزلة .

(٣) الحاذق في صنعه .

إِنَّ السَّيُوفَ إِذَا مَا طَابَ جَوْهَرُهَا فِي أَوَّلِ الطَّبَعِ لَمْ يَعْلُقْ بِهَا طَبَعٌ ^(١)
جَذْلَانُ يَسْتَضْحِكُ الْأَيَّامَ عَنْ شَيْمٍ كَلَوْضٍ تَضْحَكُ مِنْهُ فِي الرُّبَا قِطْعُ
كَالْبَارِدِ الْعَذْبِ لَذَّتْ مِنْ مَوَارِدِهِ - لِشَارِبٍ غِبَّ تَبْرِيحِ الصَّدَى - جُرْعُ ^(٢)

* * *

قُلْ لِلْوَزِيرِ الَّذِي تَأْمِيْلُهُ وَزَرِي إِنْ ضَاقَ مُضْطَرَبٌ أَوْ هَالٍ مُطْلَعٌ ^(٣)
أَصِيخُ لِهَمْسٍ عِنَابٍ تَحْتَهُ مَقَّةٌ وَكَذَّبَ النَّفْسَ مِنْهَا فَوْقَ مَا تَسْمَعُ ^(٤)
مَا الْعِتَابُ - الَّذِي أَحْصَفْتَ عُقْدَتَهُ - قَدْ خَامَرَ الْقَلْبَ مِنْ تَضْيِيعِهِ جَزَعٌ ^(٥)
لِي فِي الْمُوَالَاةِ أَتْبَاعٌ يَسْرُهُمْ أَنِّي لَهُمْ فِي الَّذِي تُجْزِي بِهِ تَبِعُ ^(٦)
أَلَسْتُ أَهْلُ اخْتِصَاصٍ مِنْكَ يُلْبِسُنِي جَمَالَ سَيِّمَاهُ ؟ أَمْ مَا فِي مُصْطَنَعٍ ؟ ^(٧)

(١) الطبع : الصدا ، يقول : إن السيوف في مبدأ طبيعتها إذا طاب جوهرها لم يعاق بها شين الصدا ،
يعنى أن الممدوح طابت أوليته نخلص جوهره ولم يشنه عيب .

(٢) فيه تشبيه الممدوح بمورد الماء البارد العذب لذ لشاربه منه جرعة أخففت شدة صدره بعد ظمأ
مريح شديد .

(٣) وزرى : ملجئ ومتصمى ، ومضطرب اسم مكان من الضرب وهو السير في الأرض ، ومطلع :
مكان الاطلاع من مشرف عال ، أو مكان الصعود من أسفل إلى أعلى ، وفي حديث عمر رضى الله عنه أنه
قال عند موته ، « لو أن لي ما في الأرض جميعا لانتدبت به من هول المطلع » وهو بالشديد مكان الاطلاع
أراد به ما يشرف عليه من أمر الآخرة ويطلع عليه عقيب الموت .

(٤) اقبل رفيق عتاب كالهمس في الأذن ينطوى على مقعة ومحبة وكلف نفسك من تحقيق أمنيته
فوق طاقتها .

(٥) أحصفت : أحكمت ، والعقدة : المراد بها هنا الرأي والتدبير ، والمعنى : فدكان من العمل وحصافة
الرأي أن أبادر إلى التوبة وهأنذا تائب مما نسب إلي ، فما لتوبتي قد منيت ولم تقبل مما جعل فاني بخاطره
المزوع وعدم الصبر ، ويمارجه اليأس والحزن .

(٦) يقول : أما أول الناس في الولاء لكم وغيري تبع ، وأتباعي في الموالاتة يسرهم أن أكون في
الجزء تبعاً وتألياً لهم ، فهم دائماً يسمعون لاستطاعتهم وإحباط مسعاهي .

(٧) يقول : أفنكر اختصاصي منك بما يجعلني متعلماً بجماله هذا الاختصاص ، فلا يتقدم على من هم تبع
لي في الولاء والاختصاص ؟ أم هل تنكر أني قبل غيري أهل لرب الصنعة وإسداء الجليل ؟

لَمْ أَوْتِ فِي الْحَالِ - مِنْ سَعْيِي لَدَيْكَ - وَنَى
لَا تَسْتَجِزْ وَضَعْ قَدْرِي بَعْدَ رَفْعِكَ
تَقَدَّمَتْ لَكَ نِعْمِي رَادَهَا أَمَلِي
مَا زَالَ يُؤْنِقُ شُكْرِي فِي مَوَاقِعِهَا
شُكْرُهُ يَرُوقُ وَيَرْضَى طِيبُ طُعْمَتِهِ
ظَنَّ الْعِدَا - إِذْ أُغْبِتْ - أَنَّهَا انْقَطَعَتْ ،
لَا بَأْسَ بِالْأَمْرِ - إِنْ سَاءَتْ مَبَادِئُهُ
بَلْ بِالْجُدُودِ تَطِيرُ الْحَالُ أَوْ تَقَعُ ^(١)
فَاللَّهُ لَا يَرْفَعُ الْقَدْرَ الَّذِي تَضَعُ
فِي جَانِبٍ هُوَ لِلْإِنْسَانِ مُنْتَجِعُ ^(٢)
كَأَلْزَنِ تُونِقُ فِي آثَارِهِ التَّرْعُ ^(٣)
فِي طِيهِ نَفَحَاتُ يَنْبَهَا خَلْعُ ^(٤)
هَيْهَاتَ لَيْسَ لِمَدِّ الْبَحْرِ مُنْقَطَعُ ^(٥)
نَفْسَ الشَّقِيقِ - إِذَا مَا سَرَتْ الرَّجْعُ

* *

إِنَّ الْأَلَى كُنْتُ مِنْ قَبْلِ افْتِضَاحِهِمْ - مِثْلَ الشَّجِي فِي لَهَا هُمْ لَيْسَ يُنْتَرَعُ ^(٦)

(١) ونى : أى فترة وتوان فى السعى ، والجودود : جمع جد بالفتح وهو الحظ والبخت والمعنى : لم أوت ولم يذهب بسعى عندك فتور ولا تقصير فى المطالبة والسعى ، ولكن الذى قصد به عن درك أمنيى عندك إنما هو حظى الذى به يعلو الحال ويرتفع ، كما يطير الطائر أو يقع .

(٢) رادها : أى تقدمنى أمل أرسلته فى طلب النجعة ، وارتداد النعمة ، فصادف جانبا ممرطا ، ومراداً لنعماك ومنتجعاً .

(٣) الترغ : جمع ترعة ، وهى الروضة على المكان المرتفع من الأرض ، يقول : ما زال روض شكرى موقفاً معجباً غب سماء فعماك ، كالأذن أى السحاب يجيبك على أثر نزول المطر منه الرياض والربى قد أترعت بألوان الزهر ، وأيدمت بأنواع الثمر .

(٤) طيب طعمته : أى مكسبه الطيب الحلال ، والخلع : جمع خلعة بالكسر ، وهى ما تخلعه من الثياب وتطرعه على آخر ، أى شكر يروق السامع حسنه . ويرضى الشاكر ما يشمره من طيبات المكاسب ، فى طيه مثل نفحات الروض بينها وفى أنفائها تخلع علينا خلع ثمينه ، وحلل فاخرة .

(٥) ظن العدا أن هذه العطايا والنقائس مذ أغبت وتأخرت أياماً أنها انقطعت عني ، هيهات أن ينقطع عطاء يشبه البحر الذى ليس لمداه انقطاع .

(٦) يقول فى هذا البيت والذى بعده : -

أن الذين كنت - من قبل افتضاح أمرهم وظهور صريح العداوة منهم كالشجى معترضا فى حلوقهم لا يمكن انتزاعه ، لم أحظ منهم وهم أعداء منافقون ، إلا بما كنت أحظى به منهم وهم شيعة مسالمون ، يريد أن نصيبه منهم فى الحالين لم يكن سوى الشر والأذى والوقعة .

لَمْ أَخْظَ - إِذْ هُمْ عَدَا بَادٍ نِفَاقُهُمْ -
مَا غَاظَهُمْ غَيْرُ مَا سَيَّرْتُ مِنْ مِدْحِ
كَمْ غُرَّةٍ لِي تَلَقَّتْهَا قُلُوبُهُمْ
إِذَا تَأَمَّلْتُ حُسْبِي غِيبَ غَشْمِهِمْ
تِلْكَ الْعِرَانِينَ لَمْ يَصْلُحْ لَهَا شَمُّ
أَوْدَعَتْ نَعْمَاكَ مِنْهُمْ شَرَّ مُغْتَرَسٍ
لَقَدْ جَزَّتْهُمْ جَوَازِي الدَّهْرِ عَنْ مَنِي
لَا زَالَ جَدُّكَ بِالْأَعْدَاءِ يَصْرَعُهُمْ
إِلَّا كَمَا كُنْتُ أَخْظِي إِذْ هُمْ شَيْعُ
فِي صَائِكَ الْمِسْكِ مِنْ أَنْفَاسِهَا فَنَعُ^(١)
كَمَا تَلَقَّى شِهَابَ الْمُوقَدِ الشَّمْعُ^(٢)
لَمْ يَخْفَ مِنْ قَلْقِ الْإِصْبَاحِ مُنْصَدِعُ^(٣)
فَكَانَ أَهْوَنَ مَا نِيلَتْ بِهِ الْجَدْعُ^(٤)
لَنْ يَكْرُمَ الْغَرَسُ حَتَّى تَكْرُمَ الْبُقْعُ^(٥)
عَفَتْ فَلَمْ يَثْنِبْهُمْ عَنْ تَمْطِهَا وَرَعُ^(٦)
إِنْ كَانَ بَيْنَ جُدُودِ النَّاسِ مُصْطَرَعُ

- (١) صائك : اسم فاعل من صاك به المسك يصيك أى لصق به ، قال الأعشى :
« ومثلك معجبة بالشبا ب صاك العبير بأجلادها . »
وسياتى لصاحب الديوان قوله فى « ص ١٣٩ » :
« ثناء محفل كأن ثناء مسك بأردان المحافل صاكا . »
والفنع : نفحة المسك ، ومسك ذومنع ذكى الرائحة طيب الأنفاس . قال الشاعر :
وفروع ساذج أطرافها علاتها ريح مسك ذى فنع
وجاء بالأصل « صايك » بالياء و « كنع » بالكاف ولا معنى لها .
(٢) كم غرّة لى واضحة منيرة تطلع عليهم فتتقاه قلوبهم وهى متأججة مستمرة ، كما يتلقى الشمع عند
الانارة حر الشهاب من موقده ومشعله .
(٣) يقول حبي واضح كغفاق الصبح ، وجههم مغشوش كاذب .
(٤) العرانيين : جمع عرين ، وهو أعلى الأنف عند ملقى الحاجبين ، أو هو ما صلب من عظم الأنف ،
قال ذو الرمة :
« ثنى الثقاب على عرين أرنية شماء مارنها بالمسك مرثوم . »
والشم : ارتفاع قصبة الأنف وحسنها مع استواء أعلاها وإشراف الأرنية ، وإذا وصف الرجل بالشم
فإنما يمتنون أنه سيد شريف النفس ذو أئنة وشوخ وحية ، ويقال هم شم العرانيين كناية عن ذلك ، قال
كعب بن زهير :
« شم العرانيين أبطال لبوسهم سن نسج داود فى الهيجا سرايل . »
والجدع : القطع البائن فى الأنف والأذن ونحوهما وهو مصدر جدد كشرح فهو أجدد .
(٥) يقول : لقد استنبت نعاك فى بقعة خبيثة من نفوس عرفت بفسط النعمة ونكران الجليل .
(٦) يقول : لأن الدهر جازاهم عن مفع أسديتموها إليهم ، فغفوا على آثامها ولم يتورعوا فى تمطها
والامتناع عن شكرها .

تهنئة بقران

« وقال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله
أبا عمرو عبد الله ويهنيه بالبناء على السيدة
بنت الموفق مجاهد رجهما الله . »

أَخْطَبَ فَلُكَّكَ يَفْقِدُ الْإِمْلَاكَ كَأَ وَأَطْلَبَ فَسَعْدُكَ يَضْمَنُ الْإِذْرَاكَ (١)
وَصَلَ النُّجُومَ بِحِطِّ مَنْ لَوْ رَامَهَا هَجَرَتْ إِلَيْهِ زُهُرُهَا الْأَفْلَاكَ (٢)
وَأَسْتَهْدُ مِنْ أُنْحَى مَرَاتِعِهَا الْمَهَا فَالْصَّعْبُ يَسْمَحُ فِي عَيْنَانِ هَوَاكَ (٣)
يَأْيُهَا الْمَلِكُ الَّذِي تَذِيرُهُ أَضْحَى لِمَمْلَكَةِ الزَّمَانِ مِلَاكَ (٤)
هَذِي اللَّيَالِي بِالْأَمَانِي سَمَحَةٌ فَمَتَى تَقُلْ: «هَاتِي» تَقُلْ لَكَ: «هَاكَ»
فَاعْقِلْ شَوَارِدَهَا إِزَاءَ عَقِيلَةٍ وَافَتْ مُبَشِّرَةً بِنَيْلِ مُنَاكَ
أَهْدَى الزَّمَانُ إِلَيْكَ مِنْهَا تَحْفَةً لَمْ تَعُدْ أَنْ قَرَّتْ بِهَا عَيْنَاكَ
شَمْسٌ تَوَارَتْ - فِي ظَلَامٍ مَضِيعَةٍ - ثُمَّ اسْتَطَارَ لَهَا السَّنَا بِسَنَاكَ (٥)

(١) الاملاك : عقد الزواج ، يقول : اخطب فملككك يعوزها الصهر والنسب ، واطلب فسعدك يضمن لإدراك ما اطلب .

(٢) وصل النجوم بحط ملك لو رام زهر النجوم لهجرت إليه أفلاكها ، يريد أنه لورام مصاهرة من ارتفع نسبهم من الملوك إلى مستوى زهر الكواكب في أفلاكها ، لسانوا إليه من زهر عرائسها ما يرومه ، وتسمو إليه نفسه ، ويختاره نسباً وصهرًا .

(٣) استهد : أطلب الهداء من هدى العروس يهديها إليه هداء زفها إليه ، وفي الأصل (ستهو) وهو من استهواء الشياطين ، ولا معنى له هنا ، أى اطلب من أمتع أحياء العرب وأشدّها حماية وحفيظة أن يهدوا إليك من بناتهم الشبهات بالمها أى بقر الوحش في البياض وسواد العيون من تريد وتهوى فإن الصعب يسلس وينقاد في عنانه مرادك وهو الك .

(٤) أى أضحى تديره قوام المملكة ونظامها الذى يعتمد عليه في أمورها .

(٥) مضية : يقال هو بدار مضية كمشة أى بدار ترك واطراح وإضاعة ، واستطار : إنتشر ، والسنا : بالضر الضياء ، أى كانت قبل هذا الاملاك شمساً محتجبة وراء حجب الالهال والترك ، فاستطار إليها شعاع من سنا وجهك ، فأشرقت وأنارت .

قُرِنتَ بِبَدْرِ النِّمِّ كَافِلَةً لَهُ أَنْ سَوْفَ تُتَّبِعُ فَرَقْدَيْنِ سِمَاكَ (١)
هِيَ وَالْفَقِيدَةُ كَالْأَدِيمِ اخْتَرْتَهُ فَقَدَدْتَ إِذْ خَلَقَ الشَّرَاكَ شِرَاكَ (٢)
فَاصْفَحْ عَنِ الرُّزْءِ الْمُعَاوِدِ ذِكْرُهُ وَأُسْتَأْنِفِ النِّعْمَى فَتِلْكَ بِذَاكَ (٣)

لَمْ يَبْقَ عُذْرٌ فِي تَقَسُّمِ خَاطِرٍ إِلَّا الصُّبَابَةُ مِنْ دِمَاءِ عِدَاكَ
كَفَّارُ أَنْعَمِكَ الْأَلَى حَلَّتْهُمْ أَطَوَّافُهُمْ ، سَيُطَوَّقُونَ ظُبَاكَ (٤)
أَعْرِضْ عَنِ الْخَطَرَاتِ إِنَّكَ إِنْ تَشَأْ تَكُنِ النُّجُومُ أَسِنَّةً لِقَنَاكَ (٥)
هُصِرَ النِّعْمُ بِعِطْفِ دَهْرِكَ فَأَنْقَى وَجَرَى الْفَرِيدُ بِصَفْحَتَيْ دُنْيَاكَ (٦)
وَبَدَا زَمَانُكَ لِأَبْسَا دِيَابَجَةٍ تَجْلُو لِعَيْنِ الْمُجْتَلِي سِيَمَاكَ
دُنْيَا لَزَهْرَتِهَا شُعَاعٌ مُذْهَبٌ لَوْ كَانَ وَصْفًا كَانَ بَعْضَ خُلَاكَ

(١) يقول : قرنت هذه العقيلة ببدر النيم ضامنة له أن ستبتع فرقدين نجما يريد أنها ستندجب أمثال الكواكب النيرة من الذكور .

(٢) الأديم : الجلد ، وخلق : بلى ، والشراك : أحد سيور الذمل التي على ظهرها ، يقول : هذه العقيلة وزوجتك الفقيدة كالأديم قطعت منه بدل الشرارك الذي بلى شراركا جديدا ، أي اخترت بدل الفقيدة ، زوجا أخرى جديدة ، وقد ألف العرب أن يشبهوا المرأة بالنعل ، وجاراهم ابن زيدون في ذلك ، وقد قال الحريري في مقاماته من حوار طويل : « فان لمس ظهر نعله ، فقد انتقض وضوءه بفعله » أي إن لمس امرأته .
(٣) أي فتلك النعمى بالجديدة ، عوض من ذلك الرزء بالفقيدة ، فاضرب صفحا عما يعاودك من ذكريات تؤلم نفسك وتبعثك على الحزن .

(٤) جمع طبة بالضم ، وهي حد السيف ، يقول : إن الذين طوقتهم بأنعمك فاجحدوا بها ، ستجعل لهم فدا من سيوفك في أعناقهم أطواقا يطوقونها .

(٥) أعرض عن كل خطرة تخطر بقلبك ، وتقع في بالك من جهة تدبير المملكة ، فانك منصور على أعدائك ، ولو شئت لتناولت نجوم السماء فجعلتها أسنة لرمحك .

(٦) جعل للنعم عطفًا كمطف الحساء تهصره أي تميله إليك فينتفى كما تهصر النصف وتميله نحوك لطف عماره ، وجعل لدنيا المدوح التي احتوت النعم فرندا يجرى في صفحتها ماؤه وتترقق ديباجته ، فأعطاك صورة ساحرة فأنته لما يتصل بالمدوح من دنيا يحفها النعم .

فَتَمَلَّ في فُرْشِ الْكَرَامَةِ نَاعِمًا وَأَعْقِدْ بِمِرْتَبَةِ الشُّرُورِ حُبًّا كَا^(١)
وَأُطِلْ - إِلَى شَدْوِ الْقِيَانِ - إِصَاخَةً وَتَلَقَّ مِثْرَعَةَ الْكُؤُوسِ دِرَاكًا
تَحْتِهَا مِثْنَى مِثْنَى غَادَةٍ شَفَعَتْ بِحَثِّ غِنَائِهَا الْإِمْسَاكَ^(٢)
مَا الْعَيْشُ إِلَّا فِي الصَّبُوحِ بِسُحْرَةٍ قَدْ جَاسَدَتْ أَنْوَارُهَا الْأَخْلَاكَ^(٣)
لَكَ أَرْيَحِيَّةٌ مَاجِدٌ - إِنْ تَعْتَرِضُ فِي لَهْوِ رَاحِكَ - تَسْتَهْلِ لَهَا كَا^(٤)
مَنْ كَانَ يَمْلَقُ فِي خِلَالِ نِدَامِهِ ذِمٌّ يَبْعُضُ خِلَالِهِ فَخْلًا كَا^(٥)
أُسْبُوعُ أَنْسٍ مُحْدِثٌ لِي وَحْشَةً عَلِمًا بِأَنِّي فِيهِ لَسْتُ أَرَا كَا^(٦)
فَأَنَا الْمُعَذِّبُ غَيْرَ أَنِّي مُشْعَرٌ ثِقَّةٌ بِأَنَّكَ نَاعِمٌ فَهَنَا كَا
إِنِّي أَقُومُ بِشُكْرِ طَوْلِكَ بَعْدَ مَا مَلَأْتَ مِنْ الدُّنْيَا يَدَيَّ يَدَا كَا
بَرَدَتْ ظِلَالُ ذَرَاكَ ، وَأَخْلَوَلِي جَنَى نُعْمَاكَ لِي ، وَصَفَتْ جِجَامُ نَدَا كَا
وَأَمِنْتُ عَادِيَةَ الْعِدَا الْأَقْتَالِ مُذْ أَعَصَمْتُ فِي أَعْلَى يَفَاعٍ حَمَا كَا^(٧)

(١) تمل : تتمتع ، يقال ملاك الله حبيبك أى متطك وأطاشك معه طويلا ، والحب : جمع حبة وهو أن يجمع الجالس ظهره وساتيه بثوب أو نحوه .

(٢) تحتها : أى الكؤوس أصوات تعاد مثنى من رنات مثنى عود في يد غادة ضمت إلى حث الغناء لمسك الصوت بعد إطلافه .

(٣) جاسدت : خالط بياض أنوارها سواد ظلماتها .

(٤) لهو راحك : أى في إبان لهوك بشرب الراح : وتستهل تَطْرُ والها : جمع لهوة بالضم ، وهى العطايا الجزلة الكثيرة .

(٥) من كان في أثناء النادمة على الشراب يعلق ببعض خلاله وخصاله ما يعاب ويذم عليه ، تذاك ذم وحاشاك عيب .

(٦) هو الأسبوع الذى يأنس فيه بعروسه ، ولا يخرج إلى خاصته الذرا : بالفتح كل ما استندرت به ، يقال أنا في ذرا فلان أى في كنفه ، والجمام : جمع جمة بالضم وهى معظم الماء ، والنسدى : العطاء أى صفا عطاؤك الشبيه بالماء فى الصفاء فلم يكدر بمن .

(٧) الأقتال : الأفران الساوون له فى الشجاعة من أعدائه ، وأعصمت : مثل اعصمت أى استمكنت وامتنعت ولجأت ، واليفاع : المكان المرتفع .

جَهْدَ الْمَقْلِ نَصِيحَةً مَمْحُوضَةً أَفْرَدْتَ مُهْدِيَهَا فَلَا إِشْرَاكَ (١)
وَنَشَاءَ مُحْتَفِلٍ كَأَنَّ ثَنَاءَهُ مِسْكٌ بِأَرْذَائِ الْمَحَافِلِ صَاكَ
وَلْتَدْعُنِي وَعَدُّوكَ الشَّانِي ، فَإِنْ يَرُمُ الْقِرَاعَ يَجِدُ سِلَاحِي شَاكَ (٢)

لَا تَعْدَمَنَّ الْحَظَّ غَرَسًا مُطْلِعًا * ثَمَرَ الْفَوَائِدِ دَانِيًا لَجْنَاكَ
وَالنَّصْرَ جَارًا لَا يُحَاوِلُ ثِقَلَةً وَالصَّنْعَ رَهْنًا لَا يُرِيدُ فِكَكَ
وَإِذَا غَمَامُ السَّعْدِ أَصْبَحَ صَوْبُهُ دَرْكُ الْمَطَالِبِ فَلْيَصِلْ سُقْيَاكَ
فَالْدَّهْرُ مُعْتَرِفٌ بِأَنَا لَمْ نَكُنْ لِنُسْرٍ مِنْهُ - بِسَاءَةِ - لَوْلَاكَ

عهد

فَكُنْ
كَأَنَّ نَشَاءَ قَتْلٍ لِي لَسْتُ مُنْتَقِلًا لَا تَخْشَ مِنِّي نِسْيَانًا وَلَا بَدَلًا (٣)
وَكَيْفَ يَنْسَاكَ مَنْ لَمْ يَدْرِ بِعَدِّكَ مَا طَعَمُ الْحَيَاةِ وَلَا بِالْبُعْدِ عَنْكَ سَلَا
أَتَلَفْتَنِي كَلَفًا ، أَبْلَيْتَنِي أَسَفًا قَطَّعْتَنِي شَغَفًا ، أَوْرَثْتَنِي عِلَلًا

* *

إِنْ كُنْتُ خُنْتُ وَأَضْمَرْتُ السُّلُوفَ فَلَا بَلَغْتُ يَا أَمَلِي مِنْ قُرْبِكَ الْأَمَلِ (٤)
وَاللَّهِ لَا عَلِقَتْ نَفْسِي بِغَيْرِكُمْ وَلَا اتَّخَذْتُ سَوَاكُمْ مِنْكُمْ بَدَلًا

(١) أهدى إليك نهاية ما يستطيع إهداءه مقل مثلي ، نصيحة خالصة أفردت مهديها واختصصته بما لم تشرك معه فيه غيره .

(٢) الشَّانِي : المبعوض ، والفراع المفاوعة بالسيف ، وشاك : السلاح يشاك شوكا ظهرت شوكته وحدته ، أى أدعى لمنازلة ومجالدته عدوك الشان المبعوض فانه متى يرم ذلك يجدننى شاكى السلاح مستعدا لمقارعتة .

(٣) يقول : إبنى احتمل منك كل شيء وليس ذلك بمجول عن حبك ولا هو بدافنى إلى نسيانك أو الانتقال عن حبك إلى حب سواك .

(٤) يقول : « طافنى الله بياسمى منك وحرمنى عطفك وودادك إن كنت فكرت لحظة فى السلو عنك .

مدح ورثاء^(١)

« قال بمدح المعتمد ، ويرثي المعتضد بالله . »

هُوَ الدَّهْرُ فَاصْبِرْ لِلَّذِي أَحْدَثَ الدَّهْرُ فَمَنْ شِيمَ الْأَبْرَارِ - فِي مِثْلِهَا - الصَّبْرُ
سَتَصْبِرُ صَبْرَ الْيَأْسِ أَوْ صَبْرَ حِسْبَةٍ^(٢) فَلَا تُؤْثِرِ الْوَجْهَ الَّذِي مَعَهُ الْوِزْرُ^(٣)
حِذَارِكَ مِنْ أَنْ يُعْقِبَ الرُّزْءَ فِتْنَةً يَضِيقُ لَهَا - عَنْ مِثْلِ إِيْمَانِكَ - الْعُذْرُ
إِذَا أَسِفَ الشُّكْلَ اللَّيْبُ فَشَفَّةُ رَأَى أَفْذَحَ الشُّكْلَيْنِ أَنْ يَهْلِكَ الْأَجْرُ^(٤)
مُصَابُ الَّذِي يَأْسَى بِمَيِّتِ ثَوَابِهِ هُوَ الْبَرْحُ لَا الْمَيِّتُ الَّذِي أَحْرَزَ الْقَبْرُ^(٥)

حَيَاةُ الْوَرَى نَهْجٌ إِلَى الْمَوْتِ مَهْيَعٌ^(٦) هُمْ فِيهِ إِضَاعٌ^(٧) كَمَا يُوضَعُ السَّفَرُ^(٨)

(١) جاء في ص ٤٧٩ من نفح الطيب ما نصه :

« ولما مات والد المعتمد واستقل بالملك ، قال ذو الوزارتين ابن زيدون يرثي المعتضد بقصيدة طويلة أولها :

« هو الدهر ، فاصبر للذي أحدث الدهر فمن شيم الأحرار في مثلها الصبر . »

وقد ذكر صاحب نفح الطيب أكثر أبيات هذه القصيدة وإن اختلفت في قليل من الألفاظ في بعض أبيات القصيدة عن رواية الديوان .

وسرى القارى تشابها كثيرا بين هذه القصيدة وبين القصيدة الرائية التي قالها ابن زيدون في رثاء الوزير أبي الحزم .

(٢) حسبة : احتساب الأجر ، وفي رواية نفح الطيب : « أو صبر وحشة »

(٣) وفي رواية نفح الطيب : « فلا تؤثر الوجه الذي معه العذر »

(٤) وفي رواية نفح الطيب : « أن يذهب الأجر »

(٥) وفي رواية نفح الطيب : « يأس بموت ثوابه » (٦) طريق .

(٧) الإيضاع : السير السريع . قال أبو العلاء :

« لا وضع للرجل إلا بعد إيضاع فكيف شاهدت إيضائي وإزماعي . »

(٨) السفر : المسافرون .

فِيَاهَادَى الْمُنَهَاجِ جُـسِرَتْ ، فَإِنَّمَا
إِذَا الْمَوْتُ أَصْحَى قَصَرَ ^(٢) كُلَّ مُعَمَّرٍ
هُوَ الْفَجْرُ يَهْدِيكَ الصِّرَاطَ أَوْ الْبَجْرُ ^(١)
فَإِنْ سَوَاءٌ طَالَ أَوْ قَصَرَ الْعُمُرُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدِّينَ ضِيمٌ ذِمَارُهُ
بِحَيْثُ اسْتَقْلَى الْمَلِكُ ثَانِي عِطْفِهِ
هُوَ الضِّيمُ لَوْ غَيْرُ الْقَضَاءِ يَرُومُهُ
إِذَا عَثَرَتْ جُرْدُ الْعَنَاجِيحِ ^(٤) فِي الْقَفَا
فَلَمْ يُغْنِ أَنْصَارُهُ عَدِيدُهُمْ دَثْرُ ^(٣)
وَجَرَّرَ مِنْ أَذْيَالِهِ الْعَسْكَرُ الْمَجْرُ
ثَنَاهُ الْمَرَامُ الصَّعْبُ وَالْمَسْلَكُ الْوَعْرُ
بِلَيْلٍ عَجَاجٍ لَيْسَ يَصْدَعُهُ فَجْرُ

* *

أَنْفَسَ نَفْسٍ - فِي الْوَرَى - أَقْصَدَ الرَّدَى
أَعْبَادُ يَا أَوْفَى الْمُلُوكِ ، لَقَدْ عَدَا
وَأَخْطَرَ عِلْقٍ - لِلْهَدَى - أَفْقَدَ الدَّهْرُ
عَلَيْكَ زَمَانٌ مِنْ سَجِيَّتِهِ الْغَدْرُ
فَهَلَّا عَادَاهُ أَنْ عَلَيْكَ حَلِيَّةٌ .
وَذَكَرَكَ - فِي أُرْدَانِ أَيَّامِهِ - عِطْرُ

* *

غَشِيَتْ فَلَمْ تَغْشَ الطَّرَادَ سَوَاحِجُ ،
وَلَا جُرِدَتْ بِيضُ ، وَلَا أَشْرَعَتْ سُمرُ ^(٥)

(١) البحر بالفتح والضم : المسكروه والأمر العظيم ، وقد روى المبرد صاحب الكامل أن الخليفة أبا بكر رضى الله عنه حين حضرته الوفاة قال في آخر كلمة له : يا هادى الطريق جرت ، إنما هو والله الفجر أو البحر وقوله « إنما هو والله الفجر أو البحر » يقول : « إن انتظرت حتى يضىء لك الفجر الطريق أبصرت فصدك وإن خبطت الظلماء وركبت المشواء هجما بك على المسكروه » وضرب ذلك مثلا لغمرات الدنيا وتخييرها أهلها (الكامل : ج ١ ص ٥ و ٦ و ٧)

وجاء في اللسان قوله : وفي حديث أبى بكر رضى الله عنه : إنما هو الفجر أو البحر » قال : البحر - بالفتح والضم - الداهية والأمر العظيم . أى أن انتظرت حتى يضىء الفجر أبصرت الطريق ، وإن خبطت الظلماء أفضت بك إلى المسكروه . قال : ويروى البحر بالحاء يريد غمرات الدنيا شبهها بالبحر لتخيير أهلها فيها .

(٢) قصر : قصارى أو ضاية . (٣) دثر : كثير .

(٤) العناجيج : جياذ الخيل والأبل . (٥) بيض وسمر : سيوف ورماح .

وَلَا تَنْتِ الْمَحْذُورَ عَنْكَ جَلَالَةً وَلَا غُرُورٌ ثَبَتٌ وَلَا نَائِلٌ غَمْرٌ ^(١)

لَنْ كَانَ بَطْنُ الْأَرْضِ هَيَّيْ أَنْسُهُ ^{***} بِأَنَّكَ ثَاوِيهِ لَقَدْ أَوْحَشَ الظَّهْرُ
لَعَمْرُ الْبُرُودِ الْبَيْضِ فِي ذَلِكَ الشَّرَى لَقَدْ أَدْرَجْتَ أَشْنَاءَهَا النِّعَمُ الْخَضِرُ
عَلَيْكَ - مِنْ اللَّهِ - السَّلَامُ تَحِيَّةٌ يُنْسِمُكَ الْغُفْرَانُ رِيحَانُهَا النَّصْرُ

وَمَاهِدَ ذَلِكَ اللَّحْدَ عَهْدُ سَحَابٍ إِذَا اسْتَعْبَرْتَ فِي تَرْبِهِ - أَبْتَسَمَ الزَّهْرُ ^(٢)
فَفِيهِ عِلَالَةٌ لَا يُسَامَى يَفَاعُهُ ^(٣) وَقَدَرُ شَبَابٍ لَيْسَ يَعْدِلُهُ قَدَرُ

وَأَبْيَضَ فِي طَيِّ الصَّفِيحِ كَأَنَّهُ ^{***} صَفِيحَةٌ مَأْثُورٍ طَلَاقَتُهُ الْأَثَرُ ^(٤)
كَأَنَّ لَمْ تَسِرْ مُخْرُ الْمُنَايَا تُظِلُّوْا إِلَى مُهْجِ الْأَقْيَالِ ^(٥) رَايَاتُهُ الْحُمُرُ
وَلَمْ يَحْمِ مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ جَهَى الْهُدَى فَلَمْ يُرْضِهِ إِلَّا أَنْ أُرْتَجَعَ الثُّغُرُ
وَلَمْ يَنْتَجِعْهُ الْمُعْتَفُونَ ^(٦) ، فَأَقْبَلْتُ عَطَايَا كَمَا وَالَى شَأْيِي ^(٧) الْقَطْرُ

(١) النائل الغمر : العطاء الجزيل الكثير .

(٢) يدعو الله أن يطر جده بسحاب تذرف ماءها على الأرض فتروى أزهارها فتتضرها .

(٣) يفاع : المرتفع من الأرض .

(٤) الأثر : فرند السيف ، وروقه ، وهو واحد ليس بجمع ، قال الشاعر :

« جلاها الصيقلون فأخلصوها خفافا ، كلها يبقى بأثر . »

أي كلها يستقبلك بفرنده . وبقى يخفف من ببقى .

وقال إعرابية :

« فإذا رقدت فأنت متبسه وإذا انتبهت فعزيمك الأثر . »

وقالوا : سيف مأثور ، أي في مثنه أثر . وأخذ من الأثر كأن وشبه أثر فيه ، أو مثنه حديد أثبت

وشفرته حديد ذكر ، وقد زعموا أنه السيف الذي بعلمه الجن .

(٥) الأقيال - جمع فيل - وهو الشجاع .

(٦) ينتجعه المعتفون : يطلب معروفه طالبو الاحسان والندى .

(٧) شأيب : جمع شؤبوب ، وهو الدفعة من المطر .

وَلَمْ تَكْتَفِ آرَاءَهُ الْمَعِيَّةَ كَانَ نَجِيَّ الْغَيْبِ فِي رَأْيِهَا - جَهْرٌ^(١)
وَلَمْ يَتَشَذَّرْ لِلْأُمُورِ^(٢) مُجَلِّيًا إِلَيْهَا كَمَا جَلَّى مِنَ الْمَرْقَبِ الصَّقَرُ

كِلَا لَقَبِي سُلْطَانِهِ صَحَّ قَالُهُ فَبَا كَرَهُ عَضُدٌ وَرَاوَحَهُ نَصْرٌ^(٣)
إِلَى أَنْ دَعَاهُ يَوْمُهُ فَأَجَابَهُ وَقَدْ قَدَّمَ الْمَعْرُوفَ وَأُسْتَمَجَدَ الذُّخْرُ
فَأَمْسَى ثَبِيرٌ قَدْ تَصَدَّى لِحِمْلِهِ سَرِيرٌ فَلَمْ يَبْهَظْهُ^(٤) مِنْ هَضْبِهِ إِضْرُ

أَلَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الْوَصُولُ عَيْبُهُ لَقَدْ زَانَا أَنْ يَتَلَوَّ الصَّلَاةَ الْهَجْرُ
تُعَادِيكَ - دَاعِينَا السَّلَامَ - كَعَهْدِنَا فَمَا يُسْمَعُ الدَّاعِي وَلَا يُرْفَعُ السِّرُّ
أُعْتَبُ عَلَيْنَا ذَاكَ عَنِ ذَلِكَ الرَّضَى فَنُعْتَبَ أَمْ بِالْمُسْمَعِ الْمُعْتَلَى وَقُرُ^(٥)
أَمَّا إِنَّهُ شُغْلٌ فَرَاغُكَ بَعْدَهُ سَيَنْصَاتُ إِلَّا أَنْ مَوْعِدَهُ الْحَشْرُ^(٦)
أَأَنْسَاكَ - لَمَّا يَنَّا عَهْدُ - وَلَوْ نَأَى سَجِيسَ اللَّيَالِي لَمْ يَرَمْ نَفْسِي الذِّكْرُ^(٧)
وَكَيْفَ بِنِسْيَانٍ وَقَدْ مَلَأَتْ يَدِي جِسَامُ أَيَادٍ مِنْكَ أَيْسَرُهَا الْوَفْرُ

(١) كأن لم تتكشف فطنته وألمعته مستور الغيب الذي يتبدى لها رغم خفائه واضحاً جلياً .

(٢) تشذر الأمور : نشط إليها وتسرع ، وتشذر الرجل تهباً للقتال والحمة .

(٣) يشير إلى تلقيبه بالمتضد والنصور . (٤) يهظه : يهظه ، أى يثقل عليه حمله .

(٥) في رواية نفع الطبيب :

«أُعْتَبَ عَلَيْنَا ذَاوَعَنَ ذَلِكَ الرَّضَى فَنُسْمَعُ أَمْ الْخ»

(٦) يقول : إنك في شغل لن ينقضى إلا إذا جاء يوم الحشر .

(٧) رام يريم : فارق يفارق ، يقول : كيف أنساك ولم يطل عهدي بك ولو طال أهد الدهر لم أنساك ولم تفارق نفسي ذكراك .



لَنْ كُنْتُ لَمْ أَشْكُرْ لَكَ الْمِنَّةَ الَّتِي تَمْلَيْتُهَا تَتَرَى لَأَوْ بَقَيْتَنِي ^(١) الْكُفْرُ
فَهَلْ عِلْمَ الشَّلُو الْمُقَدَّسُ أَنَّنِي مُسَوِّغُ حَالِ ضَلٍّ فِي كُنْهَيْهَا الْفِكْرُ ^(٢)
وَأَنْ مَتَابِي لَمْ يُضِيعْهُ « مُحَمَّدٌ » خَلِيفَتُكَ الْعَدْلُ الرِّضَى وَأُبْنُكَ الْبَرُّ
هُوَ الظَّافِرُ الْأَعْلَى الْمُؤَيَّدُ بِاللَّيْ لَهُ فِي اللَّيْ وَلَآهُ مِنْ صُنْعِهِ سِرُّ
رَأَى فِي اخْتِصَاصِي مَا رَأَيْتَ وَزَادَنِي مَزِيَّةَ زُلْفَى ^(٣) مِنْ تَنَاجُجِهَا الْفَضْرُ
وَأَرْغَمَ فِي بَرِّي أَنْوَفَ عِصَابَةٍ لِقَاؤُهُمْ جَهْمٌ وَلَحْظُهُمْ شَرُّ
إِذَا مَا أَسْتَوَى فِي الدَّسْتِ عَاقِدَ حَبْوَةٍ وَقَامَ سِمَاطًا حَفْلِهِ فَلِيَ الصَّدْرُ ^(٤)

(١) لأهلكني (٢) الشلو : المصو جمعه أشلاء . يقول : هل علم الجسد الميت الطاهر أنني أحاول أن أستنسخ ما لا سبيل إل استنساخه أي أنه يحاول أن يرغم نفسه على الرضى بما حدث فلا يجد إلى ذلك سبيلا . (٣) قربى .

(٤) استوى : جلس ، والدست : معرب دشت ومعناها بالفارسية اليد - كما يؤخذ من شفاء العليل وترك هذه المادة في اللسان ، وفي القادوس : « الدست الدشت ومن الثياب والورق وصدر البيت معربات . » واستعملها المولدون لمعان منها المجلس كما في البيت الذي نحن بصدده ، قال أبو العلاء المعري : « من آلة الدست ما عند الوزير سوى تحريك الحيتنه في حال إيماء فهو الوزير ولا أزر يشهد به مثل العروض له بحر بلاماء . »

وورد في المقامة الحادية عشرة من مقامات الحريري عند قوله :

« تبصر ودع اللوم وقل لي هل ترى اليوم

فستى لا يقهر القوم إذا مادسته ثم . »

وهو هنا بمعنى الحيلة والخداع ، والمعنى تمت حيلته ، ويقال فلان تم عليه الدست في القمار أي لم يفز وورا في آخر المقامة الثامنة عشرة عند قوله :

« فنادرنا بعد أن وخذت عنسه ، وزايلنا أنسه ، كدست غاب صدره ، أو ليل أقل بدره . »

وهو هنا بمعنى المجلس وورد في أول المقامة الثالثة والعشرين عند قوله :

« فركضت في إثر النظاره ، حق وافينا باب الاماره ، وهناك صاحب المسونة متربعا في دسسته ومروعا بسمته . »

وَفِي نَفْسِهِ الْعَلِيَاءَ لِي مُتَبَوِّأً يُنَافِسُنِي فِيهِ السَّمَاءُ كَأَنِّ وَالنَّسْرُ
يُطِيلُ الْعِدَا فِي التَّنَاجِي خُفْيَةً يَقُولُونَ: «لَا تَسْتَفْتِ، قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ»
مَضَى نَفْسُهُمْ - فِي عُقْدَةِ السَّعْيِ - ضَلَّةً فَعَادَ عَلَيْهِمْ غُمَّةً ذَلِكَ السَّحَرُ
يَسِيبُ مَكَانِي عَنْ تَوَقِّي مَكَانِهِمْ كَمَا شَبَّ - قَبْلَ الْيَوْمِ - عَنْ طَوْقِهِ عَمْرُو^(١)

وهو هنا بمعنى المجلس أيضا وورد في آخر هذه المقامة عند قوله :

« فلما حضرت الوالي وقد خلا مجلسه ، وانجلي تعبسه ، أخذ يصف أبا زيد وفضله ، ويذم الدهر له ، ثم قال : نشدتك الله - ألسنت الذي أطاره الدست ؟ قلت : لا والذي أهلك في هذا الدست ، ما أنا بصاحب هذا الدست ، بل أنت الذي تم عليه الدست . » فالدست الأول هو الثوب ، والثاني المجلس ، والثالث هو الثوب أيضا ، والرابع الحيلة .

والحبوة : بضم وكسر أوله وتجمع على حبا هي أن يجمع الجالس ظهره وساقيه بثوب أو يديه ، ويقال حل فلان حبوته ، وهذا الأمر مما تحمل له الحبا ، والحبوة - بالفتح - المصدر ، والسماط : الصف من الناس ، يقال قام القوم حوله سباطين أي صفيين ، ومشي بين السباطين أي بين الصفيين ، يقول إنه يفسح لي الجلوس في الصدر إذا استوى في مجلسه ومثل حوله صفان من حفله .

(١) أصل المثل : « شب عمرو عن الطوق » وفي رواية أساس البلاغة : « جل عمرو عن الطوق » ، وفي رواية يجمع الأمثال المبداني « كبر عمرو عن الطوق » ومعنى البيت : « لقد جل مكاني عن أن أحاذرهم » كما جل عمرو عن الطوق .

قال ابن قتيبة في كتاب المعارف : وعمرو هذا هو عمرو بن ندى بن نصر ، ابن أخت جذيمة الأبرش ، وهو الذي كان يقول - إذ اجنى الكمأة بين يدي خاله وهو صبي - :

« هذا جنائي ، وخياره فيه - إذ كل جان يده إلى فيه . »

وقد زعموا أن الجن استهوته حيناً ، ثم ظهر فوجدته مالاك وعقيل ، قالوا : « فانتسب لهما . فأثاب به جذيمة فسر به سرورا شديدا وحكهما فسلأه منادمته . »

وقد ضربت الأمثال بندماني جذيمة ، فقال متمم النويري حين رثى أخاه :

« وكنا كندمانى جذيمة حقة من الدهر حتى قيل لن نتصدقا

وعشنا بخير - في الحياة - وقبلنا - أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا

فلما تفرقنا كئانى ومالكا - لطول اقتراق - لم نبت ليلة معا . »

وقال أبو خراش الهذلي :

« ألم تعلمي أن قد تفرق - قبلنا - خيلا صفاء مالاك وعقيل . »

وقد أشار أبو العلاء المعري إلى ندماني جذيمة إشارة نافعة في رسالة النفران (ج ١ ص ١٣٢) فليرجع إليها

من شاء ، قالوا : وأصل هذا المثل أن أم عمرو تظفته وألبسته ثياب الملوك وطوّقته بطوق في عنقه وأمرته

بزيارة خاله ، قالوا : فلما رأى خاله لحيته والطوق في عنقه ، قال : « شب عمرو عن الطوق » فذهبت مثلا .

قالوا : « وكانت الزباء قتلت خاله فأدرك عمرو وقصير ثأره فقتلها . »



لَكَ الْخَيْرُ ، إِنَّ الرُّزْءَ كَانَ غِيَابَةً طَلَعْتَ لَنَا فِيهَا كَمَا طَلَعَ الْبَدْرُ
فَقَرَّتْ عِيُونُ كَانَ أَسْخَنَهَا الْبُكَاءُ وَقَرَّتْ قُلُوبُ كَانَ زَلْزَلَهَا الدُّعْرُ
وَلَوْلَاكَ أَغْيَا رَأَيْنَا ذَلِكَ النَّأْيَ ^(١) وَعَزَّ فَلَمَّا يَنْتَعِشُ ذَلِكَ الْعَمْرُ
وَلَمَّا قَدَمْتَ الْجَيْشَ بِالْأَمْسِ أَشْرَقَتْ إِلَيْكَ - مِنَ الْآمَالِ - آفَاقُهَا الْعُمْرُ ^(٢)
فَقَضَيْتَ مِنْ فَرَضِ الصَّلَاةِ لِبَانَةً مُشِيعُهَا نُسْكَتُ وَفَارِطُهَا طُهُرُ ^(٣)
وَمِنْ قَبْلُ مَا قَدَمْتَ مَثْنَى نَوَافِلِ يُلَاقِي بِهَا مَنْ صَامَ مِنْ عَمِيدِهِ فِطْرُ
وَرُحْتَ إِلَى الْقَصْرِ الَّذِي غَضَّ طَرْفُهُ بُعِيدَ النَّسَائِي أَنْ غَدَا غَيْرُهُ الْقَصْرُ ^(٤)
فَدَامَا مَعًا فِي خَيْرِ دَهْرٍ ، صُرُوفُهُ حَرَامٌ عَلَيْهَا أَنْ يَطُورَهُمَا هَجْرُ ^(٥)
وَأَجِلْ - عَنِ النَّأْيِ - الْعَزَاءُ فَإِنْ ثَوَى فَإِنَّكَ لَا الْوَائِي ، وَلَا الضَّرْعُ الْعُمْرُ ^(٦)

(١) النَّأْيُ : الفساد ورأيه إصلاحه ، قال الشاعر :

« يَرَأِبُ الصَّدْعُ وَالنَّأْيُ بَرَصَيْنِ مِنْ سَجَايَا آرَائِهِ وَيَغِيرُ . »

(٢) قَدَمْتُ : يقال قدم فلان فلانا يقدمه من باب نصر إذا تقدمه ، قال تعالى : « يَتَقَدَّمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُورِدُهُمُ النَّارَ » والمعنى : ولما تقدمت الجيش صبيحة يوم الفطر أشرفت إليك شمس الآمال من آفاقها العبر يريد أن الآمال ابتسمت له مثرفة ، وقد اغبرت الآفاق حزنا على فقد والده .

(٣) اللَّبَانَةُ : الحاجة يقال قضى فلان لبانته أى حاجته ، والفارط : المتقدم أى قضيت حاجة فى نفسك من صلاة الفرض التى شيعها وتلاها نك العيد وسبقها وتقدمها الطهر المسنون والطيب ، وفى رواية نفح الطيب : « فشيعها نك وفارطها طهر »

(٤) أى بعد أن حدث من مصلى العيد رحت إلى القصر الذى غضى طرفه حياء - بعد أن سما يبصره إليك - لأنك تبدلت به قصرا غيره . (٥) لا يطورها : لا يقربهما والضمير طائد على القصرين .

(٦) الْوَائِي : الضعيف ، والضرع : الخاضع الذليل ، والعمر : الذى لم يجرب الأمور ، يقول : تدرع بالصبر وأجل عزاء عن الراحل النأوى فى قبره ، فانك لست - إذ ألم بك خطب - بالضعيف ولا الغر الجاهل الذى لم يجرب الأمور ولم يعتبر بصروف الدهر ، وفى الأصل « فانك لا الفانى » وقد أثبتنا هنا رواية نفح الطيب ، قال الشاعر :

أناة وحلما وانتظارا بهم غدا فإنا أنا بالوائى ولا الضرع العمر

وَمَا أَعْطَتِ السَّبْعُونَ قَبْلُ - أُولَى الْحِجَا - مِنَ الْإِرْبِ مَا أَعْطَتِكَ عِشْرُونَ وَالْعَشْرُ^(١)

أَلَسْتَ الَّذِي إِنْ ضَاقَ ذَرْعٌ بِحَادِثٍ تَبَلَّجَ مِنْهُ الْوَجْهُ وَأَتَّسَعَ الصَّدْرُ^(٢)
فَلَا تَهْضِ الدُّنْيَا جَنَاحَكَ بَعْدَهُ فَمَنْكَ - لِمَنْ هَاضَتْ نَوَائِبُهَا - جَبْرُ
وَلَا زِلَتْ مَوْفُورَ الْعَدِيدِ بِقُرَّةٍ لِعَيْنَيْكَ مَشْدُودًا بِهِمْ ذَلِكَ الْأَزْرُ
فَإِنَّكَ شَمْسٌ - فِي سَمَاءِ رِيَّاسَةٍ - تَطْلَعُ مِنْهُمْ حَوْلَهَا أَنْجُمُ زَهْرُ

شَكَكْنَا فَلَمْ تُثَبِّتْ^(٣) أَيَّامَ دَهْرِنَا بِهَا وَسَنٌ أَمْ هَزَّ أَعْطَافَهَا سُكْرُ
وَمَا إِنْ تَغَشَّتْهَا مُعَاذِلَةُ الْكَرَى وَمَا إِنْ تَمَشَّتْ - فِي مَفَاصِلِهَا^(٤) - خَمْرُ
سِوَى نَشَوَاتٍ - مِنْ سَجَايَا مُلْكٍ - يُصَدِّقُ فِي عِلْيَانِهَا الْخَبَرَ الْخَبْرُ

أَرَى الدَّهْرَ - إِنْ يَبْطِشُ - فَأَنْتَ يَمِينُهُ وَإِنْ تَضْحَكِ الدُّنْيَا فَأَنْتَ لَهَا تَعْرُ
وَكَمْ سَائِلٍ - بِالْغَيْبِ عَنْكَ - أَجَبْتُهُ : هُنَاكَ الْأَيَادِي الشَّفَعُ وَالسُّودَدُ الْوَلْوِلُ^(٥)
هُنَاكَ الثَّقَى وَالْعِلْمُ وَالْحِلْمُ وَالنَّهْيُ وَبَذَلُ اللَّهِ وَالْبَأْسُ وَالنَّظْمُ وَالنَّهْرُ

(١) أول الحجا : أرباب العقول ، والارب : العقل والدعاء والبصر بالأمور ، يقال أرب ككرم أرابه فهو أرب أى مافل وجاء فى نفح الطيب « اللب » بدل « لارب » ، وعشرون : بالاضافة ، وعشرون إذا أضيف سقطت منه النون لأنه ملحق بجمع المذكر السالم ، يقال : « هذه عشرون وعشرون » بتشديد الياء كسلى ، أى أن ثلاثين حجة أفادتكم من الحجا والعقل مالم تمطه غيرك السبعون .

(٢) ألسن الذى إن ضاق الناس ذرعا بحادث تهمل له وجهك بشرا ، واتسع له صدرك احتمالا وصبرا ، ثقة منك بأنك ستكشف النازلة ، وتدفع السكارثة .

(٣) وفى نفح الطيب : « فلم ندرك » (٤) وفى نفح الطيب : « مماطفها » .

(٥) أى : هناك الايدى أى النعم المزدوجة المتكررة والمجد المزدوج .

هُمَامٌ - إِذَا لَاقَى الْمُنَاجِزَ رَدَّهُ - وَإِقْبَالُهُ خَطْوُهُ ، وَإِذْ بَارَهُ حُضْرُ^(١)
مَحَاسِنُ ، مَا لِلرَّوَضِ - خَاوَرَهُ النَّدَى - رُؤَاؤُهُ إِذَا نُصَّتْ حُلَاهَا وَلَا نَشْرُ^(٢)
مَتَى أَنْتَشِقَّتْ لَمْ تُطَرِّ دَارَيْنِ مِسْكَهَا حَيَاءٌ ، وَلَمْ يَفْخَرْ بِعَنْبَرِهِ الشَّجَرُ^(٣)
عَطَاءٌ وَلَا مَنْ ، وَحُكْمٌ وَلَا هَوًى وَحِلْمٌ وَلَا عَجْزٌ ، وَعِزٌّ وَلَا كِبَرُ
قَدْ أُسْتَوْفَتِ النِّعَمَاءُ فِيكَ تَمَامَهَا عَلَيْنَا ، فَنَا الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّكْرُ

إلى ابن ذكوان

« كتب إلى الوزير أبي العباس بن/حاتم بن ذكوان »

لَسْتُ مِنْ بَابَةِ الْمُلُوكِ^(٤) أبا العباس ، دَعَهُمْ فَشَأْنُهُمْ غَيْرُ شَأْنِكَ
مَا جَزَاءُ الْوَزِيرِ مِنْكَ - إِذَا اخْتَصَّكَ - أَنْ تَسْتَمِرَّ فِي إِذْمَانِكَ
أَتْرَاهُ لَا يَسْتَرِيبُ لِإِمْسَا كَلِمِكَ ~~سَعْدُ الْعِرَاقِ~~ تَحْتَ لِسَانِكَ^(٥)
مُذْ نَهَانَا - عَنِ الْمُدَامِ - أَتَنْهَيْنَا مَعَ أَنَا نَعُدُّ مِنْ صِبْيَانِكَ .

(١) المناجز : من المناجرة وهي المبارزة في القتال والمقاتلة ، قال صيد :

كالهندوانى المهنــــــــــــد هزه القرن المناجز

والحضر : إحضار الفرس وعدوه ، يقول هو ملك همام إذا لاقى عدوه للمناجز في الحرب والقتال رده منهزما في حال كون إقباله بطيئا وإدباره سريعا .

(٢) نصت : وضعت على النصبة بكسر الميم وهي سرير العروس الذى تنص وتجلى عليه ليلة الزفاف ، والنشر : الرائحة الطيبة ، وفي الأصل « ولا بشر » والذى أثبتناه هنا رواية نفع الطيب .

(٣) لم تطر : لم تدمح ، ودارين : ثمر على الخليج الفارسى يجلب إليه الطيب من بلاد الهند ، والذى في نفع الطيب « لم تدر » والشجر : ساحل البحر - بين « عمان » و « عدن » - أو هو صقع على ساحل الخليج الفارسى وإلى هذا الصقع ينسب العنبر الشجرى ، وهناك عدة مدن بهذا الاسم كما يؤخذ من معجم البلدان ، والمعنى : متى فاح عبق تلك الحاسن لم تنن دارين على مسكها ولم يفخر الشجر بعنبره .

(٤) من بابة الملوك : من الشروط والوجوه التى تصلح لهم ، ويقال : « هذا شيء من بابك » أى يصلح لك . يقول : « لست من بيتهم » .

(٥) العراق : بالكسر الجلد المخروز على فم السقاء والزرق ونحوهما تشبه بخززه الأسنان في السرد ، والاستواء ، وجاء في الأصل « سعد العراق » يقول : أترى الوزير لا يقع في الريبة لوضعك مسرودة العراق تحت لسانك ، يريد أنه يحتمى الحر من فم زق معرق أى على فم عراق .

إلى المعتمد

« كتب ابن زيدون إلى المعتمد يشوقه إلى تعاطي
الحيا في قصوره البديعة التي منها المبارك والثريا (١) . »

فَزِ بِالنَّجَاحِ وَأُخْرِزِ الْإِقْبَالَ وَخُزِ الْمُنَى وَتَنْجِزِ الْآمَالَ
وَلَيْهِنِكَ التَّأْيِيدُ وَالظَّفَرُ الَّذَا صَدَقَاكَ فِي السَّيِّئَةِ الْعَلِيَّةِ - فَالَا
يَأْيُهَا الْمَلِكُ الَّذِي لَوْلَاهُ لَمْ تَجِدِ الْعُقُولُ النَّاشِدَاتُ كَمَا لَا

* *

أَمَّا « الثُّرَيَّا » (٢) فَالْثُّرَيَّا نَصَبَةً وَإِفَادَةً وَإِنَافَةً وَجَمَالًا
قَدْ شَاقَهَا الْإِغْبَابُ حَتَّى أَنَّهَا لَوْ تَسْتَطِيعُ سَرَتْ إِلَيْكَ خَيَالًا
رَفَهُ (٣) وَرُودُكَهَا لِتَنْعَمَ رَاحَةً وَأُطْلِ مَزَارَكَهَا لِتَنْعَمَ بَالًا

* *

وَتَمَثِّلُ الْقُصْرَ « الْمُبَارَك » وَجَنَّةً قَدْ وَسَّطَتْ فِيهَا « الثُّرَيَّا » خَالًا
وَأَدِرْ هُنَاكَ مِنَ الْمُدَامِ أَتَمَّهَا أَرْجَا زَكَا وَأُشْفَهَا جِرْ يَالَا (٤)
قُصْرٌ يَقْرَأُ الْعَيْنُ مِنْهُ مَصْنَعٌ يَهْجُ الْجَوَانِبِ، لَوْ مَشَى لِأَخْتَالَا
لَا زِلْتَ تَفْتَرِشُ السُّرُورُ حَذَائِقًا فِيهِ ، وَتَلْتَحِفُ النَّعِيمَ ظِلَالًا .

(١) وردت هذه القصيدة في الديوان ولم يكتب لها عنوان ، وقد نقلنا هذه الكلمة من نفع الطيب .

(٢) يعنى قصره المسمى « الثريا » .

(٣) أى اجعل ورودك ايها رفها أى كل يوم ، يقال وردت الابل رفها إذا كانت ترد الماء كلما

شاءت الورد . (٤) الجريال : الحمر ، أو حمرتها وسيأتى تفسيرها في ص « ١٥٥ »

مدح ورثاء وتهنئة ^(١)

« وقال أيضا يمدحه ويرثى الوزير الكاتب الأعلى

أبا الحزم أباه رجهما الله . »

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ صَمَّهَا الْقَبْرُ وَأَنَّ الْحَيَا ^(٢) - إِنْ كَانَ أَقْلَعَ صَوْبُهُ -
فَقَدْ فَاضَ لِلْأَمَالِ فِي إِثْرِهِ الْبَحْرُ وَذَنْبُ زَمَانٍ جَاءَ يَتَّبِعُهُ الْعُذْرُ
إِسَاءَةُ دَهْرٍ أَحْسَنَ الْفِعْلَ بِمَدَّهَا، فَلَا يَتَهَنَّ الْكَاشِحُونَ فَمَا دَجَا
وَأِنْ يَكُ وَلَى « جَهْوَرٌ » ، « فَحَمْدُهُ »
وَأَنْ قَدْ كَفَانَا - فَقَدْ نَا الْقَمَرَ - الْبَدْرُ
فَقَدْ فَاضَ لِلْأَمَالِ فِي إِثْرِهِ الْبَحْرُ
وَذَنْبُ زَمَانٍ جَاءَ يَتَّبِعُهُ الْعُذْرُ
لَنَا اللَّيْلُ إِلَّا رَيْثَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ
خَلِيفَتُهُ الْعَدْلُ الرِّضَى وَأَبْنَاهُ الْبَرُّ

* *

لَعَمْرِي لَنِعَمَ الْعِلْقُ ^(٣) أَتْلَفَهُ الرَّدَى هَزَزْنَا بِهِ الصَّمْصَامَ ^(٤) فَأَعَزَّمُ حَذَهُ
وَحِلْيَتُهُ الْعَلِيَا وَإِفْرِنْدُهُ الْبِشْرُ فَتَى يَجْمَعُ الْمَجْدَ الْمَفْرَقَ هَمَّهُ
وَيُنْظَمُ - فِي أَخْلَاقِهِ - السُّودُودُ النَّثْرُ أَهَابَتْ إِلَيْهِ بِالْقُلُوبِ نَجَبَةٌ
هِيَ السَّحَرُ لِلْأَهْوَاءِ، بَلْ دُونَهَا السَّحَرُ سَرَتْ - حَيْثُ لَا تَسْرَى مِنَ الْأَنْفُسِ الْمُنَى -
وَدَبَّتْ دَيْبًا لَيْسَ يُحْسِنُهُ الْخَمْرُ لَبَسْنَا لَدَيْهِ الْأَمْنَ تَنْدَى ظِلَالُهُ
وَزَهْرَةَ عَيْشٍ مِثْلَ مَا أَيْنَعَ الزَّهْرُ وَعَادَتْ لَنَا عَادَاتُ دُنْيَا كَأَنَّهَا
بِهَا وَسَنُ أَوْ هَزَّ أَعْطَافَهَا سُكْرُ

* *

مَلِكُ لَهُ مِنَّا النَّصِيحَةُ وَالْهَوَى وَمِنْهُ الْأَيَادِي الْبَيْضُ وَالنَّعْمُ الْخُضْرُ

(١) أرجع إلى ص « ١٤٠ » و ص « ١٧٤ » من هذا الديوان .

(٢) المطر . (٣) النفيس . (٤) الحسام .

نَسِرْتُ وَفَاءً - حِينَ تَعْلِنُ طَاعَةً - فَمَا خَانَهُ سِرٌّ وَلَا رَابَهُ جَهْرٌ
فَقُلْ لِلْحَيَارَى: « قَدْ بَدَأَ عِلْمُ الْهُدَى » وَلَا طَامِعِ الْمَغْرُورِ: « قَدْ قُضِيَ الْأَمْرُ »^(١)

* *

« أَبَا الْحَزَمِ » قَدْ ذَابَتْ عَلَيْكَ مِنَ الْأَسَى - قُلُوبٌ مُنَاهَا الصَّبْرُ، لَوْ سَاعَدَ الصَّبْرُ
دَعِ الدَّهْرَ يَفْجَعُ بِالذَّخَائِرِ أَهْلَهُ - فَمَا لِنَفْسٍ - مُذْ طَوَاكَ الرَّدَى - قَدْ رُ
تَهَوُّنُ الرِّزَايَا بَعْدُ - وَهِيَ جَلِيلَةٌ - وَيُعْرِفُ - مُذْ فَارَقْتَنَا - الْحَادِثُ النُّكْرُ
فَقَدْ نَاكَ فَقْدَانُ السَّحَابَةِ لَمْ يَزَلْ - لَهَا أَمْرٌ يُعْنِي بِهِ السَّهْلُ وَالْوَعْرُ
مَسَاعِيكَ حَلَّى لِلْيَالِي مُرْصَعٌ - وَذِكْرُكَ - فِي أَرْذَانِ أَيَّامِهَا - عِطْرُ
فَلَا تَبْعَدَنَّ إِنَّ الْمَنِيَّةَ غَايَةٌ - إِلَيْهَا التَّنَاهَى طَالَ أَوْ قَصُرَ الْعُمُرُ

* *

عَزَاءٌ - فَدَتْكَ النَّفْسُ عَنْهُ - فَإِنْ ثَوَى - فَإِنَّكَ لَا الْوَانِي وَلَا الضَّرْعُ الْغُمُرُ
وَمَا الرُّزْءُ فِي أَنْ يُودَعَ التُّرْبَ هَالِكٌ - بَلِ الرُّزْءُ كُلُّ الرُّزْءِ أَنْ يَهْلِكَ الْأَجْرُ
أَمَامَكَ - مِنْ حِفْظِ الْإِلَهِ - طَلِيعَةٌ - وَحَوْلَكَ - مِنْ آلَائِهِ - عَسْكَرٌ مَجْرُ
وَمَا بِكَ مِنْ فَقْرٍ إِلَى نَصْرِ نَاصِرٍ - كَفَتْكَ مِنَ اللَّهِ الْكَلَاءَةُ^(٢) وَالنَّصْرُ

* *

لَكَ الْخَيْرُ، إِنِّي وَاثِقٌ بِكَ شَاكِرٌ - لِمَنْشَى أَيْادِيكَ الَّتِي كَفَرُهَا الْكُفْرُ
تَحَامَى الْعِدَا - لَمَّا اُعْتَلَقْتُكَ - جَانِبِي - وَقَالَ الْمُنَاوِي: شَبَّ عَنْ طَوْقِهِ قَهْرُ^(٣)

(١) قريب من هذا قول ابن هاني الأندلسي :

تقول بنو العباس : « هل فتحت مصر ؟ » فقال لبني العباس : « قد قضى الأمر »

(٢) الرطابة والحفظ . (٣) ارجع إلى تفسير هذا المثل في (ص ١٤٥) من هذا الكتاب .

يَلِينُ كَلَامُهُ كَانَ يَخْشُنُ مِنْهُمْ وَيَفْتَرُ نَحْوِي ذَلِكَ النَّظْرُ الشَّرُّ

☆
☆

فَصَدَّقْ ظُنُونًا لِي وَفِيَّ ، فَإِنِّي لَأَهْلُ الْيَدِ الْبَيْضَاءِ مِنْكَ وَلَا فَخْرُ
وَمَنْ يَكُ - لِلدُّنْيَا وَلِلْوَفْرِ - سَعِيهِ فَتَقَرِّبُكَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالَكَ الْوَفْرُ (١)

هدية عنب

« وأهدى إلى الوزير الفقيه صاحب الأحكام أبي بكر
محمد بن محمد بن إبراهيم جدّه لأمّه عنباً عذاري
وكتب معه . »

أَتَاكَ مُحْيِيًّا عَنِّي احْتِنَانًا عَذَارِي دُونَهُ رِيْقُ الْعَذَارَى (٢)
تَخَالُ الشَّهْدَ مِنْهُ مَسْتَمَدًّا وَنَفَحَ الْمِسْكَ مِنْهُ مُسْتَعَارًا
يَرُوقُ الْعَيْنَ مِنْهُ جِسْمُ مَاءٍ غَدَا ثَوْبُ الْهَوَاءِ لَهُ شِعَارًا
وَلَوْلَا أَنِّي قَدْ نِلْتُ مِنْهُ وَلَمْ أُسْكِرْ - خَلِمْتُ بِهِ عُقَارًا
بَعَثْتُ بِهِ وَلَوْ أَهْدَيْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ ، لَكَانَ مِنْ بَرِّي اقْتِصَارًا
فَأَنْعِمَ بِالْقَبُولِ فَرُبَّ نَعْمَى أَعَدْتُ بِهَا دُجَى لَيْلِي نَهَارًا.

(١) يقول : إن من كانت غايته من الدنيا أن تتقبل عليه وأن ينال الغنى فإنه يظفر بهما جميعاً حين تدينه منك وتقبل عليه .

(٢) العذاري : صنف من العنب يشبه بأصابع العذاري لطوله ، يقول : أذاك يحمل تحيتي معذراً إليك
« عنب عذاري » حلو دونه في الحلاوة ريق العذاري .

رثاء ابن ذكوان

« قال يرثي القاضي أبا بكر بن ذكوان . »

أعجب لحال السرو كيف تحال^(١) ولِدَوْلَةِ العلياء كيف تُدال^(٢)
لَا تَفْسَحَنَّ لِلنَّفْسِ فِي شَأْوِ الْمُنَى إِنَّ أُغْتِرَارَكَ - بِالْمُنَى - لَضَلَالُ
مَا أُمْتَعَ الآمالَ لَوْلَا أَنَّهَا تَعْتَاقُ - دُونَ مُبْلُوغِهَا - الْآجَالَ^(٣)
مَنْ سُرَّ - لَمَّا عَاشَ - قَلَّ مَتَاعُهُ فَالْعَيْشُ نَوْمٌ وَالسُّرُورُ خِيَالُ^(٤)

* *

فِي كُلِّ يَوْمٍ نُنْتَحِي بِرِزْيَةٍ لِلْأَرْضِ - مِنْ بُرَحَاتِهَا - زَلْزَالُ^(٥)
إِنْ يَنْكَدِرُ بِالْأَمْسِ - نَجْمٌ ثَاقِبٌ فَالْيَوْمَ أَقْلَعَ عَارِضٌ هَطَّالُ^(٦)
إِنَّ النَّعْيَ « جِهْوَرٍ » وَ « مُحَمَّدٍ » أُنْكِي النِّعَامَ ، فَدَمَعُهُ مُنْثَالُ^(٧)
شَكْلَانِ - إِنَّ حُمَّ الْحِمَامِ - تَجَاذِبَا لَا غَرَوَ أَنْ تَتَجَاذَبَ الْأَشْكَالُ^(٨)

(١) السرو : الشرف والسيادة ، يقول : أعجب لهذا المجد كيف حال من عهده وتحول ، وأعجب لدولة العلياء كيف دالت وتبدلت . (٢) يقول : إن أحسن شيء تمنع به النفس الآمال ، لولا أن الآجال ، تعوق دون بلوغ الآمال .

(٣) من سره العيش في هذه الحياة الدنيا فليعلم أن متاعها قليل ، وأن الناس فيها نيام لا انتباه لهم ولا يقظة إلا بعد الموت إذن فسرورها خيال ، وفروورها باطل .

(٤) ننتحي : نقصد ، يقال انتحاه إذا قصد ناحيته ، والبرحاء : الشدة .

(٥) ينكدر : ينقض ويسقط ، قال تعالى « وإذا النجوم انكدرت » أي تناثرت ، والعارض : السحاب ، يقول : إن موت أبي بكر القاضي جاء عقب موت اثنين من آل جهور سيذكركهما في البيت التالي لهذا البيت .

(٦) النعي : كنى الناعي ، من نعى الميت ينعاه إذا أخبر بموته ، ومنثال : من نثر الدمع وغيره استخرجه .

(٧) حم : قدر ، والحمام : الموت ، يقول : « جهور » و « محمد » شكلان متجانسان حم الموت على أحدهما فاجذب إليه شكله ، وكذلك الأشكال تتجاذب .

وَلِيَّ « أَبُو بَكْرٍ » فَرَاعَ لَهُ الْوَرَى
قَرْمُ هَوَى فِي الثَّرْبِ - تُحْنِي 'فَوْقَهُ' -
قَدْ قُلْتُ - إِذْ قِيلَ السَّرِيرُ يُقْلَهُ -
الآنَ بَيْنَ لِلْعُقُولِ زَوَالُهُ
مَا أَقْبَحَ الدُّنْيَا ! خِلَافَ مُودَعٍ
هَوْلٌ تَقَاصَرُ - دُونَهُ - الْأَهْوَالُ
لِلَّهِ مَا حَازَ الثَّرَى الْمُنْهَالُ ^(١)
هَلْ لِلْسَّرِيرِ بِقَدَرِهِ أَسْتِقْلَالُ ؟
أَنَّ الْجِبَالَ قُصَارُهُنَّ زَوَالُ
غَنِيَتٌ بِهِ فِي حُسْنِهَا تَحْتَالُ ^(٢)

يَا قَبْرَهُ الْعَطَرِ الثَّرَى لَا يَبْعَدُنْ
مَا أَنْتَ إِلَّا الْجَفْنُ أَصْبَحَ طَيِّهٌ
فَهَنَّاكَ نَفَاحُ الشَّمَائِلِ مِثْلَ مَا
حُلُوٌّ مِنَ الْفَتَيَانِ فِيكَ حَلَالُ ^(٣)
نَضَلْتُ عَلَيْهِ - مِنَ الشَّبَابِ - صِقَالُ ^(٤)
طَرَقَتْ بِأَنْفَاسِ الرِّيَاضِ شَمَالُ ^(٥)

(١) تحنى : تهال فوقه ، والثرى : التراب الندى .

(٢) خلاف مودع : أى بعده ، يقال جاء فلان خلاف فلان أى بعده ، قال تعالى « وإذن لا يلبثون خلافاً إلا قليلاً » أى خلفك كما فى القراءة الثانية ، والمعنى : ما أقبح الدنيا بعد هذا الراحل المودع الذى كانت الدنيا به تختال كالعروس المستغنية بجمالها عن الزينة ثم أصبحت بعده قبيحة دمية .

(٣) الحلو الحلال : من الفتيان هو الفتى الذى لاربية فيه الموثوق به ، قال الشاعر :

« ألا ذهب الحلو الحلال الحلال ومن قوله حكم وعدل ونائل . »

وقال الآخر :

« رأيت رباطاً حين تم شـبابه وولى شـبابى ليس فى بره عتب

إذا كان أولاد الرجل حرازة فأنت الحلال الحلو والبارد العذب . »

والمعنى : يا قبره الشذى العطر ثراه لا يبعدن فيك من الفتيان ذلك الفتى الحلو الحلال أى الذى لاشك ولا ربية فى رجولته وفنوته .

(٤) ما أنت أيها القبر إلا جفن طوى فيه فتى كنصل السيف صقل بصقال الشباب .

(٥) هناك أى فى ذلك القبر وورى فتى شمائله وطباعه تنفع بأنواع العطر . بل ما هبت بأنفاس الرياض ريح الفم .

دَانٍ مِنَ الْخُلُقِ الْمُزِينِ ، نَارِخُ عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْهِ مَقَالُ (١)
شِيمٌ يُنَافِسُ حُسْنَهَا إِحْسَانَهَا كَالرَّاحِ نَافَسَ طَعْمَهَا الْجِرْيَالُ (٢)

* * *

يَا مَنْ شَأَى الْأَمْثَالِ ، مِنْهُ وَاحِدٌ ضُرِبَتْ بِهِ فِي السُّودَدِ الْأَمْثَالُ (٣)
تَقَصَّتْ حَيَاتُكَ حِينَ فَضْلِكَ كَامِلٌ هَلَّا أَسْتُضِيفَ إِلَى الْكَمَالِ - كَمَالُ (٤)
وَدَّعْتَ عَنْ عُمْرٍ عَمَرْتَ قَصِيرَهُ بِمَكَارِمِ أَعْمَارُهُنَّ طَوَالُ
مَنْ لِلنَّدَى إِذَا تَنَازَعَ أَهْلُهُ فَاسْتَجْهَلَتْ خُلَمَاءُ هُ الْجُهَالُ (٥)
لَوْ كُنْتَ شَاهِدَهُمْ لَقُلَّ مِرَاؤُهُمْ لِأَغْرَفٍ فِيهِ - مَعَ الْفَتَاءِ - جَلَالُ (٦)

(١) دان : قريب من كل خالق حميد يزينه ، نازح : يعبد من كل فعل فيه عليه لوموه وإخذة وعيب ، ولفظه كلفظ قول الشاعر :

« إذا أنت لم تعص الهوى فادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال . »

(٢) جريال الحر : حررتها الشديدة ، قال الأعشى :

« وسبيته مما تمنى بابل كدم الذبيح سلبتها جريالها . »

ومعنى سلبتها جريالها - أى لونها وحررتها - أن لونها ظهر على وجهه حين شربها ولكنها حين خرجت منه عند البول خرجت بيضاء ، وبطابق الجريال والجريالة على الحر نفسها ، قال ذو الرمة :

« كَأَنِّي أَخُو جَرِيَالَةٍ بِابِلِيَّةٍ كَمِيتٍ تَمَشَتْ فِي الْعِظَامِ شَعْوَاهَا . »

وقالوا في السلاف - وهو أول ما يجري من ماء العنب من غير عصر ولونه أصفر - إنه أجود من الجريال . قال المتنبي :

« واقد خبأت من الكلام سلافه وسقيت من نادمت من جرياله . »

ومعنى البيت الذي نحن بصددده : نافس إحسان شيمك وخلالك حسنهما كما نافس لون الراح طعمها ، حين جمعت إلى لذة الطعم حسن اللون .

(٣) وفي الأصل : « يا من شاء . »

(٤) طاجنك الدنيا في الوقت الذي كل فيه فضلك ، فهلا نسيء في عمرك حتى تستضيف كمالا إلى كمالك .

(٥) الندى : المجلس ، واستجهلت نسبتهم إلى الجهل ، والخلماء : أصحاب الأحلام أى العقول .

(٦) لو كنت حاضر مجلسهم لاحتهم فلم يعاروك وبجادوك إذعانا لأغر فيه مع فتاء السن وقار وهيبة .

* * *

مَنْ لِلْعُلُومِ؟ فَقَدْ هَوَى الْعِلْمُ الَّذِي
مَنْ لِلْقَضَاءِ يَعِزُّ (٢) - فِي أَثْنَائِهِ -
مَنْ لِلْيَتِيمِ تَتَابَعَتْ أَرْزَاؤُهُ؟
أَعَزَّ بِأَنْ يَنْعَاكَ نَعَى شِمَاتَةٍ
جُمِعَتْ رَحَى الْإِسْلَامِ مِنْكَ بِقُطْبِهَا
وُسِّمَتْ بِهِ أَنْوَاعُهَا الْأَغْفَالُ (١)
إِيضَاحُ مُظْلِمَةٍ لَهَا إِشْكَالُ؟
هَلَكَ الْأَبُ الْحَانِي وَضَاعَ الْمَالُ!
لِلْأَوْلِيَاءِ الْمَعَشَرُ الْأَقْتَالُ (٣)
لَيْتَ الْحُسُودَ فِدَاكَ فَهَوُ ثِقَالُ (٤)

* * *

زُرْنَاكَ لَمْ تَأْذَنْ كَأَنَّكَ غَافِلٌ
أَيْنَ الْحَفَاوَةُ رَوْضُهَا غَضُّ الْجَنَى
أَيَّامَ مَنْ يَعْرِضُ عَلَيْكَ وَدَادَهُ
مَهْمَا نُعِيكَ لَا تُزْبِكَ وَإِنْ نَزُرُ
هَيْنَاتٍ لَا عَهْدَ - كَعَهْدِكَ - عَائِدُ
مَا كَانَ مِنْكَ لَوَاجِبِ إِغْفَالُ
أَيْنَ الطَّلَاقَةُ بِشْرُهَا سَلَسَالُ
يَكُنِ الْقَبُولُ بِشِيرُهُ الْإِقْبَالُ
رِفْهَا فَمَا لِرِّيَاةٍ إِمْلَالُ (٥)
إِذْ أَنْتَ فِي وَجْهِ الزَّمَانِ جَمَالُ

(١) العلوم المتروكة لصعوبة الخوض فيها إلا على أمثاله من الباحثين .

(٢) يقل ويمتنع فلا يوجد لاشكها حل .

(٣) أعز : أعظم على نفسى منعاك نعى شماتة أى يمز على ويشقى على نفسى أن ينعاك الأفتال : الأعداء نعى شماتة لأوليائك وأصفيائك .

(٤) قطب الرضى : الحديدة القائمة فى وسط الرضى السفلى ، وهو الذى يدور عليه طبق الرضى العليا جعل للإسلام رضى هو قطبها الذى تدور عليه ، يعنى أن عليه نظام الإسلام ، ومدار الأحكام ، والنفا ما يوضع تحت الرضى من جلد ونحوه ليقى ما يسقط عند الطحن من التراب ، وهذا لا يكون إلا فى ريد ، قال زهير . « فتعركم عرك الرضى بثقالها » ، والمعنى فجع الإسلام بقطب العلماء ورؤسهم وليت الحسود كان فداء لك فمركة الموت عرك الرضى فوق ثقالها أى ليت رضى الموت دارت على حاسدك وشانك

(٥) نبتك : الاغياب أن تزوره يوما وتغيبه أى تنقطع عنه يوما أو أياما ، ورفها : هو من ورود الافرها وهو أن ترد الماء كلما شاءت الوردود ، والمعنى : مهما انقطعنا عن زيارتك لم ترتب فى ودنا ، وإا زرنالك رفها وفى كل وقت لم تسأم ولم تمل الزيارة .

فَاذْهَبْ ذَهَابَ الْبُرِّ أَعْقَبَهُ الضَّنَى وَالْأَمْنِ وَافَتْ بَعْدَهُ الْإِجَالُ ^(١)
لَكَ صَالِحُ الْأَعْمَالِ إِذْ شَيَّعَتْهَا بِالْبُرِّ سَاعَةً تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ
حَيًّا حَيًّا مَثْوَاكَ، وَأَمْتَدَّتْ عَلَى صَاحِي ثَرَاكَ - مِنَ النِّعَمِ - ظِلَالُ ^(٢)
وَإِذَا النَّسِيمُ أُعْتَلَّ فَأَعْتَامَتْ بِهِ سَاحَاتِكَ الْغَدَوَاتُ وَالْأَصَالُ ^(٣)
وَلَيْتَ أَذَالَكَ - بَعْدَ طُولِ صِيَانَةٍ - قَدَرٌ، فَكُلُّ مَصُونِهِ سِيذَالُ ^(٤)
سَيَحُوطُ مَنْ خَلَفَتْهُ مُسْتَبْصِرٌ فِي حِفْظٍ مَا اسْتَحْفَظَتْهُ لَا يَالُو
كَفَلَ الْوَزِيرُ «أَبُو الْوَلِيدِ» بِجَبْرِهِمْ إِنَّ الْوَزِيرَ - لِمِثْلِهَا - فَعَالُ
مَلِكٌ سَجِيَّتُهُ الْوَفَاءُ فَالَهُ بِالْمَهْدِ - فِي ذِي خُلَّةٍ - إِخْلَالُ
خَتَمٌ عَلَيْهِ لَعَا ^(٥) لِعَثْرَةٍ حَالِهِمْ قَدْ تَعَثَّرُ الْحَالَاتُ ثُمَّ تُقَالُ
إِيهًا: بَنِي ذَكْوَانَ - إِنْ غَلَبَ الْأَسَى - فَلَكُمْ إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ مَالُ
إِنْ كَانَ غَابَ الْبَدْرُ عَنْ سَاهُورِهِ مِنْكُمْ وَفَارَقَ غَابَهُ الرَّثْبَالُ ^(٦)

- (١) اذهب على رغم منا ذهاب المافية جاء عقبها المرض ، والأمن وافى بعده الأجل .
(٢) الحيا : المطر ، والمثوى ، القبر ، وصاحي ثراك : أى ثراك الضاحى أى البارز للشمس .
(٣) اعتامت : اختارت ، ومنه قول طرفة :
« أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى حقيلة مال الفاحش المتشدد . »
والمعنى : اعتامت أى اختارت الغدوات والأصال ساحات القبر وآثرتها بمرور النسيم العليل .
(٤) أذاك : أهانك ، أى لئن امتنك القدر بعد طول صيانه ، فكل مصون لم تمتد إليه يد القدر سيذال ويهان يوما من الأيام .
(٥) دعاء للعائر أن يقيه الله من عثرته ، وإذا قيل « لالما للعائر » فعناه لا أقاله الله من عثرته .
قال ابن دريد :
« فان عثرت بعدها - إن وأت - نفسى من هاتا - نفولا : « لالما »
وإن تكن مدتها موصولة بالحتف ، سلطت الأسى على الأسى . »
وقال الأخطل :
« فلا هدى الله قيسا - من ضلالتهم - ولا لما لبني ذكوان إذ عثروا . »
(٦) الساهور : دائرة القمر ، والرثبال : الأسد .

في مدح المعتضد

« قال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله
أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد . »

أَعَرَفُكَ رَاحَ فِي عُرْفِ الرِّيحِ ؟ فَهَزَّ مِنَ الْهُوَى عِطْفَ أَرْتِيَا حِي^(١)
وَذِكْرُكَ مَا تَعَرَّضَ أَمْ عَذَابٌ ؟ غَصِصْتُ عَلَيْهِ بِالْعَذْبِ الْقَرَّاحِ^(٢)
وَهَلْ أَنَا مِنْكَ فِي نَشَوَاتِ شَوْقٍ - هَفَّتْ بِالْعَقْلِ - أَوْ نَشَوَاتِ رَاحِ^(٣)
لَعَمْرُ هَوَاكَ مَا وَرَيْتَ زِنَادُ لَوْصَلِ مِنْكَ طَالَ لَهَا أَقْتِدَا حِي^(٤)
وَكَمْ أَسْقَمْتُ - مِنْ قَلْبٍ صَحِيحٍ - بِسُقْمِ جُفُونِكَ الْمَرْضَى الصَّحَّاحِ

مَتَى أَخِيفُ الْغَرَامَ يَصِفُهُ جِسْمِي بِالْسِّنَةِ الضَّنَى الْخُرْسِ الْفِصَّاحِ^(٥)
فَلَوْ أَنَّ الثِّيَابَ فُحِصْنَ عَنِّي خَفِيتُ خَفَاءَ خَصْرِكَ فِي الْوِشَاحِ

(١) العرف : بالفتح الرائحة الطيبة ، والعرف : بالضم واحد أعراف الرياح وهي أوائلها وأطالها والعطف : الجانب وما تنبيهه إذا عطفت على شيء حفرها وإشفاقا ، وتحركه إذا هزتك أريحته ، والمعنى أهرتك وطيبك سرى إلى أوائل الرياح التي هبت مائجة من ناحيتك ، فتدنى نحوك بما طقة الهوى والارتياح
(٢) غصصت : كثرت بالماء وزنا ومعنى ، أو وقف في حلقه فلم يسغه ، والقراح : الماء الذي لم يخالده غيره ، يقول : وهل ماعرض ذكرك أم عذاب شرقت لأجله بالماء المذب الذي لم يشبهه شائبة فلم أسغه ، و الأصل « وذكرك ماعرض أم عداد »

(٣) نشوات : واحدها نشوة ، والنشوة تكون من الريح ومن السكر وهي من السكر أوائله ومقدماته وهفت بالعقل : ذهبت به ، يقال : همت الريح بالشئ تهفو أي ذهبت به ، والمعنى . هل أنا من أجل هواك وبسبب ذكرك ، في نشوات من ريح الشوق أو نشوات من سكر الراح أطارت عقلي وأذهبت لي .

(٤) أقسم بهواك لأن طول اقتداحي لزناد الوصل لم يورث ناراً .

(٥) في الوقت الذي أخفي فيه غرامي عن الماذلين يتم على تحول جسمي بالسنة ناراض الخرساء المفصحة

لَلْقَيْنَا مِنَ الْوَاشِينَ حَتَّى رَضِينَا الرُّسُلَ أَنْفَاسَ الرِّيَّاحِ (١)
وَرُبَّ ظَلَامٍ لَيْلٍ جَنِّ فَوْقِ فَنُبْتُ عَنِ الصَّبَاحِ إِلَى الصَّبَاحِ (٢)
فَهَلْ عَدَّتِ الْعَفَافَ هُنَاكَ نَفْسِي - فَدَيْتُكَ - أَوْجَنَحْتُ إِلَى الْجَنَاحِ (٣)

* * *

وَكَيْفَ أَلْجُ لَا يَنْثِنِي عِنَانِي رَشَادُ الْعَزْمِ عَنْ غَيِّ الْجِمَاحِ (٤)
وَمِنْ سِرِّ ابْنِ « عَبَادٍ » دَلِيلُ بِهِ بَانَ الْفَسَادُ مِنَ الصَّلَاحِ
هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي بَرَّتْ فَسَرَّتْ خِلَالُ مِنْهُ طَاهِرَةُ النَّوَاحِي
هُمْ أَمْ خَطُ - بِالْهَمَمِ السَّوَامِي - مِنَ الْعَلَيَاءِ فِي الْخُطَطِ الْفَسَاحِ (٥)
أَغْرُ إِذَا تَجَهَّمْ وَجْهُ دَهْرٍ تَبَلَّجَ فِيهِ كَالْقَمَرِ اللَّيَّاحِ (٦)

(١) لقد تعلمنا من الواشين حيلهم في الوقوف على مكتوم أسرارنا ، حتى أصب-حنا نفع بأن تكون
أنفاس الرياح بريداً يحمل عنا رسائل الحب والغرام ، وقد أبدع ابن الرومي حيث يقول :
« أحباي كم لي نحوكم من تحية أحملها هبات كل جنوب
فلا تتركوا رد السلام إذا جرت شمال على نائي المحل غريب . »
(٢) كثيراً ما أرخى الليل علينا سدوله ، فبت في ظلامه عن الصباح إلى أن أسفر الصباح وقريب من
هذا قول أبي تمام :

« رحن والليل قد أقام رواقاً فأقن الصباح فيه صوداً . »

(٣) لم تعد نفسي في تلك الليلة التي نمت فيها بالحبيب حدود العفاف ، ولم تمل إلى ارتكاب ما يخالف
طبيعة الحب البريء مما فيه لائم علينا وجناح ، وفي هذا المعنى يقول ابن المعتز :
« كم قد خلوت بها وثائنا التقى يحمى على العطشان برد المورده . »

(٤) في هذا البيت والذي بعده تخلص من النسيب إلى المدح حيث يقول : كيف أُلج في الهوى ، وأنمادى
في النوى ، ولا يثنى عنان جماحي اعتزامي الرشده ، في حال أن لي من سر « ابن عباد » وقوة نفسه دليل
عرفت به الرشده من النوى ، والصلاحي من الفساد .

(٥) خط : اختط الأرض وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد احتازها لبيئها ، والخطط :
جمع خطه بكسر أولهما ، وهي الأرض التي يخطها لنفسه ليدنى عليها .

(٦) اللياح : بكسر وفتح أوله الأبيض المتلألئ .

سَمِيعُ النَّصْرِ لِاسْتِعْدَاءِ جَارِ
ضَرَائِبُ جَهْمَةٍ - فِي الْعَتَبِ - تُثَلَّى
إِذَا أَرَجَ الشَّاءَ الرَّوْعُ مِنْهَا
هُوَ الْمُبْقَى مُلُوكَ الْأَرْضِ تَدْمَى
رَأَهُ اللَّهُ أَجُودَ بِالْعَطَايَا
وَأَفْرَسَ لِلْمَنَابِرِ وَالْمَذَاكِي
وَأَمْنَعَهُمْ حِمَى عَرَضِ مَضُونٍ
فَرَّاضَ لَهُ الْوَرَى حَتَّى تَأْدَّتْ
« لِمُعْتَصِدٍ » بِهِ أَرْضَاهُ سَفِيًّا
فَمَنْ قَاسَ الْمُلُوكَ إِلَيْهِ جَهْلًا
أَصَمُّ الْجُودِ عَنْ تَفْنِيدِ لَاحٍ^(١)
بِأَخْلَاقٍ لَدَى الْعُتْبَى مِلَاحٍ^(٢)
فَكَمَ لِلْمِسْكِ عَنْهُ مِنْ أَفْتِضَاحِ
قُلُوبِهِمْ كَأَفْوَاهِ الْجِرَاحِ
وَأَطْعَنَ بِالْمَكَائِدِ وَالرِّمَاحِ
وَأَبْنَى فِي الْبُرُودِ وَفِي السَّلَاحِ^(٣)
وَأَوْسَعَهُمْ ذُرًّا مَالٍ مُبَاحٍ
إِلَيْهِ إِتَاوَةٌ الْحَى الْقَاحِ^(٤)
فَأَقْبَلَ وَجْهَهُ وَجْهَ الْفَلَاحِ^(٥)
كَمَنْ قَاسَ النُّجُومَ إِلَى بَرَّاحٍ^(٦)

(١) الاستعداد : الاستعانة وطلب النصرة ، والتفنيد : الاثام وتضييف الرأى ، ولاح : اسم فاعل من لحاه يلحاه إذا لامه وعذله .

(٢) ضرائب : سجاجيا وطبائع جمع ضريبة ، وجهمة : طابسة من جهمة إذا استقبله بوجه كريمة ، والعتبي الرجوع إلى ما يرضى العاتب . وفي المثل « لك العتي ولا أعود » أى لك منى أن أعتبك أى أرضيك وأعود إلى ما يستغظك .

(٣) أفرس : أفلت تفضيل من الفراسة بالفتح والفروسة والفروسية وهى الخندق بركوب الخيل وفي المثل : أفرس من ملاعب الأسنة ، وأفرس من عامر ، وأفرس من بظام ، والمذاكي : الخيل التى أ عليها بعد تمام السن أى - بلوغها النهاية فى الشباب - سنة أو سنتان ، والمعنى أنه أحذق للملوك باعتلاء المنا وركوب الخيل وأبهاهم لباسا ولبوسا فى السلم والحرب .

(٤) الاتاوة : الحراج وكل ما أخذ بكرة أو فرض من أموال الجباية ، والحى القاح : فى اللسان قاح وحى لقاح لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصيبهم فى الجاهلية سباء أنشد ابن الأعرابي :

« لعمر أليك والأبناء تنمى لنعم الحى فى الجسلى رباح
أبوا دين الملوك فهم لقاح إذا هيجوا إلى حرب أشاحوا . »

(٥) أقبل وجهه : من قولهم أقبلته الشيء أى جعلته يلى قبائلته وجهته والمعنى أن سكان الحواضر والبوا دانوا بالطاعة « لمعتصد » بالله أرضت مولاه مساعيه فأقبل الله وجهه وجه الفلاح أى جعل وجهه يست جهة الفلاح : (٦) إلى أرض ظاهرة .

وَمُعْتَقِدُ الرِّيَاسَةِ فِي سِوَاهُ كَمُعْتَقِدِ النُّبُوَّةِ فِي سَجَّاحٍ (١)

(١) هي « سجاج » بنت الحرث بن سويد بن عصفان التميمية ، وكانت تسكن الجزيرة في أخوالها من بني تغلب ، فادعت النبوة وخرجت تريد غزو المدينة في عهد « أبي بكر » رضي الله عنه ، وحجرت بينها وبين مسلمي قومه - من بني تميم - حروب انتهت بعجزها عما اعتزمت من الذهاب إلى المدينة لغزوها ، فالتفت إلى النجاشة وتغلبت مع مسيلة ، ثم رجعت إلى موطنها من بلاد الجزيرة وبقيت في أخوالها - من بني تغلب - إلى أن قتلهم « معاوية » عام المجاعة : وجاءت معهم فأسلموا وأسلمت وحسن إسلامهم .

حروب الردة وقصة سجاج ومسيلة

وقد كتب المؤرخ « دوزي » كلمة ممتدة عن « سجاج » ر « مسيلة » وعن حروب الردة في كتابه القيم : « تاريخ الاسلام » وقد نشرنا بعض فصوله في كتاب « مختارات كامل كيلاني » ، ونحن نجتزئ منه بما يلي : كان الوقت عصيباً ، وكانت الظروف غاية في الحرج ، فقد كان موت النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي كانت ترقبه العرب منذ زمن طويل بفارغ الصبر - مؤذناً بالثورة في كل مكان ، ولقد كنت ترى التأثير - في حينها ذهبت - راغبين علم الثورة والتمرد ، وقد رجحت كفتهم أيما رجحان حتى لقد طردوا رلائهم من بلادهم ، فلم يجد هؤلاء أمامهم ملجأ إلا المدينة ، فتقاطروا عليها من كل فج يحتمون فيها من أذاهم . وكان لا يمر يوم حتى يقد على المدينة بعض الولاة والأعمال المطرودين ، وأعدت القبائل المجاورة للمدينة عتبتها لحصارها .

فكيف يقاومهم « أبو بكر » وليس لديه جيش يحاربهم به بعد أن أرسل جيشه إلى سوريا ليفتحها تنفيذاً لأمر النبي - صلى الله عليه وسلم - برغم نصيحة المسلمين الذين رأوا خطورة الحال ، فقد ألحوا عليه أن يعدل عن تنفيذ فكرة الفتح حينئذ ، فقال لهم - : « ان أخاف ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ولو أصبحت المدينة نفسها نهياً للتأثرين والتدريين ولا بد لي من تحقيق مشيئته ! »

ومن ثم ترى الخطر العظيم بادياً . على أنه - على الحقيقة - خطر أقل مما تدل عليه ظواهره ، فان قوة الحزم الحقيقية لا تقاس بما لديه من عدة ورجال بل بما عنده من قوة متبوية ، وبما يصبو إلى تحقيقه من غاية سامية يتطلع إليها ويخوض غمار الحرب من أجلها بأذلا في سبيلها النفس والنفيس .

فما هي الغاية التي يسعى إليها التأثرون ؟ وأي حافز يدفعهم إلى إضرام هذه الحرب ؟ أهو إيمان وثيق متوشج في أعماق قلوبهم كإيمانهم القديم الذي كانوا عليه قبل البعثة ؟ لو كان ذلك لما كان ثمة شك في انتصارهم الحاسم !

ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فانهم لا يحاربون الآن لينصروا دينهم القديم ويؤيدوه ، بل هم يشورون على دينهم الجديد لأنهم لا يطبقون احتمالاً .

وليس هذا بالسبب القوي الذي يلهم حماسهم ويحفزهم إلى الانيان بجلائل الأعمال ، ولا هو بالسبب الذي يخلق البطولة والأبطال ، فقد كان رؤساء القبائل المتردة أنفسهم شاعرين كل الشهور بضعف قوتهم المعنوية ، فلجأ بعضهم إلى فكرة سخيصة حسبوا أنها تميد إليهم تلك القوة ، فادعوا النبوة ! وخيل إليهم أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - لم ينجح إلا بهذه الفكرة فأرادوا تقليده .

ولكنهم نسوا أمراً واحداً - هو سر نجاحه في بث دعوته - ذلك أنه كان مؤمناً بما يدعو إليه إيمان المستيقن الجازم . وهذا هو الذي يعوزهم ويغيره لا يتم نجاح .

أُبْحَرَ الْجُودُ - فِي يَوْمِ الْعَطَايَا - وَلَيْتَ النَّاسُ فِي يَوْمِ الْكَفَاحِ

وكانت تلك الثورة الهائلة وتلك الحرب الشمواء - على ما أرى فيها من دماء غزيرة إذا قورنت بما أتاه المسلمون في غزواتهم التي عن بها الاسلام - ظاهرة سخيفة مضحكة ، يتحمل فيها الانسان - غير قصد - كيف قبلوا تمثيل هذه الرواية الجدية - التي مثلها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه - مهزلة وعيباً ؟ ألا ترى إلى مسيلة الذي مثل دور النبي صلى الله عليه وسلم في اليمامة ؟ ألا ترى إلى ذلك الدجال السوقي التعس ، ذلك المشعوذ السمج الذي لا يصلح لغير التديجيل وإدخال بيضة في زجاجة ضيقة الفوهة ؟ ألا ترى إليه ينشئ ، قرآناً سخيفاً يقلد به محمداً - صلى الله عليه وسلم - ثم يرخص لأتباعه في شرب الخمر أنى شاءوا ، ولا يكاد ينشر دعوته حتى يصادفه سوء الحظ فتحاصره « سجاح » وتنازعه النبوة ؟

أما « سجاح » هذه فقد كانت مسيحية نشأت في « بلاد النهرين » وجاءت تبث الدعوة لنفسها - على رأس جيش عظيم فإذا يصنع مسيلة ؟ ليس أمامه إلا أن يلجأ إلى طريق المسألة - وقد فعل - فأرسل إليها هدايا فاخرة ودعاهما إلى عاداته ، وطال بينهما الحوار .

ولما عادت « سجاح » إلى قومها سألوها عن رأيها في « مسيلة » فقالت لهم : « لقد رأيته نبياً حقاً فتزوجت منه ! » فسألها التميميون - : « هل أهدى إلينا شيئاً من مهر الزواج ؟ » فقالت : « لا » فقالوا لها : « مار علينا أن تزوج نبينا بلا مهر ! ولن تقبل ذلك بحال ما ! » فأرسلت إليه بذلك - وكان « مسيلة » خائفاً متحصناً - فلما جاءه الرسول لم يأذن له حتى عرف الغرض الذي جاء من أجله فاطمأن إليه وقال له : « عد إلى قومك فأخبرهم أن « مسيلة بن حبيب » رسول الله قد رفع عن التميميين - من الصلوات الخمس - صلاة الصبح والعشاء »

وانفذ فرح التميميون بذلك وظلوا يتبعونه حتى بعد أن طادوا إلى الاسلام من جديد .

ومن ثم ترى أن هؤلاء الثأرين ليس لهم عقيدة جدية يدافعون عنها ، فلاغرو إذا قهرهم رجل كأبي بكر وثيق الايمان قوى الارادة صلب العزيمة لا يعرف هوادة في إرغام أنوفهم ولا رحمة ! ولو شاء أبو بكر أن يهادنهم لتنازل لهم عن قليل من مآاليه فكسب بذلك مساعدة كثير من القبائل - أو ضن حيادهم على الأقل - فقد وعدوه بالمواظبة على إقامة الصلاة المفروضة عليهم على شريطة أن يعفيهم من إيتاء الزكاة ، ونصحه أعيان المسلمين أن يقبل ذلك منهم فرفض رأيهم بإباء شديد ، وقال لهم : « إن الاسلام قانون واحد لا يتجزأ ، وليس لأحد أن يأخذ ببعضه ويرفض البعض الآخر . »

وتدكان هذا الاصرار الحازم وذلك الحقد الشديد - على أهل الردة - سبباً في منحه قوة أكثر مما تتصور .

ولم يكد ينتهي من إخضاع القبائل المجاورة له حتى بدأ يهاجم « طليعة » الذي كان بطلاً من قبل وقد جاء يدعى النبوة كغيره ثم جبن عن دخول المعركة فظل يرقب الحرب - وهو بعيد عن الميدان - مدثراً في عباة ته

لَقَدْ سَفَرْتَ بِعِلَّتِكَ اللَّيَالِي لَنَا عَنْ وَجْهِ حَادِثَةٍ وَقَاحٍ (١)

كأنما يؤمل أن ينزل وحى من السماء أو تحدث معجزة خارقة ، وقد لبث زمناً طويلاً ثم وقعت المعجزة - إذ بدأت تنهزم قبيلته أشنع انهزام - وحينئذ صاح في جنده « احتذوا حذوى إن استطعتم . » ثم امتطى جواده وأطلق له العنان وأمن في فراره .

وكانت تلك المعركة التي اصطلاها المسلمون معركة مروعة دائلة ، وفي الحقي أن الدماء التي أريقت في هذه الحرب كانت أكثر مما أريق في تلك الحروب الطاحنة التي نشبت - فيما بعد - بين المسلمين والفرس ، ثم بين المسلمين والامبراطورية الرومانية ، وقد اقترف العرب من القذائع في هذه الحرب « حرب الردة » شنعاً لم يعرفها الاسلام قط . فكانوا إذا انهزم العدو تعقبوه ونكّلوا به . لأن الردة جزاؤها القتل ، لا هوادة في ذلك ولا رحمة ، وقد بعث أبو بكر إلى خالد يأمره بقوله : « عليك بإبادة الكفر بالحديد والنار ، ولا تأخذك رحمة فيهم قط »

ولقد انهزم أصحاب « مسيلة » - وكان عددهم زهاء عشرة آلاف مقاتل - ومزقهم المسلمون شراً ممزقاً ، وغرقت بلاد العرب كلها في الدماء .

ولكن الاسلام قد خرج من تلك المعارك - الناشئة في كل مكان - مؤبداً منصوراً ، ودان به العرب بعد ذلك . - طوعاً أو كرهاً - فقد أقنعهم خذلانهم بوجوب الاعتراف بالدين الاسلامي ، وإن لم يكن اعتراف المستيقن المؤمن باعتراف الخائف الذي يعرف قوة هذا الدين العظيمة التي لا تجدى معها أية مقاومة .

بعد النصر

ولم يكدم انتصار أبي بكر حتى وجه هؤلاء البدو النامثين إلى الدماء ، إلى مهاجمة فارس والامبراطورية الرومانية ، وهذا العمل - عند من ينظر إلى ظواهر الأمور وحدها - جراً وتهوراً ، ولكنه - على الحقيقة - رزاة وتمقل .

ولأنما سار أبو بكر في هذا على خطة النبي صلى الله عليه وسلم التي كان يتبعها ، وهي أن يشغل العرب عن التفكير في خضوعهم ولا يدع لهم وقتاً كافياً لذلك ، وقد رأى أن خير ما يربطهم بالاسلام لا يكون إلا عن طريق الفتح والانتصارات الحربية وما يحجره ذلك من النائم .

وهكذا انتهت حروب الردة ولم تقم للمرتدين بعدها قائمة ، فقد كان عقاب الردة اُقتل ، ومن هنا تظاهر الناس بالاسلام ووقفوا عند هذا الحد .

ونحن - إذا استثنينا صفوة المسلمين ونوابهم المؤلفة من المهاجرين والأنصار وبعض من يمتنون إليهم بسبب - لم نجد بعد ذلك من يعرف القرآن وتعاليمه إلا عدداً غاية في القلة . أما العرب الذين استوطنوا أفريقيا فقد ظلوا - حتى بعد مضي قرن من الهجرة - لا يعرفون من الاسلام أكثر من أنه دين أتى بتحريم الخمر . أما أولئك الذين استوطنوا مصر فأنهم ما تحدّثوا عن الاسلام أو شنّوا به أنفسهم قط . وكانوا لا يذكرون إلا أيام الوثنية وعهودها الخلبية بالشاء والخنين .

(١) وقاح : صلبة الوجه لاجيء فيها ، يقال رجل وقيح الوجه ووقاح الوجه صلبه لاجيء فيه ، والأني وقاح بغير هاء .

أَلَسْتُ مُصِحِّهَا مِنْ كُلِّ دَاءٍ ؟ وَمُبْدِي حُسْنِ أَوْجُهِهَا الصَّبَاحُ
وَلَوْ كَشَفْتَ - عَنِ الصَّفَحَاتِ - شَامَتِ بُرُوقَ الْمَوْتِ مِنْ بَيْضِ الصَّفَاحِ (١)

* *

وَقَاكَ اللَّهُ مَا تَخْشَى وَوَالِيَّ عَلَيْكَ بِصُنْعِهِ الْمَغْدَى الْمَرَّاحُ (٢)
فَلَوْ أَنَّ السَّمَادَةَ سَوَّغَتْهَا تَجَارَتَهَا الْمِلَّةُ بِالرَّاحِ
تَجَافَيْنَا عَيْدَكَ عَنْ نَفُوسٍ - عَلَيْكَ مِنَ الضَّنَى - حَرَى شِحَاحِ (٣)
يَهْنَأُ فِيكَ بِالْبُرءِ الْمُوَفَّى وَتُبْهِجُ مِنْكَ بِالْأَلَمِ الْمَزَاحِ

* *

فَدَيْتُكَ كَمْ لِعَيْنِي مِنْ سُمُورٍ - لَدَيْكَ - وَكَمْ لِنَفْسِي مِنْ طَمَاحِ
أَلَا هَلْ جَاءَ مَنْ فَارَقْتُ أَنِّي بِسَاحَاتِ الْمُنَى رَفْلُ الْمَرَّاحِ (٤)
وَأَنِّي - مِنْ ظِلَالِكَ - فِي زَمَانٍ نَدَى الْأَصَالِ رَقْرَاقِ الضَّوَاحِي
تُحْيِيَنِي بِرِيحَانِ التَّحَنَّى وَتُصْبِحُنِي مُعْتَقَةً السَّمَاحِ (٥)
فَهَا أَنَا قَدْ تَمَلْتُ مِنَ الْأَيَادِي إِذْ اتَّصَلَ أُغْتَبَاقِي فِي أَصْطِبَاحِي

(١) لو كشفت هذه الليالي ، وأبدت عن صفحة الشر والعداء لشامت سيوف بأس المدوح
طلع ببروق موت وهلاك تلك الليالي التي فاجأتنا بمرضه ، بعد أن أحصاها من كل داء وخلع عليها
من الرواء والحسن أبهى رداء .

(٢) وقاك الله ماتخشي من طارض المرض وعصمك من كل محذور ومخوف ، وتمهدك بحميل صنعه للمغدى
المراح أى الذى يجعله يندو عليك فى أول النهار ، ويروح فى آخره ، فلا يفبك صنيعة ، ولا يتخلف
عنه إحسانه .

(٣) الضنى : السقم ، وحرى : عطشى ، وشحاح : جمع شحيحة من الشح وهو البخل .

(٤) الرذل : جر الذيل وركضه بالرجل ، يقول : ألا هل أتى من فارقت من فتيان « قرطبة » أتى
أجر ذيل مرح وأرذل فى ثياب النعمة وغضارة العيش .

(٥) التحنى : الحفاوة ، والسماح : الجود .

فَإِنْ أَعْجَزَ فَإِنَّ النُّصْحَ تَقَفَّ وَإِنْ أَشْكُرْ فَإِنَّ الشُّكْرَ صَاحِ
لِمَا كَسَبْتَ قَدَرِي مِنْ سَنَاءٍ وَمَا لَقَيْتَ سَعْيِي مِنْ نَجَاحِ

* *

لَقَدْ أَنْفَذْتَ - فِي الْأَمَالِ - حُكْمِي وَأَجْرَيْتَ الزَّيْمَانَ عَلَى اقْتِرَاحِي
وَهَلْ أَخْشَى وَقُوعًا - دُونَ حَظِّي - إِذَا مَاتَ رِيشُكَ مِنْ جَنَاحِي
فَمَا أُسْتَسْقِيَتْ مِنْ غَيْمٍ جَهَامِ وَلَا أُسْتَرْوِيَتْ مِنْ زَنْدٍ شِطَاحِ
وَوَاصَ - لِمَنِي جَمِيلُكَ - فِي مَغِيبي - وَطَالَعَنِي نَدَاكَ مَعَ انْتِرَاحِي
وَلَمْ أَنْفَكْ - إِذْ عَدَّتِ الْعَوَادِي - إِلَيْكَ رَهْنَيْنِ شَوْقٍ وَالتِّيَاحِ
فَحَسْبِي أَنْتَ - مِنْ مُسَدِّ لِنُعْمِي - وَحَسْبُكَ بِي بِشُكْرِي وَأُمْتِدَاحِ

هدية تفاح

« وأهدى إليه تفاحا وأراد أن يكتب معه قطعة ،

فبدأ بها ثم عرض له غيرها فتركها . »

دُونَكَ الرَّاحَ جَامِدَةً وَفَدْتَ خَيْرَ وَافِدَةٍ
وَجَدْتَ سُوقَ ذَوْبِهَا - عِنْدَ تَقْوَاكَ - كَاسِدَةً
فَاسْتَحَالَتْ إِلَى الْجُمُودِ دِ وَجَاءَتْ مُكَايِدَةً

والقطعة التي بعثت هي هذه

جَاءَتْكَ وَافِدَةُ الشَّمُولِ فِي الْمَنْظَرِ الْحَسَنِ الْجَمِيلِ
لَمْ تَحْظَ ذَائِبَةً لَدَيْكَ وَلَمْ تَنْلِ حَظَّ الْقَبُولِ

فَتَجَامَدَتْ مُحْتَالَةً وَالْمَرْءَ يَعْجُزُ لَا الْحَوِيلَ^(١)
لَوْلَا انْقِلَابُ الْعَيْنِ سُدَّتْ دُونَ بُغْيَتِهَا السَّبِيلَ^(٢)
لَهَجَرَتْهَا صَفَرَاءُ فِي يَبْضَاءَ هَاجِرُهَا قَلِيلُ
الْكَأْسُ مِنْ رَأْدِ الضُّحَى وَالرَّاحُ مِنْ طَفْلِ الْأَصِيلِ
آثَرَتْ عَائِدَةَ الثُّقَى وَرَغِبْتَ فِي الْأَجْرِ الْجَزِيلِ
يَأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي^{***} مَا فِي الْمُلُوكِ لَهُ عَدِيلُ
يَا مَاءَ مُزْنٍ ، يَا شَهْمًا بَ دُجْنَةٍ^(٣) ، يَا لَيْثَ غِيلِ
يَا مَنْ عَجَبْنَا أَنْ يَجُوءَ دَ بِمِثْلِهِ الزَّمَنُ الْبَخِيلِ
بُشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّةٌ فِي ظِلِّ إِقْبَالِ ظَلِيلِ
رَقَّتْ كَمَا سَالَ الْعِدَا رُ بِجَانِبِ الْخَدِّ الْأَسِيلِ
وَتَأَوَّدَتْ كَالْفُضْنِ قَا بَلَّ عِطْفَهُ نَفْسُ الْقُبُولِ^(٤)
يُضِي مُقْبَلُهَا الشَّهِي وَلَحْظُهَا السَّاجِي الْعَلِيلِ
فَتَمَلَّهَا^(٥) فِي الْعِزَّةِ الْقَعَمَسَاءُ وَالْعُمُرُ الطَّوِيلُ

(١) الحويل : الحيلة ، يقال : احتال احتيالا وحولا وحيلة وحويلا ومخاله ، قال دؤاد بعاتب زوجته :

« حاولت - حين صرمتي - والمرء به -عجز لا المخاله
والدهر يلعب بالفتى والدهر أروغ من ثعاله
والمرء يكسب ماله بالشح ، يورثه الكلاله . »

وفي النثر المشهور : « المرء يعجز لا المحالة » أو « لا محالة » في رواية أخرى ، أى لاتضيق بخارج الأمور
إلا على العاجز الذى لا يعرف وجوه الحيل . ويقال : احتال وتحيل وتحول ، قال أبو العلاء :
« لا يعجبك خذيب - قام فى ملا بخطبة - ذات معناها وطولها
فما المظلات - وإن راعت - سوى حيل من ذى مقال على ناس تحولها . »

(٢) يقول : لولا انقلاب عينها من ذائبة إلى جامدة لسدت دون ما تبنيه من إهداء نفسها إليك السبيل
لأنك لا تبيع لها أن تزور مجلسك وهى ذائبة . (٣) يقال يوم دجنة ، والدجنة : الظلمة والغيم المطبق
الريان المظلم لا مطر فيه . يقول : إنك نور تبدد الدياجى والظلمات .

(٤) القبول : ربح الصبا ، قالوا وذلك بأنها تقابل الدبور . (٥) إنعم بها .

شكر على زيارة

« قال يشكر المعتمد على الله أبا القاسم محمد
ابن المعتض بالله عباد بن محمد بن عباد ، وقد
شرفه بالعبادة في بعض عله . »

لَسْتُ بِالْجَاحِدِ آلاءَ الْعِلَلِ أَجْتَلِي - مِنْ أَجْلِهَا - بَذَرَ الْعَلَا
حُلَّةَ الْبَسِّ عَيْنِي فَخَرَهَا رَفَّ بِشْرِ الْأُفُقِ فِي عَيْنِي لَهَا
مَا أَبْلَى مِنْ زَمَانِي بَعْدَهَا كَمْ لَهَا مِنْ أَلَمٍ يُذْنِي الْأَمَلِ
مُشْرِقًا فِي مَنْزِلِي حِينَ كَمَلِ فَأَغْتَدَّتْ تَرْفُلُ فِي أَهْبَى الْحُلَلِ
لَا لِإِنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ فِي الْحَمَلِ (١)
- إِذَا صَحَّ النَّفْسَ - إِنْ جَسَمِي أَعْلَ (٢)

أَيُّهَا الْمَوْلَى لَقَدْ مُحَلَّتْ مَا وَضَحَ الطُّوقُ الَّذِي حَلَّيْتَنِي
أَنَا لَوْ طَوَّقْتُ مِنْهُ بَدَلًا كَمْ مَرَادِي - مِنْ نَعْمَائِكُمْ -
لَا تَزَلْ دَوَّلَتُكُمْ مَبْسُوطَةً وَرَأَى الْمُعْتَضِدُ الْمَنْصُورُ مَا
فَسَلَّمَ لِقَاءَهُ اللَّيَالِي طَلَقَةً لَمْ يَدْعُ فِي وَسْعِ عَبْدٍ مُحْتَمَلِ
فَتَرَاءَتْهُ نَفُوسٌ لَا مُقَلَّ (٣) أَنْجُمَ الْجَوَازِءِ لَمْ أَرْضَ الْبَدَلِ
وَأَرِفَ الظَّلَّ وَكَمْ وَرِدِ عِلَلِ (٤) بَسْطَةً فِي طَيْهَا قَبْضُ الدُّوَلِ
أَنْبَاءَتُهُ فِيكَ لَيْتَ أَوْ لَعَلَّ بِتَفَارِيْقِ أَمَانِيهِ جَمَلِ (٥)

(١) الحمل : برج في السماء من البروج الربيعية ، يقول إن الأفق أشرق بنوره وازدان بهاته لايها
الشمس التي حلت في برج الحمل .

(٢) يقول : لا أبلى بعد أن صحت نفسي بزيارته وتشريفه منزلي إن أمرض الدهر جسمي .

(٣) يقول : إن إحسانك الذي طوَّقْتُ به عنقي قد وضح للنفوس لالعبون . وفي الأصل : تمامته من
مأى في الشيء يمأى مأيا بالغ وتماى الجهد إذا مددته ، وقد سبق له هذا المعنى في قوله :

« يا هلالا تترأءا . نفوس لاعيون . » انظر صفحة ٣٩ .

(٤) العلل : العرب الثاني ويقال علل بعد نهل أي شرب ثلث بعد شرب أول أي أنه ورد حياض كرمه

مرة بعد أخرى . (٥) أي سبيله الدهر جملة أمانيه المتفرقة فلا يدع منها شيئا إلا حققه له .

تهنئة .

« وقال يهنيه أيده الله بقدم وإبلال » .

إِقْدَمَ كَمَا قَدِمَ الرَّيِّسُ الْبَاكِرُ
قَسَمًا لَقَدْ وَفَى الْمَنَى وَنَفَى الْأَسَى
لِيُسْرَ مَكْتَنِبٍ وَيُغْنِي سَاهِرُ
قَفْلٍ وَإِبْلَالٍ - عَقِيبَ مُطِيفَةٍ -
إِنْ أَعْنَتَ الْجَنَمَ الْمَكْرَمَ وَغَسَّكُمَا
مَا كَانَ إِلَّا كَالْمَجْلَاءِ غِيَابَةٍ
فَلْتَعُدُّ أَلْسِنَةُ الْأَنَامِ وَدَائِبَهَا
إِنْ كَانَ أَسْعَدَ مِنْ وَصُولِكَ - طَالِعُ
أَضْحَى الزَّمَانِ نَهَارُهُ كَافُورَةٌ
قَدْ كَانَ هَجَرِي الشَّعْرَ - قَبْلُ - صَرِيحَةً (١)
حَتَّى إِذَا آنَسْتُ أَوْبِكَ بَارِئًا
عَنِّي قَلَبْتُ إِلَى الْبَلَاغَةِ عِيَّةُ
لَقَعْتُ ذَهْنِي ، فَأَجْنُ غَضَّ عِمَارِهِ

وَأُطْلِعُ كَمَا طَلَعَ الصَّبَاحُ الزَّاهِرُ
مَنْ أَقْدَمَ الْبُشْرَى بِأَنَّكَ صَادِرُ
وَيَرَّاحَ مَرْتَقِبٍ وَيُوفِي نَازِرُ
غَشِبَتْ كَمَا غَشَى السَّبِيلَ الْعَابِرُ (٢)
فَلَرُبَّمَا وَعِكَ الْهَزَبُ الْخَادِرُ (٣)
لَبَسَ الْفِرَندَبَا الْحُسَامُ الْبَاتِرُ (٤)
شُكْرُ يُجَاذِبُهُ الْخَطِيبُ الشَّاعِرُ
فَكَذَلِكَ أَيْمَنَ مِنْ قُفُولِكَ (٥) طَائِرُ
وَاللَّيْلُ سِوَاكَ مِنْ خِلَالِكَ - عَاطِرُ
حَذَرِي لِنَاكَ النَّقْدِ فِيهَا عَازِرُ
صَفَتِ الْقَرِيحَةَ وَأُسْتَنَارَ الْخَاطِرُ (٦)
لَوْلَا تُقَاكَ لَقُلْتُ : إِنَّكَ سَاحِرُ (٧)
فَالنَّخْلُ يُحْرِزُ مُحْتَنَاهُ الْآبِرُ (٨)

- (١) يقول : قدوم من السفر ، وإبلال من المرض عقيب علة أطافت بك وغشيتك غشيان طبر سبيل .
(٢) الوثك : الحمى أو ألمها والموعوك المغموم ، والخادر : انقراض الكسلان ، والأسد الخادر : المقيم في خدره أي الذي لزم عرينه . (٣) يقول : لم يكن المرض إلا فترة عاد بعدها الحسام إلى جلائه وروقه .
(٤) رجولك . (٥) الصريحة : العزيمة ، يقال : « هو رجل ذو صريحة وصرائم » أي ذو عزيمة ، يقول : إني هجرت قبل قدومك الشعر هجراً صارماً قاطعاً ، وعذري في ذلك واضح وهو ما كنت أحذره من ذلك النقد الذي يتعرض له شعري ، أما الآن فقد صفت القرية لأوبتك بارئاً . (٦) يقول كنت اعتزمت هجراً بشعر حتى إذ آنس خاطري لإيائك من سفرك صفت قريحتي وشجذ فكري فنفتحت أمامي طرق الشعر .
(٧) يقول إنك ألهمت العي بالبيان فعاد بليغا ولولا أنك تقي لانهمتك بالسحر في ذلك . وفي الأصل : « عي رددت إلى البلاغة عينه . »
(٨) يقال لفح النخلة وألفحها وألفح الفحل الناقة أجلبها ، وألفحت الريح الشجر والسحاب أجلبتها ، والواقيح من الرياح : التي تحمل الندى ثم تعج في السحاب فاذ اجتمع في السحاب صار مطراً ، يقول إنك : لفتت ذهني - كما يلفح الزارع النخلة - فأني بأحسن الثمر وأشبهاء ، فأنت أحق باجتناء الثمر لأنك فارسه ومتمهده .

(٨) يقال لفح النخلة وألفحها وألفح الفحل الناقة أجلبها ، وألفحت الريح الشجر والسحاب أجلبتها ، والواقيح من الرياح : التي تحمل الندى ثم تعج في السحاب فاذ اجتمع في السحاب صار مطراً ، يقول إنك : لفتت ذهني - كما يلفح الزارع النخلة - فأني بأحسن الثمر وأشبهاء ، فأنت أحق باجتناء الثمر لأنك فارسه ومتمهده .

كَمْ قَدْ شَكَرْتَكَ - غِيبَ ذِكْرِكَ - فَأَنْتَشِي مُتَذَكِّرٌ مِنِّي وَغَرَّدَ شَاكِرٌ ^(١)
يَأَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي عَلَيَاؤُهُ ^{***} مِثْلُ - تَنَاقَلُهُ اللَّيَالِي - سَائِرُ
يَا مَنْ لِبَرَقِ الْبَشْرِ مِنْهُ تَهَلَّلُ مَاشِيمَ إِلَّا أَنْهَلَ جُودُ هَامِرُ
أَنْتَ ابْنُ مَنْ مَجَّدَ الْمُلُوكَ ، فَإِنْ يَكُنْ لِلْمَجْدِ عَيْنٌ فَهُوَ مِنْهَا نَاطِرُ
مَلِكٌ أَعَزُّ أَرْذَانَتِ الدُّنْيَا بِهِ وَأَعَزُّ دِينَ اللَّهِ مِنْهُ نَاصِرُ
أَبْنَاكَ فِي تَبَجِّجِ الْمَجْرَةِ قُبَّةٌ فَهَذَا أَنْكَ لِلنُّجُومِ مُخَاصِرُ ^(٢)
وَتَلَقَّ - مِنْ سِمَتِيكَ - صِدْقَ تَفَاوُلِي فَهَذَا « الْمُوَيْدُ » بِالْإِلَهِ « الظَّافِرُ » ^(٣)

ابتداء قصيد

« وقال ابتداء قصيد اعتقد إنفاذه إليه وقد طالت
غيبته في بعض أسفاره ولم يكلمه . »

سَأْهَدِي النَّفْسَ فِي نَفْسِ الشَّمَالِ فَقَدْ لَقِحَ التَّشَوُّقُ عَنْ خِيَالِ
إِلَى الشَّيْنِ الْعَزَائِمِ - إِنْ أَثِيرَتْ حَفِيزَتُهُ - إِلَى اللَّذَنِ الْخِلَالِ ^(٤)
إِلَى الْوَضَّاحِ آثَارَ الْمَسَاعِي ، إِلَى النَّفَّاحِ أَخْبَارَ الْمَعَالِي
إِلَى مَلِكٍ هُوَ الْمَعْنَى الْمُجَلِّي بِهِ الْإِشْكَالُ مِنْ لَفْظِ الْكَمَالِ
إِلَى مَنْ لَا مِثِيلَ لَهُ إِذَا مَا بَدَأَ فِي السَّرْجِ أَوْ فَوْقَ الْمِثَالِ
هَدِيَّةٌ مَنْ - لَوْ أَنَّ الدَّهْرَ سَنَى مُنَاهُ - هَدَى إِلَيْكَ سُرَى الْخِيَالِ
فَكَمْ بَوَّأَتْنِي سَاحَاتٍ نَعْمَى عَذَابِ الْوَرْدِ وَارِفَةِ الظَّلَالِ

(١) يقول ما شكرتك عقب ذكراك إلا ثمتك من نشوة الفرح وغردت بالثناء عليك . وفي الأصل :
« وعربد شاكر . » (٢) تبجج المجرة وسطها أو أعلا مكان فيها ، وتخاصر : أى تمشى إلى جنبها ،
يقول : « لقد بنى لك أبوك قبة في ذروة اجرة فهيننا لك هذا المقام الرفيع الذى تحاصر فيه النجوم في عليائها . »
(٣) يقول : ثق بتفاؤلى فيك فسيحقق الله صدق لفيك وهما المويذ والمنصور فيؤيدك وينصرك على أعدائك .
(٤) إلى ذى العزيمة القوية إن هاجه مثير والحلال المرضية السمحة إذا لاينه سالم ، وقريب من هذا
قول ابن دريد :

إلى أبي القاسم

« كتب إلى أبي القاسم بن رفق »

عَذْرِي^(١) - إِنْ عَذَلْتِ فِي خَلْعِ عَذْرِي^(٢) - غُصْنٌ أَمَرَتْ ذُرَاهُ بِبَذْرِ^(٣)
هَزَّ مِنْهُ الصَّبَا فَقَوَّمَ شَطْرًا - وَتَجَافَى - عَنِ الْوِشَاحِ - بِشَطْرِ
رَشَاءٍ أَقْصَدَ^(٤) الْجَوَانِحَ قَصْدًا - عَنْ جُفُونِ كُحْلِنَ - تَعَمُّدًا - بِسِحْرِ
كُسَى الْحُسْنِ فَهَوَى يَفْتَنُ فِيهِ - سَاحِبًا ذَيْلَ بُرْدِهِ الْمُسْبِكِ^(٥)
تَحْتَ ظِلِّ - مِنَ الْغَرَارَةِ - فِينَا - نَ وَنَقِي^(٦) - مِنَ الشَّبِيهِ تَضَرُّ
أَبْرَزَ الْجِيدَ فِي غَلَائِلَ بِيضٍ - وَجَلَا الْخَدَّ فِي مَجَاسِدِ حُمْرٍ^(٧)
وَتَثَنَّتْ بِعِطْفِهِ - إِذْ تَهَادَى - خَطَرَةٌ تَمْرُجُ الدَّلَالِ بِكِبَرِ
زَارِنِي - بَعْدَ هَجْعَةٍ - وَالثَّرَيَّا - رَاحَةً تَقْدِرُ^(٨) الظَّلَامَ بِشَبْرِ
وَالْدُجَا - مِنْ نُجُومِهِ - فِي عُقُودِ - يَتَلَاوَنَ مِنْ سِمَاكِ وَنَسْرِ
تَحْسَبُ الْأُفُقَ بَيْنَهَا لَا زَوْرَدًا - مُثِرَتْ - فَوْقَهُ - دَنَائِيرُ تَبْرِ
فَرَشَفْتُ الرُّضَابَ أَعَذَبَ رَشْفٍ - وَهَصَرْتُ الْقَضِيبَ الْطَفَّ هَضْرِ

(١) عذر - جمع عذرة بالكسر - أى معاذير . (٢) عذر : بضم أوله وثانيه جمع عذار وهو الحياء ، وخلص العذار أى ترك الحياء .

(٣) يقول لئننى إذا خلعت عذارى فى الهوى فإن معاذيرى واضحة فقد فتنى قوامه المياد الذى يشبه الغصن ووجهه المضيء كالبدر . (٤) يقال أقصد فلانا : طعنه فلم يخطئه .

(٥) المسبكر : المسترسل ، والمسبكر كل شئ امتد وطال .

(٦) الورق الحمايم التى يضرب لونها إلى خضرة ، قال جرير العود :

« وكان فؤادى قد صحا ، ثم هاجنى حاتم ورق بالمدنية هنف . »

(٧) المجاسد - جمع مجسد - وهو القميص الذى يلى البدن ، قال ابن الأعرابي : « ولا تخرجن إلى

المساجد بالمجاسد » (٨) نفيس .

وَنَعِمْنَا بِلَفٍّ جِسْمٍ بِجِسْمٍ - لِلتَّصَافِي - وَقَرَعِ ثَغْرٍ بِثَغْرٍ
يَا لَهَا ! لَيْلَةٌ تَجَلَّى دُجَاهَا - مِنْ سَنَا وَجَنَّتِيهِ - عَنْ ضَوْءِ جَفْرِ
قَصَرَ الْوَصْلُ عُمرَهَا، وَبُودَى أَنْ يَطُولَ الْقَصِيرُ مِنْهَا بِعُمُرِي

* *

مَنْ عَذِيرِي مِنْ رَبِّ دَهْرٍ خُثُونٍ - كُلَّ يَوْمٍ - أَرَأَيْتُ مِنْهُ بِغَدْرِ
كُلَّمَا قُلْتُ : « حَاكَ فِيهِ مَلَامِي » نَهَسْتَنِي مِنْهُ عَقَارِبُ تَسْرِي (١)
وَتَرْتَنِي خُطُوبُهُ فِي صَفِيٍّ فَاضِلٍ نَابِهِ - مِنَ الدَّهْرِ - وَتَرِ (٢)
بَانَ عَنِّي - وَكَانَ رَوْضَةً عَيْنِي - فَعَدَا الْيَوْمَ وَهُوَ رَوْضَةٌ فِكْرِي (٣)
فَكَهْ يُنْهَجُ الْخَلِيلَ بِوَجْهِ تَرِدُ الْعَيْنُ مِنْهُ يَذْبُوعَ بَشْرِ
لَوْذَعِي - إِنْ يَمْلُهُ الْخُبْرُ يَوْمًا - أَخْجَلَ الْوَرْدَ عَنْ خَلَائِقَ زُهْرِ
وَإِذَا غَارَلَتْهُ مُقْلَةٌ طَرَفٍ كَادَ مِنْ رِقَّةٍ يَذُوبُ - فَيَجْرِي (٤)

* *

يَا « أَبَا الْقَاسِمِ » الَّذِي كَانَ رِدْثِي وَظَهِيرِي - عَلَى الزَّمَانِ - وَذَخْرِي

(١) حَاكَ : رَسَخَ أَوْ أَثَرُ فِيهِ ، وَنَهَسْتَنِي : عَضْتَنِي ، يَقُولُ : « كَلَّمَا قُلْتُ إِنْ زَمَانِي قَدْ أَرَعَوَى وَأَثَرُ فِيهِ هَتَابِي ظَهَرَ لِي خُطْبِي فِي ظَنِّي وَعَضْتَنِي عَقَارِبُ لَوْمٍ تَدْبُ إِلَى تَسْرِي فِي الظَّلَامِ مِنْ عَقَارِبِ دَهْرِي » وَلَقَدْ دَرَأَ أَبُو الْعَلَاءِ إِذْ يَقُولُ فِي الزَّمَنِ :

« وَغِيظُ بَنُوهُ مِنْهُ ، وَغِيظُ مِنْهُمْ فَعَدَّ ذَبْ سَاكِنِيهِ وَمَذْبُوه

وَمَا يَخْنِي الْوَعْدَ فَيُؤَدُّهُ وَلَا يَرْمِي الْعَتَابَ فَيَعْتَبُوه

أَسَاءَ - بِجَهْلِهِ - أَدْبَا عَلَيْهِمْ فَهَلْ مِنْ حِيلَةٍ فَيُؤَدُّوهُ . »

(٢) وَتَرِ : فَتَدُ . (٣) كُنْتُ أَرَاهُ أَمَامِي فَتَنْعَمُ بِهِ حِينَئِذٍ وَالْيَوْمَ لَا أَرَاهُ - بَعْدَ نَابِهِ - فَأَصْبَحَ

بِنِعْمِ خَاطِرِي بِذِكْرِهِ .

(٤) يَقُولُ إِنَّهُ كَادَ مِنْ رِقَّةٍ يَسِيلُ . وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ ابْنِ الرُّومِيِّ :

« أَيْضًا مِنْ خَشْتِ الْكَمَائِلِ - لَوْضَا عَنْهُ غَلَالَتُهُ - حَسَاءُ الْخَاسِي . »

يَا أَحَقَّ الْوَرَى بِمَمْحُوضٍ إِخْلَا صِي وَأَوْلَاهُمْ بِغَايَةِ شُكْرِي
طَرَقَ الدَّهْرُ سَاحَتِي - مِنْ تَنَائِيكَ - بِجَهْمٍ مِنَ الْحَوَادِثِ نُكْرِي

لَيْتَ شِعْرِي ! وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنَّ لَيْسَ بِمُجْدٍ عَلَى الْفَتَى : «لَيْتَ شِعْرِي»^(١)
هَلْ لِحَالِي زَمَانًا مِنْ رُجُوعٍ ؟ أَمْ لِمَاضِي زَمَانًا مِنْ مَكْرٍ ؟

أَيْنَ أَيَّامُنَا وَأَيْنَ لَيْالٍ كَرِيَاضٍ لَبَسْنَ أَفْوَافَ زَهْرٍ
وَزَمَانٌ كَأَنَّمَا دَبَّ فِيهِ وَسَنٌ أَوْ هَفَا بِهِ فَرَطُ سُكْرٍ
حِينَ نَعْدُو إِلَى جَدَاوِلِ زُرْقٍ يَتَغَلَّغْنَ فِي حَدَائِقِ خُضْرِ
فِي هِضَابٍ - مَجْلُوءَةِ الْحُسْنِ - حُمْرٍ وَبَوَادٍ - مَصْقُولَةِ النَّبْتِ - عُفْرِ
تَتَعَاطَى الشَّمُولَ - مُذْهَبَةَ السَّرِّ بَالٍ - وَالْجَوْ فِي مَطَارِفِ^(٢) غُبْرِ
فِي فُتُوٍّ^(٣) تَوْشَّحُوا بِالْمَعَالِي وَتَرَدُّوا بِكُلِّ مُجْدٍ وَفَخْرِ
وُضِّحَ تَنْجَلِي الْغِيَا هِبُ مِنْهُمْ عَنْ وَجُوهِ - مِثْلَ الْمَصَائِيحِ - غُرٍّ
كُلُّ خِرْقٍ يَكَادُ يَنْهَلُ ظَرْفًا زَانَ مَرَأَى بِهِ بِأَكْرَمِ خُبْرِ^(٤)

(١) يقول «ليت شعري» ، وإن كنت أعلم أنها غير مجدية ، قال ابن الرومي :
« يا ليت شعري وليت غير مجدية إلا استراحة قلب وهو اسوان . »
وقال الشاعر :

« ليت وهل ينفع شيئا « ليت » ليت شبابا بيع فاشترت . »

(٢) مطارف - جمع مطرف بضم الميم وكسر ها - مع فتح الراء في كليهما - : رداء مربع من خز
فوق أعلام . (٣) فتو - جمع فتى وهو يجمع على فتيان وفتو وفتى بتشديد الواو والياء .
(٤) الحرق : من الفتيان الطريف في سباحة ونجدة ، وينهل : يريد يكاد يسيل رقة وظرفا ، وقد جاء
بعد هذا البيت قوله :

« محض حالي نفع المسك عرفها طيب نشر . »

وقد أثبتناه كما ورد ناقصاً بالأصل .

وَسَجَايَا كَأَنَّهُنَّ كُئُوسٌ أَوْ رِيَاضٌ قَدْ جَادَهَا صَوْبُ قَطْرِ
يَتَلَقَّى الْقَبُولَ مِنِّي قُبُولٌ كُلَّمَا رَاحَ نَفْحُهَا أَرْتَاحَ صَدْرِي
فَهُوَ يَسْرِي مُحْمَلًا - مِنْ سَجَايَا كَ - نَسِيمًا يُرْهِى بِأَفْوَحِ عِطْرِ

* *

يَا خَلِيلِي وَوَاحِدِي وَالْمَعْلَى مِنْ قِدَاحِي ^(١) وَالْمُسْتَبْدِ بِرِّي
لَا يَضَعُ وَدِّي الصَّرِيحُ الَّذِي أَرَى صَاكَ مِنْهُ أَسْتَوَاهُ سِرِّي وَجَهْرِي
وَتَوَالِي أَدِمَّةٍ نَظَمْتَنَا نَظَمَ عَقْدِ الْجُمَانِ فِي نَحْرِ بَكْرِ
لَا يَكُنْ قَصْرُكَ الْجَفَاءَ ، فَإِنَّ الْوُدَّ - إِنْ سَاعَدَتْ حَيَاتِي - قَصْرِي ^(٢)
وَأَعِدْ - بِالْجَوَابِ - دَوْلَةَ أَنَسٍ قَدْ تَقَضَّتْ إِلَّا غُلَّالَةَ ذِكْرٍ ^(٣)
وَأَكْسُ مِنْ الْقَرِطَاسِ دِيْبَاجَ لَفْظٍ يَنْهَرُ الْفِكْرَ مِنْ نَظِيمٍ وَنَثْرِ
غُرُرٍ مِنْ بَدَائِعٍ لَا يَشْكُ الدَّهْرُ فِي أَنَّهَا قَلَانِدُ دُرٍّ
تَتَوَالِي عَلَى النُّفُوسِ دِرَاكَا عَنْ فَتَى مُوسِرٍ - مِنَ الطَّبْعِ - مُثْرِ
شَدَّ فِي حَلْبَةِ الْبَلَاغَةِ حَتَّى بَانَ فِيهَا عَنْ شَأْوٍ سَهْلٍ وَعَمُورٍ
وَإِذَا أَنْتَ لَمْ تَعَجَّلْ جَوَابِي كَانَ هَذَا الْكِتَابُ بَيْضَةً عَقْرِ ^(٤)
فَاقْبُ - فِي دِمَّةِ السَّلَامَةِ - مَا أَنْجَا بَ عَنْ الْأَفْقِ عَارِضٌ مُتَسَرِّ
وَعَلَيْكَ السَّلَامُ مَا غَنَّتِ الْوُرُ قُ وَمَالَتْ بِهَا ذَوَائِبُ سِدْرِ ^(٥)

(١) أي الفصح المعلى . (٢) يقول : لا يكن قصارك الجفاء فان قصارى الوداد أى لا تكن
فاينك قطيعي فان غايي وصلك .

(٣) يقول : أعد عهد الأنس الذى مضى ولم يترك لنا إلا ذكريات تعمل بها .

(٤) إذا لم تعجل بالرد على كتابي كان هذا آخر كتاب أبعث به إليك .

(٥) السدر : شجر النبق يقول : « تحيى إليك كلما غنت الحمام ومالت بها أفصان الشجر » .

مدح ابن جهور ورثاء أمه

« كرّر ابن زيدون في هذه القصيدة أكثر

الآيات السابقة التي ذكرناها في ص « ١٤٠ »

من هذا الديوان . »

هُوَ الدَّهْرُ فَأَصْبِرْ لِلَّذِي أَحْدَثَ الدَّهْرُ فَمَنْ شِيمِ الْأَبْرَارِ - فِي مِثْلِهِكَ الصَّبْرُ
سَتَصْبِرُ صَبْرَ الْيَأْسِ أَوْ صَبْرَ حِسْبَةٍ فَلَا تَرْضَ بِالصَّبْرِ الَّذِي مَعَهُ وَزُرُ
حِذَارُكَ مِنْ أَنْ يُعْقِبَ الرُّزْءُ فِتْنَةً يَضِيقُ لَهَا - عَنْ مِثْلِ أَخْلَاقِكَ - الْعُدْرُ
إِذَا أَسِفَ الشُّكْلَ اللَّيْبُ فَشَفَّهَ رَأَى أَبْرَحَ الشُّكْلَيْنِ أَنْ يَحْبِطَ الْأَجْرُ
مُصَابُ الَّذِي يَأْسَى بِمَيِّتِ ثَوَابِهِ هُوَ الْبَرْحُ لَا الْمَيِّتُ الَّذِي أَحْرَزَ الْقَبْرُ

* *

حَيَاةُ الْوَرَى نَهْجٌ إِلَى الْمَوْتِ مَهْجٌ لَهُمْ فِيهِ إِيضَاعٌ كَمَا يُوضِعُ السَّقَرُ
فِيهَا هَادِي الْمِنْهَاجِ جُرْتٌ فَإِنَّمَا هُوَ الْفَجْرُ يَهْدِيكَ الصِّرَاطَ أَوْ الْبَجْرُ
لَنَا - فِي سِوَانَا - عِبْرَةٌ غَيْرَ أَنَّا نَعْرِى بِأَطْمَاعِ الْأَمَانِي فَتَفْتَرُ
إِذَا الْمَوْتُ أَضْحَى قَصَرَ كُلُّ مُعَمَّرٍ فَإِنَّ سِوَاءَ طَالٍ أَوْ قَصَرَ الْعُمُرُ

* *

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدِّينَ رِيعَ ذِمَارَةٍ فَلَمْ يُغْنِ أَنْصَارُ عَدِيدَةٍ وَلَا وَفْرُ
بِحَيْثُ اسْتَقَلَّ الْمَلِكُ ثَانِي عِطْفِهِ وَجَرَّرَ مِنْ أَذْيَالِهِ الْعَسْكَرُ الْمَجْرُ
هُوَ الضَّمِيمُ لَوْ غَيْرُ الْقَضَاءِ يَرْوُمُهُ شَاءَ الْمَرَامِ الصَّعْبُ وَالْمَسَلَكُ الْوَعْرُ

إِذَا عَثَرْتَ جُرْدُ السَّوَابِحِ فِي الْقَفَا
لَقَدْ بَكَرَ الدَّاعِي عَلَيْنَا بِدَعْوَةٍ
بَلِيلِ عَجَاجٍ لَيْسَ يَصْدَعُهُ فَجْرُ
عَوَانٍ أَمْضَتْنَا لَهَا لَوْعَةٌ بِكْرُ

* *

أَنْفَسُ نَفْسٍ فِي الْوَرَى - أَقْصَدَ الرَّدَى؟
هَنِيئًا لِبَطْنِ الْأَرْضِ أَنْسُ مُجَدِّدُ
وَأَخْطَرُ عِلْقٍ - لِلْهُدَى - أَهْلَكَ الدَّهْرُ؟
بِشَاوِيَةٍ حَلَّتْهُ فَاسْتَوْحَشَ الظَّهْرُ
مُسَبِّحَةِ الْأَنْبَاءِ، مَحْرَابُهَا الْخِذْرُ
إِذَا الْجِسْمُ لَا يَسْمُو لَتَذَكِيرِهِ ذِكْرُ
فَمَنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ يُسْتَوْضَحُ الْجَهْرُ
فَيَرْفَعُ - عَنْ مَتْنٍ نَوَافِلِهَا - السِّرُّ
يُطَاطَأُ سِتْرُ الصَّوْنِ دُونَ حِجَابِهَا

* *

لَعَمْرُ الْبُرُودِ الْبَيْضِ فِي ذَلِكَ الثَّرَى
عَلَيْهَا سَلَامُ اللَّهِ تَرَى تَحِيَّةَ
لَقَدْ أَدْرَجْتَ - أَتْنَاءَ هَا - النِّعَمِ الْخُضْرُ
يُنَسِّمُهَا الْغُفْرَانُ رِيحَانُهَا النَّضْرُ
إِذَا اسْتَعْبَرْتَ فِي تَرْبِهَا أَبْنَسَمَ الزَّهْرُ

* *

فَدَيْنَاكَ، إِنَّ الرُّزْءَ كَانَ غَمَامَةً
أَلَسْتَ الَّذِي - إِنْ ضَاقَ ذَرْعُ بِحَادِثٍ -
طَلَعَتْ لَنَا فِيهَا كَمَا يَطْلُعُ الْبَدْرُ
تَبَلَّجَ مِنْهُ الْوَجْهَ وَاتَّسَعَ الصَّدْرُ
فَمَنْ دُونَهَا فِي الْعَصْرِ يَتَّبِعُهُ الْعَصْرُ
ثَوَيْنِ فَمَغْنَاهُنَّ - مُذْ حُقُبٍ - قَفْرُ
تَحَقَّى بِهَا ابْنُ كُلِّ أَفْعَالٍ بِرُ
نَسَاهُ النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى أُمَّهَاتِنَا
وَجَازَيْتَهَا الْحُسْنَى، ذَاكُمْ شَفِيقَةً

تَمَنَّتْ وَفَاةً - فِي حَيَاتِكَ - بَعْدَ مَا
كَانَ الرَّدَى نَذْرًا عَلَيْهَا مُؤَكَّدًا
تَوَلَّتْ فَأَبْقَتْ - مِنْ مُجَابِ دُعَاهَا -
تَمِّمْ بِهِ النِّعْمَى ، وَتَسِقُ الْمُنَى ،
فَلَا تَهْضِ الدُّنْيَا جَنَاحَكَ بَعْدَهَا
وَلَا زِلْتَ مَوْفُورَ الْعَدِيدِ بِقُرَّةِ

ابْنِي « جَهْوَرٍ » أَنْتُمْ سَمَاءُ رِيَاةٍ
تَرَى الدَّهْرَ - إِنْ يَبْطِشُ - فَنُكْمُ عَيْنِهِ
لَكُمْ كُلُّ رَقْرَاقِ السَّمَاحِ كَأَنَّهُ
سَحَابٌ نَعْمَى أُبْرَقَتْ وَتَدَفَّقَتْ
إِذَا مَا ذُكِرْتُمْ ، وَأُسْتُشِفَتْ خِلَالُكُمْ
طَرِيقَتُكُمْ مُثْلَى ، وَهَدْيُكُمْ رِضَى
وَكَمْ سَائِلٍ - بِالْغَيْبِ عَنْكُمْ - أَجَبْتُهُ
عَطَائِي وَلَا مَنْ ، وَحُكْمٌ وَلَا هَوَى
قَدْ اسْتَوْفَتْ النِّعْمَاءُ فِيكُمْ تَمَامَهَا

لِعَافِيكُمْ - فِي أَفْقِيهَا - أَنْجُمُ زُهَى
وَإِنْ تَضَحَكَ الدُّنْيَا فَأَنْتُمْ لَهَا ثَنَا
حُسَامٌ عَلَيْهِ - مِنْ طَلَاقَتِهِ - أَعْ
فَصَيْبُهَا الْجَدْوَى ، وَبَارِقُهَا الْبُ
تَضَوَّعَتْ الْأَخْبَارُ ، وَأُسْتَمَجَدَ الْخ
وَنَائِلُكُمْ غَمْرٌ ، وَمَذْهَبُكُمْ قَا
هُنَاكَ الْأَيَادِي الشَّفَعُ وَالسُّودُ الْ
وَحِلْمٌ وَلَا عَجْزٌ ، وَعِزٌّ وَلَا
عَلَيْنَا ، فِنَا الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالشُّ

في مدح ابن جهور

« قال يمدح أبا الحزم بن جهور . »

أَجَلٌ ، إِنَّ لَيْلَى حَيْثُ أَحْيَاؤُهَا الْأَسَدُ مَهَاً حَمَتْهَا - فِي مَرَاتِمِهَا - أُسْدُ (١)
بِمَانِيَةٍ تَذْنُو وَيَنَئِي مَزَارُهَا فَسَيَّانٍ مِنْهَا فِي الْهُوَى الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ (٢)
إِذَا نَحْنُ زُرْنَاهَا تَمَرَّدَ « مَارِدٌ » وَعَزَّ - فَلَمْ تَنْظُرْ بِهِ - « الْأَبْلَقُ الْفَرْدُ » (٣)
تَحُولُ رِمَاحُ الْخَطِّ دُونَ أَعْيَادِهَا وَخَيْلٌ تَطْلِي نَحْوَ قَايَاتِهَا جُرْدُ
لَحَى لِقَاحٍ تَأْنِفُ الضِّيمَ مِنْهُمْ جَعَّاجَةٌ شَيْبٌ وَصِيَابَةٌ مُرْدُ (٤)
أَبٌ ذُو أَعْتَزَامٍ ، أَوْ أَخٌ ذُو تَسْرِعٍ فَشَيْحَانُ مَاضِي الْهَمِّ ، أَوْ فَاتِكٌ جَلْدُ
فَمَا شِيمَ مِنْ ذِي الْهَبَةِ الصَّارِمِ الشَّبَا وَلَا حُطَّ عَنْ ذِي الْمَيْعَةِ السَّابِحِ اللَّبْدُ

وَفِي الْكِلَّةِ الْحَمْرَاءُ وَسَطَ قِيَابِهِمْ فَتَاةٌ كَمِثْلِ الْبَدْرِ قَابِلَةُ السَّعْدِ

(١) الأسد : لغة في الأزد ، والأسد : الأسود ، يقول : نعم إن ليلى من قبيلة الأزد وهي طيبة نعميها
الأسود وتذود عنها .

(٢) يقول إن قربها وبمداها سيان لأن وصلها - على القرب ، والبعد - بعيد النال ، وما أجل
قول المعري :

« فيادارها بالخير ، إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال . »

(٣) الأبلق الفرد : حصن السموءل بن هاديا بناء أبوه . قالوا بل بناء سليمان - عليه السلام - بأرض
تيما ، ونصده الزباء فمجزت عنه ومن مارد ، فقالوا : « تمرد مارد ، وعز الأبلق » . وفي هذا الحصن
يقول السموءل - من لاميته الرائعة المشهورة :

« لنا جبل يحنله من نجيره منيع ، يرد الطرف وهو كليل

هو الأبلق الفرد الذي شاع ذكره - يمز - على من رماه - ويطول . »

(٤) الحى اللقاح : هم الذين لا يدينون للملك ولا يؤدون لهم الاتاوة ، والججاجعة : جمع ججاج ، وهو
السيد السمح أو هو الكريم وهو وصف خاص بالرجال ، قال الشاعر : « ييض فطارفة فلب ججاجعة . »
ويجمع أيضاً على ججاج ، قال ابن الزبيري :

« ماذا يبدر فالعنقل من مرازية ججاج . »

صياغة القوم وصوابهم : لبابهم .

عَقِيلَةٌ سِرْبٍ لَا الْأَرَاكَ مَرَادُهُ وَلَا قِنٌّ مِنْهُ الْبَرِيرُ وَلَا الْمَرْدُ (١)
تَهَادَى فَيُضْنِيهَا الْوِشَاحُ غَرِيرَةٌ تَأَوُّهُ مَهْمًا نَاسٌ (٢) فِي جِيدِهَا الْعِقْدُ
إِذَا اسْتَحْفِظَتْ سِرَّ السُّرَى جُنَحَ لَيْلِيهَا تَنَاسَى النُّومَانِ : الْأَلُوءَةُ ، وَالنَّدُ (٣)
لَهَا عِدَّةٌ بِالْوَصْلِ ، يُوعِدُ غِيَّهَا مَصَالِيْتُ، يُنْسَى - فِي وَعِيدِهِمْ - الْوَعْدُ
عَزِيزٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعُودَ خَيَالُهَا فَيُسْعِفُ مِنْهَا نَائِلٌ فِي الْكَرَى ثُمَّ (٤)
كَفَى لَوْعَةٍ أَنْ الْوِصَالِ نَسِيبَةٌ يُطِيلُ غَنَاءَ الْمُقْتَضَى وَالْهَوَى نَقْدُ (٥)
سَتَبْلُغُهَا غَنَا الشَّمَالِ تَهَيَّأَةً نَوَافِحُ أَنْفَاسِ الْجَنُوبِ لَهَا رَدُّ (٦)
فَا نَسَى الْإِلْفُ الَّذِي كَانَ يَبْنِنَا - إِطُولُ تَنَائِدِنَا - وَلَا ضِيْعَ الْعَهْدِ

* * *

لَنْ قِيلَ : « فِي الْجِدِّ النَّجَاحُ لِطَالِبٍ » لَقَلَّ غَنَاءُ الْجِدِّ مَا لَمْ يَكُنْ جَدُّ (٧)

(١) المرد : النصف من ثمر الأراك أو نضيجه . (٢) ناس : الذي ينوس نوساً ونوساناً تحرك
وتذبذب واضطرب متديلاً ، وسمى ذرنواس - وهو من ملوك - الذين بذلك لذوا بين كاتنا تنوسان على ظهره .
(٣) الألوة : عود هندي يتجر به ، وقال أعرابي حين مرَّ على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
وهو يدفن :

« أَلَا جِئْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ فِي سَفَطٍ مِنَ الْأَلُوءَةِ أَحْوَى مَلْبَساً ذَهَباً . »

والند : ضرب من الطيب .

(٤) ثم : قليل ، يقول وهم يستكثرون علينا أن يزورنا خيالها فيسرعنا بالوصال في فترات الكرى
المنظمة القليلة . (٥) يقول : كفانا ألماً أنها لا تمن علينا بالوصال إلا وعوداً ، ووجهه يعطينا اقتضاؤها
وأداؤها في مواعيدها مع أننا نصفها الهوى طاجلاً غير متمحلين ولا مؤجلين .

(٦) الشمال : ريح الشمال ، والجنوب : ريح الجنوب ، وفي الأصل نوافج ، والنوافج : السحب الكثيرة
للطر ، ويقال نفع الندى القيم أي رقعته ونفجت الريح أي جاءت بقوة ، والنوافج - جمع نافخة وهي النسيم .
(٧) يقول ابن دريد في هذا المعنى :

« لَا يَنْفَعُ الْجِدُّ بِلَا جِدٍّ وَلَا يَحْذُكُ الْجَهْلُ إِذَا الْجِدُّ عَلَا . »

ويقول الشاعر :

« عَشْ بِجِدٍّ وَلَا يَضُرُّكَ نَوْكُ »

وقد أكثر الشعراء من الكلام في الجدود ، ومن أبدع ما قرأناه في ذلك قول ابن الرومي :

« إِنْ لِلْحَظِّ كَيْعِبَاءُ إِذَا مَا مَسَّ كَلْبًا أَحَالَهُ إِنْسَانًا . »

يَنَالُ الْأَمَانِي بِالْحَظِيرَةِ وَادِعٌ كَمَا أَنَّهُ يُكْدِي الَّذِي شَأْنُهُ الْكَدُ^(١)

☆ ☆

هُوَ الدَّهْرُ مَهْمَا أَحْسَنَ الْفِعْلَ مَرَّةً فَعَنَ خَطَاً ، لَكِنْ إِسَاءَتُهُ عَمْدُ
حِذَارِكَ أَنْ تَغْتَرَّ مِنْهُ بِجَانِبِ فَنِي كُلِّ وَادٍ مِنْ نَوَائِيهِ « سَعْدُ »^(٢)
وَلَوْلَا السَّرَاةُ الصَّيِّدُ مِنْ آلِ « جَهْوَرِ » لَأَعُوَزَ مَنْ يُعْدِي عَلَيْهِ مَتَى يَعْدُو
مُلُوكُ لَبَسْنَا الدَّهْرَ فِي جَنَابَتِهِمْ رَقِيقَ الْحَوَاشِي مِثْلَ مَا فُوقَ الْبُرْدِ
بِحَيْثُ مَقِيلُ الْأَمْنِ صَافٍ ظِلَالُهُ وَفِي مَنَهْلِ الْعَيْشِ الْمُدُوبَةُ وَالْبُرْدُ
هُمْ النَّفَرُ الْبَيْضُ الَّذِينَ وَجُوهُهُمْ تَرُوقُ فَتَسْتَشْفِي بِهَا الْأَعْيُنُ الرُّمْدُ
كَرَامٌ يَمُدُّ الرَّاعِيُونَ أَكْفَهُمْ إِلَى الْأَجْرِ مِنْهُمْ لَهَا بِاللَّهِ^(٣) مَدُّ

وقول المتنبي :

« هو الجدد حق تفضل العين أختها وحق يصير اليوم لليوم سيديا . »

وقول المعري :

« والجدد يدرك أرقاماً فيرفعهم وقد ينال إلى أن يعبد الحجر »

وشرفت ذات أنواط قبائلها ولم تبين على هلالها الشجرا . »

وقد ذكرنا طرفاً من أقوال الشعراء في هذا المعنى في رسالة النفران « ج ٢ ص ٩٨ » فإرجع إليها من شاء .

(١) الحظيرة : عى بها هنا الأموال المحظورة يقال : احتظر الرجل وحظر اتخذ حظيرة حبس فيها أمواله

من تضيق ، ويقال للرجل الذليل الخير « إنه لنكد الحظيرة » وسببت أمواله حظيرة لأنه حظرها ومنعها

عنده ، والوادع : الذي ينال حظه من العيش من غير كافة ولا مشقة ، يقول : « كثيراً ما ينال الوادع الذي

هو في خفض ودعة من العيش أمانيه بأمواله المحظورة عنده كما أنه كثيراً ما ينفق ذو السعي والسكد فلا

يحصل من ثمبه وكده على طائل » ، ولعل أبرع ما قرأناه في هذا المعنى قول ابن الرومي :

« إذا كان مجرى كوكب سمت هالة علاها وإلا اعتاص ذلك مطلباً . »

وقول الآخر :

« سبعان ربي يعطى ذا ويحرم ذا هذا يصيد ، وهذا يأكل السمكة . »

(٢) يقال « بكل واد سعد » أو « بكل واد بنو سعد » يريدون بذلك أن في كل جهة كفاءها من الشر

والأذى . قالوا وأصل التل أن الأضبط بن قريع بن هوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة - رأى من أهله ونومه

أمورا كرمها فنارنهم متتلا في القبائل فرأى من غيرهم مثل ما رأى منهم فقال : « في كل أرض سعد بن زيد . »

(٣) الأعطيات والهبات .

فَلَا يُنْعَمُ مِنْهُمْ هَالِكٌ فَهُوَ خَالِدٌ بِأَثَرِهِ ، إِنَّ الثَّنَاءَ هُوَ الْخُلْدُ
« أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ — لَا أَبَا لِأَيِّكُمْ مِنَ اللُّومِ ، أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا ^(١) »
أَوَّلِيكَ إِنْ نَمْنَا سَرَى فِي صَلَاحِنَا سَجَّاحٌ عَلَيْنَا كَحُلِّ أَجْفَانِهِمْ سَهْدُ

* *

أَلَيْسَ « أَبُو الْحَزَمِ » الَّذِي غِبَّ سَعْيِهِ تَبَصَّرَ غَاوِينَا فَبَانَ لَهُ الرُّشْدُ
أَغْرُ تَمَهَّدْنَا بِهِ الْخَفْضَ ^(٢) بَعْدَ مَا أَقْضَى عَلَيْنَا مَضْجَعُ وَنَبَا مَهْدُ ^(٣)
لَشَمَّرَ حَتَّى انْجَابَ عَارِضُ فِتْنَةٍ تَأَلَّقَ مِنْهَا الْبَرْقُ وَأَصْطَخَبَ الرَّعْدُ
فَسَالَمَ مَنْ كَانَتْ لَهُ الْحَرْبُ عَادَةً وَوَافَقَ مَنْ لَاشَكَ فِي أَنَّهُ ضِدُّ ^(٤)
هُوَ الْأَثَرُ الْمَحْمُودُ إِنْ عَادَ ذِكْرُهُ تَطَلَّعَتِ الْعَلَيَاءُ وَأَسْتَشْرَفَ الْمَجْدُ
تَوَلَّى فَلَوْلَا أَنْ تَلَاهُ « مُحَمَّدٌ » لَاوْطَأَ خَدَّ الْحُرِّ أَخْمَصَهُ الْعَبْدُ ^(٥)

* *

مَلِيكَ يَسُوسُ الْمَلِكَ مِنْهُ مُقَلِّدٌ رَوَى عَنْ أَبِيهِ فِيهِ مَا سَنَّهُ الْجَدُّ
سَجِيَّتُهُ الْحُسْنَى ، وَشِيْمَتُهُ الرِّضَى ، وَسِيرَتُهُ الْمُثُلَى ، وَمَذْهَبُهُ الْقَصْدُ

(١) ورد هذا البيت في الأصل :

« عليهم ، لا أبا لأيكم من اللوم ، أوسدوا المكان الذي سدوا . »

وليس هذا البيت لابن زيدون بل هو اقتباس ، وأصل البيت كما أثبتناه ، وهو من القصيدة المشهورة التي يقول فيها الشاعر :

« وتمدلى أبناء سعد عليهم وماقلت إلا بالذي علمت سعد . »

(٢) الخفض : اللمعة . (٣) يقول إنه بدلنا من خوف أمنا ومن سهاد رقادا .

(٤) يقول : وقد سألته أشد الأعداء ولو ما بالحرب ووافقه من لاشك في خصومته ولدهه بعد ما رأوا من شدة بأسه وقوته .

(٥) يقول : لولا أن محمدا قد خلف أبا الحزم لسادت دولة العاقبة ولسادت دولة العبيد على دولة الأحرار فأفلوهم أذلالا وداسو خدودهم بأرجلهم .

مُهَامٌ إِذَا زَانَ النَّدَى بِمَجْنُونَةٍ تَرْجَحُ فِي أَثْنَاهَا الْحَسْبُ الْعَدُوَّ
زَعِيمٌ لِأَبْنَاءِ السِّيَادَةِ بَارِعٌ عَلَيْهِمْ بِهِ تُثْنَى الْخَنَاصِرُ إِنْ عُدُوا
بَعِيدُ مَنَالِ الْحَالِ ، دَانِي جَنَى النَّدَى إِذَا ذُكِرَتْ أَخْلَاقُهُ خَجَلَ الْوَرْدُ
تَهْلَلُ فَأَنْهَلَتْ سَمَاءَ يَمِينِهِ عَطَا يَا تَرَى الْأَمَالَ مِنْ صَوْبِهَا جَعْدُ (١)
مُحَرَّرٌ لِمَنْ عَادَاهُ إِذْ أَوْلِيَاؤُهُ يَلْدُ لَهُمْ كَالْمَاءِ شَيْبَ بِهِ الشُّهُدُ
إِذَا اعْتَرَفَ الْجَانِي عَفَا عَفْوٌ قَادِرٌ عَلَا قَدْرُهُ عَنْ أَنْ يَلِجَ بِهِ حَقْدُ (٢)
وَمُتَّعِدٌ لَوْ زَا حَمَّ الطُّودَ حِلْمُهُ لِحَاجَزِهِ رُكْنٌ مِنْ الطُّودِ مُنْهَدُ
لَهُ عَزْمَةٌ مَطْوِيَّةٌ فِي سَكِينَةٍ كَمَا لَانَ مَتْنُ السَّيْفِ وَأَخْشَوْشَ الْحَدُ (٣)
يُوكَلُّ بِالتَّدْبِيرِ خَاطِرَ فِكْرَةٍ إِنْ اقْتَدَحَتْ فِي خَاطِرٍ أَثْقَبَ الزُّنْدُ (٤)
ذِرَاعٌ - لِمَا يَأْتِي بِهِ الدَّهْرُ - وَاسِعٌ وَبَاعٌ - إِلَى مَا يُحْرِزُ الْفَخْرَ - مُتَّعِدٌ
إِذَا أَسْهَبَ الْمُشْنُونُ فِيهِ شَأْنُهُمْ (٥) مَرَاتِبُ عُلَمَاءٍ كُلٌّ عَنْ عَفْوِهَا الْجَهْدُ
هُوَ الْمَلِكُ الْمَشْفُوعُ بِالنَّشْكِ مُلْكُهُ فَيَا فَضْلَ مَا يَخْفَى وَيَا سِرَّ مَا يَبْدُو (٦)
إِلَى اللَّهِ أَوَّابٌ ، وَلِلَّهِ خَائِفٌ وَبِاللَّهِ مُعْتَدٌ ، وَفِي اللَّهِ مُشْتَدُّ

(١) جعد : ندى .

(٢) قريب من هذا قول عنزة :

« لَا يَحْمِلُ الْحَقْدُ مِنْ تَمَلُّو بِهِ الرَّبِّ وَلَا يَنَالُ الْعَلَامُ مِنْ طَبَعِهِ الْغَضَبُ . »

(٣) فِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الشَّاعِرُ :

« وَكَالْسَيْفِ - إِنْ لَا يَنْتَه - لَانَ حِدَهُ وَحِدَاهُ - إِنْ خَاشَتْهُ - خَشْنَانُ . »

(٤) أَثْقَبَ الزُّنْدُ : أَوْرَى . (٥) شَأْنُهُمْ : فَاتَهُمْ وَتَصَرُّوا فِيهَا عَنِ الدَّيَاةِ .

(٦) يَقُولُ هُوَ الْمَلِكُ الَّذِي يَجْمَعُ إِلَى سَطْوَةِ الْمَلِكِ نَسَكَ الْوَرَعِينَ فَمَا أَفْضَلَ مَا يَسِرُّهُ فِي نَفْسِهِ وَمَا أُبْلِ وَأَشْرَفُ مَا يَمْلِكُهُ ، يَعْنِي أَنَّ سِرَّهُ وَإِعْلَانَهُ غَايَةُ فِي النَّبْلِ وَالْفَضْلِ .

* * *

لَقَدْ أَوْسَعَ الْإِسْلَامَ بِالْأَمْسِ حِسْبَةً
أَبَاحَ حِمَى الْحَمْرِ الْخَبِيثَةِ ، حَائِطًا
فَطَوَّقَ بِأَسْتِنَاصِهَا الْمِصْرَ مِنْهُ
هِيَ الرَّجْسُ إِنْ يُذْهِبُهُ عَنْهُ فَمُحْسِنٌ
مُظَلَّةٌ آثَمٌ ، وَأُمُّ كِبَائِرٍ
رَأَى تَقْصَ مَا يَجْنِيهِ مِنْهَا زِيَادَةً

نَحْتُ غَرَضَ الْأَجْرِ الْجَزِيلِ فَلَمْ تَعُدْ
حِمَى الدِّينِ مِنْ أَنْ يُسْتَبَاحَ لَهُ حَدُّ
يَكَادُ يُودَى شُكْرُهَا الْحَجَرُ الصَّلْدُ
شَهِيرُ الْأَيْدِي مَا لِأَلَانِهِ جَعْدُ
يُقَصِّرُ عَنْ أَذْنِي مَعَايِهَا الْعَدُّ
إِذِ الْعَوْضُ الْمَرْضِيُّ إِلَّا يَرُخُ يَغْدُو

* * *

غَنِيٌّ ، فَحُسِّنَ الظَّنُّ بِاللَّهِ مَالُهُ
لَنِعَمَ حَدِيثُ الْبِرِّ تُودِعُهُ الصَّبَا
تَغْلُفَلْ فِي سَمْعِ الرَّبَابِ وَطَالَعَتْ
مَسَاعٍ أَجَدَّتْ زِينَةَ الْأَرْضِ ، فَالْخَصَى
لَدَى زَهْرَاتِ الرَّوْضِ - عَنْهَا - بَشَارَةٌ

عَزِيزٌ ، فَصُنِعَ اللَّهُ مِنْ حَوْلِهِ جُنْدُ
تَبْتُ نَشَاهُ حَيْثُ لَا تُوضَعُ الْبُرْدُ (١)
لَهُ صُورَةٌ لَمْ يَعَمْ - عَنْ حُسْنِهَا - الْخُلْدُ
لَا لِي نَثْرٌ ، وَالثَّرَى غَنَبَرٌ وَرْدُ
وَفِي نَفَحَاتِ الْمِسْكِ - مِنْ طِيْبِهَا - وَفْدُ

* * *

فَدَيْتُكَ ، إِنِّي قَائِلٌ فَمُعَرِّضٌ
مُنَى كَالشَّجَا دُونَ اللَّهَاءِ (٢) تَعَرَّضْتُ

بِأَوْطَارٍ نَفْسٍ مِنْكَ لَمْ تَقْضِهَا بَعْدُ
فَلَمْ يَكُ الْمَصْدُورِ - مِنْ نَفْثِهَا - بُدُّ

(١) يقول : لعم حديث البر أردعته ربح الصبا فحملته وبنت خبره في الجهات النائية حيث لا توضع البرد
أى حيث لا تمدو خيل البريد اليها ولا تصلها الأخبار لبعدها ، وفي الأصل : « توضع »
(٢) اللهاء : اللعنة المشرفة على الخلق ، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى الفم ،
وجمعها لهوات ولهيات ولهى . قال ابن دريد :

« والناس كالنبت ، فثمة رائق فض نضير عوده من الجنى
ومنه ما تقتحم العين ، فان سفت جناها لإنساع عذابا في اللهى . »

أُمْنِي غُفْلٌ خَامِلٌ الذِّكْرُ ضَائِعٌ ضَيَاعَ الحُسَامِ العَضْبِ أَصْدَأُهُ الغِمْدُ
أَبَى ذَاكَ أَنَّ الدَّهْرَ قَدْ ذَلَّ صَعْبُهُ فَسُنِّي مِنْهُ - بِالَّذِي نَشْتَهِي - العَقْدُ (١)

أَنَا السَّيْفُ لَا يَذْبُو مَعَ الهَرِّ غَرْبُهُ إِذَا مَا نَبَا السَّيْفُ الَّذِي تَطْبَعُ الهِنْدُ
بَدَأَتْ بِنُعْمَى غَضَّةٍ إِنْ تَوَالَهَا فَحَسُنُ الْأَلَى (٢) فِي أَنْ يُوَالِيَهَا سَرْدُ
لَعْمُكَ مَا الْمَالِ أَسْمَى فَإِنَّمَا يَرَى الْمَالَ أَسْنَى حَظَّهُ الطَّبَعُ الْوَعْدُ (٣)
وَلَكِنْ لِحَالٍ - إِنْ لَبَسْتُ جَمَاهَا - كَسَوْتُكَ ثَوْبَ النُّصْحِ أَغْلَامُهُ الْحَمْدُ

أَتَتِكَ الْقَوَافِي شَاهِدَاتٍ بِمَا صَفَا مِنْ الْغَيْبِ فَأَقْبَلَهَا فَمَا غَرَّكَ الشَّهْدُ
لِيَحْظَى وَلِيَّ - سِرُّهُ وَفَقُّ جَهْرِهِ - فظَاهِرُهُ شُكْرُهُ ، وَبَاطِنُهُ وَدُّ
يُمَيِّزُهُ - مِمَّنْ سَوَاهُ - وَفَاوُهُ وَإِخْلَاصُهُ ، إِذْ كُلُّ قَانِيَةٍ هِنْدُ (٤)

(١) سُنِّي مِنْهُ العَقْدُ ، أَيْ تَبَسَّرَ الصَّعْبُ وَهَسَلَ . قَالَ الشَّاعِرُ :

« وَأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بِالَّذِي أَنَّهُ إِذَا لَقِيَ سُنِّيَّ عَقْدَ أَمْرٍ تَبَسَّرَا . »

(٢) الْأَلَى : النِّعْمَةُ جَمْعُهَا آلَاءٌ .

(٣) الطَّبَعُ : يُقَالُ رَجُلٌ طَبِيعٌ طَبِيعٌ (بِكَسْرِ ثَانِيهَا) مُتَدَنِّسُ الْعَرَضِ ذُو خِلَاقٍ دُنْيَا لَا يَسْتَعِي مِنْ

سُوءَةٍ ، وَالْوَعْدُ : الْخَفِيفُ الْأَحْمَقُ الضَّعِيفُ الْعَقْلُ وَالْبَدْنُ الدَّانِي الْحَبِيسُ النَّذِلُ .

(٤) كُلُّ قَانِيَةٍ هِنْدُ : مِثْلُ يَضْرِبُ عِنْدَ تَسَاوَى الْقَوْمِ فِي فُسَادِ الْبَاطِنِ .

رثاء أم المعتضد

« قال يرثي السيدة الكبرى والدته . »

أَلَا هَلْ دَرَى الدَّاعِي المُنَوِّبُ - إِذْ دَعَا
وَأَنَّ الثَّقَى قَدْ آذَنْتَنَا بِفُرْقَةٍ
لِرُزْنِكَ تَنْهَلُ الدُّمُوعُ ، فَشَلُهُ
لَقَدْ أَجْهَشَ الإِخْلَاصُ بِالْأَمْسِ بَاكِيًا
بِنَعْيِكَ - أَنَّ الدِّينَ مِنْ بَعْضِ مَا نَعَى ؟
وَأَنَّ الهُدَى قَدْ بَانَ مِنْكَ فَوَدَّعَا ؟
- إِذَا حَلَّ - وَدَّ القَلْبُ لَوْ كَانَ مَدْمَعًا
عَلَيْكَ ، كَمَا حَنَّ اليَقِينُ فَرَجَعَا

* *

وَدُنْيَا وَجَدْنَا العَيْشَ فِي غَفَلَاتِهَا
نُعَلُّ فِيهَا بِالْمَنَى فَتَغْرُنَا
طَرِيقًا - إِلَى وَرْدِ المَنِيَّةِ - مَهْيَعًا ^(١)
بَوَارِقُ لَيْسَ الآلُ مِنْهَا بِأَخْدَعًا ^(٢)

* *

أُصِيبْنَا بِمَا لَوْ أَنَّ هَضْبَ مَتَالِيعِ
مَنَارٍ - مِنَ الإِيمَانِ - لَمْ يَعُدْ أَنْ هَوَى ،
أُصِيبَ بِهِ لِأَنَّهُدَّ أَوْ لَتَضَعُضَعَا
وَحَبْلٌ - مِنَ التَّقْوَى - وَهَى فَتَقَطَّعَا
وَكَانَ لَهَا المِحْرَابُ فِي الخِذْرِ مَطْلَعًا ^(٣)

* *

لَنْ أُتِمِّعَتْ مِنَّا غَمَامَةٌ رَحْمَةً
لَقَدْ ظَلَلَتْ ذَاكَ السَّرِيرَ المُرْفَعَا

(١) المهبج : الطريق الواسع الواضح البين .

(٢) الآل : السراب ، يقول إن الأمانى تغرنا وتخدعنا كما يخدع السراب . والله درّ مهبّار إذ يقول :

« شد مامنى غرورا نفسه تاجر الآمال فى أن يربحها . »

وقوله : « ربما يقر بالظن الكذوب . » ، وفي هذا المعنى يقول ابن نباتة السعدى :

« وأقسم ما الدنيا بدار إفاقة ولاهى إلا مثل بعض المنازل

نسير إلى الآجال حول رجائها ونطوى بها الأيام طى المراحل . »

(٣) يقول : أنها شمس أشرقت فى خدرها ثم غربت فى قبرها .

صَرِيرٌ بِأَمْلَاكِ وَزُهْرٍ مَلَأِكَ
لَيْبِكَ الْأَيَّامِ وَالْيَتَامَى فَقِيْدَةً
أَصْلَهُمْ فَقَدَانَهَا ، فَكَأَنَّمَا
مُسَبَّحَةُ الْآثَاءِ ، قَانَتُهُ الضُّحَى
تَبَيَّتْ مَعَ الْإِخْبَاتِ ^(١) مُسْعِرَةَ الْحَشَا
إِذَا مَا هِيَ اسْتَوَفَتْ مِنَ الْبَرِّ غَايَةً
كَأَنَّ قَضَاءَ الْوَاجِبَاتِ مُحَرَّجٌ
أَصْرَفَ الرَّدَى ! لَوْ أَنَّ لِلسَّيْفِ مَضْرِبًا
فَلَوْ كُنْتُ - إِذْ سَا تَرْتُ - رَامَ مُجَاهِرٍ
إِذَا لَتَنَاهُ الْجَيْشُ مِنْ كُلِّ أَلْسٍ ^(٢)
« وَمُعْتَصِدٌ بِاللَّهِ » يَحْمِي ذِمَارَهُ
وَلَكِنْ عَرَرْتُ الْمَلِكَ - مِنْ حَيْثُ لَا يَرَى -
لَمَّا رُعْتَنَا ، أَوْ أَنَّ فِي الْقَوْسِ مَنَزَعًا
ذِمَارَ الْهُدَى كَانَ الْمَحْوَطَ الْمُنْعَا
يُشَايِعُ قَلْبًا فِي الْحِفَاظِ مُشِيْعًا
فَلَا سِرْبَ يُلْفِي - فِي حِمَاهُ - مُرَوَّعًا
فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِلْحَادِثِ الْحَنَمِ مَدْفَعًا ^(٣)

(١) الاخبات : التقوى والحشوع والفتوت ، يقول : هي البقية الباقية من النساء الصالحات تبين من خشية الله مصلحة داعية مسعرة الحشا خوفاً من لقاء الله ، وفرقا من هول يوم المرجع والمآب .

(٢) يقول : أنها حرصها على النظر وعظم النوافل إلى الفرائض كأنها تمنع أن في أداء الفرائض وحدها غير مشفوعة بالتطوع حرجاً وإنما لا يجعل عبادتها متعبة وعملها مثاباً عليه إلا بأن تنطوع ، نهى لذلك تبين ليها قائمة متجدة .

(٣) الأليس : الشجاع الذي لا يبالى الحرب ولا يروعه القتال والجمع ليس ، قال الشاعر :

« نَحَالُ نَدِيمَ مَرْضَى حَيَاءٍ وَتَلْقَاهُمْ غَدَاةَ الرُّوحِ لَيْسَا . »

(٤) عررت : وطئت وزلت ، على غير هدى وعلم وبلا تمييز ، وهو من قول الله عز وجل : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم . » ، وقال عمر رضي الله عنه : « اللهم إني أعوذ بك من معرة الجيش » تبرأ رضي الله عنه من وطأة جيش المسلمين من مرداه به بلا تمييز بين مسلم ومعاهد وكافر وإصابتهم إياهم في حريمهم وأموالهم وزروعهم بما لم يؤذن لهم فيه من قبل الفرع . يقول : لو كان صرف الدهر شخصاً يواجه مجاهرة لعجز عن غرضه ولتناه المعتصد الشجاع وجيشه الباسل ولكن صرف الدهر يأتي على غرة فلا يستطيع أحد أن يواجهه ويدفع فائلته ، والله در القائل :

يَغِيْظُ الْعِتَاقَ الْجُرَدَ أَلَّا تَرَى لَهَا وَتَأْسُفُ بِيضُ الْهِنْدِ أَنْ لَيْسَ تُنْتَضَى ،
وَسَمَرُ الْقَنَا أَلَّا تُهَزَّ وَتُشْرَعَا وَجَلَا ، فَتَعْنُو فِي الْمَرَابِطِ خُسَمَا

* *

لَنْ سَاءَ كَ الدَّهْرُ الْمُسِيءُ فَلَمْ يَكُنْ شَهِدَنَا : لَقَدْ طَرَزْتَ بُرْدَ جَمَالِهِ
وَمَا فَخْرُهُ إِلَّا بِأَنْ كَانَ مُصْنِعِيَا أَتَى الْعَثْرَةَ الْعَظُمَى ، فَهَلْ أَنْتَ قَائِلٌ
وَهَاهُوَ مُنْقَادٌ لِحُكْمِكَ ، فَأَحْتَكِمْ لَعَمْرُ اللَّهِ وَدَعْتَ أَمْسٍ - مُفَارِقًا -
تَمَنَّتْ وَفَاةً - فِي حَيَاتِكَ - بَعْدَ مَا قَوَّيْتَهَا مَا لَمْ يَدْعُ لِضَمِيرِهَا
خَفَضْتَ جَنَاحَ الدَّلِّ فِي الْعِزِّ رَحْمَةً تَرْوُحُ أَمِيرًا فِي الْبِلَادِ مُحْكَمًا
عَزَاءَ فَدَتْكَ النَّفْسُ ، عَزَمَ مُسْلِمٌ لِمَرْقِعِ أَمْرِ لَمْ يَزَلْ مُتَوَقِّعًا
بِأَوَّلِ عَهْدٍ وَاجِبِ الْحِفْظِ ضَائِعًا وَقَلَّدَتْهُ عِقْدَ الْبَهَاءِ مُرَصَّمًا
لِأَمْرِكَ ، إِنْ نَادَيْتَ لَبِّي فَأُسْرَعَا لَهُ حِينَ أَشْفَى مِنْ كَأَبْتِهِ : «لَمَّا»^(١)
لِتَبْلُغَ مَا تَهْوَى ، وَمُرُهُ لِيَصْدَعَا لَقَدْ وَرَدَتْ حَوْضَ السَّعَادَةِ مَشْرَعَا^(٢)
حَشَدَتْ لَهَا الْأَمَالَ : مَرَأَى ، وَمَسْمَعَا إِلَى غَايَةِ مِنْ بَعْدِهِ مُتَطَلِّعَا
لَهَا ، وَعَزِيزٌ أَنْ تَذِلَّ وَتُخَضَّعَا^(٣) وَتَغْدُو شَفِيعًا فِي الذُّنُوبِ مُشَفِّعَا
لِمَرْقِعِ أَمْرِ لَمْ يَزَلْ مُتَوَقِّعًا

« اليوم بيني لدويد بينته يارب وجه حسن رأيتنه

ومعصم - ذى برقه - لويته لو كان للدمر بلى أبليته

أو كان قرنى واحدا كفيته . »

(١) أشقى : من قولهم أشقى على الهلاك وأشقى على الموت إذا أشرف عليه ، والكناية : الحزن ، ولما : كلمة يقال للعائر وهي في الالباب دعاء له ، وإذا قيل : لا إله إلا الله ، فمعناه لا أقال الله عزته ، يقول : لقد أساء إليك الدهر في هذا الخلل فهل أنت صانع عنه ومقبله من عزته .

(٢) المشرع : كالشرعة والشرعية المكان الذى ينحدر منه الناس والدواب إلى الماء لوروده .

(٣) يشير إلى قوله تعالى في بر الوالدين :

« واخفص لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحهما كما ربياني صنيعا »

مَتَى ظَنَنْتِ الْأَيَّامُ أَنَّكَ جَارِعٌ
فَمَا أُرْبَدَّ وَجْهُ الْخَطْبِ إِلَّا لَقِيَّتَهُ
وَمَا كُنْتَ أَهْلًا أَنْ يُصِيبَكَ حَدِثٌ
فَلَوْلَاكَ لَمْ يَسْمَحْ مِنَ الدَّهْرِ جَانِبٌ
فَأَنْتَ الَّذِي لَمْ يَنْتَقِمْ غِيبَ قُدْرَةٍ
مَتَى تُسَدِّ نَعْمَى - قِيلَ أَنْعَمَ مِثْلُهَا -
وَإِنْ يَسَلِ الْعَافُونَ جَذْوَاكَ يُعْطِيهِمْ
وَيُغْرِى بِتَوْكِيدِ الْإِسَاءَةِ مُذْنِبٌ
خَلَائِقُ مُمَهَّأَةُ الْفَرِنْدِ كَأَنَّهَُا
تُنَافِحُهَا مِنْهَا أَحَادِيثُ سُودِدٍ
تَغْلُغُلُ فِي الْآفَاقِ أُسْرَى مِنَ الصَّبَا
فَلَوْ صَرَفْتَ صَرْفَ الْمُنُونِ جَلَالَةً
فَلَا زِلْتَ بِمَنْوَعِ الْحِمَى مُسَعَفَ الْمَنَى
وَدُمْتَ مُلَقًى أَنْجُمِ السَّعْدِ بَاقِيًا
أَوْ اسْتَشْعَرْتَ فِي قَلِّ صَبْرِكَ مَطْمَعًا
بِصَفْحَةٍ طَلَّقَ الْوَجْهَ أَبْلَجَ أَرْوَعًا
فَتُصْبِحُ عَنْهُ مُقْصَدَ الْقَلْبِ مُوجَعًا
وَلَا أَهْزَأَ أَعْطَافًا، وَلَا لَانَ أَخْذَا
وَلَمْ يُؤْثِرِ الْمَعْرُوفَ إِلَّا لِبَشْفَعَا
يُقَلِّ جَلَلٌ حَتَّى إِذَا قِيلَ أَبَدَا (١)
جَوَادٌ إِذَا لَمْ يَسْأَلُوهُ تَبَرَّعًا
فَيَلْقَاكَ بِالْإِحْسَانِ أَغْرَى وَأَوَامًا (٢)
حَدَائِقُ رَوْضِ الْحَزَنِ جِيدَ فَايْنَعَا
تَحَاكُ فَتَيْتَ الْمِسْكِ عَنْهَا تَضَوَّعَا
وَأَشْهَرَ مِنْ شَمْسِ النَّهَارِ وَأَسْرَعَا
لَكُنْتَ مُحْيَا مِنْ تَوَدُّ مُمْتَعَا
إِذَا كَانَ شَانِيكَ الْمَصَابِ الْمَفْجَعَا (٣)
لِدَيْنٍ وَدُنْيَا أَنْتَ فَخْرُهُمَا مَعَا

(١) يقول كلما أسديت جيلا قال الناس : كم لهذا الجميل من أشباه ونظائر فهو - على نظمه - تانه عندهم لكثرة ما ألفوه من صنائكك ، ولو أبدعت لم يسترع انظارهم إبدانك لطول ما ألفوا من روائعك وبدائعك .
(٢) يقول : ان السبي يطعمه غفوك عن زلته فهو إذا أولع بتوكيد إساءته وجذك أشد ولو طابتوكيد إحسانك وغفوك عنه . (٣) يقول : لا زال الزمن يعز من حماك وبسيفك بأمانيك على حين يصيب يدوك ويفجعه فيما يجب .

قل للبغاة

« وقال ذو الوزارتين رحمه الله »

الْدَّهْرُ - إِنْ أُمِلَى - فَصِيحٌ أَعْجَمُ يُعْطَى أَعْتَبَارِي مَا جَهِلْتُ فَأَعْلَمُ ^(١)
 إِنْ الَّذِي قَدَّرَ الْحَوَادِثَ قَدَّرَهَا سَاوَى لَدَيْهِ الشَّهَدَ مِنْهَا الْعَلَمُ ^(٢)
 وَلَقَدْ نَظَرْتُ فَلَا أُغْتَرَابُ يَقْتَضِي كَدَرَ الْمَالِ وَلَا تَوَقُّ يَعْصِمُ
 كَمْ قَاعِدٍ يَحْظِي فَتُعْجِبُ حَالُهُ مِنْ جَاهِدٍ يَصِلُ الدُّهْبَ فَيُحْرَمُ
 وَأَرَى الْمَسَاعِيَ كَالسُّيُوفِ تَبَادَرَتْ شَأَوُ الْمَضَاءِ فَنُتِنَ وَمُصَمَّمُ
 وَلَكُمْ تَسَامَى بِالرَّفِيعِ نِصَابُهُ خَطَرُهُ فَنَاصَبُهُ الْوَضِيعُ الْأَلَامُ ^(٣)
 وَأَشَدُّ فَاجِعَةِ الدَّوَاهِي مُحْسِنٌ يَسْمَى لِیُعْلِقَهُ الْجَرِيمَةُ مُجْرِمُ ^(٤)
 تَلْقَى الْحَسُودَ أَصَمٌّ عَنْ جَرَسِ الْوَفَا وَلَقَدْ يُصِيخُ - إِلَى الرِّقَاةِ - الْأَرْقَمُ ^(٥)

* *

قُلْ لِلْبُغَاةِ الْمُنْبِضِينَ قِسِيَهُمْ سَتَرُونَ مَنْ تُصْنِيهِ تِلْكَ الْأَسْهُمُ
 أَمَرَزْتُمْ فَرَأَى نَجِيَّ عُيُوبِكُمْ شَيْحَانُ مَذْلُولٌ عَلَيْنَا مُلْهُمُ

- (١) يقول إن الدهر إن أملى بلسان الحوادث الفصيح الأعجم يكسب اعتباري وقياسي الحوادث والعبر بعضها ببعض علم ما جهلت . (٢) إن الذي قاس الحوادث بمقياس صحيح استوى لديه حلول الحياة ومرها . (٣) وكثيرا ما يتسامى بالذي ارتفع منصبه خطره وشره فيناصبه العداء وضيع لثيم حسدا منه وبنيها . (٤) وأشد ما يجمع الانسان من الدواهي محسن يسمى مجرم ليلصق به إساءة وجريمة . (٥) يصيخ مضارع أصاخ له استمع ، والرقاة جمع راق من الرقية وهي ما ينث فيه من العوذ ، والأرقم ذكر الحيات وهو أخبثها وأطلبها للناس ، أو هو ما فيه بياض وسواد ، يقول : إن الحسود أصم عن سماع صوت الوفاء في حين أن الأرقم وهو أخبث الحيات وأشدّها عداوة للناس يصيخ بسمعه للراق الذي يثلو وينث في العوذ ، وفي الأصل « ولقد يصيخ إلى الرقاة الأرقم » .

وَعَبَّائُمُ لِلْفِسْقِ ظُفَرٌ سِمَايَةٌ لَمْ يَعُدُّكُمْ أَنْ رُدَّ وَهُوَ مُقَلَّمٌ
وَنَبَذْتُمْ التَّقْوَى وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ فَقَدَا بَغِيضَكُمْ التَّقِي الْأَكْرَمُ
مَا كَانَ حِلْمٌ « مُحَمَّدٍ » لِيُحِيلَهُ عَنْ عَهْدِهِ دَغِلُ الضَّمِيرِ ^(١) مُدَمَّمٌ
مَلِكٌ تَطَلَّعَ لِلنَّوَاطِرِ غُرَّةً زَهْرَاءُ يُنْدِيهَا الزَّمَانُ الْأَذْهَمُ
يَغْشَى النَّوَاطِرَ مِنْ جَهْرِ رُؤَايِهِ خَلَقَ - يُرَى مِلُّ الصَّدُورِ - مُطَهَّمٌ ^(٢)
وَسَنَا جَبِينٍ يَسْتَطِيرُ شُمَاعُهُ يُغْنِي - عَنِ الْقَمَرَيْنِ - مَنْ يَتَوَسَّمُ ^(٣)
صَلَتْ تَوَدُّ الشَّمْسُ لَوْ صِغَفَتْ لَهُ تَاجًا تُرْصَعُ جَانِبَيْهِ الْأَنْجُمُ ^(٤)
فَضَحَتْ مَحَاسِنُهُ الرِّيَاضَ بَكِي الْحَيَا - وَهَنَا عَلَيْهَا - فَأَغْتَدَتْ تَبَسُّمٌ
بِالْقَدْرِ يَبْعُدُ وَالتَّوَاضُّعُ يَدِّنُ وَالشَّرُّ يَشْمُسُ وَالنَّدَى يَتَغِيمُ ^(٥)
جَذْلَانُ - فِي يَوْمِ الْوَغَى - مُتَطَلِّقٌ وَجَهًا إِلَيْهَا وَالرَّدَى مُتَجَهِّمٌ ^(٦)
بَأْسٌ - كَمَا صَالَ الْهَزْبُ - إِزَاءَهُ جُودٌ كَمَا جَاشَ الْخِضَمُ الْخَضِرُ ^(٧)

(١) بضيره حقد مكتم . (٢) الرواء : الحسن ، وخلق مطهم : تام بارع الجلال .

(٣) يستطير : ينثر ، من القمرين : الشمس والقمر ، والذي أجاز الثانية مع اختلاف لفظ المفرد التخليل كما هو معروف في كتب النحو ، ويتوسم : ينظر إلى وسامة ذلك الجبين المضى وحسنه .

(٤) الصلت : صفة الجبين ومعناه الواضح البارز المستوى ، أى تود الشمس لو أنها صيفت تاجاً مرصعاً بلآلىء النجوم ، ووضعت فوق جبين المدحوح : (٥) فى الأصل

« بالقدر يبعد والتواضع يدنى والبشر شمس والندى يتغيم »

والذى أثبتناه هنا هو ما يعطيه المعنى .

(٦) يقول : أنه يرى يوم الحرب جذلان فرحا طلق الوجهه باشاً إلى الحرب والردى متجههم عابس الوجه كره النظر ، وفى الأصل : « والروا متجههم »

(٧) البحر المظطم العظيم

نَفْسِي فِدَاؤُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي
سُدَّتَ الْجَمِيعَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ مُنْكَرٌ
لَا غَرَوُا أُمَّ الْمَجْدِ - فِي بَكْرِ الْحِجَا
فَاكْحِمِمْ دَوَاعِي كُلِّ شَرٍّ دُونَهُ
كَمْ سَقَطَ زِنْدٍ قَدْ نَمَّا حَتَّى غَدَا
وَكَذَلِكَ السَّيْلُ الْجَحَافُ فَإِنَّمَا
وَالْمَالُ يُخْرِجُ أَهْلَهُ عَنْ حَدِّهِمْ
وَإِذَا كُرَّ صَنِيعُ أَيْكَ أَوَّلَ أَمْرِهِ
لَمْ يُقَيِّمْ مِنْهُمْ مَنْ تَوَقَّعَ شَرَّهُ
فَعَلَامَ تَنْكُلُ عَنْ صَنِيعِ مِثْلِهِ
وَجَنَابُكَ الثَّبَتُ الَّذِي لَا يَنْتَنِي
وَالْحَالُ أَوْسَعُ وَالْعَوَالِي جَمَّةٌ
لَا تَتَرُكُنَّ لِلنَّاسِ مَوْضِعَ شُبْهَةٍ
قَدْ قَالَ شَاعِرٌ كِنْدَةَ فِيمَا مَضَى

كُلُّ الْمُلُوكِ لَهُ الْعَلَاءُ تَسْلَمُ
أَنْ صِرْتَ فَذَهُمُ الَّذِي لَا مِثْلَ (١)
مِنْ أَنْ يُضَافَ إِلَيْكَ صِنُوءٌ - أَعْقَمُ (٢)
فَالْدَّاءُ يَسْرِي إِنْ عَدَا لَا يُحْسَمُ
بُرْكَانَ نَارٍ كُلِّ شَيْءٍ تَحْطُمُ
أُولَاهُ طَلَّ ثُمَّ وَبَلَ يَشْجُمُ (٣)
وَأَفْهَمُ فَإِنَّكَ بِالْبَوَاطِينِ أَفْهَمُ
فِي كُلِّ مَتَّهَمٍ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ
فَصَفَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَلَدَّ الْمَطْعَمُ
وَلَأَنْتَ أَمْضَى فِي الْخُطُوبِ وَأَشْهَمُ
وَحُسَامُكَ الْمَضْبُ الَّذِي لَا يَكْهَمُ
وَالْمَجْدُ أَشْمَخُ وَالصَّرِيمَةُ أَضْرَمُ (٤)

وَأَحْزَمُ ، فَمَثَلُكَ فِي الْمَظَايِمِ أَحْزَمُ
يَنْشَأُ عَلَى مَرٍّ اللَّيَالِي يُعْلَمُ :

(١) الذي لا يكون له توهم وظهير من الملوك .

(٢) لا غرو فان أم المجد عقيم في بكرها الموسوم بالحجا والعقل قد يثت من أن تضيف إليه صنوا .

(٣) الجحاف : كغراب الذي يذهب بكل شيء .

(٤) الصريمة : العزيمة وأصرم أي أقطع ، وفي الأصل : « والصريمة ضيف . »

« لَا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفِيعُ مِنَ الْأَذَى حَتَّى يُرَاقَ عَلَى جَوَانِبِهِ الدَّمُ »^(١)

فِرْقٌ عَوْتُ ، فَزَارَتْ زَارَةً زَاجِرٍ رَاعَ الْكَلِيبَ بِهَا السَّبَنَى الضَّيْفَمُ^(٢)
يَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَعُودُ سَفِيهِمُ أَمْ قَدْ حَمَاهُ الذَّبْحُ ذَاكَ الْمَكْمُ؟
لِي مِنْكَ فَلْيَذْبِ الْحَسُودُ تَلْظِيًا لُطْفُ الْمَكَانَةِ وَالْمَحَلُّ الْأَكْرَمُ
وَشَفُوفُ حَظِّ لَيْسَ يَفْتَأُ يُجْتَلَى غَضَّ الشَّبَابِ وَكُلُّ حَظٍّ يَهْرَمُ
لَمْ تُلَفْ صَاغِبِي^(٣) لَدَيْكَ مُضَاعَةً كَلَّا وَلَا خَفِيَ أَصْطِنَاعِي الْأَقْدَمُ
بَلْ أَوْسَعْتَ حِفْظًا وَصِدْقَ رِعَايَةٍ ذِمَّةٌ مُوْتَقَّةٌ الْعُرَا لَا تُفْصَمُ
فَلْيَخْرِقَنَّ الْأَرْضَ شُكْرُ مُنْجِدٍ مِنِّي تَنَاقَلُهُ الْمَحَافِلُ مُنْهِمُ
عَطِرٌ هُوَ الْمِسْكُ السَّطُوعُ - يَطِيبُ فِي شَمِّ الْعُقُولِ أَرِيحُهُ الْمُتَنَسِّمُ
وَإِذَا غُصُونُ الْمَكْرُمَاتِ تَهَدَّلَتْ كَانَ الشَّاءُ هَدِيلَهَا الْمُتَرَنِّمُ
الْفَخْرُ ثَقَرٌ - عَنِّ حِفَاظِكَ - بِأَسْمٍ وَالْمَجْدُ بُرْدٌ - مِنْ وَفَائِكَ - مُعَلِّمُ
فَأَسْلَمَ مَدَى الدُّنْيَا فَأَنْتَ جَمَالُهَا وَتَسْوَعُ النُّعْمَى فَإِنَّكَ مُنْعِمُ

(١) هذا البيت للمتنبي وقد اقتبساه ابن زيدون في هذه القصيدة .

(٢) السبنقي والضيغم من أسماء الأسد .

(٣) صاغية الرجل خاصته : الذين ينشون مجلسه .

ذكرى قرطبة

الْغَيْنِ
سَقَى اللَّهُ أَطْلَالَ الْأَحِبَّةِ بِالْحِمَى
وَحَاكَ عَلَيْهَا ثَوْبَ وَشِي مُنَمَّمَا
وَأُطْلَعَ فِيهَا لِلْأَزَاهِيرِ أَجْمَا
فَكَمْ رَفَلَتْ فِيهَا الْحَرَائِدُ كَالْدُمَى^(١) إِذِ الْعَيْشُ غَضٌّ وَالزَّمَانُ غُلَامٌ

* *

أَهِيمُ بِجَبَّارٍ يَعِزُّ وَأَخْضَعُ^(٢)
شَدَا الْمِسْكِ - مِنْ أُرْدَانِهِ - يَتَضَوَّعُ
إِذَا جِئْتُ - أَشْكُوهُ الْجَوَى - لَيْسَ يَسْمَعُ
فَا أَنَا - فِي شَيْءٍ مِنَ الْوَصْلِ - أَطْمَعُ وَلَا أَنْ يَزُورَ الْمُقْلَتَيْنِ مَنَامُ

* *

قَضِيبٌ - مِنَ الرِّيحَانِ - أَثْمَرَ بِالْبَدْرِ
لَوْ أَحِظُ عَيْنَيْهِ مُلْثَنٌ مِنَ السَّحْرِ
وَدِيْبَاجُ خَدَّيْهِ حَكَى رَوْنَقَ الْخَمْرِ
وَالْفَاظَةُ - فِي النُّطْقِ - كَاللُّوْلُو الثَّمْرِ وَرِيقَتُهُ - فِي الْإِرْتِشَافِ - مُدَامُ

(١) رفل : جر ذيله وتبعته ، قال الشاعر : « يرفلن في سرق الحرير وقزّه » الخرائد - جمع خريدة - وهي المرأة الحية ، وهي أيضاً اللؤلؤة التي لم تنقب ، قالوا : وكل عذراء خريدة ، والدمى - جمع دميثة - وهي الصورة المنقشة المزينة فيها حمرة كالدّم ، وقيل : هي من الرخام ، وقيل : هي من العاج ، وهي تضرب مثلاً في الحسن ، يقال « أحسن من الدمية »

(٢) قال الشريف :

« لو حيث يستمع الدرار وقفنا لعجبنا من عزّه وخضوعه . »

سَقَى جَنَابَاتِ الْقَصْرِ صَوْبُ النَّمَامِ
وَعَنَى عَلَى الْأَغْصَانِ وَرَقُ الْحَمَامِ
« بَقْرُطَبَةَ » الْغُرَاءِ دَارِ الْأَكَارِمِ
بِلَادُهَا عَمَقُ الشَّبَابِ تَمَامِي ^(١) وَأَنْجَبَنِي قَوْمٌ - هُنَاكَ - كِرَامُ

فَكَمَ لِي فِيهَا مِنْ مَسَاءٍ وَإِصْبَاحِ
بِكُلِّ غَزَالٍ مُشْرِقِ الْوَجْهِ وَضَّاحِ
يُقَدِّمُ ^(٢) أَفْوَاهَ الْكُؤُسِ بَتْفَاحِ
إِذَا طَلَعَتْ فِي رَاحِيهِ أَنْجُمُ الرَّاحِ - فَإِنَّا - لِإِعْظَامِ الْمَدَامِ - قِيَامُ

وَيَوْمٍ لَدَى « الْبَيْتِجَةِ » فِي شَاطِئِ النَّهْرِ
تُدارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي فِتْيَةِ زُهْرٍ ^(٣)
وَلَيْسَ لَنَا فَرْشٌ سِوَى يَانِعِ الزَّهْرِ
يَدُورُ بِهَا عَذْبُ اللَّمَّا أَهْيَفُ الْخَصْرِ - بَفِيهِ - مِنَ الثَّغْرِ الشَّنِيبِ - نِظَامُ ^(٤)

(١) النَّمَامُ - جمع تيمية - وهي عوذة تعلق على الأطفال مخافة العين ، ومنه قول القائل : « من على تيمية فلا أتم الله له » وقول الشاعر :

« وإذا المنية أنشبت أظفارها ألقيت كل تيمية لا تنفع . »

(٢) قَدَّمَ فَمِ الْآيَةِ وَأَقْدَمَهَا جَعَلَ عَلَيْهَا الْقَدَامَ أَيْ النِّظَامَ .

(٣) زَهْرٌ : مُشْرِقُ الْوَجْهِ ، وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا - فِي بَابِ الْمُخْرِيَاتِ - قَوْلُ أَبِي نَوَاسٍ :

« وَدَارُ نَدَامَى عَطَلُوهَا وَأَدْبَلُوهَا بِهَا أَثَرُ مِنْهُمْ جَنَى وَدَارَسَ

مَسَاحِبَ مِنْ جَرِ الزَّقَاقِ عَلَى الثَّرَى وَأَضْعَافُ رِيحَانِ جَنَى وَيَاسَ

حَبَسَتْ بِهَا صَحْبِي فَجَدَّدَتْ عَهْدَهُمْ وَلَاقَى عَلَى أَمْثَالِ تِلْكَ الْحَابِسِ

وَلَمْ أُدْرِ مِنْهُمْ غَيْرَ مَا شَهِدْتُ بِهِ - بِشَرْقِ سَابَاطٍ - الدِّيَارِ الْبَسَابِيسِ

أَقْنَأَ بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَلَاثًا وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرْحَلِ خَامِسِ

تُدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسْجِدِيَّةٍ حَبَّتْهَا بِأَنْوَاعِ النَّصَائِرِ فَارِسِ

قَرَارَتِهَا كَسَرَى وَفِي جَنَابَاتِهَا مَهَا تَدْرِيبُهَا بِالنَّفْسِ الْفَوَارِسِ

فَلَاخَمَرُ مَا زَرَّتْ عَلَيْهِ حَبِيبُهَا وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْفَلَّاسِ »

(٤) الشَّنِيبُ - مِنَ الشَّنْبِ - وَهُوَ رَقَّةٌ أَوْ هُوَ عَذُوبَةٌ فِي الْأَسْنَانِ ، وَقِيلَ تَقَطَّ يَبِضُ فِيهَا .

وَيَوْمَ « بِجُوفِي الرُّصَافَةِ » مُبْهِجٍ
مَرَرْنَا بِرَوْضِ الْأَقْحُوَانِ الْمُدْبِجِ
وَقَابَلْنَا فِيهِ نَسِيمُ الْبَنْفَسِجِ
وَلَاخَ لَنَا وَرَدٌ^(١) كَخَدِّ مُضَرَّجٍ تَرَاهُ أَمَامَ النُّورِ وَهُوَ إِمَامُ

وَأَكْرَمُ بَأْيَامِ « الْعُقَابِ » السَّوَالِفِ^(٢)
وَلَهُوَ أَثَرُ نَاهُ بِتِلْكَ الْمَعَاطِفِ
بِسُودِ أَثِثِ الشَّعْرِ بِيضِ السَّوَالِفِ
إِذَا رَفَلُوَانِي وَشِي تِلْكَ الْمَطَارِفِ^(٣) فَلَيْسَ - عَلَى خَلْعِ الْعِدَارِ - مَلَامُ

وَكَمْ مَشْهَدٍ عِنْدَ « الْعَقِيقِ » وَجِسْرِهِ
قَعْدَنَا عَلَى حُمْرِ النَّبَاتِ وَصُفْرِهِ
وَوَظَنِي يُسْقِنَا سُلَافَةَ حُمْرِهِ
حَتَّى جَسَدِي فِي السَّقَمِ - رِقَّةَ خَضْرِهِ لَوَاحِظُهُ - عِنْدَ الرُّنُوتِ - سِهَامُ

فَقُلْ لِرِمَائِ قَدْ تَوَلَّى نَعِيمُهُ
وَرَثْتُ - عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي - رُسُومُهُ
وَكَمْ رَقٍّ فِيهِ - بِالْعَشِيِّ - نَسِيمُهُ
وَلَا حَتَّ لِسَارِي اللَّيْلِ فِيهِ نُجُومُهُ : « عَلَيْكَ مِنَ الصَّبِّ الْمَشُوقِ سَلَامٌ »

(١) في الأصل : « نجد »

(٢) السوالف - جمع سائلة - وهي صفحة العنق ، وقيل : ناحية مقدمها من لدن معلق القروط إلى الترقوة . وقد تقدم في ص (٥٤) وما يليها شرح أمكنة ومعايد بقرطة منها (جوف الرصافة) و (العقاب) فارجع إليها إن شئت . (٣) المطارف - جمع مطرف - وهو رداء من خز مربع ذو أعلام .

وَمَا سَاءَ ظَنِّي فِي أَنْ يُسِيءَ بِي الْفِعْلَ حُسْنُكَ حَتَّى فَعَلَ
عَلَى حِينٍ أَصْبَحْتَ حَسْبَ الضَّمِيرِ وَلَمْ تَبْغِ مِنْكَ الْإِمَانِي بَدَلْ
وَصَانَكَ مِنِّي وَفِيَّ أَبِي لِعَلِّقِ الْعَلَاقَةَ أَنْ يُتَذَلَّ

* *

سَعَيْتَ لِتَكْدِيرِ عَهْدٍ صَفَا ، وَحَاوَلْتَ تَقْصَ وَدَادٍ كَمَلْ
فَاعُوفَيْتَ مِقَّتِي ^(١) مِنْ أَذَى وَلَا أُعْفَيْتَ ثِقَتِي مِنْ خَجَلْ
وَمَهْمَا هَزَزْتُ إِلَيْكَ الْعِتَا بَظَاهَرَتِ بَيْنَ ضُرُوبِ الْعِلَلِ
كَأَنَّكَ نَظَرْتَ أَهْلَ الْكَلَامِ وَأَوْتَيْتَ فَهْمًا يَعْلَمُ الْجَدَلْ
وَلَوْ شِئْتَ رَاجَعْتَ حُرَّ الْفَعَالِ وَعُدْتَ لِتِلْكَ السَّجَايَا الْأَوَّلِ
فَلَمْ يَكُ حَظِّي مِنْكَ الْأَخْسَرُ وَلَا عُدَّ سَهْمِي فِيكَ الْأَقْلُ

* *

عَلَيْكَ السَّلَامُ سَلَامَ الْوَدَاعِ وَدَاعٍ هَوَى مَاتَ قَبْلَ الْأَجَلِ
وَمَا بِاخْتِيَارٍ تَسَلَّيْتُ عَنْكَ ، وَلَكِنِّي : مُكْرَهُ لَا بَطْلَ ^(٢)
وَلَمْ يَذَرِ قَلْبِي كَيْفَ الزُّرْعُ إِلَى أَنْ رَأَى سِيرَةً فَامْتَثَلَ
وَلَيْتَ الَّذِي قَادَ عَفْوًا إِلَيْكَ أَبِي الْهَوَى فِي عِنَانِ الْغَزَلِ
يُحِيلُ عَذُوبَةَ ذَاكَ اللَّمَّا وَيَشْفِي مِنَ السُّقْمِ تِلْكَ الْمَقْلَ .

(١) مَقَّتِي : حَبِي .

(٢) يَقُولُ : لَمَّا نَفَى مَرِغَمًا عَلَى السَّلْوِ وَلَيْسَ لِي فِيهِ اخْتِيَارٌ وَفِي الْمَثَلِ « مُكْرَهُ أَخْرُوكَ لَا بَطْلَ » يَضْرِبُ لِمَنْ يَحْمِلُ عَلَى مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ ، وَلَا هُوَ دَاخِلٌ فِي حُدُودِ اسْتِطَاعَتِهِ .

في مدح المعتضد

« وقال أيضا يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل
الله أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد . »

لِلْحُبِّ - فِي تِلْكَ الْقِيَابِ - مَرَادُ^(١) لَوْ سَاعَفَ الْكَلِفَ الْمَشُوقَ مُرَادُ
لِيَفْرَ هَوَاكَ فَقَدْ أَجَدَّ حِمَايَةَ لِفَتَاةٍ نَجْدٍ فِتْيَةٍ أَنْجَادُ^(٢)
كَمْ ذَا التَّجَلُّدُ؟ لَنْ يُسَاعِفَكَ الْهُوَى بِالْوَصْلِ إِلَّا أَنْ يَطُولَ نِجَادُ^(٣)
أَعْقِيلَةَ السَّرْبِ! الْمُبَاحُ لَوْرِدِهَا صَفْوُ الْهُوَى إِذْ حُلِيَ الْوَرَادُ^(٤)
مَا لِلْمَصَايِدِ لَمْ تَنَلْكَ بِحِيلَةٍ؟ إِنَّ الظُّبَاءَ لَتُدْرَى^(٥) فَتُصَادُ
إِنْ يَعْدُ عَنْ سَمَرَاتٍ جِزْعِكَ سَامِرُ فِي كُلِّ مُطَّلَعٍ لَهُمْ إِرْعَادُ^(٦)

(١) مكان ارتياد . (٢) ليفر : لينعذر إلى التور ، والانجاء : جمع نجيد وهو الشجاع ذو
النجدة والبأس . (٣) يقول : ما هذا التجلد والصبر ؟ لأنه لن يسعك الهوى بالوصل ما لم تكن
شجاعاً طويلاً النجاد بحيث يهابك الأعداء ، وتستطيع زيارة هذه الحبيبة في حى قومها رغم زئيرهم ووعيدهم .
(٤) العقيلة : الكريمة من النساء المخدرة ، وحلى الوراد : منعوا من ورود الهوى صفوا ، أى يا عقيلة
بين سرب من النساء مباح لها ورد الهوى صافياً ممنوع غيرها من ورده ، وجواب النداء في البيت بعده .
(٥) المصايد : بلا همز جمع مصيده كعيشه ومعاش ، وتدري : تقتل من ادري الصائد الصيد إذا خله
واحتاله له ليعصده ، قال الشاعر :

« وماذا يدري الشعراء منى وقد جاوزت حدَّ الأربعين . »

وقال أبو نواس في وصف كأس :

« قرارتها « كسرى » وفي جنباتها مها تدريها - بالقى - الفوارس . »

(٦) سمرة : جمع سمرة (بفتح فضم) ضرب من الشجر . قال امرؤ القيس :

« كائن غداة البين - يوم ترحلوا - لدى سمرة الحى ناقد حنظل . »

وجزْعك : أراد به جزع الوادى أى منقطعه الذى يقطعه عرضاً إذا أراد زيارتها ، والسامر : مجلس السمر
يقول : إن يعدني ويعني عن سمرة جزع واديك سمار من قومك لهم فى كل ثنية ومطلع إرعاد وإبراق
وؤجر وتخويف ، وجواب الشرط فى البيت بعده .

فَبِمَا تَرَفَّرَقَ لِلْمُسْتِمِ يَنْتَهَا غَلَلٌ شَقَى حَرَّ الْغَلِيلِ بُرَادُ^(١)
 أَنَا حِينَ أُطْرُقُ لَيْسَ يَفْتَأُ طَارِقِي شَوْقٌ كَمَا طَرَقَ السَّلِيمِ عِدَادُ^(٢)
 يَنْهَى جَفَاؤُكَ عَنْ زِيَارَتِي الْكَرَى كَيْلًا يَزُورَ خِيَالُكَ الْمُعْتَادُ
 لَا تَقْطَعِي صِلَةَ الْخِيَالِ تَجَنُّبًا إِذْ فِيهِ مِنْ عَوَزِ الْوَصَالِ سِدَادُ^(٣)
 مَا ضَرَّ أَنَّكَ بِالسَّلَامِ ضَنْيْنَةً أَيَّامَ طَيْفُكَ بِالْعِنَاقِ جَوَادُ
 هَلَّا حَمَاتِ السَّقَمَ عَنْ جِسْمٍ لَهُ فِي كِلَّةٍ زُرْتُ عَلَيْكَ فُؤَادُ
 أَوْ عُدْتُ مِنْ سَقَمِ الْهُوَى، إِنْ الْهُوَى مِمَّا يُطِيلُ ضَنِّي الْفَتَى فَيُعَادُ
 إِيهَا ! فَلَوْلَا أَنْ أُرْوَعَكَ بِالشَّرَى لَدَنَا وَسَادُ أَوْ لَطَالِ سِوَادُ^(٤)

(١) ترفرق : تحرك وجاء وذهب كما يرى في ترفرق السراب والماء وفرند السيف ، والضمير في « ينها » مائد على السررات ، والغلل : الماء الذي يتنزل بين الشجر ، والغليل : العطش ، والبراد : البارد ، يقول : إن يمتني قومك من الوصول إليك فبمسيل الوادي الذي يتنزل ماؤه بين سررات الحى ما يشقى غليلي ويبرد قلبي ، يريد أن الوصول إلى هذا المكان يأتي حرارة الشوق عنده ، وقد ورد هذا البيت والذي قبله في الأصل على هذه الصورة :

«إن يعدن ثمرات جرنك سامر في كل مطلع لهم إرهاد

فبما ترفرق للمستم ينها غلل في جر الغليل براد .»

(٢) السليم : اللدوغ ، وعداد السليم : احتياج الوجع عنده ، وذلك إذا تمت له سنة من يوم لدغ هاج به الألم ، أو عداؤه أن تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء ، يقول : أنا حين أطرق برأسي مفكرا يطرقتني من ألم الشوق ما يطرق اللدغ هاج به الألم المارود .

(٣) سداد : بالكسر هو كل شيء سدوت به خلا ، ومنه سداد الفارورة وهو صمامها الذي يسد به رأسها ، ويقال : سداد من عوز وسداد من عيش وهو ما قصد به الحاجة .

(٤) الوساد : الخدة والسواد : السرار مصدر ساودها مساودة وسوادا أى سارها مسارة وسرارا فأدنى سواده من سوادها ، وقيل لابنة الحس : « لم زينت وأنت سيدة قومك » ؟ فقالت : « قرب الوساد ، وطول السواد . » وأرادت بطول السواد كثرة المسارة عند النوم لأن المسارة يلزمها قرب السواد من السواد ، أى دنو شخصها من شخصه ، وهو مثل يضرب للأمر يلقي صاحبه فيما يكره .

لَفَشَيْتُ سَجْفَكَ فِي مُلَاءَةٍ نَثْرَةٍ فَضَّلِ سِوَى أَنَّ الْعِطَافَ نِجَادُ (١)
لَأَمِيلَ فِي سُكْرِ اللَّعَا فَيَبِيَّتَ لِي - مِمَّا حَوَى ذَاكَ السَّوَارُ - وَسَادُ
فَعَدِي الْمُنَى، فَوَعِيدُ قَرْمِكَ لَمْ يَكُنْ لِيَعُوقَ عَنْ أَنْ يُقْتَضَى الْمِيْعَادُ

* *

أَصْبُو إِلَى وَرْدٍ اخْدُودٍ إِذَا عَدَتْ جُرْدُ - تُبْلَغُنِي جَنَاهُ - وَرَادُ
وَأَرَاخُ لِلْعِطْرِ السَّطُوعِ أَرْجُهُ إِنَّ شَيْبَ الْجَسَدِ الْعَطِيرِ جَسَادُ (٢)
عَزَمْتُ إِذَا قَصَدَ الْحِمَى لَمْ يَذْنِهِ أَنَّ الْقَنَاءَ - مِنْ دُونِهَا - أَقْصَادُ (٣)
مَنْ كَانَ يَجْهَلُ مَا الْبَلِيدُ، فَإِنَّهُ مَنْ تَطَبَّيْهِ - عَنِ الْحُظُوظِ - بِلَادُ (٤)
وَفَتَى الشَّهَامَةِ مَنْ - إِذَا أَمَلَ سَمَاءَ - نَفَدَتْ بِهِ سُورَى أَوْ أُسْتَبْدَادُ (٥)

* *

مَنْ مُبْلَغٌ عَنِ الْأَحْبَبَةِ إِذَا أَبَتْ ذِكْرَاهُمْ أَنْ يَطْمِئْنَ مِهَادُ
لَا يَأْسَ، رَبُّ دُنُو دَارِ جَامِعٍ لِلشَّمْلِ قَدْ أَدَّى إِلَيْهِ بَعَادُ (٦)

(١) السجف : الستر ، قالوا : أو هو الستران المقرونان بينهما فرجة ، أو هو كل باب ستر بسترين مقرونين ، فكل شق سجف وسجاف ، ويقال : اسجف الستر أى أرسله ، والملاءة : الربطة ، والنثرة : الدرع السلسلة اللبس أو الواسعة ، والفضل - كالفصلة - : الثياب التى تبذل للنوم ، وثوب فضل أى واحد أو هو أن يخالف بين طرفيه فيجعلهما على طاقه وتوشع به ، والنجاد : حائل السيف وضعها على طاقه فكانت بدل العطف ، يقول : لفشيت سجفك ، ودخلت عليك سترك فى درع واسعة كالملاءة ، فضل أى خالفت بين طرفيها فجعلتهما على طاقى حين توشعت بها ، أو فضل أى واحدة ليس على غيرها سوى ما وضعته على طاقى كالمطاف من نجاد السيف أى حائله .

(٢) الجسد : الثوب المصبوغ بالزعفران أو العنبر ، والجسد : الزعفران ، قالوا : « والجسد والجسد : الزعفران » ويقال : أجسد ثوب فلان لجسداً فهو مجسد . يقول : لى أرتاح وأنعم بعطرك الساطع إذا امتزج طيب الزعفران بثوبك الأحمر المصبوغ بالزعفران أو الأصفر المصبوغ بالعنبر .

(٣) أقصاد : يقال تقصدت الرماح تكسرت ورمح أقصاد منكسر ، ورمح أقصاد متكسرة يوصف به الواحد والجمع ، يقول : إذا اعتزمت زيارتها ، وتقصدت حماها لم يصرفنى عن عزى أن الرماح تنكسر دون الوصول إليها ، وفى الأصل : « الفنى . » (٤) اطباء : ازدهاء ، وشآء وأعجبه .

(٥) وفى الأصل : « نفدت به سورى أو استبداد »

(٦) وفى الأصل : « لا يأس »

إِنَّا غَتَرِبَ فَمَوَاقِعَ الْكَرَمِ - الَّذِي
 أَوْ أَنَا - عَنْ صَيْدِ الْمُلُوكِ بِجَانِبِي -
 الْمَجْدُ عُدْرُهُ فِي الْفِرَاقِ لِمَنْ نَأَى
 يَا هَلْ أَتَى مَنْ ظَنَّ بِي - فَظَنُّونَهُ
 أَنِّي رَأَيْتُ « الْمُنْذِرِينَ » كَلِمَتَهُمَا
 وَبَهَرْتُ بِالْبُرْدَيْنِ إِرْثَ « مُحَرَّقٍ » (٣)
 فِي الْغَرْبِ شَمْتُ بُرُوقَهُ - أَرْتَادُ
 فَهْمُ الْعَبِيدِ مَلِكُهُمْ « عَبَادُ » (١)
 أَرَى الْمَصَانِعَ مِنْهُ كَيْفَ تُشَادُ (٢)
 شَتَّى تَرْجَحُ بَيْنَهُمَا الْأَضْدَادُ -
 فِي كَوْنِ مُلْكٍ لَمْ يُحِلَّهُ فَسَادُ
 لَمْ تَخْلُقَا - إِذْ تَخْلُقُ الْأَبْرَادُ

(١) وفي الأصل :

« أَوْ أَنَا عَنْ صَيْدِ الْمُلُوكِ بِجَانِبِي فَهْمُ الْعَبِيدِ مَلِكُهُمْ عَبَادُ . »

(٢) وفي الأصل : « الْمَجْدُ عُدْرُهُ فِي الْفِرَاقِ لِمَنْ نَأَى »

(٣) محرق

هو - كما في سرح العيون - « عمرو بن المنذر بن ماء السماء » وهو « عمرو بن هند » وكان يعرف بأمه هند بنت الحرث بن حجر آكل المرار الكندي ، وكان يقال لعمرو مضطرب الحجارة لشدة بأسه ، وسعى محرقاً لفصة استوفى أبو الفرج شرحها في كتاب الأغانى ، فقال : كان قد حاقه حياطي على ألا يناعوا ، ولا يفاخروا ، ولا يفرزوا ، ثم أنه غرا اليمامة ورجع مفتبطاً ومربطاً ، فقال له زُرارة بن عدس التميمي ، وكان من خواصه أبيت اللعن أصب من هذا الحى شيئاً ، فقال ويحك إن لهم عدداً . قال وإن كان لهم ، فلم يزل به حتى أصاب نسوة وأذواداً ، فقال في ذلك قيس بن وجرة الطائي :

« أراك ابن هند لم تفك أمانة وما المرء إلا عهده ومواقفه »

فأقسمت جهدي بالأباطح من منى وما خب في بطائن درادقه

لئن لم تغير بعض ما قد فعلته لانتحين للعظم ذوات عارقه . »

سمى طارقاً بهذا البيت وبلغ الشعر عمرو بن هند ، فقال له زُرارة بن عدس أبيت اللعن أيتوعدك ؟ فقال عمرو لميلة بن شعار الطائي أبهجوني ابن عمك وبتوعدني . قال لا والله ما هجاك ، ولكنه قال :

« والله لو كان ابن جفنة جاركم ما إن كساكم ضيعة وهوانا . »

وأراد رميلة أن يسئل سخيمته ، فقال والله لأقتله ، فبلغ ذلك عارفاً ، فقال ملشداً :

« أيوعدني والرمل بيني وبينه تبين رويداً ما امامة من هند »

غدرت بعهد كنت أنت أخذتنا عليه وشر الشبيعة النذر بالعهد

وقد يترك النذر الفقى وطعامه إذا هو أمسى جله من دم الفصد . »

فبلغ عمرو بن هند قوله فخر اطيأ فاسراً سرى من بني عدي بن أحزم رهط حاتم ، فوفد حاتم عليه وسأله في الأسرى فأطلقهم له ، وكان المنذر بن ماء السماء أبو عمرو قد وضع ابناً له صغيراً يقال له مالك عند زُرارة

ابن عدس ، وأن مالكا خرج وما يتصيد فأخفق ولم يجد شيئاً ، فرجع فرأى بابل لرجل من بني عبدالله بن دارم يقال له سويد ، وكان عند سويد ابنة زراراة ، فولدت له سبعة غلّة ، فأمر مالك بن المنذر بناقاة سمينة منها فنحرها ، ثم اشتوى وسويد نائم ، فلما انتبه شدّ على مالك بعضاً فضر به فأمته ، فمات وخرج سويد هارباً حتى لحق بمكة ، وكانت طى تطلب تنزة بن زراراة وبني أبيه حتى بلغهم ما صنعوا بأخي الملك ، فقال ثعلبة بن عمرو الطائي :

« من مبلغ عمرواً بأن المرء لم يخلق صباره
وهو أدن الأيام لا تبقى لها إلا الحجارة
أن ابن عمرو أمته بالسفح أسفل من أزاره
تسقى الرياح خلال كشحه وقد سلبوا أزاره
فاقتل زراراة لا أرى في القوم أوفى من زراراه »

فلما بلغ هذا الشعر عمرو بن هند بكى وفاضت عيناه ، وبلغ الخبر زراراة فهرب وركب عمرو في طلبه فلم يقدر عليه ، فأخذ امرأته وهي حبلى ، فقال أذكر في بطنك أم أنثى ؟ قالت لا علم لي بذلك فبقر بطنها ، فقال قوم زراراة والله ما نلت أخت الملك فأنته الخبر ، فأتاه فتنصل إليه ، فقال على بسويد ، فقال إنه لحق بمكة ، قال فعلى بنيه ، فأتاه بنيه السبعة وأهمهم بنت زراراة غلّة بعضهم فوق بعض ، فأمر بقتلهم ، فتناولوا أحدهم فضربوا عنقه وتعلق بزراراة الآخرون ، فقال زراراة : يا بعضي ، فذهبت مثلاً وقتلوا وآلى عمرو بن هند ألية ليحرقن من بني حنظلة مائة رجل ، فخرج يريدن وبعث على مقدمته عمرو بن ثعلبة الطائي فوجد النوم قد أئذروا فأخذ منهم ثمانية وتسعين رجلاً بناحية البحرين فحبسهم ولحقه ابن هند فضربت قبتة وأمر لهم باخدود ثم أضرم فيه ناراً ، فلما احتدمت وتلظت قذف بهم فيه فاحترقوا فأقبل راكب من البراجم وهم بطن من بني حنظلة لا يدري بشيء مما كان يصنع بغيره فأخذ وأتى في النار وأقام عمرو بن هند لا يرى أحداً ، فتبل له لو تحملت بأسرأة منهم فقد أحرقت تسعة وتسعين رجلاً ، فدنا بأسرأة من بني حنظلة ، فقال لها من أنت ؟ قالت الحمراء بنت ضمرة ، فقال إني لأظنك أعجمية ؟ فقالت : ما أما بأعجمية ولا ولدتي العجم :

« إني لبنت ضمرة بن جابر سادا معدا كابرا عن كابر »

فقال عمرو : أما والله لولا مخافتي أن تلد مثلك لصرفتك عن النار ، فقالت : « أما والذي أسأله أن يضع وسادك ويغض عمادك ، ما تقتل إلا نساء أطالها ثدى ، وأسافلها دمي » قال اقذفوها في النار فالتفت وقالت : ألا فني يكون مكان عجوز ، فلما أبطئوا عليها قالت : هيهات صار الفتيان حملاً وسسى من ذلك اليوم محرراً ، ومن ملوك جفنة أيضاً المحرق لكنه غير صاحب البردين - فأما أمر البردين فحكى أن الوفود اجتمعت عند محرق فأخرج بردين من لباسه يبلو الوفود وقال ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذها ، فقام حارس بن أحير فأخذها فأثر بالواحد وارتنى بالآخر ، فقال له أنت أعز العرب قبيلة ؟ قال المزكلة في معد والمعد في معد ، ثم في نزار ، ثم في مضر ، ثم في خندف ، ثم في تميم ، ثم في سعد ، ثم في كعب ، ثم في بهلة فن أنكر هذا فلينا فرني فسكت الناس ، فقال هذه عشيرتك كما نزعهم فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك ؟ قال أنا أبو عشرة ، وأخو عشرة ، ، وهم عشرة ، وخال عشرة ، وما أنا في نفسي وشاهد العز شاهدي ، ثم وضع قدمه على الأرض وقال من أزالها من مكانها فله عشرة من الإبل فم إليه أحداً ، وخرج بالبردين فضربت العرب بعزه المثل وببرديه .

وَعَرَفْتُ مِنْ ذِي الطُّوقِ عَمْرُو^(١) تَأْرَهُ لِحَذِيْمَةِ الْوَضَّاحِ^(٢) حِينَ يُكَادُ

(١) عمرو « ذو الطوق »

انظر من « ١٤٥ » من هذا الديوان .

(٢) جذيمة الوضاح أو الأبرص

هو جذيمة بن مالك بن طامر التنوخي ، وقيل الأزدي أوّل من فاد العرب ومالك على قضاة ، وكانت منازل الحيرة والانبّار وولايته من قبل اردشير بن بابك ، وكان أبرص فعُدل عن هذا الاسم ، فقيل الأبرص والوضاح ، وزعم بعضهم أنه كان يأنف من اسم الأبرص ، ولذلك كنى عنه بالأبرص ، وفي العرب من يفتخر بذلك . قال الرازي يمدح أبرص :

« أبرص فياض اليبدين أكف والأبرص أدري بالله وأعرف . »

وهو أوّل من صنع له الشمع وأدج من الملوك ، وكان ذا رأي وهمة وتيه مفرط ، ويقال له ندم الفرقدين كان إذا شرب قدحاً صب لها قدحين ولا ينادم غيرهما ، وكان سبب ذلك فيما زعموا أنه كان تكهن واتخذ صنين يقال لهما الغريبان يستسقي بهما وينتصر على أعدائه ، وكانت إياد قد خرج قوم منهم من الحجاز وانتشروا فيما بين البصرة والكوفة وتمكنوا على ما بلى الحيرة وكثروا بعين أبيغ ، فخرج جذيمة غازياً ، وكان في إياد رجل يقل له عدى بن نصر ، وكان له ظرف وجمال ، وإليه تنسب الملوك من آل نصر ، فنزل جذيمة بساحتهم ، فبعث إياد قوماً منهم إلى صنم جذيمة فسقوا سدنتهم الحر وسرقوها فأصبحوا بهما في إياد ، فبعث إياد إلى جذيمة يقول : إن صنمك قد أصبحا عندنا زهداً فيك ورغبة فينا ، فإن هاهنا على أن لا نزنونا رددناهما إليك ، فقال جذيمة ولمعطوني أيضاً عدى بن نصر يكون عندى ففعلوا وانصرف عنهم ، وضم عديا إلى نفسه وولاه شرابه وأمر مجلسه ، وكان لجذيمة أخت تسمى رقاش وهي بكر ، فأحببت عديا وأحباها ، فسألته أن يخطبها من جذيمة إذا سكر ففعل ذلك وزوجه بها وأشهد عليه من حضر ، فلما أصبح دخل عليه بذياب العرس ، وكان قد دخل بها تلك الليلة ، فقال جذيمة ما هذه الآثار يا عدى ؟ فقال آثار عرس رقاش ، فقال من زوجكها ويحك ؟ قال الملك ، فأكب على الأرض مفكراً وهرب عدى فلم يعرف له أثر ولا خبر ، وأرسل جذيمة إلى أخته يقول :

« خبريني رقاش لا تكذبي أبحر زينت أم بهجين »

أم بعبد فأنت أهل لعبد أم بدون فأنت أهل لدون . »

قالت بل أنت زوجتي امرأة غريباً ولم تشاورني في نفسي ، فكف عنها وآلى أن لا ينادم إلا الفرقدين وحلت رقاش غلاماً وسمته عمرا ، فلما ترعرع ألبسته وعطرته ودخلت به على خاله ، فلما رآه أحبه وجله مع ولده وخرج جذيمة متبدياً بأهله في سنة خصبة ، فأقام في روضة ذات زهر ونهر ، فخرج ولده وعمرو معهم يجتنون الكمأة ، فكانوا إذا أصابوا كمأة جيدة أكلوها ، وإذا أصابها عمرو خبأها وانصرفوا إلى جذيمة يتعادون وعمرو يقول : هذا جنائى وخياره فيه ، إذ كلّ جانّ يده إلى فيه ، فضمه جذيمة إلى صدره وسرّ بقوله وحلاه بطوق من ذهب ، فكان أوّل عرى لبس الطوق ، ثم إن الجن استطارته فطلبه جذيمة في الآفاق زماناً فلم يقدر عليه ، ثم أقبل رجلان من قضاة يقال لهما مالك وعقيل ابنا فارح من الشام يريدان جذيمة وأعديا له طرفاً ، فبينما هما يأكلان إذ أقبل فتى عريان قد تلبد شعره فعرفهما نفسه فنهضا وغسلا

وَأَتَى بَنِي النُّعْمَانِ ^(١) - يَوْمَ نَعِيمِهِ - نَجْمٌ تَلَقَّى سَعْدَهُ الْمِيلَادُ
قَدْ أَلْقَتْ أَشْتَاتُهُمْ فِي وَاحِدٍ إِلَّا يَكْنُهُمْ أُمَّةً فَيَكَادُ ^(٢)

رأسه وأصلحاً أمره وألبساً ثياباً ، وقالوا ما كنا لنهدي جذية أغس من ابن أخته ، وخرجا به إلى جذية
فسر به ورأى الطوق ، فقال شب عمرو عن الطوق فذهبت مثلاً ، وقال لذلك ونقيل حكمكما قالوا
مناديتك ما بقينا وبقيت فكنتما من ذلك وهما نديما جذية اللذان يضرب بهما المثل وإياهما عنى متم بن
نوبة بقوله في رثاء أخيه :

« وكنا كندمانى جذية حقة من الدهر حتى قيل لن يتصدأ . »

وقيل إنما عنى الفرقدين ، ويحكى أن جذية سكر مرة أخرى فقتلها ، فلما أصبح ندم ، وبني عليهما النريين
ونادم الفرقدين وقيل إن صاحب النريين المنذر الأكبر ، ثم إن جذية أرسل يخطب الزباء ملكة الحضرمي الحاجز
بين الفرس والروم ، وكادها وترعته فأجابته واستدعته إليها فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالمضى فخالفهم قصير
ابن سعد ، وكان لبيباً ، وقال : إن النساء يهدين إلى الأزواج فصاه وسار حتى إذا كان بمكان يدعي بقة
استشارهم فأشاروا عليه لما يعلمون من رأيه فيها ، فقال قصير انصرف ودمك في وجهك فأبى ، وظن
جذية حتى إذا حان البكتاب قد استقبلته . قال لقصير ما الرأي ؟ قال تركت الرأي بقة ، ثم ركب قصير
فرساً لجذية تسمى العصا فتجا وأخذ جذية ، فلما أدخل على الزباء أمرت برواحشها فقطعت والرواحش
عروق اليد واستنزفته حتى مات في خير طويل مشهور ، وكانت مدة ملكه ستين سنة ، وله أشعار حسنة
مشهورة فمنها :

« أضحى جذية في يبرين منزله قد حاز ما جمعت من قبله طاد
مستعمل الخير لا تقنى زيادته في كل يوم وأهل الخير تزداد . »

(١) النعمان

قالوا إن النعمان كان له نديمان فغضب عليهما فقتلها ، فلما أصبح ندم على ذلك أشد الندم ، فبنى على
قبريهما ضريحين ، وجعل لنفسه يومين في كل عام يجلس فيهما بجوار القبرين أحدهما يوم نعيم ، والآخر
يوم يؤس . فأول من يطلع عليه في يوم النعيم يعطيه مائة من الابل ، وأول من يذبح عليه في يوم يؤسه
يقتله ويطلق بدمه ضريحى نديمه .

وقد ذكروا مثل ذلك عن المنذر بن ماء السماء ، وقالوا إنه لقي «عبيد بن الأبرص» في يوم يؤسه فقتله .
فقال له جلته التي صارت مثلاً فيما بعد وهي قوله : « حال المريض دون المريض » .

(٢) يقول : قد اجتمع هؤلاء الأعلام الذين أزدانت بهم السير في شخص واحد هو المدوح ، فإذا لم
يكن أمة مجتمعة فيه صفاتهم ومزاياهم فهو يكاد أن يكون .

وقديماً قال الفاعل :

« ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد . »

فَكَأَنِّي طَالَعْتُهُمْ بِوِفَادَةٍ لَمْ يَسْتَطِعْهَا «عُرْوَةُ» الْوَفَادُ^(١)

(١) عروة الوفاد

نلخص هنا طرفاً من أخباره عن كتاب الأغانى فنقول :
هو عروة بن الورد بن زيد ، وقيل : ابن عمرو بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هرم بن لديم بن عوذ بن غالب بن قطيعه بن عيس بن بغيض بن الريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار ، شاعر من شعراء الجاهلية ، وفارس من فرسانها ، وجواد من أجوادها المقدمين ، وكان يجمع الصعاليك ويقوم بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ولم يصيبوا معاشاً ، ولذلك سمي عروة الصعاليك ورووا عن عبد الملك بن مروان أنه قال : ما يسرقني أن أحداً من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة ابن الورد لقوله :

« إني امرؤ طاف إنائي شركة وأنت امرؤ طاف إنائك واحد
أتهزأ مني أن سميت وأن ترى بحسبي من الحق والحق جاهد
أفرق جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد . »

ويقال أيضاً : إن عبد الملك قال : من زعم أن حاثماً أسبح الناس فقد ظلم عروة بن الورد . قالوا : وكان إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع هؤلاء وأشباههم ثم يحفر لهم الأسراب ، ويتخذ لهم حظائر يكنفها عليهم ويؤويهم إليها ، ومن قوى منهم بأن يرى من مرضه أو ثبات إليه قوته خرج به معه فأغار ، وجعل لأهل الضعف من أصحابه البائين نصيباً ، وعن ابن الأعرابي قال : أجذب ناس من بني عيس في سنة أصابتهم فأهلكت أموالهم وأصابهم جوع شديد وبؤس ، فأتوا عروة بن الورد فجلسوا أمام بيته ، فلما بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك ، أغثنا ، فرق لهم وخرج لينزويهم ويصيب معاشاً فنهته امرأته عن ذلك لخونها عليه من الهلاك ، فعصاها وخرج غازياً ، فربم مالك بن حمار الفزاري فنجر له جزورا فأكل منها هو وأصحابه ، وأشار عليه مالك أن يرجع فعصاه ، ومضى حتى انتهى إلى بلاد القين فأغار عليهم فأصاب هجمة طاد بها على نفسه وأصحابه وقال في ذلك :

« أرى أم حسان الغداة تلومني تخوفني الأعداء والنفس أخوف
تقول سليبي لو أقت لسرنا ولم تدر أنني للمقام أطرف
لعل الذي خوفتنا من أماننا يصادفه في أهله المنخطف . »

وقال في ذلك أيضاً :

« أليس ورائي أن أدب على العصا فيشتت أعدائي ويسأمني أهلي
رهينة قمر البيت كل عشية يذيف بي الولدان أهدج كالرأل
أقيموا بني أمي صدور ركابكم فكل منايا النفس خير من الهزل
فانكموا لن تبلتوا كل همي ولا أربي حتى تروا منبت الأمل
لعل ارتيادي في البلاد وحيلتي وشدى حيازيم المطية بالرحل
سيدفعني يوما إلى رب هجمة يدافع عنها بالعوق وبالبلل . »

في قصر ملك كالسدير^(١) أو الذي ناطت به شرفاتها سنداد^(٢)

(١) السدير

« السدير » قصر — وهو معرب — قالوا « وأصله بالفارسية « سه دل » أى قبة فيها ثلاث قباب متداخلة » فعربته العرب ، فقالوا : « سدير » قالوا : « وهو موضع معروف بالحيرة » وقالوا : « هو قصر قريب من « الخورق » كان النعمان الأكبر اتخذ له بعض ملوك المعجم .
وسبأني ذكره في شعر الأسود بن يعفر عند الكلام على « سنداد » في شرح هذه القصيدة .
وقد ذكره « عبد المسيح بن عمرو » عند غلبة « خالد بن الوليد » والمسلمين على « الحيرة » في خلافة أبي بكر فقال :

« أبعد المنذر أرى سواما تروح بالخورق والسدير
تحاماه فوارس كل حى مخافة أغلب طالى الزئير
فصرنا بعد ملك « أبى قيس » كتل الشاء فى اليوم المطير
تقسنا القبائل من « معد » كأننا بعض أعضاء الجزور »

وقال الخليل في قصيدته المشهورة :

« فإذا سكرت ، فأننى رب الخورق والسدير
وإذا صحت ، فأننى رب الشوبة والبعير . »

(٢) سنداد

« سنداد » قصر بالعين وهو المقصود هنا ، وسنداد — فى رواية أبى الحسين الأديب : نهر ، وقد استدل على ذلك بقول أبى دؤاد الايادى :

« أقفر الدير فالأجارع من قو مى ، فروق ، فرامج ، تخفيه
فتلاع الملا إلى جرف سنداد د ، فقو ، إلى لعاف طبيه
موحشات — من الأنيس — بها الوح ش خناطيل موطن أو بنيه . »

قالوا : وسئل عنه « أبو عمرو » أهو بفتح السين أو كسرهما ، فقال : « بفتح السين » وعن صاحب التكملة : بفتح السين وسامى بالكسر .

وفى رواية « السكونى » : « سنداد منازل لا ياد نزلتها لما قاربت الريف ، بعد لصف وشرج وناظرة ، وهو أسفل سواد الكوفة ، وراء نجران الكوفة .

قال حمزة فى تاريخه : « وكان قد تملك فى القديم من الفرس على مواضع متفرقة من أرض العرب ستة عشر مرزبانا ، وقد ذكرهم صاحب معجم البلدان « ج ٥ ص ١٥٠ » إلى أن قال : « ثم تملك سنداد على عمل سخت ، وطال مكثه فى الريف حتى بنى فيه أبنية : وهو صاحب القصر ذى الشرفات من « سنداد » الذى يقول فيه « الأسود بن يعفر » « والقصر ذى الشرفات من سنداد »

تَتَوَهُمُ الشَّهْبَاءُ فِيهِ كَتِيبَةٌ بِفَنَاءٍ ، الِيَحْمُومُ فِيهِ جَوَادُ
يَخْتَالُ مِنْ سَيْرِ الْأَشَاهِبِ وَسَطُهُ بِيضٌ كَمُرْهَفَةِ السُّيُوفِ جِمَادُ^(١)

* *

فِي «آلِ عَبَّادٍ» حَطَطْتُ فَأَعَصَمْتُ هَمِي بِحَيْثُ أَنْفَتِ الْأَطْوَادُ
أَهْلُ الْمَنَازِرَةِ الَّذِينَ هُمُ الرُّبَا فَوْقَ الْمُلُوكِ إِذِ الْمُلُوكُ وَهَادُ^(٢)
قَوْمٌ إِذَا عَدَّتْ مَعْدُ عَقِيلَةٍ مَاءَ السَّمَاءِ ، فَهُمْ لَهَا أَوْلَادُ
يَنْتُ تَوَدُّ الشَّهْبُ فِي أَفْلَاكِهَا لَوْ أَنَّهَا - لِبَنَائِهِ - أُوتَادُ

قال ابن الكافي :

وكانت «إباد» تنزل سنداد - وهو نهر فيما بين «الحيرة» إلى «الابلة» وكان عليه قصر تخرج العرب إليه ، وهو القصر الذي ذكره الأسرود بن يعفر .
قالوا : ومرة «عمر بن عبد العزيز» بقصر لآل جفنة فتشمل «مزاحم» مولاه يقول «الأسود ابن يعفر النهشلي :

«ومن الموائد - لأبالك - أني ضربت على الأرض بالأسداد
لا أتهدي فيما لمدفع تامة بين العراق وبين أرض مراد
ماذا أؤمل - بعد آل محرق - تركوا منازلهم وبعث إباد
أهل الخورائق والسدير وبارق والقصر - ذى الشرفات - من سنداد
حلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجي من أطواد
أرض تخيرها - لطيب مقيلا - كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على عراس ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد
واقعد غنوا فيها بأفضل عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد
فاذا النعيم وكل ما يلهي به يوماً يصير إلى بلى ونقاد .»

فقال له عمر : ألا قرأت : «كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين»

(١) يقول يختال القصر من سبر الجداول وسطه متجمدة كبض السيف المرفعة ، وفي الأصل :

«يختال من سر الأشاهب وسطه ببيض كمرهفة السيف جعاد .»

(٢) قريب من هذا المعنى قول ابن دريد :

«هم الكمارخ المنيفات الذرى والناس ضحاح ثياب وأضى .»

مَمْدُودَةٌ يَلْهَى ^(١) النَّدَى أَطْنَابُهُ مَرْفُوعَةٌ - بِالْبَيْضِ - مِنْهُ عِمَادُ
مُتَقَادِمٌ إِلَّا تَكُنْ شَمْسُ الضُّحَا لِدَّةٌ لَهُ ، فَجُومَهَا أَرَادُ ^(٢)
نَيْطَتْ «بِعَبَادٍ» لَا لِيْ مَجْدِهِمْ فَتَلَلَاتْ - فِي ثُومِهَا ^(٣) - الْأَفْرَادُ
مَلِكٌ إِذَا أَقْنَنْتَ صِفَاتُ جَلَالِهِ فَتَقَاصَرَتْ عَنْ بَعْضِهَا الْأَعْدَادُ
نَسَبَتْ زَيْدٌ ^(٤) عَمْرَ هَابِلٍ أَعْرَضَتْ

(١) الالهى : العطايا :

(٢) أَرَادَ - جمع رَأَدَ - يقال رَأَدَ الضحى : أى ارتفاعه ورَأَدَ الأرض : خلاؤها ، قال الطغرائى :

« مجدى أخيرا ومجدى أولا شرع والشمس راد الضحى كالشمس فى الطفل. »

(٣) النوم : جمع تومة وهى اللؤلؤة ، وسببت تومة لأنها تومة نظيرتها فى المقد أو فى الأذن ، والافراد : جمع فرد وهو ما لا نظير له فى المقد يقال : فرد وفريد ، ويقال : تادم أخاه أى ولد معه ، فهو تشبة ، وتومه .

(٤) عمرو بن معديكرب الزبيدى

ويضرب المثل باقدامه وشجاعته .

اقدم عمر فى ساحة حاتم فى حلم أخف فى ذكاء لياس .

هو - كما فى سرح الميون - عمرو بن معديكرب بن عبد الله الزبيدى ، وكنيته « أبو ثور » الفارس المشهور صاحب الغارات والوقائع المذكورة فى الجاهلية والاسلام ، وفد على رسول - صلى الله عليه وسلم - فى السنة العاشرة من الهجرة .

قال عمرو :

قدمت المدينة ، فرأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قافلا من « بؤك » فأردت أن أدنو إليه ، فنعنى من حوله .

فقال : « دعوه » فدئوت منه ، فقلت :

« أنعم صباحا أبيت اللعن »

فقال : « يا عمرو أسلم تسلم ويؤمنك الله من الفزع الأكبر » فأسلمت

وحاش « عمرو » إلى أيام عثمان ، وأبلى فى وقائع الاسلام بلاء حسنا مثل وقعة القادسية ، وهو الذى ضرب خطم الفيل بالسيف فانزرم وانزمت الأعاجم ، وكان سبب الفتح ومثل وقعة اليرموك وغيرها ، قال الخنمى ما رأيت أشرف من رجل يوم اليرموك خرج له علج فقتله ، ثم آخر فقتله ، ثم انزمو فنبههم وتبته ، ثم انصرف إلى رجباء له أسود فنزل فدعا بالجفان ودعا من حوله ، قلت من هذا ؟ قالوا عمرو بن معديكرب ، وحدث بن أبى حاتم . قال سررنا يوم القادسية بعرو بن معديكرب وهو يحض الناس بين الصفيين ويقول : أيا الناس كونوا أشد متاشا إن هذا الرجل من الأعاجم إذا لقي مزارقا غانما هو تبس ، فبينما هو كذلك يجرسنا إذ خرج رجل من الأعاجم فوقف بين الصفيين فرماه بنشاب ، فما أخطأت سبة قوس كان متنكبها فالتفت ، ثم حل عليه فاعتقه ، ثم أخذ بمنطقته فاحتله فوضعه بين يديه وجاء حتى إذا دنا منا كسر عنقه ،

ثم أمر الصمصامة على حلقه فذبحه ونزع سواريه ومنزقته وألقاه، وقال : « هكذا فاصنعوا بهم » فقلنا : « من يستطيع يا أبا ثور أن يصنع كما تصنع ؟ » وحكى أبو عبيدة قال : لما كان فتح القادسية أصاب المسلمون أموالا عظيمة فنزل سعد بن أبي وقاص الخمس ثم قسم البقية فأصاب الفارس ستة آلاف وبقي مال دثر ، فكتب إلى عمر بما فعل فكتب إليه أن رد على المسلمين الخمس وأعط من لحق بك ممن لم يشهد الواقعة ففعل ذلك ، ثم كتب إليه أن أعط ما بقي حلة القرآن ، فأناه عمرو بن معديكرب ، فقال ما معك من حفظ القرآن ؟ قال : « لاني أسأمت » ثم شغلت بالغزو عن حفظ القرآن ، وقيل أناه بشر بن ربيعة ، فقال له ما معك من حفظ القرآن ؟ قال معي بسم الله الرحمن الرحيم ، فضحك القوم ، فقال سعد مالك في هذا المال من شيء ولا من نصيب ؟ فقال عمرو منشداً :

« إذا قلنا ولا يبكي لنا أحد قالت قريش ألا تلك المقادير

نعطى السوية من طعن له نقد ولا سوية إذ تعطى الدنانير . »

وقال بشر أبياتا، فكتب سعد إلى عمر بما قال ، فكتب إليه : « أعطها على بلأها » فأعطاهما أربعة آلاف درهم ، وحكى المدائني قال : كان عمرو بن معديكرب في سرية أميرها سلمان بن ربيعة فعرض الخيل ، ففر عمرو على فرس له ، فقال هذا هجين ، فقال عمرو عتيق . قال فأمر به فعطش ، ثم دعا بقرس ، فقلب فيه ماء فدعا بخيل فتاق فصربت فجاء فرس عمرو ، فقتى يديه وشرب وهكذا يصنع الهجين ، فقال له ألا ترى ؟ فقال عمرو أجل الهجين يعرف الهجين ، فبلغ عمر ، فكتب إليه قد بلنى ما قلت لأميرك ، وبلنى أن لك سيفاً تسميه الصمصامة وعندى سيف مصصم بالله اثنتي عشرة على هامتك لا أفلح حتى أبلغ به شراسيفك فان سرك أن تعلم أحق ما أقول فعد ، ويروى أن عمر رضى الله عنه سأله يوماً ، فقال ما تقول في الحرب ؟ قال مرة المذاق إذا كشفت عن ساق ، فمن صبر عرف ، ومن ضعف تاف . قال فما تقول في الرمح ؟ قال خيلك وربما خالك . قال فالنيل ؟ قال منايا تخلي وتصيب . قال فالترس ؟ قال عليه تدور الدوائر . قال فالسيف ؟ قال عبدك ثمكنتك أمك . قال عمر بل أمك ، فقال الجي أضرعتي ، فأذلل له عمر في الكلام ، فقال :

« أنوعدنك كأنك ذو ردين بأنقم عيشة أو ذو نواس

فلا تفخر بملكك كل ذلك يصير لذة بعد الشمس . »

فقال عمر صدقت فاقصص مني قال يا أمير المؤمنين لولا آية سمعتها منك لجللتك بالسيف أخذ منك أم ترك ، قال وما هي ؟ قال سمعتك تقرأ أنه من يأت ربه مجرمًا فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، والله لو علمت اني إذا دخلتها مت لبعثت ، وحكى أن عيينة بن حصن لما قدم الكوفة أقام أياماً ، ثم قال : والله مالي بأبي ثور عهد ، ثم ركب فرساً وسأل عن علة بني زبيد فأرشد إليها وسأل عن عمرو فوقف ببابه ، ثم قال : يا أبا ثور اخرج إلينا فخرج مؤثراً كأنما كسر وجبر ، فقال له انعم صباحاً أبا مالك ؟ فقال أوليس قد بدلنا الله تعالى بهذا السلام عليكم ، فقال دعنا مما لا نعرف انزل فان عندى كبشاً سينافق نزل فعند إلى الكبش فذبحه ثم ألقاه في قدر وطبخه ، وجلس يتحدث إلى أن أدرك فترد في جفنة عظيمة وألقى القدر عليها وقعدا فأكلهما ثم قال : أى الشراب أحب إليك اللين أم ما كننا نتنادم عليه في الجاهلية ، فقال أو ليس حرمها الله تعالى في

الاسلام ، فقال : أنت أقدم لإسلاماً أم أنا ؟ قال : أنت ، قال : فاني قد سمعت ما بين دفتي المصحف فوالله ما وجدت لها تحريماً إلا أنه قال : فهل أنتم منتمون . فقلت : « لا » ثم جاء بنيذ وجلسا يشربان ويتحدثان ويذكران أيام الجاهلية حتى أسما ، فلما أراد عينة الانصراف . قال عمرو إن انصرف أبو مالك بنير حياءً إنها لوصة فأمره بناقة أرحية وحمله عليها ثم أتى بمزود فيه أربعة آلاف درهم فوضعه بين يديه ، فقال أما المال فوالله لا آخذه ولا أألمسه ، فانصرف وهو يقول :

« جريت أبا ثور جزاء كرامة فزعم الفتى أنت المزور المضيف . »

وقيل انه لم يكن في عمرو خصلة رديئة إلا الكذب ، حكى أبو عمرو بن العلاء ، قال : وقف عمرو يوماً بالمربد يتحدث - على عادتهم - فقال : « غزوت في الجاهلية على بني مالك فخرجوا مستدعين بمخالد بن الصقبة فحطت عليه بالمصاصة فأخذت رأسه » وكان خالد بن الصقبة حاضراً ، فقال بعض الجماعة : « مهلاً أبا ثور قتيلك يسمع كلامك » وأشار إليه ، فقال اسكت إنما أنت محدث فاسمع أو قم ، ثم التفت إلى خالد وقال : « إنما نرهب هذه المعدية بهذه الأخبار » ومضى في حديثه فلم يقطعه ، فقال له رجل : « انك لشجاع في الحرب والكذب » فقال : « إني كذلك » وحكى أبو عمرو بن العلاء قال : جاء رجل إلى عمرو وهو واقف بالمربد على فرس له وقد أسن فقال لا نظرن ما بقي من قوة أبا ثور فأدخل يده بين سائه وجنب الفرس ففطن عمرو لذلك فضم رجله وحرك الفرس فجعل الرجل يعدو مع الفرس لا يقدر أن ينزع يده حتى إذا بلغ منه صاح به فقال : « يا ابن أخي مالك ؟ » قال : « يدي تحت سانك » نفخى عنه وقال : « إن في عمك بقية بعد » ومن كلامه حكى أنه أتى بجاشع بن مسمود فقال : أسألك حلال مثل وسلاح مثل فأمر له بفرس جواد وسيف صارم وعشرين ألف درهم فربى بني حنظلة فقالوا : « يا أبا ثور كيف رأيت صاحبك ؟ » فقال : « لله بنو بجاشع ما أشد في الحروب لقاءها ، وأجزل في اللزبات عطاءها ، وأحسن في المكرمات بناءها ، والله لقد قاتلتها فما أحييتها وسألتها فما أبخلتها ، وهاجيتها فما أخفيتها » ومن جيد شعره :

« ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جداول ماء أرسلت فأسبقرت
لجاشت إلى النفس أول مرة فردت على مكروهاها فاستقرت
ظلت كأنني للرماح دريشة أقاتل عن أحساب جرم وفرت
ولو أن قومي أنظفتني وملاحهم نطقت ولكن الرماح أجرت . »

قوله أقاتل عن أحساب جرم من الهجاء الممض ، وذلك أنه ذكر أن قرما فرّوا وليس هو منهم غير أنه يقاتل غضباً لهم وعصبية ، وقوله ولو أن قومي أنظفتني ، يعني لو قاتلوا وطاعوا نطقت بمدحهم ، ولكنهم فرّوا ، فأسكتوني عن المدح ، والأصل في الاجراء أن التفصيل إذا أرادوا نظامه شقوا لسانه فلم يقدر على الرضا

وفي القصيدة التي أروها : « أمن ريحانة الداعي السبيع »

يقول :

« وقد عجبت أمانة أن رأيتني نزع لحي شيب نظيع
أشاب الرأس أيام طوال وهم ما تبلغه الضلوع
وزحف كتيبة لقاء أخرى كأن زهاءها رأس صليح

ولساند الأسنة نحو نحري وهزّ المشرفة والوقوع
فان تنب النوائب آل عصم تجد حكاهم فيها رفوع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع
وصله بالنزوع فكل شيء سها لك أو سموت له نزوع .
وقوله أيضاً :

« يا أيها الغائب - جهلاً بنا - وولدت عبداً
ليس الجمل بمنزلة - فاعلم - وإن ردبت برداً
إن الجمال معادى ومناقب أورث مجداً
أعددت للحدثات سائفة وعداء علتني
نهداً وإذا شطب يقدر البيض والأبدان قدما
كل امرئ يجري إلى يوم الهياج بما استعدا

لما رأيت نساءنا يفصحن بالمعزاء - شدا
وبدت محاسنها التي تخفى ، وطاد الأمر جدا
فازلت كبشهم ، ولم أر من نزال الكش - بدا
هم يندرون دمي وانذر إن لقيت بأن أشدا
كم من أخ لي صالح بوانه يبدى لحدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف - فردا .

قلت : « لو لم يكن له إلا هذه القصيدة لاستحق بها التقدم على بشر كثير » وأما الصمصامة فهي سيفه
للمشهور . قال عبد الملك بن عمير أهدت بلقيس إلى سليمان خمسة أسياف ، وهي : ذو الفقار ، وذو النون ،
ومجنوب ، ورسوب ، والصمصامة . فأما ذو الفقار : فكان لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذه
من منبه بن الحجاج يوم بدر ، ومجنوب ورسوب : للحرث بن جبلة الأنصاري ، وذو النون والصمصامة :
لعمر بن مديكرب ، وحكى أن عمر بن الخطاب قال لعمر : ابعت لي الصمصامة ، فبعث به إليه فلم يره كما
يلفه ، فقال له في ذلك ؟ فقال إني بعث إليك الصمصامة ولم أبعث لك باليد التي تضرب به ، وحكى أبو عبيدة
أن الصمصامة انتقلت إلى سعيد بن العاص ، وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بني زيد ، وكان خالد بن
سعيد من جملة أمراءه أوقع بهم وأمر ربحانة أخت عمرو بن مديكرب ففداها خالد وأتابه عمرو الصمصامة ،
ثم فقد يوم الدار في مقتل عثمان ووجد ، ولم يزل إلى أن صعد المهدي البصرة ، فلما كان بواسط أرسل
إلى بني العاص يطلب الصمصامة ، فقالوا إنه في السبيل محبساً ، فقال خمسون سيقاً قطعاً في السبيل أفنى من
سيف واحد وأعطاهم خمسين سيقاً وأخذه ، فلما صار إلى الهادي أحضره وأمر الشعراء بوصفه ، فقال
بعضهم من أبيات :

« حاز صمصامة الزبيدي عمرو من جميع الأنام موسى الأميين

ما يبالي من انتصاه لضرب أشمال سقطت به أميين . »

ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى غلامه « باغزا » التركي فقتله به ، ومن عند « باغزا » تقطع خبره .

عَنْ وَصَفٍ «كَعْبٍ» ^(١) بِالسَّمَاكِ إِيَادُ
فَضَحَ الدُّهَاءَةَ فَلَوْ تَقَدَّمَ عَهْدُهُ لَعَنَّا «الْمُعِيرَةَ» أَوْ أَقَرَّ «زِيَادُ» ^(٢)

(١) كعب بن مامة

هو كعب بن مامة الایادی ، وكان أحد أجواد العرب يضرب به المثل في الوفاء ، آثر على نفسه وكان مسافراً مع رفيقه نفل عليها الماء فتصافناه ، والتصافن أن يوضع في الماء مقلة أي حجر صغير ينثر بالماء لكلا يتناهبوا في القسمة ، فجعل رفيقه يشرب نصيبه ، فإذا جاء دور كعب . ذل له رفيقه وقد جهده العطش : « أَسْقِ أَخَاكَ » فيؤثره على نفسه حتى جهد كعب من العطش وأشرف على الهلاك ، ورضت له أعلام الماء ، وقيل له رد كعب ولا ورود به فبات عطشاً ، وفي ذلك يقول أبو دواد الایادی :

« أُرْفِي عَلَى الْمَاءِ كَعْبٌ ثُمَّ قِيلَ لَهُ رُدْ كَعْبَ إِنَّكَ وَرَادٌ فَمَا وَرَدَا . »

ارجع إلى الكامل للبهرد « ص ١٣٦ »

(٢) زياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة

كانا من أفذاذ العرب وساستهم ودهاتهم وأخبارهما مستفيضة في كتب التاريخ ، ولكننا نجتزئ القول اجزاء فيما يلي :

قالوا :

وسمى « زياد ابن أبيه » أو « زياد بن سمية » لأن أمه كانت جارية العارث بن كعدة التثقي ، فزوجها بعبد له روى يقال له : « عبيد » فولدت « سمية » زيادا على فراشه ، فهو ولد « عبيد » شرعا . قالوا : وكان « أبو سفيان » قد سار في الجاهلية إلى « الطائف » فنزل على بائع خر يقال له : « أبو مريم » - وقد أسلم فيها بعد - فقال له « أبو سفيان » : « قد اشتهيت النساء » فقال أبو مريم : « هل لك في سمية ؟ »

فقال أبو سفيان :

« هاتيا على طول ثدييها وذفر بطنها »

فأتاه بها ، فوقع عليها ، فيقال إنها علقت منه بزياد ، ثم وضعت في السنة التي هاجر فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونشأ « زياد » فصيحا .

وحضر « زياد » يوما بمحضر جماعة من الصحابة في خلافة « عمر » فقال « عمرو بن العاص » : لو كان أبو هذا النعام من قريش ، لساق العرب بعصاه .

فقال أبو سفيان لأمي بن أبي طالب :

« إني لأعرف من وضعه في رحم أمه »

فقال علي :

« فما يمنعك من استلحاقه »

قال :

« أخاف الأصلح (يعني عمر) أن يقطع إهابي بالدرة »

لَا يَأْمَنُ الْأَعْدَاءُ رَجْمَ ظُنُونِهِ إِنَّ الْغُيُوبَ وَرَاءَهَا إِمْدَادُ
مَلِكٍ - إِذَا مَا اخْتَالَ - غُرَّةٌ فَيَلْقَى قَدْ أُمْطِيتَ عِقْبَانَهُ الْأَسَادُ (١)
أَسَدٌ، فَرَأَيْتُهَا الْفَوَارِسُ فِي الْوُغَى، لَكِنْ بَرَأْتِهَا - هُنَاكَ - صِعَادُ (٢)

فلما كانت قضية شهادة اليهود على المغيرة بالزنا وجلدهم لعدم ثبوت الزنا عليه - ومنهم أبو بكره أخو زياد لأمه - وامتناع « زياد » حين كان يؤدى الشهادة عن التصريح ، وكان أحد الأربعة الذين شهدوا عليه - اتخذ المغيرة لذلك لزياد بدا .

ثم لما ولي « علي بن أبي طالب » الخلافة ، استعمل « زيادا » على فارس ، فقام بولايتها أحسن قيام ، ولما سلم « الحسن » الأمر إلى « معاوية » امتنع « زياد » بفارس ، ولم يدخل في طاعة « معاوية » واهتم معاوية بالأمر ، وخاف أن يدعو إلى أحد من بني هاشم ويعيد الحرب ، وكان معاوية قد ولي « المغيرة بن شعبه » السكوفة ، فقدم « المغيرة » على « معاوية » سنة ٤٢ هـ فشكا إليه « معاوية » امتناع « زياد » بفارس ، فقال « المغيرة » :

« أَنَاذُن لِي فِي الْمَسِيرِ إِلَيْهِ »

فَأَذِنَ لَهُ ، وَكَتَبَ « معاوية » لزياد أماناً ، فتوجه « المغيرة » إليه - لما بينهما من المودة - ومازال به حتى أحضره إلى « معاوية » وبأيعه .

وفي سنة ٤٤ هـ استلحق « معاوية » « زياداً » فأحضر الناس ، وحضر من يشهد لزياد بالفسق ، وكان ممن حضر لذلك « أبو مریم » بائع الخمر الذي أسلفنا ذكره - وهو الذي أحضر « سمية » أم « زياد » إلى « أبي سفيان » بالطائف - فشهد بنسب « زياد » من « أبي سفيان » .

قالوا : « فاستلحقه معاوية » وقد أعظم الناس ذلك وأمكروه لاسيما بنو أمية لأن زيادا ابن عبيد الرومي قد ألحق نسبته ببني أمية بن عبد شمس ، وقد قل « عبد الرحمن الحكم » أخو « مروان » في ذلك :

« أَلَا بُلُغَ «معاوية بن صخر» : « لَقَدْ ضَاقَتْ بِمَا تَأْتِي الْيَدَانِ »

أَتَغْضَبُ أَنْ يَقَالَ : «أَبُوكَ عَفْ؟» وَتَرْضَى أَنْ يَقَالَ : «أَبُوكَ زَانِي؟»

وأشهد أن رجلك - من زياد - كرحم الفيل من ولد الأنان .

ثم ولي « معاوية » « زياداً » البصرة ، وأضاف إليه « خراسان » و « سجستان » ثم جمع له الهند والبحرين وعمان .

(١) عقاب - جمع عقاب - وهو من سباع الطير التي تصيد . قال المتنبي :

« شكوى الجريح إلى العقبان والرخم »

وقال البحتري :

« ضاقت بسعد أرضها لما رمى ساحتها بالخييل والفرسان »

بفوارس - مثل الصقور - وضمر مجدولة ، ككوارس العقبان .

(٢) صداد - جمع صعدة - وهي القناة التي تنبت مستقيمة لا تحتاج إلى الثقيف ، والصعدة - من

النساء - المستقيمة القائمة - على التشبيه - قال « كعب بن جعيل » بصف امرأة شبه قديدا بالقناة :

« فإذا قامت إلى جاراتها لاحت الساق بخلخال رجل »

صعدة نابضة في حائر أيتها الريح تميلها تمل .

خِلْتَ اللُّوَاءَ غَمَامَةً فِي ظِلِّهَا قَرَرْتُ ، بَعْرَتِهِ السَّنَا الْوَقَادُ

* *

شَيْخَانُ مُنْعَمِسُ السَّنَانِ مِنَ الْعِدَا - فِي النَّقْعِ - حَيْثُ تَغْلَغَلُ الْأَحْقَادُ
تَشْكُو إِلَيْهِ الشَّمْسُ نَقْعَ كَتِيبَةٍ مَا زَالَ مِنْهُ لَعِينُهَا إِرْمَادُ ^(١)
جَبَشٌ - إِذَا مَا الْأَفُقُ سَافَرَ طَيْرُهُ مَعَهُ - فَنِي ذِمَمِ الصَّوَارِمِ زَادُ ^(٢)
مُسْتَطَرِفٌ لِلْمَجْدِ لَمْ يَكُ حَسْبُهُ مَجْدٌ - يَدُورُ مَعَ الزَّمَانِ - تِلَادُ ^(٣)
مَا كَانَ مِنْهُ إِلَى رِفَاهَةٍ رَاحَةٍ حَتَّى يُخْلَدَ مِثْلَهُ إِخْلَادُ
أَرْجُ النَّدَى ، مَتَى تَقْرُ بِجَوَارِهِ يَطْبُ الْحَدِيثُ وَيَعْبِقُ «الْإِنْشَادُ» ^(٤)
لَوْ أَنَّ خَاطِرَهُ الْجَمِيعَ مُفَرَّقٌ فِي الْخَلْقِ أَوْشَكَ أَنْ يُحْسَ جَمَادُ

* *

نَفْسِي فِدَاؤُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي زُهْرُ النُّجُومِ - لَوَجْهِهِ - حُسَادُ
تَبْدُو عَلَيْكَ - مِنْ الْوَسَامَةِ - حُلَّةٌ يَهْفُو إِلَيْهَا - بِالنَّفُوسِ - وَدَادُ
لَمْ يَشْفِ مِنْكَ الْعَيْنُ أَوْلَى نَظَرَةٍ لَوْلَا الْمَهَابَةُ رَاجَعَتْ تَرْدَادُ

(١) النقع : النبار ، والكتيبة : الجيش ، يقول : « تشكو إليه الشمس سطوع النبار ، والنقع المثار لأنه أرمدها عنها فأغضتها ولم تبصر . »

(٢) يقول : إن هذا الجيش إذا سارته في الأفق عقبان الجو وجوارح الطير ، في ذمة الصوارم من السيوف أن تضمن لها الزاد من قتلى الأعداء .

(٣) مستطرف : أي مستحدث لنفسه مجدا طريفا أي جديدا مكسوبا غير موروث ، والحسب : محركة وقد يسكن كما هنا ما بعده الانسان من مناخره ، والتلاد : القديم الموروث عن الآباء .

(٤) الندى : المجلس ، يقول : هو أرج الندى أي عطر ما ينبعث عن مجلسه من طيب القول وطاهر الثناء ، إذا فزت بقربه ودنوت من مجلسه ، يطيب الحديث ، ويعبق في أرجاء المجلس عير الانشاد ، وقد ورد هذا البيت في الأصل هكذا :

« أرج الندى ، متى تفر بجواره يطب الحديث ويعبق . . . »

والتكلمة يعطيها السياق .

مَا كَانَ مِنْ خَلَلٍ فَأَنْتَ سِدَادُهُ فِي الدَّهْرِ - أَوْ أَوْدٍ فَأَنْتَ سِدَادُ^(١)
 الدِّينِ وَجْهَهُ أَنْتَ فِيهِ غُرَّةٌ وَالْمُلْكُ جَفْنُهُ أَنْتَ فِيهِ سَوَادُ
 لِلَّهِ مِنْكَ يَدٌ عَمَلَتْ ، تُؤَلِّي بِهَا صَفَةً أَفِيحَمْدُ ، أَوْ يُفَكُّ صِفَادُ^(٢)
 لَوْ أَنَّ أَقْوَاةَ الْمُلُوكِ تَوَافَقَتْ فِيهَا لَوَافِقَ حَظَهَا الْإِسْمَاعُ
 نَفَعَ الْعُدَاةَ الْيَأْسُ^(٣) مِنْكَ ، لِأَنَّهُ بَرَدَتْ عَلَيْهِ مِنْهُمْ الْأَكْبَادُ
 يَنْصَاعُ مَنْ جَارَكَ مَقْبُوضَ الْخَطَا فَكَأَنَّمَا عَضَّتْ بِهِ الْأَقْيَادُ^(٤)

قَدْ قُلْتُ لِلتَّالِي ثَنَاءَكَ سُورَةٌ ✱ مَا لِلرَّوِي فِي نَصِّهَا إِحْدَادُ :
 « أَعِدِ الْحَدِيثَ عَنِ السِّيَادَةِ ، إِنَّهُ لَيْسَ الْحَدِيثُ يُمَلُّ حِينَ يُعَادُ . »
 كَرَّمَ كَمَا الْمُزْنَ رَاقَ خِلَالَهُ أَدَبُ كَرَوْضِ الْحَزَنِ بَاتَ يُجَادُ^(٥)
 وَمَحَاسِنُ زَهَرَ الزَّمَانُ بِزُهْرِهَا فَكَأَنَّمَا أَيَّامُهُ أُعْيَادُ^(٦)

(١) يقول : ما كان من خلل في الزمان فانت سداه الذي يسد به ، أو كان من أود فيه واعوجاج فانت سداد ، أي بك سداه وصلاحه وتقويته .
 (٢) الصغد العطاء ، والصفاذ : ما يوثق به المقيد من قيد ونحوه ، يقول : لله منك يد تولى الجبل وتهب العطاء ، لا تزال نحمدها ونشكرها لك إلى أن يفك ما قيدتنا به من أصفاذ النعم ، وقد جانس بين الصغد بمعنى العطاء ، والصفاذ بمعنى القيد ، وجعل الاحسان صفاذا وقيدا مستفيض في كلام الشعراء ، قال الشاعر :
 « ومن وجد الاحسان قيد تقيدا . » ، وقال ابن الرومي :
 « ما على الأحرار من رق إذا نقدوا شكرهم مولى أيادي
 إنما النعمى صفاذ فاذا لقيت شكرا فليست بصفاذ . »
 وقال ابن حيوس :

« غفلتهم بالجميل فأنعموا رب عناة أصفاذها الصغد . »

أي قبودها العطاء ، وفي الأصل : « تولى بها صغد . »

(٣) في الأصل : « البأس »

(٤) يقول : ينصاع ويرجع عن مجارته في المجد كل من جاره ، ويقف حيث ابتداء مقبوض الخطا كأنما ضمت بسبقانه القيود ففتته من المضي .

(٥) المزن : السحاب ويجاد يعطر بالجوود (بفتح فسكون) وهو المطر النزير .

(٦) يقول : ويضاف إلى هذا الكرم الذي وصفه في البيت السابق محاسن أضاء الزمان بزهر نجومها ، فكأنما كل يوم من أيامها عيد .



يَأْتِيهَا الْمَلِكُ الَّذِي - فِي ظِلِّهِ - رِيضَ الزَّمَانِ فَذَلَّ مِنْهُ قِيَادُ
يَا خَيْرَ « مُعْتَصِدٍ » بِمَنْ أَقْدَارُهُ - فِي كُلِّ مُعْضِلَةٍ - لَهُ أَغْضَادُ
لَمَّا وَرَدْتُ - بِوَرْدِ حَضْرَتِكَ - الْمُنَى فَهَمَّتْ لَدَى جَاهِهَا الْأَعْدَادُ ^(١)
فَاسْتَقْبَلْتَنِي الشَّمْسُ تَبْسُطُ رَاحَةً لِلْبَحْرِ - مِنْ نَفْحَاتِهَا - أَسْتَمْدَادُ
فَلَنْ فَخَرْتُ - بِمَا بَلَغْتُ - لَقَلَّ لِي الْأَ يَكُونُ مِنْ النُّجُومِ عِتَادُ
مَهْمَا أَمْتَدَحْتُ سِوَالِكَ - قَبْلُ - فَأَنَا مَذْحِي - إِلَى مَذْحِي - لَكَ أَسْطِطْرَادُ
يَغْشَى الْمِيَادِينَ الْفَوَارِسُ - حِقْبَةً - كَيْمَا يُعَلِّمُهَا النَّزَالَ طَرَادُ ^(٢)
فَلَأَسْحَبَنْ ذَيْلَ الْمُنَى فِي سَاحَةِ - إِلَّا أَوْفَ بِهَا الْمُنَى - فَأَزَادُ ^(٣)
وَلَيْسَتْ فَيِدَنْ السَّنَاءِ مَعَ الْغِنَى عَبْدٌ يُفِيدُ النَّصْحَ حِينَ يُفَادُ
وَلَأَنْتَ أَنْفَسُ شَيْمَةٍ مِنْ أَنْ يُرَى - لَنْفَيْسِ أَعْلَاقِي لَدَيْكَ - كَسَادُ
هَيْهَاتَ قَدْ ضَمِنَ الصَّبَاحُ لِمَنْ سَرَى أَنْ يَسْتَتِبَّ لِسَعِيهِ الْإِنْجَادُ ^(٤)
لَا تَعْدَمَنْ - مِنَ الْخُطُوطِ - ذَخِيرَةٌ تَبْقَى فَلَا يَثْلُو الْبَقَاءُ نَفَادُ

(١) فهت : جواب لما أى سالت ، وجاها : جمع جم (بالفتح) وجة (بالفم) وهو الماء الكثير والأعداد : جمع عد (بالكسر) ، وهو الماء الدائم الذى له مادة لا انقطاع لها كماء العيون ، يقول : حين وردت فى حضرتك ورد المنى ، همت جالها ، وسالت مياها الأعداد ، يريد أنه رأى فىض المنى ينبثق من راحته ، وفى الأصل :

« لما وردت بورد حضرتك المنا فهت لدى جالها الأعداد . »

(٢) هو مطاردة الفرسان بعضهم بعضا للران على الحرب .
(٣) فلاسحين من المنى ذيلها فى ساحة جواد إن لم أوف بها ما تطمح إليه نفسى من الأمانى فأنا سأزاد عليها ، يقول : إن أمره دائر بين أن ينى له بما تسمو إليه نفسه من الأمانى ، أو يزيد عليها فوق ما يريد وينهى .

(٤) يشير إلى النذل المشهور : « عند الصباح يحمد القوم السرى . » وسيمر بك شرحه فى ص (٢١٧) من هذا الديوان .

في مدح المعتضد

« قال يمدح المعتضد بالله المنصور بفضل الله
أبا عمرو عباد بن محمد بن عباد ، ويذكر
بعض مواقف له مع خاصته من أصفائه ،
والمناوئين له من أعدائه . »

لَيْسَ الْهُدَى إِنْجَاحُ سَعْيِكَ فِي الْعِدَا وَأَنْ رَاحَ صُنْعُ اللَّهِ نَحْوَكَ وَأَعْتَدَى^(١)
وَتَهْجُكَ سُبُلَ الرُّشْدِ فِي قَمْعٍ مِّنْ غَوَى وَعَدْلُكَ فِي اسْتِفْصَالٍ مِّنْ جَارٍ وَأَعْتَدَى^(٢)
وَأَنْ بَاتَ مِّنْ وَالَاكَ فِي نَشْوَةِ الْغِنَى وَأَصْبَحَ مِّنْ عَادَاكَ فِي غَمْرَةِ الرَّدَى^(٣)
وَبُشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّةِ الْعَهْدِ طَلْقَةً كَمَا ابْتَسَمَ النُّوَارُ عَنْ أَدْمُعِ النَّدَى^(٤)
وَدَوَاةٍ سَعْدٍ لَا أُنْتَهَاءَ لِحَدِّهِ إِذَا قِيلَ فِيهِ قَدْ تَنَاهَى تَوَلَّى
دَعَوْتَ ، فَقَالَ النَّصْرُ : لَبَّيْكَ مَائِلًا وَلَمْ تَكُ كَالِدَّاعِي يُجَاوِبُهُ الصَّدَى

(١) السعي : التصرف في كل عمل من خير أو شر ، أي أن سبيل الهدى وسبيل المؤمنين جديران بكل
شهقة وبشرى حيث أنجح الله سعيك في مناجزة أعدائك ولم يزل يعمدك بمجيب صنعته ولطيف إحسانه في الرواح
والغدو ، والمصباح والعشى .

(٢) ولين الهدى أيضا سلوكك مناهج الرشده ، وإجراؤك سنة العدل في قمع الفاوين المفسدين ، واستئصال
شأفة الجائرين المتدين ، واقتلاعهم من أصولهم ، وتطهير الملكة من مفاسدهم وشروهم .

(٣) والى : الموالاة ضد المعاداة ، وقد طابق في البيت بين « بات » و « أصبح » و « والى » و « عادى »
و « نشوة الغنى » و « غمرة الردى »

(٤) النوار : بضم أوله وتشديد ثانيه النور ، واحدته نواره وقد نور الشجر والنبات أي أزهر ، وفي البيت
تعبية النوار بالنور الباسم عن تولؤ الطل .

وَأُخِذْتُ عُمِّي الصَّبْرِ فِي دَرَكِ الْمُنَى كَمَا بَلَغَ السَّارِي الصَّبَاحَ فَأُخِذَا ^(١)

« أَعْبَادُ » يَا أَوْفَى الْمُلُوكِ بِذِمَّةِ ^{✱✱} وَأَرْعَاهُمْ عَهْدًا وَأَطَوْهُمْ يَدَا
تَبَايَنْتَ فِي حَالِيكَ : غُرْتُ تَوَاضَعًا لَتَسْتَوْفِي الْعَلِيَا ، وَأُنْجِدْتَ سُودَدَا ^(٢)

(١) الدرك : محركا اللهاق والوصول إلى الشيء ، يقال أدركته إدراكا ودركا ومثله الدرك بالسكون . قال جعدر يخاطب الأسد :

« لَيْتَ وَلَيْتَ فِي مَكَانِ ضَنْكَ كَلَامِهَا ذُو أَتَفَ وَحَكْ
وَيَطْشَةُ وَصَوْلَةٍ وَفَنَكْ إِنْ يَكْشِفُ اللَّهُ فَنَاعَ الشَّكْ
بِظَفَرٍ مِنْ حَاجَتِي وَدَرْكٍ فَذَا أَحَقَّ مَنَازِلَ بَرْكِ
« الذَّنْبُ يَمُوتُ وَالْغَرَابُ يَبْكِي »

والساري : اسم فاعل من السرى وهو سير الليل وأصل المثل « عند الصباح يحمد القوم السرى » وأول من قال ذلك كما في مجمع الأمثال عن « الفضل » الضبي هو « خالد بن الوليد » لما بعث إليه أبو بكر رضي الله عنهما وهو « باليمامة » أن سر إلى « العراق » فأراد سلوك المفازة ، فقال له « رافع » الطائي : قد سلكتها في الجاهلية ، هي خمس للابل الواردة ، ولا أطاك تقدر عليها إلا أن تحمل من الماء . فاشترى مائة شارب فطشها ، ثم سقاها الماء حتى رويت ، ثم كتبها وكرم أفواها ، ثم سلك للمفازة حتى إذا مضى يومان وخاف العطش على الناس والحيل وخشى أن يذهب ما في بطون الابل ، نحر الابل ، واستخرج ما في بطونها من الماء وسقى الناس والحيل ومضى فلما كان في الليلة الرابعة ، قال « رافع » : انظروا هل ترون سدرًا عظاما ؟ فإن رأيتموها وإلا فهو الهلاك . فظفر الناس فرأوا السدر فأخبروه فكبر وكبر الناس ثم هجموا على الماء ، فقال خالد :

« اللَّهُ دَرِ رَافِعٍ أَنِّي اهْتَدَيْتُ فَوَزَ مِنْ قَرَارٍ إِلَى سَوَى
خَمْسًا إِذَا سَارَ بِهِ الْجَيْشُ بَكِي مَا سَارَهَا مِنْ قَبْلِهِ إِنْسٌ يَرَى
عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمَ السَّرِي وَتَنْجِلِي عَنْهُمْ غِيَابَاتِ الْكَرَى . »

يضرب للرجل يحتدل المشقة رجاء الراحة .

(٢) غرت : من غار غوراً فهو غائر إذا أتى الغور وهو ما انحدر مسيله ، ويقابله النجد : يقال : غار وأنجد وأغار وأنجد ، قال جرير .

« يَا أُمَ حَزْرَةَ مَا رَأَيْنَا مِثْلَكُمْ فِي الْمُنَجِّدِينَ وَلَا يَنْوِرُ الدَّائِرَ . »

وقال الأعشى :

« نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرُونَ وَذَكَرَهُ أَغَارَ لِعَمْرَى فِي الْبِلَادِ وَأُنْجِدَا . »

وأكثر الجوهري أغار ، وقاله الأصمعي : أغار وأنجد في بيت الأعشى بمعنى أسرع وارتفع ، على أن النصف الثاني من البيت روى مخزوما هكذا : « غار لعمري في البلاد وأنجدا » ، يقول : بين حالك من التواضع والسمو إلى مراتب السيادة بون شاسع ، فقد انحدرت إلى غور النواضع فكانت عاقبة ذلك أن استوفيت حظك من العلية وبلغت أسمى مراتب السوود والرفعة .

وَلَمَّا اَعْتَصَدْتَ اِلَهَ كُنْتَ مُوَهَّلًا لَدَيْهِ لِأَنْ تُحْمَى وَتُكْفَى وَتُعْصَدَا
وَجَدْنَاكَ اِنْ اَلْفَحْتَ سَمِيًّا نَتَجَّتْهُ وَغَيْرُكَ شَاوٍ حِينَ اَنْضَجَ رَمْدًا ^(١)
وَكَمْ سَاعَدَ الْاَعْدَاءُ اَوَّلَ مُطْمَعٍ رَأَوْكَ بِعُقْبَاهُ اَحَقَّ وَاَسْعَدَا
فَلَا ظَافِرٌ اِلَّا - اِلَى سَمْعِكَ - اُعْتَزَى وَلَا سَائِسٌ اِلَّا بِتَدْبِيرِكَ اُقْتَدَى

* *

ضَلَالًا لِمَقْتُونٍ سَمَوْتَ بِحَالِهِ اِلَى اَنْ بَدَتْ - بَيْنَ الْفِرَاقِدِ - فَرَقْدَا
رَأَى حَطَّهَا اَوَّلَى بِهِ ، فَاحْلَمَهَا حَضِيضًا بِكُفْرَانِ الصَّنِيعَةِ اَوْهَدَا ^(٢)
وَمَا زَادَ - لَمَّا لَجَّ فِي الْبَغْيِ - اَنَّهُ سَمَى الَّذِي اَصْلَحَتْ مِنْهَا فَافْسَدَا
فَزَلَّ وَقَدْ اُمْطِيَّتْهُ ثَبَجَ السَّهَا وَضَلَّ وَقَدْ لَقِيَّتْهُ قَبَسَ الْهُدَى ^(٣)
طَوِيلُ عِثَارِ الْجُرْمِ قُلْتَ لَهُ: « اَهَا » ^(٤) بِحِلْمٍ تَلَقَّى جَهْلَهُ فَتَغَمَّدَا ^(٥)

(١) ألفت من ألقح الفعل الناقة ، ولقحت هي ، قال الحرث بن عباد :

« قربا مربوط النعامة متى لقحت حرب وائل من حبال . »

والسمي : التصرف في الأمور ، ونتجه : من قولهم نتج نلان الناقة إذا ولي نتاجها وهي ماخض حتى تضع ، وفي المثل : « هل نتج الناقة إلا لمن لقحت له » ، وكتب عليه صاحب مجمع الأمثال ما نسخته : يقال نتجت الناقة على ما لم يسم فاعله ، وأنتجتها إذا أنتجها على ذلك ، والناج للثوق كالقابلة للإنسان ، ولقحت تلفح لقعا ولقحا والناقة لاقح ولقوح ، ومعنى المثل : هل يكون الولد إلا لمن يكون له الماء ؟ يضرب في التشبيه ، ويروى « لما لقحت له » أي لقاحها أي لقبول رحها ماء الفعل ، يشير إلى صدق الشبه ، و « ما » مع « لقحت » المصدر ، وغيرك شاو : أصل المثل « شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد » والرميد القاء الشواء في الرماد ، يضرب - كما في مجمع الأمثال للميداني - لمن يفسد اصطناعه بالبن ، ويرد صلاحه بما يورث سوء الظن ، ويروى عن أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه : أنه مرّ بدار رجل عرف بالصلاح فسمع من داره صوت بعض الملامى فقال : شوى أخوك حتى إذا أنضج رمد .

(٢) الحضيض : الفرار من الأرض المنخفض عن سفح الجبل ، وأوهد : أفعل تفضيل من الوهدة وهي الهوة ، يقول : رأى ذلك للمفتون انحطاط حاله أولى به فأنزله المدوح من مستوى الفراقد إلى أحط قرار من الأرض بسبب كفران النعمة وتكران الجبل .

(٣) نتج السها : أعلاه ، والسها : نجم صغير في بنات نعش الكبرى يمتحنون به أبصارهم خلفائه ، وفي المثل « أريها السها وتريني القمر »

(٤) دعوت له بأن يقبضه الله من سقطته . (٥) غطى على جهله وسره .

تَجَنَّى فَأَهْدَيْتَ النَّصِيحَةَ مَحْضَةً ، وَلَجَّ فَوَالَيْتَ الْعِقَابَ مُرَدِّدًا ^(١)
وَلَمْ تَأَلُهُ بُقِيًّا عَلَيْهِ تَنْظَرًا
فَمَا آثَرَ الْأُولَى ، وَلَا قَلْدَ الْحِجْبَى ،
كَأَنَّكَ أَهْدَيْتَ السَّوَابِحَ ضُمْرًا
وَأَجْرَزْتَهُ ذَيْلَ الْحَبِيرِ ^(٢) تَأَلَّفًا ^(٣)
سَلِ الْخَائِنَ الْمُعْتَرَّ : كَيْفَ اخْتِقَابُهُ
رَأَى أَنَّهُ أَضْحَى هَزَبْرًا مُصَمَّمًا ،
دَهَاهُ - إِذَا مَا جَنَّتْهُ اللَّيْلُ - أَنَّهُ
لِيَرَّ كُضَّهَا - فِيمَا كَرِهْتَ - فَيُجْهِدَا ^(٤)
لِيَخْلُقَ - فِيمَا جَرَّ - حِقْدًا مُجَدِّدًا ^(٥)
- مَعَ الدَّهْرِ - قَارًا بِالْعِرَارِ مُخْلَدًا ^(٦)
فَلَمْ يَعُدْ أَنْ أَمْسَى ظَلِيمًا مُشَرَّدًا ^(٧)
أَقَامَ عَلَيْهِ - آخِرَ الدَّهْرِ - سَرْمَدًا ^(٨)

(١) يقول بدأ يتجنى عليك الذنوب ويخففها خلفا ، فكان جزاؤه منك أن تمنحه النصيح خالصا بريئا ، فلما لج في شروره وعصيانته صببت عليه عقابك المتوالى لتزجره - على أساءته وتؤدبه .
(٢) كأنما أهديته الجياد الضمر ليعاربك بها ويجهد نفسه في توخي أعدائك وتطلب ما تكره .
(٣) كأن هذا الخائن ظن أنك أهديته الجياد الضمر السواح ليجهدا ركضا فيما تكره من مناصرة أعدائك .
(٤) أجرزته ذيل الحبير : جعلته يجر ذيل النعمة .

وكأنه ظن أنك تتألفه بما تخلع عليه من حبير أجرزته ذيله ليتلقى لك مشاكل ويجدد أحقادا بسبب ما جرته من جرائم وجرائر . (٤) وفي الأصل : « للبعد مجددا »
(٥) الخائن : الأحمق ، والمعتز الفقير المعترض للمعروف من غير أن يسأل ، والاحتقاب الادخار ، يقال : احتقب الشيء : ادخره ، واحتقب خيرا أو شرا واحتقبه : احتمله وجعله خلفه ، واحتقب الائم : جمعه ، والعرار - جمع عرة وهي الحلة القبيحة .

(٦) المصمم : الماضي في الأمر معتزما ، والظلم : الذكر من النعام ، قال تأبط شرا :
« أنا الذي نكح النبلان في بلد ماطل فيه سماكي ولا جادا
في حيث لا يعمت الغادي عمايته ولا الظلم به يبغي تهاديا
وقد لهوت - بمصقول عوارضها - بكر تنازعني كاسا وعقادا
ثم انتفض عصرها عني ، وأعقبه عصر المشيب ، قتل في صالح بادا . »

أي نكح النبلان في بلد لم يظفر بالطل وهو الرذاذ « المطر الخفيف » ولم يظفر فيه الظلم - « فرخ النعام » - بالهيب - وهو الخنظل - ليأكله ، وقد لها بنتاة من الأبقار مصقولة العارضين تنازعه كئوس الحر وعناقيد العنب ، ثم انتفض ذلك العصر الصالح وأعقبه عصر المشيب .

(٧) يقول : وقد أصبح يترقب جزعا أن يكون حينه مرتبطا بيومه وصار يتوجس المر خوفا من أن يكون ليله سرمدا لما قتله .

يُحَاذِرُ أَنْ يُلْقَى قَتِيلًا مُعَفَّرًا - إِذَا الصُّبْحُ وَافَى - أَوْ أُسِيرًا مُقَيَّدًا

* *

لَبِئْسَ الْوَفَاءُ أُسْتَنَّ فِي «أَبْنِ عَقِيدَةٍ»
قَرِينٌ لَهُ أُغْوَاهُ حَتَّى - إِذَا هَوَى -
فَأُصْبَحَ يَبْكِيهِ الْمُصَابُ بِشُكْلِهِ ،
فِدَاؤُهُ لِإِسْمَاعِيلَ كُلُّ مُرْشَحٍ - إِذَا جُشِمَ الْأَمْرَ الْجَسِيمَ تَبَلَّدًا (٢)

* *

أَفَادَ مِنْ الْأَمْثَالِ حَدَّثَانِ فَشَلِيهِمْ
أَعَادَ الصَّبَاحَ الطَّلُقَ لَيْلًا عَلَيْهِمْ
فَحَلَّ هِلَالًا - فِي ظَلَامٍ عَجَاجَةٍ -
يُرَاجِمُ مِنْ «صِنْهَاجَةٍ» وَ «زَنَاتَةٍ»
مَوَالِي، لَمْ يَشْكُ الصَّدَى مِنْهُمْ الصَّدَا (٣)
فَجَاءَ وَأَتْنِي نَاطِرَ الشَّمْسِ أَرْمَدَا
تَلَا حِظَّهُ الْأَقَارُ - فِي الْأَفْقِ - حُسَدَا
- بِمِثْلِ نُجُومِ الْقَذْفِ - مِثْنِي وَمَوْحَدًا (٤)

(١) يقول : أن قرينه زين له الضلال حتى إذا تردى في سوء عمله تبرأ قرينه من عمله ورأى في التالي عنه وسيلة إلى نجاته .

(٢) المرحح : المؤهل .

(٣) يقول : إن توالى الأحداث والحذوب التي أنزلها جيشه بالملوك قد أفادته موالى غاية في البسالة لابتكرو العطشان منهم عطشاً لشدة ما أوتيه من صبر وجلد .

(٤) راجم عنه : ناضل ، وراجم في الكلام والحرب بالغ بأشد مساجلة ، ونجوم القذف ، أو شهب القذف هي الرجوم ، قال الشاعر :

« كَشَاهِبِ الْقَذْفِ يَرْمِيكُمْ بِهِ فَارِسٌ فِي كَفِّهِ لِلْحَرْبِ نَارُ . »

يقول : لأنه يساجل بنصرة أهل زناته وصنْهَاجَةٍ ويقذف بهم الأعداء كما يقذف بالصهْب ويرجم بها شائتيه ، وقد اشتهرت صنْهَاجَةُ بَنِي الْمَذْبُوحَةِ الْكُبْرَى التي حدثت في القرن الخامس من الهجرة سنة ٤٥٩ هـ وقد ثارت صنْهَاجَةُ عَلَى الْيَهُودِ وَقَتَلُوا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً وَفِيهِمُ الْوَزِيرُ يُوسُفُ بْنُ نَفْزَلَةَ الْيَهُودِي ، وَكَانَ سَبَبُ هَذِهِ الْمَذْبُوحَةِ أَنَّ ذَلِكَ الْوَزِيرَ - وَكَانَ قَدْ اسْتَوَزَرَهُ بِادِيسَ صَاحِبَ فَرْنَاطَةَ - قَدْ وَثِيَ بِأَبْنِ إِسْحَاقَ الْقَبِيحَةِ زَاهِدَ الْبَيْرَةِ نَاقِصًا السُّلْطَانَ عَنْ بِلَادِهِ .

قالوا : « وَكَانَ ذَلِكَ الْوَزِيرُ قَدْ تَعَرَّضَ لِقَسْفِهِ بَعْضُ الْأَرَاءِ الدِّينِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَكَانَ عَظِيمَ الْخَطَرِ وَاسِعَ

هُمُ الْأَوْلِيَاءُ الْمَانِحُونَ صَفَاءَهُمْ إِذَا أُمْتَازَ مُضْنِي الْوُدِّ مِمَّنْ تَوَدَّدَا

النفوذ - فوجد أبو إسحق من ذلك حافزا إلى إنشاء قصيدته البليغة التي دفعه إلى قولها غيظه من عدوه - ذلك الوزير الخطير - فلأها تحريضا وأقصمها حجبا وبراهين، أفلح في التأثير بها على العامة وحلهم على إنقاذ رغباته - وما زال يتفنن في ضروب الاحتثات والتهيج حتى اشتعل الجمهور حماسة وهجم على ذلك الوزير فقتله - في قصر السلطان نفسه - وليس من شك في أن أبا إسحق بذل كل مواهبه في الضرب على النغمة الدينية وإظهار الفجع الشديد على ما انتاب الدين من التهاون به وعرف كيف يوالى فيها اطراد الأدلة واتساقها وتدقيق المعاني وغزارتها مع دقة عجيبة في التعبير عن أغراضه وخوالجه بكلام نظم ، يتطابق حماسه ويتأجج نارا ، وشعر صارخ

« خارج من قلب قائله مثلما يزفر بركان . »

وبهذا استطاع أن يوهب سامعيها أن قتل أولئك اليهود - أخصامه - فرض لا مناص من أدائه وواجب حتم لا يصح السكوت عنه وأنهم - إن كانوا غفلوا عن القيام به فيما مضى - فهم خاليقون أن يتداركوه في الحال ، حتى لا تصب عليهم لعنة الله ، أو يحرق بهم غضبه ، فيخسف بهم الأرض ، أو ينزل عليهم السماء ، وكذلك لم يترك ناظما وسيلة من الوسائل التي تستفز أخفى العواطف الدينية السكينة إلا استخدها ، ولا نغمة من نغمات متعصب للعقيدة الدينية إلا ضرب على وتراتها . كل ذلك بأسلوب سهل رشيق كاد يصل - لسهولته - إلى حد الركافة في بعض الأبيات مع أنه من أجل الشعر وأبدعه ، وإن شئت فقل وأدوعه ، وإليك هذه القصيدة الفريدة في بابها :

« ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الزمان وأسد العرين

مقالة ذى مقة مشفق يعد النصيحة زلفى ودين

لقد ذل سيدكم ذلة تفر بها أعين الشامنين

تخير كاتبه كافرا ولو شاء كان من المؤمنين

فعر اليهود به وانتعوا وتاهوا، وكانوا من الأرذالين »

ومنها :

« فكم مسلم راغب راهب لأرذل قرد من المشركين

وما كان ذلك من سعيهم ولكن منا يقوم المدين

فهلاقت - دى فيهم بالألى من القادة الخيرة المنقذين

في هذا البيت شيء كثير من الركافة في قوله « بالألى من القادة الخيرة المنقذين » ولكننا نقتصرها لما في إياه من نغمة تلك الصورة الشعرية المنطقية البديعة .

وأترطهم حيث يستأهلون وردهم أسفل السافلين

فلم يستحقوا بأعلامنا ولم يستطيلوا على الصالحين »

ومنها يخاطب السلطان باديس :

« أبا ديس ! أنت امرؤ حاذق تصيب بظنك نفس اليقين

فكيف خفي عنك ما يعبثون وفي الأرض تضرب منها القرون

وكيف تحب فراخ الزنا وقد بغضوك إلى العالمين

لَهُمْ كُلُّ مَيْمُونِ النَّقِيبَةِ بَازِلٍ ^(١) كَفِيلٍ بِأَنْ يَسْتَهْزِمَ الْجَمْعَ مُفْرَدًا
يَسُرُّكَ فِي الْهَيْجَا إِذَا جَرَّ لَامَةً وَيُرْضِيكَ فِي النَّادَى إِذَا أَعْتَمَ وَأُرْتَدَى ^(٢)

* *

كَرِهْتَ - لِسَيْفِ الْمَلِكِ - الْفَقَّةَ غَمْدِهِ
وَلَمْ تَرَ لِلشَّبْلِ الْإِقَامَةَ فِي الشَّرَى
مُهَامٌ - إِذَا حَارَبْتَ - فَأَرْفَعُ لَوَاءَهُ،
وَيَأْتِي مِنْ لَيْنِ الْمِهَادِ تَعَوُّضًا
وَقَدْ مَا شَكَا حَبْلَ التَّمَامِ يَأْفِعًا
وَلَمْ تَرَ سَيْفًا - بِأَتِكَ ^(٣) الْحَدَّ قَبْلَهُ -
وَقَالَ غَنَاءُ السَّبْفِ مَا كَانَ مَغْمَدًا
فَجَدَّ أَفْتِرَاسًا حِينَ أَصْحَرَ لِلْعِدَا
فَمَا زَالَ مَنْصُورَ اللَّوَاءِ مُؤَيَّدًا
بِصَهْوَةِ طَيَّارٍ - إِلَى الرُّوْعِ - أَجْرَدًا
لِيَحْمِلَ رَقْرَاقَ الْفَرِنْدِ مُهَنَّدًا
تَنَاولَ سَيْفًا - دُونَهُ - فَتَقَلَّدَا

وكيف يتم لك المرتقى إذا كنت تبني وهم يهدمون
وكيف استنمت إلى فاسق وفارته وهو بشس القرين ؟
ومنها :

« وإني حلت بفرناطة فكنت أراهم بها طابين
وقد تسموها وأعمالها فمنهم بكل مكان لهن »
ومنها :

« وهم أمناكم على سرّكم وكيف يكون أمينا خؤون ؟
ويأكل غديرهم درهما فيقصي ويدنون إذ يأكلون
وقد نهضوكم إلى ربكم فما ينعون وما ينكرون »
ومنها :

« ورخم قردهم داره وأجرى إليها نعيم العيون
وصارت حوائجنا عنده ونحن - على يابه - قائمون
ويضعك منا ومن ديننا فانا إلى ربنا راجعون »

(١) البازل : الرجل الكامل ، والبالز أيضا اللانة في طامها التاسع ، قال الشاعر :

« عذرت البزل إن هي غالبتني فما بال وبال ابن لبون »

(٢) أي تعجب بشجاعته إذا لبس لامة الحرب كما تعجب بسجачته التحف رماه وليس عمامته في السلم .

(٣) باتك الحد : فاطمة مرهفة .



لَنْ أَنْجَزَ مِنْهُ الشَّامِلُ آخِرًا لَقَدْ قَدَّمَتْ مِنْهُ الْمَخَالِلُ ^(١) مَوْعِدًا
قَرَرْتَ بِهِ عَيْنًا، فَكَمْ سَادَ عِتْرَةً وَكَمْ سَاسَ سُلْطَانًا، وَكَمْ زَانَ مَشْهَدًا
وَأَعْطَيْتُمَا - فِيمَا تُرِيدَانِهِ ^(٢) - الرِّضَى ، وَبُلَّغْتُمَا - مِمَّا تُرِيدَانِهِ - الْمَدَى

دولة عباد

كَمْ لِرِيحِ الْغَرْبِ مِنْ عَرَفٍ نَدَى كَالشَّرَابِ الْعَذْبِ فِي نَفْسِ الصَّدَى ^(٣)
حَيْثُ «عَبَادٌ» فَتَى الْمَجْدِ الَّذِي نَصَّتِ الدُّنْيَا بِهِ نَصَّ الْهَدَى
مَلِكٌ رَاحَتُهُ بِحَزْزِ النَّدَى مِثْلَمَا غُرَّتُهُ بِذُرِّ النَّدَى
أَصْبَحَتْ دَوْلَتُهُ فِي عَصْرِنَا كَفَرِنْدِ حَادٍ فِي سَيْفِ صَدَى ^(٤)

إلى حبيب

يَا طَبِيبَةَ لَطُفَتْ مِنِّي مَنَازِلُهَا فَالْقَلْبُ مِنْهُنَّ وَالْأَحْدَاقُ وَالْكَبِدُ
حُبِّي لَكَ النَّاسُ طُرًا يَشْهَدُونَ بِهِ وَأَنْتِ شَاهِدَةٌ إِنْ يَثْنِيهِمْ حَسَدُ
لَمْ يَعْزُبِ الْوَصْلُ فِيمَا يَتَنَنَا أَبَدًا لَوْ كُنْتَ وَاجِدَةً مِثْلَ الَّذِي أَجِدُ

(١) المخاليل من السحب : المندرة بالمطر . قال مروان ابن أبي حفصبة :

« إن أخلف الغيث لم تحلف مخاليله »

وهي هنا بمعنى الدلائل التي تتوهم بها الشيء والشمال : الصفات ، قال أبو تمام يرثي طفليين :

« لقي على تلك المخاليل منهما لو أمهلت حتى تكون شمائلًا

لقدما سكونهما حبا ، وصباهما عزما ، وتلك الأريحية نائلًا . »

(٢) تريغاته : تطلباته ، نقول : أرأغ الشيء أى أراده وطلبه ، وقد جاء في الأصل :

« وأعطيتما - فيما تريقاته - الرضى »

(٣) الصدى : الظلمان .

(٤) أعادت دولته إلى زماننا رونقه وبهاءه فعاد كالسيف عاوده الصقل والرواق بعد أن علاه العدا .

في مدح أبي المظفر

« وقال يمدح أبا المظفر سيف الدولة أبا بكر محمد

ابن مسلم صاحب بطليوس . »

هِيَ الشَّمْسُ مَغْرِبُهَا فِي الْكِلَلِ (١) وَمَطْلَعُهَا مِنْ جُيُوبِ الْحُلَلِ (٢)
وَعَصْنُ تَرَشَّفَ مَاءِ الشَّبَابِ (٣) تَرَاهُ الْهَوَى وَجَنَاهُ الْأَمَلِ (٤)
تَهَادَى لَطِيفَةً طَى الْوِشَاحِ (٥) وَتَرَنُو ضَعِيفَةً كَرَّ الْمُقَلِّ (٦)
وَتَبَرَّزُ خَلْفَ حِجَابِ الْعَفَافِ (٧) وَتَسْفِرُ تَحْتَ نِقَابِ الْحَجَلِ (٨)
بَدَتْ فِي لِدَاتِ كَرْهُرِ النُّجُومِ - حِسَانِ التَّحَلَّى مِلَاحِ الْعَطَلِ
مَشَيْنَ ^{بِهَا هِين} رَوْضِ الرُّبَا (٩) يَبَاحُ رَوْضِ الصَّبَا الْمُقْتَبَلِ
فَمِنْ قُضْبٍ تَتَنَّى بَرِيحِ (١٠) وَمِنْ قُضْبٍ تَتَنَّى بَدَلُ
وَمِنْ زَهْرَاتٍ تُنْدَى بِمِسْكٍ (١١) وَمِنْ زَهْرَاتٍ تُنْدَى بِطَلُ
تَعَاهَدَ صَوْبُ الْعِمَادِ الْحُمَى (١٢) وَلَا زَالَ مَرْبُعُهَا فِي مَلَلِ (١٣)

(١) الكلال : جمع كلة ، وهي ستر رقيق مرصع يتوقى به من البعوض ونحوه ، والجيوب : جمع جيب ، وهو من القميص طوقه ، والحلل : جمع حلة بالضم وهي إزار وراية (برد أو غيره) ولا تكون حلة إلا من ثوبين أو ثوب له بطانة ، والمعنى أن هذه الحساء شمس تقرب في الكلال كما تقيب الشمس في مغربها ، وتشرق من جيوب الحلل كما تطلع الشمس من مشرقها .

(٢) وهي عصن غرس في أرض الهوى وارتوى بماء الشباب لاماء السحاب فأجنانا ثمرة الأمل .
(٣) تهادى : تمشى مشية في مهل وتناقل ، وترنو : تنظر بتؤخر عينها ، يعنى أنها تهادى بين أنزلها يكاد ينعدم ما انطوى عليه الوشاح من الحصر ، وتكر بسيف لحظها من جفون فائرة مريضة .

(٤) تسفر : مضارع سفرت المرأة سفورا كشفت النقاب عن وجهها ، يقول : إذا برزت للرجال برزت وراء حجاب بصورتها من عفتها وإذا بدت لهم سافرة ستر وجهها نقاب من الحياء والحجل .

(٥) العهاد : المطر ، وصوبه نزوله ، والمربع : الموضع الذي ينزلون فيه أيام الربيع ، ولا زال مريبعها في ملل : أى ولا زال المطر يصوب في مريبعها حتى يميل لكثرة نزوله ، وفي الأصل :

« ولا مل مريبعها في ملل » وجاء في ابن الأثير : في حديث الاستسقاء فألف الله السحاب وملتنا ، كذا في رواية مسلم ، قبل عى من الملل أى كثر مطرها حتى مللناها . انظر ج ٤ ص ١٠٩ من النهاية لابن الأثير .

مَرَّادٌ - مِنَ الْحُبِّ - غَضُّ الْجَنَى ، لِيَاكِي مَا أَنْفَكَ يَهْدِي الشُّرُورَ
لَدَيْنَهُ - مِنَ الْوَصْلِ - وَرَدُّ عِلَّانٍ حَيِّبٌ سَرَى ، وَرَقِيبٌ غَفْلَانٌ
زَمَانٌ كَانَ الْفَتَى الْمَسْلَمِيَّ تَكَفَّهُ عَدْلُهُ فَأَعْتَدَلْ
تَدَارَكَ^(١) مِنْ حُكْمِهِ أَنْ يُعِيدَ بِهِ عِزَّةَ الدِّينِ أَيَّامَ ذَلٍّ
وَيُوضِحَ رَسْمَ الثَّقَى - إِذْ عَفَا - وَيُطْلِعَ تَجْمَ الْهَدَى إِذْ أَفْلَنْ
حَمِدْنَا « الْمَظْفَر » لَمَّا رَأَى * تَأَمَّلَهَا غِرَّةً تُهْتَبَلُ
مَلِكٌ تَجَلَّى لَهُ غُرَّةٌ وَأَشْفُ الْوَرَى - فِي النُّهَى - رُتْبَةً ،
وَأَحْرَى الْأَنَامِ بِأَمْرِ وَنَهْيِ يَمَافٍ لَهُ التَّاجُ مِنْ بَيْنِهِمْ
سَنَامٌ - مِنَ الْمَجْدِ - عَلَى الذَّرَا يَحْمِلُ لَهُ الْوَافِيَاتُ
تَقِيلُ - فِي الْمَهْدِ - ظِلَّ اللَّوَاءِ وَمَا بَلَّتِ الْبُرْدُ تِلْكَ الدُّمُورُ
وَسِيمَ النَّهْوضِ بِهِ فَاسْتَقَلَّ^(٢) مَكَانَ تَمَائِهِ - فَاحْتَمَلَ
عِلاَءَ الْبُرْدِ لَيْثُ الْبُرْدِ لَيْثُ الْبُرْدِ^(٣) عِلاَءَ الْبُرْدِ لَيْثُ الْبُرْدِ^(٤)

(١) في الأصل : « تبارك »

(٢) وقف على « مثل » بالسكون مع أنه منصوب لوقوعه تميزاً ، وريضة يجرون المنسوب في الوقف مجرى المرفوع والمجرر فيقفون عليه بالسكون ، وقد اضطرته الغافية - في غير ما موضع - أن يترك الاستعمال الفاعلي من لغة العرب ويلجأ إلى هذه اللغة القليلة .

(٣) باطن منسج البير .

(٤) تقيل : استظل ، وسيم : كلف ، بالغ إلى حد الأغراق فجعل للمدح وهو في المهد يقود الجيوش ويتقيل ظل اللواء ويكلف النهوض بهذا العبء فيستقل بحمل اللواء وحده .

(٥) الليث الأبل : الألد الشديد الحصومة .

عَهْدَنَا الْمَكَارِمَ فِيهِ مَعَانِ تَبَشَّرْنَا فِيهِ مِنْهَا الْجُمْلَنَ
تُرَى بَعْدَ بَشِيرِ يُرِيكَ النِّعَامَ تَهَلَّلَ بَارِقُهُ فَاسْتَهَلَّ
يُصَدِّقُ مَا حَدَّثْنَا « عَسَى » بِهِ عَنَهُ ، أَوْ أَنْبَأْنَا « لَعَلَّ »
فَمَا وَعَدَ الظَّنُّ إِلَّا وَفَى وَلَا قَالَتِ النَّفْسُ إِلَّا فَعَلَنَ
فَلَقِيَ مُنَاوِئَتَهُ مَا اتَّقَى وَأَعْطَى مُوَمَّلَهُ مَا سَأَلَ

كَمْ أَسْتَوَفَتِ الشُّكْرَ نَعْمَاوُهُ فَاَقْبَلَ يُنْعِمُ مِنْ ذِي قَبَلٍ ^(١)
غَمَامٌ يُظِلُّ ، وَشَمْسٌ تُنِيرُ ، وَبَحْرٌ يَفِيضُ ، وَسَيْفٌ يُسَلُّ
قَسِيمُ الْحَيَا ، ضُحُوكُ السَّمَاحِ ، لَطِيفُ الْحَوَارِ ، أَدِيبُ الْجَدَلِ
تَوْشَى الْبَلَاغَةَ أَفْلَامُهُ إِذَا مَا الضَّمِيرُ عَلَيْنَهَا أَمَلٌ ^(٢)
يَكُنْ يُبَيِّنُ - لِلْسَّامِعِينَ - أَنَّ مِنَ السَّحْرِ مَا يُسْتَحَلُّ ^(٣)
أَلَا هَلْ سَبِيلٌ إِلَى الْعَيْبِ فِيهِ فَكَمْ عَيْنٌ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كَمَلٍ ^(٤)

- (١) يقال : لقبته من ذى قبل (بفتحين وبكسر وفتح) أى فيما يستقبل .
(٢) يقال أمل عليه الكتاب أى أملاه ليكتبه ، وفي الكتاب المزين : (فليكتب وليلال الذى عليه الحق) وفيه أيضا : (وقالوا أساطير الأولين اكتبها فمحي تملى عليه)
(٣) السحر الذى يستحل هو سحر البيان ، وفيه الإشارة إلى المثل المشهور : إن من البيان لسحرا ، قاله النبي - صلى الله عليه وسلم - حين وفد عليه ، عمرو بن الأهتم ، والزبرقان بن بدر ، وقيس ابن حاصم ، فسأل عليه الصلاة والسلام عمرو بن الأهتم عن الزبرقان . فقال عمرو : « مطاع فى أدنيه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره » . فقال الزبرقان : « يا رسول الله ! إنه ليعلم منى أكثر من هذا ، ولكنه حسدى » . فقال عمرو : « أما والله ! إنه لزم من المروءة ، ضيق العطن ، أحق الوالد ، لثيم الحال ، والله يا رسول الله ما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الأخرى ، ولكنى رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وسخطت فقلت أتج ما وجدت » . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن من البيان لسحرا » ، وإنما سعى البيان سحرا لتأثيره فى سامعه ، وسرعة قبول القلب له .
(٤) عين : أصيب بالعين ، من طان المحسود بعينه فهو طان والمحسود معين أصابه بالعين ، يقول : هل من سبيل إلى وجود عيب واحد فيه يقبه شر أعين الحاسدين ، فكثيرا ما أصيب بالعين الكامل الذى لا نقص فيه ولا عيب . وهذا قريب من قول القائل :
« ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين . »

☆☆

لَنْ لَبِسَ الْمَلِكَ رَحْبَ الْمَلَأِ ۖ فَاخْتَالَ مِنْهُ بِذَيْلٍ رَفَلٍ
فَإِنْ تَزَوَّدَهُ لِمَعَالِي ۖ وَإِنْ تَأَهَّبَهُ لِلْأَجَلِ
فَأَخْبِرْ سُوَاسَ هَذِي الْأُمُورِ ۖ وَنَاسِكَ أَرْبَابِ هَذِي الدُّوَلِ

☆☆

وَلَيْتَ الثُّغُورَ فَلَمْ تَعُدْ أَنْ ۖ رَأَيْتَ الثَّأْيَ ^(١) وَسَدَدْتَ الْخَلَلَ
سِوَاكَ - إِذَا قُلِدَّ الْأَمْرَ - جَارَ ، وَغَيْرُكَ - إِنْ مُلِكَ الْفَيْءَ - غَلَّ ^(٢)
حَتَّى لَا يَزَالَ لِمَنْ حَلَّهُ ۖ أَمَانَانِ : مِنْ عَدَمٍ ، أَوْ وَجَلَّ ^(٣)
فَأَنْجِمُ دَهْرِهِمْ مَسْعَدَةً ۖ وَشَمْسُ زَمَانِهِمْ فِي الْحَمَلِ ^(٤)

☆☆

« أَبَا بَكْرٍ » اسْمَعْ أَحَادِيثَ لَوْ ۖ بُدِثَ بِسَمْعٍ عَلِيلٍ أَبْلٍ ^(٥)
مَشَاكُرُ أَنْكَ أَعْلَيْتَنِي ۖ بِأَحْظَى مَكَانٍ وَأَذَنِي مَحَلٍّ
وَأَنِّي إِنْ زُرْتُ لَمْ تَحْتَجِبْ ۖ وَإِنْ طَالَ بِي مَجْلِسٌ لَمْ تَمَلْ

(١) الثأْي : الفساد ، ورأبته أصلحته .

(٢) الفَيْءُ : ما حصل للمسلمين من أموال الكفار عفواً بلا قتال ، وتقسيمة غير تقسيم الغنائم ، وغل : خال ، وخصه بعضهم بالغلول (أى الخيانة) فى الفَيْءِ والغنم ، وهو من قول الله عز وجل : « وما كان لنبى أن يفل » .

(٣) عدم أو وجل : أى فقراً وخوف .

(٤) مسعدة : صفة للأنجيم ، يقال : يوم سعد و ليلة مسعدة ، وفى الأصل : « وأنجم دهرهم أسعد » وأسعد وصف للمذكر ، ولا يصح وصف الأنجم به ، وفى السماء كواكب يقال لكل منها : « سعد » وسعود النجوم عشرة وهى : « سعد الذابح » ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الأخبية ، وسعد نائره ، وسعد الملك ، وسعد البهام ، وسعد الحمام ، وسعد البارع ، وسعد فطر .

(٥) صح من مرضه .

تَبَسَّمتُ ثُمَّ ثَنَيْتَ الْوَسَادَ فَحَسْبِي مِنْ خَطَرٍ مَا أَجَلُ^(١)
فَلَوْ صَافَحَ التَّبَرَّ خَدَيَّ لَهَانَ وَلَوْ كَاثَرَ الْقَطَرُ شُكْرِي لَقَلُّ^(٢)
بِأَمْنِهَا يُسْتَرَقُّ الْكَرِيمُ إِذَا مَطْمَعٌ بِسِوَاهُ أَخْلُ

* * *

فَلَا تَعْدَمَنَّكَ الْمَسَاعِي الَّتِي لِأَمِّ النَّاوِيكَ فِيهَا الْهَبَلُ^(٣)
فَأَنْتَ الْجَرِيُّ - إِذَا السَّبَلُ هَابَ - وَأَنْتَ الدَّلِيلُ، إِذَا النَّجْمُ ضَلَّ^(٤)
وَمَا أَبْنُكَ إِلَّا جِلَاءَ الْعُيُونِ إِذَا نَظَرُ - بِسِوَاهُ - أَكْتَخَلَ
رَيْبُ السَّيَادَةِ - فِي حِجْرِهَا - تُدْرِ لَهُ تُذَيِّهَا إِذَا حَفَلَ^(٥)
تَمَكَّنَ يَتْلُوكَ - فِي الصَّالِحَاتِ - فَلَمَّا تَفَقَّهَ ، وَلَمَّا يَنْلُ

(١) ثنيت الوساد : الوساد التكاثر ، وثنيت أى رددت بعضه على بعض ، وذلك لينه ، أو ثنيته جعلت له
ثانيا وضعت عليه ليحصل الارتفاق ، والاتكاء عليه عند الجلوس ، وهذه الحفاوة إما أن تكون حصلت
بفعل مباشر من الملك تواضعا منه ومبالغة في إكرام ذى الوزارتين (ابن زيدون) ، وإما أن تكون حصلت
من الخدم والاتباع بناء على أمر الملك ، يقول في هذا البيت والبيتين قبله : سأشكر لك إنك أعليت مكانى ،
وأدريت محلى ، وإني إن زورك لم تحتجب وإن طال بي الجلوس فى مجلسك لم تسأم ولم تمل ، وأنى إن جئتك
زائرا تبست وثنيت الوساد احتفاء بى ، فحسبى هذا من خطر عظيم وشرف ما أجله وما أعظمه .

(٢) يقال : هبلته أمه ثكلته ، ولأمه الهبل أى الثكل . قال الشاعر :

« والناس من يلتق خيرا ، قائلون له ما يشتهى ، ولأم الخطىء الهبل . »

وقال البعري :

« ولاكم البغى ، ثم انساب نحوكم بالشرفية فيها الثكل والهبل . »

وقال امرئ القيس :

« دع آدماء - لاشفاء الله من هبل - يكي على ولده المتبول هايلة . »

(٣) حفل : امتلأ ، حفل الابن فى الضرع يحفل حفلا وحفولا ، وتحفل واحتفل : اجتمع وهذا ضرع

حفيل أى مملوء لبناً .

ذكرى قرطبة وإيام الصبا

تَنَشَّقُ - مِنْ عَرَفِ الصَّبَا ^(١) - مَا تَنَشَّقَا

وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصَّبَا فَتَشَوَّقَا

وَمَا زَالَ لَمَعُ الْبَرْقِ - لَمَّا تَأَلَّقَا -

يُهِيبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى تَدْفَقَا ، وَهَلْ يَمْلِكُ الدَّمْعُ الْمَشُوقُ الْمَصْبَا ^(٢) ؟

* *

خَلِيلِي - إِنْ أَجْزَعُ - فَقَدْ وَضَحَ الْعُذْرُ

وَإِنْ أَسْتَطِيعُ صَبْرًا فَمِنْ شِيعَتِي الصَّبْرُ

وَإِنْ يَكُ رُزْءًا مَا أَصَابَ بِهِ الدَّهْرُ

فَنِي يَوْمِنَا خَيْرٌ ، وَفِي غَدِهِ أَمْرٌ ^(٣) ، وَلَا عَجَبٌ ، إِنْ الْكَرِيمُ مُرَزَّأُ

(١) الصبا : ريح الصبا أى ريح الشمال . والمرف : الطيب .

(٢) يهيب : مضارع أهاب بصاحبه دعاء ، أى يدعو الدمع ليتدفق ، والمصبا : ذو الصبوة ، والصبوة : جهة الفتوة يقال صبا صبوا وصبا وصباء . وصبي إليها - كرضى - حن ، وأصبته المرأة ونصبته : شاقه ودعته إلى الصبا لحن إليها .

(٣) فى المثل : « اليوم خير وغدا أسوأ » وقد قاله امرؤ القيس حين بلغه قتل أبيه ، ومعناه : اليوم نلهم ونتم تاركين إلى الغد أداء ما علينا من الواجبات والقروض . ويروى ، وهو أيضاً لامرؤ القيس : « اليوم تحاف ، وغدا ثقاف » والحقاف جمع تحف ، وهو إناء يشرب فيه ، والنقاف : المناقة من تقف الهامة شقها من الدماغ .

* *

رَمَتْنِي اللَّيَالِي عَنْ قِسِي النَّوَابِ
فَمَا أَخْطَأْتُ نِي مُرْسَلَاتُ الْمَصَائِبِ
أَقْضَى نَهَارِي بِالْأَمَانِي الْكَوَاذِبِ
وَأَوَى إِلَى لَيْلٍ بَطِيءٍ الْكَوَاكِبِ^(١) وَأَبْطَأَ سَارِ كَوْكَبٍ بَاتٍ يُكْثَلُ

* *

أَفْرُطَبَةُ الْغُرَاءِ! هَلْ فِيكَ مَطْمَعُ؟
وَهَلْ كَبْدٌ حَرَّى لِيَيْنِكَ تَنْقَعُ؟
وَهَلْ لِلْيَالِيكِ الْحَمِيدَةِ مَرْجِعُ؟
إِذَا الْحُسْنُ مَرَأَى فِيكَ - وَاللَّهُوُ مَسْمَعُ - وَإِذَا كَنَفُ الدُّنْيَا - لَدَيْكَ - مُوَطَّأُ^(٢)

(١) إشارة إلى البيت المشهور في قصيدة النابغة الذبياني :

« كلبني لهم يا أمية ناصب وليل أفاسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعي النجوم بأثب
وصدر أراح الليل طازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب .
جعل صدره مألفاً للهموم وجعل الهموم كالابل العازبة بالنهار حتى إذا أتى الليل أراحها الراحة في أماكنها
والنابغة أول من جعل الهموم تعذب بالنهار وتزايد بالليل ، وتبعه الشعراء في ذلك ، فقال مجنون ليلى :
« يضم إلى الليل أطفال حكم كما ضم أزوار القميص البنائي . »
وقال ابن الدمينه :

« نهاري نهار الناس حتى إذا بدا لي الليل هزني إليك المضاجع
أقضى نهاري بالحديث وبالمنى ويجمعني والهم بالليل جامع . »
ولهذا السبب ترم الشعراء بطول الليل فقال :
« كواكب ليله طالت وغمت فهذا الصبح راعمة ففوري »
وقال امرؤ القيس :

« فيا لك من ليل كأن نجومه بكل منار القتل شدت يذبيل »
وقد أكثر الشعراء من أمثال هذه المعاني فلنجتزئ بهذه الأبيات .
(٢) موطأ : مبسر مدلل .

أَلَيْسَ عَجِيبًا أَنْ تَشُطَّ النُّوَى بِكَ
فَأَحْيَا كَأَنْ لَمْ أُنْشَ تَفْحَ جَنَابِكَ
وَلَمْ يَلْتَمِمْ شَيْءِي خِلَالَ شِعَابِكَ
وَلَمْ يَكْ خَلْقِي بَدْوُهُ مِنْ تُرَابِكَ وَلَمْ يَكْتَنِفْنِي مِنْ نَوَاحِيكَ مَنَشَأُ

نَهَارُكَ وَصَاحُ ، وَلَيْلُكَ ضُحْيَانُ
وَتُرْبُوكِ مَصْبُوحُ ، وَغُصْنُكَ نَشْوَانُ
وَأَرْضُكَ تُكْسَى ، حِينَ جَوْكَ عُرْيَانُ
وَرِيَاكَ رَوْحُ - لِلنَّفُوسِ - وَرِيحَانُ وَحَسْبُ الْأَمَانِي ظِلُّكَ الْمُتَقَيُّمُ (١)

أَلَأَنْسَى زَمَانًا « بِالْعُقَابِ » مُخْفَلًا
وَعَيْشًا بِأَكْنَفِ « الرُّصَافَةِ » دَغْفَلًا (٢)
وَمَغْنَى - إِزَاءَ « الْجَعْفَرِيَّةِ » - أَقْبَلًا
لِنَعْمٍ مَرَادُ النَّحْسِ رَوْضًا وَجَدُولًا وَنَعْمَ مَحَلُّ الصَّبْوَةِ الْمُتَبَوِّأُ

وَيَارُبَّ مَلَهَى « بِالْعَقِيقِ » وَمَجْلِسِ
لَدَى تُرْعَةٍ ، تَرْنُو بِأَحْدَاقِ نَرْجِسِ
بِطَاحُ هَوَاءٍ مُطْمِعِ الْحَالِ مُؤَيِّسِ
مَغْنَمٍ وَلَكِنْ - مِنْ سَنَا الرَّاحِ - مُشْمِسِ إِذَا مَا بَدَتْ - فِي كَأْسِهَا - تَتَلَلَا

(١) ضحيان : أى بارز ظاهر لا يستتره ظلام ، وذلك لكثرة ما يضاء فى قرطبة من المصابيح والشمج بالليل ، وعريان : محو يريد أن أرضها مكسوة بالنبات وجوها محو صافى الأديم ، المتقيأ : الذى يستظل به ويستريح فيه القليل . (٢) الدغفل : العيش الواسع الغصب .

وَقَدْ ضَمْنَا - مِنْ « عَيْنِ شَهْدَةٍ » - مَشْهَدُ
 بَدَأْنَا وَعْدُنَا فِيهِ ، وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ
 يَرْفُ عَرُوسَ اللَّهِوِ أَحْوَرُ أَغْيَدُ
 لَهُ مَبْسِمٌ عَذْبٌ ، وَخَذَّ مُورِدُ ، وَكَفَّ - بِجَنَاءِ الْمُدَامِ - تُقْنًا ^(١)

* *

وَكَأَنَّ عَدَوْنَا - مُصْعِدِينَ - عَلَى الْجِسْرِ ^(٢)
 إِلَى الْجَوْسِقِ ^(٣) النَّصْرَى بَيْنَ الرُّبَا الْعُفْرِ
 وَرُخْنَا إِلَى الْوَعْسَاءِ ^(٤) مِنْ شَاطِئِ النَّهْرِ
 بِحَيْثُ هُبُوبُ الرِّيحِ عَاطِرَةِ النَّشْرِ عِلَا قُضْبِ النُّوَارِ ، فَهِيَ تُكْفَأُ

* *

وَأَحْسِنَ بِأَيَّامٍ - خَلَوْنَ - صَوَالِحِ
 بِصَفِيحَةِ الدُّوَلَابِ ، أَوْ قَصْرِ نَاصِحِ
 تَهْزُ الصَّبَا - أَثْنَاءَ تِلْكَ الْأَبَاطِحِ -
 صَفِيحَةَ سَلْسَالِ الْمَوَارِدِ سَائِحِ تَرَى الشَّمْسَ تَجْلُو نَصْلَهَا حِينَ يَصْدَأُ ^(٥)

(١) تُقْنًا : تصبغ باللون الاحمر القاني ، وذلك حين تمسك بالكأس فينعكس عليها من لون الراح ما يشبه الخضاب بالحناء . (٢) وكم جرينا صاعدين على الجسر .

(٣) الجوسق : القصر ، والربا : جمع ربوة ، وهي ما ارتفع من الأرض والعفر جمع عفراء - وهي أرض بيضاء لم توطأ .

(٤) الوعساء : راية من رمل لينة تثبت أحرار البقول .

(٥) يقول : إن ريح الصبا تهز خلال تلك الأباطح صفيحة جدول سلسال الموارِد سائح في الأباطح ، والشمس تجلو نصل هذا الجدول الشبيه بصفيحة السيف حين يصدأ من الظل .

* *

وَيَا حَبْدَا « الزَّهْرَاءُ » بَهْجَةً مَنْظَرٍ
وَرِقَّةً أَنْفَاسٍ ، وَصِحَّةً جَوْهَرٍ
وَنَاهِيكَ مِنْ مَبْدَأِ جَمَالٍ وَمُخْضَرٍ
وَجَنَّةٍ عَذْبٍ تَطْيِيكَ وَكَوْثَرٍ بِمَرَايِ زَيْدِ الْعُمَرِ - طَيْبًا - وَيَنْسَأُ^(١)

* *

مَعَاهِدُ - أَبْكِهَا - لِعَهْدٍ تَصَرَّمَا^(٢)
أَغْضُ - مِنْ الْوَرْدِ الْجَنِيِّ - وَأَنْعَمَا
لَبَسْنَا الصَّبَا فِيهَا حَيْرًا مُنْتَمَا^(٣)
وَقُدْنَاكَ إِلَى اللَّذَاتِ - جَيْشًا عَرَمَرَمَا لَهُ الْأَمْنُ رِدْوًا^(٤) وَالْعَدَاوَةُ مَرْبَأُ

* *

كَسَاهَا الرِّبْعُ الطَّلَقُ وَشَى الْخَمَائِلِ^(٥)
وَرَأَحَتْ لَهَا مَرْضَى الرِّيَّاحِ الْبَلَائِلِ
وَفَادَى بَنُوهَا الْعَيْشَ حُلُوَ الشَّمَائِلِ
وَلَا زَالَ مِنَّا بِالضُّحَا وَالْأَصَائِلِ سَلَامٌ - عَلَى تِلْكَ الْمَيَادِينِ - يُقْرَأُ

(١) تطيبك : تعجبك وتردهيك ، ينسأ : يؤخر ، أى يطيل العمر ، وقد مرَّ التعريف بالزهراء وغيرها من آثار « قرطبة » فى الحاشية ص (٥٤ - ٥٦) فارجع إليها إن شئت .

(٢) نصرم : اقضى وفات :

(٣) الحير : الناعم الجديد ، وضرب من برود اليمن والمنعم : المنفوش الموشى .

(٤) رده : ظهير أو معين .

(٥) الخائل - جمع خيلة - وهى الموضع الكثير الشجر .

أَخَوَانَنَا ! لِلْوَارِدِينَ مَصَادِرُ
وَلَا أَوَّلَ إِلَّا سَيَتَلَوُهُ آخِرُ
وَإِنِّي - لِإِعْتَابٍ ^(١) الزَّمانِ - لِنَاطِرُ
فَقَدْ يَسْتَقِيلُ الْجَدُّ - وَالْجَدُّ قَائِرُ - وَتُحَمَّدُ عُقْبَى الْأَمْرِ مَا زَالَ يُشْنَأُ ^(٢)

* *

ظَمَنْتُ ، فَكَانَ الْحَرْثُ يُخْفِي فِيْظَمْنُ ^(٣)
وَأَصْبَحْتُ أَسْلُو بِالْأَسَى ^(٤) حِينَ أَحْزَنُ
وَقَرَّ - عَلَى الْيَأْسِ - الْفُؤَادُ الْمُوَطَّنُ
وَإِنَّ بِلَادًا - هُنْتُ فِيهَا - لَأَهْوَنُ وَمَنْ رَامَ مِثْلِي بِالْدَّيْنَةِ أَدْنَأُ

* *

وَلَا يُغْبِطُ الْأَعْدَاءُ كَوْنِي فِي السَّجْنِ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَحْصَنُ بِالْدَّجْنِ ^(٥)
وَمَا كُنْتُ إِلَّا الصَّارِمَ الْعَضْبَ فِي جَفْنِ ^(٦)
أَوِ اللَّيْتِ فِي غَابٍ ، أَوِ الصَّقْرِ فِي وَكْنِ ^(٧) أَوِ الْعِلْقِ يُخْفِي - فِي الصَّوَارِ - وَيُخْبَأُ ^(٨)

(١) الاعتاب : لإرضاء العاتب .

(٢) يستقيل : ينهض ، والجد : الحظ . ويشنأ : ينفذ .

(٣) أى رحلت فكان رحيلى هذا لأننى أقيمت جفاء فترحلت عن مكان الجفوة والحر إذا ثبت به أرضه

هاجر إلى غيرها . (٤) الأسى : جمع أسوة ، وهى التأسى والتجمل ، قال ابن دريد :

« فان عثرت بمدى - إن وألت نفسى من هاتما - فتولا : لالما . »

وإن تكن مدتها موصولة بالختف سلطت الأسى على الأسى .

أى سلطت الصبر والتجمل على الحزن .

(٥) الدجن : النيم . (٦) جفن : غمد (٧) الوكن : نش الطائر ، لوكنة مثله .

(٨) الصوار : وطاء المسك .

* * *

يَضِيقُ - بِأَنْوَاعِ الصَّبَابَةِ - مَذْهَبِي
إِلَى كُلِّ رَحْبِ الصَّدْرِ - مِنْكُمْ - مُهَذَّبِ
مَفْضُضٍ لَأَلَاءِ الْأَسَارِيرِ مُذْهَبِ (١)
يُنَافِسُ مِنْهُ الْبَذْرُ - غُرَّةَ كَوْكَبٍ دَرَى أَنَّهَا أَبْهَى سَنَاءً وَأَضْوَأُ

* * *

أَسِفْتُ ، فَمَا أُرْتَاجُ - وَالرَّاحُ مُخْمِلُ -
وَلَا أَسْعِفُ الْأَوْتَارَ - وَهِيَ تَرَسَّلُ -
وَلَا أَرْعَوِي عَنْ زَفْرَةٍ - حِينَ أُعْذَلُ -
وَلَا لِي - مَذْ فَارَقْتُكُمْ - مُتَعَمِّلُ سِوَى خَبَرٍ مِنْكُمْ - عَلَى النَّأْيِ - يَطْرَأُ

* * *

حَمِدْتُمْ - مِنْ الْأَيَّامِ - إِنْ خِلَإْهَا
وَسَرَّتْكُمْ الدُّنْيَا بِحُسْنِ دَلَالِهَا
مُؤَمَّنَةً مِنْ عَثْبِهَا وَمَلَالِهَا
وَلَا زَالَ مِنْكُمْ لَابِسٌ مِنْ ظِلَالِهَا يُسَوِّغُ أَبْكَارَ الْمُنَى وَيُهِنَّا

(١) أسارير الوجه : محاسنه ، والأسارير - جمع أسرار والأسرار جمع سرار وهي خطوط الكف .

إلى ابن عبدوس^(١)

« وكتب إلى الوزير الكاتب أبي عليّ

ابن عبدوس معاتباً . »

(١) كان بين ابن زيدون وابن عبدوس عداوة أصيلة - بعد صداقة أكيدة - وكان من أكبر أسباب تلك العداوة تنازعهما على «ولادة بنت المستكفي» وقد كانت هذه العداوة حافزاً لابن زيدون على إنشاء هذه القصيدة ، كما كانت حافزاً له على إنشاء رسالته الهزلية المشهورة التي ستمر بك في هذا الكتاب . وقد كتب ابن نباتة في مقدمة الرسالة كلمة تمهيدية علل بها أسباب هذه العداوة كما كتب صاحب نفح الطيب وغيره ونحن نجتزئ بما يلي :

كانت بقرطبة امرأة ظريفة من بنات خلفاء العرب الأمويين المنسوين إلى عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالهاخل - من بني عبد الملك بن مروان تسمى : «ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن المستظهر بالله عبد الرحمن» ابتدل حجابها - بعد نكبة أبيها وقته وتقلب ملوك الطوائف - في خير طويل - ثم صارت تجلس للشعراء والكتاب ولعاشريهم وتحاضروهم ويتمشقها الكبراء منهم ، وكانت ذات خلق جميل وأدب غرض ونوادر عجيبة ، ونظم جيد فن ذلك ما كتبت به لابن زيدون وهي راضية عنه تقول :

«ترقب-إذا جن الظلام- زيارتي فاني رأيت الليل أكرم للسر

وبني منك ما لو كان بالبدل لم يفرء وبالليل لم يظلم، وبالنجم لم يسر . »

وقولها فيه وهي عليه غضبي :

«إن ابن زيدون-على فضله- يلهج بي شتماً ولا ذنب لي

يلحظني شزراً إذا جثته كائماً جث لأخصي على . »

لغنى غلاماً له يسمى علياً . وكان سبب قولها فيه هذا الشعر أنه اتهمها بمواصلة الوزير «أبي طاهر بن عبدوس» وكان يلقب بالفار ، فقال فيه وفيها :

« غيرتمونا بأن قد صار يخلقنا - فبين نحب-وما في ذاك من طار

أكل شهى ، أصبنا من أطايه بعضاً، وبعضاً صفحنا عنه للفار . »

ومن شعرها ما كتبت به على كنها وقيل : على تاجها :

« أنا والله أصلح للمعالي وأمشى مشيق وأنيه تها

وأمكن عاشق من ثم نرى وأعطي قلبي من يشتمها . »

ومما ينسب إليها وهو عندي كثير على شعر امرأة :

« لحاظكم تجرحنا في الحشى ولحظنا يجرحكم في الحدود

جرح يجرح ، فاجعلوا ذا بدا فما الذي أوجب جرح الصدود . »

وكان ابن زيدون كثير الشغف بها ، والبيل إليها ، وأكثر غزل شعره فيها وفي اسمها ، ثم إن الوزير «أبا طاهر بن عبدوس» أيضاً هام بها وكلف بعشرتها ، وكان قصدهم الظرف والأدب ، وكانت «ولادة» كثيرة اللعب به ، ولها معه نوادر ظريفة ، ومن نوادرها للظريفة أنها مرت يوماً بدار «ابن عبدوس» وهو جالس بالباب وحوله جماعة من أصحابه - وأمامه بركة تتولد من مراحيض وأفذار - فوقفت عليه وقالت يا أبا طاهر :

« أنت الخصيب وهذه مصر فتدققا فكلا كما بحر . »

أَثَرْتُ هَزَبَ الشَّرَى - إِذْ رَبَضَ - وَنَبَّهْتُ إِذْ هَذَا فَأَغْتَمَضَ (١)
وَمَا زِلْتُ تَبْسُطُ (٢) - مُسْتَرَسِلًا - إِلَيْهِ يَدَ الْبَغَى لَمَّا انْتَبَضَ

حَذَارِ حَذَارٍ فَإِنَّ الْكَرِيمَ - إِذَا سِيمَ خَسْفًا - أُبَى فَأَمْتَعَضَ
فَإِنَّ سُكُونَ الشَّجَاعِ النَّهْوُ سِ (٣) لَيْسَ بِمَانِعٍ أَنْ يَمْعَضَ
وَإِنَّ الْكَوَاكِبَ لَا تُسْتَزَلُّ وَإِنَّ الْمَقَادِيرَ لَا تُعْتَرَضُ
إِذَا رِيغَ فَلْيَقْتَصِدْ مُسْرِفٌ مَسَاعٍ يُقْصِرُ عَنْهَا الْحَفْضُ (٤)
وَهَلْ وَارِدُ الْغَمْرِ مِنْ عِدَّةٍ يُقَاسُ بِهِ مُسْتَشْفٍ الْبَرَضُ (٥)

فلم يحر جواباً، فضت وحفظت هذه النادرة، واشتغل بها الناس، وهذا البيت لأبي نواس تمتلئ به وقلته هذا النفل الحسن من - المدح إلى الهجاء - وكان كثيراً ما يندحها ويغني التفرد بها، وفي ذلك يقول ابن زيدون:
« وغرك من عهد ولادة سراب تراءى وبرق ومض
في الماء يأتي على قابض ويمنع زبدته من محض . »

وكان أول أمرها معه والباعث لابن زيدون على إنشاء هذه الرسالة : أن «ابن عبدوس» لما سمع بها أرسل إليها امرأة من جهته تستميلها إليه وتذكر لها محاسنه ومناقبه وترغبها في التفرد بمواصلته ، فبلغ ابن زيدون ذلك ، فكتب هذه الرسالة البدعية جواباً له عن لسانها تتضمن هذه الغرائب من سب أبي عامر والتهكم له والهجاء له وجعلها جواباً له على لسان ولادة ، وأرسلها إليه حبيب رجوة المرافقة فبلغت منه كل مبلغ، واشتهر ذكرها في الآفاق، وأمسك «ابن عبدوس» عن التمرض لولادة إلى أن انتقل «ابن زيدون» إلى «إشبيلية» وتوفي بها تيمده الله برحمته ، وغفر لنا ولهم بمنه وكرمه. هذا معنى ما ذكره ابن جيان وابن بسام وغيرهما من المؤرخين .
(١) أثرت : هجت ، والهزبر : من أسماء الأسود ، والشرى : موضع تكثر فيه الأسود ، وربض : آوى إلى عرينه ، وهذا : نام .

(٢) يقول : وما زلت تبسط يد البطش والبغى على ذلك الأسد الرابض في مجتمه على حين أمنت يده المنقبضة عنك .

(٣) النهوس : المعصوم ، والشجاع الذكر من الحيات ، قال الفاضل :
« أتبيح له - وكان أخوا عيال - شجاع - في الحماقة - مستكن . »

(٤) الحفص : الجمل الضعيف .

(٥) المد : أراد به هنا معين الماء الذي له مادة لا تنقطع ، يقال ماء عد أي كثير دائم لا ينقطع ،

البرض : القليل . قال ابن دريد :

« أرمق العيش على برض فان رمت ارتشافاً رمت صعب المنسى . »

يقال ماء برض (بالكون) أي قليل وهو خلاف الغمر، والمستشف : الذي يأتي على آخر ما في الأثناء عند المغرب.

إِذَا الشَّمْسُ قَابَلَتْهَا - أَرْمَدًا - فَحَظُّ جُفُونِكَ فِي أَنْ تُنَضَّ (١)

☆☆

أَرَى كُلَّ مُجْرٍ « أَبَا عَامِرٍ » يُسْرِ إِذَا فِي خَلَاءٍ رَكُضٍ
أَعِيذُكَ مِنْ أَنْ تَرَى مِنْزَعِي (٢) إِذَا وَتَرَى بِالْمَنَآيَا أُتْقَبَضُ
فَإِنِّي أَلِينُ لِمَنْ لَانَ لِي وَأَتْرُكُ مَنْ رَامَ قَسْرِي حَرَضٍ (٣)
وَكَمْ حَرَكَ الْعُجْبُ مِنْ حَائٍ فَقَادَرْتَهُ ، مَا بِهِ مِنْ حَبَضٍ (٤)

☆☆

« أَبَا عَامِرٍ » أَيْنَ ذَاكَ الْوَفَاءِ إِذَا الدَّهْرُ وَسْنَانُ ، وَالْعَيْشُ غَضُّ؟
وَأَيْنَ الَّذِي كُنْتَ تَعْتَدُ مِنْ مُصَادَقَتِي الْوَاجِبِ الْمُفْتَرَضُ؟
تَشُوبُ وَأُحْضُ (٥) مُسْتَبْقِيَا وَهَيْهَاتَ مَنْ شَابَ مِمَّنْ مُحَضُّ!

☆☆

أَبْنِ لِي ، أَلَمْ أُضْطَلِعْ نَاهِيضًا (٦) بِأَغْبَاءِ بَرِّكَ ، فِيمَنْ نَهَضُ؟
أَلَمْ تَنْشَ مِنْ أَدْبِي نَفْحَةً حَسِبْتَ بِهَا الْمِسْكَ طَيِّبًا يُفَضُّ؟

(١) قال المتنبي :

« قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم . »

(٢) المنزع : السهم الذي يرمى به أبعد ما يقدر عليه لتقدر به النلوة قال الأدهني :

فهو كالمنزع المريش من الشو حط غالت به يمين الغالي

(٣) حرَض : ساقط لا يقوى على النهوض .

(٤) الحبض : التحرك والصوت ، والقوة وبقية الحياة ، يقول : كم دفع الغرور من قرب حينه إلى منا

وأنى فتركته ميتا لأحراك به .

(٥) أى تخرج الصافي بالسكدر وأصغبك الهوى خالصاً من كل شائبة .

(٦) وفي رواية : « حاديا »

أَلَمْ تَكُ مِنْ شَيْعَتِي غَادِيًا إِلَى تُرَيْجٍ ضَاكِكْتَهَا فُرْضٌ^(١) ؟
وَلَوْلَا اخْتِصَاصُكَ لَمْ أَتَفَتِ لِحَالِكَ مِنْ صِحَّةٍ أَوْ مَرَضٍ
وَلَا عَادَنِي - مِنْ وَفَاءٍ - سُرُورٌ وَلَا نَالَنِي - لِحَفَاءٍ - مَضَضٌ
يَعِزُّ اعْتِصَارُ الْفَتَى وَارِدًا إِذَا الْبَارِدُ الْعَذْبُ أَهْدَى الْجَرَضِ^(٢)

* *

عَمَدَتِ لِسَعْرِي وَلَمْ تَنْدُبِ^(٣) تُعَارِضُ جَوْهَرَهُ بِالْعَرَضِ
أَصَاقَتِ أَسَالِيبُ هَذَا الْقَرِيضِ ؟ أَمْ قَدْ عَفَا رُسْمُهُ فَأُتْقِرَضُ ؟

* *

لَعَمْرِي لَفَوْقَتِ سَهْمِ النَّضَالِ وَأَرْسَلْتَهُ، لَوْ أَصَيْتَ الْغَرَضِ^(٤)
وَشَمَرَتِ لِلْخَوْضِ فِي جُلَّةٍ - هِيَ الْبَحْرُ - سَاحِلُهُا لَمْ يُخَضِّ
وَعَرَّكَ مِنْ عَهْدٍ « وَلَادَّةٍ »^(٥) سَرَابُ تَرَاهِي وَبَرَقُ وَمَضٍ
تَظُنُّ الْوَفَاءَ بِهَا وَالظُّنُّ نُ فِيهَا تَقُولُ عَلَى مَنْ فَرَضَ :
« هِيَ الْمَاءُ يَأْبَى عَلَى قَابِضٍ »^(٦) وَيَمْنَعُ زُبْدَتَهُ مَنْ مَخَضَ

(١) الفرض - جمع فرضة ، والفرضة من النهر ثلثة يستقي منها ومن البحر محط السفن .
(٢) وفي الأصل : « ولكن يعز اغتصار الفتى واردا » ، والجرض معناه العصص بالريق ، يقال جرض بريقه : ابتلعه بالجهد . والاعتصار : أن يفص الانسان بالطعام فيعتصر بالماء ، وهو أن يشربه قليلا قليلا ، قال عدى بن زيد :

« لو بغير الماء خلق شرق كنت كالنفسان - بالماء - اعتصاري . »

(٣) ولم نال جهدا . (٤) الغرض : الهدف .

(٥) وفي الأصل : « وعرك من عهد فعالة » ولكنه في بقية الروايات : « ولادة »

(٦) وفي رواية : « هي الماء يعز على قابض » .

وَبُنْشَهَا بَعْدِي أَسْتُحْمِدَتْ بِسِرِّي إِلَيْكَ لِمَعْنَى غَمَضُ

* *

« أَبَا حَامِرٍ » عَثْرَةً فَاسْتَقِلَّ لِتُبْرِمَ مِنْ وَدْنَا مَا انْتَقَضَ

وَلَا تَعْتَصِمُ ضَلَّةً بِالْحِجَابِ ^(١) وَسِيمٌ قَرُبًا اِحْتِجَابٍ دُحِضَ

وَالَا انْتَحَتِكَ جُيُوشُ الْعِتَابِ مُنَاجِزَةً فِي قَضِيضٍ وَقَضُ

* *

وَأُنْذِرُ خَلِيلَكَ مِنْ مَاهِرٍ بِطِبِّ الْجُنُونِ إِذَا مَا عَرَضَ

كَفِيلٌ يَبِطُّ خِرَاجٍ قَسَا ^(٢) جَرَى عَلَى شَقِّ عِرْقٍ نَبَضَ

يُبَادِرُ بِالْكَيِّ قَبْلَ الضَّمَادِ وَيُسْعِطُ بِالسَّمِّ لَا بِالْحَضَضِ

وَأَشْعِرُهُ أَنِّي انْتَخَبْتُ الْبَدِيلَ وَأَعْلِمُهُ أَنِّي اسْتَجَدْتُ الْعَوْضَ

فَلَا مَشْرَبِي - لِقَلَاهُ - أَمْرٌ وَلَا مَضْجَعِي - لِنَوَاهُ - أَقْضُ

وَإِنْ يَدَ الْيَنِينِ مَشْكُورَةٌ لِعَارٍ أَمَاطَ وَوَضَمَ رَحَضُ ^(٣)

وَحَسْبِي أَنِّي أَطَبْتُ الْجَنَى لِإِبَانِهِ ، وَأَبَحْتُ النَفْضَ ^(٤)

وَيَهْنِيكَ أَنْكَ يَا مَسِيدِي غَدَوْتَ مُقَارِنَ ذَاكَ الرَّبْضِ ^(٥)

(١) الحجاج : الحاجة والجدل .

(٢) وفي الأصل : « خراج جرى . »

(٣) رحض : غسل .

(٤) النفض : ماسقط من الورق والتمر وحب العنب حين يوجد بعضه في بعض .

(٥) الربض : الأمعاء ، أو ما في البطن سوى القلب ، وماوى النعم ، وقوتك الذى يكفيك من اللين .

مدح ابن جهور وشكر باديس^(١)

« وقال من قصيدة طويلة يمدح بها الوزير

الأجل محمد بن جهور . »

سَلِ الْمَعَشَرَ الْأَعْدَاءَ إِنْ رُمْتَ صَرْفَهُمْ - عَنِ الْقَصْدِ إِنْ أَعْيَاكَ مِنْهُ مَرَامُ
أَتَوْكَ كَأَسَادِ الشَّرَى فَرَدَدْتَهُمْ كَمَا أَجْفَلْتَ وَسَطَ الْفَلَاةِ نَعَامُ
مَضَوْا يَسْأَلُونَ النَّاسَ عَمَّا وَرَاءَهُمْ فَيُخْبِرُهُمْ - بِالْبُكَيَاتِ - عِصَامُ^(٢)

(١) سبق الكلام عن « باديس » وعن « صنهاجة » في ص (٢٢٠ و ٢٢١) من هذا الديوان ،
فليرجع إليها من شاء .

(٢) يقول المثل : « ما وراءك يا عصام ؟ » وجاء في مجمع الأمثال عن المفضل الضبي أن أول من قال
ذلك الحرث بن عمرو ملك كندة ، وذلك أنه لما بلغه جمال ابنة عوف بن علم الشيباني وكلها وقوة عقلها ،
دعا امرأة من كندة يقال لها « عصام » ذات عقل ولسان ، وأدب وبيان ، وقال لها : اذهبي حتى تعلمي
لي علم ابنة عوف ، فضت حتى انتهت إلى أمها ، وهي « أمامة » بنت الحرث ، فأعلمتها ما قدمت له ،
فأرسلت « أمامة » إلى ابنتها وقالت : أي بنية ! هذه خالك أنت لتنظر إليك فلا تسترقى عنها شيئا إن
أرادت النظر ، من وجه أو خلق ، وناطقيها إن استندت بك ، فدخلت إليها ، فنظرت إلى مالم تر قط مثله ،
فخرجت من عندها وهي تقول : « ترك الحداع ، من كشف الغناع . » فأرسلتها مثلاً ، ثم انطلقت إلى
الحرث فلما رآها مقبلة ، قال لها : « ما وراءك يا عصام . » قالت : « صرح الخفس عن الزبد . » رأيت
جبهة كالمرآة المصقولة ، يزينها شعر جالك كالأذناب الخيل ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت
صنايد جلاها الوابل ، وحاجين كأنما خطا بقلم ، أو سودا بحمم ، تقوسا على مثل عين ظبية صهيرة ،
بينها أنف كحد السيف الصنيع ، حفت به وجنتان ، كالأرجوان ، في بياض كاللجان ، شق فيه فم كالخاتم
لقيد البتسم ، فيه ثنايا غر ذات أشعر ، تقلب فيه لسان ، ذو فصاحة وبيان ، بعقل وافر ، وجواب حاضر ،
تلتقي فيه شفتان حراوان ، في رقبة يضاء كالفضة ، ركبت في صدر كصدر تمثال دمية ، وعضدان مدججان ،
يتصل بهما ذراعان ، ليس فيها عظم يمس ، ولا هرق يحبس ، ركبت فيهما كفان دقيق قصبهما ، لين
عصبهما ، تعقد إن شدت منهما الأنامل ، تنأ في ذلك الصدر ثديان كالرمانتين يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك
بطن طوى طوى القباطي المدججة ، كسر عكنا كالقراطيس المدرجة ، تحيط بتلك العكن سررة كالمدهن المجلو ،
خلف ذلك ظهر فيه كالجدول ، ينتهي إلى خصر لولا رحمة الله لا يتر ، لها كفل يقعدا إذا نهضت ،
وينهضا إذا قعدت ، كأنه دعص الرمل ، لبدنه سقوط الظل ، يحمله فخذان لغاوان ، تحتهما ساقان خدجنان ،

وَمَا ضَاقَ عَنْهُمْ جَانِبُ الْعُذْرِ إِنَّهُمْ كَمَثَلِ الْقَطَا لَوْ يُتْرَكُونَ لَنَامُوا^(١)

يعمل ذلك قدامان ، كخدو اللسان ، فتبارك الله مع صغرها ، كيف تطيقان حمل ما فوقهما ؟ . فأرسل الملك إلى أبيها لخطبها فزوجها إياه وبث بصداقها فجهرها إليه ، فلما أرادوا أن يحملوها إلى زوجها قالت لها أمها : أى بنية ! إن الوصية لو تركت لفضل أدب لترك ذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومغفونة للغافل ، ولو أن امرأة استغفرت عن الزوج لغنى أبيها ، وشدة حاجتهما إليها ، لكنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال ، أى بنية ! إنك إن فارت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكك عليك رقيقا ومليكا ، فكونى له أمة يكن لك عبدا وشيكا ، إلى آخر ما جاء فى هذا الخبر ، قال فى مجمع الأمثال بعد سيطرة هذا الخبر : وروى أبو عبيد ، ما وراءك على التذكير ، وقال : يقال إن المنكح به النابغة الذبياني قاله لعصام بن شهير حاجب النعمان وكان النعمان مريضاً ، وقد أرجف بموته ، فسأله النابغة عن حال النعمان ، فقال : « ما وراءك يا عصام . » ومعناه ما خلفت من أسر العليل ، أو ما أمامك من حاله ، ووراء من الأضداد . (١) يشير إلى المثل المشهور : « لو ترك القطا ليلا لنام » يضرب لمن حمل على مكروه من غير إرادته .

وقد تمثل به الحسين بن على (رضى الله عنه) فى الليلة الأخيرة التى تلاها مصرعه ، قال على ابنه :
إني لحالس فى تلك المشية - التى قتل أنى فى صبيحتها - وعمى « زينب » عندى تمرضى ، إذ اهتز
أبى بأصحابه - فى خباء له - وعنده « حوى » مولى « أبى ذر » - وهو يعالج سيفه ويصلحه -
وأبى يقول :

«يأدهر : أف لك من خليل
كم لك - بالاشراق والأصيل -
من صاحب ، أو طالب قتيل
والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل
وكل حى سالك السبيل . »

قال على بن الحسين :
فأعادما أبى مرتين أو ثلاثاً - حتى فهمتها - فعرفت ما أراد ، فنفقتنى عبرتى ، فرددت دمعى ولزمت السكوت ،
وعلمت أن البلاء قد نزل ، فأما عمى فاتها سمعت ما سمعت - وهى امرأة ، وفى النساء الرقة والجزع -
فلم تملك نفسها أن وثبت بحر ثوبها - وإنها لحاسرة - حتى انتهت إليه ، فقالت :
« وانكلاه ! ليت اليوم أعدمى الحياة ! اليوم مانت « فاطمة » أمى و « على » أبى و « حسن »
أخى . يا خليفة الماضى ، وثمانى الباقى . » فنظر الحسين ، وقال :
« يا أخيه ! لا يذهبن حملك الشيطان ! »

قالت : « بأبى أنت وأمى ، يا أبا عبد الله استمقتك ، نفسى فذاك ! » فردت غصته ، وترقرقت
هيئته ، وقال :
« لو ترك القطا ليلا لنام ! »

فِدَائِهِ « لِإِدَائِسِ » النُّفُوسُ ، وَجَادَهُ مِنْ الشُّكْرِ - فِي أَفْقِ الْوَفَاءِ - غَمَامُ
فَمَا لَحِقَتْ تِلْكَ الْعُهُودَ مَلَامَةٌ وَلَا ذُمَّ - مِنْ ذَلِكَ الْخِفَافِ - ذِمَامُ^(١)
وَمِثْلُكَ وَالَى مِثْلَهُ فَتَصَافِيَا كَمَا صَافَتْ - الْمَاءُ الْقَرَّاحَ - مُدَامُ
رَسِيْلُكَ - فِي شَأْوِ الْمَعَالِي - كِلَا كَمَا بَعِيدُ الْمَدَى صَعْبُ الْهُمُومِ هُمَامُ

لَعَمْرِي لَقَدْ أَحْظَيْتُهُ بِوِفَادَةٍ لِأَسْنَى كَرِيمٍ أَنْجَبْتُهُ كِرَامُ
فَمَا أَنْفَكَ إِلَّا عَدَلَ نَفْسِكَ إِنْ يَسِرْ فَلَجِسْمٍ لَا لِلنَّفْسِ مِنْكَ مُقَامُ^(٢)
حُسَامُكَ مَهْمَا تَخْتَرِطُهُ لِمِثْلِهَا فَقَلَّ غَنَاءُ السَّيْفِ حِينَ يُشَامُ

اسم من أحب

« وقال في معشوقة يؤخذ اسمها بالتوالي من أرض
وسماء وماء ، فيتكوّن من مجموعها « أسماء » . »

إِنَّ لِلْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالْمَاءِ عَلَيْنَا أَذْمَةً لَا تُذَمُّ
هِيَ بَعْضُ اسْمٍ مِنْ أَحَبِّ وَلَاءٍ وَتَكَرَّرَ بَعْضُهَا يَسْتَقِمُّ

فالت :

« يا ويلتنا ! أفتنصب نفسك اختصاباً ؟ فذلك أفرح لقلبي ، وأشد على نفسي ! » ولطمت وجهها ،
وأهوت إلى جيبها وشقته ، وخرت منشياً عليها .
فقام إليها الحسين فصب على وجهها الماء ، وعزّأها بكلام طويل يرجع إليه القارىء - إذا شاء في كتابنا
« مصارع الأعيان » من ص « ٢٥ إلى ٥٦ »

(١) عهد . (٢) وفي الأصل :

« فإنيك إلا عدل نفسك ، إن يسر فلجسم - لا للنفس منك - مقام . »

وقال

« كان أبو العطف بن حي إذ ورد إشبيلية
رسولا قد سألته أن يريه من شعره ، فخطه
حتى كتب إليه شعرا يستبطنه فيه ، فجاء به
عليه في عروضه وقافيته . »

ن أَفْذَنْتِي مِنْ نَقَائِسِ الدَّرَرِ مَا أَبْرَزَتْهُ عَرَائِضُ الْفِكْرِ (١)
مِنْ لَفْظَةٍ قَارَنْتُ نَظِيرَتَهَا قِرَانٌ سَقَمَ الْجُفُونِ لِلْحَوَرِ (٢)
أَبْدَعَهَا خَاطِرٌ ، بَدَأَتْهُ - فِي النَّظْمِ - حَازَتْ جَلَالََةَ الْخَطَرِ
مَا أَعْطَرُ مِنْهَا سَرَى لَهُ نَفْسٌ ، مِنْ نَفْسِ الرَّوْضِ رَقٌّ فِي السَّحَرِ (٣)

يَارَاقِمَ الْوَشْيِ - زَانَهُ ذَهَبٌ -
الَّذِي الرِّقَابُ فِي رَقْرَقٍ إِذْ رَفَّ مِنْهُ فِي الطَّرَرِ (٤)

(١) يقول : أفذنتي من نقائس الدر أشبهت عنه الأصداف ما أبرزته عرائض فكرك من
مكتون روائع الكلام ، وبدائع الحكم .

(٢) سقم الجفون : فتورها ، والخور : في العين شدة سواد المقلة في شدة بياضها في شدة بياض لون
الجسد ، وقيل الخور أن تسود العين كلها كما في أعين الظباء والبقر ، وهذا ليس بوجود في الآدميين ،
يقول : أكتبني من نقائس دررك كل لفظة وافقت قريبتها ، وقارنت نظيرتها ، قران سقم الجفون ،
لخور العيون .

(٣) يقول : المعطر من هذه الكلام البديعة التي أبدعها خاطرك سرى له نفس يحكي في الأريج والرفة
نفس الروض المعطر ، سرى به النسيم وقت السحر ، وفي الأصل : « أعرط مهما سرى له نفس . » ،
وما أثبتناه هنا دو ما يرشد إليه السياق .

(٤) الوشي : النقش ، ورقق : تحرك ولع وصار له بصيص وتلاؤ ، ورف يقال : رف اللون
والذهب والبرق يرف . (بالكسر) رقيقا برق وتلاؤاً ، ورفت الأسنان كذلك ، وفي الحديث أن
« النابية » الجعدى أنشد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «

« ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادٍ تحمي صفوه أن يكدرها

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأسر أصدرها . »

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا يفضض الله فاك . « فبقيت أسنانه ترف حتى مات ، يقول :
يا كاتباً يرمي في الكتاب ما يحكي البرد الموشى المذهب الطرر والحواشي ، والذي لونه رقرق وبصيص ، وفي
الأصل « رقرق » وقد وضعنا بدلها « رفرق » ليستقيم المعنى والوزن .

- وَنَظَمَ الْعِقْدَ - نَظَمَ مُقْتَدِرَ - يَفْصِلُ بَيْنَ الْعِيُونِ بِالْفُرَرِ (١)
 لِي بِالنِّضَالِ الَّذِي نَشِطَتْ لَهُ - عَهْدٌ قَدِيمٌ مُعْجَمُ الْأَثَرِ (٢)
 هَلْ أَنْصِلَ السَّهْمَ فِي الْجَفِيرِ وَقَدْ - تَعَطَّلَتْ فَوْقَهُ مِنَ الْوَتْرِ ؟ (٣)

* * *

- مَا الشَّعْرُ إِلَّا لِمَنْ قَرِيحَتُهُ - غَرِيضَةُ النُّورِ غَضَّةُ الشَّمْرِ (٤)
 تَبَسُّمٌ عَنْ كُلِّ زَاهِرٍ أَرْجٍ - مِثْلَ الْكِمَامِ ابْتَسَمَنَ عَنْ زَهَرٍ
 إِنَّ الشَّفِيعَ الْهَمَامَ سَوَّغَهُ اللَّهُ اتِّصَالَ التَّأْيِيدِ بِالظَّفَرِ
 الْفَاضِلُ الْخُبْرُ فِي الْمُلُوكِ إِذَا - أَقْصَرَ خُبْرُهُ عَنْ غَايَةِ الْخَبَرِ (٥)
 نَجَلُ الَّذِي نُصَحُّهُ وَطَاعَتُهُ - كَالْحَجِّ تَتْلُوهُ بَرَّةُ الْعُمَرِ (٦)

(١) العيون : الخيار المنتخب من حبات العقد ، والفرر البيض ، يقول : وبإناظم الشعر نظم قدير يفصل بين أجزائه ، ويؤلف بين مواقع كلمة ، كما يؤلف ناظم العقد بين خرزه وحباته ، ويفصل بين الخيار المنتخب منها بذور اللآلئ .

(٢) النضال : المراماة بالسهم وأراد به هنا المساجلة والمساوقة في مجال القول ، ومعجم الأثر : مهم مشكل قد انطلمست معالته وآثاره ، يقول : بعثت لى بهذه الكلم الثمينة ، والنظم الرائع تريد بذلك أن تجدده عهد النضال الذى نشطت له أنت الآن بعد أن طال بى عهدى ، وأبهم على أمره ، واستعجم أثره .

(٣) أنصل . مضارع أنصل السهم جعل له نصلا ، والجدير : جمعة السهام ، والفوق : موضع الوتر من السهم ، يقول : هل أجعل للسهم الذى فى الجفير نصلا ، وقد تعطلت فوقه أى مشق رأسه فلم تمد صالحة لأن يوضع الوتر فى موضعه منها ، يريد أن آلة النضال بطلت عنده وتعطلت أسبابها لطول العهد .

(٤) غريضة النور : الفريض ، والنفض : كلاهما اللين الطرى الناضر من الزهر والنبات وغيرها .

(٥) الخبر : (بضم وكسر أوله وسكون ثانيه) العلم بالشيء ، من عيان وخبرة ، والخبر : النبأ الذى يأتيك عن طريق السماع ، يقول : هو الملك الذى يفضل ويزيد الخبر والعلم بصفاته وأحواله عن الخبر الذى يبلغك عنه فى حين أن غيره من الملوك يقصر الخبر والعلم بأحوالهم عن الخبر الذى يأتيك عنهم .

(٦) برة العمر : أى العمر المبرورة المقبولة جمع عمرة ، وهى فى الأصل الزيارة ، وتنحقق شرطا بالطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ، والفرق بينها وبين الحج أن العمرة تطوع وأنه يجوز للإنسان أن يعتمر فى السنة كلها بخلاف الحج فإنه لا يجوز الإحرام به وأداء مناسكه إلا فى أشهر الحج المعلومة وهى شوال ، وذو القعدة ، وعشر ذى الحجة ، يعنى أن لصحة وطاعته من أعمال البر التى تقابل من الله بالثواب ، وهى لكونها من الطاعة والبر بمثابة الحج الذى تتلوه العمر المبرورة .

شَاهِدُ عَهْدِي لَكَ الصَّحِيحُ الْخَلَاصِ نَأَى صَفْوُهُ عَنِ الْكَدَرِ

مَشَيْتُ فِي عَذَلِي الْبَرَّازَ لِمَنْ لَمْ يَرْضَ فِي الْعُدْرِ مِشْيَةَ الْخَمْرِ^(١)
وَقُلْتُ: مَطْلُ الْغَنِيِّ وَرَدُّ مِنَ الظُّلْمِ، يُلْقَى مَلَاوِمَ الصَّدْرِ^(٢)
وَلِي مَمَازِيرُ لَوْ تَطَلَّعُ فِي لَيْلِ سِرَارٍ أُغْنَتْ عَنِ الْقَمَرِ
مِنْهَا اتَّقَائِي لِأَنْ أَكُونَ أَنَا الْجَالِبَ مَا قُلْتُهُ إِلَى هَجَرٍ^(٣)
لَكِنْ سَيِّئَاتِيكَ مَا يُجَوِّزُهُ سَرُّوكَ دَابَّ الْمُسَامِحِ الْبَسَرِ
فَا كَتَفَ مِنْهُ بِنَظَرَةٍ عَنِّي^(٤) لَا حَظَّ فِيهِ لِكِرَّةِ النَّظَرِ

(١) البراز : من الأرض الفضاء الواسع الذي ليس به خير يستره من شجر أو غيره ، والحجر : ما يستر الناسى وبواري الصيد من شجر أو جرف أو جبل من جبال الرمل أو غير ذلك ، يقول : هذلك ولملك لوما صريحاً لا مواربة فيه ، فكنت فيه كمن يمتنى البراز لا يواريه خيراً ، ولا يستره سائر من مرتفع أو شجر ، وهو هذل أعلنه لمن لم يرض قبول عذر أستر وراءه يحزى عن مجاراته ، وأخفى في التماسه ضعف عن مباراته وفي المثل : « منى إليه البراز » و « منى إليه الملا والبراح » أى منى إليه ظاهراً غير مستتر ، وجاء في ضد هذا المثل مثل آخر وهو : « منى إليه الحجر ، ودب له الضراء . »

(٢) المظل : المذ يقال مظل الجبل وغيره يظله مثلاً ، وفي الحديث : « مظل الغنى ظلم . » والملاوم : جمع الملامة ، والصدر : الانصراف والرجوع عن الشيء .

(٣) في المثل : « كستبضع التمر إلى هجر . » و « نائل التمر إلى هجر » وهو ، مثل قديم متداول : يضرب في الخطأ لأن نائل الشيء إلى معدنه مخطئ ، ويقال أيضاً كستبضع التمر إلى خير . قال النابغة الجعدي : « وإن امرأ أهدى إليك قصيدة كستبضع تمرا إلى أرض خيبر . »

وقد ورد هذا المثل في كتاب سيدنا على كرم الله وجهه ورضى عنه بعث به جواباً إلى معاوية رضى الله عنه وهو من محاسن كتبه ، وذلك حيث يقول عليه السلام في صدر هذا الكتاب : -

« أما بعد » فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفا الله محمد صلى الله عليه وآله لدينه ، وتأييده إياه بمن أيده من أصحابه ، فلقد خبا لنا الدهر منك عجبا إذ طفت تخبرنا ببلاء الله عندنا ونعمته علينا في نبينا ، فكنت في ذلك : « كناقل التمر إلى هجر ، أو داعي مسدده إلى النضال . » إلى آخر ما جاء في هذا الكتاب الممتع ، فارجع إليه في نهج البلاغة إن شئت .

(٤) أى تعترض لك من غير قصد ولا قصد ، يقول : سيأتيك نظمي هذا الذى يحيزه سرك وإغضاؤك عما فيه أعضاء المسامح السهل ، فاكتف منه بنظرة عجلي ، فانه لاحظ فيه لمعاودة النظر كره بعد كره .

بين ابن زيدون والمعتمد

« وكتب إليه المعتمد على الله المؤيد
بنصر الله وهو جالس في فصيل من القصر
تحت غرفة لزومه :

أيها المنحط عني مجلساً
وله في القلب أعلى مجلس
بقوادي لك حب يقتضي
أن ترى تحمل فوق الأرواس

جوابه ابن زيدون . »

أَسْقِطُ الطَّلَّ فَوْقَ النَّزْجِسِ	أَمْ نَسِيمُ الرُّوضِ تَحْتَ الْحِنْدِسِ
أَمْ نِظَامٌ لِلْأَلِ نَسَقِ	جَامِعٍ كُلِّ خَطِيرٍ مُنْفَسِ (١)
أَمْ قَرِيضٌ جَاءَ نِيَّ عَن مَلِكٍ	مَالِكٍ بِالْبِرِّ رِقَّ الْأَنْفُسِ
دَهَتْ فِكْرِي مِنْ إِبْدَاعِهِ	حَايِرَةٌ فِي مَنْطِقِي لِي مُخْرَسِ
بِتُّ مِنْهُ يَنْ سَهْلٍ مُطْمَعٍ	خَادِعٍ يُثْلِي بِحُزْنٍ مُؤَيَّسِ

* *

يَا نَدَى يُعْنَى « أَبِي الْقَاسِمِ » غَمٌ	يَا سَنَا شَمْسِ الْحَيَا أَشْمِسِ
يَا بَهِيَجَ الْخُلُقِ الْعَذْبِ أَبْنَمِ	يَا مُهَيِّجَ الْأَنْفِ الصَّعْبِ أَعْبَسِ
يَا جَمَالَ الْمَوْكِبِ الْغَادِي - إِذَا	سَارَ فِيهِ - يَا بَهَاءَ الْمَجْلِسِ
أَنْتَ لَمْ يُقْنِعْكَ أَنْ أَلْبَسْتَنِي	نِعْمَةً تُذَكِّرُ عَهْدَ السُّنْدُسِ
فَتَلَطَّفْتَ لِأَنْ حَلَمْتَنِي	مَوْلِيَا طَوْلِي مُحَلَّى مَلْبَسِ

(١) يقول : أم هي لآلى متفة في نظام جامع أنفس الأعلاق وأجلها خطرا .

ذَاكَ تَنْوِيهِ ثَنَانِي فَخَرُهُ سَامِي الْأَحْظِ أَشَمَّ الْمُعْطِسِ
شَرَفَتْ بِكَرِّ الْمَعَالِي خِطْبَةُ مِنْكَ ، فَانْعَمَ بِسُرُورِ الْمُعْرَسِ
تُمْنَحُ التَّائِيدَ يُجَلِّي لَكَ عَنْ ظَفَرِ حُلُوٍ وَعِزِّ أَقْمَسِ
وَأَرْتَشِفَ مَعْسُولَ نَضْرٍ أَشْنَبِ تَجَنَّدِيهِ مِنْ عَجَاجِ الْعَسِ
وَأَرْتَفِقَ بِالسَّعْدِ فِي دَسْتِ الْمَنَى تُصْبِحُ الصَّنْعَ دِهَاقَ الْأَكْوَسِ
فَاعْتَزَّاضُ الدَّهْرِ - فِيمَا شِدَّتُهُ - مُرْتَقَى فِي صَدْرِهِ لَمْ يَهْجِسِ

وقال

« وقد أمره بدخول حمام القصر وبعث إليه بخور وطيب . »

رِضَاكَ لَنَا - قَبْلَ الطَّهْوَرِ - مُطَهَّرُ وَقُرْبُكَ - مِنْ دُونِ الْبُخُورِ - مُعْطَرُ
فَلَوْ عَزَّ حَمَامٌ لَأَذْفَانَا ذَرَى يَفِيضُ بِهِ مَاءُ النَّدَى الْمُتَفَجَّرِ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ طِيبٌ لَأَغْنَتْ حَفَاوَةُ تَمَسُّكَ مِنْهَا حَالِنَا وَتُعْنِيرُ (١)
فَلَا فَارَقَ الدُّنْيَا سَنَاءَهُ مُقَدَّسُ بَعِثِكَ فِيهَا أَوْ ثَنَاءَهُ مُجَمَّرُ (٢)
وَدُمْتَ مُلَقًى - كُلَّ يَوْمٍ - صَبِيحَةَ يُغَادِيكَ فِيهَا - بِالْفُتُوحِ - مَبْشَرُ

وقال

« مجاوباً له عن شعر خاطبه به . »

أُمُورَ لَا يَ بُلَّغْتَ أَقْصَى الْأَمَلِ وَسَوَّغْتَ دَأْبَ نِسَاءِ الْأَجَلِ (٣)

(١) لو لم نجد الطيب لأغتنا عنه حفاوتك التي تعطرنا بالمسك والعنبر .
(٢) السناء : الرقة ، والثناء : المدح ، والمجر العبق ، يقال : حرم ثوبه : بخره ، وجر النار : هياها .
(٣) نساء الأجل : طول العمر

وَعُمِّرْتَ - مَا شِئْتَ - فِي دَوْلَةٍ تَقْصُرُ عَنْهَا طَوَالُ الدُّوَلِ
فَأَنْتَ الَّذِي غُرُّ أَفْعَالِهِ تَحَلَّى بِهَا الدَّهْرُ بَعْدَ الْعَطَلِ
لِشَرَفِ تَمْلُوكِكَ الْمُسْتَرْقَ نَظَمَ مِنْ الْكَلِمِ الْمُتَخَلِّ (١)
وَرَاحُ تَعِيدُ إِلَى مَنْ أَسْنَنَ طِيبَ زَمَانِ الصَّبَا الْمُقْتَبِلِ (٢)
فَأَخْجَلَنِي الْبِرُّ مِنْ فَرْطِهِ وَإِنْ الْجَوَابَ لِيُبْدِيَ الْحَجَلَ
وَقَدْ يَقْبَلُ - الدَّهْرُ - مَوْلَى الْأَنَا مِ جُهْدِ الْعَبِيدِ إِذَا مَا أَقْلَ
سَمِعْتَ كَمَا سَعِدَ الْمُشْتَرَى وَنِلْتَ غَلًّا لَمْ يَنْلَهَا زَحَلُ (٣)

جواب

« وقال مجاوبه أيضا . »

هَلْ يَشْكُرُنَّ « أَبُوالْوَلِيدِ » (٤) إِذْ نَأَى الْأَمَلَ الْبَعِيدَ
أَوْ أَنْ تُسَوِّغَ نِعْمَةً لِلدَّهْرِ أَسْهَرَتْ الْحُسُودَ
إِنْ لَمْ يَدْنِ بِصِيْحَةٍ تُرْضِيكَ فَهُوَ مِنَ الْيَهُودِ
لَا زِلْتَ رَافِعَ رَايَةٍ تُضْجِي، السُّعُودُ لَهَا جُنُودُ

وقال يستهديه خمرأ

يَا بَانِيَا كُلَّ مَجْدٍ وَهَادِمًا كُلَّ وَجْدٍ
جِسْمُ السُّرُورِ سَوَى مِنْ صَوْنِ نِعْمَاكَ عِنْدِي
فَهَبْ لَهُ دُوحَ رَاحٍ يَنْطِقُ بِأَحْقَلِ تَحْمَدٍ

(١) المتخل : النقي التخيير . (٢) وقد جاء بعد هذا البيت قوله :

« أنت مع اسراء ما يقتدى وأغرب باكورة تنقل . »

(٣) المشتري وزحل كوكبان معروفان . قال أبو العلاء :

« زحل أشرف الكواكب دارا من لقاء الردي على ميعاد . »

(٤) يعني نفسه .

وقال مجاباً المعتمد

أَفَاضَ سَمَاحَكَ بِحَرِّ النَّدَى وَأَقْبَسَ هَدْيِكَ نُورَ الْهُدَى
وَرَدَّ الشَّبَابَ أَعْتِلَاكَ بَعْدَ مُفَارَقَتِي ظِلَّهُ الْأَبْرَدَا (١)
وَمَا زَالَ رَأْيِكَ فِي الْجَمِيلِ يَفْتَحُ لِي الْأَمَلَ الْمُوصَدَا (٢)
وَحَسْبِي مِنْ خَالِدِ الْفَخْرِ أَنْ رَضِيتَ قَبُولِي مُسْتَعْبَدَا (٣)
وَيَا فَرَطَ مَا بِي (٤) إِذَا مَا طَلَعْتَ فَقُمْتُ أَقْبَلُ تِلْكَ الْيَدَا
وَرَدَّدْتُ لَحْظِي فِي غُرَّةِ إِذَا أُجْتُلِيَتْ شَفَتِ الْأَرْمَدَا
وَطَاعَةٌ أَمْرِكَ فَرَضٌ أَرَا هُ مِنْ كُلِّ مُفْتَرَضٍ أَوْ كَدَا
هِيَ الشَّرْعُ أَصْبَحَ دِينَ الضَّمِيرِ فَلَوْ قَدْ عَصَاكَ لَقَدْ أَلْهَدَا
وَحَاشَايَ مِنْ أَنْ أَضِلَّ الصِّرَاطَ فَيَعْدُونِي الْكُفْرُ عَمَّا بَدَا (٥)
وَأُخْلِفَ مَوْعِدَ مَنْ لَا أَرَى لِدَهْرِي إِلَّا بِهِ مَوْعِدَا (٦)

(١) يقول : رد على شبابي بعد أن فارقت ظله الأبرد اعتلاقي بأسبابك واتصالي بدولتك .

(٢) وما زال جميل رأيك فيّ يفتح لي من الآمال كل باب مغلق .

(٣) وكفاني نفرا خالداً أنك رضيت قبولي ضمن من استعبدتهم باحسانك ، ومددت عليهم ظلي نصتك الوارف . (٤) في الأصل : « يا فرط باوي . »

(٥) يقول : حاشاي أن أضل الصراط وأرفض أوّل فرض عليّ من طاعتك التي هي الشرع ، ومعتمد الضمير ، فيبعدني الكفر عما بدا لي من صحة الإيمان .

(٦) في الأصل : « وأخلف بالوعد » وهو لا يتعدى بالباء ، فأبدلناه بالموعد ليصح اللفظ ، والسبب في أنه يتصل هنا من خلف الوعد أن « المعتمد » كان قد عرض له سفر فجأة فكتب إلى « ابن زيدون » :

« الْعَيْنُ بِعَدِكَ تَقْدَى بِكُلِّ شَيْءٍ تَرَاهُ »
« فَلْيَجُلْ شَخْصُكَ صَنَاهَا مَا بِالْعَيْبِ جَنَاهَا » .

فعاقت « ابن زيدون » عن الجواب أشغال توالى عليه ، ثم استبطأه « المعتمد » فبحث إليه بالقصيدة

التالية معاتباً :

وَعَدْتَ وَأَخْلَفْتَنِي الْمَوْعِدَا وَخَالَفْتَ بِالنَّهْيِ الْبِتْدَا

أَتَانِي عِتَابُ مَتَى أَدْكِرُ هُفِي نَشَوَاتِ الْكَرَى أَشْهَدَا^(١)
وَإِنْ كَانَ أَغْقَبَهُ مَا أَقْتَضَى شِفَاءَ السَّقَامِ وَتَقَعِ الصَّدَى^(٢)
ثَنَاءُ ثَنَى فِي سَنَاءِ الْمَحَلِّ زُهْرُ الْكَوَاكِبِ لِي حُسْدَا^(٣)
قَرِيضُ مَتَى أَبْغِ لِلْقَرَضِ مِنْهُ أَدَاءُ أَجْدِ شَأْوُهُ أَبْعَدَا
لَوْ الشَّمْسُ مِنْ نَظْمِهِ حُلِمَتْ أَوْ الْبَدْرُ قَامَ لَهُ مُنْشِدَا
لِضَاعَفَ مِنْ شَرَفِ النَّيِّرَيْنِ حِطًّا بِهِ قَارَنَ الْأَسْعَدَا

وَأَطْعَمَنِي ثُمَّ أَبْسَطَنِي وَبَعْنِي الْوَدَّ أَنْ أَحْقِدَا
وَأَضَعَمْتُ بِالْمَطْلِ حِلَّ الرَّجَاءِ فَرْتِ وَأَعْهَدَ مَحْضَدَا
وَعَادَ ضِيَاءُ أَرْتَقِي ظِلَامَا وَأَصْبَحَ مِقْبَاحَهُ أَرْمَدَا
وَكُنْ قِمَامَكَ قَبْلَ الْمَقَالِ فَمَاذَا عَدَا الْآنَ فِيمَا بَدَا
وَقَدْ كَانَ ظَنِّي فِيمَا رَأَيْتُ بِهِ أَنَّهُ الثَّقَى بَلَّ الْيَدَا
وَكَمْ قَدْ تَوَكَّفْتُهَا رَوْضَةً تَقَرَّبَ لِي الْأَمَلُ الْأَبْعَدَا
يَنْوَرُ حُلْمُكَ أَرْجَاءَهَا وَيَقْطُرُ طَبْعُكَ فِيهَا نَدَا
تَوَكَّفْتُهَا زَمَنًا نَاطِرِي إِذَا مَرَّ يَوْمٌ تَمَادَى غَدَا
عَلَى ذَلِكَ أُنْدِيكَ مِنْ مَا جِدَّ تَشَبَّهَ بِالْظَّرْفِ فِيهِ الْهُدَى
خَفِينًا أَزُورُ بِهِ رَوْضَةً وَجِينَا أَحْيَى بِهِ مَسْجِدَا
لَكَ الْعِلْمُ مَهْمَا أُرْدَ بَحْرُهُ لِأَزُورِي بِهِ أَحَدَ الْمُورِدَا
وَفِيكَ تَجَمَّعَتِ الْمَآثِرَا تَنْتَرُّ شَدْلُ الْهُدَى
فَتَعْنِي اللَّهُ بِالْحِطِّ مِنْكَ وَلَا زِلْتِ لِي مُؤَيَّسَرُمَدَا
وَدُمْتَ وَدُمْتَ عَلَى حَالِنَا كَمَا يَصْعَبُ الْفَرْقُ الْفَرْقَدَا
فَلَوْلَاكَ كَانَتْ رُبُوعُ السَّرُورِ رَمْنِي نَجَاوَبَ فِيهَا الصَّدَى

(١) أتاني من قبل المدح عتاب تسبب لي ذكره الأرق والسهد كما رنحتي نشوات الكرى وغشيتي أوائل النوم .

(٢) يقول : أسهنتي وأرتقي هذا العتاب ، وإن كان أغقبه ما اقتضى شفاء القلوب ، وإطفاء وحر الصدور .

(٣) ثناء ومدح رفعت به علي ، فأثنت زهر النجوم تحسني عليه .

فَدَيْتُكَ مَوْلَى: إِذَا مَا عَثَرْتُ أَقَالَ ، وَمَهْمَا أَرِغْ أَرْشَدَا
رَكَنْتُ^(١) إِلَى كَرَمِ الصَّفْحِ مِنْهُ فَأَمَنَنِي ذَاكَ أَنْ يَحْقِدَا
وَأَنْتَ سُوقَ أَحْتِمَالٍ أَبَى لِمُسْتَبْضِعِ الْعُذْرَانِ يَكْسِدَا^(٢)
شَفِيعِي إِلَيْهِ هَوَى مُخْلِصٍ كَمَا أَخْلَصَ السَّابِكُ الْعَسْجَدَا
وَمِنْ وَصَلِي هِجْرَةٍ لَا أَعُدُّ لِحَالِي سِوَى يَوْمِهَا مَوْلِدَا^(٣)
وَنُعْمَى تَقْيَّاتُهَا أَيْكَةً فَشَكْرِي حَمَامٍ بِهَا غَرَدَا
تَبَارَكَ مَنْ جَمَعَ الْخَيْرَ فِيكَ وَأَشْعَرَكَ الْخُلُقَ الْأَعْجَدَا
مَضَاهُ الْجَنَانَ وَظَرْفُ اللِّسَانِ وَجُودُ الْبَنَانِ بِسَكَبِ الْجَدَا
رَأَى شَيْمَتِيكَ لَمَّا تَسْتَحِقُّ وَقَفَى فَأَظْفَرَ إِذْ أَيْدَا
لِيَهْنِكَ أَنْتَ أَزْكَى الْمُلُوكِ بِنَى وَأَشْرَفُهُمْ سُودَدَا
سِوَى نَاجِلٍ لَكَ سَامِي الْهُمُ مَدَانِي الْفَوَاضِلِ نَائِي الْمَدَى^(٤)
هُمَامٌ أَغْرُ رَوَيْتَ الْفَخَارَ حَدِيثًا إِلَى سَرُوهِ مُسْنَدَا^(٥)

- (١) في الأصل « وكنت » وقد وضعنا بدلها « ركنت » التي هي كصورتها في الخط ليستقيم المعنى .
(٢) المستبضع: اسم فاعل من استبضع الشيء، جعله بضاعة، والبضاعة طائفة من المال ترسل إلى الأسواق للتجارة، يقول: إن احتماله وإغضائه عن الهفوات بمثابة سوق تأبى لمن استبضع إليها الأعداء أن تكسد بضاعته، وهو مأخوذ من المثل: « كمستبضع التمر إلى هجر . »
(٣) الوصل: جمع وصلة بمعنى الاتصال والاسباب والذرائع، يقول: ومن أسباب اتصالى به وذرائعى إليه هجرة فارقت فيها موطنى، واتصلت على أثرها بدولته، واعتلفت بحبله وذمته، تلك الهجرة التي لأعد أن حالى استقرت وولدت، إلا يوم أن حصلت وتمت .
(٤) الناجل: الكريم النجل، يقول: ليس في الملوك أزكى منك سوى والدك الذى نجلك وأنجلك .
(٥) يقول: إن أباك همام أغرم مشرق الوجه، رويت عنه الفخار حديثاً مسنداً إلى سروره ومجده ونبله .

سَلَكْتَ إِلَى الْمَجْدِ مِنْهَاجَهُ فَقَدْ طَافَ الْأَطْرَفَ الْأَتْلَدَا (١)
 هُوَ اللَّيْتُ قَلَدَ مِنْكَ النَّجَادَ لِيَوْمِ الْوَعَى شِبْلَهُ الْأَنْجَدَا (٢)
 يُعِدُّكَ صَارِمَ عَزَمٍ وَرَأَى فَرَضِيهِ جُرْدَ أَوْ أُغْمِدَا (٣)
 وَمَا اسْتَبَنَهُمُ الْقُفْلُ فِي الْحَادِثَا تِ إِلَّا رَاكَ لَهُ مِقْلَدَا (٤)
 فَأَمْطَاكَ مِنْكَبِ طَرْفِ النُّجُومِ وَأَوْطَا إِنْخَصَاكَ الْفَرْقَدَا
 فَلَا زِلْثَمَا يَرْفَعُ الْأَوَّلِيَا ، مُلْكُكُمْ مَا وَيَحْطُ الْعِدَا
 وَنَفْسِي لِنَفْسَيْكُمْمَا الْبَرَّتَيْنِ مِنْ كُلِّ مَا يُتَوَقَّى الْفِدَا
 فَنَ قَالَ : أَنْ لَسْتُمَا أَوْحَدَيْنِ فِي الصَّالِحَاتِ فَمَا وَحْدَا (٥)

وقال

لَعَمْرِي لَنْ قَلْتُ إِلَيْكَ رَسَائِلِي لِأَنْتَ الَّذِي نَفْسِي عَلَيْهِ تَذُوبُ
 فَلَا تَحْسَبُوا أَنِّي تَبَدَّلْتُ غَيْرَكُمْ وَلَا أَنَّ قَلْبِي مِنْ هَوَاكِ يَتُوبُ

وقال

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَصَادِفُ خُلُوءَ لَدَيْكَ ، فَأَشْكُو بَعْضَ مَا أَنَا وَاجِدُ
 رَعَى اللَّهِ يَوْمًا فِيهِ أَشْكُو صَبَابَتِي وَأَجْفَانُ عَيْنِي - بِالْذُّمُوعِ - شَوَاهِدُ

- (١) الأطرف : الحديث ، والأتلد : القديم .
 (٢) النجاد : حائل السيف ، والأنجد : الشجاع ذو النجدة والبأس ، يقول : هو أى والدك الملك ليث
 قلد شبله الأنجد الشجاع السيف ليوم الوعى والحرب .
 (٣) صارك صارم عزم وحزم في الحرب والسياسة ، فترضيه في الحالين : جرد السيف ، أو أغمد .
 (٤) استنق : استنق ، والقفل : ما ينق به الباب ، والمقلد : المفتاح ، يقول : لاستنق الحادثات
 إلا رآك مقلداً لأفعالها المقلقة ، وفي الأصل : « الفعل » فوضعنا مكانها « القفل » ليناسب
 الاستبهاً والمقلد .
 (٥) يقول : أن من ينكر أنكاد في البر والصالحات أو حدين قد بلغ في الجحد والانكار مبلغ من ينكر
 التوحيد ولا يقول بوحداية الله .

تهنئة

« وقال رحمه الله يهنئه أيده الله بالقدوم من سفر . »

أَيْهَا الظَّافِرُ أَبْشِرْ بِالظَّفَرِ وَأُجْتَلِ التَّأْيِيدَ فِي أَبْهَى الصُّورِ
وَتَفِيًّا ظِلَّ سَعْدٍ تَجْتَنِي فِيهِ مِنْ غَرَسِ الْمُنَى أَحْلَى الشَّمَرِ
وَرِدِ الصَّبْحَ فَكَمْ مُسْتَوْحِشٍ غَرَضٍ ^(١) مِنْكَ إِلَى أَنْسِ الصَّدْرِ
كَانَ مِنْ قُرْبِكَ فِي عَيْشٍ نَدٍ عَطِرِ الْأَصَالِ وَضَاحِ الْبُكْرِ
كُلَّمَا شَاءَ تَأْتَى أَنْ يَرَى خُلُقَ الْبَرَجِيسِ ^(٢) فِي خَلْقِ الْقَمَرِ

(١) غرض : رصف من الغرض (حركة) وهو شدة النزاع نحو الشئ ، والشوق إليه يقال : غرض إلى لقائه فهو غرض اشتاق ، ومنه قول الشاعر :

فَنَ يَكْ لَمْ يَغْضُ فَنَاقِي وَنَاقِي بِمَجْرٍ إِلَى أَهْلِ الْجَمَى غَرْضَانِ
مَحْنُ فَنَبْدَى مَا بَهَا مِنْ صَبَابَةٍ وَأَخْفَى الَّذِي لَوْلَا الْأَسَى لَقَضَانِ

وفي الأصل : « عرض » .

(٢) البرجيس

البرجيس : المشتري وهو أحد الدراري الخمسة : المشتري ، وزحل ، والمريخ ، وعطارد ، والزهرة ، وهذه الكواكب الخمسة هي الجنس الكنسي المذكورة في قوله تعالى : « فلا أقسم بالجنس الجوار الكنسي . » قالوا : وإنما وصفت بما ذكر في الآية لأنها من الكواكب السيارة التي تجرى مع الشمس والقمر ، وخنوسها رجوعها مزمرة بعد اختفائها في ضوء الشمس ، ولذلك تسمى الرواجع ، وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس من كنس الظبي والوحش إذا دخل كناسه ، وفي النهاية لابن الأثير من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، « أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سئل عن الكواكب الخمس فقال هي البرجيس وزحل وعطارد وبهرام والزهرة ، البرجيس : المشتري ، وبهرام : المريخ . »
والبرجيس : لفظة فارسية تدلّ على « المشتري » وهو كوكب معروف تطلق عليه الفرنجة اسم « جوبيتر » Jupiter وهو - في أساطير قدماء الرومان واليونان ، اله الآلهة ، المهيمن على كل الكائنات العلوية والسفلية ، قالوا : « وإنما سمي المشتري - من الشراء ، وهو الوضوح لضياء لونه وصفائه . » قال الشاعر :

« يَا رَبَّ لَيْلٍ بَتَ أَرْمَى نَجْمِهِ - حَقِّ الصَّبَاحِ - بِزَفْرَةٍ وَعَوِيلِ
وَالْمَشْتَرَى - فِي الْأَفْقِ - يَخْفِقُ لَامِعًا كَقَمِّ الْحَبِيبِ بِشِعْرِ بِالْقَبِيلِ . »

فَتَوَى دُونَكَ مَتَوَى قَلِقِ يَشْتَكِي مِنْ لَيْلِهِ مَظَلَّ السَّحَرِ
 قُلْ لِسَاقِينَا : « يَحْزُ أْ كَوْسُهُ » وَلِشَادِينَا : « يَصِلْ قَطْعَ الْوَتَرِ »
 حَسْبُنَا سُكْرُ جَنَّتِهِ ذِكْرُهُ دُونَهُ الشُّكْرُ الَّذِي يَحْنِي السَّكْرُ (١)
 لَمْ يُغَادِرْ لِي سَقَامِي جَلَدًا مَعَ أَنِّي لَمْ أَزَلْ ثَبَتَ الْمِرْرُ (٢)
 أَيُّهَا الْمَاشِي الْبَرَّازَ الْمُنْجَبِرِي لَزَمَانِي إِنْ مَشَى نَحْوِي الْخَمَرُ (٣)
 وَالَّذِي إِنْ سِيمَ مَا فَوْقَ الرِّضَى وَجِدَ الْأَلْوَى الْبَعِيدَ الْمُسْتَمِرَّ (٤)
 وَإِذَا أُعْتَبَ فِي مَعْتَبَةٍ لَأَنَّ مِنْهُ جَانِبُ السَّمْعِ الْبَسَرِ
 نَظْمِي الْمُهْدَى إِلَى أَبْرَجِ مَنْ نَظَّمَ السَّحَرُ بَيَانًا أَوْ نَثَرَ

(١) السكر : النِّء غير المطبوخ من ماء التمر المشد ، والشراب المتخذ من التمر نوتان : ما يسيل من التمر حين يكون رطباً فاذا اشتد سمي سكراً ، وما يفيض أى يشق من التمر ثم يقع في الماء ليستخرج الماء حلاوته ثم يترك حتى يشتد وتذهب حلاوته ويسمى فضيخاً وكلاهما مسكر . وقد ورد ذكر السكر في قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً . » ، ومعنى هذا البيت والذي قبله : قل لساقينا : نَحْ كَوْسِكَ عِنَّا فَقَدْ أَغْنَانَا السَّكْرَ الَّذِي تُحْدِثُهُ الذِّكْرُ ، عن السكر الذى يجنيه السكر ، وقل لشاديننا : صل قطع الوتر والفناء ، فبما حلا في السمع من ذكره الكفاية والفناء .

(٢) ثبت : ثابت ، والمرر : جمع مره (بالسكر) وهى القوة والشدة أى لم يغادر لى السقام جلدا وصبرا مع أنى لم أزل ذا مرة قويا ، وورد هذا البيت فى الأصل هكذا :

لم يغادر لى شفا من جلد مع أنى لم أزل ثبت الغرر
 وما أثبتناه من الاصلاح هو ما يرشد اليه السياق .

(٣) البراز : المنسج من الأرض الذى ليس به ما يستره من شجر أو غيره ، والخمر : ما يستر الماشى أو الصيد من شجر أو جرف أو جبل رمل أو غير ذلك ، يقول : يا من يدافع عني إذا رأى زمانى مشى إلى متكررا يريد ختلى وأخذى على غره . (٤) الألوى : الشديدة الخصومة الجدل السليط ، والمستمر : من استمر استحكم مصدر ميمي يعنى أنه بعيد شأوا الخصومة ، وفى المثل : « لتجدن فلانا ألوى بعيد المستمر . » وقد جاء هذا المثل فى قول الراجز :

« إذا تحازرت وما بى من خزر ثم كسرت الطرف من غير عور

وجدتنى ألوى بعيد المستمر أحمل ما حملت من خير وشر . »

أى وجدتنى خصما سليط اللسان بعيد شأوا الخصومة .

لِي فِيهِ الْمَثَلُ السَّائِرُ عَنْ جَالِبِ الثَّمَرِ إِلَى أَرْضِ هَجَرَ
فَإِنْ أَنْ الْعُذْرَ رَسْمٌ وَاصِحٌ تُنْفَتِ الشُّكُورَى إِذَا الشَّوْقُ صَدَرَ^(١)
ثُمَّ قَدْ وَفَّقَ عَبْدُهُ عَظُمْتَ نِعْمَةُ الْمَوْلَى عَلَيْهِ فَشَكَرَ
لَا عَدَا حَظَّكَ إِقْبَالَ تَرَى قَاصِيًا أَثْنَاءَهُ كُلَّ وَطَرٍ
وَأَصْطَبَحَ كَأْسَ الرِّضَى مِنْ مَلِكٍ سِرَّتَ فِي إِرْضَائِهِ أَزْكَى السَّيَرِ
حِينَ صَمَمْتَ إِلَى أَعْدَائِهِ فَأَنْتَحَتَهُمْ مِنْكَ صَمَامُ الْغَيْرِ
فَاضْ غَمْرُكَ لِلنَّدَى مِنْ قَوْعِهِمْ كَانَ يُرْوَى شُرْبُهُمْ مِنْهُ الْغَمْرُ^(٢)
سَبَقَ النَّاسَ فَصَلَّى مِنْكَ مَنْ إِنْ رَأَى آثَارَهُ الزُّهْرَ اقْتَفَرَ^(٣)
زِنْتَمَا الْأَيَّامَ إِذْ مُلْكُكُمْ سَالَ فِي أَوْجُهَا سَيْلَ الْغُرَرِ
فَاقْبِيَا فِي دَوْلَةٍ قَادِرَةٍ بَعْضُ حُرَّاسِ نَوَاحِيهَا الْقَدَرِ
مُسْتَدَلِّي مَنْ طَغَى مُسْتَأْصِلَ شَافَةَ الْبَاغِي مُقِيلَ مَنْ عَثَرَ
عَلَمِي مَنْ صَلَّ مُزْنِي مَنْ شَكَا خَلَّةَ الْإِحْمَالِ بِدَرِي مَنْ نَظَرَ
تَضْحَكُ الْأَزْمُنُ عَنْ عَلِيَا كَمَا ضَحِكَ الرَّوَضَةُ عَنْ ثَغْرِ الزُّهْرِ

(١) صدر : أصاب الصدر ، يقال : صدر فلان فلانا يصدره صدرا (من باب نصر) أصاب صدره .

(٢) الغمر : قدح صغير يتصافن به القوم في السفر إذا قل الماء ولم يكن معهم منه إلا اليسير ، والتصافن أن يلتقوا فيه حصة ثم يصب فيه من الماء قدر ما يغمر الحصة ، ثم يعطى الاناء كل رجل منهم بحسب دوره وجاء في شعر أعتى بأهله : -

« يكفيه حزة فلذ إن ألم بها من الشواء ويروى شربه الغمر »

(٣) اقتفر - من اقتفر الأثر - اقتفاه وتبعه ، والمعنى : « سبق أبوك لجمك مصليا وتاليا بعده أنت يامن

يقتنى آثار أبيه الزهر .

ذكرى ولادة

« كان يكلف بولادة بنت المهدي هذه وبهيم ،
ويستضيء بنور تخيلها في الليل البهيم ، وكانت من
الأدب والظرف ، وتقيم المسمع والظرف ، بحيث تختلس
القلوب والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب ،
فلما حل بذلك القرب ، وانحل عقد صبره بيد الكرب ،
كر إلى الزهراء ليتوارى في نواحيها ، ويتسلى بروية
ما فيها ، فوافاها والربيع قد خلع عليها برده ، ونثر
سوسنه وورده ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها ، فارتاح
ارتياح جيل بوادي القرى ، وراح بين روض يانع
وريح طيبة السرى ، فقتشوق إلى لقاء ولادة وحن ،
وخاف تلك النوائب والحن ، فكتب إليها يصف فرط
قلقه ، وضيق أمله إليها وطلقه ، ويعاتبها على إغفال
تعهد ، ويصف حسن محضره بها ومشهده (١) : »

إِنِّي ذَكَرْتُكَ « بِالزَّهْرَاءِ » مُشْتَقًا
وَاللَّيْسِمِ اُعْتِلَالٌ - فِي أَصَائِلِهِ -
وَالرَّوْضُ - عَنِ مَائِهِ الْفِضْي - مُبْتَسِمٌ ،
يَوْمٌ ، كَأَيَّامِ لَذَاتِ لَنَا أَنْصَرَمَتْ ،
نَلْهُو بِمَا يَسْتَمِيلُ الْعَيْنَ مِنْ زَهَرٍ -
وَالْأَفْقُ طَلَقٌ ، وَمَرَأَى الْأَرْضِ قَدْ رَاقَا (٢)
كَأَنَّهُ رَقٌّ لِي ، فَأَعْتَلَّ إِشْفَاقًا
كَمَا شَقَقْتَ - عَنِ اللَّبَاتِ - أَطْوَا (٣)
بِتَنَا لَهَا - حِينَ نَامَ الدَّهْرُ - سُرَاقَا
- جَالَ النَّدَى فِيهِ - حَتَّى مَالَ أَغْنَاقَا

(١) قلائد العقيان . (٢) وفي بعض الروايات : « ووجه الأرض قد راقا » .

(٣) اللبات : جمع لبة ، وهي موضع القلادة من الصدر ، والأطواق : جمع طوق ، وأراد به ما يطيف
بالعنق من الثوب ، ولا شك أن الهيئة الحاصلة من انسياب الماء الفضي في الروض تشبه الهيئة الحاصلة من
انشقاق طوق الثوب عند تراثب النحر والصدر ، وجاء في بعض الروايات : « كما حلت عن اللبات أطواقا » .

كَانَ أَعْيُنُهُ - إِذْ عَايَنْتَ أَرْقِي - بَكَتْ لِمَا بَنِي ، فَجَالَ الدَّمْعُ رَقَرَا
وَرَدُّ تَأَلَّقَ - فِي صَاحِي مَنَابِتِهِ - فَأَزْدَادَ مِنْهُ الضُّحَى - فِي الْعَيْنِ - إِشْرَا
سَرَى يُنَافِحُهُ نِيلُوفَرُ عَيْقُ كُلُّ يَبِيجُ لَنَا ذِكْرِي تُشَوِّقُنَا
لَا مَسْكَنَ اللَّهُ قَلْبًا ، عَنْ ذِكْرِكُمْ لَوْ شَاءَ حَمَلِي نَسِيمُ الصَّبْحِ - حِينَ سَرَى -
لَوْ كَانَ وَفَى الْمَنَى - فِي جَمْعِنَا بِكُمْ - وَلَمْ يَطِرْ - بِجَنَاحِ الشَّوْقِ - خَفَاقَا
وَأَفَاكُمُ بَفَتَى أَضْنَاهُ مَا لَاقَى لَكَ كَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْأَيَّامِ أَخْلَاقَا

* *

يَا عَلِيَّ الْأَخْطَرَ الْأَسْنَى الْحَبِيبَ إِلَى نَفْسِي ، إِذَا مَا أَقْتَتِي الْأَحْبَابُ أَغْلَاقَا
كَانَ التَّجَارِي بِمَحْضِ الْوُدِّ - مُذْرَمِينَ - مَيْدَانِ أَنْسٍ ، جَرَيْنَا فِيهِ أَطْلَاقَا
فَالآنَ - أَحْمَدَ مَا كُنَّا لِعَهْدِكُمْ - سَلَوْتُمْ ، وَبَقِينَا نَحْنُ عُشَاقَا !

إلى ولادة

يَا نَازِحًا - وَضَمِيرُ الْقَلْبِ مَثْوَاهُ - أَنْسَتِكَ دُنْيَاكَ عَبْدًا أَنْتَ دُنْيَاهُ
أَهْتَكَ عَنْهُ فُكَاهَاتُ تَلَذُّ بِهَا فَلَبَسَ يَجْرِي - بِبَالٍ مِنْكَ - ذِكْرَاهُ
عَلَّ اللَّيَالِي تُبْقِيَنِي إِلَى أَمَلٍ ، الدَّهْرُ يَعْلَمُ وَالْأَيَّامُ مَعْنَاهُ

إلى أبي حفص بن برد

قُلْ لِأَبِي حَفْصٍ - وَلَمْ تَكْذِبْ - يَا قَمَرَ الدِّيَّوَانِ وَالْمَوْكِبِ :
مَا لِأَبِي صَفْوَانَ - مَا لَوْفِنَا - أَبْرَقَ فِي الْأُلْفَةِ عَنْ خُلْبٍ ؟
وَلَمْ يَعُدْ إِلَّا كَمَا يَتَّقِي مُسْتَرَقُّ السَّمْعِ مِنَ الْكُؤُكِبِ ؟

* *

عَفْهُ بِاللَّهِ عَلَى فِعْلِهِ ، وَأَشْتَمَ - وَإِنْ لَمْ يَسْتَقِمْ - فَاضْرِبْ
وَعَاطِهِ صَهْبَاءَ مَشْمُولَةٍ يَرَى هَلَّ الْمَشْرِقِ فِي الْمَغْرِبِ
وَلَيْشْرَبِ إِلَّا كَثَرًا مِنْ كَأْسِهِ وَأَعْمَدُ - إِلَى فَضْلَتِهِ - فَاشْرَبْ
عُقُوبَةً ، أَحْسِنَ بِهَا سُنَّةً - فِي مِثْلِهِ - مِنْ حَسَنِ مُذْنِبِ
وَبَاكِراً الطَّيِّبَ ، وَرُوحَالَهُ ، فَأَنْثَمَا فِي زَمَنِ طَيِّبِ

ليل انس

« وبات ليلة باحدى جنات اشبيلية فقال : »

وَلَيْلٍ أَدْمَنَّا فِيهِ شُرْبَ مُدَامَةٍ إِلَى أَنْ بَدَا لِلصُّبْحِ - فِي اللَّيْلِ - تَأْمِيرُ
وَجَاءَتْ نُجُومُ الصُّبْحِ - تَضْرِبُ فِي الدُّجَا - فَوَلَّتْ نُجُومُ اللَّيْلِ ، وَالْأَيْلُ مَقْهُورُ
فَحَزْنَا مِنْ اللَّذَاتِ أَطْيَبَ طَيْبِهَا ، وَلَمْ يَعْمُرْنَا هَمٌّ وَلَا عَاقَ تَكْدِيرُ
خَلَا أَنَّهُ - لَوْ طَالَ - دَامَتْ مَسَرَّتِي ، وَلَكِنْ لِيَاكِلِي الْوَصْلِ فِيهِنَّ تَقْصِيرُ

دواء

« وقد أهدى دواء »

قَدْ بَعَثْنَاهُ يَنْفَعُ الْأَعْضَاءَ حِينَ يَجْلُو - بِلُطْفِهِ - السَّخْنَاءُ^(١)
جَاءَ يُزْهِى بِمُسْتَشْفٍ رَفِيقٍ يَخْدَعُ الْعَيْنَ رَقَّةً وَصَفَاءً^(٢)
تَنْفُذُ الْعَيْنُ مِنْهُ فِي ظَرْفِ نُورٍ مَلَأَتْهُ أَيْدِي الشُّمُوسِ ضِيَاءَ
أَكْسَبَتْهُ الْأَيَّامُ بَرْدَ هَوَاءٍ فَهَوَ جِسْمٌ قَدْ صِيغَ نَارًا وَمَاءَ
مَنْظَرُ يُهَيِّجُ الْقُلُوبَ ، وَطَعْمُ تَشْكُرُ النَّفْسُ عَهْدَهُ أُسْتَمْرَاءَ
لَذَّةُ الْوَصْلِ نَالَهُ - بَعْدَ يَأْسٍ - كَلِفٌ طَالَمَا تَشَكَّى الْجَفَاءَ^(٣)
يَفْضَحُ الشَّهْدَ طَعْمُهُ - كُلَّمَا قِيدَ سَ - إِلَيْهِ وَيُخْجِلُ الصَّهْبَاءَ
فَضَلَ السَّابِقَ الْمُقَدَّمَ - فِي النُّضْجِ - فَازَرَى بِطَعْمِهِ إِزْرَاءَ
غَيْرَ أَنِّي بَعَثْتُ هَذَا غِذَاءَ - يَشْتَهِيهِ الْفَتَى - وَذَلِكَ دَوَاءُ
مُلْطَفٌ يُبْرِدُ الْمَزَاجَ إِذَا جَا شَ التَّهَابَا ، وَيَقْمَعُ الصَّفْرَاءَ

(١) بعثناه : أى الدواء المجهود بينه وبين مخاطبه ، ومعلوم أن الطب وعلم الكيمياء وتركيب الأدوية والصيدلة والجراحة تقدمت في الأندلس وبخاصة في القرون الوسطى وعند علماء الأندلس كابن رشد ، وأبي القاسم الزهراوى ، وابن زهر ، وأضرابهم من علماء المشرق ببغداد : كابن سينا والرازى ، وعلى ابن العباس أخذ علماء أوروبا علومهم الطبية وغيرها ، وقد مرّ بك كثير من قصائد ابن زيدون التى تعرض لذكر الطب والعلاج ، وأنت إذا تأملت فيما يمرّ بك من هذا النوع وأشباعه تقرأ فيه آيات الحضارة ، وتشمع بأثار المدنية . والسخنة : من قولهم : لى لأجد فى نفسى سخنة - بالمد - وسخونة أى حرارة شديدة من وجع أو حمى .

(٢) يقول : إن هذا الدواء قد جاءك يزهى فى رفته وسيولته بواء رفيق تستشف العين ما فى داخله ، وينخدع الناظر فلا يكاد يراه لشدة رفته وصلاته .

(٣) يقول : إن متاعيه يستمره ويجد فيه لذة كلذة الكلف المشوق ، ظفر بوصل الحبيب بعد يأس وطول جفاء .

وَمُعِينٌ لِّوَاصِلِ الصَّوْمِ، يَسْرِي بَرْدُهُ فِي الْحَشَا - فَيُرْوَى الظَّمَاءُ
(فَتَقَبَّلَهُ) شَافِعًا لِأَيَادِيكَ الَّتِي بَعْضُهَا يَفُوتُ الثَّنَاءُ ^(١)

حسي رضاك

إِلَيْكَ - مِنَ الْأَنَامِ - غَدَا أَرْتِيحِي ، وَأَنْتِ - عَلَى الزَّمَانِ - مَدَى أَقْبِرَاحِي
وَمَا أَغْتَرَضْتَ مُهُومُ النَّفْسِ إِلَّا - وَمِنْ ذِكْرِكَ - رِيحَانِي وَرَاحِي
فَدَيْتُكَ : إِنْ صَبْرِي عَنْكَ صَبْرِي - لَدَى عَطَشِي - عَلَى الْمَاءِ الْقَرَّاحِ ^(٢)
وَلِي أَمَلٌ - لَوْ الْوَاشُونَ كَفَّوْا - لَا طَلَعَ غَرْسُهُ ثَمَرَ النَّجَاحِ
وَأَعْجَبُ كَيْفَ يَغْلِبُنِي عَدُوٌّ - رِضَاكَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْضَى سِلَاحِ
وَلَمَّا أَنْ جَلَّتْكَ لِي - اخْتِلَاسًا - أَكْفُ الدَّهْرِ لِلْحَيْنِ الْمُتَاحِ ^(٣)
رَأَيْتُ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ نِقَابٍ ، وَغُصْنُ الْبَانِ يَرْفُلُ فِي وَشَاحٍ
فَلَوْ أَسْطِيعُ طَرْتُ إِلَيْكَ - شَوْقًا - وَكَيْفَ يَطِيرُ مَقْصُوصُ الْجَنَاحِ ؟
عَلَى حَالِي وَصَالٍ وَأَجْتَنَابٍ ، وَفِي يَوْمِي دُنُوٌّ وَأَنْتِرَاحٍ
وَحَسْبِي أَنْ تَطَالَعَكَ الْأُمَانِي - بِأَفْقِكَ - فِي مَسَاءٍ أَوْ صَبَاحٍ -

(١) وجد هذا البيت في الأصل ناقصاً هكذا :

« شافعا لأيدائك التي بعضها يفوت الثناء . »

والتكلمة لا ياباها السياق .

(٢) يقول : إن صبري عنك كصبري على الماء القراح لدى عطشي وشدة ظمئي .

(٣) يقول في هذا البيت والذي بعمده : ولما أن جلتك وأبرزتك يد الدهر خلسة لحيي وهلاكي الذي أتبع وقد رلى ، طلعت سافرة كما تطلع الشمس من نقاب ، وخطرت مائدة كما يرفل غصن البان في وشاح .

وَأَنْ تُهْدِيَ السَّلَامَ إِلَيَّ - غِيًّا - وَلَوْ فِي بَعْضِ أَنْفَاسِ الرِّيحِ (١)
فُوَادِي - مِنْ أَسَى بِكَ - غَيْرُ خَالٍ وَقَلْبِي - عَنْ هَوَى لَكَ - غَيْرُ صَاحٍ

عودى إلى الوصال

بَاعَدْتَ - بِالْإِعْرَاضِ - غَيْرَ مُبَاعِدٍ وَزَهَدْتَ فِيمَنْ لَيْسَ فَيْكَ بِزَاهِدٍ (٢)
وَسَقَيْتَنِي - مِنْ مَاءِ هَجْرِكَ - مَالَهُ أَصْبَحْتُ أَشْرَقُ بِالزُّلَالِ الْبَارِدِ
هَلَّا جَعَلْتَ - فَدَتِكَ نَفْسِي - غَايَةً لِلْعُتْبِ ، أَبْلُغُهَا بِجَهْدِ الْجَاهِدِ (٣)
لَا تُفْسِدَنَّ - مَا قَدْ تَأَكَّدَ يَنْتَنَا مِنْ صَالِحٍ - خَطَرَاتُ ظَنِّ فَاسِدٍ
حَاشَاكَ مِنْ تَضْيِيعِ أَلْفِ وَسِيلَةٍ - شَجَى الْعَدُوِّ لَهَا - بِذَنْبٍ وَاحِدٍ (٤)
إِنْ أَجْنِهَ خَطَأً ، فَقَدْ عَاقَبْتَنِي ظُلْمًا ، بِأَبْلَغَ مِنْ عِقَابِ الْعَامِدِ (٥)

* *

عُودِي لِمَا أَصْفَيْتَنِيهِ مِنَ الْهُوَى بَدَأًا ، فَلَسْتُ لِمَا كَرِهْتُ - بِعَائِدٍ
وَضَعِي قِنَاعَ السُّخْطِ عَنْ وَجْهِ الرِّضَا كَيْمَا أُخِرَّ إِلَيْهِ أَوَّلَ سَاجِدٍ (٦)

(١) وحسبي أن تبمثنى بالسَّلام غيا أى يوما بعد يوم ولو مع أنفاس الرياح التى تهب من ناحيتك ، وفى الأصل « وأن تهدي » وقد وضعنا بدلها « تهدي » التى هى كصورتها حتى لا تكون نائية فى موضعها ، وقد وجد هذا البيت بعد تأليه ، ولكننا آثرنا تقديمه عليه بحكم المطف على قوله :

« وحسبي أن تطالملك الأمانى . »

(٢) باعدت فتى غير مباعد وذلك بأعراضك عنه ، وزهدت فى محب ليس فيك بزاهد .

(٣) يقول كان يبتغى أن يجعل بينى وبينك نهاية للعتب وغاية أبلغ فيها رضاك بجهد الجاهد وشق النفس .

(٤) يقول : حاشاك أن تضيع ألف وسيلة توسلت بها إلى رضاك يراها عدوى كالمشجأ معترضا فى

حلقه بذنب واحد .

(٥) إن أجن ذلك الذنب خطأ فقد ظلمتني بأن طاقبتني عليه بأشد من أتى بالذنب عمدا .

(٦) أزيل عني وجه الرضا ما يستره من قناع السخط كيما أكون أول ساجد على نعمة رضاك هني .

أبو القاسم

« وأمره المعتضد أن يعارض قطعاً من أشعار كان
يستحسن ألحانها فعارضها رجه الله بقطع وهي : »

يُقَصِّرُ قُرْبُكَ لَيْلِي^(١) الطَّوِيلَا وَيَشْفِي وَصَالِكَ تَلْهِي الْعَلِيلَا
وَإِنْ عَصَفَتْ مِنْكَ رِيحُ الصَّدُودِ فَقَدْتُ نَسِيمَ الْحَيَاةِ الْبَلِيلَا
كَمَا أَنَّنِي^(٢) إِنْ أَطْلَتُ الْعِمَارَ وَلَمْ يُبْدِ عُدْرِي وَجْهًا جَمِيلَا
وَجَدْتُ « أبا القاسم الظَّافِرَ الْمُؤَيَّدَ بِاللَّهِ » مَوْلى مُقِيلَا
إِذَا مَا نَدَاهُ هَمَى وَالْحَيَا شَاهُ ، وَعُدَّ الْجَوَادُ الْبَعِيلَا
وَأَقْلَامُهُ وَفَقُّ أَسْيَافِهِ يَظَلُّ الصَّرِيرُ يُبَارِي الصَّلِيلَا

وقال

أَنْتَ الْمُسَبَّبُ لِلْوُلُوعِ وَمُثِيرُ كَامِنَةِ الدُّمُوعِ
يَتَمَنَّى لَوْ أَعْفَا - مَهْمَا طَلَعَتْ - مِنَ الطَّلُوعِ
وَالظَّافِرُ الْمَلِكُ الْمُؤَيَّدُ وَاحِدُهُ عَدْلُ الْجُمُوعِ
الْبَدْرُ فِي سَحْبِ الْبُرِّ وَدِ اللَّيْثُ فِي لَبَدِ الدُّرُوعِ
عَنْتِ الْأُصُولُ لِأَصْلِهِ وَتَقَاصَرَتْ عَنْهُ الْفُرُوعُ

(١) في الأصل : « الليل »

(٢) في الأصل : « أنى »

آلام المحب

مَتَى أَبْثُكَ ^(١) مَا بِي ؟ يَا رَاحَتِي وَعَذَابِي
مَتَى يَنْوُبُ لِسَانِي - فِي شَرْحِهِ - عَنْ كِتَابِي ؟
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي أَصْبَحْتُ فِيكَ لِمَا بِي
فَلَا يَطِيبُ ^(٢) مَنَامِي وَلَا يَسُوغُ شَرَابِي

* *

يَا فِتْنَةَ الْمُنْعَرِي ^(٣) وَحُجَّةَ الْمُتَصَائِبِ :
الشَّمْسُ أَنْتِ، تَوَارَتْ - عَنْ نَاطِرِي - بِالْحِجَابِ

* *

مَا الْبَدْرُ - شَفَّ سَنَاهُ عَلَى رَقِيقِ السَّحَابِ -
إِلَّا كَوَجْهِكَ ، لَمَّا أَضَاءَ تَحْتَ النَّقَابِ

كيف السلو ؟

كَمْ ذَا أُرِيدُ وَلَا أُرَادُ ؟ يَا سَوْءَ مَا لَقِيَ الْفُؤَادُ !
أُضْنِي الْوِدَادَ مُدَلَّلًا ، لَمْ يَصْفُ لِي مِنْهُ الْوِدَادُ
يَقْضِي عَلَى دَلَالِهِ - فِي كُلِّ حِينٍ - أَوْ يَكَادُ
كَيْفَ السُّلُو عَنْ الَّذِي مَثَوَاهُ - مِنْ قَلْبِي - السَّوَادُ ؟

(١) وفي بعض الروايات : « متى أتيتك . »

(٢) وفي بعض الروايات : « لم يلد منامي »

(٣) وفي الاصل : « يا فتنة المنعري »

مَلَكَ الْقُلُوبَ بِحُسْنِهِ ، فَلَهَا - إِذَا أَمَرَ - أَنْفِيَادُ

يَا هَاجِرِي كَمْ ^{***} أَسْتَفِيدُ الصَّبْرَ عَنْكَ ، فَلَا أَفَادُ
 أَلَا ^(١) رَيْتَ لِمَنْ يَبِيتُ وَحْشُو مُقْلَتِهِ الشَّهَادُ ؟
 إِنْ أَجْنِ ذَنْبًا فِي الْهَوَى - خَطَأً - فَقَدْ يَكْبُو الْجَوَادُ
 كَانَ الرِّضَى - وَأَعِيدُهُ - أَنْ يُعْقِبَ الْكَوْنُ الْفَسَادُ

قسم

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ مَنْ أَصْنَى الْوَدَادَ لَهُ
 الْفُؤَادُ غُرُورَ الْوَعْدِ ، يَصْفَحُ لِي
 تَجَلُّو الْمَنَى شَخْصَةً لِي - وَهُوَ مُتَجَبِّ
 يَا بَدْرَتِي بَدَا فِي أَفْقٍ مَمْلُوكَةٍ ،
 أَفْدَى بَدَائِعَ شَكْلِ مِنْكَ مُضْمِرَةً
 مُحَضًّا ، وَلَا مَ بِهِ الْوَاشِي فَلَمْ أُطِيعْ
 عَنْهُ ، وَيُقْنِمُنِي التَّغْلِيلُ بِالْخُدَعِ
 عَنِّي - فَأَا شِدْتُ مِنْ مَرَأَى وَمُسْتَمَعِ
 فَرَاقَ مُطْلِعًا مِنْ خَيْرِ مُطْلَعِ
 لِقَتْلِ نَفْسِي - عَمْدًا - أَشْنَعُ الْبِدَعِ

تَاللَّهِ - أَكْرَمَ مَا أَمْضَى الْيَمِينَ بِهِ
 مَا لَدَّ لِي قُرْبُ أَنْسٍ أَنْتِ نَارِحَةٌ
 مَنْ دَانَ فِي حُبِّهِ بِالصَّدْقِ وَالْوَرَعِ -
 عَنْهُ ، وَلَا سَاغَ عَيْنُ لَسْتُ فِيهِ مَعِي

خداع الأمانى

وَلَقَدْ شَكَوْتُكَ بِالضَّمِيرِ إِلَى
 مَنَيْتُ نَفْسِي - مِنْ صِفَائِكَ - ضَلَّةً
 وَدَعَوْتُ - مِنْ حَقِّي - عَلَيْكَ فَأَمَّنَا
 وَلَقَدْ تَعَرُّوا الْمَرْءَ بَارِقَةً الْمَنَى

في الغزل

« وله يتغزل و يعاتب من يستعطفه و يتنزل . »

يَا مُسْتَخِفًّا بِعَاشِقِيهِ وَمُسْتَفْشًا لِنَاصِحِيهِ
وَمَنْ أَطَاعَ الْوَشَاةَ فِينَا حَتَّى أَطَعْنَا السُّلُوءَ فِيهِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ أَرَانِي تَكْذِيبَ مَا كُنْتُ تَدَّعِيهِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ يَهْزِمَ النَّسْلُ وَيَغَابِ الشَّوْقُ مَا يَلِدِيهِ

إلى هاجر

أَوْسَلَبُ مِنْ وَصَالِكَ مَا كُسِبْتُ ؟ وَأَعَزَلُ - عَنْ رِضَاكَ - وَقَدْ وَايْتُ ؟
وَكَيْفَ - وَفِي سَبِيلِ هَوَاكَ طَوْعًا - لَقِيتُ مِنَ الْمَكَارِهِ مَا لَقِيتُ !
أَسِرُّ عَلَيْكَ عَتَبًا لَيْسَ يَبْقَى ، وَأَضْمُرُ فِيكَ غَيْظًا لَا يَبِيدُ
وَمَا رَدَّى عَلَى الْوَاشِينَ ، إِلَّا : « رَضِيتُ بِجَوْرِ مَا لِكُنِّي رَضِيتُ . »

دعاء محب

أَنَّى أَضِيعُ عَهْدَكَ ؟ أَمْ كَيْفَ أَخْلِفُ وَعْدَكَ
وَقَدْ رَأَيْتُكَ الْأَمَانِي رِضَى ، فَلَمْ تَتَّعِدْكَ

* *

/ يَا لَيْتَ مَا لَكَ عِنْدِي ! - مِنْ الْهُوَى - لِي عِنْدَكَ ^(١)

(٢) وفي بعض الروايات :

« يا ليت شعري ، وعندي ما ليس - في الحب - عندك
هل طال إليك بعدى ؟ كطول ليلى بعدك ؟ . »

فَطَالَ لَيْلُكَ بَعْدِي كَطُولُ لَيْلِي بَعْدَكَ
سَلَّمَنِي حَيَاتِي أَهْبَهَا ، فَلَسْتُ أَمْلِكُ رَدَّكَ
الدَّهْرُ عَبْدِي ، لَمَّا أَصْبَحْتُ فِي الْحُبِّ عَبْدَكَ

أنت حسبي

يَا مَنْ غَدَوْتُ بِهِ - فِي النَّاسِ - مُشْتَهَرًا قَلْبِي عَلَيْكَ يُقَاسِي الْهَمَّ وَالْفِكَرَا
إِنْ غِيتَ لَمْ أَلْقَ إِنْسَانًا يُؤَنِّسُنِي (١) وَإِنْ حَضَرْتُ ، فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ حَضَرَا

ما الذي أنكروه ؟

قَالَ لِي : « أَعْتَلَّ مَنْ هَوَيْتَ » حَسُودٌ قُلْتُ : « أَنْتَ الْعَلِيلُ وَيَحْكُ لَاهُو »
مَا الَّذِي أَنْكَرُوهُ مِنْ بَثَرَاتٍ (٢) ضَاعَفَتْ حُسْنَهُ وَزَادَتْ حُلَاهُ
جِسْمُهُ - فِي الصَّفَاءِ وَالرَّقَّةِ - الْمَا ، فَلَا غَرَوْ أَنْ حُبَابُ عِلَاهُ

شوق بعد سلوان

عَاوَدْتُ ذِكْرِي الْهَوَى - مِنْ بَعْدِ نِسْيَانٍ وَأَسْتَحْدَثَ الْقَلْبُ شَوْقًا بَعْدَ سُلُوفَانِ
مِنْ حُبِّ جَارِيَةٍ ، يَبْدُو بِهَا صَمٌّ مِنْ اللَّجِينِ ، عَلَيْهِ تَاجُ عَقِيَانِ
غَرِيرَةٌ - لَمْ تُفَارِقْهَا تَمَامُهَا - تَسْبِي الْعُقُولِ بِسَاجِي الطَّرْفِ وَسُنَانِ
لَا مُتَجِدِّن - فِي عِشْقِي لَهَا - زَمَنًا يُنْسِي سَوَائِفَ أَيَّامِي وَأَزْمَانِي
حَتَّى تَكُونَ لِمَنْ أَحْبَبْتُ خَاتِمَةً ، نَسَخْتُ - فِي حُبِّهَا - كُفْرًا بِإِيمَانِ

(١) في الأصل « يونس » بإبدال الهزة واوا وهو إبدال مقبوس كما يعلم من علم الصرف ، وهو مضارع أنسى (بالتضعيف) أي أزال وحشى كأنسى ، وجاء في كلامهم : « إذا جاء الليل استأنس كل وحشى ، واستوحش كل لمنسى » .

(٢) البثرات : واحدها بثره كسجدة وسجدات ، وهي خراج صفارتظهر على الوجه ، فتنتطف جلدته ، وأغلب ما يكون ذلك في أوان الشباب ، ولذلك يعرف عند العامة في بلادنا (بحب الشباب) ، وقد علقه في البيت التالي لعليلاً حسناً ، حيث شبهه بالحجاب يطفو على وجه الماء الشبيه ببشرة وجه الحبيب في الرقة والصفاء .

أسر الهوى

يَا سُؤَالَ نَفْسِي - إِنَّ أَحْكَمَ - وَاخْتِيَارِي إِنَّ أَخْيَرَ
كَمْ لَأَمَنِي فِيكَ الْحَسُو دُ، وَفَنَدَ الْوَاشِي فَأَكْثَرَ
قَالُوا : « تَغَيَّرَ بِالسُّلُوءِ وَالْمَلَامَةِ قَدْ تَعَيَّرَ »
وَتَوَهَّمُوكَ جَنَيْتَ ذَنْبًا بِالتَّجَنِّي لَيْسَ يُغْفَرُ
وَبِرَّعْمِهِمْ أَنْ لَيْسَ مِثْلِي فِي الرِّضَى بِالذُّونِ يُعَذَّرُ
لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْهَوَى رِقٌّ، وَأَنَّ الْحُسْنَ أَحْمَرُ^(١)

معدرة

إِنْ تَكُنْ نَالَكَ بِالضَّرْبِ يَدِي - وَأَصَابَتْكَ بِمَا لَمْ أُرِدِ
فَلَقَدْ كُنْتُ - لَعَمْرِي - فَادِيَا لَكَ بِالْمَالِ وَبَعْضِ الْوَلَدِ
فَقِي مِثْنِي بِعَهْدٍ ثَابِتٍ وَضَمِيرٍ خَالِصٍ الْمُعْتَقَدِ
وَلَيْتَ سَاءَ يَوْمٌ قَاعَلَمِي أَنْ سَبَتْلُوهُ سُرُورٌ بَعْدَ

وصف الكأس

أَنَا ظَرْفُ اللَّهِو كُلِّ ظَرِيفٍ أَنَا مُسْتَوْدَعٌ لِعَلْقٍ شَرِيفٍ
أَنَا كَالصَّدْرِ فِي الْإِحَاطَةِ بِالرَّاحِ إِذِ الرَّاحُ كَالضَّمِيرِ اللَّطِيفِ
سَلَّ عَنِ الطَّيِّبَاتِ فَهِيَ فُنُونٌ أَلْفَتْ فِي أَحْسَنِ التَّأْلِيفِ
أَيُّ حُسْنٍ يَنِي بِحُسْنِي مَحْمُودٍ لَا بِكَفَى وَصِيفَةٍ أَوْ وَصِيفِ

(١) من قولهم « الحسن أحمر » أي ذو مشقة وبلاء يريدون أن من تمسق الحسن والجمال تحول في سبيله المشقة وصبر على الأذى ، وإنما يقال ذلك لمن يسترقه الهوى ، وينبله الحسن على أمره فيبقى في سبيله الموت الأحمر .

غاية المحبين

لَيْسَ كُنْتُ فِي السَّنِّ - تَرْبُ الْهَلَالِ ، لَقَدْ قُتَّتْ - فِي الْحُسْنِ - بَذَرُ الْكَمَالِ
أَمَّا وَالَّذِي نَكَّدَ الْحِظَّ فِي دُنُوِّ الْمَكَانِ يَبْعُدُ الْمَنَالِ
لَقَدْ بَلَغْتَنِي دَوَاعِي هَوَاكَ إِلَى غَايَةِ مَا جَرَتْ لِي بِبَالِ
فَقُلْ لِلْهَوَى : « يَجْرِمُ الْمِلَّ الْعِنَانِ » فَيَذَانُ قَلْبِي رَحِيبُ الْمَجَالِ

صفح المذنب

يَا قَمْرًا مَطْلَعُهُ الْمَغْرِبُ قَدْ ضَاقَ بِي - فِي حُبِّكَ - الْمَذْهَبُ
أَعْتَبُ - مِنْ ظُلْمِكَ لِي - جَاهِدًا ، وَيَغْلِبُ الشَّوْقُ فَأُسْتَعْتَبُ
أَلَزَمْتَنِي الذَّنْبَ الَّذِي جِئْتُهُ ، صَدَقْتَ ، فَاصْفَحْ أَيُّهَا الْمُذْنِبُ

لا يأس

أَيُّهَا الْبَذَرُ الَّذِي يَمْلَأُ عَيْنِي مِنْ تَأَمُّلِ
مُحَلِّ الْقَلْبِ تَبَارِيحَ التَّجَنِّي فَتَحَ مَلْ
لَيْسَ لِي صَبْرٌ جَمِيلٌ ، غَيْرَ أَنِّي أَتَجَمَّلُ
ثُمَّ لَا يَأْسَ ، فَكَمْ قَدْ نِيلَ أَمْرُهُ لَمْ يُؤْمَلْ

عتب

أَوْجَنِي - بِإِلَاجِزْمٍ - وَأُقْصِي بِإِلَازِنِ ، سِوَى أَنْنِي مُحْضُ الْهَوَى صَادِقُ الْحُبِّ
أُغَادِيكَ بِالشُّكْوَى ، فَأُضْحِي عَلَى الْقَلِي وَأَرْجُوكَ لِلْعُتْبَى ، فَأُظْفِرُ بِالْعُتْبِ
فَدَيْتُكَ ، مَا لِلْمَاءِ - عَذْبًا عَلَى الصَّدَى - وَإِنْ سُمْتَنِي خَسْفًا ، مَحَلَّكَ مِنْ قَلْبِي
وَلَوْ لَآكَ ، مَا ضَالَتْ حَشَايَ - صَبَابَةً - جَعَلْتُ قِرَاهَا الدَّمْعَ مَسْكَبًا عَلَى سَكَبِ

تجنّي الحبيب

ثَبِي بِي - يَا مُعَذِّبِي - فَإِنِّي سَأَحْفَظُ فِيكَ مَا ضَيَّعْتَ مِنِّي
وَإِنْ أَصْبَحْتَ قَدْ أَرْضَيْتِ قَوْمًا بِسُخْطِي، لَمْ يَكُنْ ذَا فِيكَ ظَنِّي
وَهَلْ قَلْبٌ كَقَلْبِكَ فِي ضُلُوعِي، فَاسْأَلُو عَنْكَ حِينَ سَلَوْتَ عَنِّي
تَمَنَّتْ - أَنْ تَنَالَ رِضَاكَ - نَفْسِي، فَكَانَ مَنِيَّةً ذَاكَ التَّمَنِّي
وَلَمْ أَجْنِ^(١) الذُّنُوبَ فَتَحَقِّدِيهَا، وَلَكِنْ عَادَةٌ مِنْكَ التَّجَنِّي .

لا يأس في الحب

أَنْتِ مَعْنَى الضَّنَى وَسِرُّ الدُّمُوعِ ، وَسَبِيلُ الْهَوَى ، وَقَصْدُ الْوُلُوعِ
أَنْتِ وَالشَّمْسُ ضَرَّتَانِ ، وَلَكِنْ لَكَ - عِنْدَ الْغُرُوبِ - فَضْلُ الطَّلُوعِ
لَيْسَ بِالْمُؤَيَّسِ تَكْلُفُكَ الْعَتَبِ - دَلَالًا - مِنَ الرِّضَى الْمَطْبُوعِ
إِنَّمَا أَنْتِ - وَالْحُسُودُ مَعْنَى - كَوْكَبٌ يَسْتَقِيمُ بَعْدَ الرُّجُوعِ

بقية المسوأك

أَهْدِي إِلَى بَقِيَّةِ الْمِسْوَاكِ لَا تُظْهِرِي بُخْلًا بِعُودِ أَرَاكِ
فَلَعَلَّ نَفْسِي ، أَنْ يُنْفَسَ سَاعَةً عَنْهَا بِتَقْبِيلِ الْمُقْبِلِ فَالِكِ
يَا كَوْكَبًا - بَارِئَ سَنَاهُ سَنَاءَهُ - تَرْهَى الْقُصُورُ بِهِ عَلَى الْأَفْلَاكِ
قَرَّتْ وَفَارَتْ - بِالْخَطِيرِ مِنَ الْمَنَى - عَيْنٌ تُقَلِّبُ لَحْظَهَا فَتَرَكَ

(١) وفي الأصل : « ولم أجز » .

غرور المنى

إِنْ سَاءَ فِعْلُكَ بِي ، فَادَّعِنِي أَنَا ؟ حَسْبُ الْمُتِمِّ أَنَّهُ قَدْ أَحْسَنَا
لَمْ أَسْأَلْ حَتَّى كَانَ عُدْرُكَ - فِي اللَّيِّ أَبْدَيْتَهُ - أَخْفَى ، وَعُدْرِي أَيْنَنَا
وَلَقَدْ شَكَوْتُكَ - بِالضَّمِيرِ - إِلَى الْهَوَى ، وَدَعَوْتُ - مِنْ حَنْقٍ - عَلَيْكَ فَأَمَّنَا
مَنَيْتُ نَفْسِي - مِنْ وَفَائِكَ - ضَلَّةً ، وَلَقَدْ تَغَرُّ الْمَرْءُ بَارِقَةَ الْمُنَى

صليني

أَغَائِبَةً عَنِّي ، وَحَاضِرَةً مَعِي ، أَنْادِيكَ - لَمَّا عِيلَ صَبْرِي - فَأَنْصَمِي
أَفِي الْحَقِّ أَنْ أَشَقَى بِحُبِّكَ ، أَوْ أَرَى حَرِيْقًا بِأَنْفَاسِي ، غَرِيْقًا بِأَذْمُعِي
أَلَا عَطْفَةٌ تَحْيَا بِهَا نَفْسُ قَاشِقٍ ؟ جَعَلْتَ الرَّدَى مِنْهُ بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ
صَلِّينِي - بَعْضَ الْوَصْلِ - حَتَّى تَبَيَّنِي حَقِيقَةَ حَالِي ، ثُمَّ مَا شِئْتَ فَأَصْنَعِي

شكوى ضائعة

سَاحِبُ أَعْدَائِي لِأَنَّكَ مِنْهُمْ ^(١) يَا مَنْ يُصِحُّ - بِعُقْلَتِيهِ - وَيُسْقِمُ
أَصْبَحْتَ تُسَخِّطُنِي فَأَمْنَحُكَ الرِّضَى - مُحْضًا - وَتَظْلِمُنِي فَلَا أَتَظْلَمُ
يَا مَنْ تَأَلَّفَ لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ ، فَالْحُسْنُ يَنْتَهَمَا مُضِيٍّ مُظْلَمٍ
قَدْ كَانَ فِي شَكْوَى الصَّبَابَةِ رَاحَةٌ ، لَوْ أَنَّني أَشْكُو إِلَى مَنْ يَرْحَمُ

وفاء المحب

لَمَّا اتَّصَلَتْ اتِّصَالَ الْحُبِّ ^(٢) بِالْكَبِدِ ثُمَّ أَمْتَرَجْتَ أَمْتِرَاجَ الرُّوحِ بِالْجَسَدِ

(١) وهذا قريب من قول القائل :

« شابهت أعدائي فصررت أحبهم »

(٢) وفي الأصل : « الحب »

سَاءَ الْوُشَاةَ مَكَانِي مِنْكَ ، وَاتَّقَدْتُ - فِي صَدْرِ كُلِّ عَدُوٍّ - جَمْرَةُ الْحَسَدِ
فَلَيْسَ خَطِ النَّاسِ لَا أَهْدِي الرِّضَى لَهُمْ ، وَلَا يَضِيعُ لَكَ عَهْدُهُ آخِرَ الْأَبَدِ
لَوْ أُسْتَطَعْتُ - إِذَا مَا كُنْتُ غَائِبَةً - غَضَضْتُ طَرْفِي ، فَلَمْ أَنْظُرْ إِلَى أَحَدٍ

غدر الحبيب

يَا لَيْلُ طُلْ ، لَا أَشْتَهِي - إِلَّا (بِوَصْلٍ) - قِصْرَكَ
لَوْ بَاتَ عِنْدِي قَمَرِي ، مَا بَتُّ أَرْغَى قَمَرِكَ
يَا لَيْلُ خَبِرْ : أَنِّي أَلْتَدُّ عَنْهُ خَبْرَكَ
بِاللَّهِ قُلْ لِي : هَلْ وَفَا ؟ فَقَالَ : « لَا ، بَلْ غَدَرَكَ »

حذر العاشق

لَبَنٌ فَاتَنِي مِنْكَ حَظُّ النَّظَرِ لَا كَتَفَيْنِ بِسَمَاعِ الْخَبَرِ
وَإِنْ عَرَصَتْ غَفْلَةٌ لِلرَّقِيبِ ، فَحَسْبِي تَسْلِيمَةٌ تُخْتَصَرُ
أَحْذِرُ أَنْ تَتَّظَى الْوُشَاةُ ، وَقَدْ يُسْتَدَامُ الْهَوَى بِالْحَذَرِ
وَأَصْبِرْ مُسْتَيْقِنًا : أَنَّهُ سَيَخْطَى - بِنَيْلِ الْمَنَى - مَنْ صَبَرَ

قناعة المحب

سَأَقْنَعُ مِنْكَ بِلَحْظِ الْبَصَرِ ، وَأَرْضَى بِتَسْلِيمِكَ الْمُخْتَصَرِ
وَلَا أَتَخَطَّى التَّامِسَ الْمُنَى ، وَلَا أَتَعَدَّى اخْتِلَامَ النَّظَرِ
أَصُونُكَ - مِنْ لَحْظَاتِ الظُّنُونِ - وَأَعْلِيكَ عَنْ خَطَرَاتِ الْفِكْرِ
وَأَحْذِرُ - مِنْ لَحْظَاتِ الرَّقِيبِ - وَقَدْ يُسْتَدَامُ الْهَوَى بِالْحَذَرِ

كيف السلو ؟

هَلْ لِدَاعِيكَ مُجِيبٌ ؟ أَمْ لِشَاكِكَ طَيْبٌ ؟
 يَا قَرِيْبًا - حِينَ يَنْأَى - حَاضِرًا - حِينَ يَغِيْبُ - ا
 كَيْفَ يَسْأَلُوكَ مُجِيبٌ زَانَهُ مِنْكَ حَيِّبٌ ؟
 إِنَّمَا أَنْتَ نَسِيمٌ تَتَلَقَّاهُ الْقُلُوبُ
 قَدْ عَلِمْنَا عِلْمَ ظَنٍّ ، هُوَ - لَا شَكَّ - مُصِيبٌ
 إِنَّ سِرَّ الْحُسْنِ مِمَّا أَضْمَرْتَ تِلْكَ الْجُيُوبُ

أنت المنى

أَرْخَصْتَنِي - مِنْ بَعْدِ مَا أَغْلَيْتَنِي - وَحَطَطْتَنِي ، وَاطْلَمًا أَغْلَيْتَنِي
 بَادَرْتَنِي بِالْعَزْلِ عَنْ خُطَطِ الرِّضَى ، وَلَقَدْ مَحَضْتُ النُّصْحَ إِذْ وَلَّيْتَنِي
 هَلًا - وَقَدْ أَعْلَقْتَنِي شَرَكُ الْهَوَى - عَلَّيْتَنِي بِالْوَصْلِ ، أَوْ سَلَّيْتَنِي
 الصَّبْرُ شُهُدٌ - عِنْدَ مَا جَرَّعْتَنِي - وَالنَّارُ بَرْدٌ ، عِنْدَ مَا أَصْلَيْتَنِي
 كُنْتَ الْمَنَى ، فَأَذَقْتَنِي غُصَصِ الْأَذَى ، يَا لَيْتَنِي مَا فَهْتُ فِيكَ : بَلَيْتَنِي

بقاء على العهد

جَازَيْتَنِي - عَنْ تَمَادِي الْوَصْلِ - هِجْرَانًا وَعَنْ تَمَادِي الْأَسَى وَالشَّوْقِ سُلوَانًا
 بِاللَّهِ هَلْ كَانَ قَتْلِي فِي الْهَوَى خَطَاً أَمْ جِثَّتُهُ عَامِدًا ظُلُمًا وَعُدُوَانًا ؟
 عَهْدِي كَعَهْدِكَ ، مَا الدُّنْيَا تُغَيِّرُهُ وَإِنْ تَغَيَّرَ مِنْكَ الْعَهْدُ الْوَانَا
 مَا صَحَّ وَدَى إِلَّا أَعْتَلَّ وَدُكَّ لِي ، وَلَا أَطْعَمْتُكَ إِلَّا زِدْتَ عَصِيَانَا
 يَا أَلَيْنَ النَّاسَ أَعْطَافًا ، وَأَفْتَنَهُمْ لَحْظًا ، وَأَعْطَرَ أَنْفَاسًا وَأَرْذَانَا
 حَسَنْتَ خَلْقًا ، فَأَحْسِنِ لَا تَسُوْ خُلُقًا ، مَا خَيْرُ ذِي الْحُسْنِ إِنْ لَمْ يُؤَلِّ إِحْسَانًا ؟

أين وفاؤك؟

أُثِمَّتْ بِي فِيكَ الْعِدَا وَبَلَغْتَ مِنْ ظُلْمِي - الْمَدَى
لَوْ كَانَ يَمْلِكُ فِدْيَةَ - مِنْ حُبِّكَ - الْقَلْبُ أَفْتَدَى
كُنْتَ الْحَيَاةَ لِعَاشِقٍ - مُذْخَلْتَ - أَيْقَنَ بِالرَّدَى
لَمْ يَسْلُ عَنْكَ ، وَلَوْ سَلَا لَعَذَرْتُهُ ، فَبِكَ أَقْتَدَى
صَيَّعْتَ عَهْدَ حَبِّبَةٍ كَالْوَرْدِ سَامِرُهُ النَّدَى
أَيْنَ ادَّعَاؤُكَ لِلْوَفَا ، وَمَا عَدَا مِمَّا بَدَا ^(١)

صرع الحب

لَوْ كَانَ قَوْلُكَ «مُتٌ» مَا كَانَ رَدْدِي «لَا» يَا جَائِرَ الْحُكْمِ ، أَفْدِيهِ بِنَ عَدَلَا
أَبْدَيْتَ لِي - مِنْ أَفَانِينَ الْقَلَى - عَبْرًا ، أُرْسَلْتَنِي - فِي أَحَادِيثِ الْهَوَى - مَثَلَا
لَمْ تُبْقِ جَارِحَةً بِالْهَجْرِ مِنْ جَسَدِي إِلَّا خَلَعْتَ عَلَيْهَا - بِالضَّنَى - حُلَلَا
فَلْيُغْنِ كَفَّكَ أَنِّي بَعْضُ مَنْ مَلَكَتْ ، وَيَكْفِ طَرْفَكَ أَنِّي بَعْضُ مَنْ قَتَلَا
وَلَقَدْ قَضَيْتُ مَا شِئْتُ مِنْ هَجْرٍ وَمِنْ صِلَا - لَا أَقْضِ مَا عِشْتُ سُلُوانًا وَلَا مَلَلَا
سَقِيَا لِعَهْدِكَ وَالْأَيَّامُ تُقْبِلُنِي وَجْهَ الشُّرُورِ بِهِ جَذَلَانٌ مُقْتَبِلَا
إِذِ الزَّمَانُ بَلِيغٌ فِي مُسَاعَدَتِي يُهْدِي إِلَيَّ - تَفَارِيقَ الْمُنَى - جُمَلَا
إِنْ كَانَ لِي أَمَلٌ إِلَّا رِضَاكَ ، فَلَا بُلَّغْتُ - يَا أَمَلِي - مِنْ دَهْرِي الْأَمَلَا

(١) في الأصل : « وما عدا فيما بدا . » وأصل المثل كما في مجمع الأمثال للبريداني : « ما عدا مما بدا . »
أي ما منعك مما ظهر لك أولاً ، قاله علي بن أبي طالب للزبير بن العوام رضي الله عنهما يوم الجمل يريد ما الذي
صرفك عما كنت عليه من البيعة ، وهذا متصل بقوله : « عرفتني بالجواز ، وأفكرتني بالعراق ، فما عدا
مما بدا . »

وفاء المحب

مَنْ مَبْلُغٌ عَنِّي الْبَذَرُ الَّذِي كَمُلَا فِي مَطْلَعِ الْحُسْنِ وَالْفُضْنِ الَّذِي أَعْتَدَلَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي أَهْدَى مَوَدَّتَهُ إِلَى مُرْتَهِنٍ شُكْرِي بِمَا فَعَلَا
أَمَّا الْحَبِيبُ الَّذِي أَبْدَى الْجَفَاءَ لَنَا، فَمَا رَأَيْنَا فَلَاهُ حَادِثًا جَلَلَا
وَلَمْ تَرِدْ أَنْ ظَفِرْنَا مِلءَ أَعْيُنِنَا بِالشُّتْرَى، فَتَجَنَّبْنَا لَهُ زُحَلَا
أَنْتَ الْحَبِيبُ الَّذِي مَا زِلْتُ أُحْفُهُ ظِلَّ الْهَوَى، وَأُسْقِيهِ الرِّضَا عَمَلَا
هَذِي الْحَقِيقَةُ، لَا قَوْلِي مُخَاذَعَةً : لَوْ كَانَ قَوْلُكَ «مُت» مَا كَانَ رَدِّي «لَا»

انت حسبي

لَمْ يَكُنْ هَجْرِي حَبِيبِي عَنْ قَلِي لَا وَلَا ذَاكَ التَّجَنِّي مَدَلَا
سَرَّهُ شُكْرِي - إِذْ عَافَى - وَلَمْ يَدْرِ مَا غَايَةُ صَبْرِي فَأُتَلَا
أَنَا رَاضٍ بِالَّذِي يَرْضَى بِهِ لِي مَنْ لَوْ قَالَ «مُت» مَا قُلْتُ: «لَا»
مَثَلٌ فِي كُلِّ حُسْنٍ مِثْلُ مَا صَارَ ذُلِّي - فِي هَوَاهُ - مَثَلَا
يَافَتَيْتَ الْمِسْكَ يَا شَمْسَ الضُّحَا يَا قَضِيبَ الْبَاكِ يَا رِيمَ الْفَلَا
إِنْ يَكُنْ لِي أَمَلٌ غَيْرَ الرِّضَا مِنْكَ، لَا بُلَّغْتُ ذَاكَ الْأَمَلَا

إلى هاجر

أَتَهَجَّرُنِي وَتَغْصِبُنِي كِتَابِي ؟ وَمَا فِي الْحَقِّ غَضَبِي وَأُجْتِنَابِي
أَيَحْمِلُ أَنْ أَيْحَكَ مَحْضُ وَدِّي ؟ وَأَنْتَ تَسُوْمُنِي سُوءَ الْعَذَابِ
فَدَيْتُكَ، كَمْ تَغْضُ الطَّرْفَ دُونِي وَكَمْ أَدْعُوكَ مِنْ خَلْفِ الْحِجَابِ
وَكَمْ لِي مِنْ فُؤَادِكَ - بَعْدَ قُرْبِ - مَكَانَ الشَّيْبِ فِي نَفْسِ الْكَعَابِ

أَعِدْ - فِي عَبْدِكَ الْمَظْلُومِ - رَأْيًا تَنَالُ بِهِ الْجَزِيلَ مِنَ الثَّوَابِ (١)
وَإِنْ تَبَخَّلَ عَلَيْهِ قَرُبٌ دَهْرٍ وَهَبْتَ لَهُ رِضَاكَ بِلاَ حِسَابٍ

لا سبيل إلى السلو

أَذْكَرَ تَنِي سَالِفَ الْعَيْشِ الَّذِي طَابَا يَا لَيْتَ فَائِبَ ذَلِكَ الْعَهْدِ قَدْ آتَا
إِذْ نَحْنُ فِي رَوْضَةٍ لِلْوَصْلِ - نَعْمَهَا مِنْ الشُّرُورِ غَمَامٌ فَوْقَهَا صَابَا
إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ شَوْقٍ يُطَاوِلُنِي فَكُلَّمَا قِيلَ فِيهِ: «قَدْ قَضَى»، ثَابَا
كَمْ نَظْرَةٌ لَكَ فِي عَيْنِي عَلِمْتَ بِهَا - يَوْمَ الزِّيَارَةِ - أَنَّ الْقَلْبَ قَدْ ذَابَا
قَلْبٌ يُطِيلُ مَقَامَاتِي لِمَطَاعَتِكُمْ، فَإِنْ أَكَلَفَهُ عَنْكُمْ سَلْوَةً يَأْبَى
مَاتُوا بِي بِنُصُوحٍ - مِنْ مَحَبَّتِكُمْ - لَا عَذَبَ اللَّهُ إِلَّا حَاشِقًا تَابَا

انت الحياة

أَمَّا رِضَاكَ فَعَلِقَ مَالَهُ ثَمَنُ لَوْ كَانَ سَامِحِي فِي وَصْلِهِ الزَّمَنُ
تَبْكِي فِرَاقَكَ عَيْنٌ أَنْتَ نَاطِرُهَا قَدْ لَجَّ فِي هَجْرِهَا عَنْ هَجْرِكَ الْوَسَنُ
إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي عَهْدِي بِهِ حَسَنُ قَدْ حَالَ مَذْغَابَ عَنِّي وَجْهِكَ الْحَسَنُ
أَنْتَ الْحَيَاةُ فَإِنْ يُقَدَّرُ فِرَاقُكَ لِي فَلْيُخْفِرِ الْقَبْرُ أَوْ فَلْيُخْضِرِ الْكَفَنُ
وَاللَّهُ مَا سَاءَ نِيَّ أَنِّي جُفِيتُ ضَنِّي بَلْ سَاءَ نِيَّ أَنْ سِرِّي - بِالضَّنِّي - عَلَنُ
لَوْ كَانَ أَمْرِي - فِي كَثْمِ الْهَوَى - بِيَدِي مَا كَانَ يَعْلَمُ - مَا فِي قَلْبِي - الْبَدَنُ

ذكرى معاهد قرطبة

عَلَى الثَّغْبِ الشَّهْدِيَّ مِنْ تَحِيَّةٍ زَكَّتْ، وَعَلَى وَادِي الْعَقِيقِ سَلَامُ
وَلَا زَالَ أَوْرُؤُ فِي الرُّصَافَةِ ضَا حَكُ بِأَرْجَائِهَا يَتَكِي عَلَيْهِ غَمَامُ

(١) قريب من هذا قول البحترى :

« أعيدي في نظرة مستتب توخي الأجر أوكره الأثاما »

مَعَاهِدُهُ لَهْوٍ لَمْ تَزَلْ فِي ظِلَالِهَا
زَمَانٌ: رِيَاضُ الْعَيْشِ خُضِرَتْ نَوَاصِرُهُ
فَإِنْ بَانَ مِنِّي عَهْدُهَا ، قَبِلَوْعَةٍ
تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِهَا ، فَتَبَادَرَتْ
وُجْهَتُهُ قَوْمٍ كَالْمَصَابِيحِ ، كُلُّهُمْ
إِذَا طَافَ بِالرَّاحِ الْمُدِيرُ عَلَيْهِمْ
وَأَحْوَرُ سَاجِي الطَّرَفِ حَشْوُ جُفُونِهِ
تَخَالُ قَضِيبَ الْبَانِ - فِي طَيِّ بُرْدِهِ -
يُدِيرُ - عَلَى رَغَمِ الْعِدَا - مِنْ وَدَادِهِ
فَمَنْ أَجْلِهِ أَدْعُو لِقُرْطَبَةَ الْمُنَى
مَحَلُّ غَنِينَا بِالتَّصَابِي خِلَالَهُ
فَمَا لِحَقَّتْ تِلْكَ اللَّيَالِي مَلَامَةً ،
تُدَارُ عَلَيْنَا - لِلْمُجُونِ - مَدَامُ
تَرَفٌ ، وَأَمْوَاهُ الشُّرُورِ جَامُ
يَسْبُ لَهَا - بَيْنَ الصُّلُوعِ - ضِرَامُ
دُمُوعٍ ، كَمَا خَانَ الْفَرِيدُ نِظَامُ
- إِذَا هَزَّ لِلخَطْبِ الْمِلْمِ - حُسَامُ
أَطَافَ بِهِ يَبِضُّ الْوُجُوهِ ، كِرَامُ
سَقَامُ بَرَى الْأَجْسَامَ مِنْهُ سِقَامُ
إِذَا أَهْتَزَّ مِنْهُ مَعْطِفٌ وَقَوَامُ
سُلَافًا ، كَانَ الْمِسْكُ مِنْهُ خِتَامُ
بُسْقِيَا ضَعِيفِ الطَّلِّ وَهُوَ رِهَامُ ^(١)
فَأَسْمَدَنَا ، وَالْحَادِثَاتُ نِيَامُ
وَلَا ذَمَّ - مِنْ ذَاكَ الْحَبِيبِ - ذِمَامُ

غدر الحبيب

أَجِدُّ ، وَمِنْ أَهْوَاهُ - فِي الْحُبِّ - غَابَتْ
حَبِيبٌ نَأَى عَنِّي - مَعَ الْقُرْبِ وَالْأَسَى -
جَفَانِي بِالْطَّافِ الْعِدَا ، وَأَزَالَهُ
تَغَيَّرْتُ عَنْ عَهْدِي ، وَمَا زِلْتُ وَائِقًا
وَمَا كُنْتُ - إِذْ مَلَكَتْكَ الْقَلْبَ - عَالِمًا
فَدَيْتُكَ ، إِنَّ الشُّوقَ لِي - مُذْ هَجَرْتَنِي -
وَأَوْفَى لَهُ بِالْعَهْدِ ، إِذْ هُوَ نَاكِثُ
مُقِيمٌ لَهُ - فِي مَضْمَرِ الْقَلْبِ - مَا كِثُ
- عَنِ الْوَصْلِ - رَأَى فِي الْقَطِيعَةِ حَادِثُ
بِعَهْدِكَ ، لَكِنْ غَيَّرَتْكَ الْحَوَادِثُ
بِأَنِّي - عَنْ حَقِّي - بِكَفِّي بَاحِثُ
مُمِيتٌ فَهَلْ لِي - مِنْ وَصَالِكَ - بَاعِثُ؟

(١) رهام - جمع رهمة - وهي المطر الضعيف الدائم .

سَتَّبَلَى اللَّيَالِي - وَالْوِدَادُ بِحَالِهِ - جَدِيدُهُ ، وَتَفَنَى وَهُوَ لِلْأَرْضِ وَارِثُ
وَلَوْ أَنَّنِي أَقْسَمْتُ : أَنَّكَ قَاتِلِي وَأَنْنِي مَقْتُولُ ، لَمَا قِيلَ : « حَانَتْ . »
اصنع ماشئت

يَا نَاسِيَا لِي - عَلَى عِرْفَانِهِ - تَلْفِي ذِكْرَكَ مِنِّي بِالْأَنْفَاسِ مَوْصُولُ
وَقَاطِعَا صِلَتِي - مِنْ غَيْرِ مَا سَبَبَ - تَأَلَّه : إِنَّكَ - عَنْ رُوحِي - لَسْتُ لَوْ
مَاشِئْتَ فَأَصْنَعُهُ ، كُلُّ مِنْكَ مُحْتَمَلُ ، وَالذَّنْبُ مُغْتَفَرُ ، وَالْعُذْرُ مَقْبُولُ
لَوْ كُنْتَ حَظِّي ، لَمْ أَطْلُبْ بِهِ بَدَلًا ، أَوْ نِلْتُ مِنْكَ الرِّضَا ، لَمْ يَبْقَ مَأْمُولُ
أُمْنِيَّة

يَا قَاطِعَا حَبْلٍ وَدِّي وَوَاصِلَا حَبْلٍ صَدِّي
وَسَالِيَا ، لَيْسَ يَذَرِي بِطُولِ بَيْتِي وَوَجْدِي
لَوْ كَانَ عِنْدَكَ مِنِّي مِثْلُ الَّذِي مِنْكَ عِنْدِي
لَبِتَّ - بَعْدِي - مِثْلِي ، وَبِتَّ - مِثْلَكَ - بَعْدِي
نَفْسِي فِدَاؤُكَ

لَوْ تَرَكْنَا بِأَنْ نَعُودَكَ عُدْنَا وَقَضَيْنَا الَّذِي عَلَيْنَا وَزِدْنَا
غَيْرَ أَنْ أَلْهَوَى اسْتَخْطَارَ حَدِيثِنَا ، فَأَتَحْتَنَّا الْعُيُونُ لَمَّا حُسِدْنَا
فَلَوْ أَنَّ النُّفُوسَ تُقْبَلُ مِنَّا ، لَسَمَحْنَا بِهَا - فِدَاءً - وَجَدْنَا

دين الحب

يَا غَزَا لَا جُمِعَتْ فِيهِ - مِنَ الْحُسْنِ - فُنُونُ
أَنْتَ فِي الْقُرْبِ وَفِي الْبُعْدِ - مِنَ النَّفْسِ - مَكِينُ
بِهَوَاكَ - الدَّهْرُ - أَلْهُو ، وَبِحُبِّيكَ أَدِينُ

مُنِيَّةُ الصَّبِّ : أَغْنَيْ ، قَدْ دَنَتْ مِنِّي الْمَنُونُ
وَأَحْفَظُ الْعَهْدَ ، فَإِنِّي لَسْتُ - وَاللَّهِ - أَخُونُ
وَأَرْحَمَنُ صَبًّا شَجِيًّا قَدْ أَذَابَتْهُ الشُّجُونُ
لَيْلُهُ هَمٌّ وَغَمٌّ ، وَسَقَامٌ ، وَأَيْنُ
شَفَةُ الْحُبِّ ، فَأَمْسَى - سَقَمًا - لَا يَسْتَبِينُ
صَارَ - لِلْأَشْوَاقِ - نَهَبًا ، فَنَبَتْ عَنْهُ الْعُيُونُ

وفاء

يَبْنِي وَيَبْنِيكَ مَا لَوْ شِئْتَ لَمْ يَضِعْ سِرُّ إِذَا ذَاعَتْ الْأَسْرَارُ - لَمْ يَذِعْ
يَابَايَمَا حَظُّهُ مِنِّي ، وَلَوْ بُذِلَتْ لِي الْحَيَاةُ - بِحَظِّي مِنْهُ - لَمْ أَبِيعْ
يَكْفِيكَ أَنْكَ - إِنْ حَمَلْتَ قَلْبِي مَا لَمْ تَسْتَطِعْ قُلُوبُ النَّاسِ - بِسْتَطِيعِ
تِهَ أَحْتَمِلْ ، وَاسْتَطِلْ أَصْبِرْ ، وَعِزَّ أَهْنُ ، وَوَلَّ أَقْبِلْ ، وَقُلْ أَسْمَعْ ، وَمَنْ أَطِعْ
فِي سَبِيلِ الْهُوَى

قَدْ نَالَني مِنْكَ مَا حَسَنِي بِهِ وَكَفَى يَا مَنْ تَنَاهَيْتُ - فِي إِيظَافِهِ - فَجَفَا
عَلَّيْتَنِي بِالْمُنَى - حَتَّى إِذَا عَلِقَتْ بِالنَّفْسِ - لَمْ أُعْطَ مِنْ أَسْبَابِهَا طَرْفَا
غُيِّرَتْ عَنْ خُلُقِي - قَدْ لَانَ لِي زَمَنًا - لَيْنَ النَّسِيمِ ، فَلَمَّا لَدَّ لِي عَصَفَا
لَا يَحْبِطُنْ عَمَلٌ - أَرْضَاكَ صَالِحُهُ - فِي سَبِيلِكَ أَنْفَقْتُ الْهُوَى سَرَفَا

صلة الحب

سِرِّي وَجَهْرِي أَنَّنِي هَامٌ ، قَامَ بِكَ الْعُذْرُ ، فَلَا لَأَمُ
لَا يَنْمُ الْوَاشِي الَّذِي غَرَّنِي هَا أَنَا - فِي ظِلِّ الرِّضَى - نَأْمُ
عُدْتُ إِلَى الْوَصْلِ - كَمَا أَشْتَهِي - فَالْهَجْرُ بَاكٍ ، وَالرِّضَى بَائِمُ

حَسْبِي - أَنَا الْمَظْلُومُ - فِيمَا جَرَى ، وَإِنْ تَشَأْ قُلْتَ : «أَنَا الظَّالِمُ»
يَا سَائِلًا عَمَّا بِنَفْسِي لَهُ - تَجَنَّبًا - وَهُوَ بِهِ عَالِمٌ
مَعْنَى الْهُوَى أَنْتَ وَشَخْصُ الْمَنَى ، دَغْنِي مِمَّا يَزْعَمُ الزَّاعِمُ

مقيم على العهد

عَذِيرِي مِنْ خَلِيلٍ يَسْتَطِيلُ عَمِيلُ - مَعَ الزَّمَانِ - كَمَا يَمِيلُ
وَيَرْضَى أَنْ تَضِيعَ سَكَّتِي ^(١) خَقُوقِي ، وَبَاعِي فِي الْهُوَى بَاعٌ طَوِيلُ
أَشْمَسًا أَشْرَقَتْ مِنْ عَبْدٍ شَمْسٍ ! أَمَّا لَكَ - فِي سِوَى قَلْبِي - أَفُولُ ؟
أَمَّا يُمَحِّي عِتَابُكَ كُلَّ يَوْمٍ ؟ أَمَّا يُرْجِي - إِلَى وَصْلٍ - وَصُولُ ؟
وَلَوْ أَجِدُ السَّبِيلَ لَطَرْتُ وَجَدًا ، وَلَكِنْ مَا إِلَى هَذَا سَبِيلُ
كِتَابِي - عَنْ وَدَادِكَ - لَا يَزُولُ ، وَعَهْدِي - مِثْلَ عَهْدِكَ - لَا يَحُولُ

آلام المحب

يَا مُعْطِشِي - مِنْ وَصَالٍ كُنْتُ وَارِدُهُ - هَلْ مِنْكَ لِي عِلَّةٌ أَنْ صَحْتُ : «وَاعْطَشِي»
كَسَوْتَنِي - مِنْ ثِيَابِ السَّقَمِ أَسْبَغَهَا - ظُلُمًا - وَصَيَّرْتَ مِنْ لُحْفِ الضَّرِي قُرْشِي
أَنِّي بَصُرْتُ الْهُوَى ، عَنْ مُقَلَّةٍ كَحَلَّتْ بِالسَّحَرِ مِنْكَ ، وَخَدَّ بِالْجَمَالِ وَشِي
لَمَّا بَدَأَ الصَّدْعُ مُسَوِّدًا بِأَحْمَرِهِ أَرَى التَّسْلُمَ - بَيْنَ الرُّومِ وَالْحَبَشِ
أَوْفَى إِلَى الْخَدِّ ، ثُمَّ أَنْصَاعَ مُنْعَطِفًا كَالْعَقْرِ بَانَ انْتَنَى مِنْ خَوْفٍ مُحْتَرِشِ
لَوْ شِئْتُ زُرْتُ وَسِلِكَ النَّجْمِ مُنْتَظِمٌ ، وَالْأَفْقُ يُحْتَالُ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْعَبَشِ -
صَبًّا - إِذَا التَّدَّتِ الْأَجْفَانُ طَعْمَ كَرِّى جَفَا الْمَنَامِ ، وَصَاحَ اللَّيْلُ : «يَا قُرْشِي»
هَذَا وَإِنْ تَلِفَتْ نَفْسِي ، فَلَا عَجَبٌ ، قَدْ كَانَ مَوْتِي - مِنْ تِلْكَ الْجُفُونِ - خُشْيِ

(١) وفي الأصل : « كذا » .

إلى المعتمد

أَيُّهَا الظَّافِرُ لَا زِلْتَ مَدَى الدُّنْيَا مُظَفَّرُ

(١) الأحاجي والألغاز والمعميات

افتن كثير من النظامين والكتاب في طرق الألغاز والتعمية ليمتحنوا بها الذكاء، والقسرة على فك الطلاسم والمعميات، ويزجوا بها أوقات فراغهم الطويلة، وهو عمل شاق مضمّن لا يقدم عليه إلا من فرغ باله من مشكلات الحياة وجدها. وأكثر أنواعه تافه لا خطر له، وسنلم بطائفة كبيرة منها. وثمة أنواع من التعمية تقوم عند الملوك والأمراء إلى ذلك العهد مقام الشفرة، وتطير الحماز أزاجل وما إلى ذلك من وسائل الخبايرة السرية، ومن يدري؟ فربما كان ماداريين (ابن زيدون) و (المعتمد) من هذا النوع لم يكن يقصد به قتل الوقت والتسلية أو امتحان الذكاء، لحسب، وإنما كان يقصد به فوق ذلك المران على بعض ضروب الخبايرة السرية التي كانت تمس إليها حاجة الدولة، ويستعملها أنصارها السياسيون للتعمية على غيرهم من خصومهم. وربما كان للتسلية وحدها وتزجية أوقات الفراغ الطويلة أيضا.

والطريقة التي تبناها المعتمد وابن زيدون هي إحدى هذه الطرق العديدة، ولم نعتز عليها - فيما قرأناه من كتب الألغاز على كثرتها - ولم نشر إليها المعاجم العربية، ولكننا استنتجناها من الأشعار التي دارت بينهما، ومن قول «القرى» صاحب «نقح الطيب» الذي عزز ما ذهبنا إليه.

وخلاصة هذه الطريقة أن يطير أحد المتراسلين إلى الآخر بيتا شائعا في قصيدة أو بيتين ويرمز لكل حرف من حروفهما باسم طائر بعينه.

قال القرى:

«وكتب ابن زيدون إلى المعتمد:

«وفاك نظم لي في طيه معنى اللفظ مستور

مرامه يصعب ما لم يحج بالسر - قرى وشعور».

قال: «ثم ذكر أبياتا، فيها أسماء طيور، عني بها عن بيت طيره فيها، والبيت المطير هو:

«أنت - إن تنز - ظافر - فليطع من ينافر.»

ففك «المعتمد» وجاوبه:

«جاءني الطير التي سرها نظم به قلبي سرور.» اه.

وستترك هذه القصيدة في «ص ٢٩٩» من هذا الديوان.

ويؤيد هذا الاستنتاج قول المعتمد:

«أرسل طيور الشعر نحوى فقد بث فؤادي شرك الفهم.»

وقول ابن زيدون للمعتمد:

«وفاك للطير سرب لديه سر مكم.»

ولا تكاد تخلو قصيدة - من هذا النوع - من ذكر الطيور كما يرى القاري في القصائد التالية، وسنثبت

القصيدة التي نحن بصددنا في العرح ونقبعها بمجدول نورد فيه على الترتيب أسماء الطيور التي ذكرها فيها،

وتقرن كل طائر بحرف هجائه ليتسنى للقاري استخراج البيت المطير بنفسه، وهماي الأبيات:

«فاسأل الشاهين، والصقرين، والعتقاء تحبر

أَنْتَ أَشْنَى ابْنٍ لِأَشْنَى وَالِدِي فِي أَلْمَهْرِ فَأَفْخَرُ
إِنْ تُرِدْ شَرْحَ مُعْنَى هُوَ فِي نَظْمِي - مُضْمَرُ

ثم رال الففر ، والف - بياد ، والنسر المعبر
ثم بعد الديك عد للذ - سر ، والزال المنفر
ثم عد للنسر والرا ل ، فكل قد تكرر
والجباري ، والسماي والشقراق المحبر
ثم سائل بعدها البا - زى - إن حل فصرصر
معنه الطائوس والديك - ك إذا بالصبح بشر
تسلوه القمري مها - ردد السجع فقرفر
ثم ناد الهيق والرا ل ، لعل السر يظهر
وتعيف ما لدى القب - جين من خاف سيظهر
ثم عد للنسر والرا ل ، هما - في الأمر - أكثر
وازجر العقق حق الزج - ر ، إن الطير يزجر
وليل الرأل سماي وشقراق تأخر . «

فليس فيها إلا أسماء طيور بعينها ترمز إلى حروف بعينها ، ونحن نبينها للقارئ لتكون نموذجاً - لن
يعينه حل أمثال هذه المعميات ، والبيت المعنى الذي يستخرج من هذه الأبيات هو :

« صدق لنا قال السمه تظهر على الكلمة . »

وأنت إذا تبعت ما فيها من أسماء الطيور تجد أن كل طائر في مقابلة حرف من حروف هجاء البيت ونحن
نضع حروف البيت وأمام كل حرف طائره الذي يدل عليه في الجدول الآتي ليدين للقارئ طريقة الحل ،
وهذا هو الجدول :

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
ص	شاهين	ا	نسر	ع	هيق
د	صقرين	ل	رأل	ل	رأل
ق	عنقاء	س	جباري	ي	قبججين
ل	رأل	م	سماي	ا	نسر
ن	فياد	ه	شقراق	ل	رأل
ا	نسر	ت	بازي	ك	عقق
ف	ديك	ظ	طارس	ل	رأل
ا	نسر	ف	ديك	م	سماي
ل	رأل	ر	قمري	ه	شقراق

فَاسْأَلِ - الشَّاهِينَ ، وَالصَّقْرَيْنِ ، وَالْعَنْقَاءَ - تُخْبِرُ
ثُمَّ رَأَلَ الْقَفْرَ ، وَالْفَيَّادَ ، وَالنَّسْرَ الْمَعْمَرُ

وإلى القارىء معاني هذه الكلمات :

الشاهين : ضرب من الصقور أ كدر أبنت أى رمادى اللون .

العنقاء : طائر خرافى لا وجود له إلا فى شعر الشعراء .

رأى : ولد النعام ، وسيرت بك فى « ص ٢٨٤ »

الفياد : ذكر البوم .

نسر : النسر طائر عظيم من جوارح الطير سمي بذلك لأنه ينسر الشيء ويقتله ويقتنصه والكثير الريش

منه يسمى الغداف .

ديك - الديك : ذكر الدجاج .

رال : ولد النعام .

جبارى - الجبارى : طائر فى حجم الديك الهندى كثيرة الريش ، ومنها بيضاء وكدراء .

سمانى : طائر معروف فوق العصفور ، ويجمع على سمانيات .

قالوا : وهو ينوص فى البحر بأحد جناحيه ويقم الآخر كالقلم للسفينة ، فتدفعه الريح إلى ساحل البحر .

وكثيراً ما يوجد يبلاد السواحل ، وله صوت حسن ومن شأنه أنه يسكت فى الشتاء ، فإذا أقبل الربيع صاح .

شقراق : طائر صغير بقدر الحمام أخضر مشبع الخضرة ، حسن النظر ، فى جناحيه سواد وعده الجاحظ نوحا

من الغربان . يألف الروابى وروس الجبال . وله مشى ومصيف ، قال الجاحظ وهو كثير الاستغاثه ، إذا

مر به طائر ضربه بجناحيه وهاج كأنه هو المضروب .

بازى - البازى : من الصقور الأزرق الأحرى ، والأرقط القصير الجناحين الغليظ .

طاوس : طائر فى نحو قدر الاوزة ، حسن اللون ، والذكر منه غاية فى الحسن له فى رأسه ذؤابة قائمة

كالشربوش ، وفى ذنبه ريش أخضر طويل فى أحسن منظر ، وليس للأنثى مثل ذلك وفى طبعه الزهو

بنفسه والاعجاب بربشه ، وفى الحريف باقى ريشه كما باقى الشجر ورقه ، فإذا بدا طلوع أوراق الأشجار

طلع ريشه .

قرى سير بك فى « ص ٣٠٤ »

هيق : ذكر النعام ، قال أبو العلاء على لسان جنى فى رسالة الغفران :

« وأركب الهيق - فى الظلماء - معسفاً أو لا ، فذب رباد بات مفرورا . »

قبيج : مشى قبيج وهو الكروان وسيرت بك فى « ص ٣٠٤ »

عقمق - العقمق طائر كالغراب ضخيم طويل المنقار يجعل حجلاً ، وهو يدجن ولونه أبيض وبياض وسواد .

شقراق - الشقراق : طائر مرقط بخضرة وحمرة وبيض ويكون بأرض الحرم .

نَمْ - بَعْدَ الدَّيْكَ - عُدَّ لِلنَّسْرِ وَالرَّأْلِ الْمُنْفَرِّ

أصل اشتقاق اللغز

وأصل اشتقاق اللغز - كما يروى النويري - من ألغز اليربوع ولغز ، إذا حفر لنفسه مستقيماً ثم أخذ يمتا وبسرة لبواري بذلك ويعمى على ظالبه .
ولغز أساء ، فنها : المعايه ، والعويس ، والرمز ، والحاجه ، وأبيات المعاني ، والملاحن ، والرموس ، والتأويل ، والكناية ، والتعريض ، والاشارة ، والتوجيه ، والمعنى ، والمثل ، ومعنى الجميع واحد ، واختلافها بحسب اختلاف وجوه اعتباراته .

فانك إذا اعتبرته من حيث إن واضعه كأنه يعايبك - أى يظهر إعياذك وهو التعب - سميته : «معايه»
وإذا اعتبرته - من حيث صعوبة فهمه واعتياص استخراجيه - سميته : «عربياً» .
وإذا اعتبرته - من حيث إنه قد عمل على وجوه وأبواب - سميته : «لغزاً» . وفعلك له : «لغزاً» .
وإذا اعتبرته - من حيث إن واضعه لم يفصح عنه - قلت : «رمز» وقرب منه الاشارة .
وإذا اعتبرته - من حيث إن غيرك جاهلك - أى استخراج مقدار عقلك - سميته : «محاجه» .
وإذا اعتبرته - من حيث إنه استخراج كثرة معانيه - سميته : «أبيات المعاني» .
وإذا اعتبرته - من حيث إن قائله قديومك شيئاً ويريد غيره - سميته : «لحناً» وسميت فعلك : «الملاحن» .
وإذا اعتبرته - من حيث إنه ستر عنك ورمس - فهو «الرموس» ، والرمس القبر .
وإذا اعتبرته - من حيث أن معناه يؤول إليك - سميته : «مؤولاً» . وسميت فعلك : «تأويلاً» .
وإذا اعتبرته - من حيث إن صاحبه لم يصرح بفرضه - سميته «تعريضاً» ، و «كناية» .
وإذا اعتبرته - من حيث إنه ذو وجوه - سميته : «الموجه» وسميت فعلك : «التوجيه» .
وإذا اعتبرته - من حيث إنه مغطى عليك - سميته : «معمى» .
طرق التعمية

ومن ضروب التعمية - ما ذكره الفلقشندي - وهو أن يصطاح الانسان على إبدال حرف معين بحرف آخر معين - حيث وقع في القلم المعروف بالانمى - وهو أن جعلوا مكان كل حرف من حروف العربية حرف آخر من حروفها ، فجعلوا الكاف ميماً وبالعكس ، والألف واواً وبالعكس ، والدال راءً وبالعكس والسين عيناً وبالعكس ، والفاء ياءً وبالعكس .

فيكتب «محمد» «كطكر» ، و «على» «سهب» ، و «مسعود» «كمار»
وقس على ذلك .

وقد نظام بعضهم ذلك في بيت واحد ذكر فيه كل حرف تلو مايدل به ، وهو :
«كم أو حط صلاله درسم فى بزخش عض شج تدفق» .
ومنهم من يمسح حروف الكلمة ، فيكتب «محمد» «ددم» ، و «على» «يلع» . ومنهم من يبدل الحرف الأول من الكلمة بنائه مطلقاً في سائر الكلام ، فيكتب : «محمد أخو على» : «حمد خاعويل» إلى غير ذلك من التميزات .

ثُمَّ عُدَّ - لِلنَّسْرِ وَالرَّاءِ - لِكُلِّ قَدْ تَكَرَّرَ

ومنهم من يسدل الحروف بأعدادها في الجمل فيكتب « محمد » « ٤٠ و ٨ و ٤٠ و ٤ » وتعمل التعمية صفة محاسبة .

ومنهم من يكتب - عوض عدد الحروف - حروفاً ، وهو أبلغ في التعمية ، فيكتب « محمد » « لى ، بو ، لى ، اج » لأن اللام والياء بأربعين ، وهى عدد مالهيم الأولى ، والباء والواو بثمانية ، وهى عدد مالهيم اللحاء ، واللام والياء أيضاً بأربعين ، وهى عدد ما للهيم الثانية ، والألف والجيم بأربعة وهى عدد ما للدال ، فكانه قال : « م ح م د . »

وإن شاء أنى بغير هذه الحروف مما يتضمن غير هذه الأعداد .

ومنهم من يجعل لكل حرف اسم رجل أو غيره . ومنهم من يضع الحروف على منازل القمر الثمانية والعشرين ، على ترتيبها على حروف « أبجد » :

فيجعل الألف للشرطين ، والباء للبطين ، والجيم للثريا ، وهكذا إلى آخرها : فيكون بطن الحوت للعين من « ضئغ » .

وربما اصطلاح على الترتيب على أسماء البلدان أو الفواكه أو الأشجار ، أو غير ذلك ، أو صور الطير وغيره من الحيوانات ، إلى غير ذلك من ضروب التمامى التى لا يأخذها حصر .

وأكثر أهل هذا الفن على أن يرسم الحروف أشكالاً يخترعها فلما له مقفلة على ترتيب حروف المعجم ، والطريق فى ذلك أن يثبت حروف المعجم ، ثم يرتب تحت كل واحد شكلاً لا يماثل الآخر ، فكلمنا جاءه فى اللفظ ذلك الحرف كتبه بحيث لا يقع عليه غلط . ثم يفصل بين كل كلمتين ، إما بخط أو بنقط ، أو بياض ، أو دائرة ، أو غير ذلك .

وأكثر المتقدمين يحلون الحرف المشدد بحرفين ، والمتأخرون يجعلونه حرفاً واحداً .

وقد ذكر الفلقشندي - فى ذلك - فصلاً طويلاً فى الجزء التاسع من صبح الأعشى ، فليرجع إليه القارىء « من ص ٢٢٩ إلى ٢٤٩ » إذا شاء .

أمثلة من التعمية

ومن الأمثلة التى ذكرها النويرى قول الحكيم أمير الدولة - المعروف بابن التلميز - ملغزاً فى الميزان :

« ما واحد مختلف الأسماء يبدل فى الأرض وفى السماء »

يحكم بالقسط بلا رياء أعمى يرى الرشاد كل رأى

أخرس - لا من هلة وداء - يننى عن التصريح بالإيماء ،

يجيب - إن ناداه ذوامتراء - بالرفع والحفض عن النداء

يفصح إن خلق فى الهواء . »

فهو بقوله : « مختلف الأسماء » يعنى : « ميزان » الشمس ، والاصطرلاب ، وسائر آلات الرصد وهو معنى قوله : « يحكم فى السماء » . وميزان الكلام : « النحو » وميزان الشعر : « العروض » وميزان المعاني : « المنطق » وهذه الميزان والذراع والسكياك .

وقول آخر فى الميزان :

« ما تقولون : فيما نزل من السماء ، وعلق فى الهواء ، له عين صياء ، وكف شلاء ، ليس له - إن عدل -

وَالْحَبَّارِيُّ وَالسَّمَانِيُّ وَالشَّقَرَّاقِ الْمُحَبَّرُ

ثوب ، ولا عليه - إن جار - عقاب . خلق من ثلاثة أجناس ، تضعفه الأنفاس . جسده عار من غير لباس ، أخرس اللسان ، في أذنه خرصان ، مكرر الذكر في القرآن ، ينطوى - إذا نام - كالصل ، وفعله المستقبل . معتل ، وله في الآخرة أكبر محل .

وقول ابن الرومي في نتيحة السراج :

« ماحية في رأسها درة تسبح في بحر قليل المدى ؟
إن غيبت كان العبي حاضرًا وإن بدت لاح طريق الهدى ! »

وقول السري الرفاء في شبكة الصياد :

« وكثيرة الأحداق ، إلا أنها عمية ، ما لم تنغس في ماء
وإذا هي انفسست أفادت ربها ما لا ينال بأعين البصراء . »

وقول آخر في النوم :

« وحامل يحملني وماله شخص يرى !
إذا حصلت فوقه وهو لذيق المتطى
سريت لا أدري أفى أرض سريت ؟ أم سها ؟ »

وقول الممرى في ركابي السرج :

« خليلان نيطا في جوانب مجلس جداراه قدام له ووراء
معى يضع الرجلين ماش عليهما يزل عنه - في وشك - حفا وحفاء . »
قوله : « خليلان » لقشاهما ، والجلس : « السرج » ، وجداراه : « قريوسه » و « رادفته »
والحفا مقصور : « وجع الرجل » وممدود ، من مشى الرجل حافياً بغير نعل .
وقوله في الملح :

« وبيضاء - من سر الملاح - ملكتها فلما قضت لاربي حيوت بها صهي
فباتوا بها مستمتتين ، ولم تزل تحشم - بعد الطعام - على الشرب . »
قوله : سرأى : « خالصة » والملاح : جمع ملح ، والارب : الحاجة . وقول آخر في الحرب .
« ما ذات شوكة لها جناح يختطف الناس عن قريب
وهي عقيم ، ترى بنينا من بين مرد ، وبين شيب
يأكل بعض البنين بعضاً طلوع شمس إلى غروب
تصنيفها الداء - غير شك - قد يحسم الداء بالطبيب
والدواء معكوسه مكان يصلح للطائر النجيب
يعرفها من يكون طبا بالشر والنحو والغريب . »

فهذا لغز مسمى في الحرب ، وشوكها : « السلاح » ، وجناحها : « جانبها » ، وعقيم لأنها لا تلد
وبنوها : « رجالها » وأكلهم : « قتلهم . » ، وتصنيفها : « الحرب » وعكسه : « برج »
وقول آخر في الندى :

« وما أخوان مشتهيان جدا كما اشتبه الفراية والغراب »

ثُمَّ سَائِلٌ بَعْدَهَا الْبَا زِيَّ إِنَّ حَلَّ فَصَّرْصَرُ

يضـمهما على مر الليالى - وما اجتمعا ، ولا افتزفا - إهاب
لذاك وذا ، دموع هاملات ، ولكن كل دمعهما شراب
يصونهما عن الأبصار - دين يضرب - دون نيلهما - حجاب .
وهما ثديا المرأة ، ويضمهما إهاب ، وهو : « الجلد »
وقول آخر فى الفخ :

« وما ميت كفته ودفنته قدام إلى حى صحيح فأوثقه . »

وقول آخر فى الصدى :

« وساكن يسكن فى الفلاة ليس من الوحش ولا النبات
ولا من الجن ، ولا الحيات ، ولا الحيام الشمر والأبيات
ولا بذى جسم ولا حياة كلا ، ولا يدرك بالصفات
بلى ، له صوت من الأصوات يسمع فى الأحيان والأوقات . »
وقد ذكر النورى أمثلة كثيرة من هذه الأنواع وأشباهاها ، ثم قال :

مسائل العويص

ومما يتصل بهذا الباب مسائل العويص .

فمن ذلك قولهم :

« امرأتان التقتا برجلين ، قالتا لهما : « مرحبا بابنينا وزوجينا ، وابنى زوجينا . »

وذلك أن كل واحد منهما تزوج بأمر الآخر ، فهما ابناهما وزوجاهما وابننا زوجيهما »
وقولهم :

« رجلان كل واحد منهما عم الآخر وابن أخيه . »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بأمر الآخر ، فزق كل واحد منهما ولدا ، فكل من الولدين عم
الآخر وابن أخيه .

وقولهم :

« رجلان ، كل واحد منهما خال الآخر وابن أخته »

وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بابنة الآخر ، فزق كل واحد منهما ولدا ، فكل من ولديهما خال
الآخر وابن أخته .

وقولهم :

« رجل وامرأتان ، هو خال إحداهما وهي خالته ، وعم الأخرى وهي عمته . »

وذلك : أن جدته أم أبيه تزوجت بأخيه لأمه ، وأخته لأبيه تزوجت بأب أمه ، فولدتا بنين ، فبنت أخته
خالته ، وهو خالها ، وبنت جدته عمته وهو عمها .

وهذا أصل الأبيات المنظومة فى ذلك :

« ولى خالة وأنا خالها ، ولى عمة وأنا عمها . »

مَعَهُ الطَّائِفُ وَالَّذِي إِذَا بِالصَّبْحِ بَشَّرَ

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما ابن خال الآخر وابن عمته »
وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بأخت الآخر ، فرزق كل منهما ولدا ، فكل من ولديهما ابن خال
الآخر وابن عمته .

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما عم والد الآخر . »
وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بأم أب الآخر ، فكل من أولادها عم أب الآخر .

وقوله :

« رجلان كل واحد منهما عم أم الآخر . »
وذلك : أن كل واحد من أبويهما تزوج بابنة ابن الآخر ، فكل من أولادها عم أم الآخر .

وقوله :

« رجلان ، كل واحد منهما خال أم الآخر . »
وذلك أن كل واحد من أبويهما تزوج بابنة بنت الآخر فكل من أولادها خال أم الآخر .

وقوله :

« رجلان أحدهما عم الآخر ، والآخر خاله » وذلك أن رجلاين تزوج أحدهما امرأة ، وتزوج الآخر ابنة
ابنتها ، فولد لكل منهما ولد فابن الأب عم ابن الابن ، وابن الابن من أم امرأة الأب هو أخوها وخال ابنها .

وقوله :

« رجلان ، أحدهما عم الآخر وخاله ، والآخر ابن أخيه وابن أخته »
وذلك : أن رجلا له أخ لأب ، وأخت لأم ، فزوج أخاه لأبيه ، بأخته لأمه ، فأولدها ولدا ، فهما كذلك .
وقد طلب الهمداني من الخوارزمي — أثناء مناظرته المشهورة — أن يكتب كتابا خاليا من الحروف العواطل ،
وآخر أوائل سطورها كلها ميم وآخرها كلها جيم الخ « فسمى الخوارزمي ذلك شعبية . وصدق في تسميته
كل الصدق .

وما أجدر هذا الوصف بأمثال هذه الألعاب الكلامية .

ألفاز الحريري

ومن ألفاز الحريري الذي اقتنى أثر الخوارزمي في مقاماته قوله في المقامة الفرضية — وهي مقامته الخامسة عشرة :

« أيها العالم الفقيه الذي فاق ذكاء ، فخاله من شبيهه

أفتنا في قضية ، حاد عنها كل قاض ، وحار كل فقيه :

رجل مات عن أخ مسلم حرّ تقي من أمه وأبيه

وله زوجة ، لها — أيها الجبر — أخ خالص بلامسويه

فحوت فرضها ، وحاز أخوها ما تقي بالارث دون أخيه

فأشفنا بالجواب عما سألنا فهو نص ، لا خلف يوجد فيه . »

ثم حل هذا اللغز بقوله :

« قل لمن يلغز المسائل : إني كاشف سرّها الذي تحفيه

إن ذا الميت الذي قدم المرع أخا عرسه عن ابن أبيه

تَلَوُّهُ الْقُمْرِيُّ مَهْمَا رَدَّدَ السَّجْعَ فَقَرَّرَ

رجل زوج ابنه - عن رضاه - بحمالة له ، ولا غرو فيه
ثم مات ابنه ، وقد علقت منه ، فجاءت بابتن يسر ذويه
فهر ابن ابنه - يغير مرء - وأخو عرسه ، بلا تمويه
وابن الابن الصريح أدنى إلى الجسد ، وأولى بارته من أخيه
فلذا - حين مات - أوجب لازر جة ، ثمن التراث تستوفيه
وحوى ابن ابنه الذى هو فى الأصل أخوها - من أمها باقية
ونحلى الأخ الشفيق ، من الارث ، وقلنا : يكفيك أن تبكيه
هاك منى الفتيا التى يحثيها كل قاض يقضى ، وكل فقيه .
المقامة الشتوية

وقوله فى المقامة الشتوية .

«عندى أطحيب أرويا - بلا كذب - عن العيان - فكنونى : أبا العجب
رأيت يا قوم ، أقواما غداؤهم بول العجوز ، وما أعنى ابنة الغيب.»
« بول العجوز » لبن البقرة ، والعجوز أيضاً من أسماء الحر .
« ومستنين من الأعراب قوتهم أن يشتنوا خرقة ثنى من السغب.»
« الخرقة » القطعة من الجراد .
« وقادرين - متى ما ساء صنعهم ، أوقصر وافيهم - قالوا : الذنب للحظب.»
« القادر » الطامخ فى القدر والقدير المطبوخ فيها .
« وكاتين وما خطت أناملهم حرفا ولا قرؤا ماخط فى الكتب.»
« السكاتيون » الخرازون يقال كتب السقاء والمرادة إذا خرزهما وكتب البقلة أو الناقة إذا جم شفرها
وخطها . قال الشاعر :
« لا تأمن فراريا خلوت به على قلو صك واكتبها بأسيار .»
« وتابعين عقابا فى مسيرهم على تكميم فى البيض واليب .»
« العقاب » الراية وكانت راية النبى صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب .
« وممتدين ذوى نبل بدت لهم نبيلة فاثنوا منها إلى الحرب .»
« النبيلة » الجيفة ومنه تنبل البعير إذا مات وأروح يعنى نتن .
« وعصبة لم تر البيت العتيق وقد حجت جثيا بلا شك على الركب .»
معنى « حجت جثيا » أى غلبت بالحجة مجاديين جاثين على الركب وجنى جمع جاث .
« ونسوة بعد ما أدجن من حلب صبحن كاظمة من غير ما تمب .»
« كاظمة » فى هذا الموضع من كظم النبط .
« ومدجلين سروا من أرض كاظمة فأصبحوا حين لاح الصبح فى حلب .»
« فى حلب » أى أصبحوا يحملون اللبن .
« ويانما لم يلامس قط غائصة شاهدته وله لسل من العقب .»
« الفسل » ههنا العدو . قال تعالى - وهم من كل حذب ينسلون - « والعقب » مؤخر القدم .

نَمُّ نَادِ الْهَيْقِ وَالرَّاءِ لَ، لَعَلَّ السَّرَّ يَظْهَرُ

- « وشائبا غير مخف للمشيب بدا في البدو وهو فتى السن لم يشب . »
- « الثائب » ههنا مازج اللين و « المشيب » اللين المزوج ويقال فيه مشيب ومشوب .
- « ومريضاً بلبات لم يفه فيه رأيته في شجار بين السبب . »
- « الشجار » المحفة ما لم تكن مظلة ، فان ظلت فهو الهودج ، والسبب ههنا الحبل ، ومنه قوله تعالى - فليبدد بسبب إلى السماء -
- « وزارما ذرة حتى إذا حصدت صارت غيراء يهواها أخوالطرب . »
- « النبيراء » المسكر المتخذ من الذرة يسمى أيضا السكركة ، وفي الحديث : إياهم والغيراء فانها خمر العالم .
- « وراكباً وهو مغلول على فرس قد غل أيضا وما ينفك من خبب . »
- « المغلول » ههنا العطشان ، وغل أى عطش .
- « وذا يد طلق يقتاد راحلة - مستعجلاً - وهو مأسور أخو كرب . »
- « المأسور » الذى يجرد الأسر وهو احتباس البول .
- « وجالسا ماشياً تهوى مطيته به ، وما فى الذى أوردت من ريب . »
- « الجالس » الآتى نجداً والماشى الذى كثرت ماشيته ، وعليه نسر بعضهم قوله تعالى - أن امشوا كأنه دماء لهم بكثرة الماشية والنماء والبركة .
- « وحائكاً أجزم الكفين ذا خرس فان عجبتكم فكتم فى الخلق من عجب . »
- « الحائك » ههنا الذى إذا مشى حرك منكبيه ونجح بين ركبته .
- « وذا شطاط - كصدر الرمح قامته - صادفته بتنى يشكو من الحذب . »
- « الحذب » ما يرتفع من الأرض .
- « وساعياً فى مسرات الأنام - يرى إفراحهم مأثماً كالظلم والكذب . »
- « إفراحهم » إيقاعهم بالدين ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يترك فى الاسلام مفرح أى متقل من الدين أو يقضى عنه دينه . »
- « ومفرماً بمنجاة الرجال له وماله فى حديث الخلق من أرب . »
- « الخلق » ههنا الكذب ، ومنه قوله تعالى - إن هذا إلا خلق الأولين .
- « وذا ذمام وقت بالمهد ذمته ولا ذمام له فى مذهب العرب . »
- « الذمام » الثانى جمع ذمة ، وهى البئر القليلة الماء وعنى بالمذهب المسلك أى ماله آبار قليلة الماء فى البدو .
- « وذا قوى ما استبانت قط لينته ولينه مسدين غير محتجب . »
- « اللين » نجيل الدقل ، ومنه قوله تعالى - ما قطعتم من لينة -
- « وساجداً فوق فخل غير مكثرت بما أنى ، بل يراه أفضل القرب . »
- « الفعل » الحصير المتخذ من لحال النخل .
- « وماذروا مؤلماً من ظل يعذره - مع التلطف - والمعذور فى صخب . »
- « العاذر » الحائن « والمعذور » المختون .
- « وبلدة ما بها ماء لمنترف ، والماء يجرى عليها جرى منسرب . »

وَتَعَيَّفُ مَا لَدَى الْقَبْرِ جَيْنِ مِنْ خَافٍ سَيَظْهَرُ

- « البلدة » الفرجة بين الحاجين ونسبى أيضاً البلجة .
 « وقرية - دون أغوص القطا - شجنت - بديلم عيشهم من خلسة السلب . »
 « القرية » بيت النمل « والديلم » النمل الكثير « وخلسة السلب » لحاء الشجر .
 « وكوكباً يتوارى عند رؤيته الانسان حتى يرى في أمنع الحجب . »
 « السكوكب » النكتة البيضاء التي تحدث في العين « والانسان » ههنا إنسان الدين .
 « وروثة قومت مالا له خطر - ونفس صاحبها بالمال لم قطب . »
 « الروثة » مقدم الأنف .
 « وصحفة من نضار خالص ، شريت - بعد المكاس - بغير اطم من الذهب . »
 « النضار » هاهنا شجر النع ، ومنه قول بعض التامين : « لا بأس أن يشرب في قدح النضار » عنى به هذا
 « ومستجيشاً بخش - عناش ليدفع ما أظله من أعاديته فلم يحب . »
 « الحشخاش » الجماعة عليهم دروع وأسلحة .
 « وطالما مرّ بي كلب وفي فمه ثور ، ولكنه ثور بلا ذنب . »
 « الثور » القطعة من الاقط (وهو نوع من الجبن)
 « وكم رأى ناظرى فيلا على جبل وقد تورك فوق الرجل والقتب . »
 « الفيل » الرجل الفاضل الرأى .
 « وكم لقيت - بعرض اليد - مشتكياً وما اشتكى قط في جد ولا لعب . »
 « المشتكى » المتخذ شكوة وهي القرية الصغيرة .
 « وكنت أبصرت كرازا لراعية - بالدو - ينظر من نينين كالشهب . »
 « الكراز » كبش يحمل عليه الراعي أدواته .
 « وكم رأيت مقلتي عينين - ماؤهما يجرى من الغرب - والعينان في حلب . »
 « الغرب » مجرى الدمع « والعينان » المقلتان .
 « وصادعاً بالقنا من غير أن خلقت كفاه يوماً برمح لا ولم يثب . »
 « القنا » ارتفاع الأنف وتحذب وسطه « وصدع به » أى كشفه .
 « وكم نزلت بأرض - لا تخيل بها - وبعد يوم رأيت البسر في القلب . »
 « البسر » جمع بسرة وهو الماء الحديث العهد بالمطر « والقلب » جمع قلب .
 « وكم رأيت - بأقطار الفلا - طبقاً يطير في الجو منصباً إلى صيب . »
 « الطبق » القطعة من الجراد .
 « وكم مشاخ - في الدنيا - رأيتهم مخلدن ، ومن ينجو من العطب ؟ »
 « المخلد » الذى أبطأ شبيهه .
 « وكم بدالى وحش - يشكى سغباً - بمنطق ذلق أمضى من القضب . »
 « الوحش » الرجل الجائع .
 « وكم دعانى مستنج مخادئى وما أخل - ولا أخلت - بالأدب . »

نَمَّ عُدَّ لِلنَّسْرِ وَالرَّا لِهَمَّا فِي الْأَمْرِ أَكْثَرُ

« المستنجد » الجالس على نخوة وهو المكان المرتفع .
 « وكَمَ أُنَحَّتْ قُلُوصِي - تحت جنبذة - تظلّ ماشئت من عجم ومن عرب . »
 « الجنبذة » القبة « والعرب » جمع عروب وهي التحببة إلى زوجها من قوله تعالى - عرباً أثرباً -
 وكَمَ نظرت إلى من سرّ ساعته ودعاه مستهلّ الفطر كالسحب .
 « سرّ » أى قطع سرره ويسمى ما يبقّى بعد القطع السرة .
 « وكَمَ رأيت قيصاً ضرّاً صاحبه حتى انثنى واهى الأعضاء والعصب . »
 « القميص » الدابة الكثيرة القموص وهو انوثوب والقفز .
 « وكَمَ لِمَازَر لو أن الدهر أنفقه لطف لبس حثيث السير مضطرب . »
 « الازار » المرأة ، ومنه قول الشاعر : * فدى لك من أخى ثقة لِمَازارى *
 ثم يقول فى ختام قصيدته :
 « هذا وكَمَ من أفانين معجبة عندي ، ومن ملح تلهى ومن نخب
 فان فظنتم لالحن القول بان لكم صدق ودلكم طلى على رطبي
 وإن شدهم ، فان العار - فيه - على من لا يميز بين النع والغرب . »
 المقامة النجرانية

وقوله - فى المقامة النجرانية - فى مروحة الحبش ، وهى ثياب خشنة من الكتان تستعمل فى العراق تكون
 شبه شراع السفينة ، تعلق فى سقف البيت ، ويعمل لها جبل منها - تجر به - وتبل بالماء ، وترش بماء
 الورد ، إذا أراد الرجل النوم ، جذب جبلها ، فيهب منها نسيم بارد طيب يذهب أذى الحر ، ويستطاب
 معها النوم ، وقد أُلنَز فيها الحريرى بقوله :

« وجارية فى سيرها - مشعله - ولكن - على إثر المسير - قفولها
 لها سائق - من جنبها - يستحيا ، على أنه - فى الاحتثاث - رسيها
 ترى - فى أوان الفيظ - تنطف بالندي ، ويبدو - إذا رلى المصيف - قفولها . »

وقوله ملئزاً فى جابول النخل ، وهو الجبل الذى يصعد به النخل ، ويتخذ من اللحاء أى ليف النخل .

« ومنسب إلى أم تنشأ أصله منها
 يعاتقها ، وقد كانت نفته - برهة - عنها
 به يتوصل الجاني ، ولا يلجى ، ولا ينهى . »

وقوله - ملئزاً فى القلم :-

« ومأموم ، به عرف الامام كما باهت بصحبته الكرام
 له - إذ يرتوى - طيشان صاد ، ويسكن حين يعروه الأوام
 ويذرى - حين يستقى - دموا يرقن ، كما يروق الانسام . »

وقوله ملئزاً فى المروء الذى يكتحل به :

« وما ناكح أخين جبراً وخفية ، وليس عليه - فى النكاح - سبيل ؟
 متى ينش هذى ينش - فى الحال - هذه ، وإن مال به لم تجده يميل
 يزيدهما - عند المشيب - تمهدا وبراً ، وهذا - فى البعول - قليل . »

وَأَزْجُرِ الْعَقَّاقَ - حَقَّ الزَّجْرِ - إِنَّ الطَّيْرَ تُزْجَرُ

وقوله - ملغزاً في الدولاب : -

«وجاف، وهو موصول وصول ليس بالجاف
غريق بارز، فاعجب له، من راسب طافي
بـجـ دموع مضموم وبـضـم هضم متلاف
وتخشى منه حدته ولكن قلبه صافي.»

إلى آخر هذه الألفاظ التي تراها في هذه المقامة .

المقامة الملطية

وانظر قوله - في مقامته الملطية :

«يا من - إذا - أشكل المعنى جلت به أفكاره الظلمة

إن قال يوماً لك الحاجي : «خذ تلك» مأمثله حقيقة.»

وهو يعني بذلك كلمة : «هاتيك» وها للتنبيه ويعني خذ، وتيك أى تلك .

وقوله : ماذا مثال قولهم : «حمار وحش زينا .»

يعنى كلمة «فرازين» والفرا حمار الوحش .

وقوله : ما مثل قولك للذى حاجاك : «أنفق تقمع»

يعنى كلمة «منتقم» من : الأمر من مان يمون ، فم مضارع وقم ، من الوقم وهو الاذلال

وقوله : مأمثل قولك للذى أضحى يحاجي : «غط ملكي»

ومثله : «صنبور» صن الأمر من الصون ، والبور : الهلكى .

وقوله : ماذا يمثال قولى : «استنش ربح مدامه»

ومثله : «رحراح» رح استنشق الرائحة ، والراح : الحر .

وقوله : «سار بالليل مدة» أى متى، مثله ؟

ومثله : «سراحين» سرى سار ليلاً، وحين : مدة .

وقوله : لك البيان ، فبين ، مأمثل : «أحجب فروقه»

ومثله : «مفلاع» من : الأمر من وسق : أى أحب ، واللاع : الجبان .

وقوله : مأمثل قولك «أعط ابـ» - ريقاً يلوح بنير عروة »

ومثله : «أسكوب» أس : الأمر من الأوس ، وهو الاعطاء ، والـكوب : الابريق بغير عروة .

وقوله : ما مثل قولك للمعا سى ذى الذكاء : «الثور ملكي»

ومثله «اللاى» واللاى : ثور الوحش .

وقوله : ماذا مثال : «صغير جعفة» بينه تبياناً يتم به .

ومثله «مكاشفة» والمكاء : الصغير .

وقوله «ماذا يمثال قولى : جوع أمد بزاد ؟»

يعنى «طوامير» ، طوى : جوع ومير : من ماره الطعام ، وهو مثل قوله : أمد بزاد .

وقوله : ما مثل قول الحاجي : «ظهر أصابته عين ؟»

يعنى : «مطاعين» جمع مطعون ، ومطام مثل ظهر ، وعين - من عانه أى أصابه بالعين .

وَلَيْلِ الرَّألِ سُمَانِي وَشِقْرَاقٍ تَأَخَّرَ

- وقوله : ما مثل قولك للذي حاجيت : صاف جزه ؟ »
ومثله « الفاصلة » وهي الحائلة بين الشئين ضد الواصلة وكله ألقي مثل صاف وتكتب بالياء إذا انفردت ، وصلة : جائزة أو عطية .
وقوله : ألا اكشف لي ما مثل : « تنازل ألف دينار »
ومثله : « هادبة » تأنيث الهادي ، والعنق أيضا ، ومعنى ها : خذ وتناول ، وديه هي ما يعطى لأهل القتل ، وهي من الذهب ألف دينار .
وقوله : ما مثل : « أهمل حلية » بين هديت — وعجل .
ومثله : « العاشية » وهي اسم لمن ينشئ الرجل من الأضياف ، رغاشية السرج ما ينطى به ومعنى النى أبطل وشية : حلية
وقوله : ما مثل قولك — للذي أضحي يحاجيك : « اكفف اكفف . »
ومثله : « مهمه » وهو الصعراء ، ومعنى مه : اكفف وتكررها للتأكيد .
وقوله : بين — فازلت ذا بيان — ما مثل قولي : « الشقيق أقلت »
ومثله : « أخطار » — جمع خطر ، وهو ما يؤدي إلى الهلاك ، وإذا فصلته كان : « أخ » من معانيه الشقيق ، وطار : أقلت .
وقوله : ما مثل قولك المعجى بى ذى الحجي : « ما اختار فضه »
ومثله « أبارقه » جمع ابريق ، وإذا فصلت كانت أى ما اختار ، ورقة : اسم من أسماء الغضة .
وقوله : أوضح لنا ما مثل قو لك للمحاجى : « دس جماعه »
ومثله : « مافية » وهي ما يطفو على الماء ، وطأ : أسر من وطئ ، والفئة : الجماعة .
وقوله أنت المين ، نقل لنا ما مثل قولي : « خالى اسكت . »
ومثله : « خالصة » أى خال صه ، ومعناها خالى اسكت .
وقوله في مقامته النبوية في حوار طويل بين فقيهين .
— ما تقول فين توضحا ثم لمس ظهر نعله ؟
— انتقض وضوءه بفعله .
بمى من لمس زوجته .
— فان توضحا ثم أنكاه البرد ؟
— يحدد الوضوء من بعد ؟
بمى بالبرد : النوم
— أيسح المتوضى أثيبه ؟
— قد نذب إليه ، ولم يوجب عليه .
بمى : الأذنين .
— أيجوز الوضوء مما يقذنه انمعيان
— وهل أنظف منه للعريان

لَاكَ ذَهْنٌ - بِالَّذِي فِي الشَّعْرِ مِنْ خَبَاءٍ - سَيَشَعْرُ

يعنى : جمع ثعب ، وهو مسبل الوادى .

— أَيْسَبَّاحُ مَاءِ الضَّرِيرِ ؟

— نعم ، ويحتب ماء البصير .

يعنى بالضرير : حرف الوادى ، وبالبصير : السكب .

— أَيْحَلُ التَّطُوفِ فِي الرَّيِّعِ ؟

— يَكْرَهُ ذَلِكَ لِلْحَدَثِ الشَّنِيعِ

يعنى بالتطوف : التغوط ، وبالريِّع : النهر الصغير .

— أَيْحِبُّ الْغَسْلَ عَلَى مَنْ أَمْنَى ؟

— لَا ، وَلَوْ ثَنَى .

يعنى : من نزل « منى »

— فَهَلْ يَحِبُّ عَلَى الْجَنْبِ غَسْلَ فُرُوتِهِ ؟

— أَجَلْ ، وَغَسْلَ إِبْرَتِهِ .

يعنى بالفروة جلدة الرأس ، وبالإبرة عظم المرنق .

وهكذا إلى أن استوفى مائة مسألة من هذا النوع .

المقامة النحوية

وقوله فى المقامة الرابعة والمشرين :

فما كلمة هى — إن شئتم — حرف محبوب ، أو اسم لما فيه حرف حلوب ، وأى اسم يتردد بين فرد حازم وجمع ملازم ، وأية هاء — إذا التفتت أماطت النفل ، وأطلقت المعتقل ، وأين تدنل السنين فتعزل العامل من غير أن تجمال ، وما منصوب أبداً على الظرف ، لا يخفضه سوى حرف ، وأى مضاف أدخل من عرى الاضافة يعروة ، واختلف حكمه بين مساء وغدوة ، وما العامل الذى يتصل آخره بأوله ، ويعدل مكموسه مثل عمله ، وأى حامل فائده أرحب منه وكراً ، وأنظم مكرراً ، وأكثر لله — تعالى — ذكراً ؟ وفى أى موطن تلبس الذكران ، برافع النسوان ؟ وتبرز ربات الحجال ، بعدائم الرجال ؟ وأين يجب حفظ المراتب ، على المضروب والضارب ؟ وما اسم لا يعرف إلا باستضافة كلمتين ، أو لاقتصار منه على حرفين ، وفى وضعه التزام ، وفى الثانى إلزام ؟ وما وصف — إذا أردت بالنون — نقص صاحبه فى العيون ، وقوم بالدون ، وخرج من الزبون وتعرض للهون .

وقد فسره بقوله :

« أما الكلمة التى هى حرف محبوب ، أو اسم لما فيه حرف حلوب » فهى نعم . إن .

(وأما الكلمة التى هى حرف محبوب أو اسم لما فيه حرف حلوب) فهى نعم إن اردت بها تصديق الأخبار أو العدة عند السؤال فهى حرف وإن عنت بها الابل فهى اسم والنعم تذكر وتؤنث ، وتطلق على الابل وعلى كل ماشية فيها إبل ، وفى الابل الحرف وهى الناقة الضامرة سميت حرفاً تشبيهاً لها بحرف السيف ، وقيل أنها النسخة تشبيهاً لها بحرف الجبل (وأما الاسم المتردد بين فرد حازم وجمع ملازم) فهو سراويل . قال بعضهم هو واحد وجمعه سراويلات ، فلى هذا القول هو فرد وكنى عن ضمه الحصر بأنه حلزم ، وقال آخرون بل هو جمع واحده سراويل مثل شلال وشماليل ، وسربال وسراويل ، فهو على

فَتَأْمَلْ مَا أَنْبَرَى فِكْرِي لَهُ ، ثُمَّ تَدَبَّرْ

هذا القول جمع ، ومعنى قوله ملازم أى لا ينصرف وإنما لم ينصرف هذا النوع من الجمع وهو كل جمع مائة ألف وبمدها حرف مشدد أو حرفان أو ثلاثة أو سطها ساكن لثقله وتفرده دون غيره من الجوع بأن لا نظير له فى الأسماء الآحاد ، وقد كنى فى هذه الأحجية عمالا ينصرف بالملازم كما كنى فى التى قبلها عما ينصرف باللازم (وأما الهاء التى إذا التجت أطمط الثقل وأطقت المعتقل) فهى الهاء اللاحقة بالجمع المقدم ذكره كقولك صيارفة وصياقلة فينصرف هذا الجمع عند النحاق الهاء به لأنها قد أصارت إلى أمثال الآحاد نحو رفاهية وكراهية تخف بهذا السبب وصرف لهذه العلة ، وقد كنى هذه الأحجية عما لا ينصرف بالمعتقل كما كنى فى التى قبلها عما لا ينصرف بالملازم (وأما السين التى تعزل العامل من غير أن تجامل) فهى التى تدخل على الفعل المستقبل وتفصل بينه وبين أن التى كانت قبل دخولها من أدوات النصب فيرتفع حينئذ للفعل وتنقل أن عن كونها الناصبة للفعل إلى أن تصير التخفة من التثنية ، وذلك كقوله تعالى - علم أن سيكون منكم مرضى وتقديره علم أنه سيكون (وأما المنصوب على الظرف الذى لا يخفنه سوى حرف) فهو عند إذ لا يجره غير من خاصة وقول العامة ذهبت إلى عنده لحن (وأما المضاف الذى أحل من هرى الاضافة بهروا واختلف حكمه بين مساء وغدوة) فهو لدن ولدن من الأسماء الملازمة للاضافة وكل ما يأتى بعدها مجرور بها إلا غدوة ، فإن العرب نصبته بلدن لكثرة استعمالهم إياها فى الكلام ، ثم نونها أيضا ليتبين بذلك أنها منصوبة لأنها من نوع المجرورات التى لا تنصرف ، وعند بعض النحويين أن لدن بمعنى عند والصحيح أن بينهما فرقا لطيفا وهو أن عند يشتمل معناها على ما هو فى ملكك وممكنك مما دنا منك وبعد عنك ولدن يختص معناها بما حضرك وقرب منك (وأما العامل الذى يتصل آخره بأوله ويعمل معكوسه مثل عمله) فهو يا ومعكوسها أى وكلتاها من حروف النداء وتعملها ما فى الاسم المنادى سيات وإن كانت يا أجول فى الكلام وأكثر فى الاستعمال وقد اختار بعضهم أن ينادى بأى القريب فقط كالهزة (وأما العامل الذى نأثبه أرحب منه وكرا ، وأعظم مكرأ ، وأكثر لله تعالى ذكرأ) فهو باء القسم وهذه الباء هى أصل حروف القسم بدلالة استعمالها مع ظهور فعل القسم فى قولك : أقسم بالله ، ولدخولها أيضا على المضمر كقولك بك لأفعلن ، وإنما أبدلت الواو منها فى القسم لأنهما من حروف الشفة ، ثم لتقارب معانيهما لأن الواو تفيد الجمع والباء تفيد الالتصاق ، وكلاهما متفق والمعنيان متقاربان ، ثم صارت الواو المبدلة من الباء أدور فى الكلام وأعلق بالأقسام ، ولهذا ألغز بأنها أكثر لله تعالى ذكرأ . ثم إن الواو أكثر موطننا من الباء لأن الباء لا تدخل إلا على الاسم ولا تعمل غير الجر والوار تدخل على الاسم والفعل والحرف وتجر تارة بالقسم وتارة باضممارب وتنتظم أيضا مع نواصب الفعل وأدوات العطف ، فلهذا وصفها برحب الوكر وعظم المكر (وأما الموطن الذى يلبس فيه الذكر أن براقع الذنوان وتبرز فيه ربات الحجال بعائم الرجال) فهو مراتب العدد المضاف ، وذلك ما بين الثلاثة إلى العشرة فإنه يكون مع المذكر بالهاء ومع المؤنث بمجنونها كقوله تعالى - سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام - والهاء فى غير هذا الموطن من خصائص المؤنث كقولك قائم وقائمة ، وحالم وحالمة ، وقد رأيت كيف انعكس فى هذا الموطن حكم المذكر والمؤنث حتى انقلب كل منهما فى ضد قائله وبرز فى بزة صاحبه (وأما الموضع الذى يجب فيه حفظ المراتب على المضروب والضارب) فهو حيث يشقه الفاعل بالمفعول لتعذر ظهور علامة الاعراب فيهما أو فى إحداها ، وذلك إذا كانا مقصورين مثل موسى وعيسى أو من أسماء الاشارة نحو ذاك ، وهذا فيجب حينئذ لازالة الهمس إقرار

وَأَعْتَقِدْ أَنَّيَ فِي «نَمٍّ» كَمَنْ خَطَّ فَسَطْرَهُ

كل منهما في رتبته ليعرف الفاعل منهما بتقديمه والمفعول بتأخره (وأما الاسم الذي لا يفهم إلا باستضافة كلتين أو بالاختصار منه على حرفين) فهو مهمل وفيها قولان أحدهما أنها حركة من مه التي هي بمعنى أكفف ومن ما ، والقول الثاني وهو الصحيح أن الأصل فيها ما فزيت عليها ما أخرى كما ترداد ما على أن ، فصار لفظها ما ما ، فنقل عليهم توالي كلتين بلفظ واحد فأبدلوا من ألف ما الأولى هاء فصارتا مهمل ، ومهما من أدوات الشرط والجزاء ومق لفظت بها لم يتم الكلام ولا عقل المعنى إلا بإيراد كلتين بعدها كقولك مهما تفعل أفعل وتكون حيثئذ ملتزما للفعل ، وإن اقتضت منها على حرفين ومهما التي بمعنى أكفف فهم المعنى وكنت ملزما من خاطبته أن يكف (وأما الوصف الذي أردف بالنون نقص صاحبه في العيون ونوم بالنون وخرج من الزبون وتعرض للهنون) فهو ضيف إذا لحقته النون استحال إلى ضيفين وهو الذي يتبع الضيف وينزل في النقد منزلة الزيف .

ومن ألا عيب الحريري قوله في مقامة أخرى - مما يقرأ طردا وعكسا في مقامته المفريية :

« لم أخال ، كبر رجاء أجر ربك ، من يرب إذا بر ينم ، سكت كل من نَمَّ لك تكس » وقوله :

« أس أرمل - إذا عرا وارع إذا المرء أسا

أسند أبا نباعة أبنت أخاء دنسا

أسل جناب غاشم مشاغب إن جلسا

أسر إذا هب مرا وارم به ، إذا رسا

اسكن تقو ، فمسي يسعف وقت تكسا . »

المقامة القهقرية

وقوله في مقامته القهقرية :

« أنعرفون رسالة أرضها سهاؤها ، وصحبها مساؤها ، نسجت على منوالين ، وتجلت في لونين ، ووصلت

إلى جهتين ، وبدت ذات وجهين .

إن بزغت من مشرقها ، فناهيك بروقها ، وإن طلعت من مغربها ، فبالعجبها »

وهذه الرسالة التي تقرأ من أولها كما تقرأ من آخرها هي :

« الإنسان صنعة الأحسان ، ورب الجبل فعل الندب ، وشيعة الحر ذخيرة الجند ، وكسب الشكر استثمار

السعادة ، وعنوان الكرم تبشير البشر ، واستعمال الإدارة يوجب المصافاة ، وعقد المحبة يقتضى النصح

وصدق الحديث حلية اللسان ، وفصاحة المنطق سحر الألباب ، وشرك الهوى آفة النفوس ، وملل الحلائق

شين الحلائق ، وسوء الطمع يباين الورع ، والتزام الحرام زمام السلامة ، وتطلب المثالب شر المعايير ،

وتتبع العثرات يندحض المودات ، وخلوص النية خلاصة العطفية ، وتهنئة النوال تمن السؤال ، وتكلف

السكف يسهل الخلف ، وتيقن المعونة يسنى المؤونة ، وفضل الصدر ، سعة الصدر ، وزينة الرعاة وقت

الساعة ، وجزاء المداخيل المنام ، ومهر الوسائل ، تشفيق المسائل ، ومجلة الغواية استغراق الغاية ، وتجاوز

الحد ، بكل الحد ، وتعدى الأدب ، يحبط القرب ، وتناسى الحقوق ، يفتش العقوق ، وتغاشى الرب ، يرفع الرتب ،

وارتفاع الأخطار ، لاقتحام الأخطار ، وتنوء الأقدار بجواناة الأقدار ، وشرف الأعمال ، في تصير الآمال ، وإطالة

الفكرة ، تنفيج الحكمة ، ورأس الرياسة ، تهذيب السياسة ، ومع الحاجة ، تلغى الحاجة ، وعند الأوجال تنفاضل

الرجال ، وتتفاضل المهم تنفاوت القيم ، وبترديد السفير ، بين التدبير ، وبخلل الأحوال تقبين الأحوال ،

وبعجب الصبر ثمرة النصر ، واستحقاقه الاجهاد ، ووجوب الملاحظة ، كفاء المحافظة ،

وَتَيَقِّنَنَّ أَنَّ مَا يَنْسِفُكَ أَمْرٌ سَوْفَ يَقْدَرُ

وصفاء الموالى ، بتمهد الموالى ، وتحلى المروءات بحفظ الأمانات ، واختيار الاخوان بتخفيف الأحران ، ووقع الأعداء بكف الأوداء ، وامتنعان العقلاء بمقارعة الجهلاء ، وتبصر العواقب يؤمن المماط ، واقفاء الشبهة ينشر السمعة ، وقبح السمعة ، وقبح الجفاء ينافى الوفاء ، وجوهر الأحرار عند الأسرار .
وقوله من خطبة لا تقط فيها ولا إعجام - في مقامته السرفندية : -

« الحمد لله المدوح الأسماء المحمود الآلاء الواسع العطاء المدعو لحسم اللاواء ، مالك الأمم ، ومصور الرمم ، وأهل السباح والكرم ، ومهلك عاد وإرم ، أدرك كل سر علمه ، ووسع كل مصر حلمه ، وعم كل عالم طوله ، وهد كل مارد حوله ، أحمده حمد موحد مسلم ، وأدعوه دعاء مؤمل مسلم ، وهو الله لا إله إلا هو الواحد الأحد ، العادل الصمد ، لا ولد له ولا والد ، ولا رده معه ولا مساعد ، أرسل محمداً للإسلام بهذا الخ »
وفي مقامته المراغية - رسالة ، « حروف إحدى كتبها يعنها النقط وحروف الأخرى - كما يقول - لم يعجمن قط » وهي :

« الكرم - ثبت الله جيش سعودك - يزين ، والاثوم - غض الله جفن حسودك - يشين . والأروع يشيب ، والمعمور يخيب ، والحلال يضيف ، والمالحل يخيف ، والسبح يهذي ، والحك يقذي ، والعطاء ينجي ، والمطال يشجي ، والدعاء بقى ، والمدح ينقى ، والحري يجزى ، والالطاط يجزى ، واطراح ذى الحرمة غنى ، ومجرمة بنى الآمال بغنى ، وما ضن إلا ضنين ، ولا ذبن إلا ضنين ، ولا خزن إلا شقى ، ولا قبض راحة تقي ، وما قفى وعدك بى ، وآراؤك تشقى ، وهلاك بغنى ، وحلك يفضى ، وآلاؤك تنقى ، وأعداؤك تنقى ، وحسامك بغنى الخ . »

وله رسالة سينية كتبها - على لسان بعض الأمراء - إلى بعض أصدقائه كتاباً :
باسم السميع القدرس أستفتح ، وبإسماده أستفتح ، سيرة سيدنا الأسفهلار ، السيد النفيس ، سيد الرؤساء ، سيف السلاطين ، حرس نفسه ، واستنارت شمس ، واتسق أبسه ، وبسق غرسه .
إلى أن يقول :

« وسيف السلاطين مستأثر بأنس السماع وحسو السكؤس
سلاقي ، وليس لباس السلاوي يناسب حسن سمات النفيس
وسن تناسي جلاله وأسوا السجاي تناسي المجلس
وسر حسودى بطمس الرسوم ، وطمس الرسوم كرمس النفوس
وساقى الحسام بكأس السلاف ، وأسهمنى بمبوس وبوس . »

إلى آخر القصيدة .

ورسالة سينية ، وهي التي كتبها لأحد أصدقائه يمدحه فيها ، وفيها يقول :
« بارشاد المنشى ألقى ، شفى بالشيخ شمس الشعراء ، ريش معاشه ، وفشا رياشه ، وأشرق شهابه ، واعشوشبت شعابه ، بشاكل شفى المنشى بالفسوى ، والرائى بالرشوى ، والشادن بشرخ الشباب ، والمعطشان إلى شيم الشراب ، وشكرى لتجشمة ومشفقة ، وشواهد شفقه ، يشاكل شكر الناشد للمنشد ، والمسترفد للمرشد ، والمستشعر للمبشر ، والمستجيش للجيش المشر ، وشعارى إنشاد شعره ، وإشجاء الكاشح والمكاشح بنشره »
وهكذا إلى أن قال :

« فأشعاره مشهورة ، ومشاعره وعشرته مشكورة ، وعشائره
شأى الشعراء المشعلين شعره فشانيه مشجو الحشا ، ومشاعره
وشوه ترقيش المركش رفته ، فأشيباعه يشكونه ، ومعاشره

إلى المعتمد على الله

« وكتب أيضا رحمه الله إليه أبده الله . »

يَأْتِيهَا الظَّافِرُ نِلْتَ الْمُنَى وَلَا يَنْلِنَا فِيكَ مَحْذُورُ
إِنَّ الْخِلَالَ الزُّهْرَ قَدْ ضَمَّهَا فَوَيْبُكَ الدَّهْرَ - مَرْزُورُ
لَا زَالَ الْمَجْدِ الَّذِي شِدَّتُهُ رَبْعٌ - بِتَغْمِيرِكَ - مَعْمُورُ
حَتَّى يُوفَى فِيكَ مَا يَبْتَغَى مُعْتَصِدٌ بِاللَّهِ مَنْصُورُ

* *

وَأَفَاكَ نَظْمٌ - لِي فِي طَيِّهِ - مَعْنَى مَعْنَى اللَّفْظِ مَسْتُورُ
مَرَامُهُ يَضْعُبُ ، مَا لَمْ يَبْغِ - بِالسَّرِّ قُمْرِي^(١) وَعُصْفُورُ
وَبُلْبُلٌ ، ثُمَّ يَكُرُّ اللَّذَا تَقَدَّمَا ، فَالْلَفْظُ مَكْرُورُ
ثُمَّ تَرَى الْبُلْبُلَ قَدْ حَتَّهْ نَسْرُ ، بِهِ الشَّفَنِينَ^(٢) مَنَسُورُ
ثُمَّ الْغُرَابُ الْجَوْنُ ، يَتْلُوهُ قُمْرِي وَدَرَّاجٌ وَزَرْزُورُ

وشاق الشباب الثم والشيب وشبهه ، فنشوره بقرى المشوق، وناشره

شماله معشوقة - كشموله - وشريه مستبشر، ومعاشره . »

إلى آخر القصيدة .

(١) القمرى : طائر حسن الصوت - ويجمع على قمارى - ويقال للذكر منه : الورشان .

قال ابن سيده : « القمرى طير صغير » وعده - فى الحكم - من الحمام .

وقد زعموا أن القمارى - إذا ماتت ذكورها - لم تزوج لأنثاها .

والورشان - الذى هو ذكر القمرى - يوصف بالحنو على أولاده ، حتى أنه ربما تلى نفسه إذا رآها فى

يد القاص ، وقد مر بك فى « ص ١٠٧ » قول ابن زيدون :

« إن قننى البلبل اهنا ج فناء الورشان »

(٢) الشفنين - كما فى حياة الحيوان وابن البيطار - نوع من الحمام ، قالوا : « وهو الذى تسميه العامة

بالحمام » وجمعه شفانين .

ثُمَّ يَلِي الدَّرَاجُ^(١) - مِنْ بَعْدُ غِرْ^(٢) نَيْقُ^(٣) - وَمُكَّاءُ^(٤) وَشُرْشُورُ^(٥)
وَبَاشِقُ^(٦)، ثُمَّ إِذَا حَلَّقَ الشَّاهِينَ - وَالْمُصْفُورُ مَذْعُورُ -
ثُمَّ سَلِ الْمَكَّاءَ يَصْدُقُكَ، وَالْمُصْفُورُ، وَالْقُمْرِيُّ مَزْجُورُ
وَإِنْ جَرَى الدَّرَاجُ - فِي إِثْرِهِ الزَّرْزُورُ - فَالْمَطْوِيُّ مَذْشُورُ
وَتُحْمٌ فَأَعْلَمَ أَنَّ مَوْضُوعَهَا حَرْفُ الْفَصْلِ اللَّفْظِيِّ مَقْدُورُ
وَفِي الَّذِي عَمَسَتْ نُصَحٌ، لِمَنْ جَدَّ - مِنَ الْأَعْدَاءِ - مَشْكُورُ^(٥)

(١) الدراج - بضم الدال - طائر ظاهر جناحيه أغبر ، وباطنها أسود - في حجم القطا إلا أنه ألطف .
والجناح بعده من جنس الحمام ، لأنه يجمع بيضه تحت جناحه كما يفعل الحمام .
قالوا : وهو كثير التناج يفسر ، بقدم الربع ، وهو يصلح بهبوب الشمال وصفاء الهواء ، ويسؤ حله
بهبوب الجنوب ، حتى لا يقدر على الطيران .
(٢) الغرينق أو الغرنوق : طائر مائي ، وقيل هو الكركي أو طائر يشبهه .
قالوا :
وهو دون الحمام - في المقدار - ولونه الحمرة مع كورة ، وفي صوته ترجيع وتحزين .
ومن شأنها أنها تحسن أصواتها - إذا اختلفت - ومن طبعه أنه إذا فقد أشتاه لم يزل - فيما يزعمون -
أهزب إلى أن يموت ، وكذلك الأنثى إذا فقدت ذكرها .
قالوا :
وهو شديد الاحتراس ، وفيه ألفة للبيوت .

(٣) المكاء : طائر . (٤) الشرشور : طائر يسمى : « البرقش » وجمعه شراشير .
(٥) والبيت المطير في هذه القصيدة هو :

« أنت - إن تفر - طافر فليطع من ينافر .

ولنضع في الجدول التالي أمام كل حرف طائفة على الترتيب الذي ذكره في القصيدة هكذا : -

الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر	الحرف	الطائر
أ	قرى	غ	نسر	ف	دراج	ن	عصفور
ن	عصفور	ز	شفين	ل	غرينق	ي	مكاء
ت	بلبل	ظ	غراب	ي	مكاء	ن	عصفور
ا	قرى	ا	قرى	ط	شرشور	ا	قرى
ن	عصفور	ف	دراج	ع	باشق	ف	دراج
ت	بلبل	ر	زرزور	م	شاهين	ر	زرزور

جواب^(١)

« جأوبه ذو الوزارتين رجه الله . »

حَظِّي - مِنْ نِعْمَاكَ - مَوْفُورٌ وَذَنْبُ دَهْرِي بِكَ مَغْفُورٌ
وَجَانِي - إِنْ زَمَنِي رَامَهُ - حَجْرٌ^(٢) لَدَى ظِلِّكَ مَحْجُورٌ

يَا ابْنَ الَّذِي سَرَبُ الْهَدْيِ آمِنٌ مُنْذُ أَنْبَرَى يَحْمِيهِ مَوْفُورٌ

ولعلم القارىء أن الشاهين في قوله : « ثم إذا خلق الشاهين . » ساقط ليس له حرف هجاء كغيره من
طيور القصيدة ، وقد أشار إليه بقوله :

« و ثم فاعلم أن موضوعها حرف لفصل اللفظ مقدور . »
وقد فسكه المعتمد ، وجأوبه بالقصيدة التالية :

« ياخير من يلحظه ناظري ، شهادة ما شأبها زور
ومن إذا ما ليل خطب دجا لاح به - من رأيه - نور
رأيتك - إما شمتة - صارم غضب على الأعداء مقهور
جاءتني الطير التي سرها نظم به قلبي مسرور
شعر هو السحر فلا تنكروا أني به - ماعشت - مسحور
اللفظ والفرطاس - إن شها - قبلها مسك وكافور
ولأنه لما اعتدى خاطري مسائل جأوب عصفور
هوى لجيش الطير من فكرتي صقر فولى وهو مقهور
فلاح لي بيت فؤادي له دأبا على ودك مقصور
حظك من شكرى يا سيدي بما بدا لي منك موفور
نصرت في نظمي فاعذر فن ضاهاك في التقصير معذور
فأنت إن تنظم وتثر فقد أعوز منظوم ومنثور
لا يعدم روض من الحظ في ال إكرام والترفع ممطور . »

(١) بحث ابن زيدون بهذه القصيدة المعتمد ردا على قصيدته التي ذكرناها في هذه الصفحة .

(٢) الحجر السكف أو الحرام ، يقال : « هذا حجر عليك » أى حرام و « نشأت في حجر فلان »
أى في كنفه ومنعته وحفظه وستره .

أَجَبْتُ أَمْرِي بِالَّذِي لَمْ يَزَلْ يُصْنِعِي إِلَيْهِ مِنْهُ مَأْمُورُ
أَلَيْسَ مِنْكَ الْمَلِكُ أَسْنَى الْحَالِ بِظَافِرٍ يَنْمِيهِ مَنْصُورُ

* *

يَا مُرَوِّى الْمَأْثُورِ ، يَا بَنَ لَهُ مَجْدُهُ - مَعَ الْأَيَّامِ - مَأْثُورُ
عَبْدَكَ - إِنْ أَكْثَرَ مِنْ شُكْرِهِ - فَهُوَ بِمَا تُولِيهِ مَشْكُورُ
إِنْ تَعَفُّ عَنْ تَقْصِيرِهِ مُنْعِمًا فَالَسَّرُو^(١) أَنْ يُقْبَلَ مَبْسُورُ
إِنْ حَلَّالَ السَّحْرِ - إِنْ صُعِقَتْهُ - فِي صُحُفِ الْأَنْفُسِ مَسْطُورُ
نَظُمٌ زَهَانِي مِنْهُ إِذْ جَاءَنِي عِلْقُ عَظِيمِ الْقَدْرِ مَذْخُورُ
هَوَى إِلَيْهِ طَرَبًا خَاطِرِي كَمَا تَلَقَّى الْوَصْلَ مَهْجُورُ
لَا غَرَوْ أَنْ أُفْتِنَ إِذْ لَاحَظْتُ فِكْرِي مِنْهُ أَعْيُنٌ حُورُ
تَشِفُّ عَنْ مَعْنَاهُ الْفَاطَةُ كَمَا وَشَى بِالرَّاحِ بَلُورُ
جَهَلْتُ - إِذْ عَارَضْتُهُ - غَيْرَ أَنْ لَا بُدَّ أَنْ يَنْفُثُ مَصْدُورُ

* *

يَا آلَ «عَبَادٍ» مُوَالَاتِكُمْ ، زَاكِ - مِنَ الْأَعْمَالِ - مَبْرُورُ
إِنَّ الَّذِي يَرْجُو مُوَادَاتِكُمْ - مِنَ الْمُنَاوِينَ - لَمَغْرُورُ
مَكَانَهُمْ مِنْكُمْ كَمَا انْحَطَّ عَنْ مَنَزِلَةِ الْمَرْفُوعِ - مَجْرُورُ
يَدْنُو إِلَيْكُمْ مَا نَأَى عَنْكُمْ إِنَّ الْعُلَى مِنْ أَنْسِهِ نُورُ
لَا زِلْمٌ تَشَاوَنَهُمْ مَا انْجَالَى عَنْ فَلَقِ الْإِصْبَاحِ - دَيْجُورُ
وَلَا يَزَلْ يَجْرِي - بِإِيرَاتِكُمْ أَعْمَارُهُمْ - لِلَّهِ مَقْدُورُ

إلى المعتمد

« وكتب أبضارجه الله إليه أيده الله . »

يَا مُرْضِيًّا كُلَّ مَخْدَمٍ وَمُرْوِيًّا كُلَّ لَهْذَمٍ
وَيَا مَمِيَّ الْمَصَلَّى عَلَى أَسْمِهِ وَالْمُسَلَّمِ
وَيَا ابْنَ أَعْظَمَ مَنْ هَا بِهِ الْمُلُوكُ وَأَكْرَمُ
وَأَفَاكُ - لِلطَّيْرِ - سِرْبُ لَدَيْهِ سِرُّ مُكْتَمٍ
إِنْ تَسْأَلِ الطَّيْرَ عَنْهَا مُسْتَعْلِمًا مِنْهُ تَعْلَمُ
وَالْفَسْرُ وَالرَّهْوُ ^(١) يُذَيِّبُكَ وَالظَّلِيمُ ^(٢) الْمَصْلَمُ

(١) الرهو : الكركي ، وهو - كما جاء في صبح الأعشى - طائر أغبر طويل الساتين في قدر الأوزة ، ويجمع على كراكي ، وفي طبعه خور يحمله على التناحر ، حتى إنه إذا - اجتمع جماعة من الكراكي - يحرسها بالنوبة بينها ، ومن شأن الذي يحرس منها ، أن يهتف بصوت خفي ، كأنه ينذر بأنه حارس . فإذا قضى نوبته قام واحد ممن كان نائما يحرس مكانه حتى يقف كل منها نوبته من الحراسة ، ولا تطير متفرقة بل صفا واحدا يقدمها واحد منها - كالرئيس لها - وهي تنقبه ، يكون ذلك حيناً ، ثم يخلفه آخر منها مقدما حتى يصير الذي كان مقدما مؤخرا ، وفي طبعها التناصر والتعاقد ، ومن خاصتها أن أتاها لا تعتمد للسفاد بل يسفدها - وهي قائمة - ويكون سفاده مريها كالصفور ..

وقال الفزوي - في عجائب المخلوقات :

والكركي لا يمشي على الأرض إلا باحدى رجليه ، ويلقى الأخرى ، أو يضمها وضعا خفيفا مخافة أن تحسف به الأرض .

قال - في « المصايد والمطارد » :

وهو من أبعد الطير صوتا يسمع على أميال .

قالوا : وكانت الكراكي تأتي إلى مصر من بلاد الترك ، وفي طلبها وصيدها كانت تنال ملوك مصر نقابا لا يدرك حده ، وتنفق في ذلك الأموال الجمة .

(٢) الظليم - ذكر النعام - وقد جاء في صبح الأعشى - في مفروض الكلام عن النعام - قوله :

« هو طائر معروف ، مركب من صورتى جبل وطائر ، ولذلك تسميه الترك « دوانش » بمعنى « طير

جبل » وتسميه الفرس « اشتر مرك » ومنه « جبل طائر » وبسبب ذكر النعام : الظليم . قالوا :

ومساكنها الرمل ، وتضع بيضا سطرأ مستطيلا ، يحث لومد عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن

الأخرى ، ثم تعطى كل بيضة منها نصيبها من الحضان ، لأنها لا تستطيع ضم جميع البيض تحتها .

ثُمَّ الْهَدِيدُ^(١) تَلِيهِ حَمَامَةٌ تَتَرْتَّمُ
إِلَى عُقَايَيْنِ تَدْعُوهُمَا الظَّلِيمَ فَيَفْهَمُ
ثُمَّ الْعُقَابُ^(٢) مَعَ الصَّقْرِ، فَهُوَ بِالْشَّرْحِ أَنْعَمُ
وَالرَّالُ^(٣) وَالرَّهْوُ وَالْقَبْسُجُ^(٤) فَالثَّلَاثَةُ حَوْمٌ
ثُمَّ الْعُقَابُ فَسَلَهُ وَالصَّقْرُ لَا يَتَلَعَّمُ

وإذا خرجت للطعم ، فوجدت بيض نعامة أخرى حضنته ونسيت بيضها فربما حضنت هذه بيض هذه .
ولذلك توصف - في الطير - بالحق .
ويقال : إنها تقسم بيضها أثلاثا ، فنه ما تحضنه ، ومنه ما تجعله غذاء لها ، ومنه ما تفتحه وتعمله في الهواء حتى يتولد فيه الدود فتغذى به أفراسها إذا خرجت . قالوا :
« وليس للنعام حاسة سمع ، ولكنه قوى الشم ، يستغنى بشمه عن سماعه . حتى يقال : أنه يشم رائحة القانص من بعد . وفي أساطير العرب :
أن النعامة ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها .
ومن خصائصها أنها تتلعق العظم الصلب والحجر فتغذيه معدتها .
(١) الهدبل ذكر الحمام ، قال أبو العلاء في داليته المشهورة :
« يابنات الهدبل : أسعدن أوعدن قليل البكاء بالاسعاد . »
(٢) العقاب : طائر من الجوارح تسميها العرب بالكاس ، قيل العقاب سيد الطيور والنسر صريفا «
وتقول العرب : « أبصر من عقاب » قال ابن دريد في مقصورته الرائعة :
« فاستزل الرياء - قسرا - وهي من عقاب لوح الجو أعلى منتمى . »
وقد جاء في صبح الأعشى : أن العقاب مؤنثة لا تذكر ، وتجمع على عقبان وأعقب .
وجاء في « المصايد والطارد » قوله :
« وهي من أعظم الجوارح ، وليس بعد النسر في الطير - أعظم منها وأصل لونها السواد . »
فنها سوداء دجوجية ، وخدارية - وهي التي لا يبيض فيها - ومنها البقعاء - وهي التي يخالط سوادها بياض - ، ومنها الشقراء وهي التي في رأسها نقط بياض - قال « أبو عبيدة » و « يونس » :
« ويقال لذكر العقاب « القرن » ويقال إن ذكور العقبان من طير آخر لطاف الجرم لاتساوى شيئا ،
تلب بها الصبيان » والعقاب من أسرع الطير طيرانا . (ارجع إلى صبح الأعشى ج ٢ ص ٥٣)
(٣) الرأل : ولد النعام ، قال أبو العلاء :
« قد كنت قلت - في كلام لي قديم - إنني قد هجرت الشعر هجر الرأل تركته . »
(٤) الفقيج : والكروان ، معرب « كيج » بالفارسية وهو طائر في قدر الدجاجة طويل الرجلين حسن الصوت لا ينام الليل .

إِلَى حُبَارَى ^(١) وَبَارِ وَحَالِكِ اللَّوْنِ أَعْصَمُ ^(٢)
ثُمَّ السَّامُ ^(٣) مَعَ الرَّاءِ لِي كَيَّيُوحَ الْمُجَنَّمِ ^(٤)
إِلَى عُقَابٍ وَرَهْوٍ يُفْصِحُ بِمَا شِئْتُ أَسْنَحُ
وَمَا الظَّلِيمُ بِآلٍ فَلَوْ زَجَرْتَ لَتَرْجَمَ
ثُمَّ الْمُقَابُ سَيُوحِي لِلصَّقْرِ لَا تَتَكَلَّمُ
وَعَقَمْتُ وَهَدَيْتُ وَالْقَبِيحُ فِي ذَلِكَ مُلْتَمِ
وَتُفْ فَضْلٌ كَمَا قَدْ عَهَدْتَ فِيمَا تَقْدَمُ
يَا مُلْبِسَ الدَّهْرِ وَشَيْءٍ مِنَ الْجَمَالِ مُنْتَمِ
إِسْلَمَ سَنِيَّ الْأَمَانِي مُؤَزَّرَ النَّصْرِ مُطْعَمُ ^(٥)

- (١) الحبارى : طائر - يقع على الذكر والأنثى - قالوا : « ويضرب به المثل - في البلامة والحق يقال : « هو أبله من الحبارى » قبل ذلك لأنها إذا غيرت عشها ذمته وحضنت بيض غيرها .
- (٢) الأعصم : الظبي . قال ابن دريد : « لو ناجت الأعصم لانحط لها - طوع انقياد في شماريح الذرى . »
- وجمه عصم ، قال الشاعر :
- « وادنبني حتى - إذا ما فتنتني بقول يحل العصم سهل الأباطح
تناءيت عنى حين - لالى حيلة - وغادرت ما غادرت بين الجوانح . »
- (٣) السام : ضرب من الطير ، واحده سمامة .
- (٤) المجنم : الذى لا يفهم ، قال المعري :
- « ججم هذا الزمان قولا وكلنا يرتجى بيانه . »
- (٥) والبيت الطير - في هذا الشعر - هو :
- « أهلاك عدوك ، واسلم ، واظفر بسؤلك - وانعم . »
- وقد فكه المعتمد .

بيت مطير

« وكتب اليه المعتمد أيده الله »

يا سيدي يامعدن العلم

يا آلة للحرب والسلام

وجه طيور الشعر نحوى فقد

بث فؤادي شرك الفهم

فبعث اليه بيت مطير وجاوبه رجه الله . »

أَلْحَقَنِي بِرُكِّ النَّجْمِ	يَا ابْنَ الْبُدُورِ الزُّهْرِ مِنْ نَحْمِ
يَا لَابِسَ الْمَجْدِ الَّذِي زَانَهُ	بِالْعِلْمِ زَيْنَ الْبُرْدِ بِالرَّقْمِ
قَدْ لَثِمْتَ كَفِّي الدَّرَارِيَّ مُذْ	شَافَهْتَ تِلْكَ الْكَفَّ بِاللَّحْمِ
قُلْدَ مِنْكَ الْمُلْكُ عَضْبَ الظُّبَا	يَمْضِي مَضَاءَ الْقَدَرِ الْحَتْمِ
فَرِنْدُهُ الرِّقَاقُ مِنْ بَشَرِهِ	وَحَدُّهُ مِنْ نَافِذِ الْعَزْمِ

قَدْ جَاءَنِي النِّظَامُ الَّذِي خِلْتُهُ	مُؤَلَّفَ اللُّؤْلُؤِ فِي النِّظَامِ
حَلَيْتَنِي مِنْهُ بِفَخْرٍ يُرَى	فِي غُفْلٍ حَالِي رَائِقَ الْوَسْمِ
مُسْتَدْعِيَا طَيْرَ الْمُعَمَّى لِكَيْ	يَصِيدَهَا فِي شَرْكِ الْفَهْمِ
فَهَاكُمَا تُهْدَى إِلَى خَاطِرِ	يَسْتَخْرِجُ الْإِفْصَاحَ مِنْ عَجْمِ ^(١)

(١) البيت المطير في هذه القصيدة هو :

« أنت - إن نقر ظافر نليطع من ينافر . »

والبيت المطير

إِظْفِرْ كَمَا أَنْتَ ظَافِرٌ بِكُلِّ غَاوٍ مُنَافِرٍ

وطير له أیده الله بیتین وهما

«شعر من محض وده

لك في علم طيره

فهى مهما زجرتها

لم تخبر بغيره . »

ففكهما وجاوبه رحمه الله

أَيُّهَا الْمَاجِدُ الَّذِي خَيْرُهُ وَفَقُّ خَيْرِهِ

وَالَّذِي سَيْرٌ مُشْتَرَى أَفْقَانًا دُونَ سَيْرِهِ

مَلِكٌ صَحَّ - مِنْ أَدِيمِ الْهُدَى - قَدْ سَيْرِهِ

فَهُوَ - الدَّهْرُ - نَفْعُهُ حَاضِرٌ ، دُونَ ضَيْرِهِ

* * *

يَا لَلْيَلِي سَمِعْتُ مِنْ سَهَرِي فِي قَمِيرِهِ ؟

عَزَّ - فِي وَهْنِهِ - مَرَا مُمْ عَتَا فِي سُحَيْرِهِ

«شِعْرٌ مِنْ مَحْضٍ وَدَّهِ لَكَ فِي عِلْمِ صَيْرِهِ

فَهِيَ - مَهْمَا زَجَرْتَهَا - لَمْ تُخْبِرْ بِغَيْرِهِ

جواب على بيت مطير

« قال يمدح المعتمد على الله أبا القاسم محمد بن
المعتضد بالله وعباد بن محمد بن عباد ، أدام الله
تأييده ، في حياة أيه - وكان قد عمى له بيتا :
« الحاجب الأعلى العضد قرّة عين المعتمد »
ففكه - أيده الله - وجاوبه بأربعة أبيات ، وهي :

ياسيدي ، الأعلى ومن
أعدده أقوى العدد
حلت طيورك بي ، وقد
قرّبت منها ما بعد
كاشفتنا عن سرّها
فوشى إلى بها الصرد
بيتا يدلّ على اعتقا
دك يا جيل المعتقد
الحاجب الأعلى العضد
قرّة عين المعتضد
لجاوبه ذو الوزارتين بقصيدة ، وهي :

لَوْ أَنَّ مَنْ جَارَ قَصْدُ	لَمْ يَحْزِرْ - عَنْ وَصْلِي - بِصَدِّ
مَسِيٍّ عَهْدٍ - أَرْخَصَتْ	عَيْنَاهُ فِي قَتْلِي الْعَمْدُ
مَالِكُ سُلْطَانِ الْهُوَي	أَمْنَهُ مِنْ الْقَوْدِ (١)
مُخْلَدٌ خَلَدَ - بَرَّ	حَ الشَّوْقِ - فِي كُلِّ خَلَدٍ
وَعُرُّ الرِّضَى ، لِحُبِّهِ	نَهَجٌ - إِلَى قَلْبٍ - جَدَدٌ

قَالِي إِذَا مَا قِيلَ : « أَبْلَى حُلَّةَ الْهَجْرِ » أَجَدُّ
أَوْ قُلْتُ : « قَدْ هَبَّ نَسِيمُ الْوَصْلِ لِي مِنْهُ » رَكَدُ
مَا كُنْتُ آبِي صَدَّهُ لَوْ أَنَّ سُلوَانِي صَدُّ

* *

فِتْنَةُ وَجْدٍ ، هِيَ كَالْفِتْنَةِ فِي الْعِجْلِ الْجَسَدِ
غَيْرُ مُبِينٍ ، طَرَفُهُ يَعْصِفُ بِالْخَضَمِ الْأَلَدِ
عَصَفَ « أَبِي الْقَاسِمِ » بِالْقَتْلِ إِذَا الْقَتْلُ مَرَدُ
الْحَاجِبِ الْأَعْلَى الَّذِي لَوْ مَاجَدَ الشَّمْسَ مَجَدُ
مَحْضُ الثَّقَى ، عَفَّ الْهَوَى غَمَرُ النَّدَى ، صَدَقُ الْجَلَدِ
رَكِينُ طَوْدِ الْحِلْمِ إِنْ حُبَاهُ فِي النَّادِي عَقَدُ
مُوفَقُ الْأَنْحَاءِ مَا دَ فِي أُسَالِيبِ الرَّشَدِ
لَوْ قَصَّ كُنْهَ جُودِهِ لِلْبَحْرِ وَاقِي ، فَاسْتَمَدُ
مُؤَمَّلٌ - مَعَ الرِّضَا - يَهَابُ فِي حِينِ الْبُعْدِ
إِنْ قُلْدَ الْأَمْرِ كَفَى وَإِنْ تَوَلَّى الشُّغْرَ سَدُ
مَاءِ سَمَاحٍ فَاضَ فِي جَمْرِ ذَكَاءٍ فَاتَّقَدُ
يَا عَضُدَ الدَّوْلَةِ ، يَا مَوْلى يَبَارِيهِ أَعْتَضُدُ (١)
وَمَنْ - بِفَضْلِ اللَّهِ - حَا زَ النَّصْرِ فِي جِدِّ وَجَدُ

(١) وفي الأصل :

يَا عَضُدَ الدَّوْلَةِ يَا مَنْ يَبَارِيهِ اعْتَضُدُ .

أَصْبَحَ أَعْلَىٰ وَالِدٍ فَاقَوْهُ أَسْنَىٰ وَلَدٍ
حَدَّثَنَا عَنْ سُرُوهِ ^(١) نَاهِيكَ مِنْ قُرْبٍ سَنَدٌ

مَلِكٌ - إِذَا نَحْنُ أَعْتَمَدُ نَا مِنْهُ أَوْفَىٰ مُعْتَمَدٌ -
تَهَلَّلْتُ شَمْسُ جَبِينِ وَأُسْتَهَلَّتْ مُزْنُ يَدِ
مُمَحَّصُ الدَّهْرِ الَّذِي أَصْلَحَ مِنْهُ مَا فَسَدَ
وَعَاضِدُ الدِّينِ الَّذِي قَدْ كَانَ - قَبْلُ - يُضْطَهَدُ
وَنَاصِرُ الْعِلْمِ الَّذِي نَفَقَهُ لَمَّا كَسَدَ
مَنْ لَمْ يَعِدْ إِلَّا وَفَىٰ، وَلَا وَفَىٰ إِلَّا وَعَدَ
شَاوَرَنِي - فِي أَمْرِهِ - شَيْحَانُ لَوْ شَاءَ أُسْتَبَدَّ
يَخْشَى الْعَدُوَّ مِنْهُ عَزَّ مَ قَسُورٍ شَاكِيَ اللَّبَدِ
سَمَّحٌ لَهُ - مَهْمَا عَنَّا - فَظٌ عَلَيْهِ إِنْ عَنَدَ
كَالسَيْفِ - فِي حَالِيهِ - إِنْ رَاقَ فَرِنْدُ رَاعٍ حَدَّ
يَا مُهْدِي السَّمُطِ الَّذِي قُلَّدَتْهُ فَخْرَ الْأَبَدِ
أَحْسَنُ مِنْ رَقْمِ عِذَا رِ سَائِلٍ فِي وَشْيِ خَدِّ
أَوْ مَبْنِمْ حُلُوِّ اللَّمَّا يَفْتَرُّ عَنْ عَذْبِ بَرْدِ

إلى المعتمد

قَدْ قُلْتُ - لَمَّا هَزَّنِي مِنْهُ الْبَدِيعُ الْمُفْتَقِدُ -
 « نَسِيمُ أَيْلُولٍ سَرَى أَمْ وَرَدُ نَيْسَانَ وَرَدَ »
 خَاطِرِي السَّهْمُ وَشَى بِسِرِّ طَائِرِي لَا الصُّرْدُ
 وَفِطْنَةُ تَأَلَّفَتْ - مِنَ الْمُعَمَّى - مَا شَرَدُ
 شَنِشَنَةُ أَغْرِفَهَا فِي شِبْلِ مَلِكٍ مِنْ أَسَدُ
 يَا آلَ « عَبَّادٍ » مِثْلًا لَنْ لَيْسَ يَعْدُوهُ السَّدُّ
 مَنْ لِي بِشُكْرِ نِعْمَةٍ ، الْحُرُّ عَنْهَا مُعْتَبِدُ
 سَوَّغْتُ مِنْهَا الْعِزَّةَ الْقَعَسَاءَ فِي الْعَيْشِ الرَّغْدُ
 حَيْثُ اسْتُضِيفَ مَنَهْلٌ صَفَا إِلَى ظِلِّ بَرْدُ
 كَأَنَّهَا لِي جَنَّةٌ حَفَّتْ بِمَكْرُوهِ الْحَسَدُ
 يَحْمِلُهَا مِنِّي وَافِي الشُّكْرِ صَافِي الْمُتَقَدُّ
 كَمْ قَامَ بِالشُّكْرِ إِلَى أَنْ أَثْقَلْتُهُ فَقَعَدُ
 قَصَّرَ ، لَكِنْ لَمْ يَقْصُرْ مُبْلِغُ الْعُذْرِ اجْتَهَدُ
 وَقَيْتُ بَطْشَ الْعَيْنِ فِيكُمْ بِالْعَمَى لَا بِالرَّمَدُ

صرعى الحب ^(١)

أَخَذْتَ ثُلُثَ الْهَوَى غَضَبًا ، وَلِي ثُلُثُ ، وَالْمُحِبِّينَ - فِيمَا يَنْبَهُمُ - ثُلُثُ
 تَالَهُ ، لَوْ حَلَفَ الْعُشَّاقُ : أَنَّهُمْ مَوْتِي مِنَ الْوَجْدِ - يَوْمَ الْبَيْنِ - مَا حَشُّوا

(١) من شعر ابن زيدون الذي قاله في مدة صباه ، وقد أورده المراكشي صاحب كتاب المعجب في تاريخ أخبار المغرب ، ولم يرد في ديوان ابن زيدون .

قَوْمٌ - إِذَا هَجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا وُصِّلُوا - مَاتُوا ، فَإِنْ عَادَ مَنْ يَهُودِيَّةُ بُعِثُوا
تَرَى الْمُحِبِّينَ صَرَخِي - فِي عِرَاصِهِمْ - كَفْتِيَةِ الْكَهْفِ ، مَا يَذْرُونَ مَا لَبِثُوا

ذكرى قرطبة

« وما قاله ينشوق ابنة المهدي ومعهده بقرطبة ، ومنها

بيت أبي الطيب - في أول قصيدته الكافورية :

« بم التعلل ؟ لا أهل ، ولا وطن ،

ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن ؟ »

قصيدة أولها (١) :

هَلْ تَذْكُرُونَ غَرِيْبًا عَادَهُ شَجَنُ - مِنْ ذِكْرِكُمْ - وَجَفًا أَجْفَانَهُ الْوَسَنُ
يُحْنِي لَوَاعِيَهُ - وَالشَّوْقُ يَفْضَحُهُ - فَقَدْ تَسَاوَى - لَدَيْهِ - السَّرُّ وَالْعَلَنُ
يَا وَيْلَتَاهُ ، أَيْتَى - فِي جَوَانِحِهِ - فَوَادُهُ ، وَهُوَ بِالْأَطْلَالِ مُرْتَهَنُ
وَأَرْقَ الْعَيْنَ - وَالظَّلْمَاءَ عَاكِفَهُ - وَرَقَاهُ قَدْ شَفَّهَا - إِذْ شَفَّنِي - حَزَنُ
فَبِتْ أَشْكُو وَتَشْكُو - فَوْقَ أَيْكَتَيْهَا - وَبَاتَ يَهْفُو أُرْتِيَا حَا يَنْنَا الْفُصْنُ

يَا هَلْ أَجَالِسُ أَقْوَامًا أُحِبُّهُمْ - كُنَّا وَكَانُوا - عَلَى عَهْدٍ - فَقَدْ ظَمَعْنَا
أَوْ نَحْفَظُونَ عُهُودًا لَا أَضِيْعُهَا - إِنَّ الْكِرَامَ - بِحِفْظِ الْعَهْدِ - تَمْتَحَنُ
وَمِنْهَا :

إِنْ كَانَ عَادَكُمْ عِيدٌ ، قَرُبٌ فَتَى - بِالشَّوْقِ قَدْ عَادَهُ - مِنْ ذِكْرِكُمْ - حَزَنُ
وَأَفْرَدَتْهُ اللَّيَالِي - مِنْ أَحِبَّتِهِ - فَبَاتَ يُنْشِدُهَا - مِمَّا جَنَى الزَّمَنُ - :
« بِمِ التَّعْلَلُ ؟ لَا أَهْلٌ ، وَلَا وَطَنٌ ؟ - وَلَا نَدِيمٌ ، وَلَا كَأْسٌ ، وَلَا سَكَنٌ ؟ »

(١) ذكرها كتاب المعجب في تاريخ أخبار المغرب ، ولم ترد في ديوان ابن زيدون .

رَسَائِلُ ابْنِ زَيْدٍ وَابْنِ خُبَّارٍ

وَشُعْرُ الْمَلِكَيْنِ

وَاخْبَارُهُمَا

الرسالة الهزلية^(١)

أَمَّا بَعْدُ أَيُّهَا الْمَصَابُ بِعَقْلِهِ ، الْمُرْطُ بِجَهْلِهِ ، الْبَيِّنُ سَقَطُهُ ، الْفَاحِشُ
غَلَطُهُ ، الْعَائِرُ فِي ذَيْلِ اغْتِرَارِهِ ، الْأَعْمَى عَنْ شَمْسِ نَهَارِهِ ، السَّاقِطُ - سُقُوطَ
الذُّبَابِ - عَلَى الشَّرَابِ ، الْمُتَهَابِتُ - تَهَابَتِ الْفَرَاشِ^(٢) - فِي الشَّهَابِ ، فَإِنَّ الْمُجِبَّ
أَكْذَبُ ، وَمَعْرِفَةَ الْمَرْءِ نَفْسَهُ أَصَوْبُ ، وَإِنَّكَ رَأْسَتَنِي مُسْتَهْدِيًا - مِنْ صِلَتِي -
مَا صَفَرْتَ مِنْهُ أَيْدِي أَمْثَالِكَ ، مَتَّصِدِيًا - مِنْ خُلَّتِي - لِمَا قُرِعَتْ دُونَهُ أَنْوْفُ^(٣)
أَشْكَالِكَ ، مُرْسِلًا خَلِيلَتِكَ مُرْتَادَةً ، مُسْتَعْمِلًا عَشِيقَتِكَ قَوَادَةً ، كَاذِبًا - نَفْسَكَ
أَنَّكَ سَتَنْزِلُ عَنْهَا إِلَيَّ ، وَتَخْلُفُ - بَعْدَهَا - عَلَيَّ :

« وَلَسْتُ بِأَوَّلِ ذِي هِمَّةٍ دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ^(٤) »

* *

وَلَا شَكَّ أَنَّهَا قَلَّتْكَ إِذْ لَمْ تَضَنْ بِكَ ، وَمَلَّتْكَ إِذْ لَمْ تَعْرِ عَلَيْكَ ، فَإِنَّهَا
أَعْذَرَتْ فِي السَّفَارَةِ لَكَ ، وَمَا قَصَّرَتْ فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ ، زَائِمَةٌ أَنَّ الْمَرْوَةَ لَفْظُ
أَنْتَ مَعْنَاهُ ، وَالْإِنْسَانِيَّةُ أُنْمٌ أَنْتَ جِسْمُهُ وَهَيْوَلَاهُ^(٥) ، قَاطِعَةٌ أَنَّكَ أَنْقَرَدْتَ

(١) انظر ص « ٢٣٧ »

(٢) الفَرَاشُ مشهور بأنه يطرح نفسه في النار فيحترق ، قال الشاعر :

« هل أُنْمٌ إِلَّا الْفَرَا شَرَّ أَى الشَّهَابِ وَقَدْ تَوَفَّدَ

فَدَنَا ، فَأَجْرَقَ نَفْسَهُ وَلَوْ اهْتَدَى رَشْدَ الْأَبْعَدِ . »

(٣) قرع الأنف أى العجز والذلة ، والعرب تقول لكفء : « هو الفعل لا يقرع أنفه » وقد قال

ابن زيدون في إحدى قصائده في « ص ٦٧ » : « وَأَنْفُ الْفَعْلِ لَا يَقْرَعُ . »

(٤) البيت للمتنبي ، وهو من قصيدته المشهورة :

« إلام طماعية العاذل ولا رأى في الحب للعاقل

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل . »

والقصيدة مشهورة فليرجع إليها القارىء في ديوانه إن شاء .

(٥) أصله وحقيقته .

بِالْجَمَالِ ، وَأُسْتَأْثَرَتْ بِالْكَمَالِ ، وَأُسْتَعْلِيَتْ فِي مَرَاتِبِ الْجَلَالِ ، وَأُسْتَوْلِيَتْ
عَلَى مَحَاسِنِ الْخِلَالِ ، حَتَّى خَيَّلَتْ أَنَّ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - حَاسَنَكَ فَغَضَضْتَ
مِنْهُ ، وَأَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ ^(١) رَأَتْكَ فَسَلَتْ عَنْهُ ، وَأَنَّ قَارُونَ ^(٢) أَصَابَ بَعْضَ
مَا كَنْزَتْ ، وَالنَّظْفَ ^(٣) عَثَرَ عَلَى فَضْلِ مَا رَكَزَتْ ، وَكِسْرَى ^(٤) حَمَلَ غَاشِيَتَكَ ،
وَقَيْصَرَ ^(٥) رَغَى مَاشِيَتَكَ ، وَالْإِسْكَندَرَ قَتَلَ دَارَا ^(٦) فِي طَاعَتِكَ ، وَأَزْدَشِيرَ ^(٧) جَاهَدَ
مُلُوكَ الطَّوَائِفِ بِحُرُوجِهِمْ عَنْ جَمَاعَتِكَ ، وَالضَّحَّاكَ ^(٨) أَسْتَدْعَى مُسَالَمَتَكَ ، وَجَذِيمَةَ

(١) امرأة العزيز مشهورة بحبها يوسف الصديق وقصتها معروفة .

(٢) قارون : يضرب به المثل في الثراء والنفى ، وقد جاء في الكتاب الكريم : « وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْمَعْصِيَةِ أُولَى الْقُوَّةِ . »

(٣) قالوا : إنما عني النظف بن جبير بن حنظلة اليربوعي ، وقد كان مقما بالبادية مع بني تميم ، وقد نهب أموالا كان أرسلها كسرى إلى عامله وذهباً ومسكاً ولآلىء ، فضرب به المثل بما أصاب من ثروة طائلة ، قال بعض ولده :

«أبي النظف المباري الشمس، إني عريق في السباحة والمعال .»

(٤) كسرى : اسم يطلق على كل ملك من ملوك الفرس .

(٥) قيصر : اسم يطلق على كل ملك من ملوك الروم .

(٦) يعني الاسكندر الأكبر المقدوني وتاريخه مشهور ، و « دارا » هو ملك الفرس الذي انتصر عليه الاسكندر وقتله . (٧) اسم ملك من ملوك الفرس .

(٨) الضحاك يزعمون أنه قتل « جشيد » - سيد الشعاع ، وملك الأقاليم السبعة وأرل من عمل السلاح واستخرج الأبريسم ، والقفز ، وأزرم أهل الفساد الأعمال الشاقة في قطع الصخور ، واستخراج المعادن . قالوا : وطال عمر « جشيد » وتعبه ، وادعى الربوبية ، فخرج عليه الضحاك ، وتبعه خلق كثير من أعداء « جشيد » فظفر به الضحاك ، فهرب « جشيد » بين يديه فظفر به الضحاك وأمر بنشره بمشار ، وقال له : « إن كنت لها فادفع عن نفسك »

ثم ملك الضحاك - فيما يزعمون - وضي وتعبه وجفر ودان بدين البراهمة ، وكان - فيما يقولون - أول من غنى له ، وضرب الدنانير والدرهم ، ولبس التاج ، ووضع المشور ، إلى آخر ما زعموه له .

الْأَبْرَشَ^(١) تَمَنَّى مُنَادِمَتَكَ ، وَشِيرِينَ قَدْ نَافَسَتْ بُورَانَ فَيْكَ^(٢) ، وَبَلْقَيْسَ^(٣)
غَايَرَتِ الزَّبَاءَ عَلَيْكَ ، وَأَنَّ مَالِكَ بْنَ نُوَيْرَةَ^(٤) إِنَّمَا أَرْدَفَ لَكَ ، وَعُرْوَةَ بْنَ جَعْفَرٍ^(٥) إِنَّمَا
رَحَلَ إِلَيْكَ ، وَكُكْلَيْبَ^(٦) بْنَ رَيْبَعَةَ إِنَّمَا حَمَى الْمَرْعَى بِعِزَّتِكَ ، وَجَسَّاسًا إِنَّمَا قَتَلَهُ

(١) جذيمة الأبرش ، قد سبقت الإشارة إليه في «ص ٢٠٢» فليرجع إليها من شاء .

(٢) شيرين : هي زوجة كسرى أبرويز ، وبوران هي ابنته ، وقد أشار الممرى إلى شيرين إشارة طريفة في رسالة الففران فقال :

ولو قالت شيرين للملك لكسرى : « جعلني الله فداءك » لحالته في ذلك - ونافقته ، وإن راقته وواقفته ، على أنه أخذها من حال دينية ، لجعلها في النعمة السنية ، وعته - في ذلك - الأجاء ، وجرت لهم - في ذلك - قصص وأنباء ، وقيل له - فيما ذكر - :

« كيف تطيب نفس الملك لهذه المومس ؟ »

فنصرب لهم المثل بالقدح ، جعل في الاناء الشعر والدم ، وقال للحاضر :

« تحبب نفسك لشرب ما فيه ؟ » فقال : « إنها لانطيب وهي بالأنجاس قطيب . »

فأراق ذلك الشيء ، وغسله وهذب وطأه ، وجعل فيه - من بعد - مداما . وعرضه على الندامي ، فكلهم بهش أن يشرب ، فقال : « هذا مثل شيرين » .

(٣) بلقيس هي ملك بلاد سبأ ، والزباء هي التي قتلها عمرو بن عبدى وقتل أباهما جذيمة بن الأبرش ، وقد مر ذكره .

(٤) مالك بن نويرة : من مشهورى فرسان العرب وشجعانهم في الجاهلية ، وقد أدرك الاسلام . قالوا وارتد وبعث أبو بكر خالد بن الوليد لقتال أهل الردة ، فكان إذا صبح قوماً تسبح الأذان فإن سمعهم كف عنهم ، وإن لم يسمعهم قاتلهم إلى أن مرّ بالبطاح وبه مالك وأصحابه ، فقبل إنهم لم يستمعوا أذاناً فقاتلهم ، وأتى بمالك بن نويرة أسيراً فأمر خالد بقتله . قالوا : واحتج قوم لخالد في قتله ، وطعن عليه آخرون في كلام طويل مشهور ، وقد رثاه أخوه منتم رثاء الرائع ، وقد سمعه عمر فقال له ووددت لو رثيت أخى زيدا بمثل ما رثيت به أخاك ، فقال له منتم : والله لو علمت أن أخى صار إلى ماصار إليه أخوك لم أرته ولم أحزن عليه ، ومن أبيات منتم التي سارت في رثائه مسير الأمثال قوله :

« وقالوا أتبكي كل قبر رأيته لقبر نوى بين اللوى ، فالدكادك

فقلت لهم : « إن الأسى يبعث الأسى دعوى فهذا كله قبر مالك »

(٥) عروة بن جعفر - كان ينسب إلى جعفر هو وأهل بيته ، وكان يعرف بعروة الرحال لرحلته إلى الملوك ، وكان هو السبب في حرب الفجار المشهورة .

(٦) كليب بن ربيعة - هو رئيس الحيين من بكر وقطب ، وقد بلغ من جبروته وبغيته أنه كان يحصى مواقع السحاب فلا يرعى حماء ويقول وحش كذا وكذا في جوارى فلا تنج ولا يورد أحد مع أباه ولا توقد نار مع ناره ، ولا يخطي في مجلسه ، ولا يتكلم إلا بأذنه كما يدلك على ذلك قول أخيه مهلهل في رثائه :

« نبئت أن النار - بمدك - أوقدت واستب - بمدك - يا كليب المجلس

بِأَنْفَتِكَ، وَمُهْلَهْلَا^(١) إِنَّمَا طَلَبَ ثَأْرَهُ بِهَمَّتِكَ، وَالسَّمْوَل^(٢) إِنَّمَا وَفَى عَنْ عَهْدِكَ،
وَالْأَخْنَف^(٣) إِنَّمَا أَحْتَبَى فِي بُرْدَتِكَ، وَحَاتِمًا^(٤) إِنَّمَا جَادَ بِوَفْرِكَ، وَلَقِيَ الْأَضْيَافَ

وتكلموا في - أمر كل عظيمة - لو كنت حاضر أمرهم لم ينبسوا.

وقد قتله جساس بن مرة زوج أخت كليب، وكان ذلك سبباً في حرب البسوس.

(١) مهمل بن ربيعة - هو أخو كليب والآخر بئاره في حرب طويلة تفنينا شهرتها عن ذكرها.

(٢) السموءل - هو السموءل بن عاديا، وهو من يهودي يثرب، ويضرب به المثل في الوفاء. بعد حادثته المشهورة مع امرئ القيس الذي أودع عنده وديعة ومضى، وحاول الحارث بن ظالم أن يأخذها من السموءل فأبى، ثم ظفر الحارث بأبيه، فقال للسموءل: إن لم تعطني وديعة امرئ القيس قتلت ابنك فأبى. فقتل الحارث ابن السموءل وانصرف، والسموءل هو صاحب اللامية المشهورة التي يقول في أهلها:

«إذا المرء لم يندس - من اللؤم - عرضه فكل رداء يرتديه جميل -

وإن هو لم يحمل - على النفس - ضيماً، فليس - إلى حسن الثناء - سبيل.»

(٣) الأخنف - هو الأخنف بن قيس ويضرب به المثل في الحلم.

(٤) حاتم - هو حاتم الطائي وهو أشهر من ضرب به المثل في الجود.

قالوا: - «وأجواد العرب في الجاهلية ثلاثة:

«حاتم الطائي، هرم بن سنان، كعب بن مامة»

قالوا «وحاتم أشهرهم ذكراً».

وقد أدرك مولد النبي - صلى الله عليه وسلم - ومات قبل بعثته، ومن مختار شعره قوله: -

«أطاذل إن المال غيّر مغلداً وإني الفتي طارية فزود

وكم من جواد يفسد اليوم جوده وسأوى قد ذكرته الفخر في غد

وكم لي آباء، فما كف جودهم ملام، ومن أيديهم خلقت يدي.»

وقوله:

«لما الله صعلوكاً مناه وهمه - من العيش - أن يلقى لبوساً ومطعماً

ولله صعلوك يساور همه ويعضي على الأحداث - والهول - مقبلاً

إذا ما رأى يوماً مكارم أعرضت تيمم كبراهن، ثم صعدا.»

وقوله:

«أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى - من المال - الأحاديث والذكر

أماوى ما يفتى التراث عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق به الصدر

أماوى إن يصح صدائي بقفرة - من الأرض - لأماء لدى ولاخر

ترى أن ما أهلكك لم يك ضرني وأن يدي - مما تملك - به صفر

وقد علم الأقوام لو أن حاتماً أراد ثراء المال كان له وفر

وأني لا آلو - بمالي - صليعة فأؤله زاد وآخره ذخر

غنيبنا زماناً بالتصملك والغنى وكلا سقانا - بكأسيهما - الدمير

فما زادنا بئياً - على ذي قرابة - غنا، ولا أزرى بأحسابنا الفقر.»

يُشْرِكُ ، وَزَيْدٌ^(١) بَنُ مَهْلَلٍ إِنَّمَا رَكِبَ بِفَخْذَيْكَ ، وَالسُّلَيْكُ^(٢) بَنُ السُّلَكَةِ إِنَّمَا
عَدَا عَلَى رِجْلَيْكَ ، وَعَامِرُ بْنُ مَالِكٍ^(٣) إِنَّمَا لَاعَبَ الْأَسِنَّةَ بِيَدَيْكَ ، وَقَيْسٌ^(٤) بَنُ زُهَيْرٍ
إِنَّمَا أُسْتَعَانَ بِدَهَائِكَ ، وَإِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ^(٥) إِنَّمَا أُسْتَضَاءَ بِمِصْبَاحِ ذَكَائِكَ ،

(١) زيد بن مهمل — أدرك الاسلام ، وكان فارساً مشهوراً ، بميد الصيت ، وشاعراً نابهاً ، وكان
يسمى زيد الحيل لكثرة ما عنده من الحيل ، فلما أسلم سماه النبي — صلى الله عليه وسلم — زيد الخير .
(٢) السليك بن السلكة جاهلي قديم ، وهو أحد صماليك العرب وأحد لصوصهم العدائين الذين كانوا
لا يلتقون ، قال ابن الرومي في وصف شهر رمضان :

« يمشي الهوينا ، فأما حين يطلبنا فلا السليك يدانيه ولا السلكة . »

(٣) عامر بن مالك — المشهور بللاعب الأسنة ، وأمه أم البنين المشهورة التي افتخر بها لبيد عند النعمان
في قوله :

« نحن بني أم البنين الأربعة . »

(٤) قيس بن زهير — هو صاحب الحروب المشهورة بين عبس وذبيان بسبب الفرسين (داحس والغبراء)
وكان يضرب به المثل في الدماء ، فيقال : « أدهى من قيس . »

(٥) إياس بن معاوية — هو صاحب الفراسة والأجوبة السديدة الرائعة ، وكان قاضي البصرة ، ويضرب
به المثل في الذكاء . قال أبو تمام :

« أقدام عمرو في ساحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس . »

قالوا : وكان سبب ولايته القضاء أن عمر بن عبد العزيز أرسل رجلاً من أهل الشام وأمره أن يجمع
بين إياس والقاسم بن أبي ربيعة ويولي القضاء أفضلهما ، فجمع بينهما ، فكان كل منهما يمتنع من الولاية ،
فقال إياس للشأمي : « سل الحسن البصري عني وعن القاسم ، وسل بن سيرين . » فعلم القاسم أنه إن
سأل عنها أشارا به ، فقال للشأمي : « لا تسأل عنه ، فوالله الذي لا إله إلا هو إن إياساً لأفضل مني
وأعلم بالقضاء ، فإن كنت ممن يصدق ، فينبغي لك أن تصدق قولي ، وإن كنت كاذباً فما يحل لك أن
إن توليني القضاء وأنا كذاب » ، فقال إياس للشأمي : « إنك جئت برجل فأقته على شفير جهنم فافتدى
نفسه من النار يمين كاذبة يستنفر الله منها وينجو من النار » فقال الشأمي : « أما إذ فطنت لها فاني
أريدك » فاستقضاه ، فلم يزل على القضاء مدة ثم هرب . قالوا : « ولما ولي القضاء دخل عليه الحسن
البصري فبكى إياس وقال له : « بلغني أن القضاء ثلاثة : رجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد
فأخطأ فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة » فقال الحسن « إن فيما قضى الله تعالى في النبي
داود ما يرد قول مولاى . » ثم قرأ قوله تعالى « ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً »

فحمد سليمان ولم يذم داود ، وأخباره كثيرة مشهورة في كتب الأدب ، فلا حاجة بنا إلى الإفاضة .

وَسَحْبَانَ^(١) إِنَّمَا تَكَلَّمَ بِلِسَانِكَ ، وَعَمَّرُوا^(٢) بَنَ الْأَهْتَمِ إِنَّمَا سَحَرَ بِيَا نِكَ ، وَأَنَّ الصُّلَحَ - يَنْ بَكَرٍ وَتَغْلِبَ - تَمَّ بِرِسَالَتِكَ^(٣) ، وَالْحِمَالَاتِ - يَنْ عَبَسَ وَذِيَّانَ - أَسْنَدَتْ إِلَى كَفَالَتِكَ ، وَأَنَّ أُحْتِيَالَ هَرِمٍ - لِمَلَقَمَةٍ وَعَامِرٍ حَتَّى رَضِيَا - كَانَ ذَاكَ عَنْ

(١) سحبان وائل - يضرب به المثل في الفصاحة والبيان والقدرة على الخطابة ، أدرك الاسلام ومات سنة أربع وخمسين . قال الأصمعي « وكان إذا خطب يسيل عرقاً ، ولا يعيد كلمة ، ولا يتوقف ، ولا يقعد حتى يفرغ » قالوا : « وقدم على معاوية وقد من خراسان فيهم - سعيد بن عثمان - فطلب سحبان فلم يوجد في منزله فاقتضب - من ناحيته - اقتضاباً وأدخل عليه فقال : « تكلم » فقال : « انظروا لي عصا تقوم من أودي . » قالوا : « وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين . » قال : « ما كان يصنع بها مومى وهو يخاطب ربه وعصاه في يده . » فضحك معاوية وقال : « هاتوا عصا فجاءوا بها إليه فركلها برجله ولم يرضها . » وقال : « هاتوا عصاى » فأتوا بها فأخذها ، ثم قام وتكلم منذ صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر ما تتنحج ، ولا سئل ، ولا توقف ، ولا ابتداء في معنى تخرج منه وقد بقي عليه منه شيء ، فما زالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ، فأشار إليه سحبان : ألا تقطع على كلامي ، فقال معاوية « الصلاة » قال : « هي أمامك ، ونحن في صلاة وتحيد ، ووعد ووعد » ، فقال معاوية : « أنت أخطب العرب . » فقال سحبان : « والمعجم والجن والانس »

(٢) عمرو بن الأهم - من سادات بني تميم وخطبائهم في الجاهلية والاسلام ، وكان - لجماله - يدعو به : « المكحل » قالوا : « ووفد على النبي - صلى الله عليه وسلم - هو والزبرقان بن بدر فأسلموا وأكرهما النبي - صلى الله عليه وسلم - » فسأل النبي - صلى الله عليه وسلم - عمرو بن الأهم عن الزبرقان بن بدر بحضوره فقال عمرو : « مطاع في أدنيه ، شديد العارضة في قومه ، مانع لما وراء ظهره » . فقال الزبرقان : « يا رسول الله إنه ليعلم مني أكثر مما قال ، ولكنه حسدني . » فقال عمرو : « أما والله لئن علمت ما قد علمت ، إنه لزم من المروءة ، أحق الأب ، لئيم الحال ، نبيق العطن ، حديث الغنى . » فرأى تغير النبي - صلى الله عليه وسلم - لما اختلف قوله ، فقال : « يا رسول الله لا تغضب ، لما رضيت قلت أحسن ما علمت ، ولما غضبت قلت أفصح ما علمت ، فوالله ما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الثانية . » فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « إن من البيان لسحرا . » وتوفي سنة ٥٧ هـ - ومن مآثور حكاية قوله :

« أشجع الناس من رد جملة بحمله . » وقوله « أف للخمر لو كان شيء يشتري ما كان شيء أنفس من العقل ، فالعجب لمن يشتري الحق بجماله فيدخله في رأسه فيقي في جيبه ويسلج في ذيله . » وكان ممن حرّم الخمر - على نفسه - في الجاهلية .

(٣) بكر وتغلب ابنا وائل - هم الذين أشعلوا حرب البسوس ، وقد دامت سنين طويلة قتل فيها عظماء الحيين وأخبارها مشهورة .

إِشَارَتِكَ، وَجَوَابَهُ لِعُمَرَ - وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ أَيُّهُمَا كَانَ يَنْفِرُ - وَقَعَ عَنْ إِرَادَتِكَ^(١)، وَأَنَّ
الْحِجَّاجَ^(٢) تَقَلَّدُوا لَايَةَ الْعِرَاقِ بِحَدِّكَ، وَقُتَيْبَةَ^(٣) فَتَحَ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ بِسَعْدِكَ، وَالْمُهَلَّبَ^(٤)
أَوْ هَنَ شَوْكَةَ الْأَزَارِقَةِ بِيدِكَ، وَفَرَّقَ ذَاتَ يَنْبِهِمْ بِكِيدِكَ، وَأَنَّ هَرْمُسَ^(٥)
أَعْطَى بَلِينُوسَ^(٦) مَا أَخَذَ مِنْكَ، وَأَفْلَاطُونَ^(٧) أَوْزَدَ عَلَى إِرْسِطَطَالَيْسَ^(٨) مَا نَقَلَ عَنْكَ،
وَيَطْلِينُوسَ^(٩) سَوَّى الْإِصْطِرْلَابَ بِتَذْيِيرِكَ، وَصَوَّرَ الْكُرَّةَ عَلَى تَقْدِيرِكَ،

(١) يشير بذلك إلى عمر بن الخطاب حين قال لهرم بن قطبة بعد أن أسلم: «أيها كان الأفضل عندك
يعني عامراً وعلقة» فقال: «لو قلت الآن فيها كلمة أعادت الحرب بين الحيين» فأعجب بذلك القول
عمر وسر من سياسته وبعد نظره وقال له: «بحق حكمتك العرب»

(٢) الحجاج - هو الحجاج بن يوسف الثقفي ولد سنة ٤١ ونشأ بالطائف، وولى الكوفة، واشتهر
بسفك الدماء، وهو الذي حاصر مكة وفيها عبد الله بن الزبير وضربها بالمنجنيق (انظر ص ١٦ من كتاب
مصارع الأعيان) وحروبه مع شبيب، وعبد الرحمن بن الأشعث مشهورة، وقد ذكرناها في مصارع
الأعيان من «ص ٥٧ إلى ص ١١٥» فليرجع إليها من شاء، وكان يعجب بسرعة الجواب، وله نوادر كثيرة
في ذلك، فإنه قال ذات يوم لأحمد بن يونس «فكرت في أمرك فوجدت دمك ومالك حلالا» فقال:
«أيها الأمير أشد ما في القضية أن هذا الرأي بعد الفكر» فضحك وهفا عنه، وقالوا إنه أتى بقوم
من أصحاب بن الأشعث فأمر بضرب أعناقهم، فقام رجل فقال: «أيها الأمير إن لي عندك يدا» فقال
«وما هي؟» قال «شتك رجل محضرة ابن الأشعث فرددت عنك» فقال: «من يشهد لك؟» فأشار:
«هذا» وأشار بيده إلى رجل منهم، فقال: «صدق أيها الأمير» فقال «مامنك أن تفعل كما فعل؟» قال
«بفضي لك»، فقال الحجاج «أطلقوا هذا ليده عندنا، وهذا لصدقه في مثل هذا الوقت» قال مالك
ابن دينار: «والله لربما رأيت الحجاج يتكلم على المنبر ويذكر حسن صنعه إلى العراق وسوء صنعه له
حتى يخيل إلى أنه مظلوم» وقال الحسن البصري «لقد وقدتني كلمة سمعتها من الحجاج «إن امرءا ذهب
ساعة من عمره في غير ما خلق له لجدير أن تطول حسرته»

(٣) قتيبة - هو قتيبة بن مسلم الباهلي نشأ في مروانية وولى الأمانة، وكان شجاعاً فظناً.

(٤) المهلب - هو المهلب بن أبي صفرة وهو الذي يعزى إليه الفضل في القضاء على الخوارج (انظر
ص ٩٢ : ٩٧ من كتاب مصارع الأعيان)

(٥) هرمس - هو الذي يزعم نفر من الصابئة أنه نبي مرسل وأنه إدريس عليه السلام ويسندون إليه
شرائعهم في تنظيم السكواكب السبعة والبروج الاثني عشر والتقرب إليها بالذبايح وغيرها.

(٦) بليئوس - هو الذي تزعم الصابئة أن رسالة هرمس انتقلت من بعده إليه.

(٧، ٨) أفلاطون وإرسطاطاليس - علمان من أعلام فلاسفة اليونان وقادة الفكر المتأخرين.

(٩) بطليموس - هو صاحب كتاب المجسطى، والجغرافيا، والاسطرلاب وغير ذلك، وهو أول من
اعرض للفلك والهندسة.

وَبِقِرَاطٍ^(١) عِلْمَ الْعِلَالِ وَالْأَمْرَاضِ بِلُطْفِ حِسِّكَ ، وَجَالِينُوسَ^(٢) عَرَفَ طِبَابِعَ
الْحَشَائِشِ بِدِقَّةِ حَدْسِكَ ، وَكِلَاهُمَا قَلَّدَكَ فِي الْعِلَاجِ ، وَسَأَلَكَ عَنِ الْمِزَاجِ ،
وَأَسْتَوْصَفَكَ تَرْكِيبَ الْأَعْضَاءِ ، وَأَسْتَشَارَكَ فِي الدَّاءِ وَالِدَّوَاءِ ، وَأَنَّكَ نَهَجْتَ
لِأَبِي مَعْشَرٍ^(٣) طَرِيقَ الْقَضَاءِ ، وَأَظْهَرْتَ جَابِرَ بْنَ حَيَّانَ^(٤) عَلَى سِرِّ الْكِيمِيَاءِ ،
وَأَعْطَيْتَ النِّظَامَ^(٥) أَصْلًا أَذْرَكَ بِهِ الْحَقَائِقَ ، وَجَعَلْتَ لِلْكِنْدِيِّ^(٦) رَشْمًا اسْتَفْرَجَ

(١) بقراط — علم من أعلام الطب واليونان .

(٢) جالينوس — من العلماء المتأخرين الذين كان لهم الفضل في ترقية فن الطب ، وقد عرف خواص
الحشائش ، وفاس أمرجتها وطبائنها ، وشرح الأعضاء ، ووضع الكتب النفيسة في الطب .

(٣) أبو معشر : كان في أول أمره من أصحاب الحديث ببغداد ، وكان يشنع على الكندي الفيلسوف
المعروف ويفرى العامة به — قالوا « فندس له الكندي من حسن له النظر في علم الحساب والهندسة فأحبها
ثم عدل إلى أحكام النجوم فتفنن ومهر وانقطع بذلك شره عن الكندي لأنه من جنس علومه .

(٤) جابر بن حيان — من أعلام العلماء العرب في الكيمياء .

(٥) النظام — إمام من أئمة المعتزلة ، وكان آية في الذكاء ، من صغره . قالوا : إنه جاء إلى الخليل بن
أحمد ليعلمه ، فقال له الخليل يمتحنه وفي يده قدح زجاج : « يا بني صف لي هذه الزجاجة » فقال : « أمدح
أم يذم » قال « يمدح » قال « تريك الفذى ، ولا تقبل الأذى ، ولا تستر ما وراءها » قال « فذمها » قال
« يسرع إليها الكسر ، ولا تقبل الجبر » قال « فصف لي هذه الثعلة » وأوماً إلى نخلة في داره . قال
« يمدح أم ذم ؟ » قال « يمدح » قال « خلو جناها ، باسق منهاها ، ناضر أعلاها » قال « فذمها » قال
« صبة المرتقى ، بعيدة المجتنى ، مخوفة بالأذى » فقال الخليل « يا بني نحن إلى التلم منك أحوج » ثم اشتد
على أبي الهذيل العلاف بمذهب الكلام إلى أن برع وظهر في أيام المعتصم وتبعه خلق كثير — وحكي عنه قال
« مات لصالح بن عبيد القدوس ولد ، فغفى إليه أبو الهذيل والنظام معه وهو غلام حدث كالتبع له قرأه
مخترقاً ، فقال أبو الهذيل « لا أعرف لجزعك وجهاً إذا كان الناس عندك كالزروع » فقال صالح « يا أبا الهذيل
إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك » فقال أبو الهذيل « وما كتاب الشكوك ؟ » قال « كتاب
وضعت من قرأه شك فيها كان حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان » فقال له النظام
« فشك أنت في موت ابنك ، واعمل على أنه لم يمت وإن مات ، وشك أيضاً في أنه قد قرأ هذا الكتاب
وإن لم يكن قرأه » فخصر صالح وكان مذهبه مذهب السوفسطائية فانهم يزعمون أن الأشياء لاحقيقة لها ،
وإن ما يستبعد يجوز أن يكون على ما نشاهده ، ويجوز أن يكون على غير ما نشاهده ، وأن حل اليقظان كحال

النائم ، وتوفي سنة ٢٢١ هـ وسنه ست وثلاثون سنة .

(٦) الكندي — يعقوب الكندي من كبار فلاسفة الاسلام — انتقل إلى بغداد واشتد بفن الأدب ،
ثم بعلوم الفلسفة — وحل مشكلات الأوائل وله مؤلفات بارزة — وهو مشهور بالبطل ، وكان يقول : من
شرف البطل أنك تقول للسائل « لا » ورأسك مرفوع إلى فوق ، ومن ذل العطاء أنك تقول « نعم »

بِهِ الدَّقَائِقَ ، وَأَنَّ صِنَاعَةَ الْأَلْحَانِ اخْتِرَاعُكَ ، وَتَأْلِيفُ الْأَوْتَارِ وَالْأَنْقَارِ تَوْلِيدُكَ
وَابْتِدَاعُكَ ، وَأَنَّ عَبْدَ الْحَمِيدِ بْنَ يَحْيَى ^(١) بَارِي أَقْلَامِكَ ، وَسَهْلُ ^(٢) بْنُ هَارُونَ مُدَوِّنُ
كَلَامِكَ . وَعَمْرُو بْنُ بَحْرٍ ^(٣) مُسْتَمْلِكُكَ ، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ^(٤) مُسْتَفْتِيكَ ، وَأَنْتَ الَّذِي
أَقَامَ الْبَرَاهِينَ ، وَوَضَعَ الْقَوَانِينَ ، وَحَدَّ الْمَاهِيَةَ ، وَبَيَّنَّ الْكَيْفِيَّةَ وَالْكَمِّيَّةَ ^(٥) ،

وَأَنْتَ مُشِيرُ بَرَأْسِكَ إِلَى أَسْفَلٍ ، وَمَوْثِقَاتُهُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا (أنسام العقل الانسي) وكتاب (الجوامع الفكرية)
وكتاب (الفلسفة الأولى) وغيرها .

(١) عبد الحميد بن يحيى - هو عبد الحميد بن سعيد الكاتب المشهور ، وكان يقال « بدأت الكتابة بعبد
الحميد ، وختمت بإبن العميد » ، وكان في أول نشأته معلماً صبياناً بالكوفة ، فلما انفصل بمروان الجعدي قبل أن
يصل إلى الخلافة صحبه واقطع إليه فلما جاء الأمر بالخلافة سجد مروان وأصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان
« لم لم تسجد ؟ » فقال « ولم أسجد على أن كنت معنا فطرت عنا معنى بالخلافة » فقال « إذن قطير معي »
قال « الآن طاب السجود » وسجد وظل كاتب مروان طول خلافته .

(٢) سهل بن هارون - من أهل نيسابور - رحل إلى البصرة فنسب إليها وكان شعوياً ، واشتهر
بالبلخ . قال الجاحظ : لقي رجل سهل بن هارون فقال : « هب لي ما لا ضرر به عليك » فقال : « وما
هو يا أخي ؟ » فقال : « درهم » قال : « لقد هوت الدرهم وهو طائع الله في أرضه لا يهضي ، وهو
عشر العشرة ، والعشرة عشر المائة ، والمائة عشر الألف ، والألف عشر دية المسلم » ألا ترى إلى أين
انتهى الدرهم الذي وهنته ، وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم » قال : « فأنصرف الرجل ولولا
انصرافه لم يسكت » وحكى دعبل الخزاعي قال : « أفنا يوماً عند سهل بن هارون وأطنا الحديث حتى أضر
به الجوع فدعا بفدائه فأتى بصحفة فيها مرق نحتت ديك هرم فأخذ كسرة وتفقد ما في الصحيفة فلم يجد
رأس الديك فبقى مطرقاً ثم قال للعلام : « أين الرأس ؟ » قال : « رميت به » قال : « ولم ؟ » قال :
« لم أطك نأكله » قال : « ولم ظننت ذلك ؟ فوالله إني لأمقت من يرمى برجله ، فكيف برأسه ؟ والرأس
رئيس يتفاهل به ، وفيه الخواص الحسة ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فرقة الذي
يتحرك به ، وعينه التي يضرب بصفائها المثل ، ودماغه عجب لوجع الكلية ، ولم أر عظماً قط أهش من رأسه
فإن كان بلغ من خبلك أن لا تأكله فمعدنا من يأكله ، أما علمت أنه خير من طرف الجناح والساق ،
انظر أين رميته فقال : « والله ما أدري » قال : « لسكني أدري أنك رميته في بطنك » .

(٣) عمرو بن بحر - هو الكاتب المشهور ويكنى بأبي عثمان ويعرف بالجاحظ وهو ممن يفخر به البيان
الربيعي حتى قيل : « مما فضل الله به أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - على غيرها من الأمم : عمر بن الخطاب
في سياسته ، والحسن البصري في علمه ، والجاحظ في بيانه » - نشأ ببغداد وتلمذ على النخاس وانفرد
بحسن البيان والفصاحة ، وأخباره مشهورة في كتب الأدب فلا داعي للافاضة فيها -

(٤) مالك بن أنس - هو صاحب المذهب المشهور .

(٥) الماهية - ماهية الشيء ، ما يحصل في الذهن من صورة كلية مطابقة له بعد حذف الشخصيات عنه إن
كان جزئياً . قالوا : وهي أحد حدود العلم عند الحكماء . فإن العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام . علم (ما) وعلم

وَنَاطَرَ فِي الْجَوْهَرِ وَالْعَرَضِ ^(١) ، وَمَيَّزَ الصَّحَّةَ مِنَ الْمَرَضِ ، وَفَكَ الْمَعْمَى ^(٢) ، وَفَصَلَ
بَيْنَ الْأَسْمِ وَالْمُسَمَّى ، وَصَرَفَ وَقَسَمَ ، وَعَدَلَ وَقَوَّمَ ، وَصَنَّفَ الْأَسْمَاءَ وَالْأَفْعَالَ ،
وَبَوَّبَ الظَّرْفَ وَالْحَالَ ، وَبَنَى وَأَعْرَبَ ، وَنَفَى وَتَعَجَّبَ ، وَوَصَلَ وَقَطَعَ ،
وَأَتَى وَجَمَعَ ، وَأَظْهَرَ وَأَضْمَرَ ، وَاسْتَفْهَمَ وَأَخْبَرَ ، وَأَهْمَلَ وَقَيَّدَ ، وَأَرْسَلَ وَأَسْنَدَ ،
وَبَحَثَ وَنَظَرَ ، وَتَصَفَّحَ الْأَدْيَانَ ، وَرَجَّحَ بَيْنَ مَذْهَبَيْ مَانِي وَغِيلَانَ ^(٣) ، وَأَشَارَ
بِذَنْجِ الْجَمْدِ ^(٤) ، وَقَتَلَ بِشَّارِ بْنِ بُرْدٍ ، وَأَنَّكَ لَوْ شِئْتَ خَرَقْتَ الْعَادَاتِ ، وَخَالَفْتَ
الْمَعْهُودَاتِ ، فَأَحْلَمْتَ الْبَحَارَ عَذْبَةً ، وَأَعَدْتَ السَّلَامَ رَطْبَةً ^(٥) ، وَتَقَلَّتْ غَدَا فَصَارَ

(كيف) وعلم (كم) . فالعلم الذي يطلب منه ماهيات الأشياء هو العلم الالهي ، والذي يطلب منه كيفيات
الأشياء هو الطبيعي ، والذي يطلب منه كميات الأشياء هو الرياضي .

(١) الجوهر والعرض : الجوهر - فيما يقولون - هو الجسم ، كالإنسان والفرس والحجر ونحو ذلك ،
والعرض الحال والوصف المتعاقب عليه كالألوان من بياض ، وسواد وحرارة ، والحركات المختلفة من قيام وقعود
واضطجاع ، وجميع ما عدا الجوهر فاسم العرض واقع عليه .

(٢) وفك للمعنى - وهو اللغز ، ارجع إلى « ص ٢٨٤ »

وكان الجاحظ يقول « ليس للمعنى بشيء قد كان كيسان مستملي أبي عبيدة يسمع خلاف ما يقال ، ويكتب
خلاف ما يسمع ، ويقرأ خلاف ما يكتب ، وكان أعلم الناس باستخراج المعنى - قالوا : « وكان النظام - على
قدرته على أصناف العلوم - لا يقدر على استخراج أخف ما يكون من المعنى .

(٣) ماني وغيلان - ماني هو الذي تنسب إليه المانوية وهو ثنوي - نسبة إلى الاثنين - لزمه أن صانع العالم
اثنان ، أحدهما فاعل الخير وهو النور ، والآخر فاعل الشر وهو الظلمة ، وهما قديمان لم يزالا ولن يزالا
حاسسين سعيين بصيرين وهما مختلفان في النفس والصورة ، متضادان في الفعل والتدبير ، فجوهر النور فاعل
حسن نير ونفسه خيرة قديمة نفاعه . منها الخير والسرور والصلاح وليس منها من الشر شيء ، وجوهر الظلمة
على ضد ذلك جميعه ، وقد أشار المتنبي إلى هذا المذهب بقوله :

« وكم لظلام الليل عندك من يد تخبر أن المانوية تكذب . »

وكان ماني راهباً بنجران . قالوا : « وكان مؤمناً بالمسيح معطياً من أساقفة النصارى ، ثم وثق به حاسدوه
فأحدث ديناً ودماً إليه وتبعه كثير من الجوس .

وغيلان هو ابن يونس القدرى الدمشقي . قالوا كان أبوه مولى لعثمان بن عفان ، وكان غيلان أول من تكلم
في القدر ، وخلق القرآن في الاسلام في رأى بعض المؤرخين .

(٤) الجمعد - هو مولى بني الحسكم وكان يعلم مروان بن محمد الجمعدى ويقطن دمشق وينسب إليه بعض
للمؤرخين أنه أول من تكلم بخلق القرآن .

(٥) السلام : الحجارة الصلبة .

أَمْسَا ، وَزِدْتَ فِي الْعَنَاصِرِ فَكَانَتْ خَمْسًا ^(١) ، وَأَنْتَ الْمَقُولُ فِيهِ :

« كُلُّ الصَّيْدِ ^(٢) فِي جَوْفِ الْفَرَا . » وَ

« لَيْسَ عَلَى اللَّهِ مُسْتَنْكَرٌ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ ^(٣) . »

وَالْمَعْنَى بِقَوْلِ أَبِي تَمَّام :

« قَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَرِدْهَا - عَلَى مَا فِيكَ - مِنْ كَرَمِ الطَّبَّاعِ . »

وَالْمُرَادُ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّب :

« ذُكِرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَيْيَاتِهَا . »

فَكَدَمْتَ فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ ^(٤) ، وَاسْتَسَمَنْتَ ذَا وَرَمٍ ^(٥) ، وَتَفَخَّتَ فِي غَيْرِ ضَرَمٍ ^(٦) ،

وَلَمْ تَجِدْ لِرِيحٍ مَهْرًا ، وَلَا لِشَفْرَةٍ مَحْزًا ، بَلْ رَضِيتَ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ .

(١) العناصر : هي في رأى القدماء أربعة : النار ، والهواء ، والماء ، والتراب .

(٢) كل الصيد في جوف الفرا - مثل يضرب في وصف الشيء المرئى على غيره قالوا : « وأصله أن قومًا خرجوا لاصيد فصاد أحدهم ظيًّا وآخر أرنبًا وآخر فرا ، وهو الجمار الوحشى ، فقال لأصحابه : كل الصيد في جوف الفرا - يعنى أن جميع صيدكم يسير في جنب ما صدته ، وزعم بعضهم أن الفرا اسم واد كثير الصيد وهو قول مردود ، وأما قول الشاعر :

« وراد كجوف المير قهر قطمته »

فليس من هذا وإنما أراد الوادى المعروف بجوف حمار ، وحمار اسم رجل قديم كان في واد خصب فظلم شبيرة ، فأرسل الله عليه نارًا فأحرقت ، وأحرقت الوادى فغلا وسكنته الجن فقبل : أحلى من جوف حمار ، وحجب يوماً أبو سفيان بن حرب عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم أذن له فقال : « يا رسول الله ما كنت تأذن لى حتى تأذن للحجارة الجاهلتي » فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يا أبا سفيان كل الصيد في جوف الفرا » . (٣) هذا البيت من قصيدة لأبي نواس في مدح الفضل بن يحيى .

(٤) كدمت في غير مكدم - عضضت في غير موضع للعض ، وهذا المثل يضرب لمن يطلب ما يعجز عنه .
(٥) في هذا إشارة إلى قول الشاعر :

« ملو ناراً نفخت بها أضواءت - ولكن أنت تنفخ في رماد

لقد أسمع - لو ناديت حيا - ولكن لا حياة لمن تنادى . »

(٦) يشير إلى قول المتنبي لسيف الدولة معروفاً بأبي فراس :

« أعينها نظرات منك صادقة - أن تحسب الشعم فيمن له ورم . »

وَتَمَنَيْتَ الرَّجُوعَ بِخُفْيِ حُنَيْنٍ ^(١) ، لِأَنِّي قُلْتُ :

« لَقَدْ هَانَ ^(٢) مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ . » وَأَنْشَدْتُ :

« عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا عَجَائِبَ ، حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ ^(٣) »

وَنَحَرْتُ ^(٤) وَبَسَرْتُ ^(٥) ، وَعَبَسْتُ فَكَفَرْتُ ، وَأَبَدْتُ وَأَعَدْتُ ، وَأَبْرَقْتُ

وَأَزَعَدْتُ ^(٦) وَهَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي ، وَلَوْلَا أَنَّ لِلْجَوَارِ ذِمَّةً ،

وَلِلضِّيَافَةِ حُرْمَةً ، لَكَانَ الْجَوَابُ فِي قَذَالٍ ^(٧) الذَّمُّسْتُقُ ، وَالْمَعْلُ ^(٨)

(١) خفي حنين - مثل يضرب لمن يرجع الحمية - وكان حنين فيما يقولون إسكافاً من أهل الحيرة ساومه أعرابي بخفين ولم يشد منه شيئاً فناظه ذلك فخرج عليه وعلق أحد الخفين على شجرة في طريقه وتقدم قليلاً وطرح الآخر ولكن ، فجاء الأعرابي فرأى أحد الخفين فوق الشجرة ، فقال « ما أشبه هذا بخفي حنين لو كان معه آخر لتكلفت أخذه » ثم تقدم قليلاً فرأى الخف الآخر مطروحاً فزّل وعقل بعيره فأخذه ورجع ليأخذ الأول فخرج حنين من المسكن وأخذ بعيره وذهب ورجع الأعرابي إلى أخيه بخفي حنين .

(٢) لقد هان من بالث عليه الثعالب - شطر بيت هو :

« أرب يقول الثعلبان برأسه - لقد هان من بالث عليه الثعالب . »

قاله رجل من بني سليم كان يعبد صنماً ، فرأى ذات يوم ثعلباً يقول على الصنم فكسره وأنشد هذا البيت وذهب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأسلم .

(٣) البيت لأبي تمام من قصيدة رثاء ، منها قوله :

وقلت : « أخى » قالوا « أخ ذو قرابة » ؟ فقلت لهم : « إن الشكول أفراب »

صديقي في رأيي وعزى ومذهبي وإن باعدتنا في الأصول المناسب

عجبت لصبري بعده - وهو ميت - وكنت امرأ أبكى دماً وهو ظأب

على أنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب .

(٤) نحرت - النحير صوت الأنف عند الغضب .

(٥) والبسر - الاستعجال بالشئ ، قبل أوانه . وهو في قوله تعالى : « عيس وبسر » معناه أظهر

العبوس قبل أوانه . (٦) الإبراق والارعاد - كناية عن الهديد وأصلها من البرق والرعد . قال الشاعر :

« قتل لاسماً : ارعدى وابقى فانا وصلنا إلى المنزل . »

(٧) أى لفعلت بهذه المرأة التي أرسلتها رسولاً من قبك - لولا حرمة النبوة - فعل سيف الدولة بالدمستق ،

وهو لقب يطلق على كل فائد من فراد جيش الروم ، وقد هزمه سيف الدولة وأشار المتنبي إلى ذلك بقوله :

« وكنت إذا كاتبته قبل هذه ككتبت إليه في قذال الدمستق . »

(٨) مثل تضربه العرب وقد ضمنه أحد الشعراء قوله :

« إن طادت العقرب عدنا لها - وكانت النمل لها حاضرة . »

حَاضِرَةٌ إِنْ عَادَتْ الْعُقْرَبُ ، وَالْعُقُوبَةُ مُمَكِّنَةٌ إِنْ أَصَرَ الْمَذْنِبُ ، وَهَبَهَا لَمْ
تُلَاحِظْكَ بَعَيْنٌ كَلِيلَةً عَنْ عُيُوبِكَ ، وَلَوْهَا حَبِيبُهَا ^(١) ، حَسَنٌ فِيهَا ^(٢) مَنْ تَوَدُّ
وَكَانَتْ إِنَّمَا حِلْمَتُكَ بِحُلَاكِكَ ، وَوَسْمَتُكَ بِسِيمَاكَ ، وَلَمْ تُعْرِكَ شَهَادَةً ، وَلَا
تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَةً ، بَلْ صَدَقَتْ سِنَّ بَكْرَهَا فِيمَا ذَكَرْتَهُ عَنْكَ ، وَوَضَعَتْ
الْهَنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقَبِ ^(٣) بِمَا نَسَبْتَهُ إِلَيْكَ ، وَلَمْ تَكُنْ كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنَتَ بِهِ
عَلَيْكَ ، فَلَمْعِيدِي ^(٤) تَسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ :

هَجِينُ الْقَذَالِ ^(٥) ، أُرْعَنُ ^(٦) السَّبَالِ ، طَوِيلُ الْعُنُقِ وَالْعِمْلَاوَةِ ^(٧) ، مُفْرِطُ الْحُمُقِ
وَالْغَبَاوَةِ ، جَبَافِي الطَّبْعِ ، سَيِّئُ الْجَابَةِ وَالسَّمْعِ ، بَغِيضُ الْهَيْئَةِ ، سَخِيفُ الذَّهَابِ
وَالْجَيْئَةِ ، ظَاهِرُ الْوَسْوَاسِ ، مُتَيْنُ الْأَنْفَاسِ ، كَثِيرُ الْمَعَايِبِ ، مَشْهُورُ الْمَثَالِبِ :

(١) إشارة إلى قول الجنون :

« أُمَاكَ إِجْلَالًا ، وَمَاكَ قُدْرَةً عَلَى ، وَلَكِنْ مَلَأَ عَيْنَ حَبِيبِهَا . »

(٢) في هذا إشارة إلى قول عمر بن أبي ربيعة :

وَلَقَدْ قَالَتِ الْجَارَاتُ لَهَا وَتَعَرَّتْ - ذَاتَ يَوْمٍ - تَبَرَّدَ
أَكْمَا يَنْعَتَنِي تَبَصَّرَنِي - عَمَرَ كُنَّ اللَّهُ - أَمْ لَمْ يَتَصَدَّقْ؟
فَتَضَاحَكْنَ وَقَدْ قَلْنَ لَهَا : « حَسَنٌ فِي كُلِّ دِينٍ مَنْ تَوَدَّ . »

(٣) الهناء : القطران ، والنقب : الجرب ، وهذا المثل يضرب لمن يضع الأمور في مواضعها ، وهو نصف

بيت لدريد بن الصمة في الهناء وهو :

« مَتَبَدَّلَا تَبَدُّو مُحَاسِنَهُ يَضَعُ الْهَنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقَبِ . »

(٤) مثل يضرب لمن يكون مخبره خيراً من منظره . فإله النعمان لشقة بن ضمرة ، وكان يعجبه ما يسمع

عنه ، فلما رآه استدرى منظره ، فقال النعمان : لَأَنْ تَسْمَعَ بِالْمَعِيدِي خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ .

فقال له : « أَيْتُ الْفَلْعَنُ إِنْ الرِّجَالُ لَيْسُوا بِجَزَرٍ ، وَإِنَّمَا يَعِيشُ الْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ . »

(٥) القذال - جاع مؤخر الرأس ، وهجين القذال : أى خسيس الأصل . قالوا : « لِأَنَّ الَّذِي يَعْرِفُ

أَوْمَ نَسَبِهِ إِذَا وَلَّى طَاطَأَ رَأْسَهُ حَيَاءً وَذَلًا ، فَكَأَنَّ الْاَوْمَ يَقْبَنُ مِنْ قَذَالِهِ » وقيل « بَلْ لِكَثْرَةِ انْهِزَامِهِ
فِي الْحُرُوبِ . »

(٦) أُرْعَنُ : أحمق ، والسبال : جمع سبلة وهى شعرة الشفة العليا وخصت الرعونة بها لأنها علامة الرجل .

(٧) العِمْلَاوَةُ - الرأس مادام على العنق ، وفى الفراسة أن طول العنق والرأس من دلائل الجمالة .

كَلَامُكَ تَمْتَمَةٌ ، وَحَدِيثُكَ غَمْمَةٌ ، وَيَا لَكَ فَهْفَةً ، وَضَحِكُكَ قَهْقَهَةٌ ^(١) ،
وَمَشْيُكَ هَرَوَلَةٌ ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ ، وَدَيْنُكَ زَنْدَقَةٌ ، وَعِلْمُكَ مَحْرَقَةٌ ^(٢) :
« مَسَاوٍ لَوْ قُسِمَ عَلَى الْغَوَايِ - لَمَّا أُهْرِنَ إِلَّا بِالطَّلَاقِ ^(٣) »

حَتَّى إِنْ بَاقِلًا ^(٤) مَوْصُوفٌ بِالْبَلَاغَةِ إِذَا قُرِنَ بِكَ ، وَهَبْنَقَةٌ ^(٥) مُسْتَوْجِبٌ لِأَنَّهُ
الْعَقْلُ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْكَ ، وَطُوَيْسًا ^(٦) مَا تُورِثُهُ عَنْهُ يُمْنُ الطَّائِرِ إِذَا قِيسَ عَلَيْكَ ،
فَوْجُودُكَ عَدَمٌ ، وَالْأَغْتِبَاطُ بِكَ نَدَمٌ ، وَالْخَيْبَةُ مِنْكَ ظَفَرٌ ، وَالْجَنَّةُ مَعَكَ
سَقَرٌ ، كَيْفَ رَأَيْتَ لَوْثَمَكَ لِكَرْحَى كِفَاءٍ ، وَضَعْتَكَ لِشَرَفِي وَفَاءٍ ، وَأَنْتَ
جَهَلْتِ أَنَّ الْأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا ، وَالطَّيْرُ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَى الْأَفْهَاءِ ،
وَهَلَّا عَلِمْتَ أَنَّ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ لَا يَجْتَمِعَانِ ، وَشَعَرْتَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ

(١) قال الجاحظ - التمتمة : التردد في الناء ، والقأناء : التردد في الفاء ، والعقلة : التواء اللسان عند
إرادة الكلام ، والحبسة تعذر الكلام ، واللفف : لإدخال حرف في حرف ، والرتة تمنع الكلام ، فإذا
جاء منه بشيء اتصل ، وقبل المعجمة فيه ، والشفة أن يعدل من حرف إلى حرف ، والفة أن يشرب الحرف
صوت الحيشوم والحنة أشد منها ، واللسكة أن يعترض الكلام حرف أعجمي ، والطمطمة أن يكون
الكلام شبيهاً بالعجمي .

وأما الغنمة فهي أن يسمع الصوت ولا يبين تقطيع الحروف - والفهفة : التي في النطق ، والفهفة :
الضحك الشديد يستدلون به على قلة العقل .

(٢) الهرولة : بين الشيء والعدو ، والمسألة : الفقر ، والمخرقة : نوع من الحرق ، الذي هو ضد الرفق ،
ومنه يقال : المحرق وهو شيء يلعب به كأنه يخرج لإظهار الشيء بخلافه .

(٣) الببت لأبي تمام . (٤) باقل : مضرب المثل في العي .

(٥) هبنقة : مضرب المثل في الخجل وضعف العقل - قلوا : ووضع عقداً في عنقه علامة لنفسه لئلا يضيع
قالوا : وراقبه أخوه إلى أن نام ، فأخذ العقد من عنقه وجعله في عنق نفسه ، فلما انتبه هبنقة ورأى أخاه ،
قال « أنت أنا ، فأنا ياترى ، من هو أنا » وهو جاهلي .

(٦) المغني المالحن المشهور ، وكان يسكن المدينة ، وهو أول من غنى بها دلي الدف بالعربية ، ويضرب به
المثل في الشؤم ، لأنه ولد يوم مات النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وفداه يوم مات أبو بكر ، وخنق يوم
قتل عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وكانت أمه تمشي بالجميمة بين نساء الأنصار ، ونوادير شؤمه كثيرة
مشهورة في كتب الأدب . (٧)

لَا يَتَّقَارِبَانِ ، وَقُلْتَ : « الْحَبِيثُ وَالطَّيِّبُ لَا يَسْتَوِيَانِ » وَتَمَثَّلْتَ (١) :

« أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيَّ مُهَيَّلًا عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟ »

وَذَكَرْتَ أَنِّي عَلِقْتُ لِإِبَاعِ (٢) مِمَّنْ زَادَ ، وَطَارَتْ لَا يَصِيدُهُ مَنْ أَرَادَ ، وَغَرَضُ لَا يُصْبِيهِ إِلَّا مَنْ أَجَادَ . مَا أَحْسَبُكَ إِلَّا كُنْتَ قَدْ تَهَيَّأْتَ لِلتَّهْنِيَةِ ، وَتَرَشَّحْتَ لِلتَّرْفِيَةِ ! وَلَوْلَا أَنَّ جُرْحَ الْعُجْمَاءِ جُبَارٌ (٣) ، لَلَقِيتَ مِنَ الْكَوَاعِبِ مَا لَاقَى إِسَارٌ (٤) ، فَمَا هُمْ إِلَّا يَبْعُضُ مَا بِهِ هَمَّتْ ، وَلَا تَعَرَّضَ إِلَّا لِإِسْرِ مَالِهِ تَعَرَّضْتَ ، أَيْنَ ادْعَاؤُكَ رَوَايَةَ الْأَشْعَارِ ، وَتَعَاطِيكَ حِفْظَ السَّيْرِ وَالْأَخْبَارِ ؟ أَمَا ثَابَ إِلَيْكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

« بُودَارِمِ أَكْفَاؤُهُمْ آلُ مِسْمَعٍ وَتُنْكَحُ فِي أَكْفَاءِهَا الْحَبِطَاتُ ؟ »

(١) البيت لعمر بن أبي ربيعة ، وعمرك الله بالنصب فهما لأنه لم يرد القسم ، وإنما أراد سألت الله أن يطيل عمرك (بالفتح) أى حياتك ، وبعده قوله :

« هى شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمانى . »

(٢) العلق : النفيس وهو من قصيدة للحريث بن قحطان التميمي كانت له فرس اسمها - سكاب - فأراد بعض ملوك اليمن أخذها منه فهرب بها وقال :

« أبيت اللعن إن سكاب علق نفيس لا تمار ولا تجاع

مفسدة مكرمة عاينا تجاع لها العيال ، ولا تجاع

فلا تطعم أبيت اللعن فيها ومنعكها بشيء يستطاع . »

(٣) العجماء : البهيمة ، والجبار : الهدر ، والمعنى : أن البهيمة إذا جرحت لادية لها ولا قصاص ، وهو مثل يضرب ، لمن يستهان به .

(٤) إيسار : اسم عبد دميم أسود كان النساء يرينه فيضحكن منه لقبجه ويحسبن لنفثته

معجبات به حتى نظرت إليه بنت مولاة فضحكت فظن أنها رضيت له ، فقال لصاحب له أسود : « قد

والله عشقتى مولاتى ، فلا تزونها الليلة » فقال له صاحبه « يا إيسار ، اشرب لبن العشار ، وكل لحم الحوار

وإياك وبنات الأحرار » فقال له « والله ما رأيتى حرّة إلا عشقتنى » فلما أمسى قال لصاحبه « احفظ على

الابل حتى أنصرف ، وأعود إليك » فنهاه فلم يفته حتى دخل على بنت مولاة راودها عن نفسها ، فقالت

له « مكانك فإن الحرائر طيبا ، أشمك إياه » فقال لها « هاتيه » فأثنت بطيب وموسى فاطمة ، فأشمته

الطيب ، ثم أنحت بالموسى على منه فقطعت ، فخرج هارباً حتى أتى صاحبه ودمه يسيل ، فضرب به المثل .

وَهَلَّا عَشِيتَ وَلَمْ تَغْتَرَّ ؟ وَمَا أَشْكُ أَنَّكَ تَسْكُونُ وَافِدَ الْبَرَّاجِمِ ^(١) ، أَوْ
تَرْجِعُ بِصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ ^(٢) ، أَوْ أَفْعَلُ بِكَ مَا فَعَلَهُ عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ بِالْجُهَنِيِّ ،
إِذْ جَاءَهُ خَاطِبًا فَدَهَنَ أُسْتَهُ بَزَيْتٍ وَأَذْنَاهُ مِنْ قَرِيَةِ النَّمْلِ ، وَمَتَى كَثُرَ تَلَاقِينَا
وَاتَّصَلَ تَرَائِينَا ، فَيَدْعُونِي إِلَيْكَ مَادَعًا ابْنَةَ الْخَسِّ إِلَى عَبْدِهَا مِنْ طُولِ السَّوَادِ ^(٣) ،
وَقُرْبِ الْوَسَادِ ؟ وَهَلْ فَقَدْتُ الْأَرَاقِمَ ^(٤) فَأُنْكِحَ فِي جَنْبِ ^(٥) ؟ أَوْ عَضَلَنِي
هَمَامُ بْنُ مَرَّةَ فَأَقُولَ : « زَوْجٌ مِنْ عَوْدٍ ، خَيْرٌ مِنْ قَعُودٍ ؟ »
وَلَعَمْرِي لَوْ بَلَغْتُ هَذَا الْمَبْلَغَ لَأَرْتَفَعْتُ عَنْ هَذِهِ الْخُطَّةِ . وَلَا رَضِيتُ بِهَذِهِ الْخُطَّةِ ،
قَالَتَارُ ، وَلَا الْعَارُ ، وَالْمَايَةِ ، وَلَا الدَّيَّةِ ، وَالْحَرَّةُ تَجُوعُ وَلَا تَأْكُلُ بِشَدِيدِهَا ^(٦) :

(١) وافد البراجم : هو رجل من بني تميم - والبراجم خمسة من أولاد حنظلة - والعرب تضرب المثل بوافد البراجم لأن عمرو بن هند أحرق تسعة وتسعين رجلاً من بني تميم لأثر له عندهم ، وكان قد آلى أن يحرق منهم مائة فبينما هو يلتمس بقية المائة إذ مرَّ رجل اسمه عمار فاشتم رائحة القنار فظن أن الملك اتخذ طعاماً فعدل إليه فقبل له « من أنت » فقال : « أنا وافد البراجم » فألقى في النار .

(٢) شاعر جاهلي وفد هو وابن أخته طرفة بن العبد على عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة فنادماه وبينما طرفة يشرب يوماً معه وفي يده جام من ذهب فيه شراب أشرفت أخت عمرو ، فرآها طرفة فقال : « ألا بأبي الظبي الذي تترك شغفناه ، ولولا الملك القاعد ألتقي فاه » فسمعهما عمرو فأسرهما في نفسه وهم يقتله ، ولكنه خاف من هجاء المتلمس ، فكتب لهما كتابين إلى حامل البحرين ، وقال : « إني كتبت لكما بصلته فاقبضاهما من حامل البحرين » فخرجا من عنده بالكتابين ، وصرا المتلمس بعلام من أهل الحيرة ، فطلب إليه أن يقرأ كتابه فإذا فيه « إذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه واصلبه » فأقبل على طرفة فقال « والله لقد كتب لك بمثل هذا ، فادفع كتابك إلى الغلام يقرأه » فقال : « كلا ما كان لي جترى على قومي بمثل هذا » فألقى المتلمس صحيفته في نهر الحيرة وذهب طرفة فقتل .

(٣) ابنة الخس امرأة جاهلية زنت بمبد لها ، فلما قرعوها وعيروها بفعلتها ولاموها عليها قالت لهم : « لقد حملني على ذلك قرب الوساد ، وطول السواد » وهي تعني بطول السواد : طول السرار ، وفي الحديث : « السواد من السحر » تقول : سارده أي سارده ، أنظر « ص ١٩٨ » (٤) حتى من تغلب .

(٥) حتى من اليمن ، وهو من شعر مهلهل التغلبي حين هرب وطالت عليه حرب البسوس فنزل في طريقه على حتى من اليمن فخطبوا إليه ابنته فاساقوا النهر وهو جلود من آدم وغصبوه على الزواج فقال :

« أعزز على تغلب بما لقيت أخت بني الأكرمين من جشم
أنكحها فقدما الأرقام من جن ب وكان الحباء من آدم
لوباً بأبائين جاء خاطبها ضرج مأنف خاطب بدم . »

(٦) هذه أمثلة لمن يفضل الهلاك على قبيح الاحدوث .

فَكَيْفَ وَفِي أَبْنَاءِ قَوْمِي مَنْكَحٌ وَفَتَيَانِ هَزَانِ الطَّوَالِ الْفَرَانِقَةُ^(١)

مَا كُنْتُ لَا تَخْطِي الْمِسْكَ إِلَى الرَّمَادِ ، وَلَا أَمْتَطِي الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوَادِ ، فَلَمَّا
يَقِيمُ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَاءً ، وَيَرْعَى الْهَشِيمَ ، مَنْ عَدِمَ الْجَمِيمَ ، وَيَرْكَبُ الصَّغْبَ
مَنْ لَا ذُلُولَ لَهُ ، وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا غَرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبَوْتِي إِلَيْهِ ، وَشَهِدْتَ
مُسَاعَفَتِي لَهُ ، مِنْ أَقْمَارِ الْمَضَرِ ، وَرِيحَانِ الْمَضَرِ ، الَّذِينَ هُمُ الْكُؤَاكِبُ غُلُوْهُمُ ،
وَالرِّيَاضُ طَيْبُ شَيْمٍ :

« مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقَلَّ لَا قِيَتْ سَيِّدَهُمْ » مِثْلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسْرِي بِهَا السَّارِي^(٢) »
حَنْ قَدَحٌ لَيْسَ مِنْهَا ، مَا أَنْتَ وَهُمْ ، وَأَنْتَى تَقَعُ مِنْهُمْ ، وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا وَאוُ
عَمْرُو فِيهِمْ ، وَكَالْوَشِيظَةِ^(٣) فِي الْعَظْمِ يَبْنُهُمْ ، وَإِنْ كُنْتُ إِنَّمَا بَلَغْتَ قَعْرَ
تَابُوتِكَ ، وَتَجَافَيْتَ عَنْ بَعْضِ قُوَّتِكَ ، وَعَطَّرْتَ أُرْدَانَكَ ، وَجَرَرْتَ هَمِيَانَكَ ،
وَاخْتَلَتْ فِي مِشْيَتِكَ ، وَحَذَفَتْ فُضُولَ لِحْيَتِكَ ، وَأَصْلَحْتَ شَارِبَكَ ،
وَمَطَطْتَ حَاجِبَكَ ، وَرَقَّقْتَ خَطَّ عَذَارِكَ ، وَاسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إِزَارِكَ ، رَجَاءُ
الْأَكْتَتَانِ فِيهِمْ ، وَطَمَعًا فِي الْأَعْتِدَادِ مِنْهُمْ ، فَظَنَنْتَ عَجْزًا ، وَأَخْطَأْتَ
اسْتِكَ الْخَفَرَةِ^(٤) ، وَاللَّهُ لَوْ كَسَاكَ مُحَرَّقُ الْبُرْدَيْنِ^(٥) ، وَحَلَّتْكَ مَارِيَةُ^(٦) بِالْقُرْطَيْنِ
وَقَلَّدَكَ عَمْرُو الصَّنْصَامَةَ^(٧) ، وَحَمَلَكَ الْحَارِثُ عَلَى النَّعَامَةِ^(٨) ، مَا شَكَكَتُ فِيكَ ،

(١) اسم قبيلة - والفراقة الشباب ، والبيت للأعشى

(٢) البيت للعرندس أحد بني بكر بن كلاب .

(٣) قطعة العظم تكون زيادة في العظم الصميم - يقال نلان وشيظة في قومه أي حشو فيهم .

(٤) مثل يضرب لمن يطلب أمرا فيخطئه ولا يثاله . (٥) انظر ص « ٢٠٠ »

(٦) ابنة ظالم زوج الحارث الأكبر النسائي - وقد أهدت قرطها إلى الكعبة .

(٧) انظر ص « ٢٠٧ - ٢١٠ »

(٨) فرس الحارث بن عباد التغلبي من سادات بني وائل .

وَلَا سَتَرْتَ أَبَاكَ ، وَلَا كُنْتَ إِلَّا ذَاكَ ، وَهَبَكَ سَامِيَتِهِمْ فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ
وَالْحَسَبِ ، وَجَارَيْتَهُمْ فِي غَايَةِ الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ ، أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى يَنْتِ
قَعِيدَتُهُ لِكَاعٍ ^(١) ؟ إِذْ كُلُّهُمْ عَزَبُ خَالِي الذَّرَاعِ ، وَأَيْنَ مَنْ أَنْفَرِدُ بِهِ مِمَّنْ
لَا غَلَبَ إِلَّا عَلَى الْأَقَلِّ الْأَخَسِّ مِنْهُ ، وَكَمْ يَبْنَى مَنْ يَعْتَمِدُنِي بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ،
وَالشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ ، وَالنَّفْسِ الْمَضْرُوفَةِ إِلَيَّ ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَيَّ ، وَبَيْنَ آخِرِ
قَدْ نَضَبَ غَدِيرُهُ ، وَتَزَحَّتْ بِيرُهُ ، وَذَهَبَ نَشَاطُهُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ضُرَاطُهُ ،
وَهَلْ يَجْتَمِعُ لِي فِيكَ إِلَّا الْحَشْفُ وَسُوءُ السَّكِيلَةِ ^(٢) ، وَيَقْتَرِنُ عَلَيَّ بِكَ إِلَّا
الْغُدَّةُ وَالْمَوْتُ فِي يَنْتِ سَلُولِيَّةٍ ^(٣) :

تَعَالَى اللَّهُ يَا سَلَمُ بْنُ عَمْرٍو أَذَلَّ الْحِرْصُ أَغْنَاكَ الرِّجَالِ ^(٤)
مَا كَانَ أَخْلَقَكَ بِأَنْ تَقْدِرَ بِذَرْعِكَ ، وَتَرْبَعَ بِذَلِكَ عَلَى ظَلَمِكَ ، وَلَا تَكُنْ
بِرَاقِشٍ ^(٥) الدَّالَّةَ عَلَى أَهْلِهَا ، وَعَنْزِ السُّوءِ الْمُسْتَثِيرَةِ لِحَتْفِهَا ، فَمَا أَرَاكَ إِلَّا سَقَطَ
بِكَ الْعِشَاءُ عَلَى سِرْحَانٍ ^(٦) ، وَبِكَ لَا بِطَافِي أَغْفَرَ ^(٧) ، أَعْذَرْتَ إِنْ أَغْنَيْتَ شَيْئًا ،
وَأَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ^(٨) .

(١) القعيدة : الزوجة ، واللكاع : النخبة ، والبيت للخطيئة يقول :

« أَطُوفُ مَا أَطُوفُ ثُمَّ آوِي إِلَى بَيْتِ قَعِيدَتِهِ لِكَاعٍ . »

(٢) مثل يضرب في الخلد بين السيفين يجتمعان . قالوا أنه لعمر بن مديكرب ، والحشف أردأ التمر ،
والسكيلة مصدر يدل على الهيشة .

(٣) وهي امرأة من سلول ، وهو مثل فله حاسر بن الطقبل عند ما توند النبي - صلى الله عليه وسلم -
فدعا عليه وقال : اللهم اكفني عاصرا بما شئت ، فظهر في رقبته غدة مات منها وجعل يقول : « غدة كغدة
البعير ، وموت في بيت سلولية . » (٤) البيت لأبي العنابية . (٥) يشير إلى المثل (جنت
على أهلها براقش) (٦) الذئب . (٧) مثل يضرب للشهامة بالرجل - أي نزل بك المكروه ولا
نزل بطي ، والأعفر الذي لونه لون التراب . (٨) يشير إلى قول المعري :

«لقد أسمعتم لو ناديت حيا - ولكن لا حياة لمن تنادي

ونار لو تفجرت بها أضواء - ولكن أنت تنفخ في رماد.»

وامله اقتبسها في قصيدته من شعر عمرو بن مديكرب .

إِنَّ الْمَصَا قُرِعَتْ لَدَى الْحِلْمِ وَالشَّيْءُ تَحْقَرُهُ وَقَدْ يَنْمَى^(١)
وَإِنْ بَادَرْتَ بِالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْمَلَامَةِ ، كُنْتَ قَدْ اشْتَرَيْتَ
الْعَافِيَةَ لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ ، وَإِنْ قُلْتَ جَهَنَّمَ وَلَا طَحْنُ ، وَرُبَّ صَلَفٍ تَحْتَ^(٢)
الرَّاعِدَةِ ، وَأَنْشَدْتَ :

« لَا يُؤَيِّسُنَا مِنْ مُخَدَّرَةٍ قَوْلُ تَغْلُظُهُ وَإِنْ جَرَحَا^(٣) . »

فَعُدْتَ لِمَا نُهَيْتَ عَنْهُ ، وَرَاجَعْتَ مَا اسْتَعْفَيْتَ مِنْهُ ، بَعَثْتُ مَنْ يُرْجِيكَ إِلَى
الْخَضِرَاءِ^(٤) دَفْعًا ، وَيَسْتَحِشُّكَ نَحْوَهَا وَكَرًّا وَصَفْعًا ، فَإِذَا صِرْتَ إِلَيْهَا عَبَثَ
أَكْكَارُوهَا^(٥) بِكَ ، وَتَسَاطَطَ نَوَاطِيرُهَا عَلَيْكَ ، فَمِنْ قَرْنَةٍ مُعْجَظَةٍ تُقَوِّمُ فِي قَفَاكَ ،
وَمِنْ فُجَلَةٍ مُنْتَنَةٍ يُرْمَى بِهَا تَحْتَ خُصَاكَ ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ، لِتَذُوقَ وَبَالَ
أَمْرِكَ ، وَتَرَى مِيزَانَ قَدْرِكَ :

فَمَنْ جَهِلَتْ أَنْفُسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى^(٦)

(١) وهما مثلان يضربان في التحذير، وقد نظمهما الحارث بن وعله اليشكري ، وقد نقل بعض سادات قومه أخاه فقال :

« أَنْتَ سَادَتُنَا بِالْأَرْقِ إِلَّا لَنُوهَن قُوَّةَ الْعَظَمِ
وَوَطَّنُنَا وَطْنَا عَلَى جَنْفِ وَطْنِ الْمَقِيدِ نَابِتِ الْهَرَمِ
وَزَعَمْتَ أَنَا لَا حُلُومَ لَنَا إِنْ الْمَصَا قُرِعَتْ لَدَى الْحِلْمِ
لَا تَأْمَنُ قَوْمًا ظَلَمْتَهُمْ وَبَدَأْتَهُمْ بِالْأَرْقِ وَالْفَشَمِ
إِنْ يَأْبُرُوا نَحْلًا لَنَسِيرَهُم وَالشَّيْءُ تَحْقَرُهُ وَقَدْ يَنْمَى
الْآنَ لَمَّا أَيْضَ مَسْرِقِي وَعَضَضْتُ مِنْ نَابِي عَلَى جِذَمِ
تَرْجُو الْأَعَادِي أَنْ أَصَالِحَهَا جَهْلًا تَوْهَمُ صَاحِبِ الْكَمِ
قَوْمِي هُمْ قَتَلُوا أُمِّمَ أَخِي فَإِذَا رَمَيْتَ يَهْيَبِي سَهْمِي
فَلَنْ عَقُوتَ الْأَعْدَاءِ جَلَالًا وَلَنْ أَصِيبَ الْأَوْهَنَ عَظْمِي . »

(٢) الجمجمة : صوت الرجم ، والطحن : الدقيق ، والصلف : قلة الخير والبركة ، وسحاب صلف : أى قليل الماء كثير

الرعد ، وهما مثلان يضربان لمن يتوعد من غير أن يفعل . (٣) هذا البيت لبشار بن برد - وبعده قوله :

« عَسَرَ الذَّاءُ إِلَى مِيسَرَةٍ وَالصَّبَبُ يَرْكَبُ بَعْدَ مَا جَحَا . »

(٤) الناحية : المزرعة من البلد ، والوكز : ضرب الظهر مع الدفع أو الضرب مجتمع اليد على الذقن .

(٥) الأكارون : الزارعون . (٦) البيت الممتنى - من قصيدة في ذم كافور الأخشيدي رهبانه ، ومنها قوله :

« وَكَدَنْتُ أَحْسَبَ قَبْلَ الْخَصِّ بِأَنْ الرُّؤُوسَ مَحَلَّ النَّهْيِ
فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَى عَقْلِهِ وَجَدْتُ النَّهْيَ كُلَّهُ فِي الْخَصِّ
وَتَدَنَّ قَوْمٌ بِأَصْنَامِهِمْ فَمَا بَزَقَ رِيَّاحٌ فَلَا . »

الرسالة الجدية لابن زيدون^(١)

« كتبها لابن جهور »

يَا مَوْلَايَ وَسَيِّدِي الَّذِي وَدَّادِي لَهُ ، وَأَعْتَدَادِي عَلَيْهِ ، وَأَعْتَدَادِي بِهِ ،
وَأُمْتِدَادِي مِنْهُ ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ مَاضِيَ حَدِّ الْعَزَمِ ، وَارِي زَنْدِ^(٢) الْأَمَلِ ، ثَابِتَ
عَهْدِ النِّعْمَةِ ، إِنْ سَلَبْتَنِي - أَعَزَّكَ اللَّهُ - لِبَاسِ نَعْمَائِكَ ، وَعَظَّمْتَنِي مِنْ حُلِي
إِبْنَائِكَ ، وَأَظْمَأْتَنِي إِلَى بَرُودِ^(٣) إِسْعَافِكَ ، وَنَفَضْتَ بِي كَفَّ حَيَاطَتِكَ ،
وَوَغَضَضْتَ^(٤) عَنِّي طَرَفَ^(٥) جِهَاتِكَ ، بَعْدَ أَنْ نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى تَأْمِيلِي لَكَ ،
وَسَمِعَ الْأَصَمُّ ثَنَائِي عَلَيْكَ^(٦) ، وَأَحَسَّ الْجَمَادُ بِاسْتِحْمَادِي إِلَيْكَ - فَلَا غَرَوُ
قَدْ يَغْصُ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ ، وَيَقْتُلُ الدَّوَاهُ الْمُسْتَشْفَى بِهِ ، وَيُؤْتِي الْحَذِرُ مِنْ
مَأْمَنِهِ ، وَتَكُونُ مَنِيَّةُ الْمُتَمَنَّى فِي أُمْنِيَّتِهِ^(٧) ، وَالْحَيْنُ قَدْ يَسْبِقُ جَهْدَ
الْحَرِيصِ^(٨) :

كُلُّ الْمَصَائِبِ قَدْ تَمَرُّ عَلَى الْفَتَى وَتَهُونُ غَيْرَ شِمَاتَةِ الْحَسَادِ
وَإِنِّي لَا تَجَلَّدُ ، وَأَرَى الشَّامِتِينَ أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ^(٩) ، فَأَقُولُ :

(١) ارجع إلى « ص ٤٩ » (٢) الزند : الزناد ، وورى الزند هو اقتداحه وخروج النار منه .

(٣) برود : بارد . (٤) غفضت : خفضت .

(٥) طرف : عين . (٦) يشير إلى قول المتنبي :

« أنا الذي نظر الأعشى إلى أدبي وأسعت كلماتي من به صدم . »

(٧) قيا يؤمله ويتمناه .

(٨) الحين : اهلاك ، والجهد : الطاقة ، وهذا مثل من أمثال العرب ، شهور . قال عدي بن زيد :

« تد يدرك البطي من حظه - والحين قد يسبق جهد الحريص . »

(٩) يشير إلى قول أبي ذؤيب الهذلي :

« وتجلدى للشامتين أريهم - أني لرب الدهر - لا أتضعع . »

وقد تمثل به معاوية قبيل وفاته .

هَلْ أَنَا إِلَّا يَدُ أَدَمَاهَا سِوَارُهَا ^(١) ، وَجَبَيْنِ عَضَّ بِهِ إِكْلِيلُهُ ^(٢) ، وَمَشَرَفِي ^(٣)
الْصَّقَةُ بِالْأَرْضِ صَاقِلُهُ ، وَسَمَهَرِي ^(٤) عَرَضَهُ عَلَى النَّارِ مُثَقَّفُهُ ، وَعَبْدُهُ ذَهَبَ
بِهِ سَيِّدُهُ مَذْهَبَ الَّذِي يَقُولُ :

« فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرْحَمُ ^(٥) »
هَذَا الْعَتَبُ مُحَمَّدٌ عَوَاقِبُهُ ، وَهَذِهِ النَّبُوءَةُ ^(٦) غَمْرَةٌ ^(٧) ثُمَّ تَنْجَلِي ، وَهَذِهِ
النَّكْبَةُ سَحَابَةٌ صَيِّفٌ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ ^(٨) ، وَلَنْ يَرِيْدَنِي مِنْ سَيِّدِي أَنْ
أَبْطَأَ سَيِّبُهُ ^(٩) ، أَوْ تَأَخَّرَ - غَيْرَ ضَنِينٍ - غَنَاؤُهُ ^(١٠) ، فَأَبْطَأُ الدَّلَاءَ فَيُضَا
أَمْلُوْهَا ^(١١) ، وَأَثْقَلُ السَّحَابِ مَشْيًا أَحْفَلُهَا ^(١٢) ، وَأَنْفَعُ أَحْيَا مَا صَادَفَ ^(١٣)
جَدْبًا ، وَالَّذِ الشَّرَابِ مَا أَصَابَ غَدِيْلًا ^(١٤) ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ

(١) السوار : نوع من الحللى يلبس فى الساعد ، وقريب من هذا قول المتنبي :

« بنوكعب - وما أثرت فيهم - يد لم يدهما إلا الـ - - - - - وار
لها - من قطعه - ألم ونقص ، وفيها - من جلالته - افتخار . »

(٢) الأكليل : التاج . (٣) المشرفى : السيف .

(٤) السمهري : الرمح .

(٥) البيت لأبى تمام ، وقريب من هذا المعنى قول المعري :

« اضرب وايدك - تأديبا على رشد - ولا تقل هو طفل غـ - - - - - ير محتلم
قرب شق برأس جر منفعة ، وقس على شق رأس السيف والعلم . »

(٦) النبوة : الجفوة . (٧) الغمرة : الشدة . قال الشاعر :

« وما هى إلا غمرة ثم تنجلي سريعا وإلا نبوة تنصرم . »

(٨) مثل عربى : يشير إلى أن العسر سيتبعه اليسر بعد قليل .

(٩) سيده : جوده أو عطاؤه . (١٠) غناؤه : خيره أو نفعه .

(١١) مثل عربى ، يقولون : « لعل أبطأ الدلاء أملؤها » وقد اشتق هذا الجريرى فى إحدى

مقاماته ، ومعناه إن أبطأ الدلاء فى الصعود هى الدلاء المتلفة بالماء .

(١٢) أحفلها : أكثرها ماء .

(١٣) الحيا : الغيث أو المطر .

(١٤) الغليل : شدة العطش .

كِتَابٌ ، لَهُ الْحَمْدُ عَلَى اهْتِبَالِهِ ^(١) ، وَلَا عَتَبَ عَلَيْهِ فِي إِغْفَالِهِ ^(٢) :
« فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ - الَّذِي سَاءَ - وَاحِدًا ، فَأَفْعَالُهُ - اللَّاتِي سَرَرْنَ - الْوُف . »

* *

وَأَعُودُ فَأَقُولُ :

« مَا هَذَا الذَّنْبُ الَّذِي لَمْ يَسَعَهُ عَفْوُكَ ، وَالْجَهْلُ الَّذِي لَمْ يَأْتِ مِنْ وَرَائِهِ حَامِكُ ،
وَالْتَطَاوُلُ ^(٣) الَّذِي لَمْ يَسْتَعْرِقْهُ تَطَوُّلُكَ ، وَالتَّحَامُلُ الَّذِي لَمْ يَفِ بِهِ أَحْتِمَالُكَ ،
وَلَا أَخْلُو مِنْ أَنْ أَكُونَ بَرِيئًا ، فَأَيْنَ الْعَدْلُ ؟ أَوْ مُسِيئًا ، فَأَيْنَ الْفَضْلُ ؟ »
إِلَّا يَكُنْ ذَنْبٌ فَعَدْلُكَ وَاسِعٌ أَوْ كَانَ لِي ذَنْبٌ فَفَضْلُكَ أَوْسَعُ ^(٤)
حَنَانِيكَ ^(٥) قَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبْيَ ^(٦) ، وَنَالَني مَا حَسَنِي بِهِ وَكَفَى ، وَمَا أُرَانِي
إِلَّا أُمِرْتُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ ^(٧) فَأَبَيْتُ وَأُسْتَكْبَرْتُ ، وَقَالَ لِي نُوحٌ ^(٨) :
« أَرْكَبْ مَعَنَا » فَقُلْتُ : « سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » وَأُمِرْتُ

(١) اهتباله : اغتنامه .

(٢) اغفاله : تناضيه وتغافله .

(٣) التطاول : التكبر ، والتطول : التفضل ، والتحامل : التكيف بما لا يطاق ، والاحتمال : هو

القدرة على الحمل .

(٤) البيت الأول للبحرئى ، والثانى مأخوذ من قول الشاعر :

« دِينِي ظُلُومًا نَلَسَهُ بِمَسَاءَةٍ قِصَاصًا فَأَيْنَ الْأَخْذِ يَعِزُّ بِالْفَضْلِ ؟ »

(٥) حنانيك : رحمتك وهو مثنى كلمة حنان .

(٦) الزبى : جمع زبية وهى الحفرة فى مكان مرتفع لا يعلوه الماء تحفر لصيد الأسد ، فاذا وصل إليها السيل كان سيلًا عظيمًا لآعهد للناس به ، وهو مثل يضرب لاشئ ، يربى على غايته .

(٧) يشير الى استكبار ابليس عن السجود لآدم حين أمره الله بذلك فعصاه وحقت عليه اللعنة ، ففضل نفسه عليه لأنه من نار وآدم من طين ، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك فى قوله تعالى : « فسجدوا إلا لبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

(٨) يشير إلى قصة نوح حين فاض الطوفان ، وركب السفينة هو ومن معه وخالفه ابنه وعصاه فهلك ، وقد أشار الكتاب الكريم إلى ذلك فى قول نوح : « يا بنى أركب معنا ولا تكن من الكافرين » وقول ابنه : « ساوى إلى جبل يعصمنى من الماء » .

بِإِنَاءِ الصَّرْحِ ^(١) لَعَلِّي أُطْلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ، وَعَكَفْتُ عَلَى الْعِجْلِ ^(٢) ، وَأَعْتَدْتُ فِي السَّبْتِ ^(٣) ، وَتَعَاظَيْتُ ^(٤) فَعَقَرْتُ ^(٥) ، وَشَرَبْتُ مِنَ النَّهْرِ الَّذِي أُبْتُلِي بِهِ جُيُوشُ « طَالُوت » ^(٦) ، وَقُدْتُ الْقَيْلَ لِأَبْرَهَةَ ^(٧) ، وَعَاهَدْتُ قُرَيْشًا عَلَى مَا فِي الصَّحِيفَةِ ^(٨) ، وَتَأَوَّلْتُ فِي بَيْعَةِ الْعَقَبَةِ ^(٩) ، وَنَفَرْتُ إِلَى الْعَيْرِ بِبَدْرٍ ، وَأُنْخَذْتُ بِثَلَاثِ النَّاسِ يَوْمَ أَحُدٍ ^(١٠) ، وَتَخَلَّفْتُ عَنْ صَلَاةِ الْمَصْرِ فِي

(١) الصرح : النصر - يشير إلى قصة فرعون وهي مذكورة في الكتاب الكريم حين قال : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً » .

(٢) يشير إلى عجل بني إسرائيل الذي عبده .

(٣) يشير إلى قصة بني إسرائيل حين نبوا عن الصيد في يوم السبت فخالفوا ما نهبوا عنه ، لحق بهم العذاب

(٤) تعاطيت : أى قت على أطراف أصابع رجلى ورفعت يدي وضربت .

(٥) عقرت : قتلت يقال عقر البعير بالسيف أى ضربت قوائمه به وهو يشير بذلك إلى ناقة صالح وذنب من عقرها ، وإلى الآية الكريمة : « فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها »

(٦) يشير إلى الذنب الذى افتقره جيش « طالوت » عليه السلام ، وإلى الآية : « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده « والكن أكثرهم خالفه وشرب منه فوقعوا في الآثم » قال أبو العلاء :

« سقيا لدجلة والدنيا مفرقة حتى يعود اجتماع النجم تشنينا

وبعدا لا أريد الشرب من نهر كأنما أنا من أصحاب طالوتا »

(٧) يشير إلى قصة أبرهة حامل اليمن من قبل النجاشي حين ذهب لهدم الكعبة ومعه الفيلة لنفضه عليها إذ بنى كنيسة في صنعاء اليمن ليحج إليها الناس بدل الكعبة فلم يبنوا بها وتوطر رجل فيها وأحرقها بعض تجار اليمن ، وغضب النجاشي من ذلك ، وأمر أبرهة حامل اليمن بهدمها وانقصة مذكورة في الكتاب الكريم « ألم تر إلى ربك كيف فعل بأصحاب القيل * ألم تركيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كمصف مأكول . » وقد أشار المعري إلى هذه القصة في لزومياته بقوله :

« حديث جاء عن قايي - ل - في الدهر - وهابلا

وطير عكفت يوماً على الجيش أبابلا

مضى نرحل عن دنيا تزيد العقل تحيلاً . »

(٨) يشير إلى الصحيفة التى كتبها قريش وعلقوها في الكعبة يقررون فيها مقاطعة النبي - صلى الله عليه وسلم - وحادثة الاسلام بعد أن رأوا إسلام عمر وحزرة الذى اعتز بها الدين .

(٩) نفض بيعة العقبة : مخالفة الاجماع والشذوذ عن نجة الصواب .

(١٠) يشير إلى واقعة « أحد » حين انخذل ابن سلول هو ومن معه من المنافقين ورجعوا بثلاث الجيش .

بَنِي قُرَيْظَةَ ^(١) ، وَجِئْتُ بِالْإِفْكِ ^(٢) عَلَى حَائِشَةِ الصَّدِيقَةِ ، وَأَنْفَتُ مِنْ
إِمَارَةِ أُسَامَةَ ^(٣) ، وَزَعَمْتُ أَنَّ بَيْعَةَ أَبِي بَكْرٍ ^(٤) كَانَتْ فَلَئَةً ، وَرَوَيْتُ
رُفْحِي مِنْ كَتِيبَةِ خَالِدٍ ^(٥) ، وَزَقْتُ الْأَدِيمَ ^(٦) الَّذِي بَارَكْتَ يَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ ،
وَضَحَيْتُ بِالْأَشْمَطِ ^(٧) الَّذِي عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ، وَبَذَلْتُ لِقَطَامٍ ^(٨) .

« ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدًا وَقَيْنَةً وَضَرْبَ عَلِيٍّ بِالْحُسَامِ الْمُسَمِّ »

- (١) بنو قريظة : طائفة من اليهود وقد أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - أصحابه بعد عودته من غزوة الخندق أن يصلوا العصر في بني قريظة يعني بذلك أن يسرعوا في الذهاب إليهم .
(٢) يشير إلى جريمة مسطح وحسان في حادثة الإفك ، وهي اتهام عائشة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - حين كانت تائدة من غزوة بني المصطلق ونزات من المودج لقضاء حاجتها وسار أصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - من غير أن يتفقوا عائشة ، وكانت قد تخلفت عن الركب ، ومرت بها صفوان وكان متخلفاً عن الركب فأركبها على جمل ، ولما وصلا أشاع أعوان السوء فيها ما أشاعوه ، ثم برأها القرآن ، وأظهر طهارتها ، وألجم أهل الإفك والبهتان .
(٣) يشير إلى تولية النبي - صلى الله عليه وسلم - أسامة بن حارثة قيادة الجيش الذي ذهب إلى الشام وإلى تمالى بعض المهاجرين ، وأنقذهم من إمارته ، وغضب الرسول - صلى الله عليه وسلم - عليهم وتقريره إليهم ، وصعوده المنبر وهو طاصب رأسه لمرضه .
(٤) يشير إلى رأى الشيعة في أن علي بن أبي طالب كان أجدر بالخلافة من أبي بكر وعمر ، وأن أبا بكر قد اختلسها لنفسه اختلاساً .

- (٥) يشير إلى فك أبي شجرة السلمي في بعض حروب الردة بجيش خالد بن الوليد .
(٦) يشير إلى أديم « عمر » أي جلده الذي مزقه أبو لؤلؤة الجوسي حين قتله ، ويشير إلى قول الشاعر في رثائه :
« جزى الله خيراً من إمام ، وباركت يد الله في ذاك الأديم المزق . »
(٧) يعني بالأشمت : عثمان بن عفان ، وهو يشير إلى قول حسان بن ثابت في رثائه :
« ضحوا بأشمت ، عنوان السجود به ، يقطع أثليل تسبيحاً وقرآناً . »
(٨) قطام : اسم امرأة أقرت عبد الرحمن بن ملجم بقتل علي وفرضته مهراً لها ، فأجابها إلى ماطلبت ، وبني هذا البيت قوله :

« فلامهر أغلى من علي - وإن علا - ولا فك إلا دون فك ابن ملجم . »
وقد أشار البحترى إلى ذلك أبدع إشارة حين قال :
« ولا عجب إذا سدت إن ظفرت بها كلاب الأعداء من فصيح وأعجم »
فربة وحشى سقت حمزة الردي ، وموت علي من حسام ابن ملجم .

وَكَتَبْتُ إِلَى عَمْرِو بْنِ سَعْدٍ : « أَنْ جَمَعَ^(١) بِالْحُسَيْنِ » وَتَمَثَّلْتُ عِنْدَ مَا بَلَغَنِي مِنْ وَقْعَةِ الْحَرَّةِ^(٢) :

« لَيْتَ أَشْيَاخِي - يَبْدُرُ - عَلِمُوا جَزَعَ الْخَزَرَجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسَلِ »
وَرَجَمْتُ الْكَعْبَةَ ، وَصَلَبْتُ الْعَائِذَ عَلَى الْغَنِيَّةِ^(٣) ، لَكَانَ - فِيمَا جَرَى عَلَى -
مَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَسْمَى نَكَالًا ، وَيُدْعَى - وَلَوْ عَلَى الْمَجَازِ - عِقَابًا .
« وَحَسْبُكَ مِنْ حَادِثٍ بِأَمْرِي تَرَى حَاسِدِيهِ لَهُ رَاحِمِينَ ! »

* * *

فَكَيْفَ وَلَا ذَنْبَ إِلَّا نَعِيمَةً أَهْدَاهَا كَاشِحٌ^(٤) ، وَنَبَأٌ جَاءَ بِهِ فَاسِقٌ .
وَهُمْ الِهْمَازُونَ الْمَشَاءُونَ^(٥) بِنَمِيمٍ ، وَالْوَاشُونَ الَّذِينَ لَا يَلْبُسُونَ أَنْ يَصْدَعُوا
الْعَصَا ، وَالْفُؤَاةُ^(٦) الَّذِينَ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا^(٧) صَحِيحًا ، وَالسَّعَاةُ^(٨) الَّذِينَ
ذَكَرَهُمُ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ : « مَا ظَنُّكَ بِقَوْمٍ ، الصَّدُوقُ مُحَمَّدٌ إِلَّا مِنْهُمْ »
« حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رَيْبَةً ، وَلَيْسَ - وَرَاءَ اللَّهِ - لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ »
وَاللَّهُ ، مَا غَشَشْتُكَ بَعْدَ النَّصِيحَةِ ، وَلَا أَنْحَرَفْتُ عَنْكَ بَعْدَ الصَّاعِيَةِ^(٩) ، وَلَا
نَصَبْتُ لَكَ^(١٠) بَعْدَ التَّمَشُّعِ ، وَلَا أَزْمَعْتُ يَأْسًا مِنْكَ مَعَ ضَمَانٍ تَكْفَلْتُ بِهِ

(١) يشير إلى تحريض عبيد الله بن زياد على قتل الحسين حين أرسل عمر بن سعد لقتله وأعقبه بشر وأمر عبيد الله عمرو بن سعد أن يجمع بالحدين أي يضيق عليه الخناق .

(٢) وقعة الحرّة - يشير إلى ما فعله يزيد بن معاوية حين أرسل عقبة بن مسلم لخاربة أهل المدينة وإباحتها ثلاثة أيام ، ولما تمّ ليزيد ذلك تمثّل بقول ابن الزبيرى : « لَيْتَ أَشْيَاخِي الخ . »

(٣) يشير إلى رجم الحجاج الكعبة بالمنجنيق وصلبه عبد الله بن الزبير وهو يعنيه بالعائذ أي المنجى ، واثنية : طريق العقبة . (٤) الكاشح : العدو .

(٥) الهمازون : الذين يكثرون الهمز وهو الغيبة ، والمشاءون : الذين يكثرون السعي بين الناس بالنعمة . (٦) الفؤاة : جمع غار وهو المشلل . (٧) الأديم الجلد .

(٨) السعاة : الذين يسعون بين الناس بالفساد . (٩) الصاعية : صاعية الرجل خاصته الذين يصفون إليه ويغشون مجلسه . (١٠) ولا نصبت لك : عاديتك .

الثِّقَةُ عَنْكَ ، وَعَهْدٍ أَخَذَهُ حُسْنُ الظَّنِّ عَلَيْكَ . فَفِيمَ عَبَثَ الْجَفَاءِ بِأَذِمَّتِي ^(١) ،
وَعَاثَ الْعُقُوقُ فِي مَوَاتَاتِي ، وَتَمَكَّنَ الضِّيَاعُ مِنْ وَسَائِلِي ؟ وَلِمَ ضَاقَتْ
مَذَاهِبِي ، وَأَكْدَتْ مَطَالِبِي ؟ وَعَلَامَ رَضِيتُ مِنَ الْمَرْكَبِ بِالتَّعْلِيقِ . بَلْ
مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ ^(٢) ؟ وَبِأَنْ غَلَبَنِي الْمَغْلَبُ ^(٣) ، وَفَخَرَ عَلَى الْعَاجِزِ الضَّعِيفُ ،
وَلَطَمْتَنِي غَيْرُ ذَاتِ سِوَارٍ ^(٤) ؟ وَمَا لَكَ لَمْ تَمْنَعْ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُفْتَرَسَ ، وَتَذَرِكُنِي
وَلَمَّا أَمْرَقَ ^(٥) ؟ أَمْ كَيْفَ لَا تَتَضَرَّمُ جَوَانِحُ الْأَكْفَاءِ ^(٦) حَسَدًا لِي عَلَى الْخُصُوصِ
بِكَ ؟ وَتَقَطُّعُ أَنْفَاسُ النُّظَرَاءِ مُنَافَسَةً فِي الْكَرَامَةِ عَلَيْكَ ، فَكَيْفَ وَقَدْ
زَانَنِي قَدِيمُ خِدْمَتِكَ ، وَزَهَانِي وَسْمُ نِعْمَتِكَ ، وَأَبْلَيْتُ الْبَلَاءَ الْجَمِيلَ فِي
سِمَاطِكَ ^(٧) ، وَقُمْتُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ عَلَى بِسَاطِكَ ؟

« أَلَسْتُ الْمَوَالِي فِيكَ غُرَّ قَصَائِدٍ هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ - مَعَ اللَّيْلِ - الْأَنْجُمَا
ثَنَاءً يَطْلُ الرُّوْضُ مِنْهُ مُنُورًا ضَحَا ، وَيُخَالُ الْوُشْيُ فِيهِ مُنْعَمًا »

(١) الأذمة : العهود والحرمان . (٢) رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ : مثل يضرب في القناعة بالسلامة
قال امرؤ القيس :

« لَفُطِيفَتْ فِي - الْآفَاقِ - حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ . »

(٣) الْمَغْلَبُ : أَيْ الضَّعِيفُ . قَالَ الشَّاعِرُ :

« فَانْكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كِفَاخِرُ ضَعِيفٌ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مَغْلَبِ . »

(٤) فِي الْمَثَلِ « لَوْ ذَاتِ سِوَارٍ لَطَمْتَنِي » ، يُشِيرُ إِلَى ضَعْفِ الْمُعْتَدِي وَحَقَارَتِهِ وَالْعَادَةِ أَنْ السِّوَارَ
لَا تَابِسُهُ إِلَّا الْحَرَّةُ . قَالَ الشَّاعِرُ :

« بَلَاءٌ لَيْسَ يَعْذِلُهُ بَلَاءٌ عِدَاوَةُ غَيْرِ ذِي حَسَبٍ وَدِينٍ »

يُبَيِّحُكَ مِنْهُ عَرْضًا لَمْ يَفِرْهُ وَبَرَقَ مِنْكَ فِي عَرْضِ مِصْرُونَ .

وَقَالَ الْمَعْرِيُّ : « خَفَ يَا كَرِيمُ عَلَى عَرْضِ تَعْرِضِهِ لِعَائِبٍ ، فَلْتَمِمْ لَا يَقَاسُ بِكَ »

إِنْ الزَّجَاجَةُ - لِمَا حَطَمْتَ - سَبَكَتْ وَكَمْ تَحْطُمُ مِنْ دُرِّ فَمَا سَبَكَ . »

(٥) وَتَذَرِكُنِي وَلَمَّا أَمْرَقَ : يُشِيرُ إِلَى قَوْلِ الثُّغْبَانِيِّ الْعَبْدِيِّ ، وَقَدْ اشْتَهَدَ بِهِ عُثْمَانُ بْنُ عَفَانَ فِي كِتَابِهِ إِلَى عَلِيٍّ :

« فَإِنْ كُنْتُ مَا كُولا فَكُنْ أَنْتَ آكِلِي وَإِلَّا فَأَذَرِكُنِي وَلَمَّا أَمْرَقَ . »

(٦) الْأَكْفَاءُ : جَمْعُ كَفٍ ، وَهُوَ النَّدَى أَيْ الْمَثِيلُ .

(٧) السِّمَاطُ : الصَّف ، وَقَدْ مَرَّ بِكَ قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ فِي ص ١٤٤ «

« إِذَا مَا اسْتَوَى فِي الدِّسْتِ طَائِدُ حَبُوبَةٍ ، وَقَامَ سِمَاطًا حَفْلُهُ فَنَالِي الصَّدْرِ . »

أَيْ صَفَا حَفْلُهُ .

وَهَلْ لَبَسَ الصَّبَاحُ إِلَّا بُرْدًا طَرَزْتَهُ بِفَضَائِلِكَ ، وَتَقَلَّدْتَ الْجُوزَاءُ إِلَّا عِقْدًا
فَصَلَّتُهُ بِمَآثِرِكَ ، وَأَسْتَمَلَى الرَّيِّعُ إِلَّا ثَنَاءَ مَلَاتِهِ بِمَحَاسِنِكَ ، وَبَثَّ ^(١) الْمِسْكُ
إِلَاحِدِيثًا أَذَعَتْهُ فِي مَحَامِدِكَ ؟ مَا يَوْمُ « حَلِيمَةَ » بِسِرٍّ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمْ أَكُسْكَ
سَلِيكًا ^(٢) ، وَلَا حَلِيَّتُكَ عُطْلًا ^(٣) ، وَلَا وَصْمُكَ غُفْلًا ، بَلْ وَجَدْتُ آجُرًا وَجِصًّا ^(٤)
فَبَنَيْتُ ، وَمَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَقُلْتُ ، حَاشَ لَكَ أَنْ أَعْدَّ مِنَ الْعَامِلَةِ النَّاصِبَةِ ^(٥)
وَأَكُونَ كَالذُّبَالَةِ ^(٦) الْمَنْصُوبَةِ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَتَحْتَرِقُ ، فَلَكَ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ
- بِكَ وَبِي - فِيكَ أَوْلَى ، وَلَعَمْرِي إِنْ صَرِيحَ الرَّأْيِ أَنْ أَتَحَوَّلَ ^(٧) إِذَا بَلَغْتَنِي
الشَّمْسُ وَنَبَا بِي الْمَنْزِلُ ، وَأَصْفَعَ عَنِ الْمَطَامِعِ الَّتِي تَقْطَعُ أَغْنَاكَ الرَّجَالُ .
فَلَا أَسْتَوْطِنُ الْعَجَزَ ، وَلَا أَطْمَأْنِنُ إِلَى الْغُرُورِ . وَمِنْ الْأَمْثَالِ الْمَضْرُوبَةِ :
« خَامِرِي أُمَّ عَامِرٍ ^(٨) » وَإِنِّي مَعَ الْمَعْرِفَةِ أَنَّ الْجُلَاءَ ^(٩) سِبَاءُ ^(١٠) وَالثَّقَلَةَ مَثَلَةٌ ^(١١) .

(١) بَثَّ : نَفَرَ ، وَقَوْلُهُ « مَا يَوْمُ حَلِيمَةَ بِسِرٍّ » مِثْلُ يَضْرِبُ فِي كُلِّ أَمْرٍ مَتَعَالِمٌ مَشْهُورٌ ، وَأَصْلُهُ أَنَّ
الْحَارِثَ بْنَ أَبِي شَمْرٍ وَجَهَ جَيْشًا إِلَى الْمَنْذَرِ بْنِ مَاءِ السَّمَاءِ فِي الْغَزْوَةِ الَّتِي قَتَلَ فِيهَا ، وَأَمْرَ ابْنَتِهِ حَلِيمَةَ فَأَخْرَجَتْ
لَهُمْ مَرْكَبًا فِيهِ خَلْقٌ أَيْ طَيْبٌ ، فَقَالَ خَلْقُهُمْ فُخِرَتْ إِلَيْهِمْ ، فَجَمَعَتْ تَحْقِيقَهُمْ وَهِيَ مِنْ أَجْلِ نِسَاءٍ عَصَرَهَا ،
وَمَضَى الْقَوْمُ حَتَّى أَتَوْا الْمَنْذَرَ ، فَقَالُوا أَتَيْنَاكَ مِنْ عِنْدِ صَاحِبِنَا وَهُوَ يَدِينُ لَكَ بِالطَّاعَةِ وَيُعْطِيكَ حَاجَتَكَ ، فَنَبَّاهُ
الْمَنْذَرُ بِذَلِكَ ، وَغَفَلَ الْمَنْذَرُ وَعَسَاكَرُهُ بَعْضَ الْغَفْلَةِ فَحَمَلُوا عَلَيْهِ فَقَتَلُوهُ ، وَكَانَ الْحَارِثُ قَدْ أَوْصَاهُمْ بِذَلِكَ قَبْلَ أَنْ
يُوجِهُهُمْ إِلَيْهِ ، فَقِيلَ : مَا يَوْمُ حَلِيمَةَ بِسِرٍّ فَذَهَبَتْ مِثْلًا .

(٢) السَّلْبُ : الْمَسْلُوبُ . (٣) الْعُطْلُ : الْعَاطِلُ . قَالَ الطُّفْرَائِيُّ :

« أَصَالَةُ الرَّأْيِ صَاقٍ عَنِ الْخَطْلِ وَحَلِيلَةُ الْفَضْلِ زَانِقِي لَدَى الْعُطْلِ . »

(٤) الْأَجْرُ : الطَّيْنُ ، وَالْجَمْسُ : الْجَبَرُ . وَقَدْ تَنَاوَلَ الْكِتَابُ وَالشُّعْرَاءُ هَذَا الْمَعْنَى ، وَلَكِنَّا لَمْ نَقْرَأْ أَبَدْعَ
مِنْ قَوْلِ أَمِيرِ الشُّعْرَاءِ فِي قِصَّةِ قَبِيْزٍ عَلَى إِيَّانٍ وَصِيْفَةِ مَلِكَةِ فَارَسَ :

« إِنِّي وَضَعْتُ ذَهَبًا فِي بَوْتِقِهِ وَلَمْ أَصِفْ - بِالطَّيْبِ - إِلَّا زَنْبِقَهُ »

وَقُلْتُ عَنْ شَمْسِ النَّهَارِ : مَشْرِقُهُ . »

(٥) يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَمَالَى : « وَجْهَهُ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلِي نَارًا حَالِمَةً . »

(٦) يُشِيرُ إِلَى قَوْلِ عَبَّاسِ بْنِ الْأَخْنَفِ :

« صَرْتُ كَأَنَّيْ ذُبَالَةً نَصَبْتُ نَفْسِي لِلنَّاسِ وَهِيَ تَحْتَرِقُ . »

(٧) فِي الْمَثَلِ « إِذَا بَلَغْتِكَ الشَّمْسُ فَتَحَوَّلْ » (٨) خَامِرِي أُمَّ طَامِرٍ : مِثْلُ يَضْرِبُ لِمَنْ عَرَفَ

الدُّنْيَا وَتَغْلِبَاتِهَا وَلَمْ تَنْفَعْهُ مَعْرِفَتُهُ أَنْ يَمِيلَ إِلَيْهَا وَيَقْتَرِبَ بِهَا . قَالَ الْبَهَاءُ زُهَيْرٌ :

« خَدَعُوكَ بِالْقَوْلِ الْحَا لَ نَصَحَ أَنَّكَ أُمُّ طَامِرٍ . »

(٩) الْجُلَاءُ : الزُّوْجُ عَنِ الْوَطَنِ . (١٠) السِّبَاءُ : الْأَسْرُ . (١١) وَالثَّقَلَةُ : النِّكَالُ .

«وَمَنْ يَغْتَرِبَ عَنْ قَوْمِهِ لَمْ يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ حَجْرًا وَمَسْجِدًا
وَتُذُنٌ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ، وَإِنْ يُسَى يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارُ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا^(١)»
عَارِفٌ أَنَّ الْأَدَبَ الْوَطَنُ لَا يُخْشَى فِرَاقُهُ، وَالْخَلِيطُ لَا يُتَوَقَّعُ زِيَالُهُ^(٢)،
وَالنَّسِيبُ لَا يُخْفَى، وَالْجَمَالُ لَا يُخْفَى، ثُمَّ مَا قَرَأَ السَّعْدُ بِالْكَوَاكِبِ أَبْنَى
أَثَرًا، وَلَا أَسْنَى خَطَرًا، مِنْ أَقْبَرَانِ غَنَى النَّفْسِ بِهِ، وَأَنْتِظَامِهَا نَسَقًا^(٣) مَعَهُ،
فَإِنَّ الْحَاثِرَ لَهُمَا، الضَّارِبَ بِسَهْمٍ فِيهِمَا - وَقَلِيلٌ مَا هُمْ - أَيْنَمَا تَوَجَّهَ وَرَدَ
مَنْهَلٍ بَرٍّ، وَحَطَّ فِي جَنَابِ قَبُولٍ، وَضَوْحِكَ قَبْلَ انْزَالِ رَحْلِهِ، وَأَعْطَى
حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ.

وَقِيلَ لَهُ: «أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَهَذَا مَبِيتٌ صَالِحٌ وَمَقِيلٌ»
غَيْرَ أَنَّ الْوَطَنَ مَحْبُوبٌ، وَالْمَنْشَأُ مَأْلُوفٌ، وَالْمَبِيتُ يَحْنُ إِلَى وَطَنِهِ، حَنِينَ
النَّجِيبِ^(٤) إِلَى عَطْنِهِ^(٥)، وَالْكَرِيمُ لَا يَجْهَرُ أَرْضًا فِيهَا قَوَائِلُهُ^(٦)، وَلَا
يَنْسَى بَلَدًا فِيهَا مَرَاضِعُهُ، قَالَ الْأَوَّلُ :

«أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعَجٍ إِلَى وَسَلْمَى - أَنْ يَصُوبَ سَحَابُهَا
بِلَادُهَا حَلَّ الشَّبَابِ تَمَامِي^(٧) وَأَوَّلُ أَرْضِ مَسِّ جِلْدِي تُرَابُهَا»
هَذَا إِلَى مُغَالَاتِي بِعَقْدِ جَوَارِكِ، وَمُنَافَسَتِي بِلَحْظَةِ مَنْ قُرْبِكَ، وَأَعْتِقَادِي

(١) كَبْكَب : الجبل . (٢) الزِيَال : المفارقة .

(٣) النِّسَق : ما كان على نظام واحد . (٤) النجيب : الفحل الكريم من الابل .

(٥) العطن : مبرك الابل حول الماء .

(٦) القوايل : جمع قابلة وهي التي تتلقى المولود عند خروجه (الداية) .

(٧) وفي رواية : « عى الباب . » وفي أخرى : « شق الشباب » وفي رواية اللسان :

« نبطت على تمامي » والتمام : ما يطلق للطفل ليقبه شر الحسد . قال الشاعر :

« وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تيممة لا تنفع . »

أَنَّ الطَّمْعَ - فِي غَيْرِكَ - طَبَعٌ ، وَالْغِنَى - مِنْ سِوَاكَ - عَنَاءٌ ، وَالْبَدَلُ مِنْكَ أَعْوَرٌ ،
وَالْعَوَضَ لَفَاءً ^(١) :

« وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أُمِيرِي زَادَنِي - ضَنْئًا بِهِ - نَظَرِي إِلَى الْأَمْرَاءِ »
وَكُلُّ الصَّيْدِ فِي جَوْفِ الْفَرَا ^(٢) ، وَفِي كُلِّ شَجَرَةٍ نَارٌ ، وَأَسْتَمَجِدَ الْمَرْخُ
وَالْعَفَّارُ ^(٣) ، فَهَٰذَا هَذِهِ الْبَرَاءَةُ يَمُنُّ بِتَوَلَّائِكَ ، وَالْمَيْلُ عَمَّنْ لَا يَمِيلُ عَنْكَ ، وَهَلَّا
كَانَ هَوَاكَ فِيمَنْ هَوَاهُ فَيْكَ ، وَرِضَاكَ لِمَنْ رِضَاهُ لَكَ :

« يَا مَنْ يَعْرِضُ عَلَيْنَا أَنْ نَفَارِقَهُمْ وَجَدْنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَكُمْ عَدَمٌ »
أَعِيذُكَ وَنَفْسِي مِنْ أَنْ أَشِيمَ ^(٤) خُلْبًا ^(٥) ، وَأَسْتَمْطِرَ جَهَامًا ^(٦) ، وَأَكْدِمَ ^(٧)
فِي غَيْرِ مَكْدَمٍ ، وَأَشْكُو شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْعُقْبَانِ ^(٨) وَالرَّخَمِ ، فَهَٰذَا
أَبَسْتُ ^(٩) لَكَ إِلَّا لِتَدِرَّ ، وَمَا حَرَّكَتُ لَكَ الْخُورَ ^(١٠) إِلَّا لِتَجِنَّ ، وَمَا
نَبَّهْتُكَ إِلَّا لِأَنَامَ ^(١١) ، وَمَا سَرَيْتُ إِلَيْكَ ، إِلَّا لِأُحْمَدَ السَّرَى ^(١٢) . لَدَيْكَ . وَإِنَّكَ

(١) لفاء : خسيس . قال الشاعر :

« وما أنا بالضعيف فظالموني ولا حظي اللفاء ولا الخسيس »

(٢) كل الصيد في جوف الفرا : انظر « ص »

(٣) المرخ والعفار : نوطان من الشجر سريما الاتقاد ، وقريب من هذا قول المعري :

« وأبغضت فيك النخل - والنخل مشمر - وأعجبتني من حبك الطلح والضال . »

(٤) أشيم : أراقب السحاب لأرى أين يطر . (٥) الخلب : البرق الذي لا يصحبه غيث .

(٦) الجهام : السحاب الذي لا ماء فيه .

(٧) أكدم : أعض - والمثل العربي : « كدمت في غير مكدم » - وهو يضرب لمن يريد الشيء من

غير أهله . (٨) يشير إلى قول المتنبي :

« ولا تشكّ إلى قوم فتشمتهم شكوى الجريح إلى العقبان والرخم . »

(٩) أبست : رفقت من الرفق . (١٠) الخوار : ولد الناقة . (١١) يشير إلى قول بشار بن برد :

« إذا أبقتك حروب العدا فتبه لها عمراً ، ثم نم »

فتى لا ينام على غيرة ولا يشرب الماء إلا بدم .

(١٢) يشير إلى المثل المشهور : « عند الصباح يحمد القوم السرى » يشير إلى قرب الفرج بعد الضيق .

إِنْ سَنَيْتَ ^(١) عَقْدَ أَمْرِي تَيْسَّرَ ، وَتَنَى أَعْذَرْتَ ^(٢) فِي فَكِّ أَسْرِي لَمْ يَتَعَذَّرْ ،
وَعِلْمُكَ مُحِيطٌ بِأَنَّ الْمَعْرُوفَ ثَمَرَةُ النِّعْمَةِ ، وَالشَّقَاءَةُ زَكَاةُ الْمَرْوَةِ ، وَفَضْلُ
الْجَاهِ - تَعَوُّدُ بِهِ - صَدَقَةٌ :

« وَإِذَا أَمْرُوهُ أَهْدَى إِلَيْكَ صَنِيعَةً - مِنْ جَاهِهِ - فَكَأَنَّهُمْ مِنْ مَالِهِ ^(٣) »
لَعَلِّي أُلْقِيَ الْعَصَا بِذَرَاكَ ^(٤) ، وَتَسْتَقِرُّ بِي النَّوَى فِي ظِلِّكَ ، وَأَسْتَأْنِفُ التَّأْدِبَ
بِأَدَبِكَ ، وَالْإِحْتِمَالَ عَلَى مَذْهَبِكَ ، فَلَا أُوجِدُ لِلْحَاسِدِ مَجَالَ لِحُظَةٍ ^(٥) ، وَلَا أَدْعُ
لِلْقَادِحِ مَسَاغَ لَفْظَةٍ ، وَاللَّهُ مُبَشِّرُكَ مِنْ إِطْلَاقِي بِهِذِهِ الطَّلِبَةِ ^(٦) ، وَإِشْكَائِي ^(٧)
مِنْ هَذِهِ الشَّكْوَى ، بِصَنِيعَةٍ تُصِيبُ مِنْهَا مَكَانَ الْمَصْنَعِ ، وَتَسْتَوْدِعُهَا أَحْفَظَ
مُسْتَوْدِعٍ ، حَسْبَمَا أَنْتَ خَلِيقٌ لَهُ ، وَأَنَا مِنْكَ حَرِيٌّ بِهِ ، وَذَلِكَ بِيَدِهِ وَهَيْئٌ عَلَيْهِ .

وَلَمَّا تَوَالَتْ عِذْرُ هَذَا النَّثْرِ ، وَأَتَسَقَّتْ دَرَرُهُ ، فَهَزَّ عِطْفَ غُلَوَائِهِ ،
وَجَرَّ ذَيْلَ خَيْلَائِهِ ، عَارَضَهُ النُّظْمُ مُبَاهِيًا ، بَلْ كَايَدُهُ مُدَاهِيًا ، حِينَ أَشْفَقَ
أَنْ يَسْتَعْطِفَكَ أَسْتِعْطَافُهُ ، وَتَمِيلَ بِنَفْسِكَ الْطَافُهُ ^(٨) : فَاسْتَحْسَنَ الْعَائِدَةَ ^(٩)
مِنْهُ ، وَاعْتَدَّ بِالْفَائِدَةِ لَهُ ، فَمَا زَالَ يَسْتَكِدُّ الذَّهْنَ الْعَلِيلَ ، وَالْخَاطِرَ الْكَكِيلَ ،
حَتَّى زَفَّ إِلَيْكَ عَرُوسًا مَجْلُوءَةً ، فِي أَثْوَابِهَا ، مَنْصُوصَةٌ ^(١٠) ، بِحِلْيَتِهَا وَمَلَابِهَا ^(١١) :

(١) سنيت : يسرت وسهلت .

(٢) أعذرت : طلبت العذر .

(٣) البيت لأبي تمام . (٤) ذراك : كنفك وظلك .

(٥) لحظة : نظره .

(٦) الطلبة : المطلوب . (٧) إشكائي : إزالة شكواي .

(٨) الطافه : خيره وبره .

(٩) العائدة : الجليل أو الصنيع .

(١٠) منصوصة : مرفوعة على المنصة ليلة الزفاف . (١١) الملاب : الزعفران .

الهُوَى فِي طُلُوعِ تِلْكَ النُّجُومِ وَالْمَنَى فِي هُبُوبِ ذَلِكَ الذَّنِيمِ^(١)
 سَرَّانَا عَيْشُنَا الرِّقِيقُ الْخَوَاشِي لَوْ يَدُومُ السُّرُورُ الْمَسْتَدِيمِ
 وَطَرُّ مَا أَنْقَضَى إِلَى أَنْ تَقْضَى زَمَنٌ ، مَا ذِمَامُهُ بِالذَّمِيمِ
 إِذْ خَتَامُ الرِّضَا الْمُسَوِّغِ مِنْكَ وَمِزَاجُ الْوِصَالِ مِنْ تَسْنِيمِ
 وَغَرِيضُ الدَّلَالِ غَضُّ جَنَى الصَّبِّ وَهْ ، نَشْوَانُ مِنْ سُلَافِ النِّعَمِ
 طَالَمَا نَافَرَ الْهُوَى - مِنْهُ - غَرٌّ لَمْ يَطُلْ عَهْدُ جِيدِهِ بِالتَّعَمِّمِ

* *

أَيُّهَا الْمُؤَذِّنِي بِظُلْمِ اللَّيَالِي لَيْسَ يَوْمِي بِوَاجِدٍ مِنْ ظُلُومِ
 قَمَرِ الْأَفْقِ - إِنْ تَأَمَّلْتَ - وَالشَّمْسُ هُمَا يُكْسِفَانِ دُونَ النُّجُومِ
 وَهُوَ الدَّهْرُ لَيْسَ يَنْفَكُ يَنْجُو - بِالْمَصَابِ الْعَظِيمِ - نَحْوُ الْعَظِيمِ

* *

بَوَّاءُ اللَّهِ « جَهَوْرًا » شَرَفَ السُّرُودِ دَدٍ فِي السَّرُورِ وَاللُّبَابِ الصَّمِيمِ
 وَاحِدٌ سَلَّمَ الْجَمِيعُ لَهُ الْأَمْرَ ، فَكَانَ الْخُصُوصُ وَفَقَ الْعُمُومِ
 قَلَدَ الْعُمَرُ ذَا التَّجَارِبِ فِيهِ ، وَأَكْتَفَى جَاهِلٌ بِعِلْمِ الْعَلِيمِ
 خَطَرُهُ يَقْتَضِي الْكَمَالَ ، بِنُوعَيْ خُلُقِي بَارِعٍ وَخُلُقِ وَسِيمِ

* *

أَيُّهَا ذَا الْوَزِيرِ: هَا أَنَا أَشْكُو، وَالْعَصَا بَدُو قَرَعِهَا لِلْحَلِيمِ
 مَا عَنَانَا أَنْ يَأْتَفَ السَّابِقُ الْمَرْ بَطَ فِي الْعَتَقِ مِنْهُ وَالتَّطْهِيمِ
 وَبَقَاءُ الْحَسَامِ - فِي الْجَفْنِ - يَنْثَنِي مِنْهُ بَعْدَ الْمَضَاءِ وَالتَّصْنِيمِ

أَفَصَبْرٌ مِّثْلَ خَمْسٍ مِنَ الْآثِمِ ؟ نَاهِيكَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ !
 وَمَعْنَى - مِنَ الضَّغْنِ - بِهَذَا نَكَاتٌ بِالْكُلُومِ قَرَحَ الْكُلُومِ
 سَقَمٌ لَا أُعَادُ فِيهِ ، وَفِي الْعَا ثِدٌ أَنْسٌ يَنْفِي بِيْزُو السَّقِيمِ
 نَارُ بَغْيٍ ، سَرَى - إِلَى جَنَّةِ الْأَمْنِ - لَطَاها ، فَأَصْبَحَتْ كَالْعَصْرِيمِ
 بِأَبِي أَنْتَ - إِنْ تَشَأْ - تَكُ بُرْدًا وَسَلَامًا ، كَنَارِ إِبْرَاهِيمِ
 لِلشَّفِيعِ الشَّاهِدِ ، وَالْحَمْدُ فِي صَوِّ بِ الْحَيَا - لِلرَّيَّاحِ ، لَا لِلْغُيُومِ
 وَزَعِيمٌ بِأَنْ يُدَلِّلَ - لِي الصَّنْعُ - مَثَابِي إِلَى الْهُمَامِ الزَّعِيمِ
 وَوِدَادٌ - يُغَيِّرُ الدَّهْرُ مَا شَاءَ - وَيَبْقَى بَقَاءَ عَهْدِ الْكَرِيمِ
 وَثَنَاءٌ أَرْسَلْتُهُ سَلْوَةَ الظَّأِ عَنِ عَنْ شَوْقِهِ ، وَلَهْوِ الْمُقِيمِ
 فَهَوَ رَيْحَانَةُ الْجَلِيسِ - وَلَا فَخْرَ - وَفِيهِ مِزَاجُ كَأْسِ النَّدِيمِ
 لَمْ يَزَلْ مُغْضِيًا - عَلَى هَفْوَةِ الْجَا نِي - مُصِيخًا إِلَى أَعْتِدَارِ الْكَرِيمِ
 وَمَتَى تَبَدَّأَ الصَّنِيعَةُ يُورِلُكَ تَمَامُ الْخِصَالِ بِالتَّشْمِيمِ
 وَقَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ :

« لَيْسَ دَهْرِي بِوَاجِدٍ مِنْ ظُلُومٍ وَبَلَاءٍ مِنْ حَدِيثٍ وَقَدِيمِ
 لَيْسَ يُسْتَنْكَرُ النُّحُولُ لِمِثْلِي ، جَسَدِي مُبْتَلَى بِقَلْبٍ مَشُومٍ . »

* *

هَا كَمَا - أَعَزَّكَ اللَّهُ - يَبْسُطُهَا الْأَمَلُ ، وَيَقْبِضُهَا الْحَجَلُ ، لَهَا ذَنْبُ التَّقْصِيرِ ،
 وَحَرَمَةُ الْإِخْلَاصِ ، فَهَبْ ذَنْبًا لِحَرَمَةٍ ، وَأَشْفَعْ نِعْمَةً بِنِعْمَةٍ ، لِيَتَأَنَّى لَكَ
 الْإِحْسَانُ مِنْ جِهَاتِهِ ، وَتَسْلُكَ إِلَى الْفَضْلِ مِنْ طُرُقَاتِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

إلى المظفر^(١)

« وكتب إلى المظفر سيف الدولة أبي بكر بن الأفتس،

صاحب بطليوس ، وضمنها قصيدة أولها :

لبيض الطلي ، ولسود اللم

بعقلى - مذ بن عنى - لم »

لَمَّا لَبِسَ الْحَاجِبُ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - رِدَاءَ الْمَجْدِ مُعَلِّمًا ، وَحَمَلَ لَوَاءَ الْحَمْدِ

(١) كان المظفر من أعظم ملوك الطوائف . وكان أحرص الناس - كما يقولون - على جمع علوم الأدب ونوادر الأخبار وعيون التاريخ ، وقد ألف كتاباً كبيراً - فى الأدب - فى عشرة أجزاء ضخمة ، وقد ولى « بطليوس » بعد موت أبيه « عبدالله بن مسلمة » المعروف بابن الأفتس وقد استبد « عبد الله » هذا بالملك سنة ٤٣١ هـ - بعد فتنة بنى أمية بالأندلس - فلما مات أعتبه ابنه « أبو بكر المظفر » وعظم أمره ونبه شأنه ، ومازال بها حتى مات سنة ٤٦١ هـ . وخلفه عليها ابنه المتوكل حتى قتله يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٥ هـ وقد كان ابن عباد يغريه بقتله - فيما يقولون - وكان المتوكل تدم راسخة فى صناعة النظم والنثر مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، وقد رثاه ابن عبدون بقصيدته المشهورة ، وهى :

لا الدهر يفجع - بعد العين - بالأثر
فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة
عن نومة بين ناب الليث والمظفر
فالدهر حرب - وإن أبدى مسالمة -
والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس - تأخذه
يد الضراب - وبين الصارم الذكر
فلا تغرنك - من دنياك - نومتها ،
فما صناعة عينها سوى السهر
ما ليلالى - أقال الله عثرتنا
من الليلالى ، وخانتها يد الغير -
فى كل حين لها - فى كل جراحة
منك جراح ، وإن زاغت عن البصر
تسرّ بالشيء ، لكن كى تنربه
كالأيم ثار إلى الجاني من الزهر
كم دولة - قد مضت والنصر يخدمها -
لم تبق منها ، ولسل ذكراك من خير
موت بدارا ، وفلك غرب قاتله ،
وكان عضباً - على الأملاك - ذا أثر
واسترجعت - من بنى ساسان - ما وهبت ،
ولم تدع - لبني يونان - من أثر
وأتبع أختها طمها ، وماد على
عاد وجرحهم منها نافض المرر
وما أقال ذوى الهبات - من عين -
ولا أجارت ذوى اللغايا من مضر
ومزقت سبأ - فى كل قاصية - ،
فما التقي رائح منهم - بمبتكر
وأنفذت - فى كليب - حكدها ، ورمت
مهلهلا بين سمع الأرض والبصر

مُئَلَّنَا، فَاسْتَطَارَ بَارِقُ فَخْرِهِ، وَأَسْتَضَاءَ فَائِخُ ذِكْرِهِ، وَشُهِرَتْ مُحَاسِنُهُ عَلَى
كُلِّ لِسَانٍ، وَسَارَتْ مَأْتِرُهُ مَسِيرَ الشَّمْسِ بِكُلِّ مَكَانٍ، لِمَا سَوَّغَ مِنْ كَرَمِهِ،

ولم ترد - على الضليل - صحته
ودوخت آل ذبيات وإخوتهم
وألقت - بعدى - بالعراق - على
وأهلك «أبرويزا» بابه، وورمت
وبلغت «يزد جرد» الصين واختزلت
ولم ترد مواضى «رستم» وقتنا
يوم القليب بنو بدر فتوا وسمى
ومزقت «جعفراً» بالبيض، واختلست
وأشرقت بخبيب - فوق فارعة -
وخضبت شيب عثمان دما، وخطت
ومارعت - لأبي اليفضان - صحته
وأجزرت سيف أشفاها أبا حسن،
وليتها - إذ فدت عمراً بخارجة -
وفي ابن هند وفي ابن المصطفى «حسن»
فبعضنا فائل : « ما اغتاله أحد »
وأردت ابن زياد بالحسين، فلم
وعصمت - بالظبي - فودى أبى أنس،
وأثرت مصعباً - من رأس شاهقة -
ولم تراقب مكان ابن الزبير، ولا
وأعمت - في لثيم الجمن - حيلتها،
ولم تدع - لأبى الذباب - قاضيه،
وأحرق شلو «زيد» بعد ما احترقت
وأظفرت بلوليد - بن اليزيد - ولم
«حياة» حب رمان أتيح لها،
ولم تعد قضب السفاح ثانية
وأسبلت دمعة الروح الأمين على
وأشرقت جعفرأ - والفضل بنظره -
وأخفرت - في الأمين - العهد، وانتدبت
وما وفدت بعهود المستعين، ولا
وأوقفت في - عراها - كل معتمد،

ولانت أسداً عن ربه حبر
عبساً، وغصت بنو بدر على النهر
يد ابنه أحر العينين والشعر
يزد جرد إلى «مرو» فلم يجر
عنه - سوى الفرس - جمع الترك والجزر
«ذى حاجب» عنه سعداً في ابنة الغير
قليب بدر - بمن فيه - إلى سقر
- من غيلة - «حزرة» الظلام للجزر
وألصقت «طلحة» القياض بالفر
إلى الزبير، ولم تستحي من عمر
ولم تزوده إلا الضيق في الفجر
وأمكنك - من حسين - راحق شمر
فدت علياً بمن شاءت من البشر
أنت بمعضلة الألباب والنهصر
وبعضنا ساكت لم يوت من حصر
يؤ بشمع له - قد طاح - أو ظفر
ولم ترد الردى عنه قنا «زفر»
كانت بها مهجة المختار في وزر
راعت عيادته بالبيت والحجر
واستوسقت لأبى الذبان ذى البحر
ليس اللطيم لها «مرو» بمنصر
- عليه وجداً - قلوب الآي والسور
تبق الخلافة بين الكأس والوتر
و «أحمد» قطرته نفحة القطر
عن رأس مروان أو أشياعه الفجر
دم بفتح لآل المصطفى هدر
والشيخ يعي بريق الصارم الذكر
لجعفر بابنه والأعبد القدر
بما تأكد للمعز من مهر
وأشرقت - بقضاها - كل مقتدر

وَأُسْبِغَ مِنْ نِعَمِهِ ، وَوَطْأً - لِلْأَمِلِينَ - مِنْ أَكْنَافِهِ ، وَهَزَّ - إِلَى الرَّاعِبِينَ - مِنْ
أُعْطَافِهِ ، وَرَفَرَفَتْ أَجْنِحَةُ الْأَهْوَاءِ إِلَيْهِ ، وَأَهْتَرَّتْ جَوَانِحُ الْأَمَالِ إِلَيْهِ ،

ورفعت كل مأمون ومؤتمن ، وأسلمت كل منصور ومختصر
وأعترت آل عباد - لعالمهم - بذيل زباء لم تنفر من الذمر



بنى المظفر - والأيام ما برحت - مراحل - والورى منها على سفر
سحقا ليومكم يوما ، ولا حلت - بثله - ليلة في مقبل العمر
من للأسرة ؟ أو من الأعنة ؟ أو من الأسنة ؟ يهديها إلى الثغر
من للظي ؟ وعوالى الخط قد عقدت - أطراف ألسنها - بالعى والحصر
وطوقت - بالنايا السود - بيضهم - فاعجب بذاك ، وما منها سوى الذكر
من للبراعة ؟ أو من للبراعة ؟ أو من للبراعة ؟ أو للضرر ؟
أو دفع ككارة ؟ أو ردع آرفة ؟ أو وقع حادثة تعي على القدر ؟
ويج السباح ويرج الباس - لو سلما - وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية - تعزى إليهم - سماحا - لا إلى المطر
ثلاثة ما رأى العصور مثلهم - فضلا - ولو عززا بالشمس والقمر
ثلاثة ما ارتقى النيران حيث رقوا - وكل ما طار - من نسر - ولم يطر
ثلاثة كذوات الدهر - منذ نأوا - عنى - مضى الدهر لم يبرع ولم يحمر
ومر - من كل شيء - فيه أطيبه - حتى التمتع بالأصال والبكر
أين الجلال الذى غضت هابته - قلوبنا وعبوت الأنجم الزهر ؟
أين الإباء الذى أرسوا قواعده - على دحائم من عزّ ومن ظفر
أين الوفاء الذى أصفوا أشرائه - فلم يرد أحد منها على كدر
كانوا رواسى أرض الله - منذ نأوا - عنها - استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصايحما ، فذخبوا عثرت - هذى الخليفة - يا الله - فى سدر
كانوا شجى الدهر ، فاستهوتهم خدع - منه بأحلام عاد فى خطى الحضر
ويل امه من طلوب الثأر مدركه - منهم بأسد سراة فى الوغى صبر
من لى - ولا من بهم - إن أظلمت نوب - ولم يكن ليها يفضى إلى سحر ؟
من لى ومن بهم إن عظمت سفين - وأخفت ألسن الآثار والسير ؟
من لى ومن بهم إن طبقت عن - ولم يكن وردها يفضى إلى صدر ؟
على الفضائل - إلا الصبر - بعدهم - سلام مرتقب للأجر منتظر
يرجو عسى ، وله - فى أختها - أمل - والدهر ذو عقب شقى وذو غير
قرطت ذات من فيها بفاضة - على الحسان حصى الياقوت والدرر . »

وَكَبُرَ التَّعَايُرُ عَلَى تَفْيُؤِ ظِلِّهِ ، وَالتَّنَافُسُ فِي الْأَعْتِلَاقِ بِحَبْلِهِ ، وَكُلُّ اسْتَفْرَغٍ
جُهْدُهُ ، وَتَرَسَّلَ عَلَى حَسَبِ مَا عِنْدَهُ ، وَلَا غَرَوْ أَنْ يُسْتَمَطَرَ النِّعَامُ ، وَيَكْثُرَ
- فِي الْمَشْرَبِ الْعَذْبِ - الرَّحَامُ ^(١) .

وَمَا زِلْتُ - أَبْقَى اللَّهُ الْحَاجِبَ - أَتَلَقَّى مِنْ مَسَاعِيهِ الْمَشْكُورَةِ ، وَيَقْرَعُ
تَمَنِّي بِمَآثِرِهِ الْمَآثُورَةِ ، مَا هُوَ أَنْدَى مِنْ مُبْلُوغِ الْأَمَلِ ، وَأَشْهَى مِنْ اخْتِلَاسِ
الْقُبْلِ ، وَأَغْضَى مِنْ جَنَى الزَّهْرِ ، وَمَا هُوَ الْطَفُّ مِنْ نَسِيمِ السَّحَرِ ، حَتَّى أَنْقَادَتْ
نَفْسِي فِي زِمَامِ التَّأْمِيلِ وَالْمَوَدَّةِ ، وَنَازَعَتْ إِلَى الْأَخْذِ بِحِظٍّ مِنَ الْأَعْتِلَاقِ
وَالْمَمَارَجَةِ ، وَنَظَرْتُ إِلَى مَا دُونَ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ الْبُعْدِ الْمَانِعَةِ ، وَامْتِدَادِ
الثَّأْنِ الْمُعْتَرِضَةِ ، فَغَضَضْتُ طَرَفَ الْخَيَّةِ ، وَطَوَيْتُ كَشْحًا عَلَى الْيَأْسِ مِنْ
دَرْكِ الْأُمْنِيَّةِ ، إِلَى أَنْ نَدَبَنِي الْأَدِيبُ « أَبُو فُلَانٍ » إِلَى مُحَاطَبَتِهِ ، وَحَرَضَنِي عَلَى
مُكَاتَبَتِهِ ، وَنَبَّهَنِي عَلَى مَا فِي التَّنَاقُلِ - عَنْ مُدَاخَلَتِهِ - مِنَ التَّضْيِيعِ الصَّرِيحِ ،
وَالْتَقْصِيرِ الْبَيْنِ الصَّحِيحِ ، إِذْ هُوَ أَسْنَى عِلْقٍ غُولِي فِيهِ ، وَأَنْفَسُ ذَخْرِ نُوفَسٍ
فِيهِ ، فَطَرَبْتُ - إِلَى ذَلِكَ - كَمَا طَرَبَ النَّشْوَانُ مَالَتْ بِهِ الْخَمَرُ ، وَاهْتَزَزْتُ كَمَا
أَهْتَزَّ - تَحْتَ الْبَارِحِ ^(٢) - الْغُصْنُ الرَّطْبُ ، وَرَأَيْتُ سُكْرَ يَدِ الْعَلِيَاءِ فِيهَا حَتَّى
إِلَيْهِ ، وَحَضَنِي عَلَيْهِ ، مِمَّا فِيهِ حِلْيَةُ الْفَخْرِ ، وَمَكْرُمَةُ الدَّهْرِ ، أَنْ أُسْتَفْتَحَ
بَابَ الْمُكَاتَبَةِ بِالشَّفَاعَةِ ، وَأَنْهَجَ طَرِيقَ الْمُحَاطَبَةِ فِي الْعِنَايَةِ بِهِ ، وَتَبَيَّنْتُ - بَعْدَ
ذِمَامِ الطَّلَبِ ، وَحُرْمَةِ الْوُدِّ وَالْأَدَبِ - مَا اسْتَقْصِرُ نَفْسِي مَعَهُ أَنْ أَتَقَدَّمَ فِي

(١) يشير إلى التل المشهور : « المورد العذب كثير الزحام » .

(٢) ربح بارح - ربح شديدة .

خِدْمَتِهِ رَغْبَتِهِ قَلَمِي ، وَقَدْ تَأَخَّرَ قَدَمِي ، وَبَعْدَ الْأَقْتِصَارِ بَغِيَّةَ كِتَابِي ، دُونَ
أَنْ أَرْمَ إِلَيْهِ رِكَابِي ، وَهُوَ فَتَى نَامَ جَدُّهُ ، وَأُسْتَيْقِظَ حَدُّهُ ، فَتَنَكَّرَ الزَّمَانُ لَهُ ،
وَأَعْتَرَتْ الْأَيَّامُ لَهُ ، بَيْنَ ذُنَابِ سَعْيَاةٍ عَوَتْ عَلَيْهِ ، وَعَقَارِبِ وَشَايَةٍ دَبَّتْ
إِلَيْهِ ، وَأَصْلَى بِنَارِ حَرْبٍ لَمْ يَجْنِهَا ، وَآلَ بِهِ الْأَمْرُ إِلَى فِرَاقِ أَحِبَّتِهِ ، وَالْبُعْدِ
عَنْ مَسْقَطِ رَأْسِهِ ، وَمَمْلَقِ تَمَاضِيهِ ، عَلَى ضَيْقِ خَالِهِ ، وَضَعْفِ إِحْسَانِهِ ،
وَأَشْهَدُ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَزِدِ الْحَاجِبَ إِلَّا وِلَاةً ، وَعَدْلِيهِ إِلَّا ثَمَاءً ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ
يُعِيدُ شُكْرَهُ وَيُبْدِيهِ ، وَيَنْشُرُ حَمْدَهُ وَيَطْوِيهِ ، وَالْحَاجِبُ - أَدَامَ اللَّهُ إِعْزَارَهُ -
وَلِيَ بِأَعْدَائِهِ عَلَى زَمَانِهِ الْغُشُومَ ، وَأَمَلِي بِإِنْصَافِهِ مِنْ دَهْرِهِ الظُّلُومَ ، بِالْبَاسِ
مِنْ جَمِيلِ رَأْيِهِ مَا عَرَى مِنْهُ ، وَإِيرَادِهِ مِنْ شَرِيعَةِ رِضَاةٍ مَا حُلِيَ عَنْهُ ،
وَالْتَخْلِيَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَفْقِ الَّذِي لَمْ يَرَ كَوْكَبَ سَمْعِدٍ إِلَّا فِيهِ ، وَلَا تَلَقَّى
نَسِيمَ حَيَاةٍ إِلَّا مِنْهُ ، فَإِنَّهُ مِمَّا يُؤَلَّفُهُ مِنْ إِحْسَانِهِ ، وَيَأْتِيهِ مِنَ الْفَضْلِ فِي شَانِهِ ،
مُسْتَجْزِلُ شُكْرِ مَنْ أَنْهَضَهُ لِسَانٌ ، وَأُسْتَقَمَّلَ بِهِ بَيَانٌ ، وَهُوَ أَهْلُ الْفَضْلِ ،
وَالْمَعْرُودُ مِنْهُ كَرَمُ الْفِعْلِ ، وَاللَّهُ يُبْقِيهِ وَيُعْلِيهِ ، وَهُوَ حَسْبُهُ وَحَسْبِي فِيهِ .

وَلَمَّا أَطْرَدَ هَذَا النَّثْرُ مُحْسِنِ اتِّسَافِهِ ، وَلَدِيدِ مَذَاقِهِ ، هَزَّتِ النَّظْمُ أَرْجِيحَهُ
جَذِبَ لَهَا بِعِنَانِهِ ، وَعَارَضَهُ بِهَا فِي مِيدَانِهِ ، وَأَبَتْ أَنْ يَنْفَرِدَ النَّثْرُ بِإِلْقَاءِ
الْحَاجِبِ وَمُشَافَهَتِهِ ، وَاسْتَبَدَّ بِأَنْ تُلَمَّحَ غَرَّتُهُ ، وَتُخْدَمَ بِالْحُضُورِ حَضَرَتُهُ ،
فَأَثْبَتَتْ مِنْهُ مَا إِنْ أَنْعَمَ عِنْدَ تَصَفُّحِهِ بِالصَّفْحِ عَنِ الزَّلَلِ الَّذِي يَعْزِضُ فِيهِ ،
وَالْخَلَلِ الَّذِي يَبْدُو مِنْهُ ، وَصَلَ النِّعْمَةُ بِمِثْلِهَا ، وَقَرَنَ الْعَارِفَةُ بِشَكْلِهَا .

لَبِيضُ الطَّلَى وَلِسُودِ اللَّهْمِ بِعَقْلِي - مُذْنِبٌ عَنِّي - لَمْ^(١)

فَفِي نَاطِرِي - عَنْ رَشَادِي - عَمِي ،
قَضَتْ بِشِمَاسِي - عَلَى الْعَازِلِينَ -
فَمَا سَقَمْتُ لَحْظَاتُ الْعُيُ
يَلُومُ الْخَلِي عَلَى أَنْ أَجَنَّ
وَمَا ذُو التَّذَكُّرِ يَمُنُّ يَلَامُ

وَإِنِّي أَرَاكِ إِذَا مَا الْجَنُوبُ
وَأَصْبُو لِعِرْفَانٍ عَرَفَ الصَّبَا
وَمِنْ طَرَبٍ عَادَ نَحْوُ « الْبُرُودِ »
أَمَّا وَزَمَانٍ - مَضَى عَهْدُهُ
قَضَى بِالصَّبَابَةِ ثُمَّ انْقَضَى
لِيَالِي نَامَتْ عُيُونُ الْوُشَا
وَمَالَتْ عَلَيْنَا غُصُونُ الْهَوَى
وَأَيَّامُنَا مُذْهَبَاتُ الْبُرُودِ
كَأَنَّ « أَبَا بَكْرٍ » الْأَسْلَمِيَّ أَجْرَى عَلَيْهَا فِرْنَدَ الْكَرَمِ
وَوَشَّحَ زَهْرَةَ ذَاكَ الزَّمَانِ
هُوَ الْحَاجِبُ الْمُعْتَلِي لِلْعَلَا
مَلِكٌ - إِذَا سَابَقَتْهُ الْمُلُوكُ -
فَاطُولُهُمْ - بِالْأَيَادِي - يَدًا ،

وَفِي أُذُنِي - عَنْ مَلَامٍ - صَمَمٌ (١)
شُمُوسٌ مُكَلَّمَةٌ بِالظُّلَمِ
نِ إِلَّا لِتُغْرِينِي بِالسَّقَمِ
وَقَدْ مَزَجَ الشَّوْقُ دَمْعِي بِدَمِ
وَلَا كَرَمُ الْعَهْدِ مِمَّا يُدَمِّ

بُ رَاحَتِ بَرِّيَا جَنُوبِ الْعَلَمِ
وَأَهْدَى السَّلَامَ إِلَى « ذِي سَلَمٍ »
ق « أَجْهَشْتُ لِلْبَرْقِ حِينَ أَبْتَسِمُ
حَمِيدًا - لَقَدْ جَارَ لِمَا حَكَمُ
وَمَا اتَّصَلَ الْأَنْسُ حَتَّى أَنْصَرَمُ
عِنَا ، وَعَيْنُ الرِّضَى لَمْ تَنْمِ
فَأَجْنَتْ ثَمَارَ الْمُنَى مِنْ أُمَمِ
رَفَاقُ الْحَوَاشِي صَوَافِي الْأَدَمِ
بِمَا حَازَ مِنْ زُهْرٍ تِلْكَ الشِّيمِ
شَمَارِيحُ كُلِّ مُنِيفٍ أَشْمِ
حَوَى أَخْصَلَ أَوْ سَاهَمْتُهُ سَهْمِ
وَأُثْبِتُهُمْ - فِي الْمَعَالِي - قَدَمِ

(١) قَالَ ابْنُ مَاتِي الْأَنْدَلِي :

« وَفِي بَهْرِي - عَنْ سَوَاكُم - عَمِي ، وَفِي أُذُنِي - عَنْ سَوَاكُم - صَمَمٌ . »

✱ ✱

وَأَرْوَعٌ ، لَا مُعْتَنِي رِفْدِهِ يَحْيَبُ ، وَلَا جَارُهُ يُهْتَضَمُ
ذَلُولُ الدَّمَائَةِ صَعْبُ الْإِبَاءِ ثَقِيفُ الْعَزِيمِ إِذَا مَا اعْتَزَمَ
سَمًا لِلْمَجَرَّةِ - فِي أَقْفِهَا - فَجَرٌّ عَلَيهَا ذُبُولُ الْهِمَمِ
وَنَاصَتْ مَسَاعِيهِ زُهْرُ النُّجُومِ وَبَارَتْ عَطَايَاهُ وَطَفَ الدِّيمِ
نَهَيْكَ - إِذَا جَنَّ لَيْلُ الْعَجَاجِ - سَرَى مِنْهُ فِي جُنْحِهِ بَدْرُ تِمِ
فَشَامَ الشُّيُوفَ بِهَامِ الْكُمَاةِ وَرَوَى الْقَنَا فِي نُحُورِ الْبُهِمِ
جَوَادُ ذَرَاهُ مَطَافِ الْعُفَاةِ وَيُمْنَاهُ رُكْنُ النَّدَى الْمُسْتَلَمِ
يَهِيحُ النَّزَالُ بِهِ وَالشُّوَا لَ لَيْشًا هَضُورًا وَبُحْرًا خِضَمِ
شَهِيدَنَا ، لَا وَتِي فَضْلَ الْخُطَابِ وَخُصَّ بِفَضْلِ النَّهْيِ وَالْحِكْمِ
وَهَلْ فَاتَ شَيْءٌ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ جَرَى السَّيْفُ يَطْلُبُهُ وَالْقَلَمُ

✱ ✱

وَمُسْتَعْمِدُ بَكْرِيمِ الْفَعَا لَ - عَفْوًا - إِذَا مَا اللَّئِيمُ اسْتَدَمَ
شَمَائِلُ تَهْجَرُ عَنْهَا الشُّمُولُ وَتَجْنِي لَهَا مُشْجِيَاتُ النَّعَمِ
عَلَى الرُّوضِ مِنْهَا رُؤَا وَفِي الْمِسْكِ طِيبُ أَرِيحَ يُشَمُ

✱ ✱

أَبُوهُ الَّذِي فَلَّ غَرْبَ الضَّلَالِ وَلَا أَمَّ شَعْبَ الْهُدَى قَالَتَّامِ
وَلَاذَ بِهِ الدِّينُ مُسْتَعَصِمًا بِذِمَّةِ أَبْلَجِ وَافِي الدَّمَمِ
وَجَاهَدَ - فِي اللَّهِ - حَقَّ الْجِهَامِ مَنْ دَانَ - مِنْ دُونِهِ - بِالصَّنَمِ

فَلَا سَامِيَ الطَّرْفِ إِلَّا أَذَلَّ وَلَا شَامِخَ الْأَنْفِ إِلَّا رَغَمَ
تَقِيلَ فِي الْعِزِّ - مِنْ جَمِيرٍ - مَقَاوِلَ عَزُّوا جَمِيعَ الْأُمَمِ
هُمْ نَعَسُوا الْمُلْكَ حَتَّى اسْتَقَلَّ وَهُمْ أَظْلَمُوا الْخَطْبَ حَتَّى أَظْلَمَ
نُجُومُ هُدًى - وَالْمَعَالِي بُرُوجُ - وَأَسْدُ وَغَى وَالْعَوَالِي أَجَمَ

* *

« أَبَا بَكْرٍ » أَسْلَمَ عَلَى الْحَادِثَاتِ ، وَلَا زِلْتَ - مِنْ رَيْنِهَا - فِي حَرَمِ
أَنَادِيكَ - عَنْ مِقَّةٍ - عَهْدُهَا كَمَا وَشَتِ الرُّوضُ أَيْدِي الرَّهْمِ
وَإِنْ يَعْدُنِي عَنْكَ شَحَطُ النَّوَى فَحَظِّي أَحْسَنَ وَنَفْسِي ظَلَمَ
وَإِنِّي لَا أَصْفِيكَ مَحْضَ الْهَوَى وَأَخْنِي - لِبُعْدِكَ - بَرْحَ الْأَلَمِ
وغيرُكَ أَخْفَرَ عَهْدَ الدَّمَامِ إِذَا حُسْنُ ظَنِّي عَلَيْهِ أَذَمَ

* *

وَمُسْتَشْفِعٍ بِنَا ، بِشَرَّتِهِ - عَلَى ثِقَةٍ - بِالنَّجَاحِ الْإِثْمِ
وَقَدَمًا أَقْلَتَ الْمُسِيءَ الْعِثَارَ وَأَحْسَنْتَ - بِالصَّفْحِ - عَمَّا جَرَمَ
وَعِنْدِي - لَشُكْرِكَ - نَظْمُ الْعُقُودِ تَنَاسَقَ فِيهَا اللَّالِي الثُّومِ
تُجِدُّ لِفَخْرِكَ بُرْدَ الشَّبَابِ إِذَا لَبَسَ الدَّهْرُ بُرْدَ الْهَرَمِ
فَعِشْ مُعْضَمًا يَيْفَاجُ السُّعُودِ وَدُمُ نَاعِمًا فِي ظِلَالِ النِّعَمِ
وَلَا يَزَلِ الدَّهْرُ ، أَيَّامُهُ لَكُمْ حَشَمٌ ، وَاللَّيَالِي خَدَمُ

هَذَا أَعَزُّ اللَّهِ الْحَاجِبَ مَا اقْتَنَصَتْهُ الْقَرِيحَةُ مَعَ اقْتِضَائِهَا ، وَأَجَابَتْهَا بِهِ
الْبَدِيَّةُ عِنْدَ اسْتِدْعَائِهَا ، وَالذَّهْنُ ^(١) عَلِيلٌ ، وَالطَّبْعُ كَلِيلٌ ، وَالرَّوِيَّةُ فَاسِدَةٌ ،
وَسُوقُ الْأَدَبِ - إِلَّا عِنْدَهُ - كَاسِدَةٌ ، وَلَوْ أَنِّي أُوتَيْتُ - فِي النَّثْرِ - غَزَارَةَ عَمْرٍو ،
وَبِرَاعَةَ ابْنِ سَهْلٍ ، وَأَمْدَدْتُ - فِي النَّظْمِ - بِنَظْمِ الْبُحْتَرِيِّ ، وَصِنَاعَةِ الطَّائِي ^(٢)
لَمَا رَدَدْتُ - إِلَى الْحَاجِبِ - إِلَّا مَا أَخَذْتُ مِنْهُ ، وَلَا أُوْرَدْتُ عَلَيْهِ غَيْرَ مَا صَدَرَ عَنْهُ ،
وَلَا أَنْفَذْتُ مَا أَنْفَذْتُ إِلَّا بَيْنَ أَمَلٍ يَبْسُطُ ، وَخَجَلٍ يَقْبِضُ ، فَرَأَيْتُهُ مُوَفَّقٌ فِي
أَنْ يَمْنَحَ مَا بَعَثَ الْأَمَلُ إِسْعَافًا ، وَمَا أَوْجَبَ الْخَجَلُ إغْضَاءً ، لِيَأْتِيَ الْإِحْسَانَ مِنْ
جِهَاتِهِ ، وَيَسْلُكَ - إِلَى الْفَضْلِ - طُرُقَاتِهِ . وَمُرَاجَعَتُهُ لِي عَنْ كِتَابِي بِعَهْدٍ كَرِيمٍ يَكُونُ
كُحْلًا لِعَيْنِ الرَّضَا بِوَحْيَةِ الْقَوْلِ ، أَقْفُ بِهِ مِنْ تَوَالِي النِّعَمِ عَلَيْهِ ، وَأُنْتَظَمُ
الْأَحْوَالَ - بِالصَّلَاحِ لَدَيْهِ - عَلَى مَا تَبَشَّجُ لَهُ نَفْسِي ، وَيَنْتَظِمُ مَعَهُ عَقْدُ الْاُنْسَى ،
يَدُّ عِنْدِي جَنَاهَا شَهْدٌ ، وَشَذَاهَا عَنَبٌ وَوَرْدٌ ، وَرِدَاوُهَا الشُّكْرُ الْجَزِيلُ ،
وَأَتْبَعُهَا الثَّنَاءَ الْجَمِيلَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
وَلِيَبْلُغَ مِنِّي سَلَامًا يَهْدِي إِلَيْهِ نَدَاهُ ^(٣) ، وَتَحِيَّةٌ أَوَّلَهَا عِنْدِي وَآخِرُهَا عِنْدَهُ .

(١) وفي الأصل : « والدهر » .

(٢) يعني أبا تمام .

(٣) الند (بالفتح) وبكسر : الطيب أو العنبر ، وفي الأصل : « يهدي إليه نفسه »

إلى ابن مسleme

« وكتب من قرطبة إلى ابن مسleme بأشبيلية
قبل تحوله إليها : »

يَا سَيِّدِي وَأَرْفَعَ عُدَدِي ، وَأَوَّلَ الذَّخَائِرِ فِي عُدَدِي ، وَأَخْطَرَ عِلْقٍ مَلَأَتْ مِنْ
أَقْتِنَائِهِ يَدِي ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ فِي عَيْشَةٍ بَارِدَةِ الظَّلَالِ ، وَنِعْمَةٍ سَابِغَةِ الْأَذْيَالِ ،
قَدْ تَقَاصَرَ الشَّاءُ عَلَيْكَ ، وَتَوَالَى الْحَدِيثُ الْحَسَنُ عَنْكَ ، حَتَّى حَلَلْتَ مَحَلَّ الْأَمَانَةِ ،
وَكَنتَ مَوْضِعَ تَقْلِيدِ الْوَطَنِ ، وَثَبَاتِ الطَّوِيَّةِ ، وَاللَّهُ يُمَتِّعَكَ بِمَا حَازَهُ لَكَ مِنَ
الْخَيْرِ ، وَوَفَّرَهُ عَلَيْكَ مِنْ طِيبِ الذِّكْرِ .

فِي عِلْمِكَ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - مَا تَقْتَضِيهِ الْعُطْلَةُ مِنْ إِظْلَامِ الْخَاطِرِ ، وَصَدَا النَّفْسِ ،
وَيُجَنِّهِ طَوْلُ الْمَقَامِ مِنْ إِخْلَاقِ الدِّيَابِجَةِ وَإِرْخَاصِ الْقَدْرِ ، وَقَدْ آتَى أَنْ أُجَنِّتَنِي
مَمَرَةً مِنْ آدَابِ أَطْلُتِ الْإِعْتِنَاءَ بِهَا ، وَأَخْلَاقٍ أَدَمْتُ رِيَاضَةَ النَّفْسِ عَلَيْهَا ، وَلَمَّا
نَحَضْتُ الْمُلُوكَ وَجَدْتُ عَمِيرَهُمُ الَّذِي أَنْسَى^(١) السَّالِفَ قَبْلَهُ ، وَتَقَدَّمَ الدَّاهِرَ مَعَهُ ،
وَأَتَعَبَ الْغَايِرَ بَعْدَهُ ، الْحَاجِبَ فَخْرَ الدَّوْلَةِ مَوْلَايَ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَكَبَّتْ
أَعْدَاءُهُ ، مَا خَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنْ سِنِي الْهَمَمِ ، وَسَمَاحَةِ الشِّيمِ ، وَأَنْتِظَامِ أَسْبَابِ
الرِّيَاسَةِ ، وَكَمَالِ آلَاتِ السِّيَاسَةِ ، وَأَجْتِمَاعِ الْمَنَاقِبِ الَّتِي أَفْرَدَتْهُ عَنِ النُّظَرَاءِ ،
وَأَعْلَمَتْهُ عَنْ مَرَاتِبِ الْأَكْفَاءِ ، فَرَأَيْتُ قَبْلَ أَنْ أُحْتَمِلَ لَغَيْرِهِ نِعْمَةً ، أَوْ أُوسَمَ
مِنْ سِوَاهُ بِصَنِيعَةٍ - أَنْ أَعْرِضَ نَفْسِي تَمْلُوكَةً عَلَيْهِ ، عَرِضَ مَنْ لَا يَوْمَ لَهَا
- لِإِجَارَتِهِ - إِلَّا بِالْأَسْتِجَارَةِ ، وَلَا يَطْمَعُ لَهَا - فِي قُبُولِهِ - إِلَّا بِالْمُسَاحَةِ ، فَلَوْ
كُنْتُ الْوَلِيدَ بْنَ عُبَيْدٍ بَرَاعَةً أَنْظِمَ ، وَجَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى بِلَاغَةً نَثَرَ ، وَإِبْرَاهِيمَ

أَبْنُ مَهْدِيٍّ طِيبَ مَجَالَسَةٍ ، وَإِمْتِنَاعَ مُشَاهَدَةٍ ، ثُمَّ حَضَرَتْ مَجْلِسَهُ الْعَالِي ، لَمَّا كُنْتُ بِسَعَةِ إِحَاطَتِهِ - الْإِفَى جَانِبِ التَّقْصِيرِ ، وَتَحْتَ غَدَرَةِ الثَّقْصَانِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَعْدَمْ فِي نَجَابَةِ غَرْسِ الْيَدِ ، وَإِصَابَةِ طَرِيقِ الْمَصْنَعِ ، مِنْ وَلَايَةِ أَخْلِصَهَا وَنَصِيحَةِ أَنْحَضَهَا ، وَشُكْرِ أَجْنِيهِ الْغَضِّ مِنْ زَهْرَاتِهِ ، وَثَنَاءِ أَهْدَى إِلَيْهِ الْعَطْرِ مِنْ نَفَحَاتِهِ ، مِنْهَا مَا سَوَّغَكَ اللَّهُ مِنَ الْمَوْهِبَةِ فِي ذَلِكَ ، وَأَنْهَضَكَ بِأَعْيَاءِ الشُّكْرِ لَهَا ، وَمِنْهَا شَرَفُ مَذْهَبِكَ ، وَكَرَمُ سَجِيَّتِكَ ، وَصِحَّةُ مُشَارَكَتِكَ لِمَنْ لَمْ يَسْتَوْجِبْهَا اسْتِجَابِي ، وَلَا اسْتَدْعَاهَا بِعَثَلِ أَسْبَابِي ، مِنْ تَدَانِي الْجِدَارِ وَتَصَافِي السَّلَفِ ، وَالْإِنْتِمَاءِ إِلَى أَسْرَةِ الْأَدَبِ ، فَإِنْ وَافَقَتْ الْمُسَاعَفَةُ الْإِرَادَةَ فَحَظُّ أَقْبَلٍ ، وَعَبْدٌ بَلَغَ مِنْ قَبُولِ سَيِّدِهِ مَا أَمَلَ .

وَلَمْ أَقُلْ - عَمْرُكَ اللَّهُ - كَمَا قِيلَ فِي النَّجْمَيْنِ ، بَلْ قُلْتُ : « وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّيْئَتَيْنِ » وَإِنْ عَاقَ حَرِّمَا نَ عَادَتْهُ أَنْ يُعَوَّقَ عَنِ الظَّفَرِ ، وَيَعْتَزَّضَ دُونَ الْأَمَلِ ، فَأَعْلَمُهُ - أَيَّدَهُ اللَّهُ - أَنِّي فِي حَالِي الْمُطَلَّةِ مَعَ غَيْرِهِ وَالتَّصَرُّفِ - وَيَوْمِي الْإِنْقِطَاعِ وَالتَّصَوُّفِ ^(١) ، كَأَلْمَهْتَدِي بِالنَّجْمِ حِينَ عَدِمَ ذُكَاؤُهُ ، وَمُسْتَيْمِمِ الصَّيِّدِ حِينَ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ .

فَإِنْ أَغْشَى قَوْمًا غَيْرُهُ أَوْ أَرْزَهُمْ فَكَأَلَوْحَشٍ يُدْنِيهِ مِنَ الْأَنْسِ الْمَحْلُ وَاللَّهُ يَتَوَلَّاهُ بِالْفُسْحَةِ فِي عُمْرِهِ ، وَالْإِعْلَاءِ لِأَمْرِهِ ، وَيَصْرِفُ الْأَنْدَارَ مَعَ إِثَارِهِ ، وَيَصْرِفُ وَجْهَهُ التَّوْفِيقِ إِلَى اخْتِيَارِهِ ، وَلَكَ - يَا سَيِّدِي - فِي أَنْتِدَابِكَ مَا أَنْتَدَبْتُكَ لَهُ مَا لِلْسَّاعِي الْمُنْجِحِ مِنَ الشُّكْرِ ، وَلِلْمُجْتَهِدِ الْبَالِغِ مِنَ الْعُذْرِ ، مِلَاكُ الْأَمْرِ بِتَقْدِيمِ الْمُرَاجَعَةِ بِالْجَوَابِ ، فَاسْكُنْ إِلَيْهِ ، وَالْجَنَابِ فَأَعْتَمِدْ عَلَيْهِ ، وَأَهْدِي إِلَيْكَ نَدَى الْغَضِّ النَّاصِرِ مِنْ سَلَامِي ، وَالْأَرْجَ الْعَاطِرِ مِنْ تَحِيَّتِي .

(١) التصوف : بالواو والياء المدول والانصراف . وفي الأصل « ويومى الأينطان »

رسالة إلى المعتضد

« وكتب إثر ذلك إلى المعتضد رقعة يقول فيها : »

أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءِ الْحَاجِبِ فَخَرِ الدَّوْلَةَ - مَوْلَايَ وَسَيِّدِي وَمَوْلَى الْمَنَاقِبِ
الْجَلِيلَةِ، وَالضَّرَائِبِ النَّفِيسَةِ - فِي أَكْمَلِ مَا تَكْفَّلَ لَهُ بِهِ مِنْ غُلُوِّ الْقَدْرِ،
وَنَفَازِ الْأَمْرِ، وَأَحْظَاهُ مِنَ النِّعَمِ بِأَسْبَغِهَا سِرًّا بَالًا، وَأَبْرَدَهَا ظِلَالًا، وَأَحْمَدَهَا مَالًا.
كُنْتُ - أَعَزَّ اللَّهُ الْحَاجِبَ - مَوْلَايَ قَدْ كَتَبْتُ إِلَى الْوَزِيرِ أَبِي عَامِرٍ
عَبْدِهِ بِمَا أَيْقَنْتُ أَنَّهُ أَنْتَهَى إِلَيْهِ، وَأَشْتَمَلَ عَلَيْهِ، فَكَتَبَ الْوَزِيرُ إِلَى بَعْضِ
أَسْبَابِهِ بِمَا يَقُومُ مَقَامَ الْمُرَاجَعَةِ لِي بِمَا يَرْتَفِعُ عَنْ قَدْرِي، وَلَا تَتَّسِعُ لَهُ سَاحَةٌ
شُكْرِي، لِعِلْمِي أَنَّهُ مِنَ الْحَاجِبِ - أَيْدُهُ اللَّهُ - صَدَرَ، وَبَعْدَ إِذْنِهِ ^(١) نَفَذَ،
وَالَّذِي عَدَانِي عَنْ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْحَاجِبِ - أَبْقَاهُ اللَّهُ -
التَّأْدِبُ بِآدَابِ خِصْيَانِ الْعَبِيدِ فِي الْإِجْلَالِ وَالْإِعْظَامِ، وَتَرْكِ التَّبَسُّطِ وَالْإِقْدَامِ،
وَقَلَمًا أَسْتَفْتَنَ أَوَائِلُ مَطَالِبِ الْأَتْبَاعِ لِحَضْرَةِ الْمُلُوكِ عَنْ وَسَائِطِ تُمَهِّدُ لَهَا
وَتَعْتَمِدُ أَوْقَاتِ الْإِمْكَانِ بِهَا، لِأَنِّي مَا اتَّخَذْتُ إِلَى الْحَاجِبِ - أَدَامَ اللَّهُ غُلُوَّهُ -
غَيْرَ سِيَادَتِهِ ذَرِيعَةً، أَوْ التَّمَسُّتُ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ نَفَاسَةٍ نَفْسِهِ شَفَاعَةً، وَأَيُّ
مَعْدَى لِمَثَلِي عَنْ تَفْيُؤِ ظِلَالِهِ، وَالْأَعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ. وَصِنَاعَةُ الْآدَابِ كَاسِدَةٌ إِلَّا
عَلَيْهِ، وَطَرِيقُ الْأَمَلِ مُوحِشَةٌ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يَدْعُنِي إِلَى اسْتِطْلَاعِ مَا قَبْلَهُ
شَكٌّ فِي كَرَمِهِ، وَلَا سُوءُ ظَنٍّ بِسَمَاحَةِ شَيْمِهِ، بَلْ أُرُومُ الطَّرِيقَةِ فِي التَّوْطِئَةِ
لِلْمَطْلَبِ، وَالتَّدْرِجِ إِلَى إِحْرَازِ الْأَدَبِ، وَحَسْبِي أَنْ أَمْلِيَ قَدْ أُرْتَادَ الْجَنَابَ

الرَّحْبَ ، وَالْمَشْرَبَ الْعَذْبَ ، وَلَعَلَّ الْحُظُوظَ سَتُكْشَفُ ، وَالنَّوَائِبَ سَتُصْرَفُ ،
إِلَى أَنْ أُبْعَدَ إِلَى أُبْعَدِ غَايَاتِ الْأَمَلِ مِنْ مُشَاهَدَةِ حَضْرَتِهِ الْعَلِيِّ ، وَالنَّظَرَ إِلَى
غُرَّتِهِ الزَّهْرَاءِ ، فَوَاللَّهِ مَا يَنْصَرِفُ فِكْرِي ، وَلَا يَنْصَرِمُ حِينَ مِنْ عُمْرِي ، إِلَّا
فِي الذِّكْرِ لَهُ ، وَالشَّوْقِ إِلَيْهِ ، وَالْمُثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنَا أَقْدَمُ الْأَعْتِدَارِ مِنْ
مَهَابَةِ تَمَلُّكِ جَنَانِي ، وَحَصْرِ يَكَادُ يَقْطَعُ فِي أَوَّلِ الْمُسَافَةِ لِسَانِي ، فَإِنْ
حَدَّثَ ذَلِكَ فَعُذْرِي عُذْرٌ ^(١) الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ وَقَدْ انْقَطَعَ بَيْنَ يَدَيِ الرَّشِيدِ ،
فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! مِنْ فَرَاهَةِ الْعَبْدِ أَنْ تَمْلِكَ قَلْبَهُ هَيْئَةً سَيِّدِهِ » .

وَسَيِّفُضِي - بِمَشِيئَةِ اللَّهِ - إِلَى مَا يَسْتَجِيزُهُ الْحَاجِبُ مَوْلَايَ مِنْ إِمْتِنَاعٍ مَنْ
شَاهَدَ ، وَيَسْتَطْرِفُهُ مِنْ أَدَبٍ يَسْتَطْلِعُهُ مِنْ إِجْمَالِ طَلَبٍ ، وَجَمَالِ مَذْهَبٍ ،
كَمَا أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي سَأَصِلُ إِلَى مَا لَمْ أَعْهَدْ مِثْلَهُ مِنْ بَهَاءِ مَنْظَرٍ ، وَسَنَاءِ نَجْوَى ،
وَرِفْعَةِ شَانٍ ، وَعِظَمِ سُلْطَانٍ ، وَلَعَلَّ السَّعَادَةَ تُهَيِّئُ لِي مِنَ الْحِظِّ مَا أَثْبَتُ بِهِ
مَا أَدْعَيْتُهُ لِنَفْسِي مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَأُنْجِزُ مَعَهُ مَا قَدَّمْتُ عَنْهَا مِنْ هَذِهِ
الْعِدَاتِ ، فَحَوْلُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ كَفِيلٌ ، وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، زَادَ اللَّهُ
الْحَاجِبَ مَوْلَايَ مِنْ سَنَى قِسْمِهِ ، وَهَنَى نِعَمِهِ ، وَبَلَغَهُ النِّهَايَةَ مِنْ آمَالِهِ .

رسالة من قرطبة

« وكتب إليه بعد أن صدر من حضرته إلى قرطبة

رسالة يقول فيها : »

أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ مَوْلَايَ لِلنَّعْمِ يُطَوَّقُهَا ، وَالْأَمَالَ يُصَرِّفُهَا ^(٢) ، وَالْمَنِّ يُقَلِّدُهَا
وَالْأَحْرَارِ يَسْتَعْبِدُهَا .

(١) في الأصل : « فمذرى عند الفضل . »

(٢) وفي نسخة الذخيرة المنقولة عن النسخة المغربية : « يصدقها »

يَعْلَمُ الَّذِي أَسْأَلُهُ إِعْزَازَ مَوْلَايَ وَإِعْلَاءَ أَمْرِهِ ، وَصِلَةَ تَأْيِيدِهِ ، وَتَمَكِّينَ
نَصْرِهِ ، أَنِّي - لَمْ أَزَلْ مُنْذُ فَارَقْتُ حَضْرَتَهُ الْجَلِيلَةَ حَضْرَةَ الْمَجْدِ وَالسِّيَادَةِ ، وَمَحَلِّ
الْإِقْبَالِ وَالسَّعَادَةِ - لَهَجَ اللِّسَانِ بِمَا حَبَّانِي مِنْ ثَمَارِ الْحِكْمَةِ وَالنِّعْمَةِ ، وَأَفَادَنِي
مِنْ عَقْدِ الْأَدَبِ وَالنَّسَبِ ، فَمِنْ كَبِدِ حَاسِدٍ تَصَدَّعَتْ ، وَأَنْفَاسٍ مُنَافِسٍ
تَقَطَّعَتْ ، وَنَاعِمِ الْبَالِ أَكْشَفَتْ بَالَهُ ، وَمُتَمِّنٍ لِحَالِي طَلَمًا تَمَنَّيْتُ حَالَهُ ، وَقَلَمًا
أَنَالَ أَذْنِي مَكَانَةً مِنْهُ ، وَأَرْقَى أَوَّلَ دَرَجَةٍ مِنْ الْخُصُوصِ بِهِ ، تَحْسُدُهُ
الْكَوَاكِبُ فِي إِشْرَافِهَا ، وَتَنْحَشِدُ إِلَيْهِ الْأُمَانِي مِنْ أَطْرَافِهَا ، لِعَبِيدِهِ الَّذِينَ
أَنَا آخِرُهُمْ فِي الْخِدْمَةِ ، وَأَوَّلُهُمْ فِي شُكْرِ النِّعْمَةِ ، وَيَرْفَعُ مِنْ هَمِّهِمْ مَا
أُخْفَضَ ، وَيَبْسُطُ مِنْ آمَالِهِمْ مَا أُتْقِصَ ، وَلَا يُعْدِمُهُمُ التَّقَلُّبُ فِي نِعْمَتِهِ ،
وَالْإِعْتِلَاقُ بِأَسْبَابِ ذِمَّتِهِ ، بِمَجْدِهِ وَكَرَمِهِ ، وَكَانَتْ مِنْ مَوْلَايَ - أَعَزَّهُ اللَّهُ -
إِشَارَةٌ بَلَّ عِبَارَةً أَعَدَدْتُهَا طَلِيلَةً لِسُغُودٍ تَتَوَافَى طَلَقًا ، وَمُقَدِّمَاتٍ لِمَسَرَّاتٍ
تَتَوَالِي نَسَقًا ، فَلَمَّا لَحِقَ الْجُسْمُ بِعَدِّ تَرْكِهِ النَّفْسَ لَدَيْهِ ، وَالْبَرَاءَةَ مِنْهَا إِلَيْهِ ،
بِالْوَطَنِ الَّذِي أَسْلَانِي عَنْهُ ، وَأَسْنَى لِي الْعَوَظَ مِنْهُ ، تَأَثَّنْتُ مِنْ طَاعَتِهِ
الْمُقْتَرِنَةِ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِي نَفْسِي مَمْلُوكَتِهِ لِمَا أَنَا مُهَنَّا بِهِ مُنَافَسٍ فِيهِ ، فَسَاعَفَتِ
الْمَآرِبُ ، وَأَشْمَحَتِ الْمَطَالِبُ ، وَلَمْ يَرِ بَنِي تَعَدُّ وَجْهٍ حَاوِلَتُهُ ، وَلَا عِدَانِي تَبْشُرُ
أَمْرَ تَنَاوَلَتُهُ ، وَلَمْ تَبْقَ عِلَّةٌ تُسَوِّغُ بِاعْتِرَاضِهَا الْإِعْتِدَارَ إِلَّا مَا يَتَرَاخَى مَا يُعَاوَدُ
أَمْرُهُ ، وَيَتَجَدَّدُ فِي الْحَرَكَةِ إِذْنُهُ ، وَلَمْ أَسْتَأْذِنْ لِأَنَّ الْإِذْنَ بَعْدَ عَهْدِهِ ، وَلِأَنَّ
الْمُعَادَ لَمْ يُحْكَمْ عَقْدُهُ ، بَلْ تَجَبَّنْتُ أَنْ أُدِلَّ بِتَرْكِ الْمَشَاوَرَةِ ، أَوْ أُخِلَّ بِرِسْمِ
الْمُوَازَرَةِ ، فَلَمَوْلَايَ الطَّوْلُ فِي أَمْرِ الْوَسَاطَةِ عِنْدَهُ بِمُرَاجَعَةِ اعْتِمَادِ عَلَيْهَا ، وَاجْتِهَادِ
فِي الْإِنْتِهَاءِ إِلَيْهَا ، وَاللَّهُ يُبَلِّغُنِي الْأَمَالَ مِنْ وَفْقَةِ بِحَضْرَتِهِ ، وَنَظَرَةٍ إِلَى غُرَّتِهِ ،
وَتَقْبِيلِ لِرَاحَتِهِ ، وَتَصَرُّفِ فِي سَاحَتِهِ ، فَهُوَ الْمَالِكُ لِذَلِكَ ، الْقَادِرُ عَلَيْهِ .

من رسالة

« وله من رسالة حذف أبو الحسن هنا أكثرها ولم يذ كر إلا قطرة من وابل ، أو نفثة من سحر بابل ، وها أنا مثبتها على تواليها ، إشارة لحسن معانيها ، واستفادة من سني أدبه فيها ، وهي ^(١) : »

يَا سَيِّدِي الَّذِي كُنْتُ أَرَاهُ أَعَدَّ عُدْدِي ، وَأَخَصَّ جُنِّي ، مِنْ زَمَنِي ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ فِي أَصْلَحِ الْأَحْوَالِ ، وَأَفْسَحِ الْأَمَالِ .
أَبْدَيْ جَرَى كِتَابِي إِلَيْكَ بِشَرْحِ الضَّرُورَةِ الْحَافِزَةِ إِلَى مَا صَنَعْتَ مِمَّا بَلَغَنِي أَنَّكَ صَدَقَ اللَّائِمَانِ بِنِ عَلَيْهِ ، وَأَوَّلَ السَّفِيهَانِ الرَّأْيَ فِيهِ ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ وَيَلُ الشَّجِيَّ مِنَ الْخَلِيِّ ، وَهَانَ عَلَى الْأَمَلَسِ مَا لَاقَى الدَّيْرُ .
وَأَوْسَطُهُ بِمُعَاتَبَتِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ أَنْفِصَالِكَ عَنِّي ، وَبَرَاءَتِكَ مِنْ آكَدِ الْمِحْنَةِ مِنِّي ، وَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ فِي وَرْدٍ وَلَا صَدْرٍ مِنْ مُشَارَكَتِي فِيهَا ، وَلَا كَانَتْ لَكَ نَاقَةُ وَلَا جَمَلٌ فِي مُظَاهَرَتِكَ لِي عَلَيْهَا ، مَعَ الْقُدْرَةِ لَكَ عَلَى تَهْوِينِ خَطْبِهَا ، وَتَذْلِيلِ صَعْبِهَا ، وَتَلْوِينِ شَدِيدِهَا ، وَتَقْرِيبِ بَعِيدِهَا ، فَأَرَى صِدْقَكَ الْحَدِيثَ وَمَا ذَاكَ بُخْلًا مِنِّي لِبُخْلِي عَلَيْكَ بِالْإِغْضَاءِ أَنْتَ عَيْنِي (وَلَيْسَ مِنْ حَقِّ عَيْنِي) غَضُّ أَجْفَانِهَا عَلَى الْقَدَى ^(٢) وَإِنَّمَا يُعَاتَبُ الْأَدِيمُ ذُو الْبَشَرَةِ ^(٣) ، وَالْمَثَلُ السَّائِرُ :
يَبْقَى الْوُدُّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ ، وَقَالَ الْآخَرُ :

(١) ابن بسام . (٢) جملة «وليس من حق عيني» ساقطة من الأصل ، وقد أثبتناها لأن السياق يقتضيا ، وهو يشير إلى قول ابن الرومي :

« أنت عيني ، وليس من حق عيني غرض أجفانها على الأقداء . »

(٣) المعاتبه : المعاودة وبشرة الأديم : ظاهره الذي حله الشعر ، أي إنما يعاد إلى الدباغ من الأديم ما سلت بشرته ، وهو مثل يضرب في إمكان المراجعة والاستعتاب ، وفي الأصل «ولانما يعاتب الأديم على البشرة» .

أَبْلَغُ أَبَا مِسْمَعٍ عَنِّي مُغْلَغَلَةً وَفِي الْعِتَابِ حَيَاةٌ بَيْنَ أَفْوَامٍ
وَأَخْتِمُهُ بِتَكْلِيلِكَ مَا كَانَ سَبَبَ الْكِتَابِ ، وَالذَّاعِي إِلَى الْخِطَابِ ، عَسَاكَ أَنْ
تَتَلَا فِي عَوْدًا ، مَا ضَيَّعْتَ بَدْءًا ، وَتَهْتَبِلَ آخِرًا ، مَا أَغْفَلْتَ أَوَّلًا ، فَيَعُودَ عَيْنُ
مَا أَفْسَدْتَ ، وَإِنْ كُنْتَ فِي ذَلِكَ : « كَذَابُغَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ » ^(١) فَنَعْتَهُ
الْفَوْتَ قَبْلَ الْعَطَبِ .

وَخَيْرُ الْأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلَتْ مِنْهُ وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَّبِعَهُ اتِّبَاعًا
فِي عِلْمِكَ أَنَّ سُجِنَتْ مُغَالَبَةً بِالْهَوَى ، وَهُوَ أَخُو الْعَمَى ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ عَنْ
اتِّبَاعِهِ ، وَذَكَرَ أَنَّهُ يُضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ إِذْ يَقُولُ : « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . » وَقَالَ الشَّاعِرُ :

« إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى إِلَى بَعْضِ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ . »
دُونَ تَأَنٍّ تُذَرِّكُ بَعْضُ الْحَاجَةِ بِهِ ، أَوْ اسْتِثْبَاتِ ثَوْمَنْ مُوَاقَعَةُ الزَّلَلِ مَعَهُ ،
بَلْ : « أَوْ رَدَّهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلٌ . » وَشَهِدَ ابْنُ الْعَشَّارِ الْعَارِي عَنْ الثَّقَةِ
وَالْأَمَانَةِ ، الْبَعِيدُ مِنَ الرَّعِيَةِ وَالصِّيَانَةِ ، النَّاشِرُ لِأَذْنِيهِ طَمَعًا ، الْآكِلُ
بِيَدَيْهِ جَشَعًا ، فَكَانَ : « الْقَوْلُ مَا قَالَتْ حَذَامُ » . وَلَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى أَنْ الْحَقَّ
بِالشُّهُودِ ، وَهُوَ وَأَوْ عَمْرٍو فِيهِمْ ، وَنَوْنُ الْجَمْعِ الْمُضَافِ مَعَهُمْ ، دُونَ أَنْ يُلْحَقَ
بِخَزْنَةِ ذِي الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيَتُوبَ مُنْفَرِدًا عَنْ أَثْنَيْنِ .

« لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ . »

(١) يضرب للأمر الذي انتهى فسادُه ، وذلك أن الجله إذا حلم أي فسد إهابه ووقع فيه دود فتنقب
لم يرج له لإصلاح ، ويروى عن الوليد بن عتبة أنه كتب إلى معاوية :
« فإياك والكتاب إلى على كذابغة وقد حلم الأديم . »

وَلَيْتَنِي مَعَ مَنْ لَا يَحِلُّ قَوْلُهُ عَلَيَّ ، أُعْذَرُ فِي شَهَادَتِهِ إِلَيَّ ، وَلَمْ يَقْتَرِنِ الْحَشَفُ
مَعَ سُوءِ الْكَيْلَةِ ، وَيَسْتَضِيفَ لِي الْغُدَّةُ إِلَى الْمَوْتِ فِي يَتِّ سَلُولِيَّةَ ، خُطَّتَا
خَسِيفَ لَمْ أَرَ النِّجَاءَ مِنْهُمَا إِلَّا أَنْ رَكِبْتُ الْحَوْلِيَّ الْأَشْهَبَ ، وَرَأَيْتُ خُرَاسَانَ
مَكَانَ السُّوقِ أَوْ هِيَ أَقْرَبُ ، وَكَانَ الْمُتَوَلَّى سِجْنِي بَعْدَ شَهْرٍ مِنْ إِنْفَازِهِ ، لَهُ
مَجْلِسٌ حَضَرَهُ فَقَهَاؤُا الْحَضَرَةِ وَمَنْ أُعْلِمَ بِسِيَاهُمْ ، وَجَرَى فِي غَشِيَانِ الْحُكَّامِ
مَجْرَاهُمْ ، فَذَكَرَ لَهُ أَنَّهُ اتَّهَمَنِي بِالْمُعِيبِ عَلَى عَهْدِ الْمُتَوَلَّى مَوْلَايَ - كَانَ - نَقَعَ
اللَّهُ صَدَاهُ ، وَبَلَّ ثَرَاهُ ، وَثَبَتَ عِنْدَهُ مَعَ ذَلِكَ أَنِّي مِمَّنْ تُعَامِلُهُ الْهَمَمُ ، وَلَا
تَرْتَفِعُ عَنْهُ الظَّنُّ ، فَكَلَّمَهُمْ أَفْتَى بِالْإِعْذَارِ إِلَيَّ ، فِيمَا شَهِدَ بِهِ مِنْ ذَلِكَ عَلَيَّ ،
ثُمَّ سَجَنَنِي أَنْ لَمْ آتِ بِمَدْفَعٍ ، أَوْ أَصْدَعَ مِنَ الْحُجَّةِ بِمَقْنَعٍ ، فَاخْتَاطَ وَأُجْتَهَدَ ،
وَتَحَرَّى وَأُقْتَصَدَ ، وَصَالَحَنِي مِنْ هَذِهِ الْفُتْيَا عَلَى النَّصْفِ بِتَأْخِيرِ الْإِعْذَارِ ،
وَتَقْدِيمِ الصَّلْحِ ، وَالصَّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ^(١) ، ثُمَّ أَظْهَرْتُ إِلَيْهِ عَقْدًا كَانَ
الْمُتَوَلَّى قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ ، وَنَوَّرَ ضَرِيحَهُ ، قَدْ أَشْهَدَ فِيهِ أَنْ لَا مَالَ لَهُ ، وَأَنَّ
جَمِيعَ مَا تُحِيطُ بِهِ الدَّارُ الَّتِي تُؤْتِي بَعْدَ هَذَا الْإِشْهَادِ فِيهَا ، إِنَّمَا هُوَ لِلْغَانِيَةِ الَّتِي
فِي عِصْمَتِهِ ، حَاشَا دَقَائِقَ يَدَيْهَا ، وَمُحَقَّرَاتِ عَيْنَيْهَا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ أَشْهَدَ بِهَذَا عَلَى
نَفْسِهِ ، وَتَقَيَّدَ مِثْلَهُ مِنْ لَفْظِهِ ، فَحَالَ أَنْ يُخْلَفَ عَهْدًا ، وَيَهْلِكَ مِنْ وَصِيَّةٍ ،
وَسَأَلْتُهُ الشُّورَى فِيمَا أَثْبَتُهُ مِنْ هَذَا الْعَهْدِ ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى ذَلِكَ ، وَلَوْ لَمْ
تَكُنِ الشُّورَى مِنْ أَدَبِ اللَّهِ إِذْ يَقُولُ : « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا

(١) جاء في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجامعة لأحكام القضاء التي أرسلها إلى أبي موسى الأشعري قوله : « والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . » وفي الأصل : « والسجن جائز بين المسلمين »

عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ . لَوْ جَبَّ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا لِقَاحُ الْعَقْلِ ، وَرَائِدُ الصَّوَابِ ، وَأَنَّ لِلْمُشَاوِرِ إِحْدَى الْحُسْنَيْنِ ، صَوَابًا يَفُوزُ بِمَحْمَدَتِهِ ، أَوْ خَطَأً يُشَارِكُ فِي مَذَمَّتِهِ ، قَالَ الشَّاعِرُ :

« وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَاضَةً مَكَانُ الْخَوَافِ عُدَّةٌ لِلْقَوَادِمِ ^(١) . »
قَدْ قَرَعْتُ لَهُ الْعَصَا وَنَبَّهْتُهُ عَلَى أَنَّ الَّذِي دَعَوْتُهُ إِلَيْهِ ، لَا يَسُوغُ دَفْعِي عَنْهُ ، وَلَا يَجُوزُ مَنَعِي مِنْهُ ^(٢) ، فَحِينَئِذٍ عَلَّمَنِي مَوَاعِيدَ: كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرُقُوبٍ لَهَا مِثْلَاءُ ، إِذَا قَطَعْنَا مِنْهُ عِلْمًا بَدَأَ عِلْمٌ ، وَكَانَ آخِرُهَا - الَّذِي نَسَخَ بِهِ مَا قَبْلَهُ - أَنْ تُدْرَجَ الشُّورَى إِلَى أَبْنَاءِ الشُّورَى لِلْوَرْتَةِ ، فَتَوَيْتُ أَرْقُبُ هَذَا الْحَيْنَ ، وَأَرْجُو أَنْ يَحِينَ ، كَمَا يَرْجُو أَخُو السَّنَةِ الرَّبِيعَ : وَكَمَا فِي بُطُونِ الْحَامِلَاتِ رَجَاءُ .
« فَكُنْتُ وَإِيَّاهُ سَحَابَةً مُمَحِلٍ رَجَاهَا ، فَلَمَّا جَاوَزَتْهُ اسْتَهَلَّتِ »

وفي فصل منها :

وَلَمْ أَقْصَ عَلَيْكَ يَا سَيِّدِي مِمَّا أَجْلَبَتْهُ إِلَّا مَا شَهَرَ شُهْرَةَ الْأَسْمِ ،
وَعُرِفَ مَعْرِفَةَ النَّسَبِ ، وَمَا يَوْمٌ حَلِيمَةً بِسِرٍّ ، وَكُنْتُ أَوَّلَ حَبْسِي قَدْ
وُضِعْتُ مِنَ السَّجْنِ فِي مَوْضِعٍ قَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِوَضْعِ مَسْثُورِي النَّاسِ ،
وَذَوِي الْهَيْئَاتِ مِنْهُمْ فِيهِ ، وَفِي الشَّرِّ خِيَارٌ ، وَبَعْضُهُ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ ،
فَنَيْتُ - مِنْ مُطَالَبَةِ بَعْضٍ مَا يَهْتَمُّ النَّاطِرُونَ فِي السَّجْنِ لَهُ وَيَسْعَوْنَ إِلَيْهِ - بِمَا
أَقْتَضَى تَقْلِي إِلَى حَيْثُ الْجَنَائَةِ الْمُفْسِدُونَ ، وَاللُّصُوصُ الْمُقَيَّدُونَ ، وَشَكَوْتُ
ذَلِكَ إِلَى الْحَكَمِ الْحَاسِ لِي فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَضَى ذِكْرُهُ بِمَشْهَدٍ مَنْ تَقَدَّمَ

(١) البيت لبشار بن برد . (٢) في الأصل : « ونبه على الذي دعوته إليه ، لا يسوغ لي دفعه عنه ، ولا يجوز معنى منه . » وما أثبتناه هنا هو ما يمكن أن يستقيم به المعنى .

وَصَفُّهُ ، فَاتَّقَى مِنْ الرِّضَا بِهِ ، وَأَظْهَرَ الْأُمْتِعَاضَ مِنْهُ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْمُوَكَّلِ
بِالسَّجْنِ فِي اخْتِيَارِ مَجْلِسِ أَتَابِنُ فِيهِ مَنْ لَا تَلِيْقُ بِي مُلَابَسَتُهُ ، وَأَتَّبَعْتُ عَمَّنْ
لَا تُرْضَى لِي مُجَالَسَتُهُ ، ثُمَّ لَمْ أَتَّبِعْ أَنْ أَحْضَرَهُ مَجْلِسَ نَظَرِهِ ، وَأَمَرَ بِتَأْدِيهِ ،
عَلَى أُمْتِئَالِهِ فِيمَا أَمَرَهُ بِهِ ، وَأُنْتَهَاهُ إِلَى مَا حَدَّ لَهُ ، وَأُسْتَأْنَفَ الْمَهْدُ فِي
التَّضْيِيقِ عَلَى ، وَمَنَعَ مَنْ أَعْتَادَ صِلَتِي مِنَ الْوُصُولِ إِلَيَّ ، فَأَصْعِدْتُ إِلَى غُرْفَةٍ
فِي السَّجْنِ أَقْنَعَنِي بِهَا مَعَ خَسَاسَتِهَا ، وَأَسْلَانِي عَنِ الْمُصِيبَةِ بِالْكَوْنِ فِيهَا
- عَلَى مَضَاضَتِهَا - أَنْفِرَادِي مِنْ لَفِيفِ الْأَخْلَاطِ ، وَمَنْ ضَمَّهُ السَّجْنُ مِنَ السَّفَلَةِ
وَالسُّقَاطِ ، فَحِينَ اسْتَوَاثَى إِلَيْهَا عَهْدَ بِحَطِّي إِلَيْهِمْ ، وَخَلَطِي بِهِمْ ، وَوَضَعِي
يَنَّهُمْ ، فَتَقَلْتُ وَدَخَلْتُ إِلَيَّ فِي هَذِهِ الْحَالِ مَنْ أُبْلَغَ إِلَيَّ عَنْ ابْنِ أَخِي الْحَكَمِ
رِسَالَةً جَامِعَةً مِنَ السَّبِّ الْفَاحِشِ فُنُونُهُ ، مُشْتَمَلَةً مِنَ الْوَعِيدِ الْمُرْهِبِ عَلَى
ضُرُوبِهِ . فَلَوْ ذَاتُ سِرَّارٍ لَطَمَنِي .

« وَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ضَعِيفٍ ، وَلَمْ يَغْلِبِكَ مِثْلُ مُغْلَبٍ »
فَلَمْ أَسْتَطِعْ صَبْرًا ، وَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ أَبْلَيْتُ عُذْرًا ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُعْذِرَ لِي لَيْدِي
وَكَاذ^(١) ، وَرَأَيْتُ أَنَّ الْعَاجِزَ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ . فَأَلَمَرُّهُ يَعْجِزُ لَا مَحَالَهُ ، وَلَمْ أَسْتَجِزْ
أَنْ أَكُونَ ثَالِثَ الْأَذَلِّينِ الْعَيْرِ وَالْوَتِدِ ، وَذَكَرْتُ أَنَّ الْفِرَارَ مِنَ الظُّلْمِ

(١) يشير إلى قول لبيد يخاطب بنتيه :

فَقُومَا فَقُولَا بِالَّذِي قَدْ عَلِمْتُمَا وَلَا تَحْمِشَا وَجْهَاءُ وَلَا تَحْلِقَا الشَّعْرَ
وَقُولَا : « هُوَ الْمَرْءُ الَّذِي لَا خَلِيلَ لَهُ أَضَاعَ وَلَا خُلَّ الصَّدِيقَ وَلَا غَدَرَ »
إِلَى الْحَوْلِ ، ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا وَمَنْ يَكُ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ احْتَذَرَ

واحتذر كأهذر أتى بعذر ، فهما بعد تمام الحول إذا أمسكتا عن النوح والبكاء على أيهما فلهما العذر .

وَالْهَرَبَ يَمَّا لَا يُطَاقُ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ » . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

« لَا عَارَ لَا عَارَ فِي الْفِرَارِ ، فَقَدْ فَرَّ نَبِيُّ الْهُدَى إِلَى الْغَارِ »

وَنَظَرْتُ فِي مُفَارَقَةِ الْوَطَنِ ، وَالْبَيْنِ عَنِ الْأَحِبَّةِ ، فَتَبَيَّنَ لِي أَنَّ إِحَاشَ نَفْسِي بِإِنْسَانٍ أَهْلِي ، وَقَطْعَهَا فِي مُوَاصَلَةِ وَطَنِي ، غَبْنٌ فِي الرَّأْيِ ، وَخَوَرٌ فِي الْعَزْمِ ، وَوَجَدْتُ الْحُرَّ يَنَامُ عَلَى الشُّكْلِ ، وَلَا يَنَامُ عَلَى الذُّلِّ ، وَأَذِنْتُ إِلَى قَوْلِهِمْ : لَيْسَ يَنَنُكَ وَبَيْنَ الْبِلَادِ نَسَبٌ ، وَإِذَا نَبَا بِكَ مَنَزِلٌ فَتَحَوَّلَ ، وَقَالَ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ :

« أَرَى النَّاسَ أُحْدُوثَةً فَكُونِي حَدِيثًا حَسَنًا .

كَأَنَّ لَمْ يَزَلْ مَا أَتَى وَمَا قَدْ مَضَى لَمْ يَكُنْ

إِذَا وَطَنٌ رَأَيْتُ فَكُلُّ مَكَانٍ وَطَنٌ »

وَلَمْ أُسْتَغْرِبْ أَنَّ أُسَامَ يُمَثِّلُ هَذَا الْحَسَنَ فِي مَسْقَطِ رَأْسِي ، وَمَعْقُ^(١) تَمَامِي ، وَأَوَّلِ أَرْضٍ مَسَّ ثَرَابُهَا جِلْدِي ، فَقَدِيمًا ضَاعَ الْمَرْءُ الْفَاضِلُ فِي وَطَنِهِ ، وَكَسَدَ الْعِلْقُ الْغَبِيْطُ فِي مَعْدِنِهِ . قَالَ بَعْضُهُمْ :

« أَضِيعُ فِي مَعْشَرِي ، وَكَمْ بَلَدٍ يَعُودُ عُودُ الْكِبَاءِ مِنْ حَظَبِهِ »

فَأَسْتَخَرْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاضِحَ وَجْهِ الْمُنْذِرِ ، ثَابِتَ قَائِمِ الْحِجَّةِ ، عِنْدَ مَنْ غَضَّ عَيْنَ الْهَوَى ، وَخَزَنَ لِسَانَ التَّعَسُّفِ ، وَاللَّهُ يُصِيبُ غَرَضَ الصَّوَابِ بِرَأْيِي ، وَيُقَرِّبُ غَايَةَ النِّجَاحِ عَلَى سَعْيِي ، حَسْبَمَا ذَلِكَ فِي عِلْمِهِ أَنِّي مَظْلُومٌ مَبْنِيٌّ

(١) الملق : الموضع الذي تلقى أى تشق فيه عن الصبي التمام ، ومنه قوله :

« بلاد بها عن الشباب تمامي وأول أرض مس جلدي تراها . »

عَلَى، مَذْنُوبٌ مَا لَمْ آتِهِ إِلَى، فَهُوَ الْمُؤَمَّلُ لِذَلِكَ، وَالْمَرْجُو لَهُ، وَلَعَمْرُكَ يَا سَيِّدِي
 إِن سَاحَةَ^(١) الْعُذْرِ لَتَضِيقُ عَنْكَ، وَمَا تَكَادُ تَتَّسِعُ لَكَ، فِي إِسْلَامِكَ تَلْمِيزَكَ
 وَابْنَ جَارِكَ وَشَيْخِكَ الَّذِي لَمْ تَزَلْ مُثَابِرًا عَلَيْهِ آخِذَا عَنْهُ مُقْتَبِسًا مِنْهُ مَعَ
 إِكْثَارِكَ مِنْ ذِكْرِ هَذَا، وَالْإِعْتِدَادِ بِهِ، وَأَدْعَاءِ الْحِفْظِ لَهُ، وَقَدْ رَوَيْتَ أَنَّ
 حَسَنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَسَمِعْتَ الْمَثَلَ: « أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا. »
 فَالْمَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ، وَلَا أَقْلٌ مِنَ اسْتِعْمَالِ الْجِدِّ، وَأُسْتَفْرَاقِ الْجَهْدِ، فَيُبْلَغُ
 نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحٍ، وَلَا لَوْمْ فِي أَمْرٍ بَلَغَ الْعُذْرَ، وَلَكِنْ مِنْ لَكَ
 بِأَخِيكَ كُلِّهِ، وَمَا حُمِّ وَقَعَ، وَلَا حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ،
 وَتَقَدَّمَ مِنْ فِعْلِي مَا جَفَّ بِهِ الْقَلَمُ، وَأَنَا الْآنَ بِحَيْثُ أُمِنْتُ بَعْضَ الْأَمْنِ، إِلَّا
 أَنْ رَزَا^(٢) مِنْ وَعِيدِ سَقَطَ إِلَى بَأْنِ السَّعَى لَمْ يَرْتَفِعْ، وَأَنَّ مَادَّةَ الْبَغْيِ لَمْ تَقْطَعْ،
 وَأَنَّ الْبَصِيرَةَ مُسْتَحْكِمَةٌ فِي اسْتِرْجَاعِي مِنَ الْأَفْقِ الَّذِي أَحُلُّ بِهِ، وَالْجَنَابِ الَّذِي
 أَحْطُ فِيهِ، وَأَكَّدَ ذَلِكَ فِي ظَنِّي مَا كَانَ أَشَارَ لِي إِلَيْهِ بَعْضُ مَنْ كُنْتُ أَوِي
 إِلَى الثِّقَةِ بِعَهْدِهِ، وَأُبْنِي عَلَى الْوَثَاقَةِ مِنْ عَقْدِهِ، مِنَ الْفُقَهَاءِ الْمَوْسُومِينَ بِالْأَثَرَةِ
 عِنْدَ الْحَكَمِ الْمَذْكُورِ وَالْمَكَانَةِ مِنْهُ، وَقَدْ عَاتَبْتُهُ عَلَى تَأْخُرِهِ عَنْ مُظَافَرَتِي
 وَتَقْصِيرِهِ فِي مُؤَازَرَتِي، فَأَعْتَذَرَ بَأْنِ ذَلِكَ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ، وَلَا مَنَفَذَ لِلْحِيلَةِ فِيهِ، إِذِ
 الْمَحْرُضُ عَلَى لَا تَتَأَتَّى مُعَارَضَتُهُ، وَلَا يَتَهَيَّأُ الْإِسْتِبْدَادُ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ وَصَفَنِي
 بِالْبَذَاءِ وَعَابَنِي بِالتَّسْلُطِ عَلَى الْأَعْرَاضِ، وَوَاللَّهِ مَا اسْتَجَزْتُ هَذَا بَعْدَ أَنْ هَتَكَ

(١) فِي الْأَصْلِ: « أَنْ سَاعَةَ الْعُذْرِ. » فِي هَامِشِ الْأَصْلِ « لَعَلَّهَا سَعَى » وَقَدْ أَهْبَتْنَا مَكَانَهَا « سَاحَةُ »

الَّتِي هِيَ عَلَى صَوَرَتِهَا فِي الْخَطِّ لَيْسَتْ قِيمَ الْمَعْنَى. (٢) الرِّزُّ وَالرَّكْزُ الصَّوْتُ الْخَفِيُّ تَسْمَعُهُ مِنْ بَعِيدٍ.

مِنْ سِتْرِي مَا هَتَكَ ، وَأُنْتَهَكَ مَا أَنْتَهَكَ ، إِنْ كُنْتُ أَقُولُ مَعْدُورًا ، وَأُنْفُتُ
مَصْدُورًا ، فَكَيْفَ قَبْلَ ذَلِكَ إِذْ لَمْ يَحْدُثْ سَبَبٌ ، وَلَا غَرَضٌ مُوجِبٌ ، وَمَالِي
وَهَذَا الْمُجْتَنَى ثُمَّ مَالِيَا ، وَ « سَتُكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ » وَلَيْسَتْ هَذِهِ
بِيكْرِ مِنَ النَّامِ الْآتِي دَخَلَ بِهَا بَيْنَ الْعَصَا وَلِحَاظِهَا :

« فَإِنِّي رَأَيْتُ غَوَاةَ الرَّجَا لِي لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا »

وَمَنْ يَأْذَنُ إِلَى الْوَاشِينَ تَسْلَقُ ^{❖❖} مَسَامِعُهُ بِالسِّنَةِ حَدَادٍ

وَيَاسِيدِي :

لَوْ بَغَيْرِ الْمَاءِ خَلَقِي شَرْقُ كُنْتُ كَالظَّمَانِ بِالْمَاءِ أَعْتَصَارِي
وَوَاللَّهِ مَا تَوَهَّمْتُ أَنِّي أُوتِيَ يَمْنٌ أُوتِيَتْ مِنْهُ مَعَ اتِّصَالِي بِهِ ، وَأَنْقِطَاعِي إِلَيْهِ ،
وَأَتَسَامِي بِالتَّأْمِيلِ لَهُ ، وَالتَّعْوِيلِ عَلَيْهِ . إِنْ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النُّهَى ذِمَّتُمْ .
وَلَكِنْ :

إِذَا كَانَ غَيْرُ اللَّهِ - لِلْعَرَّةِ - عُدَّةً أَتَتْهُ الرِّزَايَا مِنْ وَجْهِهِ الْقَوَائِدِ
لَقَدْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ الشَّيْمِ ، وَشُرُوطِ الْمَرْوَةِ وَالْكَرَمِ ، أَنْ يَهَبَ لِي مَا أَنْكَرَ
لِي عَرَفَ ، وَيَغْفِرَ مَا سَخِطَ لِي رَضِيَ ، وَيَدْفَعَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، وَيُؤَثِّرَ
الَّذِي هُوَ أَجْمَلُ وَأَرْفَقُ ، وَيَتَوَقَّفَ عِنْدَ مَا نُصِّ لَهُ مِنْ سِعَايَةٍ ، وَزُفِّ إِلَيْهِ مِنْ
وِشَايَةٍ ، فَإِنْ كَانَ بَاطِلًا أَلْقَاهُ ، وَفَضَحَ الْمُخْبِرَ الْمُتَقَرَّبَ بِهِ وَأَقْصَاهُ ، وَإِنْ كَانَ
حَقًّا صَبَرَ صَبْرَ الْحَلِيمِ ، وَأَغْضَى إِنْغِضَاءَ الْكَرِيمِ ، وَقَبِلَ إِنْابَةَ الْمُعْتَبِ ، وَأَقْتَصَدَ
فِي مُوَاخَذَةِ الْمُذْنِبِ ، فَقَدَّمَ التَّوْقِيفَ ، قَبْلَ التَّقْذِيفِ ، وَالتَّائِبَ ، قَبْلَ التَّأْدِيبِ
فَإِنَّ الرَّفْقَ بِالْجَانِي عِتَابٌ ، وَالْحُرُّ يُلْحِي وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبَقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثٍ، أَيْ الرَّجَالِ الْمَهْذَبُ؟
وَهُوَ يَرَى وَيَسْمَعُ أَنَّ بِالْحَضْرَةِ قَوْمًا لَا يَحْضُرُهُمُ الْعَدُوُّ تُحْتَمِلُ سَقَطَاتِهِمْ ،
وَتُغْفَرُ هَفَوَاتِهِمْ ، وَتُقَالُ عَثَرَاتُهُمْ :

وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أُمُّ عَمْرٍو بِصَاحِبِكَ الَّذِي لَا تَصْبَحِينَا^(١)
وَمَا أَعْلَمُ أَنَّهُمْ يُذَلُّونَ بِوَسِيلَةٍ إِلَّا شَارَكْتَهُمْ فِيهَا ، وَلَا يَمْتُونُ بِذَرِيعَةٍ يَنْفَرِدُونَ
دُونِي بِهَا :

هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضُلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا وَحَتَّى يَصِيرَ الْيَوْمُ لِلْيَوْمِ سَيِّدًا
فَإِنْ كَانَتْ مُسَامَحَتُهُمْ لِسَابِقَةٍ سَلَفَتْ فَقَدْ أَحْزَنْتُ مِنْهَا الْحِظَّ الْأَعْلَى، أَوْ لِكَمَالِ
أَدَبٍ فَقَدْ ضَرَبْتُ فِيهِ بِالْقِدْحِ الْمُعَلَّى ، أَوْ لِلطُّفِّ تَوَدُّدٍ فَمَا قَصَّرْتُ فِي الْاجْتِهَادِ
غَيْرَ أَنِّي حُرِمْتُ التَّوْفِيقَ ، وَالْأَمْرُ لِلَّهِ ، رُبُّ مُجْتَهِدٍ مَا خَابَ إِلَّا لِأَنَّهُ جَاهِدَ .
فَإِنْ كَانَ ذَنْبِي أَنْ أَحْسَنَ مَطْلَبِي أَسَاءَ فِينِي سُوءُ الْقَضَاءِ لِي الْعُذْرُ
وَاللَّهُ لَقَدْ أَظْهَرْتُ مَذْحَهُ ، وَأَضْمَرْتُ نُصْحَهُ ، وَتَمَنَّتْ عَلَى الصَّاعِيَةِ لَهُ ، وَجَرَيْتُ
مِلءَ الْعِنَانِ إِلَى الْأَعْتِلَاقِ بِهِ ، أَسْقِيهِ السَّائِغَ مِنْ مِيَاهِ وَدِّي ، وَأَكْسِيهِ السَّابِغَ
مِنْ بُرُودِ حَمْدِي ، وَأَجْنِيهِ الْغَضَّ مِنْ ثَمَرَاتِ شُكْرِي ، وَأَهْدِي إِلَيْهِ الْعَطِرَ
مِنْ نَفَحَاتِ ذِكْرِي لَا يُفِيدُنِي التَّحَبُّبُ إِلَيْهِ ، إِلَّا ضَيَاعًا لَدَيْهِ ، وَلَا يَزِيدُنِي
التَّقَرُّبُ مِنْهُ ، إِلَّا بُعْدًا عَنْهُ :

كَأَنِّي أَسْتَدْنِي بِهِ ابْنَ حَنِيَّةٍ إِذَا النَّزْعُ أَذْنَاهُ مِنَ الصَّدْرِ أَبْعَدًا
وَالَّذِي أَحْبَبُهُ مِنْكَ ، وَأَتَّقِي فِي الْمَسَارَعَةِ إِلَيْهِ بِكَ لِقَاءَهُ مُجَارِيًا ذِكْرِي ، مُفَاوِضًا

(١) أي ليس شرّ الثلاثة يا أم عمر الذي لا تسمينه الصبوح بصاحبك ، وفي الأصل :
« وما شرّ الثلاثة - أم عمرو - لصاحبك الذي لا تصبحينا . »

فِي أَمْرِي ، مُعْلِمًا لَهُ بِالَّذِي لَا يَذْهَبُ عَنْهُ - مِنْ أَنَّ الَّذِي اخْتَرْتَهُ لِنَفْسِي غَايَةً
مَا يُسِيءُ الْعَدُوَّ بِهِ ، وَيُسَاءُ الْمَوْلَى مِنْهُ - فَالْجَلَاءُ أَخُو الْقَتْلِ ، وَالْغُرْبَةُ أَحَدُ السَّبَاءِ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ . » وَقَالَ الشَّاعِرُ :

« وَمَنْ يَغْتَرِبَ عَنْ قَوْمِهِ لَا يَزَلْ يَرَى مَصَارِعَ مَظْلُومٍ مَجْرًا وَمَسْجَبًا
وَتُدْفَنُ مِنْهُ الصَّالِحَاتُ ، وَإِنْ يُسَى يَكُنْ مَا أَسَاءَ النَّارُ فِي رَأْسِ كَبْكَبَا »
وَقَدْ هَجَرْتُ الْأَرْضَ الَّتِي هِيَ ظِرِّي ، وَالْذَّارَ الَّتِي كَانَتْ مِهَادِي ، وَغَبْتُ عَنْ أُمِّ
أَنَا وَاحِدُهَا ، تَمْتَدُّ أَنْفَاسُهَا شَوْقًا إِلَيَّ ، وَتَغْمُضُ أَجْفَانُهَا حُزْنًا عَلَيَّ ، وَاللَّهُ يَرَى
بُكَاءَهَا ، وَيَسْمَعُ لِي - عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي - نِدَاءَهَا ، فَلَا سِتْجَابَةَ مَضْمُونَةَ لِلْمُخْلِصِ
وَالْمَظْلُومِ ، وَقَدْ حَمَلْتُ السَّمْتَيْنِ ، وَأُسْتُوجِبْتُ الصَّفَتَيْنِ ، وَلَتَكُنْ بُغْيَتِكَ الَّتِي
تَدْخِرُهَا عَلَيْهَا كَلِمَةٌ تَأْمِينٍ ، وَإِشَارَةٌ إِلَى تَأْنِيسٍ وَتَسْكِينٍ ، تُرَاجِعُنِي بِهَا
فَظْهَرُ بِحَيْثُ أَنَا آمِنًا ، وَأَتَقِي الْعَصَا مُطْمَئِنًّا ، فَإِنْ وَجَدْتَ حَزْرَ الشَّفَرَةِ ،
فَالْعَوَانُ لَا تَعْلَمُ الْخِمْرَةَ ^(١) ، فَإِنْ أَشْبَهْتَ اللَّيْلَةَ الْبَارِحَةَ ، أَعْلَمْتَنِي بِذَلِكَ ، فَطَلَبْتُ
الْأَمْنَ فِي مَظَانِّهِ ، وَتَقَرَّرْتُ السَّلَامَةَ فِي مَوَاطِنِهَا ، وَصَبَرْتُ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لِي
وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ، كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ، وَمَعَ الْيَوْمِ غَدٌ ، وَلِكُلِّ حَالٍ
مُعَقَّبٌ ، وَلَرُبَّمَا أَجَلِي لَكَ الْمَكْرُوهُ عَمَّا تَحْمَدُ ، وَلَكَ يَا سَيِّدِي فِي أُنْتِدَابِكَ لِمَا
نَدَبْتُكَ إِلَيْهِ الْفَضْلُ ، وَالْأَيَادِي قُرُوضٌ ، وَالصَّنَائِعُ وَدَائِعُ :

« لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ . »

وَالْتَّجِيَةُ الطَّيِّبَةُ وَالسَّلَامُ الْمُرَدَّدُ عَلَى سَيِّدِي .

(١) الخمر : اسم للهيئة من الاختيار أى وضع الحمار على الرأس ، وهو مثل يضرب لمن حذق الأشياء
وجرب الأمور .

شعر الملكين

(١)

شعر المعتضد

« قال المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبو عمرو

عباد بن محمد بن عباد رحمه الله . »

إذا نام أقوام عن المجد - ضلة -
أسهد عيني أنت تنام بي الحال
وإن راق أقواماً من الناس - منطق
يروق ، بدا مني مقال وأفعال . «
(وقال)

« أقوم - على الأيام - خير مقام ،
وأوقد في الأعداء - شر ضرام
وأنتق - في كسب المحامد - مهجتي ،
ولو كان في الذكر الجليل - حمي
وأبلغ - من دنياي - نفسي سؤلها ،
وأضرب - في كل العلا - بهام
إذا فضح الأملاك نقص ، فانه
يبينه - عند الأمام - تهاجي . «

(وقال)

« من كان يسوع نوال فأنا الذي لست يسال
البخل عين قيصه ، والجود عين الكمال
أبصرت رشدي في الندى ، فالبخل - عندي - كالفضال
هنا زفاف طعمه ، والجود حلوك كالزلال . «

(وقال)

« لو كان قلبي - عن الاشغال - منترحاً ،
نادى لفقد حبيب النفس : واحربا
لكنما شغل به بالمجد - مجتهداً -
يلهبه عن حبه إن بان أو قربا . «

« لقد بسط الله المكارم من كفى
فلست - على العلات منها - أخا كف
تنادي بيوت المال - من فرط بذلها -
يعني : « قد أسرفت ظالمتي كفى »
أنفري يميني بالسباح فتنهى
ولا ترفض خلا يقول لها : يكنى
لعمرك ، ما الاسراف في طبيعة ،
ولكن طبع البخل عندي كالخنف . «
(وقال)

« من للشجاعة والكرم إلا الظالم المظلم
من لست تعدم عنده غير التبذل والعدم
أجبا للمكارم والعلا وأقام مناآد الهمم
يلقى العداة ، وسيفه قد قط هامات البهم . «

(وقال)

« لعمرك إني - بالمدامة - قوال ،
وإني - لما يهوى الندامى - لفعال
وإني - للخل الخليل - لناعش ،
وإني - للقتل المناوى - لقتال
قسمت زمانى - بين كد وراحة -
فلرأى أسعدار ، وللطيب آصال
فأسمى - على الذات والمهو - عاكفاً
وأضحى - بساحات الرياسة - أختال
ولست - على الإدمان - أغفل بقيق
من المجد ، إني - في المعالي - لاحتال

(وقال)

« هذى السعادة قد قامت على قدم
وقد خلفت لها في مجلس الكرم
فان أردت - إلهي - بالورى حسناً
فلكني زمام الدهر والأمم
فاني لا عدك الدهر عن حسن ،
ولا عدك بهم عن أكرم الشيم
أفارع - الدهر - عنهم كل ذي طلب
وأطرد - الدهر - عنهم كل ذي عدم . »

(وقال)

« عن القصد قد جاروا ، وما جرت عن قصد
إذا خفيت طرق العرائس عن أسد
إذا اعترضوا للبخل أعرضت عنهم ،
وإن من أقوام كتمت الذي أسدى
فله ما أخفى من العدل والندى ،
ولله ما أبدى من الفضل والحمد
ولا ألتقي ضيق بغير بشاشة
إذن فحدث الله معروفه عندي . »

(وقال)

« ألام ، ومالوي - على الحب - واجب ،
وقد صادني طرف كليل وحاجب
أتعجب عن - والفؤاد يحجبها -
لقد عز محجوب تمناه حاجب
أروم فؤادي - في الغرام - لينتي
وكيف وما دون الأية حاجب . »

(وقال)

« زهر الأسنه - في الهيجا - غدت زهري
غرس أشجارها مستجزل المر
ما إن ذكرت لها من معرك جليل
إلا تجللت - بالصارم - الذكر
حق غدوت وأعدائي تخاطبني
يا قاتل الناس بالأجناد والفكر . »

(وقال)

« وإذا توعرت المسالك لم أرد
فيها السرى إلا برأى مقمر

وإذا طلبت عزيزة ففاتحي

فيها العزيمه والسان السهري . »

(وقال)

« كلام - كئل الدر - تنثره نثرأ
ووصل - كظل الروض - تعطيك نزرأ
ولو لم تشب وصلي بهجر لخلتي
أشافه منها الشمس أو ألم البدر . »
(وقال)

« أناك الليل معتكراً يناقضه سنا البدر
ذر الساعات تبسطه - ستقبضه يد الفجر . »

(وقال في القاضي أبي القاسم أبيه)

« ألا يا مليكا يرتجي وهباب
وبحرأله - في المكرمات - عباب
ومولى عدتي - مذنبات - مكارم ،
يهوب بها - من راحتيه - سحاب
أطعتك - في سري وجهري - جاهداً ،
فلم يك لي - إلا الملام - ثواب
وأعملت جهدي في رضاك مشرأ

ومن دون أن أفضي إليه حجاب
ولما كبا جدي إليك ولم يسغ
لنفسى - على سوء المقام - شراب
وقل اصطباري ، حين لالي عندكم
- من العطف - إلا قسوة وتباب

فررت بنفسى أبتغي فرجة لها
على أن حلو العيش بعدك صاب
وما هزني إلا رسولاك أن جرت

إلى به صم المضاب وكاب
فقال مقالا لم أجد عن مقالته

مناباً ، وعن بعض الأمور مناب
دعاك أمير المؤمنين مثوباً

فقلت : « أمير المؤمنين محاب »
فجئت أغذ السير ، حتى كأنا

يطير بسيري - في الغلاة - عقاب
وما كنت - بعدالين - لأموطناً

بعزى على ألا يكون إياب

فجادت - وما كادت - على مجدها
وقد ينبع الماء النخيل من الصلابة
فقلت لها : « هاتي ثنايك إنني
أفضل نوار الأفاقي على الورود
وميل على جسي بجسك » فاشتت
تعيد الذي أملت منها كما تبدي
حنافاً ولثماً أرويا الشوق بيننا
- فرادى ومثنى - كالشرا من الزند
فياساعة - ما كان أقصر وقتها
لدى - تقضت غير مذمومة العهد -
(وقال)
« ينادون قلبي ، والغرام يحجب ،
وللقب - في حين النداء - وجيب
مشوق دماء الشوق والوجد والهوى
يحجب نداء الحب وهو يحجب
يقاسي فؤادي الوجد والحب واصل -
فكيف تراه إن جفاه حبيب ؟
إذا أخطأ الأحباب ترتيب حالهم
فانت فؤادي - دائماً - ليصيب
عليم بأسرار الغرام ، لأنه
بصير - بأدواء الحسان - طيب
يواصلني سرّاً ، ويصرم ظاهراً ،
وذلك - من أقداهن - عجيب . »
(وقال)
« ببيض الهند والأسل الحداد
أرجى أنت يتم لي مرادى
فأبلغ بغيري ، وأريح نفسي ،
وتحمد حالي في كل نادى
ففتي الدهر في قتل الأحادي ،
وحسم رقابهم في كل وادى
فذاك الغرض - والرحمن - عندي
كمثل النرض في حال الجهاد . »
(وقال)
« وليل ظلتنا فيه نمل كأسنا
إلى أن بدت للصبح في الليل - أعمال

ولكنك الدنيا إلى حبيسة
فما عنك لي - إلا إليك - ذهاب
وفضلك في ترك الملام ، فانه
- وحقك - في قلبي ظلاً وحراب
إذا كانت النعمى تكدر بالأذى
فما هي إلا عنة وعذاب
ولا تقبض بالمتع كفى فانه
- وجدك - تقض للملا وخراب
فوالله ما أبني بذلك غير أن
تحلى بمجدوى راحتك رقاب
ويهدى إليك الناس دون تصنع
شبه صدق لم يشبه كذاب
فكل نوال لي ، إليك انتسابه ،
وأنت عليه - بالثناء - مثاب
بقيت مكين الأمر ، ماذر شارق ،
وما لاح في أفق السماء شهاب . »
(وقال)
« يا قاتل الصب ولا واق
لا ترض بالله بانفاق
عينك قد قادت إلى الردى
فالقلب يحتاج إلى راقى
لولاك والرحمن - ما كنت من
يحسب في جملة عشاق
قد لدغت صدقك قلبي فهل
تتم للادغ بدرباق . »
(وقال)
« رعي الله من يصلي فؤادي بحبه
- معيراً ، وعين منه في جنة الخلد
غزالية العينين شمسية السنن
كشبية الردين غصنية القند
شكوت إليها حبها بدمعي
وأعلمتها ما قد لقيت من الوجد
فصادف قلبي قلبها - وهو سالم -
فأعدي ، وذوالشوق المبرج قد بمدى

(وقال)

« ذكرارك في في فديت بتسبيحي
أفديك يا فتنة الجنان والروح
الله يعلم أنى لست أمجركم
دهرى ولا تنقضى فيكم تباريحى
إن كنت أشرح معنى حبكم شفقا
فإن سرك عندي غير مشروح . »

(وقال)

« يا جاهل الحب إن الحب ذو سند
مهما أجزعته يوماً سوف أعتد
أجهل الحب من أضحت به حرق
تكاد من حرها الأحشاء تنقد
الله يعلم أنى شيق أبدا
لا ينقضى الشوق حتى ينقضى الأبد
إن يشرب الجسم برد الوصل منتعشا
يهدى إليه فؤادى حر ما يجد . »

(وقال)

« لله درّ الحب ماذا يصنع
يعنو له ملك الزمان ويخضع
للحب سلطات عظيم شأنه
مهما يقل قولاً فقلبي يسمع
إن يمر بالهجران مالك مهجتي
أنبل إليه بحالتي أنفرت
ماذا انتفعت بحالتي عند الهوى
حال الهوى أبداً أجل وأرفع . »

(وقال)

« لله ما خلد الأنحاض في خلدي
لمن غدا والندى كالروح والجسد
للاوحدى أبى الجيش الذى ظفرت
منه بأنفس عاقى فى الأمام يدي
موفق الرأى فى الرايات لذته
فى الجرد والجود لافى العيشة الرغد
إذا رأته العلاء نادته بصفحة
يا قرّة العين بل يا فلذة الكبد . »

وولت نجوم الليل تجرى هزينة

وجاء مع الاصيل - نصر وإقبال
فقضيت - من هذا وذاك - لبانة
ونتم لنا فتح مبين وآمال . »
(وقال)

« وليل أدمننا فيه شرب مداة
إلى أن بدا للصبح فى الليل تأثير (١)
وجاءت نجوم الصبح تضرب فى الدجى
فولت نجوم الليل والليل مقهور
لحزنا - من اللذات - أطيب طيبها
ولم يمدنا هم ولا طاق تكدير
خلا أنه - لو طال - دامت مسرة
ولكن ليالى الوصل فيهنّ قصير . »

(وقال)

« أعلم أن قلبي غير صاح ؟
وأنى من سلوكك فى انزعاج
وكنت الدهر - أصادد العالى
فقد أصبحت من صيد الملاح
تسقى البجيلة كأس صد
وتزجها - لتعليل - براح
ولو شامت حياتى - الدهر - سقت
حرور القلب من شيم قراح
وكانت تصنع الحسنى جيلا
ولكن ليس تلقى غير لاح
فسقى - فديتك - من عقار
ونادى : هلم إلى اصطباح . »

(وقال)

« يطول على الدهر إن لم ألقها ،
وبقصر - إن لاقيتها - أطول الدهر
لها غرة كالدر - عند تمامه -
وصدغاً غير نتما صفحة البدر
وقد كثل النصن - مالت به الصبا -
وافظ كما انحلت النظام من الدرّ

(١) هذه المقطوعة أدرجت سهواً ضمن شعر
ابن زيدون .

(وقال)

« أترى اللقاء كما نخب يوفق
فنظل نصبح بالسرور وننقب
حنام تملطنى الليالى قرب من
قلبي له منشوف منشوق
ملك أغمر أغار أن تحظى به
لسواى ألاحظ ولخطى مملق
أفدى أبا الجيش الموفق أنه
للمكرمات ميسر وموفق
ياحى به الزمن البهى كأنه
نشر على وجه الزمان وروفق
ملك إذا فهنا بطيب ثنائه
ظلت به أفواهنا تنطق
حسب الرئاسة أن غدت مرادفة
بسناء فهو الناجح وهو الموفق . »

(وقال)

« عرفت عرف الصبا إذ ذهب عاطره
من أفق من أنا فى قلبى أشاطره
أراد تعجيد ذكراه على شحط
وما تيقن أنى الدهر ذا كره
ينأى المزار به والدار دانية
يا حبذا الفال لو صحت زواجه
ذخرى أبا الجيش هل يقضى اللقاء لنا
فبشستنى منك جفن أنت ناظره
قصاره قيصر إن قام مفتخراً
لله أوله مجد وآخره . »

(وقال)

« كأنما ياسينتنا الغض
كواكب فى السماء تبيض
والطرف الحمر فى جوانبه
تكد عذراء ناله الغض . »
(وقال)

« تنام ومدتها يسهر وتصبر عنه ولا يصبر
لنى دام هذا وهذا به سبهلك وجداً ولا يشعر . »

(وقال)

« أنام وما قلبي عن المجد نائم
وإن قمعت بى علة عن طلابها
فإن اجتهدى فى الطلاب لقائم
يعز على نفسى إذا رمت راحة
براح فتنبئنى الطباع الكرائم
وأسهر ليلى مفكراً غير طاعم
وغيرى على العلات شعبان نائم
ينادى اجتهدى إن أحس بفترة
ألا أين يا عباد تلك العزائم
فتبتر آمالى وتقوى عزائى
وتذكرنى لذاتهن الهزائم . »

(وقال)

« أنا فى الحب مغرم مستنيل
كل نيل أناله لى قليل
لى جثمان من يظن صحيحاً
وفؤادى من الغرام عليل
(١) أعطى بحق
إن صبرى - على التجنى - جميل
لى ذهن - مثل الحسام - صقيل
هو من كثرة التجنى قليل . »

(وقال)

« إني على ألقى بالسهد والكد
أدعوك يا مضى الأجسام بالسهد
قطعت قلبى الذى أعطاك جوهره
إني وهبتك محض النفس والكبد
يادرة لم تاج فى كف غائصها
لأأهل إليها آخر الأبد
قلبي بكفك لا أرجو الفكاك له
مثل الفريسة حلت فى يدي أسد . »

(١) هكذا وجد ناقصاً بالأصل

(وقال)

« يا غيرة تسخر بالبدن
ومقلة تنفت بالسحر
ومبهما نظم من جوهر
وماؤه من أعطر الحجر
ومنطقاً أوتيت من سحر
أحرّ في قلبي من الحجر
وشادنا تبني شـخصه
ووكّل الأجفان بالسهر
تاجر بن الله نغز بالرضى
وتريح الجنة في التجر . »

(وقال)

« يا درة قلبي بها مفتون
يسلوه وإن سئل السلوذين
الله يعلم أن قلبي مغرم
من كان ذا صبر فليس يكون
أو أن من يشري رضاك بفوزه
بالخلد قلنا: إنه المغبون . »

(وقال)

« يا قرا أصبح لي مالكا
لا تركني هكذا مالكا
وفلذة الكبد التي ضمها
مبيتها الدمر بأوجالكا
رق على قلب العميد الذي
يود أن يجري على بالكا
حسنت في خلق وخلق فلم
رضيت بالقبح لأفعالكا . »

(وقال)

« يصبرني أهل اللودة دائما
وإن فؤادي والاله صبور
أغار على مغنى الرئاسة إنني
على كل حسن في الزمان غيور
أصرف ذهني في أمور كثيرة
وأعلم أن الدائرات تدور . »

(وقال)

« غصن من التبر فوقه ورق
كأنه الصبح تحته شفق
يا أبدع الناس في عأسنه
رق على من أذابه الأرق
مددت كني رجاء رأفتكم
لا تتركوني بنالتي الفرق
بحر دموعي منفرد جسد
تداركوا مهجتي وبى رمق . »

(وقال)

« رمي الله حالينا حديثاً وماضيا
وإن كنت قد جردت عزمي ماضيا
فما لليلاني لا تزال ترد مسني
ويرمين مني صائب السهم قاضيا
وقد علمت أن الخطوب تطيعني
وما زلت - من لبس الدنيا - طاريا
أجدد في الدنيا ثيابا جديدة
يجدد منها الجود ما كان باليا
فأمرت لي بخيل بخاطر مهجتي
ولأمرت بخيل الناس قط بياليا
ألا حبذا في الجدد إتلاف طارقي
وبئذى عند الجدد نفسي وماليا . »

(وقال)

« يجور على قلبي هوى ويمير
ويأمرني إن الحبيب أمير
أطوع لأمر الحب طوع مسلم
وإن كان من شأنى إباء وغور
أغار عليه من لحاظي صيانة
وأكرمه إن الحب غيور
أخف إلى لقيا الحبيب وإنني
لعمرك في كل الأمور وقور . »

(وقال)

« أطلت نغار المجد بالبيض والسر
وقصرت أعمار العداة على قصر
ووسعت سبل الجود طبعاً وصنعة
لأشياء - في العلياء - صابها صدرى
فلا مجد للإنسان ما كان ضده
يشاركه في الدهر بالنهي والأمر . »

(وقال)

« كان عفى القطر في شاطئ النهر
وفد زهرت فيه الأزاهر كالزهر
ترش بماء الورد رشا وتنقي
لتغليف أنفواه بطيبة الحر . »

(وقال حين دخل على المعتمد مآلقه)

« أرى أنت فائدة الزمان
فقد فقت الممالك في ممان
وقد رمتك من بلد بعيد
فأدناك الإله بلا توات
بذلنا جهدنا عزماً وحزماً
ووطنا الكفاة على الطعان
وأجهدنا العزائم والساعي
وأعملنا الحسام مع السنان
ليهنأ أهل مآلقه انتصاري
وإعزازي لهم بعد الهوان
سيتنقذهم وينبهم جيما
رضاع الخير إن درت لباني
وأرقبهم ذرا درج المآلى
كما أجنيهم عر الأمانى

وأضعاف الذى يبدي لسانى
إليهم ما يحسن لهم جنانى
فحق عليهم شكر امتعاضى
وما خلقى امتنان بامتنان
ولكن الحقائق مخبرات
وكم خبر ينوب عن العيان
ألم أعتقهم من ذل كفر
جرى في ضيهم ملء العنان
وتوراة محسرة أعزت
فطالت ذلة السبع المثاني
إلى أن ثار بي عزم يمان
فأدرك سؤله الغضب اليماني
وأفضيت الصوارم خاطبات
فكان قضاؤها سحر البيان
فماد البرّ معبور المثاني
وآب الفسق مهدوم المباني
وقام إمام جامعهم يصلى
وآنست المسامع بالأذان
وكان ذوو الهدى ما بين ناو
قتيل أو قفيل العقول فاني
مذ اقترنت ببربرهم يهود
أباح حسامهم حسن القرآن
فناد جبر ما أوليت فيهم
- من الفتكات بكر أو عوان
وحسبي في سبيل الله موت
يكون ثوابه خلد الجنان . »

(٢)

شعر المعتمد

(قال رحمه الله حين خرج من مالقة مستعجباً لأبيه :)

« سكن فؤادك لا تذهب به الفكر
ماذا يصيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترضى البكاء لها
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبّر
وإن يكن قدر قد عاق عن وطر
فلا مردّ لما يأتي به القدر
وإن تكن خيبة في الدهر واحدة
فكم غدوت ومن أشياحك الظفر
إن كنت في حيرة من جرم مجرم
فإن عذرك - في ظلماتها - قر
كم زفرة - في شغاف القلب - صاعده
وعبرة من شئون العين تنحدر
فوض إلى الله مما أنت خائفه
وثق بتمتضد بالله يغتفر
ولا تترك خطوب إن عدا زمن
فالله يدفع والمنصور ينتصر
واصبر ، فإنك من قوم أولى جلد
- إذا أصابتهم مكروهة - صبروا
من مثل قومك - والملك الهمام أبو
صمرو أبوك - له مجد ومفتخر
سميدع يهب الآلاف مقتدراً
ويستقل عطاياهم ويحتقر
له يد كل جبار يقبلها
لولا نداء لقلنا إنها « الحجر »
يا ضيفاً يقتل الأبطال مفترساً
لا توهني فاني التاب والظفر
وفارسا تحذر الأقران صولته
صن عبدك القن فهو الصارم الذكر

هو الذي لم تشم يثناك صفحته
إلا تأتي مراد وانقضى وطر
قد أخلقتني صروف - أنت تعلمها -
وقال موردها : « مالي بها صدر »
فالنفس جازعة ، والعين دامعة ،
والصوت مرتفع ، والسر منشور
وزاد همي ، ما بالجسم من سقم
وشبت رأساً ، ولم يلفني الكبر
وذبت إلا ذمماً في يميني
أني عهدتك دغو حين تقتدر
لم يأت عبيدك ذنباً يستحق به
عتباً ، وما هو قد ناداك يمتدح
ما الذنب إلا على قوم ذوي دغل
وفي لهم عهدك المهود إذ غدروا
قوم نصيحتهم غش ، وصدقهم
مين ، ونفهم - إن صرفوا - ضرر
يميز البنض في الألفاظ إن ندقوا
ويعرف الحقد في الألفاظ إن نظروا
إن يحرق القلب نعث من مقامهم
فإنما ذاك من نار القلي شرر
مولاي دعوة مملوك به ظمأ
برح وفي راحتك السلسل الحصر
أجب نداء أخى قلب تملكه
أسي وذى مقلة أودى بها السهر
لم أوت من زمي شيئاً أسر به
فلست أعهد ما كاس ولا وتر
ولا تملكني دل ولا خنر
ولا سي خلدني غنج ولا حور

بقيت مؤيدا ما لاح برق
وماغنى الحمام على قضيب . «
(وله إليه)
« ألا يامليكا ظل في الخطب مفزعا
وياواحدأ فاق الخلائق أجمعا
ترفق بعبد وده لك شبيمة
إذا كان ذو ودّ سواء تصنعا
لئن كنت عن جهل فديتك غافرا
فكم عاثر قالك علاك له : «لما»
أقلنى تُقل عبدا شكورا وصارماً
يجز من الأعداء ليلى وأخذعا
علتنى من السخط الأليم سحابة
فأغر بهارمخ الرضى كي تقشعا . «
(وله إليه)
«مولاي أشكو إليك داء أصبح قلبي به قريبا
إن لم توجه رضاك عني فليست أدرى له مريحا
سخطك قد زادنى سقاما
فابث إلى الرضى مسيحا . «
(وله إليه)
«يا ليت حرب ذاق الأعادى
طعمين منه أريا وسما
هذا إذا ناشبوه حربا
وذا إذا استوهبوه سلما
لا غرو أن حم منك جسم
فعادة الأسد أن تحما
وليهنى أن طلعت بدرأ
لأعين الخلق مستما
لا زلت تاتى العداة بؤسى
منك وتلقى الولاة نعى
ولتجز من قال من حسود
إن يكن الحق قد ألما . «
(وله)
« يا بدر تم تجلى فالأرض لشرق منه
العجز خلق ذميم فلا تحدث عنه . «

رضاك راحة نفسى لا لجفت به
فهو العناد الذى للدهر أدر
هو المدام التى أسلو بها فإذا
عدمتها عبثت فى قلبي الفكر
ما تركي الحر من زهد ولا ورع
فلم يفارق لعمرى سنى الصنر
ولمّا أنا ساع فى رضاك فإن
أخفقت فيه فلا يفسح لى العمر
ما سرنى وأحاشى عصر عطفكم
يوم أخل به فى عيني القصر
أجل ولى راحة أخرى علفت بها
نظم الكلى فى القنا والهام تنثر
كم راحة لى فى الأعداء واضحة
تفنى الليالى وما يفتى لها الخبر
سارت بها العيس فى الآفاق فانتشرت
فليس فى كل حى غيرها سر
لا زلت ذا عزة قماء شاحجة
لا يبلغ الوهم أدناها ولا البصر
ولا يزل وزر من حسن رأيك لى
أوى إليه فنعم الكهف والوزر
أليك روضة فكري جاء منبتها
ندى يمينى لا طل ولا مطر
جعلت ذكراك فى أرجائها شجرا
فكحل أوقاتها للمجتى عمر . «
(وله إليه)
«أيا ملكا يجمل عن الضريب
ومن يلتذ غفران الذنوب
ومن فى كفه بؤسى ونمى
تصرف فى العدو والحبيب
تسخطك المض أعل نفسى
ومالى غير نفوك من طيب
ولست بمنكر ذنبى ولكن
ننى قد جثت فى حال المررب
فان عاقبتنى لجزاء مثلى
وإن تصفح فليس من الغريب

ابن عمار^(١)

« وكتب ذو الوزارتين أبو بكر بن عمار
إلى المعتد على الله حين تقبض النصراني
على الرشيد ابنه إذ حاول أمر مرسيه . »

« أصدق ظني أم أصبح إلى صبي فأمضي عزمي أم أعوج مع الركب

(١) ابن عمار

الوزير أبو بكر « محمد بن عمار » ذو النفس العصامية - كما يقول المراكشي - كان أحد الشعراء
المجيدين على طريقة أبي القاسم « محمد بن هاني الأندلسي » وربما كان أحلى منزما منه - في كثير من شعره .
ولشعره ديوان يدور بين أيدي أهل الأندلس ولم أر أحدا ممن أدركته سني من أهل الآداب الذين أخذت عنهم
إلا رأيته مقدما له مؤثرا لشعره ، وربما تغالى بعضهم فشبهه بأبي الطيب وهيبات . فن قصائده المشهورة التي
أجاد فيها ما أراد ، قصيدته التي كتب بها من سرقة حين فرق المعتض بالله بينه وبين المعتد لأنه شذله عن
كثير من أمره فنفاه وهي : -

« على والا ما بكاء الغمام وفي وإلا ما نواح المائم
وعنى أثار الرعد صرخة طالب لثأر، وهز البرق صفعة صارم
ومالبت زهر النجوم حدادها لنيري، ولا قامت له في مآتم . »
وفي هذه القصيدة يقول يمدح المعتض بالله :
« أبى أن يراه الله إلا مقلدا حمية (١) سيف أو جمالة غارم . »
ومن جيد لسيبه قوله في قصيدة يمدح بها المعتض بالله :

« جاء الهوى فاستشعروه طاره ونعيبه فاستعذبوه أواره
لا تطلبوا - في الحب - عزاء، وإنما عبيدانه في حكمه أحراره
قالوا أضربك الهوى فأجبتهم : يا حبذا وجبذا اضرازه
قلبي هو اختار السقام لجسمه زيا ، غفلوه وما يختاره
غيرتموني بالنحول ، وإنما شرف المهند أن ترق شفاره
وشتم لفراق من آلفته ولربما حجب الهلال سراره
أحسبم السلوان هب نسيه ؟ أو إن ذاك النوم عاد غراره ؟

إن كان أعيا القلب من حرب الجوى خذلته من دمي إذ أنصاره . »

ولابن عمار هذا مع المعتد أخبار عجيبة عنى بجمعها أهل الأندلس ، وأنا - إن شاء الله - مورد منها ما لا يحل
بالشرط الذي التزمته ، ولا يخرج من الحد الذي رسمته ، حسب ما بقي على خاطري من ذلك ، لأنني كنت في

ولماني لتهمو بي إليك مودة يعثرها ما قد تعرض من ذنبي
إذا اتقدت في رأي مشيت مع الهوى وإن أتعبه نكصت على عقبي

حادثة سني قد صرفت عنايتي الى أخبار ابن عمار هذا مع المعتد لما تضمنته من الآداب . وقد فشت خزانة
حفظي فلم ألف فيها إلا نبذة يسيرة وأنا موردها إن شاء الله عز وجل :
فابن عمار هذا هو محمد بن عمار يكنى أبا بكر أصله من «شلب» من قرية من أعمالها يقال لها : «شنبوس»
مولده ومولد آبائه بها ، كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه في الرياسة — في قديم الدهر ولا حديثه — حظ ، ولا زكا
منهم بها أحد . ورد مدينة شلب طفلا فنشأ بها وتعلم علم الأدب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى
الأعظم ، ثم رحل الى قرطبة فتأدب بها . ومهر في صناعة الشر فكان قصاراه التكبس به فلم يزل يحول
الأندلس مسترفدا لا يخلص بمدحه الملوك دون غيرهم بل لا يبالى ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقه ،
وله في ذلك خبر طريف ، وذلك أنه ورد في بعض سفراته شلب لا يملك إلا دابة لا يجد علفها فكتب بشعر
الى رجل من وجوه أهل السوق فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له الخلاة شعيرا ووجه بها إليه ، فراها
ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز — ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجدد ونهض به البخت
وانتهى أمره أن ولاد المعتد على الله مدينة شلب وأعمالها أول ما أفضى الأمر إليه فدخلها ابن عمار في
موكب ضخمة وجملة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يظهرها المعتد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله ،
فكان أول شيء سأل عنه الرجل صاحبه صاحب الشعير ، فقال : ما صنع فلان أهو حي ؟ قالوا : نعم
فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله : « قل له لو ملأتها برا ملأناها تبرا » ولم يزل
ابن عمار على الحال التي ذكرناها من التقلب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على
المعتضد بالله أبي عمرو فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها :

« أدر الزاججة فالقيم قد انبرى والتجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العنبرا

وفيها يقول بمدح المعتضد :

« عباد الخضر نائل كفه والجو قد لبس الرداء الأغبر
قداح زند انجد ، لا ينفك من نار الوغى إلا إلى نار الثقرى
يختار أنت يهب الحريدة كاعبا ، والظرف أجرد ، والحسام مجورها »

وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر :

« شقيت سيفك أمة لم تمتد إلا اليهود ، وإن تسموا بربرا
أثمرت ربحك من رؤوس كراتهم لما رأيت النصف يعشق مشرا
وخضبت سيفك من دماء نحورهم لما عهدت الحسن يلبس أحرا . »

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمقدم ولا متأخر بمثله وهو قوله :

« السيف أفصح من «زياد» خطبة — في الحرب إن كانت — بمنك منبرا . »

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسناها ، وأمر له بحال وثياب ومركب ، وأمر أن يكتب في ديوان الشعراء
فكان كذلك ، ثم تعلق بالمعتد على الله — وهو إذ ذاك شاب — فلم تزل حاله معه تزيد وموات خدمته له تقوى

وما أغرب الأيام فيما قضت به ترينى بمدى عنك أنس من قرين
أهابك للحق الذى لك فى دمي وأرجوك للحب الذى لك فى قلبي

وتأكد إلى أن صار ابن عمار ألقى بالعمد من شعراته (١) ، وأدنى إليه من حبلى وريده. كان العميد لا يستغنى عنه ساعة من ليل ولا نهار ، ثم اتفق أن ولي العميد على الله شلب من قبل أبيه فاستوزر بن عمار هذا فى تلك الولاية وسلم إليه جميع أموره فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة ، وساءت السمعة عنهما ، فانقضى نظر المعتضد التفريق بينهما ونفى ابن عمار عن بلاده حسب ما تقدم الإيحاء إليه ، فلم يزل ابن عمار مقترباً فى أقاصى بلاد الأندلس إلى أن توفى المعتضد بالله ، فاستدعاه العميد وقربه أشد تقرب حتى كان يشاركه فيما لا يشاركه الرجل فيه أخاه ولا أباه . وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب ، وذلك أن العميد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه على ما كانت العادة جارية به إلا أنه فى تلك الليلة زاد فى التحنى به والبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم العميد عليه : « لتضعن رأسك معي على وساد واحد » فكان ذلك . قال ابن عمار : فهتف بى هاتف فى النوم يقول : « لانتترأ أيها المسكين إنه سيقنك ولو بعد حين » قال : « فانتبهت من نومي فرعاً وعلوذت ثم عدت » فهتف بى الهاتف على حالته الأولى فانتبهت ، ثم عدت فسمعت ثالثة فانتبهت فتجردت من أثوابي ، والتفت فى بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مستخفياً به ، وقد أزممت على أنى إذا أصبحت مستخفياً حتى آتى البحر فأركبه وأقصد بلاد العدو فأكون فى بعض جبال البربر حتى أموت ، فانتبه العميد فافتقدنى فلم يجدنى فأمر بطلي فطلب له فى نواحي القصر وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشعلة تحمل بين يديه ، وكان هو الذى وقع على فكانت منى حركة فأحس بى وقال : « ما هذا يتحرك فى هذا الحصر ؟ » ثم أسر به فنفض ، فخرجت عريانا ليس على الا سراويل . فلما رآنى فاضت عيناه دموعاً وقال : « يا أبا بكر ما الذى حملك على هذا ؟ » فلم أر بدا من أن صدقته ، فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها ، فضحك وقال : « يا أبا بكر ، أضناك أحلام هذه آثار الخمار » ثم قال لى « وكيف أتفك ، أرايت أحداً يقتل نفسه ؟ ما أنت إلا كنفسي » ففشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء ، وتناسى الأمر نفسه ، ومرت هلى ذلك الأيام والليالى إلى أن كان من أمره ما سياتى الإيحاء إليه ، فصدقت رؤيا ابن عمار وقتل العميد نفسه كما قال .

ولما أنفضى الأمر إلى العميد سأل ابن عمار ولاية شاب وهو كانت بلده ومنشأه كما تقدم ، فأجابه العميد إنى ذلك وولاه إياها أبنه ولاية جعل إليه جميع أمورها خارجها وداخلها ، فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق العميد إليه وضعف عن احتمال الصبر عنه ، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره ، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد ولم يزل العميد يعده لكل أمر جليل وبؤله لكل رتبة عالية ، وكان ابن عمار مع هذا لا يئط به أمر إلا اضطلع به ، وكان فيه كالتسكة المحلاة ، واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الأذنفش إذا ذكر عنده ابن عمار . قال هو رجل الجزيرة ، وكان ابن عمار هو الذى رده عن قصد اشبيلية وقرطبة وأعمالها ، وذلك أنه خرج فى جيوش ضخمة يقصد بلاد العميد طامعاً فيها ، فخافه الناس ، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه ، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه. فتولى ابن عمار رده بالطف حيلة وأمر تدير ، وذلك أنه قام سفرة شطرنج فى ضاية الإتيقان والإبداع لم يكن عند ملك مثلها ، جعل صورها من الأبنوس والعود الرطب والصندل ، وحلاها بالذهب ، وجعل أرضها ضاية فى الاتقان فخرج من عند العميد رسولا إلى الأذنفش فلقبه فى أول بلاد المسلمين فأعظم الأذنفش قدره وبالغ

(١) القص: بفتح أوله وتشديد ثانيه أراد به رأس الصدر وهو العظام التى تتلاقى فى وسط الصدر حيث ينبت الشعر.

وفى حسنات لوأمت ببعضها إلى الدهر لم يرفع لثابتة سربى

فى إكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة فى حوائجه فأظهر ابن عمار تلك السفرة فرآها بعض خواص الأذفنى فنقل خبرها إليه وكان العليج (الأذفنى) مولماً بالشرنج فلما لقي ابن عمار سأله «كيف أنت فى الشرنج؟» وكان ابن عمار فيه طبقة حالية فأخبره بمكانه منه، فقال له بلغنى أن عندك سفرة فى غاية الاتقان، قال ابن عمار نعم، فقال كيف السبيل إلى رؤيتها؟ فقال ابن عمار لترجانه قل له أنا ابتك بها على أن ألعب معك عليها، فإن غلبتني فهي لك، وإن غلبتك فلي حكمي، فقال له الأذفنى هلمها لننظر إليها، فأمر ابن عمار من جاء بها، فلما وضعت بين يدي العليج صلب وقال ماظنت أن اتقان الشرنج يبلغ إلى هذا الحد، ثم قال لابن عمار كيف قلت فأعاد عليه الكلام الأول، فقال له الأذفنى لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدري مامو، ولعله شيء لا يمكنني، فقال ابن عمار لا ألعب إلا على هذا الوجه وأمر بالسفرة فطويت وكشف ابن عمار سر ما أراد له لرجال وثق بهم من وجوه دولة الأذفنى وجعل لهم أموالاً عظيمة على أن يوازروه على أمره ففعلوه فتعلقت نفس العليج بالسفرة وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار فوئوا عليه، فقالوا له: «إن غلبته كان عندك سفرة ليس عند ملك مثلاً وإن غلبك فما حساه أن يحكمم وقبحوا عنده إظهار الملك المعجز عن شيء يطلب منه»، وقالوا إن طلب ابن عمار ما لم يمكن فنحن لك برده عن ذلك، ولم يزالوا به حتى أجاب، وأرسل إلى ابن عمار، فجاء ومعه السفرة، فقال له: «قد قبلت ما رسمته». فقال له ابن عمار: «فاجعل بيني وبينك شهوداً سيأهم له، فأمر الأذفنى بهم فحضروا وافتتحا يلعبان، وكان ابن عمار كما ذكرنا طبقة فى الأندلس لا يقوم له أحد فيها، فغلب الأذفنى غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين لم يكن للعليج فيها مطمئن. فلما حققت الغلبة. قال له ابن عمار: «هل صح أن يلى حكمي؟» قال «نعم» قال: «أن ترجع من هاهنا إلى بلادك» فأسود وجه العليج وقام وقعد وقال لحواصه «قد كنت أخاف من هذا حتى هو تنموه على في أمثال لهذا القول» وهم بالنكت والتماذى لوجهه. فقبحوا ذلك عليه وقالوا له: «كيف يحفل بك القدر وأنت ملك ملوك النصارى فى وقتك» فلم يزالوا به حتى سكن وقال: «لا أرجع حتى آخذ أثاوة طامين خلاف هذه السنة»، فقال ابن عمار «هذا كله لك» وجاءه بما أراد فرجع، وكف الله بأسه، ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن الساميين، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية، وقد امتثلت نفس المعتمد سروراً به، ثم إن المعتمد حدث له أمل فى التغلب على مرسية وأعمالها، وهى التى تعرف بتدمير، وكانت بيد أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر كان هو المتغلب عليها والمدير لأمرها، فجهز المعتمد جيوشاً عظيمة، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببني عبد العزيز بلنسية، فكان بها إلى أن مات رحمه الله، ولما تغلب ابن عمار على مرسية دار ملك بنى طاهر كما ذكرنا حديثه نفسه، وسؤل له سوء رأيه أن يسبق بأمره، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه، فلم يزل يصرف الحيلة فى ذلك إلى أن تم له بعضه، ودانت له مرسية وأعمالها، وطمع فى ملك بلنسية إلى أن قام عليه رجل من أهل مرسية، يقال له ابن رشيق كان أبوه من من هراء الجند بها، وكان ابن عمار قد خرج لبعض أمره فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه، وقامت معه العامة وبعض الجند، فجاء يركض حتى المدينة وقد غلقت أبوابها دونة فحاصروها بمن معه أياماً، فامتنت

وكم قد فرت يئنا إلى من صربية فلا غرو يوما أن تغفل من غربي

عليه ولم يقدر على دخولها ، فبقى حائراً لا يدري ما يصنع ولا أين يتوجه ، وقد كان بلغ المعتمد قيامه عليه وخلق يده من طاعته ، فلم ير إلا الهروب ملجأً فهرب حتى لحق ببني هود بسرقة فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته ، وبفضه في عيونهم ما فعل مع صاحبه وولى نعمته ، فأخرجوه عن بلادهم ولم تزل البلاد تتقاذفه وملوكها تشناه ، إلى أن وقع في حصن من حصون الأندلس في غاية المنعة يدعى شقورة ، كان المنقلب عليه رجلاً يقال له ابن مبارك فأكرم وفادته ، وأحسن نزله ، ثم بداله بعد أيام فقبض عليه وقيده وجعله في سجنه . فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال له لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكوني عندك ، ومرضني عليهم فما منهم إلا من يرغب فيّ ، فمن كان أشدهم رغبة جعل لك مالا ووجهت بي إليه ، ففعل ابن مبارك ذلك فما عرضه على أحد من ملوك الأندلس إلا رغب فيه ، وكتب فين كتب إلى المعتمد ، وفي ذلك يقول ابن عمار :

« أصبحت في السوق ينادي على رأسي بأنواع من المال

والله ما جار على ماله من ضمني بالثمن الغالي . »

وفي هذا السجن يقول ابن عمار وقد استدعي نورة يستنظف بها فتعذرت عليه فاستدعي موسى فأتي بها ، فقال في ذلك :

« بوسي شقورة عندي أريت على كل بوسي

فقدت هارون فيها فظلت أطلب موسى . »

وبعث المعتمد على الله من رجاله من تسلم ابن عمار من يد ابن مبارك بعد أن بعث إليه بمال وخيل ، وأمر المعتمد الذين تسلموا ابن عمار أن يزيدوا في الاحتياط عليه وتقيده ، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ، ووافق ذلك كون المعتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأ على بقل بين عدلى تبين وقيوده ظاهرة للناس ، وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصتهم وعامتهم حتى ينظروا إليه على تلك الحال ، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم ، فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام وغيرهم ، لا يصل إلى تقبيل ركبته أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع الوصول إليه ، فسبحان محيل الأحوال ، ومديل الدول ، فدخل ابن عمار قرطبة كما ذكرنا بعد العزة القساء ، والملك الشامخ ، والرياسة الفارعة ، ذليلاً ، خائفاً فقيراً ، لا يملك إلا ثوبه الذي عليه ، فسبحان من سلبه ما وهبه ، ومنعه ما كان به أتمه ، وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال : « لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس ، خرج فارس من البلد يركض يقصدنا ، فلما رآه ابن عمار وكان معتماً أزال العمامة عن رأسه ، فجاء الفارس حتى وصل إلينا ، فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا في الصف فمشى ، فسألناه فيم جاء فقال « الذي جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه » فعلمنا أنه أرسل ليزيل عمامته ، فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التي ذكرت يرسف في قيوده ، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه ، وابن عمار في ذلك كله . طرق الرأس لا ينبس إلى أن انقضى كلام المعتمد ، فكان من جواب ابن عمار أن قال : « ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا - أبقاه الله - ولو أنكرته لشهدت علىّ به الجملادات فضلاً عن ينطق ، ولكن عثرت فأقل ، وزلت فاصفح » فقال المعتمد : « هيهات إنها عثرة لا تنال » وأمر به فاحذر في النهر إلى إشبيلية فدخل به إشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة وجعل ، في غرفه على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك وهو باق إلى وقتنا

ولا بد ما بيني وبينك من ثنا يطبقها ما بين شرق إلى غرب

هذا فظال سجنه هناك . كتبت عنه في هذا السجن قصائد لو توصل بها إلى الدهر لنزع عن جوره ، أو إلى الفلك لكف من دوره ، فكانت رقي لم تنجح ، ودعوات لم تسمع ، وتمائم لم تنفع ، فنها قوله :

«سجايك إن عافيت - أندي وأسجج ، وعذرث إن عافيت - أجر وأوضح
ولان كان - بين الخطئين - مزية ، فأنت - إلى الأذن من الله - تنجح
حنانيك إن أخذى برأيك ، لا تطع عدائ ولو أنو عليك وأفصوا
فان رجائي أن عندك غير ما يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة يكران في ليل الخطايا فيصبح
وهي قد أعقت أعمال مفسد أما تفسد الأعمال تمت تصلح
أقلني بما بيني وبينك من رضى له - نحو روح الله - باب مفتح
وعف على آثار جرم سلكتها بهية رحى منك تمحو وتصح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم فكل إناء بالذي فيه يرشح
سيأتيك في أمرى حديث وقد أتى يزور بنى عبد العزيز موشح
وما ذاك إلا ما علمت فأنتي إذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
كانني بهم - لا در - لله درهم - أشاروا تجاهي بالشتمات وصرخوا
وقالوا : « سيجزيه فلان بفعله » فقلت : « وقد بعفو فلان و يصفح »
ألا إن بطشاً المؤيد يرتضى ولكن حلما للمؤيد يرجح
وماذا عسى الواشون أن يزيروا سوى أن ذنبى واضح متصح
نعم لى ذنب غير أن حلمه صفاة يزل الذنب عنها فيصفح
عليه سلام كيف دار به الهوى إلى فيدنوا أو على فينزع
ويهنه إن مت السلو فأنتي أموت ولى شوق إليه مبرح
وبين ضلوعي من هواه تيمة ستفقم لو أن الحمام يملج . »

ولما بلغت للمعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرته رجل من البغداديين ، فجعل يزرى على البيت وبين ضلوعي ويقول ما أراد بهذا المعنى ، فكان من جواب المعتمد رحمه الله أن قال : أما انى سلبه الله المروءة والوفاء ، لما أعدمه الفطنة والذكاء انما نظر الى بيت الهذلي من طرف خفي وهو -

« وإذا المنية أنشبت أظفارها الفيت كل تيمة لا تنفع . »

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد إلى أن قتله صبرا في شهور سنة ٤٧٩ وتلخيص خبر قتله أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التي تقدم لإنشادها ، فأدركت المعتمد بعض الرقة ، فوجه إليه ليلا وهو في بعض مجالس أنه فأتى به يرسف في قيوده ، فجعل المعتمد يعدد منته عليه ، وأياديه قبله ، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر غير أنه أخذ في البكاء ، وجعل يترقى للمعتمد ، ويسج عطفيه ، ويستجلب من الألفاظ كل ما يقدر أنه يزرع له الرأفة في قلب المعتمد فتم له بعض ما أراد من ذلك ، وعظفت المعتمد سابقته وقديم حرمته ، محبسه ، فكتب ابن عمار من فوره بما دار له المعتمد إلى ابنه الراضى بالله ، فوافاه الكتاب - وبحضرته قوم كانت بينهم وبين ابن عمار أحن قديمه - فلما قرأ الراضى الكتاب قل لهم : « ما أرى ابن عمار الا سيخلص » فقالوا له « ومن أين علم مولانا ذلك » فقال : « هذا كتاب ابن عمار يخبرني فيه أن مولانا المعتمد قد

ولاشك أن العفو منك سجيّة فلم يبق إلا أن تخفف من عتي .

(بجأوه المعتمد على الله)

« تقدم إلى ما عهدت عندي من الرحب ورد تلقك العتي حجاباً من العتب
متى تلقني تلق الذي قد بلوته صفوحاً عن الجاني رء وفا على الصحب
سأوليك منى ما عهدت من الرضى وأمرض عما كان إن كان من ذنب
فما أشعر الرحمن قاي قسوة ولا صار نسيان الأذمة من شمي
تكلفته أبني به لك سـلوة فليس يهاني الشعر مشترك اللب . »

(والمعتمد على الله إلى ذى الوزارتين أبي بكر)

« قد زارنا العرجس الذكيّ وقد عطشنا وم رى
ونحن في مجلس فدى وإن من يومنا العشي
ولى حبيب غداً سـدي يا ليتنه ساعد السـمي . »

(والمعتمد إلى الوزير أبي عمر بن غطمش)

« فديت أبا صمر من فدى متى يختبر فيبسه يحمّد
وداد صحيج ، وخلق مليح ونطق فصيح ، لدى المشهد
أتنتى البديهة تندى بديعا وأبدع ما في الرياض الندى
أزاهر : لم تنتشق بالأنو ف لطفاً ، ولا جنبت باليد
خجلت لشكواك في طيها فما كدت أسمع للمنشد
وقد فبرت لك تلك الرؤى ايشع طاو وىروى صدى
فهون عليك من النائبات إذا كان نصرى بالرصد
وكن مخبرى أننى سائل سؤال مدلّ على سـمد
بجاءك صفراء عند المنا م لسرى من الأفق الأبعد
فخيتك بالنفس العرجسى ولافتك باللبس السجدى
وعلتك بالريق لو أنه أبيع لذى الزهد لم يزهد . »

وصده بالخلاص « فأظهر القوم الفرح وهم يطنون غيره ، فلما قاموا من مجلس الرضى نفروا حديث
ابن عمار أقبح نشر ، وزادوا فيه زيادات قبيحة صنت هذا الكتاب عن ذكرها فبلغ المعتمد ذلك فأرسل
إلى ابن عمار ، وقال له : « هل أخبرت أحداً بما كان بيني وبينك البارحة » فأنكر ابن عمار كل
الأنكار ، فقال المعتمد للرسول « قل له الورقتان اللتان استدعيتهما كتبت في إحداهما القصيدة ، فما فعلت
بالأخرى ؟ » فادعى أنه بيض فيها القصيدة فقال المعتمد « هلم المسودة » فلم يعر جواباً ، فخرج المعتمد خفا
وبيده الطبرزين حتى صعد الفرقة التي فيها ابن عمار ، فلما رآه علم أنه قاتله ، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده
تثقله حتى انكب على قدمي المعتمد يقبلهما والمعتمد لا يثنيه شيء فعلاه بالطبرزين الذي في يده ولم يزل يضربه
به حتى برد ، ورجع المعتمد فأمر بنفسه وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك ، فهذا ما انتهى إلينا من
خبر ابن عمار ملخصاً حسب ما بقى على خاطري . « المعجب في تلخيص أخبار المغرب »

(وله رحمه الله)

« كتابي وعندي من فراقك ما عندي وفي خلدي ما فيه من لوعة الوجد
وما خطت الأقدام إلا وأدمي تخط كتاب الشوق في صفحة الحقد
ولولا طلاب المجد زرتك طيه عميدا كما زار الندى ورق الورد
قبلت ما تحت الثام من اللما وعانقت ما فوق الوشاح إلى العقد
أفائية عني وحاضرة ممي لئن غبت عن عيني فأينك في كبدى
أقبي على العهد الذي كان بيننا فأني على ما تعلمين من العهد . »
(ولوزير الكاتب أبي الوليد بن المعلم)

« أيدك الله إنه يوم تحجب فيه الصلاة والصوم
وتحفز الراح غير وانية لا عار في حفزها ولا لوم
فانشط إليه فانه أمل يبلغه في نديك القوم
لازلت مستيقظ السعود لنا وعك في أعين الردى نوم . »
(فأجابه أيداه الله)

« حمت بخفاقة الجناح وقد أمكن ورد فلا يطل حوم
وسمت في الطيب والسرور فني لم يزر يوما بطيه سوم
وهامو المجلس الممد لكم فادخل إليه وليدخل القوم
إلى كؤس لو شاء شاربها يعوم فيها لأمكن العوم . »
(فجأوبه رحمه الله)

« لييك لبيك من مناد له الندى الرحب والندى
ها أنا بالباب عبد قن قبلته وجهك السنى
شرفه والداه باسم شرفته أنت والذبي . »

(وقال)

« سلى تعلمي إن كنت غير عليمه بأن ليس في حبي لنيرك مطمع
وأن لى القلب الذى ليس خاليا من الوجد والجفن الذى ليس بهجع
بذكر نيك النعمن يهتز عند ما يهب نسيم ، والغزاة تطلع
فوالله لا أنفك أذكر موضعي لديك ولا أنفك نخوك أنزع . »

(وقال)

« ألكم إلى الصب الشجي ماد فتفك عنه للأسى أصفاد
رحل اصطبارى إذ رحلتم قائلأ أوب الأحيية يفتنا الميعاد
يا من نككت دنوهم ووصالهم فبدا على من الشوب حداد
كم بت منكم بين غصنى بانة كالسيف تضغط متنه الأغمداد . »

(وقال في معشوقة اسمها « اعتماد » تؤخذ حروف اسمها من أوائل هذه الأبيات .)

« أغاثية الشخص عن ناظري وحاضرة في صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجون ودمع الشجون وقدر السهاد
تملكت مني صعب المرام وصادفت ودتي سهل القباد
مرادى لفيك في كل حين فبالت أنى أعطى مرادى
أقيمي على المهد ما بيننا ولا تستحيلى لطول البعاد
دست اسك الحلو في طي شعري وألفت فيه حروف اعتماد . »

(وقال)

« قلبي موال لمعديه وعاشق من لا يباليه
خلى الظلوم كلما زدت مودة زاد تجنييه
يا غفر الله له ذنبه في ظلم صب هائم فيه
يا حسن الوجه بحق الهوى لا ترض قبح الهجر والنيه . »

(وقال)

إني رأيتك في المنام ضجعتي وكأن ساعدك الوثير وسادى
وكانما عاتقتني وشكوت ما أشكوه من وجدى وطول مهادى
وكاننى قبلت ثغرك والطللى والوجنين ونلت منك مرادى
وهواك لولا أن طيفك زائر في القب لى ما ذقت طعم رقاد . »

(وقال يستدعي الوزير المصرى الحكيم)

« أيها الصاحب الذى فارقت عيني ونفسي منه السنا والسنا،
نحن في المجلس الذى يهب الراحة والمسمع الذى والنقاء،
نتماطى التى تنسيك فى اللذذة والرقصة الهوى والهواء
فأنه تلف راحة ومحيا قد أعد لك الحيا والحياة . »

(وله)

« لما نأت نأى الكرى عن ناظري وصرفته لما انصرفت طليعه
طلب البشير بشارة يحزى بها فوهبت قلبي واعتذرت إليه . »

(وله)

« الجود أحلى على قلبي من الظفر ومن منال قهى السؤل والنوطر
ومن غناء أربوى فى الصبوح لما يا طلعة الشمس فى الآصال والبكر
وقد حننت إلى ما اعتدت من كرم حنين أرض إلى مستأخر المطر
وقد تنامت يدي عن كأسها غضبا ومجت الأذن أيضاً نعمة الوتر
حتى أملك هذى ما تجود به وأسمع الحد بالأخرى على الأثر
فهايتها خلعا أرضى السماح بها شغوفة فى أكف الشرب بالبدر . »

(وله)

« من الملوك بشأو الأصيد البطل هيات جاءتكم مهدية الدول
خطبت قرطبة الحسناء إذ منعت من جاء يخطبها بالبيض والأسل
وكم غدت عاطلا حتى مرضت لها فأصبحت في سرى الخلى والحلل
مرس الملوك لنا في قصرها مرس كل الملوك به في مأتم الوجل
فراقبوا عن قريب لا أبا لكم هجوم ليت بدرع البلس مشتل . »

(وله إلى المعتض بالله)

« مولاي إذا الأيادي كوا كفات النوادي
أنا عبيد ممدّ لحم داء الأعادي
واعتادت النفس مني تصيد الآساد
إني عليها مقبم لرائح أو لغاد
أكر بالضرب فيها والطنن عند الجلال
حتى أبحث حماها برهفات حداد
إن لم تكن أسد غبل تكن جاذر واد
بحق لحم وطى وكندة ومراد
ملكته من أرض حص إلى قرى سنداد . »

(وله رحمه الله)

« لظن بنا أم الريع سامة ألا غفر الرحمن ذنباً توقعه
أاسام ظبيا في ضلوعي كناسه وبدر تمام في فؤادي مطالعه
وروضة حسن أجنى من نمارها وبارد ظلم لم تكدر شرائعه
إذا سئت كنى نوالا تفيضه على معتقيها أو عدواً تقارعه . »

(وله)

« أمطلع زهر نجوم الكلام ومشرقة من خلال الحلك
أنا قريضك والهم حتى لدينا فأمسى به قد هلك
فهاك موارد ود صفت يملك فيها الذي أنهك . »

(وله)

« درا بعثت مفصلا بجمان أو روضة مسكية الريحان
لابل عروساً قد زفت تولدت ما بين فكرنا قد وبنان
سما لأمرك إذ دعوت إلى التي تدع القلوب قليلة الأحران
أما الكؤوس فقد جرت ما بيننا يبدى غزال ساحر الأجفان
خنت إسقيني للدمام بطرفه وبكفه ومتى أشأ غثاني
فلا لعرك لم أكن لأضيعه لا تحسبنا من بني سهوان . »

(وله)

« إن كان تصريدا غير تعدد فلا جعلن مكانه وردا
من قهوة ضمنت أكواسها نارا تكون على الحنا بردا . »

(وله)

« اشرب الكأس في وداد وودادك وتأنس بذكرها في انفرادك
قر غاب عن جفونك مرآة وسكناء في سواد فؤادك . »

(وله)

« حسدت كتابي على فوزه بإبصاره الغرة الزاهرة
فياليت شغفي يكون الكتاب فتلحظه القلة الساحرة . »

(وله في اعتماد أيضا)

« بكرت تلوم وفي الفؤاد بلابل سفها وهل يثنى الحليم الجاهل
يا هذه كني فاني عاشق من لا يرد هواي عنها عاذل
حب « اعتماد » في الجوانح ساكن لا القلب ضاق به ولا هو راحل
يا ظبيبة سلبت فؤاد محمد أو لم يروك الهزير الباسل
من شك أني هائم بك مغرم فعلى هواك له على دلائل
لون كسته صفرة ومدامع هطلت سحائبها وجسم ناحل . »

(وله في اعتماد أيضا)

« أدار النوى كم دار فيك تلددى وكم عفى عن دار أهيف أغيد
حلفت به لو قد تعرض دونه كحاة الأهادى في النسيج المررد
لجودت لضرب الهند فاقضى مرادى وعزما مثل حد الهند
فما حل خل من فؤاد خليله محل « اعتماد » من فؤاد محمد
ولكنها الأقدار تردى بلا ظبا وتسمى بلا قتل وترعى بلايد . »

(وله)

« مشمك أفوح في معطى ووجهك أملح في ناظري
ظفرت بقربك بعد امتناع فن ذاك سميت بالظافر . »

(وله)

« يأبها الشمس التي قلبي لها أحد البروج
لولاك لم أك مؤثرا فرش الحرير على السروج . »

(وله)

« أباح لطيفي طيفها في الكرى الحدا فعض به تقاحة واجتني وردا
والتمنى ثمرأ شملت نسيمه خفيل لي أنى شملت به ندا
ولو قدرت زارت على حال يقظه ولكن حجاب الين ما يفتنا مدا

أما وجدت عنا الشئون معرجا ولا وجدت منا خطوب النوى بدا
سقى الله دوب القطر أم عبيدة كما قد سقت قلبي على حره بردا
فى الظبي جبدأ ، والغزاة سنة وروض الربا فوحاء وغصن النقاقداء .
(وله)

« من عاشق يشكو صباياته إلى محب هائم مثله
كلاهما صب إلى الفسه حران ظمان إلى وصله
يا رب عجل جمع هذا بدا وقرب الشكل إلى شكله . »
(وله)

« بجلى لبعذك عنى غلبل فشوقى صحيح وجسى عليل
وودى على حسب ما تملين تزول الجبال وما إن يزول
فلا تستجلى لبعد الديار فانى مع البعد لا أستجلى . »
(وله)

« القلب قد لج فما يقصر والوجد قد جل فما يستقر
والدمع جار قطره وابل والجسم بال ثوبه أصفر
هذا ومن أعشفه واصل كيف به لو أنه يهجر
لكن عدتنى نائبات النوى فى دوحه والشادن الأهور
والكوكب الوقاد تحت الدجى فى أفقه والقمر الأزهر
والترجس الفواح غب الندى فى روضه والمندل الأذفر
قد خبرت عنى أنى امرؤ فى شحوب وضى يظهر
فأبدت الإشفاق من حالى ومثل ما تبديه ما تضر
واستفهمت أن كنت ذاعلة أو ذا اشتياق ناره تسمر
سيدتى لم تنصنى عاشقا أضحى كما أخبرك الخبر
إذ قلت : هل من ألم طائف ما بك أو شوق فما نصبر
ظلمت بالشك هواى الذى يعرفه النيب والحضر
والله ما سقى إلا هواى كل هواى فى جنبه يصغر
غير جسمى فاعلمى أنى أروم لقياك ولا أفرد
فاستغفرى الله من الظلم لى فإين من يظلم يستغفر . »
(وقال)

« يا ظليسة اظفت منى منازلها فالقلب منهن والأحداق والكبد (١)
حبى لك الناس طرا يشهدون به وأنت شاعدة إن يشتم حسد
لم يعزب الوصل فيما بيننا أبداً لو كنت واجدة مثل الذى أجد . »

(١) نسبت هذه الأبيات خطأ لابن زيدون انظر « ص ٢٢٣ » .

(وقال)

« هل راكب ذاهب عنهم يحيني إذ لا كتاب يوافيني فيحيني (١)
 قد متّ إلا ذمّاء في يسكك أت الفؤاد ببقياهم يرجيني
 ما سرح الدمع من عيني وأطلقه إلا اعتياد أسمى في القلب مسجون
 صبراً لعل الذي بالبعد أمرضني بالقرب يوما يداويني فيشـفيني
 كيف اضطباري وفي كانون فارقتي قلبي وما نحن في أعقاب تمرين
 شخص يذكرني فاه وغرته شمس النهار وأنفاس الرياحين
 لئن عطشت إلى ذاك الرضاب لكم قد بات منه يسقيني فيرويني
 وإن أفاض دموعي نوح باكية فكم أراه يغنيني فيشجيني
 وإن بعدت وأضنتي الهموم لقد عهدته وهو يدنيني فيسليني
 أو حل عقد عزائي نأيه فلكم حلت عن خصره عقد الثمانين
 يا حسن إشراق ساعات الدنويديت كواكبا في ليالي بعده الجوت
 والله ما فارقتني باختيارهم وإنما الدهر بالذكور يرميني
 وما تبدلت حبا غير حبيهم إذن تبدلت دين الكفر من ديني
 أهدى الحبيب الذي لو كان مقتدراً لكان بالنفس والأهلين يفديني
 يارب قرب - على خير - تلاقينا بالطالع السعد والظير الميامين . »

(وقال)

« ولما التقينا للوداع غـدية وقد خفقت في ساحة القصر رايات (٢)
 وقرنت الجرد العتاق وصفقت طبول ولاحت انفراق علامات
 بكينا دما حتى كأن عيوننا لجرى الدموع الحرف فيها جراحات
 وكنا نرجى الأوب بعد ثلاثة فكيف وقد كانت عليها زيادات »

(وقال)

« أهلا بكم محبتكم - نحوى - القديم وحن أن يقسني لي بكم حلم
 حشو المطى ولو لي - لا بمجهلة فلن تضلوا ومن بشرى لكم حلم
 لا تم القوم إن خطوا يمد قلم وأن يقولوا يصب فصل الخطاب فلم
 لا خرق - إن رقوا كتباً - ولا حصر إذ يفتدون ولا جور إذا حكموا
 أقدم أبا الأصعب المحبوب تلقى في هس المودة لا يزرى به سأم
 هذا فؤادي قد طار السرور به إذ كنت تنفك الوخادة الرسم
 سأكم الليل ما أشكوه من بعد وأسأل الصبح عنكم حين يتسم . »

- (١) وردت هذه القصيدة في « ص ٦١ » وقد نسبت خطأ لابن زيدون .
 (٢) وردت هذه القصيدة في « ص ١٠٩ » وقد نسبت خطأ لابن زيدون .

(وقال)

« الشمس تحجل من جمالك فتغيب بسرعة لذلك
والغيث يمحي أن يصوب لما يراه من نواك
والبدر يطلع ناقصاً حتى يتم من كمالك . »

(وقال)

« وشادن أسأله قهوة لجاد بالقهوة والورد (١)
فبت أسقى الراح من ريقه وأجتنى الورد من الخدم. »

(وله)

« يا هلالا إذا بدا لي تجملت عن فؤادي دجنة الكربان
وغزالا لقلتيه بقلي فتكات كأنها فتكاتي
تهت إذ حزت بالوصال وبالهجر حياتي تملكا ومماتي
تفرق بموقف أنت منه في سواد القلوب والحدقات
أنا أخشى عليك يا ساكن القلوب المملئ بالصد من نفرات »

(وله)

« أنا في عذاب من فراقك سكران من خمر اشتياقك
صبب الفؤاد إلى لقائك وارثاقتك واعتناقك
لا تمحبي أنى سلوت لما توالى من فراقك
هذى جفوني أنست لا تلتقي ما لم تلاقك
فصلى جميل الظن بي وثقي قلبي في وثاقتك . »

(وقال)

« وشمعة تنق ظلام الدجى نفي للعادم عن الناس
قد جعل الرحمن من لطفه حياتها في القطع للراس
ساعدها والكأس يسي بها من ريقه أشهى من الكأس
ضياؤها لاشك من وجهه وحرها من حر أنفاسي »

(وله)

« يا بدیع الحسن والإحسان يا بدر الدياجي
يا غزالا صاد منى بالطلى ليث الهياج
قد غنينا بسنا وجهك عن ضوء السراج »

(وله)

« تم له الحسن بالعدار واقترن الليل بالنهار
أخضر في أبيض تبتدي ذلك آسى وذا بهارى »

فقد حوى مجلسى تماماً إن يك من ريقه عقارى .
(وله)

« لله در أبي السنان من فارس شهم الجنان
تختاه آساد الرجا ل كما تريم به انقيات
فيأسه يشفى العدا ويحسبه يصي الحسان .
(وله)

« يقاتل باللحظ محبوبنا وبالسيف والرمح أمضى قتال
فطورا يصيد ظباء النساء وطورا يصيد أسود الرجال .
(وله)

« إذا ما اقتضت الوغى دارعا وقتعت وجهك بالمفسر
حسبنا شياك شمس الضحى عليها سحاب من العنبر .
(وله)

« يا قرا قلبي له مطلع وشادنا في مهجتي يرتع
والله ما أطع في العيش مذ أصبحت في وصاك لأطع
ليت كما يرتع في مهجتي أنى في ريقته أكرم .
(وله)

« وأغن يلعب بالهدوم كما غدت أرماح قومي بالعداء لواعبا
ذى نعمة يسبي العقول بها رشا من عند رضوان أنا هاربا .
(وله)

« مجن حكى صانموه السما لتفصر عنه طوال الرماح
وصاغوا مثال الثريا عليه كواكب تقضى لنا بالنجاح
وتردات أطواقه بالنجوم كما لبس الأفق توب الصباح .
(وله)

« أيا نفس لا تجزعي وأصبري فإن الهوى ما به منصف
حبيب جفاك وقلب عصاك ولاح لحاك ولا ملطف
شجون تمنع الجفون الكرى وعوضنها أدمعا تنزف .
(وله)

« أبصرت طرفك عند مشجر القنا فبدا لطرفي أنه فلك
أو ليس وجهك فوقه قمرأ يحلى بنير نوره الحلك .
(وله)

« فتكت مقلتنا بالقلب منى وبكت مقلتناى شوقاً إليه

فكفي لحظة لنا سيف عبا د ودمي له سحاب بديه .

(وله)

« يا قمرأ أنقه فؤادى مقالة لم تشب بايك
ومن غدا مسترق حرالكلام قد حازه بملك
نرت در انريض نرا يقوم ذهنى له بملك
فكك لله در ذهن يخرج درا من بحر فك
وجاء الطير مودعات سرك يا سركل ملك
بيتان دلا على و داد محضته لى بدير شك . »

(وله)

« بعثت بالمرسل انبساطاً منى على خلقك الجليل
نوراً حقيراً ففيه بأتى فضلك فى المذر والقبول
لو أنه مهجى لكنت تصغر فى قدرك الجليل . »

(وله)

« ترفقاً يا أبا يحيى ومن ظفرت كفى به فدعاني فضله الظافر
إن حال ما بيننا وريحنا الناظر فناظر القلب حقا نعوكم ناظر
أحمى مكانك من قلبى وأمنعه كما حى الحاجب الإسلام بالباتر . »

(وله)

« آخلفتى وعدك لى ومخلفاً أههدكا
فعد بأن تهجرنى واجر على عادتك . »

(وله)

« وردت أبا الفتح ياسيدى ورود الكرى بعد طول السهان
ولما احتملت بنا لم تحل من العين والقلب غير السواد
ودونك منا طيوراً فدت تطير إليك بريح الوداد . »

(وله)

« أبا الوليد تجاوز وهب لنا التنفيسا
واقبل جواباً على قطبك الصحيح مريضاً
زفت نحوى هروساً تجتاب روضاً أريضاً
جلوتها فى سواد تجلو المعانى بيضا
وقد منحتك نزرأ لا حقك المروضا
وسوف أرفه جهدى من قدرك المحفوضا . »

(وله إلى أبيه رحمه الله)

« يا متبع الإكرام أنعاما ومتبع الإنعام إتماما
وعادلا في الناس لكنه أصبح للأموال ظلاما
قرنت في كفك بحر الندى بصارم أسكنته الهاما
وجعت فيك خصال الورى وحزت آراء وإقداما
فالموت والعيش بيننا قد صرفن أسيافا وأقلاما
أثقلت بالإنعام ظهري ، فقد ألحمت عن شكر إخطاما
سفتك إفضالا دمي كي ترى تزيد في عمرك أعواما
فأسلم لاهراق دماء العدا ما طرد الإصباح لإظلاما . »

(وله إليه يطلب مجنا)

« أيا ماجدا لم يرم شائخاً من المجد فاحتل غير الفن
سألتك صفراء بكراً فجاء على بها شافماً للسنن
ترد السنن إذا أمها شبا حده من قويم السنن
وإن كنت من معشر في الوغى أقاموا القلوب مقام الجن . »

(وله إليه يطلب جوادا)

« ألا يا غرة السعد وقرّة نظر الحسد
ومولاي الذي ما زل يسحب حلة الحمد
لعبدك همه هامت بركض الضمر الجرد
ويرغب ضارعا منها إلى عليك في الورد
وإن قبضه من عبد تمنّ به على عبد . »

(فبعث إليه مرسجا فكتب إليه)

« خلعت ثوب الصنيّ على العبيد الوفيّ
يا مسترقا بنما . كل حر سريّ
أنى على الورد سرج كالمدي فوق الهدى
فسوف أورد رضى عليه قلب الكمي . »

(وله إليه)

« يا أيها الملك الذي كفاه بجلت السحاب
ألعت بالبيض الكها ب على والحيل العرب
وغدوت تخشى لاعتما ب كما ترجى للشواب
برضاك أبصر نائي ال آمال منى إذا اقترب
وبطيب أيامي لديك عرفت أيام الشباب
فشكرت ما أو ليثنيـه من أياديك العذاب
بشبا سناني في الظما ن وحديني في الضراب

وشبا اسانى فى المها قل بالتمتر لا يشاب
لازلت تنتمل النجو م وخذتلك فى الغراب»
(وله إليه)

« يا أيها الملك الذى لم يزل يسرى إلى غرته السارى
وجامعا فى كفه بالنسدى والبأس بين الماء والنار
اهناً فقد نلت الذى تشتهى نفسك واشكر نعم البارى . »
(وله إليه يطلب الإذن بالصيد)

« امتنع على عبد رجاك بساعة يرتاح فيها باصطياد أرباب
حتى يصيد بسعدك الأبطال فى يوم الوغى بأسنة وقواضب . »
(وله إليه)

« وساعة للزمان مسمفة قنصت فيها أربابنا وحبل
فلا أرانى إلا له منك رضى إن لم أصدمن عداك كل بطل . »
(وله إليه)

« أوجه البدر يشرق فى الظلام وسـتر الله مد على الأنام
وليث العاب إقداما وبأسا ورب الفضل والنعم الجسام
عبيدك مولع بالصيد قدما وحب الصيد من شيم الكرام
فاذنك فيه واسلم للأعداى تدير عليهم كأس الحمام . »
(وله إليه)

« أيا ملكا عني فضله ولم ألف فى بحر نعماء زجرا
عهدت البحار لجزر ومدت وتأنى بحار أياديك جزرا
دعونا الأمانى لما رضيت فجاءت توالى علينا وتترى
فلم يبق لى أمل أرغبه سرى أن أقوم بنعماءك شكرا
بقيت ولا ملك إلا غدا غدا ملك كفك قهراً وقسرا

(وقال)

أمعتض—دأ بالله دعوة آمل رجاك—على بعد— فأصبح ذاقرب
فأمم مأمولا وأم مبما وحامت أمانيه على مورد عذب
موارد ما حلان عنهن حائما ولا غادرته غير مستعذب الشرب
وما أنا ظمان لمنهل وردكم وحسبى موقوف على وردكم حسبي
أفربالذى أملت—مذ كنت آملا—وتحتل من علياء فى المنزل الرحب
فجئت أغذ السير حتى كئانى لإفراط إغذاذى على ظهر النجب
فألقيت أعلى الناس قدرا وسوددا وعدلا فدنه النفس صدقا بلا كذب
يحن لى راجيه كالواقى الصب ويهتر للمعروف كالصارم العضب
ولانى لما تولى وأوليت شاكر فن شكر النعماء نال رضى الرب . »

وقال (١)

« لما تماسكت الدموع وتنهنه القلب الصديق
قالوا الخضوع سياسة فليد منك لهم خضوع
والد من طعم الخضوع ع على في السم النقيع
إن تستلب عنى الدنيا ملكي وتسلمني الجوع

(١) جاء في كتاب المراكشي قبل هذه الأبيات الرائعة مايلي :

قال يوسف بن تاشفين لبعض ثقافته من وجوه أصحابه : « كنت أظن أنى ملكت شيئاً ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت - في عيني - مملكتي ، فكيف الحيلة في تحصيلها ؟ » فاتفق رأيهم ورأى أصحابه على أن يرأسوا المعتمد يستأذنونهم في رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ، ومجاهدة العدو والكون ببعض الحصون المصاوبة للروم إلى أن يموتوا ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتمد بذلك ، فأذن لهم بعد أن وافق على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب الثغور ، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة في بلادها ، فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو إظهار لمملكتهم وجدوا في كل بلد أعواناً ، وقد كانت قلوب أهل الأندلس كما ذكرنا قد أشربت حب يوسف وأصحابه ، فلهذا يوسف من خيار أصحابه رجالاً انتخبهم ، وأمر عليهم رجالاً من قرابته يسمى « بلجين » وأمر إلى ما أراد ، فجاز بلجين المذكور وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة ، فقال : « أين تأمرني بالكون ؟ » فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه ، وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد ، وكان مبدؤها في شوال من سنة ٤٨٣ . بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العدو دون مقدمة ظاهرة توجب ذلك ، فتشعبت جموعه وأهواؤها ملتزمة ، وانتشرت بلاده وقلوب أهلها على محبته منتظمة ، ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المؤمنين انتشر ذلك في الأندلس ، وزحف القوم - الذين قدمنا ذكرهم - الكائنون في الحصون إلى قرطبة لحاصروها وفيها عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون ، وقد تقدم ذكره ، وهو من أكبر ولده ، فدخلوا البلد وقتل عباد هذا بعد أن أبلى عذراً ، وأظهر في الدفاع عن نفسه جلدًا وصبراً ، وذلك في مستهل صفر الكائن في سنة ٤٨٤ . فزادت الإحنة والخنة ، واستمرت في غلوائها الفتنة . واجمعت على الثورة بحضرة اشبيلية طائفة ، فأعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكورة وكشف له عن مرادها ، وأثبت عنده سوء اعتقادها ، وأغرى بتمزيق أديعها ، وسفك دمها ، وحض على هتك حريمها ، وكشف حرمة ما ، فأبى له ذلك مجده الأصيل ، ورأيه الأصيل ، ومذهبه الجليل ، وما حباه الله من حسن اليقين ، وصحة العقل والدين ، إلى أن أمكنتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة فقاموا بجيش غير مستنصر ، واستنصروا بغنائم غير مستنصر ، فبرز هو من قصره ، سيفه بيديه ، وغلالته ترف على جسده لادرقة له ولا درع عليه ، فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى باب الفرج فارساً من الداخلين مشهور النجدة شاكى السلاح ، فرماه الفارس برمح قصير أناب القناة ، طويل شفرة السنان ، فالتوى الرمح بفلالته وخرج تحت لإبطه ، وعصمه الله منه ودفعه بفضلته عنه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه إلى أضلاعه ، فخر صريعاً ، وانهمزت تلك الجموع ، ونزل المتسمنون للأسوار منها ، وظن أهل اشبيلية أن الخناق قد تنفس ، فلما كان عصر ذلك اليوم ، عاودهم القوم ، فظهر على البلد من واديه ،

فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا ع أيسلب الشرف الرفيع ؟
قد رمت يوم نزالهم إلا تحصني الدروع
وبرزت ليس سوى القميد حص عن الحشى شىء مدفوع
وبذلك نفسى كي تسير بل إذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن بهوى ذلى والخشوع
ما سرت قط إلى الفتا ل وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع .»

ويش من سكنى نادية ، وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه ، وشبت النار في شوانيه ، فانقطع عندهما العمل والقول ، وذهبت القوة من أيدي أهلها والحول ، وكان الذى ظهر عليها من جهة البر رجل من أصحاب يوسف أمير المسلمين والتوت الخال أياما يسيره إلى أن ورد الأمير سير ابن أبي بكر بن تاشفين وهو ابن أخى أمير المسلمين بمساكره متظاهرة ، وحشود من الرعية وافرة ، والناس في خلال هذه الأيام قد خاسرهم الجرع ، وخالط قلوبهم الهلع ، يقطعون السبل سياحة ، ويعبرون النهر سباحة ، ويتوهلون بجارى الأقدار ، ويترامون من شرفات الأسوار : حرصاً على الحياة والموفون بالعهد ، المقيمون على صريح الود ، ثابتون إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين خلت من رجب من السنة المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظيمة والطامة الكبرى فيه حم الأمر الواقع ، واتسع الحرق على الراقع ، ودخل البلد من واديه ، وأصاب حاضره وباده ، بعد أن جد الفريقان في القتال ، واجتهدت الفئتان في النزال ، وظهر من دفاع المعتد - رحمه الله - وبأسه ، وتراميه على الموت بنفسه ، مالا مزيد عليه ، ولا تناء لخلق إليه ، وفي ذلك بقول المعتد بعد ما نزل بالعدوة أسيراً حسيراً :

« لما تماسكت الضلوع وتنهنه القلب الصديم » . . . الخ

فشنت الفارة في البلد ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبباً ولا لبداً ، وانتهت قصور المعتد نهياً قبيحاً ، وأخذ هو قبضاً باليد ، وأجبر على مخاطبة ابنه المعتد بالله والراضى بالله ، وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة لو شاء أن يمتنعا بهما لم يصل أحد إليهما . أحد الحصنين يسمى رندة ، والآخر مارتلة ، فكتب رحمه الله ، وكتبت السيدة الكبرى أمهما مستعطفين مسترحين معلمين أن دم السكل منهم مسترهن بثبوتها فانقا من الدل وأبيا وضع يديهما في يد أحد من الناس بعد أبيهما ، ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا في حقوق أبيهما للفرقة بحق الله عز وجل ، فتمسك كل منهما بدينه ، وبند دنياه ، ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ومواثيق حكمة . فأما المعتد بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه وأما الراضى بالله فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفى جسده ، ورحل المعتد وآله بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصحب من ذلك كله بلغة زاد ، فركب بالسفين ، وحل بالعدوة محل الدفين ، فكان نزوله من العدوة بطنجة .

(وقال)

« قل لمن قد جمع العلم - وهو أحصى صوابه (١) »

(١) قال المراكشي في كتاب المعجب :

« أقام المعتد بطنجة أياماً ، ولقيه بها المصري الشاعر ، فجزى معه على سوء عاداته من قبح الكدية وإفراط الالحاف ، فرفع إليه أشعاراً قديمة كان قد مدحه بها ، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله إليه ولم يكن عند المعتد في ذلك اليوم مما زود به فيما بلغنى أكثر من ستة وثلاثين مثقالاً فطبع عليها ، وكتب معها بقطعة شعر يعتنق من قلتها سقطت من حقطي ووجه بها إليه فلم يجاوبه عن القطعة على سهولة الشعر على خاطره وخفته عليه كان هذا الرجل أعنى المصري الأعمى أسرع الناس في الشعر خاطراً إلا أنه كان قليل الجيد منه ، فحرره المعتد على الله على الجواب بقطعة أولها : قل لمن قد جمع الخ »

وأقام المعتد بطنجة رحمه الله أياماً على الحال التي تقدم ذكرها ، ثم انتقل إلى مدينة مكناسة ، فأقام بها أشهراً إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة انغات ، فأقاموا بها إلى أن توفي المعتد رحمه الله ودفن بها بقبره معروف هناك ، وكانت وفاته في شهر سنة ٨٧٧ وقيل سنة ٨ فالفه أعلم ، توفي وسنه إحدى وخمسون سنة ، فن أحسن ما ربي مما رثي به المعتد على الله مقطوعة من شعر ابن اللبابة أولها :

« لكل شيء - من الأشياء - ميعات ، وللمنى - من منايان - غايات
والدهر في صبغة الحرباء منغمس ألوان حالاته فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج في يده وربما قرت بالبيدق البشة
فانفض يدك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الأرضى قد كتمت مريرة العالم العلوى « انغات »
طوت مظللتها لابل مسدلتها من لم تزل فوقه للعررايات
من كان بين الندى والبأس أنصه هندية وعطايه هنيئات
أنصكرت إلا التواء للقيود به وكيف تنكر في الروضات حبات
وقلت هن ذوايات فلم عكست من رأسه نحو رجليه الذوايات
رأوه ليشاً غافوا منه عادية هذرهم فاعدوى الليث عادات. »

وله من قصيدة يرثيهم بها وهي كثيرة الجيد أولها :

« مريسة دخلتها النائبات على أساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تغررها فالיום لا عاكف فيها ولا باد
تلك الزماح رماح الخط نفعها خطب الزمان ثقافاً غير معتاد
والبيض بيض الطبا فلت مضاربها أيدي الردى وثقتها دون إغمار
لما دنا الوقت لم تخلف له عدة وكل شيء لميقات وميعاد
كم من درارى سعد قدهوت وورعت هناك من درر للمجد افراد
نور ونور فهذا بعد نعمته ذوى وذاك خبا من بعد إيقاد
يا نيف اقفر بيت المكرمات لخذ في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد

كان في الصرة شعر فتنظرنا جوابه
قد أثبتناك فهلا جلب الشعر ثوابه .»

ويا مؤمل واديهم ليسكنه خف القطين، وجف الزرع بالوادي
ضلت سبيل الندي بابن السبيل، فسر لغير قصد، فما يهديك من هاد .»

وفيها يقول :

« نسيت - الاغداة النهر - كونهم في المنشآت كأموات بألحاد
والناس قد ملثوا العبرين، واعتبروا من أولئ طافيات فوق أرباد
حط القناع، فلم تستر مخدرة ومزقت أوجه تمزيق أبراد
تفرقوا جيرة، من بعد ما نشأوا أهلاً بأهل، وأولاداً بأولاد
حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مفداة ومن فاد
سارت سفائنهم - والنوح يتبعها - كأنها إبل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع، وكم حملت تلك القطائع من قطعات أكباد
من لي بكم - يا بني ماء السماء - إذا ماء السماء أبى سقيا حشا الصادي .»

وهي طويلة جداً هذا ما اخترت له منها .

« ولما اتصل بزعانة الشمراء وملحن أهل الكديه ماصنع المعتد رحمه الله مع الحصري فمرضوا له بكل طريق، وقصدوه من كل فج عميق، فقال في ذلك رحمه الله .

« شعراء طنجة كلهم والمغرب، ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب
سألوا العسير - من الأسير - وإنه بسؤالهم لأحق، فأعجب وأعجب
لولا الحياء وعزة الخبيسة - طي الحشا - ساواهم في المطلب
قد كان - إن سئل الندي - بجزل، وإن نادى الصريح يباه أركب بركب»

وله في هذا المعنى رحمه الله :

« قبح الدهر، فإذا صرنا كلما أعطى نفيساً نرماً
قد هوى - ظلماً - بمن عادته أن ينادي كل من يهوى لما
من إذا الفيت هي منهراً أخجلتها كفه فاقطعها
من ضمام الجود من راحته صفت ربح به فانتشما
من إذا قيل الخناصم وإن نطق العافون همسا سسما
قل لمن يطعم في ناء - له قد أزال اليأس ذاك الطعما
راح لا يملك إلا دعوة جبر الله العفاة الضيما .»

معارضات الشعراء لابن زيدون^(١)

سرّكم الوصل ظنّاً لا قدّتكم
فكان بالوهم موجوداً ومظنوناً
سرى من المسك عن مسراكم خبر
بُعَيْدَ عهد هواكم سَيْرُهُ فينا
أيّام بدركم يحلو ليالينا
نوراً وطيبكم يرعى بوادينا
مهلاً فلم نعتقد دين الهوى تبعاً
ولا قرأنا بصحف المس تلقينا
قد نصرف العدل يغويننا ويرشدنا
ونترك الدار تسلينا وتشجينا
وتتبع الحى والأشواق محرقة
تحوم بالماء والأرحام تحميننا
كواكب بسماء النعم قد جعلت
لنا رجوماً وما كنا شياطينا

معارضات أمير الشعراء

اندلسية

« نظم أمير الشعراء هذه القصيدة الرائعة وهو في منفاه بإسبانيا وفيها يحن للوطن العزيز ويصف كثيراً من مشاهدته ومعاهده .

« أولع كثير من الشعراء من قداماء ومحدثين بمعارضات ابن زيدون ، ولو أردنا أن نثبت معارضاتهم الكثيرة لقصائده المشهورة لاحتجنا إلى سفر ضخم فلنجزئ بقصيدة « أبو بكر بن الملح » التي ذكرها « ابن بسام » في كتاب الذخيرة من القدماء ، وقصائد أمير الشعراء أحمد شوقي بك التي عارض بها ابن زيدون . »

معارضة أبي بكر

قال ابن بسام بعد أن ذكر نونية ابن زيدون التي أولها :
« أخشى التناقى بديلاً من تدالينا » (٢)
« وهذه القصيدة بجملتها فريدة ، وقد عارضه فيها جماعة قصرُوا عنه منهم « أبو بكر بن الملح » نازعه فيها الراية ، فقصر عن الغاية حيث يقول من قصيدة أولها . »

هل يسمع أربع شكوانا فيشكينا
أو يرجع القول مغناه فيغنينا
ثم استمرّ في غزلها إلى أن قال :
يا باخلين علينا أن نودعكم
وقد بعدتم عن اللقيا فحيونا
قفوا نزرّكم وإن كانت فرائدكم
نزرّاً ، ومنّكم بالوصل ممنونا

(١) انظر « ص ٤١٢ » (٢) انظر « ص ٤ »

يَانَاثُم «الطلح» أشباه عوادينا
 نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
 ماذا تقص علينا غير أن يداً
 قصت جناحك جالت في حواشينا !
 رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا
 أخا الغريب : وظلاً غير نادينا
 كل رمته النوى ! ريش الفراق لنا
 سهماً ، وسلّ عليك الين سكيننا
 إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدة
 من الجناحين عى لا يلبينا
 فإن يك الجنس - يابن الطلح - فرقنا
 إن المصائب يجتمعن المصائبنا
 لم تال ماءك تحننا ولا ظمأ
 ولا آدّ كاراً ، ولا شجواً أفانينا
 تجرّ من فن ساقاً إلى فن
 وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا
 أساة جسمك شتى حين تطلبهم
 فمن لروحك بالنطس المداوينا !
 *
 آهّا لنا ! نازحى أيك بأندلس
 وإن حالنا ريفنا من رواينا
 رسم وقفنا على رسم الوفاء له
 نجيش بالدمع ، والإجلال يثنينا

لفتية لا تنال الأرض أدمعهم
 ولا مفارقهم إلا مصلينا
 لو لم يسودوا بدين فيه منبهة
 للناس ، كانت لهم أخلاقهم ديننا
 لم نسر من حرم إلا إلى حرم
 كالخمر من «بابل» سارت «لدارينا»
 لما بنا الخلد نابت عنه نسخته
 ثمائل الورد «خيرياً» و «نسرينا»
 نسقى ثراهم ثناء ، كلما نثرت
 دموعنا نظمت منها مرائينا
 كادت عيون قوافينا تحركه
 وكدن يوقظن في الترب السلاطينا
 لكن مصر وإن أغضت على مقه
 عين من الخلد بالكافور تسقينا
 على جوانبها رفّت تماثنا
 وحول حافاتها قامت رواقينا
 ملاعب مرحت فيها مآربنا
 وأربع أنست فيها أمانينا
 ومطلع لسعود من أواخرنا
 ومغرب لجدود من أوالينا
 بنا فلم نخل من روح يراوحنا
 من برّ مصر وريحان يغاديننا
 كأثم موسى ، على أسم الله تكفلنا
 وبأسمه ذهبت في اليم تلقينا

ومصر كالكرم ذى الإحسان : فأكهة

لحاضرين ، وأكواب لبادينا

يا سارى البرق يرمى عن جوانحننا

بعد الهدوء ويهيمى عن مآقينا

لما ترقرق فى دمع السماء دماً

هاج البكا فخصبنا الارض باكينا

الليل يشهد لم تهتك دياجيه

على نيام ولم تهتف بسالينا

والنجم لم يرنا إلا على قدم

قيام ليل الهوى للعهد راعينا

كزفرة فى سماء الليل حائرة

مما تردد فيه حين يضوينا

بالله إن جبت ظلماء العباب على

نجايب النور محدواً (بجزينا)

ترد عنك يداه كل عادية

إنسا يعثن فساداً أو شياطينا

حتى حوتك سماء النيل عالية

على الغيوث وإن كانت ميامينا

واحرزتك شفوف اللازورد على

وشى الزبرجد من أفواف واديننا

وحازك الريف أرجاء مورجة

ربت خمائل ، وأهتزت بساتينا

قفق إلى النيل واهتف فى خمائله

وانزل كما نزل الطل الرياحينا

وأس ما بات يذوى من مذارلنا

بالحادثات ويضوى من مغانينا

ويامعطرة الوادى سرت سحراً

فطاب كل طروح من مرامينا

ذكية الذيل لو خلنا غلاتها

قيص يوسف لم نحسب مغالينا

جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا

بالورد كتباً ، وبالريا عناويننا

فلو جزييناك بالأرواح غالية

عن طيب مسراك لم تهض جوازينا

هل من ذيولك مسكى نحملة

غرائب الشوق وشيا من أمالينا

إلى الذين وجدنا ود غيرهم

دنيا وودهمو الصافى هو الديننا

يا من نغار عليهم من ضمائرنا

ومن مصون هواهم فى تناجينا

ناب الحنين إليكم - فى خواطرنا -

عن الدلال عليكم فى أمانينا

جئنا إلى الصبر ندعوه كهادتنا

- فى الدائبات - فلم يأخذ بأيدينا

والسعد لودام، والنعمى لو أطردت،
والسيل لو عف، والمقدار لو دينا
ألقى على الأرض حتى ردها ذهباً
ماء - لمسنا به إلا كبير - أوطينا
أعداد من يمنه «التابوت» وارتسمت
- على جوانبه - الأنوار من سينا
له مبالغ ما فى الخلق من كرم
عهد الكرام وميثاق الوفيين
لم يجر للدهر إغدار ولا عرس
إلا بأيماننا أو فى ليالينا
ولا حوى السعد أطفى فى أعنته
منا جياداً ، ولا أرخى مياديننا
نحن اليواقيت خاض النار جوهرنا
ولم يهن بيد المتشتيت غالينا
ولا يحول لنا صيغٌ ولا خلق
إذا تلوت كالحرباء شانينا
لم تنزل الشمس ميزاناً ولا صعدت
فى مدكها الضخم عرشاً مثل واديننا
ألم تؤله على حافاته ، ورأت
عليه آبناءها الغر الميامينا ؟
إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبسا
خائل السندس الموشية الغينا
وبات كل محاج الواد من شجر
لواظف القرز بالخيطان ترمينا

وما غلبنا على دمع ولا جلد
حتى أتننا نواكم من صياصينا
ونابغى كأن الحشر آخره
تميتنا فيه ذكراكم وتحيينا
نطوى دجاء بجرح من فراقكمو
بكاد - فى غلس الأسحار - يطوينا
إذا رسا النجم لم ترقاً محاجرنا
حتى يزول ، ولم تهدأ تراقينا
بتنا تقاسى الدواهى من كواكبه
حتى قمعدنا بها : حسرى تقاسينا
يبدو النهار فيخفيه تجلدنا
للشامتين ، ويأسوه تأسيننا
سقى العهد - كأكناف الربى - رقة
أنى ذهبنا ، وأعطاف الصبا لينا
إذ الزمان بنا غيناء زاهية
ترف أوقاتنا فيها رياحيننا
الوصل صافية ، والعيش ناغية
والسعد حاشية ، والدهر ماشينا
والشمس تختال فى العقيان تحسبها
« بلقيس » ترفل فى وشى اليمانينا
والنيل يقبل كالدينيا إذا احتفلت
لو كان فيها وفاء للمصافينا

وهذه الأرض من سهل ومن جبل
 قبل (القيصر) دِنَاهَا (فراعينا)
 ولم يضع حجراً بان على حجر
 في الأرض إلا على آثار بانينا
 كأن أهرام مصر حائط نهضت
 به يد الدهر لا بنيان فانيها
 إيوانه الفخم من عليا مقاصره
 يغنى الملوك ولا يبقى الأواوين
 كأنها ورمالاً حولها التظمت
 سفينة غرقت إلا أساطينا
 كأنها تحت لألاء الضحى ذهباً

كنوز (فرعون) غطين الموازين
 *
 أرض الأبوة والميلاد ، طيها
 مر الصبا في ذبول من تصاينا
 كانت محجلة فيها موافقنا
 غرا مسلسلة المجرى قوافينا
 فآب - من كُرّة الأيام - لاعبنا ،
 وثاب - من سنة لأحلام - لاهينا
 ولم ندع لليالى صافياً ، فدعت

« بأن نغص قتال الدهر : آمينا »
 لو استطمنا : لخضنا الجوّ صائقة
 والبر نار وغى ، والبحر غسلينا

سعيها إلى مصر تقضى حق ذا كرنا
 فيها إذا نسي الوافي وبأ كينا
 كثر (بحلوان) عند الله نطلبه
 خير الودع من خير المؤدينا
 لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا
 لم يأت الشوق إلا من نواحيننا
 إذا حملنا لمصر أوله شجنًا
 لم ندر أى هوى الأمين شاجينا

زحلة

« وقال معارضاً قصيدة ابن زيدون القى أولها :
 « ما للدمام تديرها عينك »

شيعت أحلامي بقلب باك
 « ولحمت من طرق الملاح شباكي
 ورجعت أدراج الشباب وورده
 أمشي مكانهما على الأشواك
 وبجانبى واه كأن خوفه
 لما تلفت جهشة المتباكى
 شاكي السلاح إذا خلا بضاعه
 فإذا أهيب به فليس بشاك
 قد راعه أنى طويت جبائلي -

من بعد طول تناول وفكاك ،
 وبع ابن جنبى كل غاية لذة

بعد الشباب عزيزة الإدراك
 (هذه القصيدة من القصائد التي كتبها الشاعر ابن زيدون في وصفه لبلد مصر)

لم تبقَ منا يا فؤاد بقيّةٌ
لفتوّة أو فضلة لعراك
كنا إذا صفقت نستبق الهوى
ونشد شد العصبه الفتاك
واليوم تبعث فيّ حين تهزني
ما يبعث الناقوس في النساك

يا جارة الوادي طربت وعادني
ما يشبه الأحلام من ذكراك
مثلت في الذكري هواك وفي الكرى
والذكريات صدى السنين الحاكى

ولقد مررت على الرياض بربوة
غناء كنت جياهما ألقاك
ضحكت إلى وجوها وعيونها
ووجدت في أنفاسها رياك
فذهبت في الأيام أذكر رفقا
بين الجداول والعيون حواك

أذكرت هرولة الصبابة والهوى
لما خطرت يقبلان خطاك

لم أدر ما طيب المناق على الهوى
حتى ترفق ساعدي فطواك

وتأودت أعطاف بانك في يدي
واحرّ من خفريهما خداك

ودخلت في ليلين فرعك والدجى
ولثمت كالصبح المنور فاك
ووجدت في كنه الجوانح نشوة
من طيب فيك ومن سلاف لماك
وتعطلت لغة الكلام وخاطبت
عيني في لغة الهوى عيناك
ومحوت كل لبانة من خاطري

ونسيت كل تعاتب وتشاكي
لا أمس من عمر الزمان ولا غدة
جمع الزمان فكان يوم رضاك

لبنان ردّتي إليك من النوى
أقدار سائر للحياة دراك
جمعت نزيلتي ظهرها من فرقة
كرة وراء صوالج الأفلاك
نمشي عليها فوق كل فجاءة
كالطير فوق مكامن الأشراك

ولو أن بالشوق المزار وجدتنى
ملقي الرحال على ثراك الفداكى

بنت البقاع وأم برّذونيتها
طبي كخلق واسكبي برداك

ودمشق جنات النعيم وإلما
الفت سدة عدنهن رباك

كالغيد من ستر ومن شباك
وكان كل ذؤابة من شاهق
ركن المجرة أو جدار سماك
سكنت نواحي الليل إلا أنه
في الأيك أو وترأ شجى حراك
شرفاً عروس الأرز كل خريدة
تحت السماء من البلاد فذاك
ركز البيان على ذراك لواءه
ومشى ملوك الشعر في مغناك
أدباؤك الزهر الشموس ولا أرى
أرضاً تمخض بالشموس سواك
من كل أروع علمه في شعره
ويراعه من خلقه بملك
جمع القصائد من رباك وربما
سرق الثمائل من نسيم صباك
(موسى) بيابك في المكارم والعلا
وعصاه في سحر البيان عصاك
أحلت شعري منك في عليا الذرا
وجعته برواية الأملاك
إن تكرمي يا زحل شعري لئن
أنكرت كل قصيدة إلاك
أنت الخيال بديع وغيبه
الله صاغك والزمان رواك

قسما لو انتمت الجداول والربا
لتهلل الفردوس ثم نمناك
مراك مراة وعينك عينه
لم يا زحيلة لا يكون أباك
تلك الكروم بقية من بابل
هيهات نسى البابل جنك
تبدى كوشى الفرس أفتن صبغة
لناظرين إلى ألد حياك
خرزات مسك أو عقود الكهربا
أودعن كافوراً من الأسلاك
فكرت في لبن الجنان وخمرها
لما رأيت الماء مس طلاك
لم أنس من هبة الزمان عشية
سلفت بظلك وانقضت بذراك
كنت العروس على مذمة جنحها
لبنان في الوشى الكريم جلاك
يمشى إليك اللحظ في الديباج أو
في العاج من أى الشعاب أماك
ضمت ذراعها الطبيعة رقة
«صنّين» و«الحرمون» فاحتضناك
والبدر في ثبج السماء منور
سالت حلاه على الثرى وحلاك
والنيرات من السحاب مطلة

وقال

« وقال معارضا كافية ابن زيدون التي أولها :

« ودع الصبر يحب ودعك (١) »

ردت الروح على المضى معك

أحسن الأيام يوم أرجعك

، مرة من بعدك ما روعني

أثرى يا حلو بعدى روعك

كم شكوت البين بالليل إلى

مطلع الفجر عسى أن يطلعك

وبعثت الشوق في ريح الصبا

فشكا الحرقه مما أستودعك

يا نعيمى وعذابى فى الهوى

بعدولى فى الهوى ما جمعك

أنت روحى ظلم الواشى الذى

زعم القلب سلا أو ضيعك

موقعى عندك لا أعلمه

آه لو تعلم عندى موقعك

أرجفوا أنك شاك موجد

ليت لى فوق الضنا ما أوجعك

نامت الأعين ، إلا مقلة

نسكب الدمع وترعى مضجعك



صفحات من كتاب الذخيرة لابن بسام

فصل في ذكر ذى الوزارتين الكاتب أبى الوليد ابن زيدون واجتلاب عيون أخباره ، وفصوص رسائله وأشعاره .

قال أبو الحسن كان أبو الوليد غاية منشر ونظوم وخاتمة شعراء مخزوم ، أحد من خبر الأيام خبراً ، وفاق الأنام طراً ، وصرّف السلطان نفعا وضرا ، ووسع البيان نظاماً ونثراً ، لم أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه ، وحظ من النشر غريب المباتى ، شعرى الألفاظ والمعانى . أخبرنى غير واحد من وزراء إسبيلية قال : خلاص ابن عبد العزيز من يد عباد ، خلوص الفرزدق من يد زياد ، وبقيت حضرته من أهل هذا الشأن ، أعزى من ظهر الأفعوان وأخلى من صدر الجبان ، فهم باستجلاب (محمد بن الباجى) المشهور أمره ، الآتى فى القسم الثانى من هذا الديوان ذكره ، فكان أبى الوليد غص بذلك وواطأ أبى محمد بن الجدد على الإشارة بالاستثناء عما هنالك ، فكانت الكتب تنفذ من إنشاء أبى الوليد إلى شرق الأندلس ، فيقال تأتى بإسبيلية كتب من بالنظم الخطير ، أشبه منها بالمشهور .

حظوته عند ابن جهور

وقد أجرى ذكره أبو مروان بن حيان فى وصف من كان اصطنع ابن جهور من رجال دولته ، فقال « ونوه بفتى الآداب ، وعمدة الظرف ، والشاعر البديع الوصف ، أبى الوليد أحمد بن زيدون ذى الأبوّة السنية بقرطبة ، والوسامة ، والدراية ، وحلاوة المنظوم ، والسلطة ، وقوة المعارضة ، والافتنان فى المعرفة ، وقدمه للنظر على أهل الذمة لبعض الأمور المعترضة وقصره بعد مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبين الرؤساء ، فأحسن التصرف فى ذلك ، وغلب على قلوب الملوك » قال أبو مروان وكان أبو الوليد من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة فى أيام الجماعة والفتنة

وبرع أدبه ، وجاد شعره ، وعلا شأنه ، وانطلق لسانه ، فذهب به العجب كل مذهب وهون عنده كل مطلب ، وكان علقه من عبد الله بن أحمد بن المكري أحد حكام قرطبة ظفر أحجن ، أداه إلى السجن ، فألقى نفسه يومئذ على أبى الوليد بن جهور فى حياة والده أبى الحزم فشفع له وانتقله من نكبته وصيره فى صناعته ، ولما ولى الأمر بعد والده - نوه به وأسنى خطته وقدمه فى الذين اصطنع لدولته ، وأوسع راتبه وجلله كرامة لم تقنعه فيما زعموا ، وانفق أن عن له مطلب بمحضرة لإدريس الحسنى بمالقة ، فأطال الثواء هنالك ، واقترب من إدريس ، وخب على نفسه ، وأحضره مجالس أنسه ، فغتب عليه ابن جهور ، وصرفه فى السفارة بينه وبين أمراء الأندلس فيما يجرى بينهم من التراسل والمداخلة ، فاستقل بذلك لفضل ما أوتيته من اللسان والمعارضة ، فاكتمب الجاه والمنفعة ولم يبعده ذلك من التهافت فى الترقى بعد الهمة ، فهو عما قليل إلى عباد صاحب إسبيلية اجتذبه إلى ذلك فهاجر عن وطنه إليه ، ونزل على كنفه ، وصار من خواصه وصحابه ، يجالسه فى خلواته ، ويراسل له فى مهم رسائله على حال من التوسمة ، وكان ذهابه لعباد سنة ٤٤١ هـ لإحدى وأربعين وأربعائه . قال أبو الحسن : « فأما سعة ذرعه ، وتدفق طبعه ، وغرارة بيانه ، ورقة حاشية لسانه ، فالصحيح الذى لا ينكر ولا يرد ، والرميل الذى لا يحصى ولا يعد . »

بداهته وتصرفه بفنون القول

أخبرنى من لا أدفع خبره من وزراء إسبيلية قال : « عهدى بأبى الوليد قائماً على جنازة بعض حرمة والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم ، فما سمع يحجب بما أجاب به غيره لسعة ميدانه ، وحضور جنانه . » وقد أخرجت من أشعاره التى هى حجول وغرر ونوادر أخباره التى هى مآثر وأثر ، ورسائله

التي أخرست الحفل ، واستوفت أمد المنطق الجزل .

.....
.....
.....

وله في ابن جهور ، وكتب بها من السجن :

« ما جال بمدك لحظي في سنا القمر
إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر . » الخ

وله أيضاً قصيدة فريدة خاطب بها ابن جهور وهو
في تلك الحال من الاحتفال أو لها :

« ألم بأن أن يبكي النمام على مثلي
ويطلب نأري البرق منصلت النصل . »

وفي بني جهور يقول :

« بني جهور أحرقتم بجفائكم
جنائي ، فما بال المدامح تعبق
تعدوني كالمنبر الورد إنما
لطيب لكم أنفاسه حين يحرق . »

وأراه توارد في هذين البيتين مع أبي علي بن رشيقي
القيرواني حيث يقول :

« أراك اتهمت أخاك الثقة
وعندك مقت وعندي مقة
وأنتي عليك وقد سؤفني
كما طيب العود من أحرقة . »
وأخذه مماً من قول أبي تمام :

« لولا اشتعال النار فيما جاورت

ما كان يعرف فضل طيب العود . »

وأنشدني بعض أهل وقتنا ، وهو أبو مروان بن
شماخ لنفسه :

« نواب فالتني ، فأبدت فضائي
وكانت وكنت النار والمنبر الورداء . »

ولغيره :

« إن مست النار جسمي

أبدت طيب نسيم

أكالدهر إن عض يوما

أبان فضل الكريم . »

وأبو الوايد بن زيدون - على كثرة إحسانه - كثير
الاهتمام في النثر والنظام ، وكتب إلى أبي بكر مسلم
وهو مخنف بقرطبة بعد فراره من السجن ، فصلا
من رقعة :

« وبلغني أنك أحد اللاتمين ومن أمثالهم
ويل للشجي من الحلي ، وهان دلي الأملس ملاق
الدبر واعتبك على انفصالك عني وترى أنك أحد
الحنة مني فلم أستطع صبراً ، وعلمت أن العاجز من
لا يقبذ فالمرء يعجز لاشالة ، ولم أستجز أن أكون
ثالث الأذلين العير والوتد ، وتذكرت أن الفرار
من الظلم والهرب مما لا يذاق من سنن المرسلين ،
وقد قال تعالى على لسان موسى : ففرت منكم لما
خفتكم . فنظرت في مفارقة الوطن ففديما ضاع
الفاضل في وطنه ، وكسد العائق التبيط في معدنه
كما قال :

« أضيع في معشري وكم بلد

يكون عود الكباء من حطبه »

فاستخرت الله في إنفاذ العزم ، وأنا الآن حيث أمنت
بعض الأمن إلا أن السعي لم يرتفع ومادة البغي لم
تقطع ، وختم رسالته بهذا النظم :

« شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط

وشط - بمن نهوى - المزار وما شطوا . »

كان أول هذه القصيدة ناظر إلى قول راشد أبي حكيم
حيث يقول :

« ومستوحش لم يحض في أرض غربة

ولكنه ممن يحب غريب . »

ويناسبه أيضاً قول المتنبي :

« إذا ترحلت من قوم وقد قدروا

أن لا تفارقهم فالراحلون هم . »

قوله هرمت وما للشيب البيت ناقص من قول المتنبي

وقوله لا يكن عهدك ورداً من قول العباس بن الأحنف :
« لا تجعلى وصلنا كالورد حين مضى
ذا طلعة وأدينى الورد كالكاس . »
كرّره العباس في موضع آخر ، فقال :
« ولكننى شبت بالورد عهداً
وليس يدوم الورد والآس دائم . »

ما أخرجته من شعر ابن زيدون في النسب وما
يناسبه من قصيدة :

« بنتم وبنا فما ابلت جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفت ما قينا (١)
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
رأياً ولم نتقلد غيره ديناً
تكاد حين تناجىكم ضمائرنا
يقضى علينا الأسمى لولا تأسينا
حالت لفقركم أيامنا ففدت
سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الأنس دانية
قناؤها لجئنا منه ما شينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما
كنتم لأيامنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأياكم عنا بغيرنا
إذ طالما غير التأى المحبينا
والله ما طلبت أمواؤنا بدلاً
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ياسارى البرق فاد القصر فاسق به
من كاذب صرف الهوى والوديعينا
ويا لسيم الصبا بلغ تحييتنا
من لو على البعد حيا كان يحينا
ريب ملك كأن الله أنشأه
مسكا وقدر لإنشاء الورى طيناً

(١) أثبتنا هذه الأبيات لاختلاف روايتها عن
رواية الديوان .

« إن لا يشب فلقد شابت له كبدى
شيب إذا خضبتة سلوة نصلاً . »
وقد كرّر هذا المعنى أبو الطيب في مواضع من
شعره وكلف به وشعب الكلام فيه فنصرف ، وقد
تقدم إنشاده ، ومنه أيضاً قول عبد الجليل المرسى
للمعتد ابن عباد :

« أمتك على خلائقها جياذى
وإن كان الضياع لها شكلاً . »
وكتب أيضاً أبو الوليد بن زيدون من محبته ذلك
إلى أبي حفص بن برد بهذه الأبيات :

« ماعلى طيبيّ باس يجرح الدهر ويأسو (١)
ربما أشرف بالمر ، على الآمال ياس
ولقد ينجليك إغفا ل، ويردك احتراس
والمخاضير سهام والمقادير قياس
يا أبا حفص وما سا واك في فهم لياس
من سنا رأيك لى في غسق الخطب اقتباس
وودادى لك نص لم يخالفه القياس
أذؤب هامت بلحى فاتهم وانتهاس
يلبد الورد السبق وله بعد اقتباس
إن أكن أصبحت نبو سأ نلغيت احتباس
فتأمل كيف ينشئ مقلة المجد النماس
ويقت المالك فى التز ب فيوطا وبداس
لا يكن عهدك ورداً إن عهدى لك آس
وأردف كرى كاساً ما امتطت كفك كاس
ففى أن يسبح الدهر فقد طال الشماس . »
قوله يلبد الورد السبق البيت كقول النابغة :

« وقلت يا قوم إن الليث منقبض
على برائته للوثبة الضارى . »

وأخذه ابن الرومى فقال :
« سكنت سكناً كان وهناً يوثبة
عماس كذاك الليث للوثب يلبد . »

(١) أثبتنا هذه الأبيات هنا لاختلاف روايتها عن
رواية الديوان .

إذا تأود آدته - رفاهية -

توم العقود وأدته البرى لينا
كانت له الشمس ظلًا في أكلته
بل ما تجلى لنا إلا أحينا
يا روضة طال ما أجت لواحظا
وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها
مى ضروبا ولذات أفانينا
لسنا نسبك إجلالا وتكرمة
وقدرك المعتلى عن ذاك يقنينا
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسما
والكوثر العذب زقوما وغسلنا
كأنتا لم نبت والوصل ثالثنا
والسعد قد غص من أجفان واشينا
سران في خاطر الظلما، يكتننا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
إنافر أنا الأسى - عند النوى - سورا
مكتوبة، وأخذنا الصبر تلقينا
أما هواك فلم نعدل بمنه
شربا وإن كان يظلمنا فيروينا
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه
- سألين عنه - ولم نهجره قالينا
ولا اختيارا تجنبناك عن كتب
لكن عدتنا - على كره - حوادينا
نأسى عليك وقد حثت مشعشة
فينا الشول، وغنانا مغنينا
لا أكؤس الراح تبدى من - شمالكنا -
سيما ارتياح، ولا الأوتار تلهينا
دوى على الوصل - مادمننا - محافظة
فالمر من دان أنصافا كما دينا
فما استفدنا خليلا عنك يصرفنا
ولا استفدنا حبيباً عنك يسلينا
ولو صبا نحونا من علو مدله
بدر الدجى لم يكن - حاشاك - يسلينا
أبدى وفاء، وإن لم تبدل صلة
فالذكر بقمننا، والطفيف يكفينا

وفي الجواب متاع إن شفعت به
بيض الأيادى التى ما زلت تولينا
عليك منى سلام الله ما بقيت
صباية بك تخفيها فتخفيننا . «
وهذه القصيدة بحملتها فريدة وقد عارضه فيها
جاعة لصروا عنه (١)
وله من أخرى أثر نزهة كانت له بمنية الزهراء :
« إني ذكرك بالزهراء مشافا
والأفق طاق ووجه الأرض قدراقا . »
وله من أخرى ، وكتب بها من بدليوس أيام تكريمه .
عليها وهي من غرر نظامه وحر كلامه :
« يا دمع صب ما شئت أن تصوبا
ويا فؤادى أن أن ندوبا . »
وله :
« وضح الحق المبين وفي الشك اليقين . »
وقال :
« صحت فصيح بها السقيم ربح معطرة الذم . »
وقوله :
« يا ليل طل لا أشتهى إلا كعبرى قصرك
لو بات عندى قرى ما بت أرمي قرك . »
وقوله :
« ودع الصبر محب ودعك
ذائع من سره ما استودعك . »
وقال :
« بينى وبينك ما لو شئت لم يضع
سراً إذا ذاعت الأشياء لم يذع . »
وفيها يقول :
ته أحتمل واستطل أصبر وعزأهن
وول أقبل وقل اسمع وصر أطمع . »
أراه احتذى بهذا البيت مذهب أبي العميش الأعرابي :
« فاصدق وعف وفه وانصف وأحتمل
واصلح ودار وكف واحلم واسمع
والطف ولن وتأن وارفق واتشد
واحزم وجد وحام واحمل وادفع . »
كقولك الجن :
« أحل واقرر وضر وانقم ولن واخن
ورش وابن وانتدب للمعالي . »
وهذا البيت صنعه المولودون وعدوه تقسيما
(١) وقد أثبتنا بعض هذه المراضات في ص « ١٠٤ »

وله من أخرى في ابن جهور :

« هذا الصباح على سراك رقيباً

فصلى بفرعك ليذك الغريبنا . »

وقال ابن زيدون أيضاً :

« أما وألحظ مراض صحاح

تصبي وأعطاف نشاوى صواح . »

وفي بني جهور يقول عند نكبة بني ذكوان :

« لولا بنو جهور ما أشرقت همم

عند السوالف في أحيادها تلح . »

قوله في هذه القصيدة إن السيوف إذا ما طاب

جوهرها في أول الطبع لم يعلق بها الطبع ، ينظر

بلحظ مرهيب إلى قول حبيب :

« والسيف مالم يلف فيه صيقل

من سنخه لم ينتفع بصقال . »

وله من أخرى يهني المعتضد بن عباد بهزيمة ابنه

اسماعيل لابن الأفضس وقتل ولد إسحاق بن عبدالله

في تلك الحرب :

« ليهن الهدى إنجاح سميك في العدا

وإن راح صنع الله نحوك واغتدى . »

وفاة ابن زيدون

ومما يتعلق بذكر وفاة ذي الوزارتين رحمة الله

عليه فصل من تاريخ الشيخ أبي مروان بن حيان

رأيت إثباته لنبل مساقه ، وحسن اتساقه . يقول

فيه ، وفي يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من

ذى الحجة سنة اثنين وستين وأربعمائة سار

الحاجب سراج الدولة عباد بن محمد إلى إشبيلية الحضرة

الأئمة لمظالمتها ، وتأنيس أهلها من وحشة خامت

عامتهم من أجل عدوان رجل منهم على يهودى جاء (١)

لأمر جهة السوق عندهم ، فزعم أنه سب

الشريعة فبطش به المسلم وسط السوق وجرحه

وحرك عليه العامة ، فقبض عليه صاحب المدينة

بها عبد الله بن سلام واعتقله فكان لعامة الناس في

حبسه كلام وإكثار خشن ناله ، فخطب السلطان

بقرطبة يعرفه ما كان منه ويستأمره في شأنه ، فجعل

إنفاذ ولده الحاجب سراج الدولة إلى إشبيلية في جيش

(١) في القطعة التالية كثير من الاضطراب وقد

أثبتناها كما هي .

وتقطيعاً وتبعهم المتنبي فقال :

« أقل انل اقطع احمى عل سسل أعد

زد هس بش تفضل ادن سرصل . »

ثم زاد المتنبي من هذا وبني حق قال :

« عش ابق اسم اسر قد جد

مرانه جد رف اسر بل . »

بينه المعروف . وأحسن لعمري ابن زيدون في

هذا التقسيم ، ودافع بالحديث في صدر القديم ، ولو

قرع سمع أبي منصور بهذا الشذوذ لما كان عند

ابن وسكبير بمذكور ، ولا أغرب بفرائب الصاحب

ولا بيدائم البديع . ومن شعر أبي الوليد في

النسيب السائر الغريب الطيار المليح الخفيف

الروح قوله :

« أما رضاك فتىء ماله ثمن

لو كان سائحى فى ملكه الزمن . »

وقال من أخرى :

« أنت معنى الضنى وسر الضلوع

وسبيل الهوى وقصد الدموع . »

وقال :

« غريب بأرض الشرق يشكر للصبا

تحملها معنى السلام إلى الغرب

وما ضر أنفاس الصفا فى احتمالها

سلام فتى يهديه جسم إلى قلب . »

وهذا منقول من قول العباس بن الأحنف حيث يقول :

« تأله ما شطت نوى طاعن

سار من العين إلى انقلاب . »

وقال أبو الوليد من أخرى :

« سأحب أعدائى لأنك منهم

يا من يصح بقلته ويسقم . »

وقال من قصيدة :

« أما فى نسيم الريح عرف معرف

لنا هل لذات الوقف بالجزء موقف . »

وقال أيضاً أبو الوليد من جملة قصيدة :

« يا أيها الملك الذى تديره

أضحى لملكه الزمان ملاكا . »

عليه، إذ كان منهم متعصبا له، هاوياً إليهم، حديبا عليهم
وليبة خير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية،
فصار مصابه كفا فيه من تأميلهم والبقاء لمن تفرد
به وحده لارب صغيره ولاجرم إذا أعز الله إخوانه
بإستدار بقاء فتاه النذب أبي بكر ولده ساد أمثله
ساميا مسياه غائظا عداء طاطيا منتهاه بأبوة صدق
يجرى إلى العلى بضيفه من سباحة ودماثة وحصافة
ونزاهة ومعرفة ووفور حظ من أدب بلاغة وكتابة
وشركة في التعاليم العلمية واشتداد في رعاية متقادم
الذمة لم يفقد إخوان أبيه معها إلا غيبته خلال
حر كن حاله عما قليل بعد أبيه عند سلطانه تسطاس
السياسة فاستبصر في استحضاره وأدناه من اجتباؤه
ورقاه في مراتب والده منقلا له في درجاتها راضيا
بلاءه فيما فاطه به منها حتى فرع ذروتها عما قليل
فأحظاه بالوزارة وصديره وزيرا لحضرته الأئمة
اشبيلية، وجمعه أعظم خططها العلمية معاطس التنافس
من قوام المملكة خطة ولاية المدينة وواتاه الزمان،
والله يؤتي فضله من يشاء له الفضل والامتنان .

وقال :

« لا طار لي حظ إلى غاية

إن لم أكن منك فريش الجناح

وعتباك بعد العتب أمنية

مالي على الدهر سواها اقتراح

لم يثنني عن أمل ما جرى

قد يرتع الحرق وتؤسى الجراح

فاجهد بحمي الرأي عن يرح

منه العدا بكل شاكي السلاح

واشفع فللشافع فعمى بما

تمر من عقد وثيق النواح

إن سحاب الأذى منها الحيا

والحمد في تأليفها للرياح . »

وكان القاضي أبو بكر بن ذكوان أجل من اشتمل
عليه أو أن مجدا وشرفا ونفقا في العلم ونظرفا مع
دعابة حين خلواته تحمل حيي المحتبي ورفاقه عند
نشواته كالتنوخي والمهلي، فإذا أصبحوا بكر أبو بكر
إلى مصادرة ما يتجه عليه الحكم ومواجهته وأذكر

كثيف من نخبة غلمانه ووجوه رجله لمشاركة القصة
والاحتياط على العامة، نفذوا معه وسط هذا اليوم
وأنفذ معه ذا الوزارتين أبا الوليد بن زيدون أحد
الثلاثة أكابر وزرائه المثناة وزارتهم عهد دولته
ألزمه النفوذ مع الحاجب على بقية وعك متأنما منه
ولم يعذره في التوقف لأجله، فضى لطيته مسافا إلى
ميتته وخلف ولده أبا بكر القند الوزارة المرسمة
بالكتابة، ورآه سادا مكانه بالحضرة، فأقر فيها
أياما، ثم أمر بالسير وراء والده لأمر كافه أعجل
بالإطلاق له، فقضى نخبه غداة يوم السبت لثمان
خلون من المحرم سنة ثلاث وستين بعدها، غفلت
منهم منازلهم بقرطبة وصيرت إلى سواهم، فتحدث
الناس بسبق مكان الأدب ابن زيدون لدى السلطان
وإن استمسكه لعل مرتبة بعد مختصه المعتضد بالله .
كان من المتمد على الله رعاية لخصوصية أبيه به
ينص باستمرارها ثناء المختصان به الخطيان لديه
المستهمان لحاصته ابن مرتين وابن عمار إلى أن حملا
في إبعاده وإبعاد ابنه الرقيب بعده فأمضى خلفه،
فصنفا استساغا غصته، واستملا مكانه، واحتويا
على خاصة السلطان، وتدير دولته، ولكل دولة
رجال، ولكل مكنت إبدال، ولم يطل الأمد لابن
زيدون بعد لحاق ابنه به، ووجدانه إياه متزايدا
في مرضه، نازعا عن الآفة على جهده في استدعائها
على انتهاء المدة، وانتهاك القوة، فاستقر به وجهه
إلى أن قضى نخبه، وهلك بدار هجرته اشبيلية
صدر رجب سنة ثلاث وستين، فدفن بها مشهودا
مفتقدا، واحتوى ترابها عليه، فيا بعد ما بين قبره
وقبر أبيه لدينا رحمة الله عليهما فقد تولى من أبي الوليد
كحل لن يخلف الدهر مثله جالا وبيانا وبراعة وسلطانا
وظرفا وحلولا من مراتب البلاغة نظما ونثرا بمروية
لم يخلف لها بعده عاطيا بقراه بين الكلامين وبراعة
في الفنين إلا أن يكون عند أولى التحقيق والتحصيل
في النظم أمد طلعا، واث عتقا، فلا يلحقه فيه تقصير
ولا ينجفى رهقا شهوده في الفنين عسودل مقانع
حضور عند أهل المعرفة، ولما اتصل خبر هلكه
بمشيرته أهل قرطبة شيموه وبكوا لفقده وحزنوا

ما كان عليه من فكاهته فكأنه في بردية الامام وكأنه وقار بديل أو شمام مع عدله في قضائه وإفقاذه الحكم بمنتهى الحق وإمضائه حتى إذا راح الروح عادوا إلى القصف وتجاروا في ميدانهم كل وصف إلى أن اختلس أبو بكر منها وتقلص ذيل وئاسته عنها ، فاعتاض عنه بسواه وأفاضاً فيما كانوا فيه وما تمدياه ، واتفق أن مر يوماً بقبره في لمة من إخوانه وجاعة من عمار ميدانه فغطفوا عليه مسلمين ووقفوا عليه متألمين ، فقال أبو الوليد :

« يا قبره العطر الثرى لا يبعدن

حلو من الفتيان فيك حلال »

وله :

« على داره الشرق منى تحية

زكت وعلى وادى العقيق سلام »

وله :

« خليلي لا فطر يسر ولا أضحى

فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى »

وله يرثي :

« أعباد يا أوفى الملوك لقد عدا

عليك زمان من سحيته القدر . »

ونلمع من خبر هذه الواقعة بلحة . قال أبو مروان في سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة أوقع ابن عباد بابن الأفتس إلى جنب يابرة ، وكان سبب هذه الحرب أن فتح ابن يحيى صاحب لبلة يؤمئذ خليفة ابن الأفتس وإلى آل عباد للضرورة فكاشفه ابن الأفتس وخانه فيما كان ائتمنه عليه من ماله الصامت عند ما حمله إليه وديعة عند تورطه في حرب ابن عباد قيل فانبث بينهما العصمة ، وأرسل ابن الأفتس في ذلك الوقت خيله للضرب على ابن يحيى فاستمات عباد فأرسل إليه خيلاً منتقاة فلحقت الخيل الأفتسية وهي قد شذت الغارة على لبلة ، فكرت عليهم إذ كانوا ضفهم واسترسلوا في اتباع العباديين ولا يشعرون ، فإذا بعباد بمحلمته في كمين قد خرج أثرهم فدهشوا وولوا الأدبار ، فركبهم السيف ، وبذل عباد المال في رؤوسهم ، وكانت قنقة خلد ابن الأفتس وأبطال

رجاله نحر لعباد من رؤوسهم مائة وخمسين رأساً ومن خيلهم مثلها فقص جناح قرنه وأفنى حاة رجاله ثم إن عباد أئردك جمع حلفاء خيله وقود عليها ابنة إسماعيل مع وزيره ابن سلام ، وخرج نحو بلاد ابن الأفتس يابرة وقد استدعى أيضاً ابن الأفتس خليفته إسحاق بن عبد الله فلحقت به خيله مع ابنه أبي الذر بعد أن جمع ابن الأفتس بقايا جيشه من هزيمتهم المتقدمة الذكر ، وأخرج كل من قدر على ركوب دابة من البياض بيلده وحشد من رجال البوادي بعمله خلقاً كثيراً وأقبل بجمعه هذا المنجوب ليدفع خيل ابن عباد عن بلده يابرة ، وقد كان برابرة خليفته إسحاق في عسكره قالوا له لا تلقهم فاست تعرف قدر من زحف نحوك ونحن رأيناهم وسمعنا بجمهم بإشيبيلة فلم يسمع منهم ومضى ، فالتقى الفريقان من غير نزول ولا تعبنة فاختلطوا واجتلدوا ملياً لحقق العباديون الضراب ، وتابوا الشدات لحاد البرابرة عند أصحاب إسحاق ، وانهمز ابن الأفتس وحمل السيف على جميع من معه ، فاستأصاهم القتل وقتل ولد إسحاق وجز رأسه وبعث إلى إشيبيلة مع رأس ابن عم ابن الأفتس صاحب يابرة يدعي بهيسد الله الحرار ونجا ابن الأفتس في خيله إلى يابرة . قال أبو مروان وأقل ما سمعت في إحصاء قتلى هذه الواقعة ثلاثة آلاف فأزيد وأخبرني من أثق به أن بطليوس بقيت خالصة الدكاكين والأسواق من استئصال القتل لأهاما في وقعة ابن عباد هذه بفتيان أعمار الباء الشيوخ الكهول الذين أصيبوا يؤمئذ فاستدلكت على فشو المصيبة ، وجزع إسحاق بن عبد الله بمصاب ابنه ولم يستجر لضده عباد في طلب رأس ابنه ، فإن عباداً أضافه إلى رأس جده محمد بن عبد الله بإشيبيلة انتهى كلام ابن حيان .

قال ابن بسام ولم يزل الرأسان عند آل عباد مع عدة رؤوس أهدتها الفتنة المبيرة حتى فتحت إشيبيلة على الأمير الأجل سير بن أبي بكر الحفيء بجوقى مقفل محتوم عليه ، فأمر بفتحها ، لا يشك أنه مال أو ذخيرة فإذا هو مملوء

من الرؤوس فأعظم ذلك وهاله ، وأمر برفع كل رأس
منها إلى من بقي من عقبه بالحضرة . حدثني من رأى
رأس يحيى بن عليّ الحمودي ثابت الرسم غير متكلم
الشكل فدفن إلى بعض ولده فدفنه .

وقال ابن زيدون في ابن جهور من قصيدة أولها :
« أجل إن ليلى حيث أحيأوها الأزدي
مهاة حمتها في مراياها الأسد »

وكان ابن جهور يومئذ كسر دنان الخمر ، وكان
أيضاً يومئذ لقتل ذلك عبد الرحمن بن سعد المصنر
بشعر أوله :

« كسرت لجبر الدين أوعية الخمر
فأحرزت خصل السبق في الكسرو الجبر
عمدت إلى الشر الذي جمعوا
ففرقت منه فاسترحنا من الشر . »

في أبيات غير هذه استبردت جملتها وإنما ذهب
إلى عكس قول من تقدم من أعيان الشعراء من ذم
صب الشراب ، ومن أشهره قول بكر بن حارثة
الكوفي وقدرأي من سلطان وقته مثل ذلك فقال :

« يا لقومي لقد جنى السلطان
لا يكن للذي أهان الهوان . » الخ

وبلغني أن الجاحظ أنشد هذه الأبيات ، فقال للمنشد
من حق الفتوة أن أكتبها فأنما وما أقدر إلا أن
يعمدني للمرس به ، قال المحدث فأعجبه ، وقام
يكتبها ، وكان بكر بن حارثة هذا مولى بني أسد
طيب الشعر خليعاً ماجناً ، وكان يألف مدهداً يأتيه
كل يوم في موضع يفتيه شراباً فلا يزال يشرب على
صوته إلى أن يسكر ، وكان أيضاً يهوى غلاماً
لصراييا وهو القائل :

« زفاره في خصره معقود
كأنه من كبدى مقدود . »

وبكر النائل :

« قلبي إلى ما ضرتني داعي
يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوى إذا
كان عدوى بين أضلاعي . »

ولصالح ابن عبيد في ذلك :

« ليس همي ولا طويل انتحابي
لمنيب أزال عني شيباني . »
رجع وقال ابن زيدون يرثي :

« انظر لحال السرو كيف تحال
ولدولة العلياء كيف تبال . »
وله من أخرى مما وجدته بخط ابن حيان يرثي

أبا الحزم ابن جهور :

« ألم تر أن الشمس قد ضياء القبر
وإن قد كفنا ففقدنا القمر البدر . »
وله من أخرى في هذا المعروض ، وقد تكرر فيها
بعض أبيات القصيدة الأولى ورثي بها أم أبي الوليد

ابن جهور يقول فيها :

« هو الدهر ، فاصبر للذي أحدث الدهر
فمن شيم الأحرار في مثالي - الصبر . »
إلى أبيات غير هذه من سائر أبيات القصيدة استمر
فيها بالتقديم والتأخير والتأنيث والتذكير رثي بها
آخرها عبادا المعتضد ، وجعل أول قصيدته قوله :

« هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر . »
ثم أتبعه بقوله :

« حياة الوري نبيج إلى الموت مهيع
لهم فيه إيضاع كما يوضع السفر . »

يتلاعب أبو الوليد بهذه القصيدة تلاعب الخطيئة بنفسه ،
ويتصرف تصرف أبي حنيفة في مذهبه ، فأنت وذكر
وقدم فيه وآخر . قال أبو اللاء :

« رب لحد قد صار لحداً مراراً
ضاحكاً من تراحم الأضداد . »
وبلغني أنه وجد لابن زيدون إثر موت عباد شعر
يقول فيه :

« لقد سرنا أن النمي موكل
بطاغية قد حم منه حمام

تجانب صوب المزن عن ذلك الصدى
ومر عليه النيث وهو جهام . »
وقال مخاطب الوزير أبا عامر بن عبدوس من
قصيدة أولها :

وتحل من سيف القدير
بفيضة الظل القليل
والروض ممتور تم
(م) عليه أنفاس القبول
والشمس نرمقها خلا
ل النيم عن طرف كليل
ابان يحدو الرعد من
ورق السحاب كالحوول
ويهز كف البرق في الـ
آفاق مرهقة النصول
زمن سبكه الجا
م ممي وتذلل من هديل
يا برق أودية المني (١)
تفديك نفسى من رسول
عرج بشلب محيا
ما شئت من تلك الطلول
والمع على شرفات حمـ
س قرارة العرف الأثيل
فاذا جلاك أبو الوليد
سد بناظر اليقظ النبيل
فاقرأه من قبلى سلا
ما يقضى حسن القبول
يا غمرة الزمن البهيم
(م) وعزة الأدب الذليل
ومحكم العلم القصـ
ير على شبا الزمخ الطويل
أعـمت أنى خادم
ذكراك بالشكر الجليل
لم أـتـحل عما عهد
ت مع الزمان المستحيل
شفع عنايتك الجليـ
ـلة بنى لدى الملك الجليل

(١) وفي الأصل : أودية المني .

« أثرت هزبر الشرى إذ ربض
ونتهته إذ هذا فانتفض . »
ومما أغفله ابن بسام من نسب أبي الوليد الصحيح
الأقسام ، النازح عن الاطماع والأوهام ، المصدق
قول الجفريه فيما ينص من الإلهام قوله :
« نعى قصر اليأس فيك الأمل
وحال تجنبك دون الخيل . »
وقوله أيضاً :
« فديتك ليس لى قلب فأسلو
ولانفس فأنف إن جفيت . »
وقوله :
« أنى أضـمـع عهدك
أم كيف أخلف وعدك ؟ »
ولأبي بكر بن همار يخاطب أبا الوليد بن زيدون
رحمهما الله :
« كيف اعتزرت على الذليل
وقطعت أسباب الوصول
وقتلتنى ، وزعمت أن
الذنب منى للقتيل
وعليك جاهدت العدا
وليك ملت عن العذول
يا فاتلى ومـداهى
فى صفحتى أهدى دليل
ما ألقى الفعل الجليـ
ل بذلك الوجه الجليل
فبرزت فى خلق الكريـ
م وراعه خلق البخيل
ودعـوتنى حتى أجيـ
ـتك ثم حدثت عن السيل
جـد بالقليل فإث نقـ
سى منك تقنع بالقليل
واذكر حلى زمن قطنا
بصافية شـمول
إذ نسحب الأذيال ما
بين الخليج إلى النخيل

ولئن أُجبت لراغب

وأقلت عثرة مسـ...تقيل

يا أنس بدر في الظلا

م وبدر ظل في المقيـل

فلكم أتيت بثملها

ـوعى العذيمةـ في مثل .»

ولابن زيدون يتنزل في ولادة :

« يا نازحا ونامير القلب مثـواه

أنستك دنياك عبدا أنت مولاه . »

وله يتشوق إليها :

« غريب بأرض الشرق يشكر للعصا

نحملها منه السلام إلى الغرب

وما ضر أنفاس الصبا في احتماها

سلام فتى يديه جسم إلى قلب . »

وله :

« أيوحشني الزمان وأنت أنسى

ويظلمني النهار وأنت شمسى . »

وله :

« ولقد شكوتك بالضمير إلى الهوى

ودعوت من حنق عليك فأما . »

وله يتنزل ويعاتب ويتسخط ويستنزل :

« يا مستخفاً بماشقيه ومستغنيا لما صحبه . »

وكتب من المعتضد إلى صهره الموفق أبي الجبوش

ابن مجاهد :

«عرفت عرف الصبا إذ ذهب عاطره

من أنق من أنا في قلبي أشاطره

أراد تجديد ذكراه على شحط

وما تيقن أن الدهر ذا كره

نأى المزار به والدار دانيـة

يا حبذا القال لو صحت زواجه

خلى أبا الجيش هل يقضى اللقاء لنا

فبشتنى منك قلب أنت هاجره . »

قال ابن بسام : وأما ولادة التي ذكرها ابن زيدون

في شعره فإنها بنت محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله

الناصرى ، وكانت في نساء زمانها واحدة أو أنها

حضورشاهد ، وغزارة أوايد ، وحسن منظر ومخير

وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى

لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر

يمشوا أهل الأدب إلى منوء غربتها ، وبتهالك أفراد

الشعراء على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ،

وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم

انساب ، وطهارة أثواب ، على أنها سمح الله لها ،

وتعمد زلها ، طرحت التحصيل ، وأوجدت إلى القول

فيها السبيل ، لفلة مبالانها ، ومجاهرتها بلذاتها ، كتبت

ـ زعموا ـ على أحد عاتق ثوبها :

« أنا والله أصلح للمعالي

وأمشى مشيتى وأتبه تها . »

وكتبت على الآخر :

« أمكن عاشقى من ثم خدى

وأعطى قلبي ، من يشتهيها . »

هكذا وجدت هذا الخبر ، وأبرأ إلى الله من عهدة

ناقيه ، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه ،

ولها مع أبي الوائيد أخبار طوال وقصاريقوت إحصاؤها

ويشقى استقصاؤها . وأما ذكاء خاطرها ، وغزارة

نوادرها ، فأية من آيات فاطرها . مرت بالوزير

أبي عامر بن عبدوس المتقدم الذكر ، وكان بقرطبة

أحد أعيان المصر ، وبعض من هذى بأسها ، وقصر

على حكمها ، وأمام داره بركة تتولد على كثرة

الأمطار ، وربما استمدت بشئ مما هنالك من الأقدار

وقد نصر أبو عامر كنيه ، ونظر في عطفيه ، وحشر

أعوانه إليه ، فقالت له أبا عامر :

« أنت الحبيب وهذه مصر

فندفقا ، فكلا كما بحر . »

فتركته لا يحير حرفا ، ولا يرد طرفا ، وطال صمرها

وعمر أبي عامر حتى أربيا على الثمانين وهو لا يدع

مراسلتها ، ولا ينفل مواصلتها . وتحيف هذا

الدهر المستطيل حال ولادة ، فكان يحمل كلها ،

ويرقع ظلها ، على خوف واديه ، وخمود روائحه

وغواديه ، أثراجيلا أبقاه ، وطلعا من الظرف جرى

إليه حتى استوفاه . وكانت ـ زعموا ـ تفرض أياتا من

الشعر ، وقد قرأت أشياء منه في بعض التعاليق

أضربت عن ذكره ، وطوبته بأسره ، لأن أكثره

عاصر الحلو ضد القتيبة عبد الرحمن المستظهر في الأدب والمعركة ، وكان افتتح هذه السنة المؤرخة القاسم بن حمود بخلافته وآخرها محمد هذا المذكور وكان بينهما عبد الرحمن المستظهر فتصرمت تلك السنة المنكرة على ثلاثة خلفاء ، وهذا من غريب الأنباء والله البقاء المرمدي ، وقلد محمد هذا الأمر ولم يكن من أدله ، فتأق جميع الناس بالإنباس واستمالهم بالأهوية ، ورأى أن المال عزيز ، وأن البشر رخيص يقوم مقامه ، ويثوب منابه ، فكان يقول للناس أجمعين ، ارتعوا كيف شئتم ، وارتموا بما أحببتم من الخطط فتسمى بالوزارة في أيامه مفردة ومشتاة أراذل الدائرة ، وأخابث النظار فضلاً عن زعانف الكتائب والخدمة ، وأما انشطرة العليا ومادونها من رفيع المنازل ، فخامها كثير من التجار والعامه ، واشال الناس على ابتغاء هذه المنازل عند السلطان بالطماعية في كرة الدولة فغشوا بابيه وعمروا فناءه ، وتعللوا بالمنى ، فلما استبانوا ضعفه رفضوا خططهم ، وتبرأ كثير منهم منها ، وأنتم أنه لم يتقلدها ولا سيما عند تكرار التفسير عليهم للفرامة عند إلحاح الإضافة ، فجرت بعضهم عند الانتفاء عن تلك الخطط نوادر ظريفة مضحكة وانتهى هذا التنويه العام بهذا المسلك الهام إلى أن فصله أيضاً في طبقات أهل العلم فأسمهم منهم الفقهاء فأثر العلية منهم المشاورين أصحاب الفنون بالارقاء إلى خطة الوزارة خالطاً لهم فيها بما ذكرناه من زعانف الحسنة وكبار الدائرة ، وجه في ذلك بطامة لم تسع في الأعصر الحالية فأخطأوا وألحقوا بالدين وصحته ، وطلبوا زيادة المعتلى على العامة ، فافتنوا بهذه الحطة وشدوا أيديهم عليها ، وهجروا من حطهم في الخطاب عنها مفرطين بما يعاب من ذلك إلى أن مضوا لسبيلهم ، وارتاق المستكني أيضاً بكثير ممن يحمل المخابر ، ويدرس مسائل الدفاتر ، من أصاغر الطبقة النقية إلى ما بلغت عليهم من منزلة الشورى ، فوسم كافتهم بوسم الفتوى فأسرف في ذلك حتى بلغ عددهم

ليس له عندى إعادة ولا إبداء ، ولا من كتابي في أرض ولا سماء . ونشير هنا بشيء من أخبار أبيها المستكني مدا لأطنا ب الآداب ، ووفاء بشرط الكتاب ، نسخته من كتاب ابن حيان : هو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الناصري ، يبيع يوم قتل عبد الرحمن المستظهر يوم السبت ثلاث خلوز من ذى القعدة سنة أربع عشرة وأربع مائة ، فتسمى بالمستكني بالله ، اسما ذكر له فاختاره لنفسه ، وحكم سوء الاتفاق به لمشاكلته لعبد الله المستكني العباسي أول من تسمى به في اسمه وروثه وتخلفه وضعفه بل كان هذا زائداً عليه مقصراً عن خلال ملوكية كانت في المستكني سبيه لم يحسنها محمد هذا لفرط تخلفه على اشتباههما في سائر ذلك كله من نوبتهما بالفتنة ، واستظهارهما بالفسقة ، واعتداء كل منهما على ابن عم ذى رحم ماسة ، وتوسط كل منهما في شأنه بأسرأة خبيثة ، فلذلك حسناء الشيرازية ، ولهذا ابنة هكرى المروزية ، فأصبجا في ذلك على فرط التباين عبرة ، وقال صاحب قطب العروس : ومن عجب اتفاقهما في الأخلاق ، وفي السر واللقب وأن كل واحد منهما خلق عن الأمر ، وكل واحد منهما تركه أبوه صغيراً ، ولم يكن محمد من هذا الأمر في ورد ولا صدر ، إنما أرسله الله على الأمة محنة وبلية ، إذ كان منذ عرف غفلاً عطلاً منقطعاً إلى البطالة ، مجبولاً على الجهالة ، عاطلاً عن كل خلة تدل على فضيلة ، عضته الفتنة فأملق حتى استجاز طلب الصدقة ، وهان حتى أهانه أهله على ما لهم من المهنة رأيتهم - أيام الحسب بأهل بيته في الدولة الحمدية ، ولم يكن ممن لحقه الاعتقال منهم لركاكتهم - يقصد أهل الفلاحة يومئذ بقرطبة أو أن ضدهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكليماً ومخاطبة ، وبالجملة في تلخيص التعريف بأسره أن أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس في الإمارة منذ تلك الفتنة أسقط منه ولا أنقص إذ لم يزل معروفاً بالتلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم السر والعلانية ، أسير الشهوة ،

فلما طوى النهار كافرته ، ونشر عبيره ، أقبلت بقدر
كالغضيب ، وردف كالكتيب ، وقد أطبقت نرجس
القل ، على ورد الحجل ، فلما إلى روض مديح ، وماء
سجسج ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل
أنهاره ، ودرّ الظلّ منشور ، وجيب الراح مزبور
فلما شبتنا نارها ، وأدركت فينا ثارها ، برح كل منا
بحبه ، وشكا إليه ما بقلبه ، وبقنا بيلة نحي الحوان
الشمور ، وتقطف رمان الصدور ، فلما انفصلنا عنها
صباحاً ، أنشدتها ارتياحاً :

« ودع الصبر حب ودعك
ذائلاً من سرّ ما استودعك . »

قال أبو الوليد وكانت عتبة قد غنّتنا :

« أحببنا إني بلغت مؤملي
وساعدني دهرى وواصلني حي
وجاء يهينني البشير بقره

فأعطيته نفسي ، وزدته قلبي . »
سألها الإعادة بنير أمر ولادة ، فجفا منها برق
التبسم ، وبدا عارض النجهم ، وعابت عتبة :

« وما ضربت عتي لذنب أتت به
ولكنها ولادة اشتهت ضربني
فقامت تجر الذيل عائرة به
وتمسح ظل الدمع بالعم الرطب . »

فبتنا على العتاب ، من غير اضطراب ، ودم المدام
مسفوك ، وما بدا للهو متروك ، فلما قامت خطباء
الأطيار ، على منابر الأشجار ، وانفت من الاعتراف
وباكرت إلى الانصراف ، وشت بمسك الأقباس
على كافور الاطراس :

« لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا
لم تهو جاريتي ولم تنهني
وتركت غصناً مشراً بجباله
وجنحت للفصن الذي لم يشر
ولقد علمت بأنني بدر السما
لكن دهيت لشقة وفي بالمشري . »

بقرطة يومئذ الأربعين ، وذلك مما لم يبعد في
الغابرين ، وكثير الإرجاف بتغير رجال الدائرة ،
فاضطربت قرطبة لكثرة ما فيها من المردة ، فقبض
على جماعة من بني عمه وحاشيته منهم علي بن أحمد
ابن حزم وابن عمه عبيد الوهاب المتفدى الذكر
سجنوا بالمطبق ، ثم عاجل المستكي ابن عمه عبد العزيز
العراق لخلق وأمسى ميتاً ونماه إلى الناس فلم يسئل عليهم
اغتياله ، وفي أيام المستكي هذا استوصل بقية قصور
جسده الناصر بالخراب ، وطست أعلام قصور
الرهاء ، واقتلع خماس الأبواب ورضاص القنى
وغير ذلك من الآلات ، فطوى بخرابها بساط الدنيا ،
وتغير حسنها إذ كانت له جنة الأرض فعدا عليها قبل
تمام المائة من كان أنعم قوة من فارة المسك ،
وأوجن بيتا من بقعة التمرود ، والله يسلم جنوده على
من يشاء له العزة والجبروت ، فلما كانت سنة
ست عشرة وتحرك يحيى بن حمود إلى قرطبة ، وضعف
أمر المستكي ، اتفق الملاح على خلعه ودخلوا عليه
وقالوا : لقد علم الله اجتهدنا في تثبيتك ، فاعتصم
ذلك علينا ، واضطربنا إلى مقاربة عدونا وهانحن
خارجون إليه ، ولا ندرى ما يحدث عليك بعدنا
فإن لك لك السكر فلا تيأس ، فمع اليوم غد ،
فأجل الرد ، واستشعر الذل ، واهتبل
الغرة ، وعزم على الهرب ، فخرج على وجهه
وقد لبس ثياب الغانيات ، متنقباً بين امرأتين لم يميز
منهن لمراسه على التخثيث ، وخرج عن قرطبة ،
فبت بافليس ، فكانت دولته تسعة عشر شهراً
صعباً تكبدت سوداً مشوهات مشومات انتهى
ما حصته من كلام ابن حيان قال أبو الوليد :
كنت في أيام الشباب ، وغمرة التصابي هائماً بقيادة
تسمى ولادة ، فلما قدم اللقاء ، وساعد القضاء
كتبت إل :

« ترقب إذا جن الظلام زيارتي
فإني رأيت الليل أكرم للسر
وبي منك ما لو كن بالبدر مابداً
وبالشمس لم تطلع ، وبالنجم لم يسر . »

صفحات من كتاب نفح الطيب

الريان، مايز وأبنوعس الأجفان ، وقد أووا الانفراج
للهم والطرب وانتزه في روضى النبات والأدب ،
وهمثوا صاحباً لهم يسمى (خليفة) هو قوام لذته
ونظام مسرتهم ليأتيهم بنبذ يذهبون لهم بذهبه في
لجين زجاجة ، ويربونه منها بما يقتضى بتحريكه
للهرب عن القلوب وإزاحجه ، وجلسوا لانتظاره ،
وترقب عرده على آماره ، فلما بعثوا به مقبلاً من
أول الفج بادروا إلى لقائه ، وساروا إلى نحوه
وتلقائه ، واتفق أن فارساً من الجند ركب فرسه
فصدمه ، ووطأ عليه فهشم عظمه ، وأجرى دمه
وكسر قصال النبيذ الذى كان معه ، وفرق من
شملهم ما كان الدهر جمعه ، ومضى على غلوائه
راكضاً حتى خنى عن العين خائفاً من متعلق به يحمن
بتلفه الحين ، وحين وصل الوزراء إليه تأسفوا
عليه ، وأفاضوا في ذكر الزمان وعدوانه والخطب
وألوانه ، ودخله بطوام المضرات على تمام المسرات
وتكديره الأوقات المنعمات بالآفات المؤلمات ، فقال
ابن زيدون :

« أنلهو والحتوف بنا مطيفه
ونأمن والنون لنا مخيفه . »

فقال ابن خلدون :
« وفي يوم وما أدراك يوم
مضى قصائنا ومضى خليفه . »

فقال ابن عمار :
« هما نختارتا راح وروح
تكسرنا فاشقاق وحيفه . »
وكتب الوزير الشهير أبو خالد ابن زيدون إلى
الوزير أبى عبد الله بن عبد العزيز أثر صدوره
عن بلنسية .

« راحت فصح بها السقيم » الأبيات
ولما ورد إشبيلية نزل بدار الوزير الكاتب ذى

وقد صنف أبو الوليد بن زيدون كتاب (التبيين)
في خلفاء بنى أمية بالأندلس على منزع كتاب
(اليقين) في خلفاء الشرق للمسعودى .

ومثل ابن زيدون في قصيدته التى لم يقل مع
طولها في النسيب أرق منها وهى التى يقول فيها :

« كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والسعد قد غص من أجفان واشنيا
سران في خاطر الظلاء يكتننا

حتى بكاد لسان الصبح يفشيننا . »

وهل نشأ عندكم من النساء مثل ولاده الروانية التى
تقول مداعبة للوزير ابن زيدون ، وكان له غلام
اسمه على :

« ما لابن زيدون على فضله
يبتابنى ظلماً ولا ذنب لى
ينظر لى شرراً إذا جئته
كأنما جئت لأخفى على . »

ومن حكايات أهل الأندلس في خلق العذار
والطرب والطرف وغير ذلك كسرعة الارتحال
ما حكاها صاحب (بدائع البدائنه) قال :

أخبرنى من أثنى به بما هذا معناه -

قال : « خرج الوزير أبو بكر بن عمار والوزير
أبو الوليد بن زيدون ، ومعهما الوزير ابن خلدون
من إشبيلية إلى منظره لبني عباد لموضع يقال له
(الفنت) تحف به مروج مشرقة الأنوار ، متنسمة
الأنجاد والأغوار ، متبسمة هن تنور النوار ، في
زمان ربيع سقت الأرض السحب فيه بوسيتها وولها
وجلها في زاهر ملبسها وباهر حليها ، وأرداف
الربى قد تآزرت بالأرز الحضر من نباتها وأجباد
الجداول قد نظم النوار فلأئده حول نباتها ، ومجامر
الزهر تعطر أردية النسائم عند هباتها ، وهناك من
البهار مايزرى عل مداهن النصار ، ومن النرجس

فهى وإن اشتهرت بالشرق والمغرب لم يذكر جنتها
إلا قليل ، وقد كنت وقتت بالمغرب على تسديس
لها لبعض علماء المغرب ولم يحذرنى منها الآن لإفوله
فى المطلع :

« ما للعيون بسهم الفنج تصميها
وعن قطاف جنى الأعطاف تحميها
تألف كانت يحينا ويضينا
تفرق عاث فى شمل الحينا
أضحى الفراق بديلا » الخ
وما أحسن قوله فى هذا التسديس :

« ما للأحبة دانوا بالنوى ورأوا
تعويض عهد الابقا بالبعد حين ناوا
رعاهم الله كانوا للهود رعوا
فغيرتهم وشاة بالنفساد مسعوا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا
بأث نفوس فقال الدهر آمينا . »

وقد ذكرنا فى الباب الرابع موشحة ابن الوكيل
التي وطأ فيها لنونية ابن زيدون هذه فلتراجع -
رجع - وقال ذو الوزارتين ابن زيدون بتغزل :
« وضع الصبح المدين » الأبيات
وماسن ابن زيدون كثيرة وقد ذكرنا منها فى غير
هذا المجلد . وسألت جارية من جوارى الأندلس
ذا الوزارتين أبا الوليد بن زيدون أن يزيد على بيت
أنتدته إياه وهو :

« يامسطى عن وصال كنت وارده
هل منك لى غله أن صحت واعطشى . »
وكانت الجارية المذكورة تتشوق فى قرشياً والوزير
يعلم ذلك وهى لانتلم أنه يعلم ، فقال :
« كسوتنى من ثياب السقم أسبغها ظلما
لا وصبرت من لطف الضنا فرشى
. » الأبيات

وحكى أن الوزير أبا الوليد بن زيدون توفيت ابنته
وبسد الفراغ من دفنها وقف للناس عند منصرهم
من الجنائز لينشكر لهم ، فقبل إنه ما أعاد فى ذلك
الوقت عبارة قالها لأحد .

الوزارتين أبا عامر بن مسلمة ، وهو بينى مجلساً ،
فصنع أبياتاً كتبت فيه :
« عمر من يعمر ذا المجلس » الأبيات
وقال فيه أيضاً :

« أدرها فقد حسن المجلس » الأبيات
وكتب إلى الوزير أبا المعالى المهلب بن عامر يستدعيه :
« طابت لنا ليلتنا الحالية » الأبيات
وكتب إليه ذو الوزارتين أبو عامر المذكور معاتباً :
« نباعدا على قرب الجوار

كانا صدنا شحط الزار
تظن لى هلال الهجر بدرا
وصار هلال وصلك فى سرار
وشاع شذيع قطعك لى يوصلى
فهل كان ذلك فى استقار
أيجمل أن ترى عنى صورا
فأصبح مرلما دون اصطبار

وكتب أريد سمك من عتابى
ولكن عافنى فرط الحمار
فراع مودتى واحفظ جوارى
فأبى الله أوصى بالجوار
وزدنى منعا من غير أسر
وأنس موحشاً من فقر دار . »

فكتب إليه ابن زيدون :
« هوأى وإن تضاءت عنك دارى . . . » الأبيات
وكان أبو العطف إذ ورد إشبيلية رسولا قد سأله
أن يريه شيئاً من شعره فظله به حتى كتب إليه
شعراً يستعظمه ، فأجابه ابن زيدون فى العروض
والقفية :

« أفدتنى من نفائس الدرر » الأبيات
وهى أكثر مما ذكر . وكتب (أعنى ذا الوزارتين
ابن زيدون) إلى ولادة :

« أضحى الثنائى بديلا من تدانينا » الأبيات
وإنما ذكرت هذه القصيدة مع طولها لبراعتها ،
ولأن كثيراً من الناس لا يذكر جملتها ، ويظن أن
ما فى القلائل وغيرها منها هو جميعها وليس كذلك

ابن جهور

قل في المطمح :

الوزير الأجل أبو الحزم جهور بن محمد
ابن جهور ، وبنو جهور أهل بيت وزارة
اشتهروا كاشتهار ابن هبيرة في فزاره ،
وأبو الحزم هذا أمجدهم في المكرمات ،
وأنجدهم في المهمات - ركب متون الفنون
فراضها ، ووقع في بحور المحن ففوضها ،
منبسط غير منكشم ، لا طائش اللسان ولا
رعش ، وقد كان وزير في الدولة العاصمية
فشرفت بجلاله ، واعترفت باستقلاله ، فلما
انقرضت ، وعاقبت الفتن واعتضت ، تحيز من
التدبير مدتها ، وخلى لأخلافه تدبير الرياسة
وشدتها ، وجعل يقبل مع أولئك الوزراء
ويدبر غير مظهر للانفراد ، ولا متصرف في
ميدان ذلك الطراد ، إلى أن بلغت الفتنة
مداها ، وسوغت ما شئت رداها ، وذهب
من كان يجد في الرياسة ويحب ويسعى في
الفتنة ، ولما ارتفع الوبال ، وأدبر ذلك الاقبال
راسل مستمدا بهم ومعتمدا على بعضهم تخيلا
منه وتمويها وتداويا على أهل الخلافة وذويها
وعرض عليهم تقديم المعتمد هشام وأومض
منه لأهل قرطبة برق خلبه يشام ثمة بسرعة
التياشها ، وتعجيل انتكاشها ، وأنابوا إلى
دعائه ، وأجابوا إلى استدعائه ، وتوجهوا مع
ذلك الامام ، وألما بقرطبة أحسن المام ،

فدخلوها بعد فتن كثيرة ، واضطرابات مستثيرة
والبلد مقفر ، والجلد مسفر ، فلم يبق غير يسير
حتى نبذ واضطرب أمره نفع ، واختطف
من الملك وانتزع ، وانقضت الدولة الأموية ،
وارتفعت الدولة العلوية ، واستولى على قرطبة
عند ذلك أبو الحزم ، ودبرها بالجد والعزم ،
وضبطها ضبطا آمنا حانقها ، ورفع طارق
تلك الفتنة وطائفها ، وخلاله الجوق فطار ،
واقتضى اللبانات والأوطار ، فعادت له قرطبة
على أكمل حالتها ، وانجلي به نور جلالها ، ولم تزل
به مشرقة ، وغصون الآمال فيها مورقة إلى
أن توفي سنة ٣٥٤ هـ فانتقل الأمر إلى ابنه
أبي الوليد ، واشتمل منه على طارف وتليد ،
وكان لأبي الحزم أدب ووقار وحلم سارت بها
الأمثال وعلم المثال ، وقد أثبت من شعره
ما هو لائق ، وذلك قوله في تفضيل الورد . .

« الورد أحسن ما رأت عيني وأذ
كي ماسقي ماء السحاب الجائد
خضعت نواوير الرياض لحسنه
فتذلت تنقاد وهي شواهد
واذا تبسدى الورد في أغصانه
يزهو فذا ميت وهذا حاسد
واذا أتى وفد الربيع مبشرا
لطوع صفحته فنعم الوافد

ليس المبشر كالمبشر باسمه
خبر عليه من النبوة شاهد
وإذا تعرى الورد من أوراقه
بقيت عوارفه فهنّ خوالد . »



وقال صاحب كتاب المعجب :

ولما انقطعت دعوة بني أمية كما ذكرنا
بالأندلس ، ولم يبق من عقبهم من يصلح
للإمارة ، ولا من تليق به الرياسة استولى
على تدبير ملك قرطبة جهور بن محمد بن
جهور ، ويكنى أبا الحزم ، وقد تقدّم ذكر
نسبه في ترجمة هشام ، وأبو الحزم هذا
قديم الرياسة شريف البيت كان آباؤه وزراء
الدولة الحكّمية والعامة ، وهو موصوف
بالدهاء ، وبعد الغور ، وحصافة العقل ،
وحسن التدبير ، ولم يدخل من دهانه في الزنن
السكّانة قبل ذلك وكان يتصاون عنها ، ويظهر
النزاهة والتدين والعفاف ، فلما خلا له الجوّ
وأصفر الفناء ، وأقفر النّادى من الرؤساء
وأمكنته الفرصة وثب عليها فتولى أمرها ،
واضطلع بحمايتها ، ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة
ظاهراً جرياً على ما قدّمنا من إظهار سنن
العفاف بل دبرها تدبيراً لم يسبق إليه ، وذلك
أنه جعل نفسه ممسكاً للموضع إلى أن يجيء
من يتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك
ورتب البوّابين والحشم على تلك القصور
على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يتحوّل عن
داره إليها ، وجعل ما يرتفع من الأموال

السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك وهو
المشرف عليهم ، وصير أهل الأسواق جنداً له
وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم
محصة عليهم يأخذون ربهم ورؤوس الأموال
باقية محفوظة يؤخذون بها ويراعون في كل
وقت كيف حفظهم لها ، وفترق السلاح
عليهم ، وأمرهم بفرقة في الدكاكين والبيوت
حتى إذا دهمهم أمر في ليل أو نهار كان
سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو
دكانه ، وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ،
ويعود المرضى جارياً على طريقة الصالحين ،
وهو مع ذلك يدبر الأمور تدبير الملوك
المتغلبين ، وكان آمناً رادعاً وقرطبة في أيامه
حرماً يأمن فيه كل خائف ، واستمرّ أمره على
ذلك إلى أن مات في غرة صفر سنة ٣٥٤ هـ
فكانت مدة تدبيره منذ استولى إلى أن
مات أربع عشرة سنة وأشهر ، ثم ولى
ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه
أبو الوليد محمد بن جهور ، جرى في السياسة
وحسن التدبير على سنن أبيه غير مغل بشيء
من ذلك إلى أن مات أبو الوليد المذكور في
سليخ شوال من سنة ٣٧٤ هـ فغلب عليها بعد
أمور جرت - الأمير الملقب بالأمون ابن ذى
النون صاحب طليطة فدبرها مدة يسيرة
إلى أن مات ، وخلف فيها بعده من البربر
رجل يعرف بابن عكاشة أظن اسمه موسى ،
فكان بها إلى أن غلب عليها وأخرجه منها
الأمير الظافر بحول الله أبو القاسم محمد بن

عباد على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .
فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها دارا للملك
وبعد غلبة المعتمد عليها صارت تبعاً لاشبيلية .

جهور (١)

جهور بن محمد بن جهور بن عبد الله
ابن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن
أبى عبدة رئيس قرطبة ، يكنى أبى الحزم .
روى عن أبى بكر عباس بن المهذاني ،
وأبى محمد الأصيلي ، والقاضي أبى عبد الله بن
مفرّج ، وأبى القاسم خلف بن القاسم ،
وأبى يحيى زكريا بن الأشج وغيرهم . وسمع
منهم وأخذ العلم عنهم ، وقد أخذ عنه
أبو عبد الله محمد بن عتاب الفقيه ، فقال
حدثنا ثقة من الشيوخ الأكابر ، وهو يعنى
أبى الحزم هذا ، ثم صار تدير أهل قرطبة إلى
أبى الحزم هذا فأنتفها بالرياسة فيها ، إلى أن
توفى يوم الخميس لسبع بقين من المحرم من
سنة ٣٥٥ هـ ودفن بداره ، وصلى عليه ابنه
أبو الوليد محمد بن جهور متولى الأمر من
بعده ، وكان سنة يوم وفاته إحدى وسبعين
سنة ، وكان مولده أول المحرم سنة ٣٦٤ هـ .
أما قرطبة فاستولى عليها أبو الحسن
جهور بن محمد بن جهور ، وكان من وزراء
الدولة العاصرية ، موصوف بالدهاء والعقل ، ولم
يدخل فى شيء من النتن قبل هذا بل كان
يتصاون عنها ، فلما خلا الجوّ وأمكنته الفرصة

(١) من كتاب الصلة لابن بشكوال .

وثب عليها فتولى وقام بحمايتها ، ولم ينقل
إلى رتبة الأمانة ظاهراً بل رتبها وديرها تديراً
لم يسبق إليه ، وأظهر أنه حام للبلد إلى أن
يحيى من يستحقه ، ورتب البوائين والحشم
على أبواب قصور الأمانة ولم يتحوّل عن
داره إليها ، ودعا ما يتحصل من الأموال
السلطانية بأيدي رجال رتبهم له .
وكان جهور يشهد الجنائز ، ويعود المرضى ،
ويحضر الأفراح على طريق الصالحين ، وهو
مع ذلك يدبر الأمور تدير الملوك ، وكان
مأمون الجانب فأمن الناس فى أيامه ، وبقي
كذلك إلى أن مات سنة خمس وثلاثين
وأربع مائة ، وقام بأمرها بعده أبو الوليد
محمد بن جهور على هذا التدبير إلى أن مات .

بنو عباد

أما أحوال إشبيلية فانها كانت فى طاعة
الفاطميين أعنى على بن جود ، والقاسم بن
جود ، ويحيى بن على بن جود أيام كان
الأمر دائراً بينهم على ما تقدّم ذكره . فلما
زحف يحيى بن على بالبربر إلى قرطبة وهرب
القاسم بن جود منها ، رقص إشبيلية ، وقد
كان ابنه محمد والحسن مقيمين بها أجمع أمر
أهل إشبيلية ، واتفق رأيهم على إخراج محمد
والحسن عنها قبل وصول القاسم أيهما
فأخرجوهما ، وجاء القاسم فنعوه دخول البلد
أيضاً ، واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع
إليه أمرهم ، وتجتمع به كلمتهم فتوارد

وأجابوه إلى ما أراد ، ولم يزل يدبر أمر
إشبيلية ، وهؤلاء المذكورون من وزرائه ،
وكان له من الولد إسماعيل وهو الأكبر يكنى
أبا الوليد وعباد يكنى أبا عمرو ، فأما إسماعيل
فخرج إلى لقاء البربر بعد أن حدث لأبيه
أمل في التغلب على ما كان البربر يملكونه
من الحصون القريبة من إشبيلية بعسكر من
جند إشبيلية ، فالتقى هو وصاحب صنهاجة ،
فأسلمت إسماعيل عساكره ، وكان أول قتيل
وقطع رأسه وسير به إلى مالقة إلى إدريس
ابن علي الفاطمي كما تقدم ، وبقي الأمر
كذلك ، والقاضي أبو القاسم يدبر الأمور
أحسن تدبير ، وكان صالحا مصلحا إلى أن
مات في شهر رستة ٤٣٩ .

اختيارهم بعد محض الرأي وتنقيح التدبير
على القاضي أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن
عباد اللخمي لما كانوا يعلمونه من حصافة
عقله ، وسعة صدره ، وعلو همته ، وحسن
تدبيره ، فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك ،
فتهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد أولا
وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم
رجالا سماهم لهم يكونون له أعوانا ووزراء
وشركاء لا يقطع أمرا دونهم ، ولا يحدث
حدثا إلا بمشورتهم ، وهؤلاء المسمون هم
الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي ،
ومحمد بن يريم الالهاني ، وأبو الأصبع عيسى
سحاج الحضرمي ، وأبو محمد عبد الله بن علي
الهورني ورجال آخرون ذهبت عن أسمائهم
ولا أعرف قبائلهم وبيوتهم ، ففعلوا ذلك

صفحات من كتاب العيني^(١)

عن مقاومته فأخرجوه ، فاستدعاه القاضي
أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد
إليه بإشبيلية ، وأذاع أمره ، وقام
ينصره ، فسار إليه وقام بواجبه ، وكتب
بظهوره إلى ملوك الأندلس فأجاب أكثرهم
وخطبوا له ، وجرت بيعته في المحرم سنة
تسع وعشرين وأربعمائة ، ثم إن عباد سير
جيشا إلى زهير العاصري بأنه يخطب للمؤيد
فاستنجد زهير حيوس بن مكر الصنهاجي

وأما إشبيلية فاستولى عليها قاضيا محمد
ابن إسماعيل بن عباد اللخمي ، وهو من
ولد النعمان بن المنذر ، وفي هذا الوقت
ظهر أمر المؤيد هشام بن الحكم ، وكان
قد اختفى وانقطع خبره ، وكان ظهوره بمالقه
ثم سار منها إلى المرية ، نفقه صاحبها زهير
العاصري وأخرجه منها ، وقصد قلعة رباح
فأطاعه أهلها ، فسار إليهم صاحبها أول
إسماعيل ذي النون ، فخاربهم وضعفوا

(١) كتاب عقد الجمان للعيني ، القسم الرابع .

وتلاحق بحريز أصحابه وأشباعه ، وترك الظافر ملقى على الأرض ، فرّ عليه بعض أهل قرطبة فأبصره على تلك الحالة فنزع رداءه وألقاه عليه ، وكان أبوه إذا ذكره يتثمل بهذا البيت :

« ولم أدر من ألقى عليه رداءه

سوى أنه قد سل عن ماجد محض. »

ولم يزل المعتمد يسعى في أخذها حتى عاد ملكها إليه وترك ولده المأمون فيها فأقام بها حتى أخذها يوسف بن تاشفين وقتل فيها بعد حروب كثيرة يأتى ذكرها إن شاء الله تعالى وأخذت إشبيلية من أبيه المعتمد ، وبقي مسجوناً في أغصان إلى أن مات بها ، وكان هذا وأولاده جميعهم - الرشيد ، والمأمون ، والراضى ، والمعتمد ، وأبوه ، وجدته علماء شعراء -

ملوك الطوائف (١)

بقلم الأستاذ نيكلسون

تفرقت امبراطورية عبد الرحمن الثالث العظيمة ، وظهر على أنقاضها عدة ممالك صغرى « دويلات » أنشأها الظروف والمصادفات ، وكان يحكمها بعض القادة المظفرين .

وقد أحسن نيكلسون في تشبيه تاريخ إسبانيا في القرن الحادى عشر الميلادى

(١) فصل مختار من كتاب نظرات في تاريخ

الأدب الأندلى للشارح .

صاحب غرناطة ، فسار إليه بجيشه فعادت عساكر ابن عباد ، ولم يكن بين العسكرين قتال ، وأقام زهير ببأسه ، وجاء حيوس إلى مائة فأتى وولى بعده ابنه باديس ، واجتمع هو وزهير ليعتقما كما كان زهير وحيوس فلم يستقر بينهما قاعدة واقتتلا فقتل زهير ، وجمع كثير من أصحابه ، والتقى عسكر ابن عباد وابنه إسماعيل مع باديس بن حيوس ، وعسكر إدريس النولوى صاحب سبتة بطنجة واقتتلوا قتالا شديدا فقتل إسماعيل ثم مات بعده القاضى أبو القاسم بن عباد وولى بعده ابنه أبو عمرو ، ولقب المعتض بالله فضبط ما ولى وأظهر وفاة المؤيد ، واشتمل بأمر إشبيلية وبقي كذلك إلى أن مات وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد ولقب بالمعتمد على الله ، فاتسع في ملكه ، وشمخ سلطانه ، وملك كثيرا من الأندلس ، وملك قرطبة أيضا ، وولى عليها ابنه الظافر بالله فبلغ خبر ملكه لها إلى يحيى بن ذى النون صاحب طليطلة فحسده عليهما فضمن له جرير بن عكاشة ، وسار إلى قرطبة ، فأقام يسعى في ذلك وهو ينتظر الفرصة ، فاتفق أن فى بعض الليالى جاء مطر عظيم ومعه ريح شديدة ورعد وبرق فتار جرير فخرج الظافر فيمن معه من العبيد والحرس ، وكان صغير السن فحمل عليهم ودفعهم عن الباب ، ثم إنه عثر فى بعض كراته فسقط فوثب عليه شخص فقتله ولم يبلغ الخبر إلى الأجناد وأهل البلد إلا والقصر قد ملك

كل جهة فتحوها فعاش أولئك المسيحيون في كنف المسلمين ، وأحسن الحكومة معاملة لهم ، ومنحتهم الحرية الدينية وكثيرا مارفتهم إلى مناصب عالية في الجيش وفي بلاط الملك . فاعتق كثير منهم الحضارة الاسلامية وافتن بها افتنا .

حتى رأينا « القارذ » كاهن قرطبة في أواسط القرن التاسع لليلاد يولول في أوائل ذلك العصر شاكيا من أبناء دينه انصرفهم إلى مطالعة أشعار العرب وأساطيرهم وهيامهم بدراسة كتابات لاهوت نبي المسلمين وفلاسفتهم لا يتصدون بذلك إلى تنفيذها بل يقصدون إلى التعبير عن خواجلهم بأسلوب عربى رائع صحيح .

وكان القارذ يقسامل .

أنى يتاح لانسان فى هذه الأيام أن يقابل واحدا من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة ؟ ومن ذا الذى يدرس منهم فصول الأناجيل وسير الأنبياء والحواريين ؟ واحسرتاه :

إن كل الشبان المسيحيين ذوى المواهب لا يعرفون الا العربية والا كتابات العرب فهم يقرءونها ويدرسونها بحماسة بالغة منتهاها كما أنهم ينفقون المال الطائل لاقتنائها فى مكاتبهم وتراهم أنى وجدوا يذيعون أن تلك الآداب جديرة بالاعجاب .

فاذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية أوزورجانهم وأجابوك

بتاريخ إيطاليا فى القرن الخامس عشر ، فقد كان وجه الشبه - كما يقول - كبيرا جدا بينهما .

وكان هؤلاء القادة الذين اقتسموا بلاد الأندلس أشبه بأولئك القادة الذين كان يطلق عليهم فى إيطاليا اسم : « Condottieri » وكان من بينهم ملوك العبادية الذين قطنوا لإشبيلية ، وهم أقوى ملوك ، وقد أطلق عليهم كتاب المسلمين اسم : « ملوك الطوائف » وعلى الرغم من أن ذلك كان عصر تدهور سياسى ، وعلى الرغم من أن إسبانيا تشكو عجز مواردها الاقتصادية ، فقد وصل المجتمع فى تلك الأيام الى مستوى لم يصل الى مثله من قبل .

وهنا يجدر بنا أن نقف لحظة علنا نستطيع أن نستعرض فيها أمامنا الشوط البعيد المدى الذى قطعه الآداب والعلوم فى طريق النجاح فى ذلك العصر الذى يعد أزهى عصور الاحتلال الاسلامى فى أوروبا .



فينا ترى العرب الفاتحين فى آسيا - كما بينا ذلك - قد سحرتهم حضارة قديمة تفوق حضارتهم بما لا نهاية له فأذعنوا لها وظهر أثرها فيهم إذ تراهم لم يكادوا يعبرون مضيق جبل طارق - فى الغرب - حتى انعكست الآية تماما .

وذلك أنهم بعد أن تغلبوا على شبه الجزيرة وقع فى أيديهم آلاف المسيحيين من

وقد كان للشعر العربي - في أوروبا -
على الاجال الخصائص التي رأيناها في الشعر
المعاصر له في الشرق .

فان الأوزان المصطلح عليها والقيود التي
لم يستطع أساطين بغداد أن يحرروا أنفسهم
من ربقتها ظلت مجذابة في قرطبة واشبيلية .
وكما تأثر الشعر العربي في الشرق بالآداب
الفارسية ، فقد تأثر في اسبانيا كذلك باتحاد
الآريين والساميين واندماجهم شيئا فشيئا .
فكان ذلك سببا في ادخال عناصر
جديدة ظهرت في آدابها ، ولعل أمتع ميزات
الشعر الأندلسي هي ذلك الوجدان العاطفي
الراقي الذي يندر وجود مثله في النسيب
والذي ظهر كثيرا في أغانيهم عن الحب وهو
وجدان لا يقتصر على تصوير فروسية القرون
الوسطى بل يتخطى ذلك إلى حد أن تحسبه
إحساسا جديدا بمحاسن الطبيعة التي جلته .
ولهذه الميزة سهل فهم ذلك الشعر على
الكثيرين من الآريين الذين قد لايسهل
عليهم تفهم روح المعتقدات أو قصائد المتنبي .

بازدراء أنها أسفار نافهة لا خطر لها .

واحسرتاه عليهم ! لقد نسي المسيحيون
أنفسهم حتى ليندروا العصور بين آلاف منا على
على فرد يستطيع أن يحرر الى أحد أصدقائه
رسالة لاتينية بأسلوب لا بأس به على حين
ترى جهرتهم قادرة على الابانة عما في نفوسهم
بأسلوب عربي رائع ، وعلى حين ترى حذقهم
في قرض الشعر العربي قد وصل الى حد فاقوا
معه العرب أنفسهم .

ومهما يكن في كلام هذا الكاهن من
اغراق فما يترفع عن الجدل والتشكك أن
الثقافة الاسلامية قد أخذت بألباب
المسيحيين الاسبان ، كما افتن بها اليهود
الذين خدموا الشعر والفلسفة بمساعدتهم
العديدة وكتاباتهم التي أنشئوها بلغتهم وبلغه
أبناء عمهم العرب .

أما المولدون والصابثون من الاسبانيين
الذين لانوا بالاسلام فقد استعربوا تماما بعد
أجيال قليلة ، ومن هؤلاء نبغ أشهر من
ازدان بهم الأدب العربي .



دراسات الكتاب لابن زيدون

« أثبتنا في هذه الصفحات أهمّ الدراسات
التي كتبت - في العصر الحديث - عن
ابن زيدون إتماماً للفائدة . »

١ - دراسة الدكتور أحمد ضيف^(١)

اقتربت الوزارة في الأندلس بالأدب ، فكان الوزير كاتباً وشاعراً ، وكان أشهر الكتاب والشعراء وزراء ، وكانت الشهرة بالكتابة والشعر ، وفنون الأدب ، وفروع العلوم من وسائل الوصول إلى امتلاك الوزارة ، فكان للوزراء أثر عظيم في سير البلاغة والأدب ، وأصبحت منزلة الأدب كمنزلة الوزراء أنفسهم في الدولة ، وظهر في الأندلس طائفة من الرجال الذين تربعوا في مناصب الملك ، وتغلبوا في مراكز الدولة ، وتغلبوا على شئوننا ، وهم جميعاً من الأدباء والعلماء والكتاب والشعراء وأصحاب الثورى ، وأعلام الحياة العقلية .

ومن أشهر هؤلاء الوزراء الأدباء والشعراء المجيدين ، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب ابن زيدون الخزومي الأندلسي القرطبي ، أشهر من عرف في حلبة الأدباء ، وأظهرهم ميزة في فنون الكلام وأساليب الشعر والبيان ، لأنه صورة من صور الأدب في الأندلس ، وصحيفة من صحف البلاغة هناك ، وثمرة من ثمار غرس العرب في بلاد المغرب .

ولد ابن زيدون بمدينة قرطبة في سنة ٣٩٤ هـ وتوفي بإشبيلية سنة ٤٦٣ هـ وهو ثالث ثلاثة سموا بابن زيدون : أحدهم أبو بكر عبد الله بن أحمد بن غالب والده ، والثاني أبو بكر ابنه وكان وزيراً للعتمد بن عباد ومات مقتولاً ، وهم من أصل عربي كما أشرنا إلى ذلك في كلامنا على القبائل التي نزلت الأندلس من العرب . كان أبوه قاضياً مشهوراً بين قضاة قرطبة ، وعالماً وأديباً . مات سنة ٤٠٥ هـ فكان صر ابنه إذ ذاك إحدى عشرة سنة ، وكان أبو الوليد منذ حداثة ميلاً إلى العلم والتعلم ، فاندفع يطلب لنفسه الكمال العقلي ، وكانت نشأته في قرطبة ساحة العلوم والآداب ، فانكب على الدرس والبحث ، وأخذ الأدب عن رجاله المعروفين ، وكان له ميل شديد لعلوم العرب وفنون اللغة لحفظ منها شيئاً كثيراً ، كما وعي كثيراً من أخبار الأدباء والشعراء ، وأمثال العرب وحوادثها ، ومسائل اللغة ، حتى أصبح في مقدمة الشعراء والأدباء ، واندمج في مجالس الأدب ، فصار معلماً من أعلامها ودعامة من دعائمها ، وكانت قرطبة لاتزال في أوج حلا عزها على الرغم من أقول شمس بن أمية بها ، وأهلها في رخام من العيش ، أكثرهم يميل إلى العلم والأدب ومجالسة الأدباء ، فامتلات المخافل والجامع بضروب اللهو والطرب ، وكان لابن زيدون خفة روح ودعابة وميل إلى المجون ، فساعده ذلك على أن يسبق غيره ، وأن ينال شهرة

(١) من كتاب بلاغة العرب في الأندلس للدكتور أحمد ضيف .

واسعة بين أترابه . وكان للنساء أثر عظيم في هذه المجالس ، فاتجه الناس إلى الاندماج فيها واستمدوا هذا المورد ، وانصرفت همم الأدباء إلى التفوق في هذا الميدان ، فكان لذلك أثر عظيم في أخلاق الأدباء وصورة البلاغة من نظم ونثر ، وكأنا ضاعت كل صفة جديّة في المجامع الأدبية بجرؤ الوزراء على المجاهرة بالمجون ، وكان ابن زيدون أحد أبطال هؤلاء فغذب إليه الأنظار .

وكان لولادة بنت المستكفي الخليفة الأموي شهرة عظيمة في قرطبة لجمالها وعلما وأديبا ، فوقع ابن زيدون في شركها ووقع في شركه ، واشتغل كل منهما على صاحبه ، حتى حسد عليا وحسدها الناس عليه ، وكان من بين هؤلاء الحساد الوزير أبو طاهر بن عبدوس وهو كبير الحول والطول ، فتقرب إلى ولادة حتى أمالها إليه ، وكانت ولادة ملت صداقة ابن زيدون واتهمته كما اتهمها بذلك أيضا ، فهبت عاصفة من الجفاء بينهما شنت من شملها وحالت بين قلوبهما ، لذلك غلب ابن عبدوس ابن زيدون على أمره ، واستولى على قلب ولادة ، ثم حدث أن رجعت إلى ابن زيدون فكتب عن لسانها لابن عبدوس رسالته الشهيرة الهزلية ، ثم استأثر بها ثانية ابن عبدوس ، فكانت هذه الحال سبب اضطراب في حياة ابن زيدون العقلية والسياسية وهكذا كانت حال الوزراء وأرباب الدولة وعقول الأدباء وأصحاب الأفلام والمفكرين ، وهذه الحادثة من أكبر الحوادث في حياة ابن زيدون . عاش ابن زيدون في بيئة كلها اضطراب ودياس ، وترى ودرج في ذلك وتقلد لوزارة فيها ، لأنه اشترك في حوادث الاضطراب التي كانت على أثر زوال دولة بني أمية ، فكان من أشباع ابن جهور أحد ملوك الطوائف الذي ادعى لنفسه الملك في قرطبة بعد انحلال الدولة الأموية سنة ٤٢٣ . وعلت منزلة ابن زيدون هناك ، فالتحقه ابن جهور وزيراً له فلك أزمة الأمور ، وكان أقرب الناس إلى سيده الذي استعان به كثيراً في المسائل السياسية ، وتأمين الصلة بينه وبين الأمراء الآخرين لذلك ودعائه ، فكانوا يحسدون ابن جهور على الاختصاص به ، وحدثت حوادث أوفرت عليه صدور كثير من منافسيه والحاسديه على فضله ومنزله ، فحملوا عليه عند ابن جهور حتى أمر بسجنه فسجنه طويلاً ، فاستغفر واستعطف بما يلين من أجله الحديد ، فلم يفلح في إرضاء الأمير فعزم على إعمال الحيلة والهرب من السجن . واختفى بقرطبة إلى أن استنقذ بأبي الوليد بن جهور هند أبيه أبي الحرم حتى شفع له ، وجعله أبو الوليد بعد موت أبيه من المقدمين في دولته ، ولكن ابن زيدون لم يأمن على نفسه من بقاءه في قرطبة ، فهاجر إلى إشبيلية سنة ٤٤١ . ودخل في حاشية المعتضد بن عباد وصار وزيراً لابنه المعتمد وبقي هناك إلى آخر عمره . هذه حياته وأخلاقه ، وقد ذكرها في شعره ونثره ومنها يرى أن حركات عقله كانت تفوق ذلك خطوة بخطوة ، فكانت حياته العقلية نتيجة هذه الحياة ، لذلك يمكن أن تقسم آثاره الأدبية إلى أقسام ثلاثة : عشقه لولادة وأثر ذلك في نفسه وما كتبه في هذا ، ثم مدحه لابن جهور وابن عباد ثم أثر السجن في حياته العقلية .

شعر ابن زيدون

كان لأخلاق ابن زيدون والبيئة التي عاش فيها وميول الناس إلى اللهو أثر عظيم في شعره ، فقد كان للمجون مسحة خاصة في النظم والنثر ، فبرز ابن زيدون في النثر ، وكثير من شعره في ذلك كان منبثاً عن ثوران في نفسه وغليان في ميوله وأهوائه ، أذكر ذلك كله حبه لولادة ، فإن عشقه هذا فتح له باباً واسعاً

من الخيال قال فيه ما شاء وشاءت مواطنه أن توحى إليه ، كذلك كانت آلامه وما لاقاه في السجن باعثاً من بواحت استنهاض ملكة الشعر فيه وإلهاماته الفنية .

وشى به أعداؤه وحاسدوه إلى ابن جهور ، وكاد له منافسوه في حب ولادة حتى نالوا منه ، وشفوا غلثهم بحمل ابن جهور على سجنه بعد أن أحله منزلة الوزير يدبر ملكه ، وبعد أن اثبتنه وعرف له رأي السيد وبراعته في إدارة الأمور وسلمه زمام الدولة ، ولم يكن لابن جهور أن يخطئ في نظره لما اشتهر به نفسه من سداد الرأي وصحته ، فإذا ناله ابن زيدون مكانة في نفس ابن جهور ، فقد كان ذلك عن جدارة واستحقاق ، ولكن أعداؤه تمكنوا من ابن جهور فنضب عليه وأمر بسجنه ، فأثار هذا السجن من نفس ابن زيدون عاصفة فنية جديدة رقت من خياله الشعري أنارتها آلامه فأخذ يئن أنينا جيلا ، ويفتن في آلامه ووصفها والتعبير عنها مرة شعراً ومرة نثراً . . . والفن يمزج فنه دائماً بكل ما يرى ويجمع ويشعر ، ولقد كانت نفس ابن زيدون من النفوس الدقيقة الإدراك ، التي إذا أنت تثن أين الموسيقى ، وإذا شكت تشكو شكاة القلوب المملوءة شعوراً الواسعة التصور والإدراك الدقيق ، الذي يجعل الشكوى جيلة والكلام فيها جيلا . كتب ابن زيدون من السجن إلى صديقه أبي حفص بن برد يشكو ويئن من بلواه وهو ينهض الأمل مرة ويقمده اليأس أخرى ، ولا يترك شاردة تمر بمخاطره إلا هداها بنفسه ، وتسلى بها عن آلامه . يستسلم أحياناً إلى القضاء فيشعر في نفسه براحة واطمئنان ، ويقلب أماءه صفحات الأيام فلا يعجب من الحوادث التي ألمت به ، ويرجع إلى صديقه فيسليه هو بنفسه ، ويسأله ألا يكف عن مجونه وتسليته ، لأن السعادة خلصة ، ثم يعود فيذكر أعداءه ويبلغهم منه ويبين أن ذلك ليس بالعجب لأنه :

إن قسا الدهر فللمساء من الصخر انجاس

ويرى أنه حسد لمكاته ، ويمزج ذلك بالعبور والحكم والسخرية والتهمك من أحوال العالم وحوادث الحياة ، ويرجع أيننه وألمه وحقدته على الناس ، ولا سيما حاسديه ، وضرب المثل كي يسكن من نفسه ، وهو في ذلك كمادته في الشكوى : يهبط مرة إلى الدرك الأسفل من اليأس ، ويرفع أخرى إلى ذروة الرجاء ، وكأنه في شجار مستدر بينه وبين نفسه وشعوره ، كل هذه المعاني في أبيات قليلة بأسلوب جميل رقيق ، يكاد يلح الإنسان فيها خاطره المضطرب المتماوج . حيث يقول :

« ما على ظني بأس يجرح الدهر ويأسو » الخ

هذه نفحات القلوب ، وهذا هو الشعر الذي يستولى على النفس ويلهمها الحكمة والعبرة ، وهذا هو جمال القول ، ليس ذلك لأنه مطرب مرقص بوزنه وقافيته ، بل لأنه ساهر بمعانيه وجماله ، كل معنى فيه يحتاج إليه النفس في مثل هذه المواقف ، ولقد كانت هذه المعاني سائفة للنفس لأن الشاعر صادق في قوله ، معبر عن شعوره يرسم صورته من نفسه الحزينة المتألمة ، لهذا كان الشعر جيلا .

وقد بدأ قصيدة من قصائده في هذا بالفخر بنفسه ، وأمن في ذلك ، وكأنما كان يبكي حظه ويندبه بهذا الأسلوب الفخري ، أو كأنما كل معنى من هذه المعاني كانت تهدي خاطره وترمى نفسه ، فلما مدح ابن جهور مدحه في قالب استعطاف ، وتوسط بين المدح الخالص والعتب الجدي ، وتذلل بغيره بنفسه ، فلما مدح كبيره وأنف أشم حتى أنه مدح نفسه أكثر من ابن جهور ، فكان مادحا أشد منه عاتباً ، لأنه كثيراً ما كان في مثل هذا الموقف لا ينسى الفخر بنفسه ، ولا يريد أن يعلل عليها ولو همسا أنه في موقف منزلة ، وكأنه كان يتسلى بهذا ، لأنه يرى أن أعداءه لم ينالوا منه إلا لأنه فاتهم بملء فضله حتى إنه قال متهمكاً :

« ولو أنني أستطيع كي أرضى العدا شريت ببعض الحلم حظاً من الجهل . »
وكل قصائده التي أرسلها يستعطف بها ابن جهور هي أثر ذلك الشقاء الذي لقيه في سجنه ، وصورة من صور
البؤس الذي حرك شعوره وفتق من لسانه ، وأثار في نفسه عواطفه الشعرية المظلمة الملوثة هماً وغمماً .
ولكن أسلوبه في الشكوى والاستعطاف واحد في نظمه ونثره ، وما أشبه قصائده في ذلك وما فيها من
من المعاني برسائله الجديدة ، وكأنما كان فكره سجيناً مثله من شدة تألمه في السجن ، فانه لم يخرج عن
عادته في ضرب الأمثال والفخر بنفسه ، وأنه أفضل لإنسان وأكرم من دبّ على وجه الأرض .
غير أن كلامه مع ذلك عذب المذاق ، رقيق الحاشية ، جذاب خلاب ، تظهر عليه سيما الابتكار
والصدق في التعبير ، فانه ليس من الخيالات الشعرية الصرفة ، بل به كثير من الحقائق التي كان يملئها عليه
شعوره كما قال :

« ما جل بمدك لحظي في سنا القدر إلا ذكرتك ذكر الدين بالأثر . »

وكتب إلى أحد أصدقائه وهو مخنف بقرطبة بعد فراقه من السجن ، فقال :

« . . . ويلغني أنك أحد اللاتين لي الخ »

إلى أن قال :

« شحطنا وما بالدار نأى ولا شحط وشط بمن نهوى المزار وما شطوا . »

إلى آخر ما قال في هذه القصيدة التي هي من أبدع قصائد الشكوى وأجمعها لذكر الماضي والحاضر والاستغفار
والاستعطاف ، والسرور بذكر ما انتفى والبكاء على الحاضر ، وهي أيضاً أظهر في لهجتها الجديدة من
كثير من شعره ، ولذلك كانت أجف في أسلوبها ومعانيها ، ليس بها تلك الرقة المبهودة في كلامه ، كل ذلك
ماجه السجن وما تذوقه من الآلام ، فرسه في شعره ، لأنه رجل فني يعرف كيف يصور ما يشعر به ويعبر عما
يجول بخاطره . ولقد يلاحظ الانسان أن آراء ابن زيدون آراء عامة ليست ناشئة عن تفكير طويل أو
علم واسع ، وإنما هو خيالي أكثر منه مفكراً ، وشاعر أكثر منه عالماً ، وهذه كل حال شعره ونثره .
أما مدحه ورمائه فهما في الرتبة الأخيرة من شعره ، لأنه على جمال أسلوبه في ذلك ، وحسن تصرفه في المعاني
لا يكاد يعثر الانسان فيه على معنى جديد ولا رأى خاص ، بل يكاد يكون كل ما جاء من المعاني من قبيل معارضة
غيره من الشعراء والأخذ بمعانيهم ممزوجاً ذلك بما له من البراعة والصناعة والافتنان .

ومن أجل قصائده كلامه في المعتضد بن عباد وابنه المعتد ، ومن أرق كلامه في الشكوى ، وأقرب
عباراته وصولاً إلى القلوب بكاؤه على الماضي ، والتلذذ بذكره وما كان فيه من النعيم كقوله :

« الهوى في طلوع تلك النجوم واللى في هبوب ذاك الليم . »

ولقد كان ينظر إلى أيامه الماضية فيحن إليها حنيناً مؤلماً ، فاذا قرأت شعره في ذلك رأيت نفسك كأنتك
واقف على أطلال سعادته البالية ، فبكي وبكيت معه ، كما قال :

« ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح تقضت مبانها مدامه نرحا . »

الغزل في شعر ابن زيدون

يتبين من أحوال الاجتماع في الأندلس ، وميول النفوس ، واختلاط النساء بالرجال ، واندماج كثير من
الأدبيات في مجالس اللهو والطرب ، أن المرأة شغلت جزءاً عظيماً من أوقات الرجال المفكرين ، وملأت

رءوسهم ، كما أن مجالس الشرب كان لها سلطان عظيم على نفوسهم ، فكانت المرأة تحرك العواطف والشعور ، والحر تدر العقول ، وتملي عليها القول ، وتفتح أمامها طرق النصور والخيال ، والمقول ثملة بذشوة الغرام والرهوس مثقلة بحرارة المدام ، والناس لا يفوتهم الطرب ، ولا يريدون أن يتواروا عنه لعلته بنفوسهم ، حتى في أشدّ الحزن ، فقد رأينا أن ابن زيدون كتب وهو في سجنه لصديقه أبي حفص بن برد يقول :

« وأدر ذكرى كاساً ما امتطت كفك كاس

واغتتم صبغو الليالي إنما العيش اختلاس . »

وقع ابن زيدون في شرك ولادة بنت المستكفي بالله ، وكانت خليعة ماجنة بارعة رفيعة بين الأدباء « تناضل الشراء ، وتساجل الأدباء ، وتفوق البرعاء . . . خرجت على نهاية في الأدب والظرف ، حضور شاهد ، وغزارة أوابد ، وحسن منظر ومخير ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدب لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يمشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهاك أفراد الشراء والكتاب على حلاوة عسرتها ، وسهولة حجابها ، وكثرة منابها ، تخلط ذلك ببلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها . . . » وقالوا « إنها كانت بالمغرب كملية بالشرق ، إلا أن هذه تزيد الحسن ، وأما الأدب والشعر والنادرة وخفة الروح فلم تكن تقصر عنها ، وكان لها صنعة في الفناء ، وكان لها مجلس يقشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها ، فيمرّ فيه النادر وإنشاد كثير مما اقتضاه عصرها وكانت من الأدب والظرف ، وتمتيع السمع والظرف ، بحيث تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب إلى أخلاق الشباب » فقال ابن زيدون رضاها ، ووقع من نفسها كما وقعت هي من نفسه ، حتى كتبت إليه تضرب له موعداً فقالت :

« ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكرم للسر

وبني منك ما لو كان بالشمس لم تلج وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر . »

قال أبو الوليد : « فلما طوى النهار نوره ، ونشر الليل دنانيه ، أقبلت بقدر كالفصيص ، وردف كالكتيب ، وقد أطلقت نرجس الغل ، على ورد الحجل ، فلنا إلى روض مدح ، وظل سجع ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودرّ الطلّ منشور ، وجيب الراح مزورور . فلما شبتنا نارها ، وأدركت منا نارها ، صرح كل منا بحبه وشكا ما قبله . . . وأنشدتها :

« ودع الصبر محب ودعك ذائع من سرّ ما استودعك . »

وكتبت إليه بعد ذلك تقول :

« أأهل لنا من بعد هذا التفرق سبيل فيشكو كل صب بما لقي . »

إلى أن قالت :

« تمرّ الليالي لا أرى الين ينقضي ولا الصبر من رق الشوق معني

سقى الله أرضاً قد غدت لك منزلاً بكل سكوب هاطل الويل مفدق . »

ولا نريد الآن أن نتكلم في العشق وأثره في النفس وما يوحيه من روائع القول وجمال الفكر حتى عند عامة الناس ، فإن تاريخ الإنسانية حافل بمحوادثه . ولكننا نقول : إن العشق في كلام العرب أو شعر الغزل كما يسمونه ، ليس من المسائل الهزلية . لأن الشعر الذي هو وحي النفوس وجمال الإدراك الإنساني ، أكثر ما يكون ظهوراً في التعبير عن الحب ، ووصف هذا الضعف الإنساني الذي نسميه عشقاً ، فإن العشق إدراك

أكبر مظاهر الجمال في الحياة ، ومن لم يفتح له قلبه يوماً ما ، لم ير غير ظواهرها ولم يتسرب إلى نفسه بصيص ضوء من جمال مظاهر الحياة وأسرار النفوس في التألف ، وكثير من آمال الناس في تلك الصلة النفسية ، والعشق وما فيه من سعادة وجمال سر كامن في الشعر ، لأنه مصدر الشعر الخيالي الجميل . لذلك كان أجل الشعر ما يكشف عن سر من أسرار النفوس ، ويفتح القلوب . ويظهر مكنونات الإنسان وأخلاقه وآلامه وآماله . إن النساء منبع من منابع الشعر ، والشعراء مدينون لهن بأفضل الصفات لديهم وهي وصف شعور الناس ، والشاعر الذي يشمر بالحب لا يتكلم عن نفسه فحسب ، وإنما يجمع آلام العشاق وأنينهم فيتألم ويئن معهم ، وليس أعذب من هذه الآلام ولا أحب للنفس من سماع هذا الأنين . إن الشاعر يصوغ بكلماته اهتزازات القلوب ورنات ما يحول من المعاني ويدفعها إلى النفوس فتصيب إلىها ، ويذيعها بين العشاق فيرى كل قلبه وكأنه ينظر في مرآة يرى فيها صورته ، وذلك لا يكون إلا في الشعر

فإذا أخطأ العرب في إمعانهم في هذا النوع والإكثار منه ، فقد أخطأوا من جهة واحدة : وهي تكرار المعاني وتقليد بعضهم بعضاً في ذلك ، وظنهم أن كل قلب يحب بشكل واحد ، وإن صلة الحب بمظاهر الجسم قوية متينة ، وأن المعاني محصورة في ذلك . ولكن ابن زيدون ليس من هؤلاء المقلدين ، بل من الذين كانوا يجولون جولات واسعة في الخيال ، فكان فنياً مبدعاً . أرابت شعراء الغرب كيف يطنون في وصف الأمكنة التي اجتمعوا فيها مع صديقاتهم ، وهم يتخذون ذلك وسيلة لأمرين : الأول إحياء ذكرى تلك الأيام والأمكنة وما فيها ، إذ كل شيء هناك كان يشهد حبهم ويعطف على عشقهم ، وتلك الأمكنة جميلة لأنها احتوت عليهم ، والأضواء التي تسطع عليهم والأشجار التي كانت تظله . والكواكب التي كانت تنجس أخبارهم ، جذيرة بأن لانسى ، لأنها أثر من آثار العشق . الثاني أن الشاعر الفني يفر من التكرار ، ويعرف أن معاني العشق والحب سرعان ما تنفد ، فهو يتحایل على بث شيء من المعاني الأخرى التي لها صلة بذلك ، كي يتسنى له أن يجول في ميدان أوسع ليصل إلى التعبير عن مراده ، أو يمنع العقول من أن يدركها الملل . فهو يستعين بذلك كما يستعين المصور الماهر بالألوان لإظهار الصورة التي يريد أن يرزها . كذلك كان ابن زيدون من هؤلاء الفنانين أو قريباً منهم . فقد التجأ إلى مدينة الزهراء الجميلة في أيام الربيع ، يريد أن يسلي نفسه ويخفف عنها من أثر حبه ولادة ، فذكر في شعر أرسله إليها كل ما كان يحيط به إذ ذاك وأبدع أيما إبداع ، وافقت انتناناً عظيماً في ذلك ، فقال :

« إني ذكرتك بالزهراء مشتاقاً والأفق طلق ووجه الأرض قدراقاً »

وإذا كان لابن زيدون مزنة في شعره الغزلي فليس ذلك في ابتكار المعاني التي لم يسبق إليها ، وإنما في طريقة تصويرها بمباراة تملك النفوس وتستولي على القلوب وكان الإنسان لم يقرأ مثلها ولم يسمع بما يشبهها لجودة الافتنان في التعبير والاسلوب . كما في قوله :

« إليك من الأنام غدا ارتياحى وأنت من الزمان مدى اقتراحي . »

ولقد يسمع الإنسان أنيته في شعره ، ويرى أنه الحزينة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسي اللذين يملآن نفوس العشاق ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها . على أنه يلتذ لذكر محبوبته ويذوق الآلام بسببها . فيقول :

« متى أنيك ما بي ياراحتي وعذابي . »

ولقد بلغ درجة من التعبير يحمل بها القارئ على الاعتقاد بأنه مخلص كل الإخلاص في حبه ، وأن حبه هذا هو كل أمنيته ، وأنه يرى في سبيل العشق ما لا يراه غيره ، ويهون عليه كل شيء في سبيل إرضاء حبيبه حتى حياته ، وهو غفور بهذا كما قال :

« أنى تضع عهدك أم كيف تخلف وعدك . »

على أننا لا نرى ابن زيدون من التصنع أحياناً فيما يقول لأنه كان كبيره من الشعراء يعبر عن غير شعور ، فإن تمكنه من الصناعة كان يفتق لسانه بقول الشعر ، كما قالوا إن السلطان أمره أن يعارض قطعاً كان يفتق بها ، واستحسن أحياناً ، وأنشأ أحياناً كأنها صادرة من عاشق مقيم ، وضمنها مدح السلطان ، فقال :

« بقصر قربك ليسلى الطويلا وبشقي وصالك قلبي العليلا . »

وفي بعض كلامه ، ما يدل على أنه كان يتصيد الألفاظ والمعاني التي قبلت في العشق ، فينظمها ويلبسها ثوباً جديداً وكأنها له ، وقد برع براعة عظيمة في ذلك كما قال :

« يا غزالاً أصارني موثقاً في يد الحن . »

وهو في كل كلامه مبدع مجيد متفوق على غيره ، خفيف الروح ، عذب الألفاظ ، سهل الأسلوب . أما نونته التي أرسل بها إلى ولادة وبثها كثيراً من شعوره وآرائه المختلفة . فهي على شهرتها وجالها ككل شعره ولذلك لم نذكرها .

نثر ابن زيدون

اشتهر ابن زيدون برساليته الجدية والهرالية . أما الأولى فهي التي كتبها في سجنه يستعطف بها ابن جهور وأما الرسالة الهرالية فكتبها على لسان ولادة يتهمك على ابن عبدوس وينال منه لمشاركته في غرامه . اشتهر ابن زيدون بهاتين الرسالتين لجودة أسلوبهما انقار المثل ، ولاحتوائهما على كثير من الأسماء التاريخية والأمثال العربية ، واقتباس أبيات من الشعر معروفة وقعت في صوغ الكلام وكأنها عملت من أجله ، أو قيس على سمته ، وليس من السهل اقتباس المثل في أمكنته ، ولامن الهين أن يخوض الإنسان غمار الأدب الواسع ويسهل عليه الاختيار منه ، ويحفظ نفسه من الضلال في نواحيه ، ويميز بين الجيد وغيره ، ويختار ما يناسب المقام ، ويكون ذلك مقبولا لدى النفس ، ثم يصوغ ذلك كله في قالب واحد ويضم بعض أجزائه إلى بعضها ، ويمحضه كما يحض الربد ، فلا ينفار منه جزء مع آخر .

إن الكلام على هذا النحو لأصعب من الابتكار في التأليف المبتدأ ، وكلما قرب إلى القارئ الأسلوب وصعب عليه معرفة تأليفه ، شعر بسعة اطلاع الكاتب ، وأجج به وكبرت في نفسه منزلته ، وكلما فاجأه اسم لم يكن يخطر له ببال ، أو رأى غاب عن ذهنه ، أو تلميح إلى قصة لا يظن أن تذكر في مثل هذا الكلام ، أو عبارة تحرك من نفسه حب الاستطلاع ، أو مثل العظ به ، أو ذكر رجل شهير يمجده ، أو نكتة تسر بها نفسه ، أو مسألة فنية يرنح لها ويلتذ بذكرها ، زاد إعجابه بالكاتب وما كتب ، ورأى أن كل إنسان غير قادر على ذلك ، وأن هذه صفة يمتاز بها الكاتب عن سواه . كل ذلك في نثر ابن زيدون وهو من دواعي الإعجاب بأسلوبه في رسائله ، فقد عرف كيف يأتي في كتاباته بالتناسق في المعاني والألفاظ ، بل عرف أن يأتي بهذا التناسق في التأليف والجمع ، وكيف يتصيد كلام غيره ويرصفه رصفاً جميلاً ، كما أمكنه أن يرسم لنفسه منهجاً جمع فيه كل معلوماته ، واختار منها ما يناسب حاجته وموضوعه ، فكانت رسائله أنيقة

جميلة ، وكان كالمهندس الماهر الذى يعرف كيف يجمع بين الحجر والحجر ، والمصور الفنان الذى يؤلف بين اللون واللون . ولقد حاول ابن زيدون فى رسالتيه الوصول إلى غرضه ، فلم يدع وسيلة ما يحسم بها المعنى فى نفس القارئ لنهال عليه المعانى ويكون غرضه أوضح ، ورأيه أظهر ، إلا فملها ، فكل ما ذكره من الأمثلة المقتبسة والمعانى المختارة قصد به توضيح ما يريد .

فى رسالته الجديدة أراد أن يستعطف ابن جهور ، ويبرى نفسه مما اتهم به وينكل بأعدائه ، فبدأ رسالته بالاستعطاف وهو يستدل نفسه تارة ، ويمدح ابن جهور ويظهر إخلاصه له ويشلق لآليه أخرى ، ويمتدح عنه فيما وقع منه فى حقه ، ثم يبين له شدة ألمه من شهامة أعدائه ، فقال :

« يا مولاي وسيدى الذى ودادى له . الخ . »

ثم أخذ يتعلل بالآمال ، ويضرب فى ذلك الأمثال ، ليسلى نفسه ويهدئ منها عبارات شمرية يريد أن يؤثر بها فى نفس المرجو ويحمده على كل شيء ، كما يحمده الله على السراء والضراء ، فقال :

« هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي . »

ثم وقف موقف المذلة وكأنما يسمع الإنسان بكاءه فى كلامه ، واستصغر ذنبه فى ساحة عفو سيده ، وفى جوار ما ارتكبه غيره من الذنوب الكبيرة ، فقال :

« وأعود فأقول : ما هذا الذب الذى لم يسه عفوكم . الخ »

والمعجب فى ذلك من حضور ذهنه وحدته مما يدل على تيقظه الشديد ، ثم أخذ بعد ذلك يبرى نفسه ، ويعجب من سيده الذى يصفى لى أعدائه ، على ما كان له من المنزلة التى لم تدفع عنه ذلك ، وأخذ يلوم ابن جهور لو ما لا يظهر إلامن خلال عباراته ، لشدة تمكنه من تصرف الكلام واحتراسه فيما يقول :

« فكيف ولا ذنب إلا نعمة أهداها كاشح . الخ »

ثم ذكره بإخلاصه له ، ومدحه إياه ، وأخذ يرجع إلى استعطافه وبلقه ، فقال :

« وقد زاننى رسم خدمتك . الخ »

ثم حاته عزة نفسه فانتقل نقلة أخرى ، فبين له أن مثله لا يصير على الهوان وأنه يستطيع فراقه ومجر بلده إلى مكان آخر ، ويخاطر فى هجرته هذه بما عسى أن يلاقى من الآلام مستأنساً بأدبه وفضله ، فقال :

« ولعمرك ما جهلت أن صريح الرأى أن أنحوّل إذا بلغتني الشمس الخ . »

وكأنه شعر بأن هذا يدعو ابن جهور إلى أن ينسى استعطافه لما بطن فى هذا الكلام من عجب ابن زيدون بنفسه ، فأخذ يلطف من حديثه ، ويسكن من هياجه ، ويظهر تمسكه بجوار سيده لأنه أفضل شيء لديه فى الحياة ، فقال :

« غير أن الوطن محبوب ، والمنشأ مألوف . الخ »

ثم أخذ يقوى أمله فى إجابة طلبه ، ويضرب الأمثال فى ذلك ، ويمدح البقاء فى جوار سيده بقوله :

« أعيذك ونفسي من أن أشيم خلبا وأستمطر جهاما . الخ »

هذا أكثر ما فى هذه الرسالة الجديدة ، وأعظم ما فيها تأليفها الذى يرى من خلاله تلك النفس الحائرة المضطربة التى تهيج مرّة وتجمد أحياناً ثم ترجع وتلين ، وكأنما الكاتب فى نزاع مستمر بين نفسه وأهوائه ، أو كأنه هو ونفسه قرنان : يشتد كل منهما عند ما يخاف قوة صاحبه .

هذه صورة نفس ابن زيدون يراها القارئ إذا وقف عن كئيب ونظر إلى حركات نفسه وهو يكتب أو

يفكر في هذه الرسالة . يرى نفسه الأبية وهو يفخر بها ويظن أنه من أهل الفضل ، ويرى نفسه التهكم ، وهو يحسب وبعد الذنوب الكبيرة التي تستحق مثل عقوبته ، لا يريد أن يقول هذا ظلم ، ولكن يريد أن يقول هذا حق وخرق في الرأي ، ويرى نفسه الكئيبة التي أخذتها الاكدار فذات وأخذت تستعطف وتستشفع وتتمنى ، يرى الإنسان كل ذلك في هذه الرسالة ، ومن هنا جالها وإبداءها . لامابها من الأسلوب البليغ أو العبارات المختارة لا غير .

أما رسالته الثانية التي كتبها لابن عبدوس من لسان ولادة ، فقد دلّ فيها على اطلاع واسع بالأمثال والأخبار ، وعلى باع أوسع في الهجاء ، لأنه أقذع في ذم ابن عبدوس إقذاً ، وتهكم به تبكماً لا مثيل له حتى إنه ليخجل إلى الإنسان أنه جمع كل ما يمكن أن يقال في الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس واستعمل أسلوباً جميلاً خلاصاً يدل على تمكنه من التصرف في الكلام ومعرفة امتلاكه عقول القراء ، لأن هذه الرسالة على طولها وكثرة الاقتباس فيها الذي يستغرق أربعة أخماسها أو أكثر ، وعلى ما فيها من الأمثال المعروفة والآيات المشهورة ، والاطناب في ذكر الأسماء التي يكفي منها القليل ، ليس فيها ما يدعو إلى الملل ، ولا ما يشعر بالاستهجان والابتذال . على أن بها شيئاً كثيراً من تلك العيوب ، فقد ذكر أكثر من خمسين اسماً مشهورى الرجال ، مردها سرداً ، وكان يكفي عشرها ، وأكثر أيضاً من صفات الذم مما كاد يكون ثروة ولغواً ، ولكنه سترك كل ذلك ببراعته في الصناعة ، وليس أدل على جفاء الطبع وغلظه من هذه الرسالة ، فقد ابتدأها بدفاعة نادرة ، ولكنها سفاهة أدبية فنيه فقال :

« أما بعد أيها المصاب بعقله . الخ »

وسار على هذا النحو وأكثر من ذكر هذه الأسماء ، ثم أقذع في الذم وأخش في صفاته فقال :

« وهبها لم تلاحظك بعين كائلة عن عيوبك ملؤها حببها حسن فيها من تود . الخ »

واستمر على هذا النحو إلى آخر الرسالة يضرب الأمثال للاستهزاء والتهكم ، ولقد كشف ابن زيدون في هذه الرسالة عن نفس حقودة محبة الانتقام وأنه شديد الحفيظة ، ودل على غلظة في طبعه ، وخشونة في أخلاقه مع ذلك فهي رسالة تمتاز بأسلوبها ، وتناسق عباراتها ، ولعل ابن زيدون أخذ هذا الأسلوب عن الجاحظ في بعض رسائله ، كما في رسالة الترييع والتدوير .

٢ — دراسة الأستاذ السكندري^(١)

علمه وأدبه وبديهيته :

نشأ ابن زيدون في عصر اختل فيه نظام ملك بني أمية فجأة بشورة البربر المشؤومة ، وقامت هذه الثورة وآثار الحضارة في كل شيء من علم وأدب وقنون ضاربة بجمراتها في قرطبة ، فكانت غنية بالعلماء والفقهاء والفنيين والشعراء والمحسنين في كل صناعة ممن نبتوا في عصر المنصور الهنيء ، فصادف ابن زيدون من نبل من علمهم وكرم من أدبهم ، وكان أبوه وعشيرته من أهل الفقه والأدب فلم يكن لإقباله على ما أخذ به أهلوه أنفسهم بدءاً من نفسه ، ولأنما جرى في مضمارهم فبزم علماً وأدباً ، وبعد صيت وطول همة .

(١) مقتبسة من بحث طويل ممتع للأستاذ السكندري نشرته مجلة المجمع العربي .

كتابة ابن زيدون

(أ) طريقته فيها :

كانت طريقة كتابة الأندلسيين منذ عصر الناصر والمستنصر جارية على أسلوب ابن العميد وحلبته من أمثال صاحب بن عباد والبدیع والحوارزمي والصابي ومن تابعهم من أمثال الحريري والعماد والاصفهاني ، وكان الكاتب الأندلسي الذي ينسج على منوالها ، وإن حلّ المأثور من النظم وضمن بعض القرآن والحديث لا يلبث ذلك على قوله فنفقد فيه صورة نفسه وخاصة طبعه ، بل كانت تكون له التشبيبات الرائعة والتعليقات الحسنة ثم هو لا يخرج عن التزام السجع غالباً . وابن زيدون رعى هذه الطريقة من بعض الوجوه وخالفها من بعض ، فأما ما رعاه في كتابته منها فهو :

- ١ - حل المنظوم من مشهور الأبيات .
 - ٢ - الاحتجاج والاستشهاد بكثير من هذه الأبيات مستعديلاً لها استعمال الأمثال فلا ينسبها إلى قائمها .
 - ٣ - الاقتباس من القرآن الكريم أو الحديث بلفظهما أو تغيير بعض نظمهما .
 - ٤ - تضمين الحكم والأمثال بلفظ أصحابها أو تغيير في نظمها .
- وأما ماخالف فيه فهو :
- ١ - عدم التزام السجع .
 - ٢ - الاستكثار من أمثال العرب القديمة استكثاراً كاد يمسد قوله الخاص بجانبه ضائعاً وبخاصة الغريب من هذه الأمثال .
 - ٣ - الاستكثار جداً من ذكر أسماء رجال التاريخ المشهورين .
 - ٤ - الاستكثار جداً من أسماء الوقائع الشهيرة في التاريخ .
 - ٥ - الاستكثار من الجمل المترادفة على مثال واحد في المعنى الواحد حتى يتكوّن منها فصل طويل يشغل فراغاً كثيراً من الرسالة لو اقتصر على فقرة واحدة من الفقر التكرّرة في المعنى لنزلت الرسالة إلى خمسها أو سدسها . وهذه الطريقة غلبت على كتابته وهي على رسالتيه الجدية والهزلية أغلب ولاسيما الهزلية .

(ب) منزلته فيهما :

اشتهر ابن زيدون عند المغاربة والمشاركة بأنه من بلغاء الكتاب والشعراء ، فأما الشعر فلا جدال في استحلاله ، فلاستحقاقه ذلك الصيت الدائم فيما تأويل وتعليل يخرجان عن حدّ بلاغة الكتابة في ذاتها إلى أمور خارجة عن جوهر الاجادة ، وذلك أن كتابته اشتهرت بين الناس لأمرين :

أولاً : أنها ليست على منوال كتابة الأندلسيين في عصره بل هي مخالفة لها في بعض الصور ، وصدر العمل المخالف لعمل الناس من رجل متوسط في الحال لاف بذاته للأناظر ، باهر للنفوس ، فكيف به لو صدر من ذي شأن فبني بمنصب رفيع ونسب عريق ، وصيت ذائع في السياسة والأدب والشعر وحسن المحاضرة والمناذمة .

وثانياً : أنها باهرة لامعانيها وروعة أساليبها وشدة حوكها في نفس قارئها بل بما اشتملت عليه من وفرة التضمين والاستشهاد والوقائع وأسماء الرجال ، مما يكبر من شأن كاتبها في الصدور ، ويسهله

بطول الباع ، وسعة الاطلاع ، ويكبر من شأنها هي ، إذ تكون بمثابة مجموعة أدبية خافضة بتأثير الأقوال ، معرفة بكثير من حوادث التاريخ وأسماء الأبطال ، بحيث إذا حفظ ناشئ متأدب الرسالة منها أودعت صدره زبدة اطلاع كثير وبخت طويل ، فكان شهرته آتية من طريق التثقيف والتعليم ، فتكون في الأدب أشبه بمن من متون العلم كثير المسائل والاحكام وجيز العبارة ، وهذا السبب بعينه هو سبب شهرة مقامات الحريري ، وبعض القصائد المحتوية على كثير من أسماء الرجال وحوادث التاريخ والحكم والأمثال ، كقصورة ابن دريد ورائية ابن عبيدون في رثاء دولة بني الأفطس ، ونونية الرندي ، ولامية ابن الوردى ، ونونية البستي ونحوها ، وكلها عظيمة الأثر في التعليم والتأديب وسرعة التوقيف على أكثر ما لا يسع الأديب جهله في لفظ يسير وزمن قصير ، لافي بلاغتها ذاتها وحسن تأثيرها في النفس حتى تستجيب النفس لداعيتها ، وتقبل على قائلها ، ولذلك تجد رسالة ابن زيدون الجديدة التي استمطف بها جمهوراً لم تؤد ما وضعت له . ولا نغنى بكلامنا هذا أن الرجل كان قليل الخاطر ، أو ضعيف الارتجال ، فكل من تعرض لذكر أخباره يصفه بقوة العارضة ، وسرعة البديهة والارتجال ، وأنه كان في مجلس ولادة يرتجل المقطعات الشعرية البليغة ، ويحاضر بالنكت النادرة والأجوبة المسكتة ، ودفن بعض حرمه فوقف فئاس يمزونه على اختلاف طبقاتهم فما أجاب أحداً بما أجاب به غيره ، وذلك غاية لاندرك .

وإنما خلق الرجل شاعراً مطبوعاً ، واضطرته الوزارة إلى الترسل والكتابة فكانت كتابته بالشعر أشبه منها بالنثر ، وأكثر المغاربة لا يتحدثون إلا في شعره على عكس المشاركة .

رسائله الجديدة

هذه الرسالة أشهر رسائله وأبلغها ، وأكثرها عائدة على المتعلمين الذين يحفظونها لتنوع فصولها وتعدد الأغراض التي رمت إليها ، والمماثي التي لوحث بها على ما أبانت من أمل كاتبها ، وما حوته من روعة التأثير في النفس . وهذه الرسالة بمت بها من السجن إلى جهور يستعطفه بها ولكنه مزج الاستعطاف بكثير من الزهو والامتنان ، واستفظاع العقاب على ذنب متوهم على طريقته الكتابية التي وصفناها آنفاً . وإذا حللنا هذه الرسالة إلى عناصر الأغراض التي تألفت منها وجدنا أنها لا تعدو عشرة أغراض تؤدي في عشرة أسطر إلا أن كثرة الجمل المترادفة الأسلوب والصورة زادت في ذرعها طولاً . وذلك أنه ناداه بالفاظ السيادة أولاً ، ثم اعتذر له عن نكته إياه بمد ما أحس الجاد به الإنسان بصدق خدمته له وثناؤه عليه ، بأن عمل الخير قد يعود على صاحبه بالشر ، وأول هذه المقابلة بأنها صادرة عن حسن نية وقصد تأديب ، ثم أخذ يستريث الغفوة ، ويستفزع هذا العقاب الذي كان بعضه كافياً لردع الأبالسة وكبار القتاك والخارجين على الأنبياء والأئمة والدين ، مع أن المسألة لا تخرج عن وشاية حساد سمع جهور لهم فتكى وليه الذي نوه بذكره ، ثم أخذه الزهو فذكر أنه كان في مكنته أن يستبدل بخدمته خدمة من يرحب به من الملوك ، غير أنه من عليه مفارقة وطنه ومولاه القديم ، ثم عوذ نفسه من أن يكون معه كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وناشده العتي حتى توقع الفكاك ، ثم استملح نثر هذه الرسالة ورأى أن يستلحقها بقصيدة ، فكانت هذه في رأينا آتق لفظاً ، وأهذب مورداً ، وأطبع اساقاً .

« ثم أورد القصيدة وقال : »

محاسن هذه الرسالة ومعاييرها

لا ريب أن مكان هذه الرسالة من الأدب العربي مكان المشهور المأثور المحفوظ في الصدور المخلد في السطور وذلك لأمرين :

الأول : أنها جراب أدب حار لجملة نماذج مختلفة من عيون مواد الأدب بما ضمنت من اقتباس القرآن والحديث ، والأمثال ، والحكم ، والأبيات المشهورة ، وحل نظم الكثير منها والإشارة إلى ما فيها من وقائع التاريخ الشهيرة التي يجدر بالأدب معرفتها والاستشهاد بها .

الثاني : حسن ملاءمتها بين هذه الصنوف وجودة رصفها وجمع شتاتها في موضوع واحد مما يصير على غير حاذق التوفيق بين متباينة ، ويجعل نمطها غريباً ونسجها وحيداً .

الثالث : حصافة عبارتها وجزالة لفظها في كثير من مواضعها وخاصة ما استقل به كاتبها معنى وإنشاء . ولكننا إذا نظرنا إليها بعين الناقد وأنعمنا البحث في بلاغتها أي مطابقتها في معانيها ومبانيها لمقتضى الغرض الذي وضعت له ، وهو الاستعطاف ، وجدنا أنها تقصر دون بلوغه لجملة أمور :

الأول : كثرة ما رددته كتبها فيها من عبارات الامتنان على مولاه بطول ثنائيه عليه وحسن سابقته عنده وعظيم بلائه في إقامة دولته مما يعده الرئيس عادة تعبيراً وتجييلاً .

الثاني : تهديد مولاه بأنه لولا حب الوطن لكان له أرفع مقام في خدمة غيره من الملوك الذين يتسارعون إلى الترحيب به ، ويتنافسون في استخدام أمثاله .

الثالث : أن وضعها بهذه الصورة يجعلها غير كفيلة بانجاح الغرض الذي وضعت له (وهو تحريك عاطفة الرحمة والعفو) بما يصرف نفس قارئها عن أن يتأثر ببلاغتها ويشغلها بتذكر الحوادث والفصص التي أتت عليها ، وأسماء الناس ، ومضرب الأمثال ، فلا يفرغ القارئ من تعرف اسم رجل حتى يقع في مضرب مثل ، ولا يخلص من تفهم شاهد حتى يتقحم في أوامر منه ، فيتقسم فهمه ، ويقتصد تأثره ، وإنما يأتي التأثير من انصباب غمرة من الانخداعات المتكررة ، بتكرار العبارات البليغة المؤثرة ، فتحدث بمجموعها أثراً كلياً في النفس ، فتجيش بالشفقة ، وتهش للعفو ، ويمثل ذلك كان الإنشاء المبرقش بكثير من أنواع البديع غير مؤثر ببلاغته ، لشغله الذهن عن التأثير ، وصرفه إلى تنهم البديعية .

ومن هذه الوجهة نرى أن رسالة ابن زيدون ليست مثالا يحتذى للإنشاء البليغ المؤثر في النفس .

الرابع : وقوع بعض هفوات له ذكرها الصفدي كاحتياج فقارها إلى ذكر فقار بعد تنتم معناها وتلثم بها مع ما بعدها (وهذه نضرب صفحاً عن ذكرها) وكبعض أخطاء في المعنى والوقائع (وهذه نشير إلى بعضها ، ومن أراد مراجعة الجميع فعليه بشرح الصفدي) .

فمن هذه قوله (وتأولت في بيعة العقبة) وسباق كلامه في هذا الفصل يقتضي ذكر أسماء أناس منكرات يبرأ هو أن يكون مثلهم ، ولم ينقل أحد من أهل الأثر أن أحداً ممن بايع فيها تأولها أو نكثها .

ومنها قوله « وتخلفت عن الصلاة في بني قريظة » ولم يعلم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنكر على من تخلف عن صلاة العصر في بني قريظة وصلامها في الطريق بل أقر الجميع على عملها وعد ذلك من اجتهاد الصحابة .

ومنها قوله « وزعمت أن بيعة أبي بكر كانت فلتة » مع أن قائل هذه الكلمة عمر بن الخطاب ، ولم يقلها عن إرادة سوء فلا ينبغي أن يتمثل به في أعمال الجناة .

ومنها قوله « وكتبت إلى عمرو بن سعد أن يجمع بالحسين » مع أن المکتوب إليه الحرث بن يزيد التميمي لا عمرو بن سعد .

وقد أتى الصندي على عيوب آتية من تصحيف أو سوء تأويل منه هو ، أعرضنا عنها خوف التطويل .

رسالة الهزلية

كان الوزير أبو عامر بن عبدوس ينافس ابن زيدون في حب ولادة ، فاتفق أن حدث نبوة بينهما ، فأرسل ابن عبدوس إليها امرأة من صواحبته تستبيلها إليه ، وتذكرها بفضلها وأدبه ، فردت ولادة المرأة بالحيلة ، وكتب ابن زيدون إلى ابن عبدوس عقب رجوع المرأة هذه الرسالة على لسان ولادة ، يرد عليه ويتهم ويهجو ويتوعده . وفي ظننا أن ابن زيدون كتبها من نفسه تشقياً من ابن عبدوس لا عن رأى ولادة ورضاها عما ألحس فيها وأقنع .

والرسالة كسابقتها في قلة أغراضها وتكرار أساليب فصولها ، وذلك أنه بدأها بوصف ابن عبدوس بأوصاف الحق والجهلاء منكرأ منه إرسال خليلته إلى ولادة ، ثم ثنية عليه ومرغبة فيه ، واصفة له بأوصاف أعيان الزمان من العلماء ، والأدباء ، والأطباء ، والفلاسفة ، والشجعان من فلان وفلان ، وإن ولادة طردتها أشنع طردة ، ثم أخذ يهجو بأوصاف في الخلق والخلق ، وإن ولادة لو أرادت الرجال لكان لها من الاكفاء من قومها وأعيان زمانها من يفضلها سناً وشرافاً وجمالاً الخ .

٣ — دراسة الأستاذ علام سلامة^(١)

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي القرطبي كان من أبناء وجوه الفقهاء قرطبة وبرع في الأدب والفنون ، فم عليه فضله ، وذاع صيته ، وارتفعت مكانته ، واختص به أبو الوليد ابن جهور أحد ملوك الطوائف واتخذ وزيراً واستند عليه في السفارات بينه وبين ملوك الأندلس ، فأعجب القوم به ، وتمنوا ميله إليهم لبراعته ، وحسن سيرته ، واتفق أن قم عليه ابن جهور وحبه ، فاستعطفه برسائله السابقة وبأمثالها فلم ينفذ ذلك عنه شيئاً فتحيل لنفسه حتى تسلل من حبسه واتصل بالمعتضد بن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٤١ هـ فحل منه محل السويداء من النفوذ ، واستخلصه استخلاص المعتصم لابن أبي دؤاد بمجالسه في خلواته ، ويركن إلى إشارته ، ولم يزل عنده وعند ابنه المعتضد قائم الجاه وافر الحرمة حتى توفي سنة ٤٦٣ هـ وكان له ابن يقال له أبو بكر تولى وزارة المعتضد ، وقتل يوم أخذ يوسف بن تاشفين قرطبة سنة ٤٨٤ هـ وقد أثنى عليه ابن بسام في التخييرة بقوله : كان أبو الوليد غاية منشور ومنظوم ، وخاتمة شعراء ~~مخزومي~~ ، فاق الأنعام طراً ، ووسع البيان نظراً ونثراً إلى أدبائيس للبحر تدفقه ، ولابد من ~~تأليفه~~ ، وشعر ليس للسحر يانه ، ولا للنجوم الزهر أقفرانه ، وحظ من النثر قريب المباني ، شعري ~~الأنفاس والمباني~~ .

ومما يحكى عنه في سعة البيان والقدرة على التفتن في أساليب الكلام أن ابنته توفيت فوقف للناس عند منصرفهم من الجنائز ليتشكروا لهم ، فاعاد عبارة قالها لأحد ، وهذا عجيب للغاية ، ولا سيما من عزون فقد قطعة من كبده :

« ولكنه صوب القول إذا انبرت سحائب منه أعقبت بسحاب . »

(١) من مذكرات طلبة دار العلوم .

كتابه

كان ابن زيدون مع صفاء قريحته ، وقوة سليفته في البيان يؤثر الرواية والتأني لنسج القول ، وكان مع سعة روايته لفنون الأدب عليماً بأخبار المعجم والعرب ، متمسكاً من كل ما يميز الأدب بسبب ، فليس بدعاً أن يكون لكل أولئك آثار في كتابته ، وليس بدعاً أن لم تكن كتابته عفو الخاطر السامع ، ولا وحي البديهة البادئة ، ولا عصارة عصر الجبين ووليدة التكاف ، فقد جاءت خلاصة الرواية الخفيفة تؤيدها قوة الطبع ومصاصة التنقيح السديد ، يؤازره لطف الذوق ، كما جاءت سبيكة رائعة صاغها صنع من مبتكر المعاني الساحرة ، ومستلب الأمثال السائرة ، ومقتبس الأبيات النادرة ، ورصها بفرائد من أخبار الناس ونوادر الحوادث . ولئن كان البديع قد فاقه في استرسال الطبع ، ولطف الخيال ، ورشاقة المعاني ، لقد فاق هو البديع في متانة المباني ، والتغلغل في نواحي المعاني ، والبصر بمواضع الاقتباس ، وتوشية الرسائل بأخبار الناس . أما أوضح ميزاته ففخامة الألفاظ في غير كرازة ، وعلو الأسلوب في غير اعتساف ، ورصانة المعاني في غير جفاف ، والتأليف بين جمال الخيال وجلال الحقيقة .

ومن محاسن رسائله رسالته الجدية والهزلية وكلتاها غرّة في جبين الآداب العربية ، وقد هني بشرحها كثير من الأدباء . أما شعره فله ديباجة رائعة ، وصياغة بارعة كأنما هو سبائك النضار ، أو حدائق الأزهار ، إذا نسب أنسك صاحب بئنة ، وإن مدح خلته شاعر مزينه ، ومن مقطعاته التي تشهد له بجودة الطبع ، وإتقان الصنعة قوله :

« بيني وبينك مالو شئت لم يضع سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع . »

ومن شعره الذي يختلط بالروح رقة ، وبالهواء لطافة قصيدته التي كتبها إلى ولادة التي كان شديد الكلف بها والهام بجبها يستديم عهدا ، ويؤكد ودّها ، وفيها يقول :

« أضحى النائي بديلاً من تدانينا وزاب من طيب لقيناً تحافينا . » الخ

وقد سقنا أكثر هذه القصيدة لبراعتها ، وقد ضن بعض شطورها ابن الوكيل في موشحة ، وسدسها بعض أدباء المغرب .

٤ — دراسة الأستاذ أحمد زكي باشا

أولية ابن زيدون

كان في جملة القبائل التي ذهبت إلى الأندلس رهط من بني مخزوم توطنوا في جهات قرطبة وما إليها ، وناهيك بهذه القبيلة ذات الشرف الصميم ، واللسان القويم .

فكان بنو زيدون من رجالهم المعدودين ، خصوصاً في الفقه والأدب ، واشتهر منهم ثلاثة حفظ لنا التاريخ أسماءهم ، وهم :

(١) أبو بكر غالب بن زيدون .

(٢) أبو الوليد أحمد بن زيدون .

(٣) أبو بكر بن زيدون .

كان مولد الأول في سنة ٣٠٤ ومات سنة ٤٠٥ بعد أن بلغ من العمر مائة سنة . توفى في ضيعة له .
ثم نقلوا تابوته إلى قرطبة ، فدفن بالريش (أي الضاحية) .

وهناك رثاء أبو بكر عبادة الشاعر الأندلسي بما يعرفنا بمقامه في قوله :
« أي ركن من الرياسة هيبا وجوم من المكلام غيبا
حملوه من بلدة نحو أخرى كي يوافوا به ثراه الأريضا
مثل حمل السحاب ماء طيبيا لندأوى به مكاناً مريضاً . »

وأما ثانيهم فهو واسطة العقد ، والذي يدور عليه كلامنا . والثالث هو الذي تقلد بعد أبيه (أبي الوليد)
وزارة المعتد بن عباد ، وانتقم لأبيه من ذي الوزارتين ابن عمار ، وكان أبو بكر هذا هو الذي تولى
السفارة عن ابن عباد إلى يوسف بن تاشفين صاحب المغرب الأقصى حينما تنمر الاسبان يون مع ملكهم
الإذفونش (الفرنس السادس) لملوك الطوائف ، وخصوصاً لبني عباد في خطاب يطول شرحه ،
ولا يسع المقام تلخيصه .

من هو ابن زيدون ؟

هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي . كان مولده
بقرطبة في سنة ٣٩٤ هـ في الوقت الذي سرى فيه الانحلال في جسم الخلافة الروانية بالأندلس بعد أن
بلغت من المجد نهاية النهايات ، وأدركت من الفخامة ما لا تصدق معه الروايات . في ذلك الوقت تحللت عرى
الدولة ، فانقسم المسلمون على أنفسهم ، وتخاذلوا ، واستنصروا أعداءهم على بعضهم بعضاً ، وساموا البلاد
والفلاح والحصون واحداً تلو الآخر إلى أعدائهم وأمد بهم بالمعونة على إخوانهم ، وهكذا حتى أودت تلك
الفواحج بذلك الملك الكبير ، ثم أتت على القوم بأكلهم فأصبحو خبيراً بعد عين . نتساءل عنهم بقولنا
كيف وأين ؟ في تلك الأيام استظهروا على شهواتهم بجر ذيولها ، وامتروا بظلالها من أخلاف أباطيلها .
حتى انتشت عصاهم ، ودارت بدائرة السوء على الجهالة رحاهم .

كان ابتداء الاضطلال والانحلال من أول يوم جلس فيه المستعين على عرش الخلافة في منتصف
ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ .

فقد كانت أيامه كلها كما وصفها ابن حيان الأندلسي « شداداً نكرات ، صعباً مشثومات ، كرميات المبدأ
والفاتحة ، قبيحات المنتهى والخاتمة ، ما فقد فيها حيف ، ولا ورق خوف ، ولا نمر سرور ، ولا نقد مخذور
مع تغير السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ، واعتلاء العصية ، وظعن الأمن وطول المخافة ، دولة
كفاهها ذماً أنها تخضعت عن الفائرة الكبرى ، وآلت من التي بعدها إلى ما كان أعضل وأدهى . مما
طوى بساط الدنيا ، وعفا رسمها وأهلك أهلها ، وإذا أراد الله شيئاً أمضاه . »

وكذلك لم يكن في المستكن أدنى كفاية للخلافة . وإنما أرسله الله على الأمة محنة وبليّة . إذ كان منذ
عرف منقطعا إلى البطالة ، مجبولا على الجهالة ، عاطلا عن كل حلية تدل على فضله ، عضته الفتنة فأملق ،
وهان حتى أهانه أهله ، ولقد رآه أبو حيان مؤرخ الأندلس المشهور أيام الحسف بأهل بيته في الدولة الجودية
ولم يكن من لحقه الاعتقال منهم لركا كته . كان يقصد أهل الفلاحة يومئذ بقرطبة أو ان ضمهم لنفلاتهم
يسألهم من زكاتها . قال « وقد أجمع أهل التحصيل أنه لم يجلس في الامارة منذ تلك الفتنة أسقط منه ،

ولا أنقص . إذ لم يزل معروفاً بالتحلف والزكاة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيم السر والملاية ، أسير الشهوة ، عامل الخلوة . »

ذلك الوقت هو الذى أشار إليه ابن حزم بقوله :

« فضيحة لم يقع فى الدهر مثلها ، أربعة رجل فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، يسمى كل واحد منهم بأمر المؤمنين ، ويخطب له فى زمن واحد : أحدهم خلف الحصرى بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم المؤيد . والثانى محمد بن القاسم بن حود بالجزيرة الخضراء ، والثالث محمد بن على بن حود بمدينة مالقة ، والرابع إدريس بن يحيى بن على بسبته ، تلك هى الأيام التى بنى العرب والبربر فيها فى خصام مستديم ، وكان كل من الفريقين منقسماً على نفسه ، وكان الجميع فى خلاف مع أهل المغرب الأقصى من الجنوب ، وفى حروب وخطوب مع بقايا الأمم الإسبانية من الشمال والغرب . فى ذلك الوقت المصيب تفرق أهل الأندلس فرقاً . وتقلب فى كل جهة منها متغلب . ودم الذين عرفهم التاريخ باسم — ملوك الطوائف — وقد أرادوا أن يفخضوا أنفسهم وممالكهم فتقسموا ألقاب الخلافة ، كما تناهبوا أشلاءها . فكان منهم المعتضد ، والمأمون ، والمؤتمن والمستعين ، والمقتدر ، والمعتمد ، والموفق ، والمتوكل . إلى غير ذلك من الألقاب الخلافة . حتى قال فى ذلك أبو على الحسن بن رشيق بينين سارا سير الشمس ، وبقياء بقاء الدهر ، وهما :

« مما يزهدنى فى أرض أندلس سماع معتد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها كاهري يحكى انتفاخاً صولة الاسد . »

فكانت طرطوش ، وسرقسطة ، وإفراغة ، ولاردة ، وقلعة أيوب فى يد بنى هود . وكانت بلنسية فى يد عبد الملك بن عبد العزيز ، وكان الثغر أى مافوق طليطلة فى يد بنى ذى النون وكانت قرطبة فى يد أبناء جهور ، وكانت اشبيلية فى يد بنى عباد ، وكانت مالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة فى يد بنى برزال من البربر ، وأما المرية فكانت فى يد زهير العامرى الخادم ، ثم خيران العامرى الخادم ، ثم ابن صهاد وكانت دانية وأعمالها والجزائر الشرقية (البليار) فى يد مجاهد العامرى ، وكانت بطليوس وإبرة وشنترين فى يد بنى الأفطس ، فلا عجب إذا كثرت الوزراء فى تلك الأيام ، ولا عجب إذا كثرت أيضاً ذوى الوزارتين ، فالناس على دين ملوكهم ، فكان كل من امتلك مائة كيلو متر مربعاً فى مثلها بعد نفسه سلطاناً كبيراً . ويتخذ من الحاشية ما يضارع به أهبة الخلافة وقد كان عهدهم بها قريباً — فكثرت عندهم الوزراء ، وكثرت بينهم الذين يلقبون أنفسهم بذى الوزارتين .

ومن الطبيعى أن الرياسة إذا انحطت عن جلالها تبعها المروءوس فى السقوط ، فلما تدلت الخلافة فى الانحلال صارت الوزارة أيضاً فى درجات الهوان . فإن المستعين الذى ذكرناه قال بعد أن جلس على مرش الخلافة للناس أجمعين . ارتفعوا كيف شئتم ، وارتسموا بما أحببتهم من الخطط ، فتسمى بالوزارة مفردة ومثناة أراذل الدائرة ، وأخابت النظر ، فضلاً عن زعاطف الكتاب والخدمة (عن ابن بسام) وصارت هذه الرتبة تنحط مع انحطاط الدول ، حتى نزلت فى أواسط القرن الثامن للهجرة إلى الدرجة التى وصفها لنا ابن فضل الله العمري حيث قال :

« سألت الشيخ العلامة ركن الدين أبا عبد الله بن القويح رتبة الوزير بالمغرب ، فقال : ليست بطائل ، ولا لصاحبها شيء من الأمر . بل هو كالجالويز يخرج من قدام السلطان يوم الجمعة : حقيقة دون السمعة » وقد استبد هؤلاء الرؤساء بتدبير ما تغلبوا عليه من الجهات ، واهبطت الدعوة للخلافة ، فلم يبق للخليفة

هاشمي أو أموى ذكر على منابر الأندلس خلا أيام يسيرة دعي فيها بإشبيلية لهشام المؤيد بن الحكم (أو لشخص شبه له) حسبما اقتضته الحيلة ، واضطرت إليه التدبير . ثم انقطع ذلك ، فأشبهت حال ملوك الأندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا . وحال قواد الاسكندر بعد وفاته . ولم يزل هؤلاء الرؤساء في اقتتال وتخاذل ، يستعينون بعدوهم جميعاً فيميل تارة إلى هذا وطورا إلى ذلك حتى اختلت الأحوال إلى أن تولاهم الضعف فاستنصروا بالمراطين فانتظم الشمال ، وعادت المياه جاريتها . ولكن إلى أجل معين . ثم عاد الانشقاق والاقسام ، فانتحمت كلمة الاسلام ، وانطفأ ذلك النور ، وباد القوم عن آخرهم في سنة ٨٩٧ هجرية . بعد أن أقاموا فيها ثمانية قرون . لأن دخولهم كان في سنة ٩٢ للهجرة على يد طارق يد زياد .

رفعت الستار عن هذا المنظر المحزن ليكون لكم ولأمم المشرق تذكرة وعبرة . خصوصاً في الأوقات الحاضرة ، والآن أقول لكم إنه على الرغم من توالى الفتن . واضطراب الأحوال كانت سوق الأدب رائجة وبضاعته نافقة . فكل أمير ، وكل وزير ، وكل كاتب ، وكل وجيه كان له من الأدب نصيب وافر . عرفنا من تقسيم الأندلس بين ملوك الطوائف أن بني جهور استبدوا بقرطبة وأن بني عباد استأثروا بإشبيلية ، في المملكة الأولى درج ذو الوزارتين ابن زيدون وتربى وظهر فضله . وفي الثانية قضى بقية أيامه في العز والكرامة . وكانت بها وفاته في محرم سنة ٤٦٣ هـ على التحقيق الدقيق كما نص عليه معاصره ابن بسام ولا عبرة بالأقوال الأخرى عن وفاته . لأن الذين قالوا بوفاته في سنة ٤٠٥ خلطوا بينه وبين أبيه غالب ابن زيدون .

اشتغل ابن زيدون بالأدب ، وخلص عن نكته ، ونهب عن دقائقه . إلى أن برع وبلغ من صناعتي النثر والنظم المبلغ الطائل . حتى قال فيه ابن بسام :

« كان أبو الوليد غاية مثور ومنظوم وخاتمة شعراء بني مخزوم . . . الخ . »

وما هم أن أصبح في الأندلس « متم ذلك الحى ، وعاشق ولادة لامي ، زاد على مجنون ليلي ، وفير لبنى ، وابن أبي ربيعة صاحب الثريا ، تركه هواء أنحف من قلم ، وأشهر من نار على علم . وله مع ولاد أخبار ما حكى مثلها ابن أبي حنيفة ، ولا الاصفهاني عن سكان وادي العقيق ، ولا الأصمعي عن أهل ذلك الفريق ، أندى من نسيم الصباح ، وأرق من ريق النوادي في ثنور الأفاح »

ولذا تصفحنا دواوين الأدب عند الأمم الأخرى لا نجد له شبيهاً سوى تيبواس شاعر الرومان . وتنقسم حياة ابن زيدون إلى قسمين مهيئين (١) في قرطبة ، (٢) في إشبيلية .

أولاً - في قرطبة : برع ابن زيدون في الأدب ، حتى كان أبو الوليد في الأندلس شبيهاً ومثلاً لأبي الوليد في دولة التوكل العباسي ، وقد سماه الناس بختى الأندلس ، ولقد صدقوا .

فن جملة المحفوظ عنه في صباه قوله :

أخذت ثلث الهوى غصباً ولى ثلث . . الخ

ثم هام بعد ذلك بحب ولادته بنت المستنكى الخليفة الأموى بالأندلس ، وكانت أديبة ، شاعرة ، جزلة القوا حسنة الشعر ، تناضل الشعراء ، وتساجل الأدباء . وعمرت صمراً طويلاً ولم تزوج قط . جاءت هلى خلافة

أيها في كل أوصافها . فكانت مصداقاً لقوله تعالى « يخرج الحي من الميت » وقد ابتذله حجابها بعد نكبة أيها وقتله ، فصارت تجلس للشعراء والكتاب وتماشرهم ، وتحاضرهم ، ويتعشقا الكبراء منهم . وكانت على خلق جميل ، وأدب غصن .

وكان لابن زيدون معها أخبار تطرف القلوب ، وتشنف المسامع ، لأنه خلق في هواها العذرى عذاره ، وقد شهد المؤرخون كلهم لها بالعفة والصيانة . ولكن الشعراء في كل واد يهيئون ، فكيف لا يهيئ بولاده أبو الوليد بن زيدون .

والفام لا يتسع لأشعاره فيها وإشعارها إليه . ولكن آتيكم براموز ومثال ، وأترك الباقي لنير هذا المجال . ودعها ذات يوم فأنشدتها مرتجلاً :

« ودع الصبر محب ودعك . . . الخ »

ثم قال :

« يانا زحاً وضمير القلب القلب مثواه . . . الخ »

ولما كان مجلس ولادة بقرطبة منتدئ لآحرار المصر . وقناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر . يمشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهافت أفراد الشعراء والكتاب على حلالة مسامرتها ، وهي مع ذلك محافظة على علو النصاب ، وكرم الأنساب ، وطهارة الاتوب ، وانفذ طمع بعضهم في الاستئثار بها دون ابن زيدون فتنازعه على حبها وزاحمه في ودها رجل من رجالات عصره ، وهو أبو عبد الله البجليوسي ، فكتب إليه ابن زيدون يزجره بهذا الزجر :

« أيا عبد الإله اسمع . . . الخ . »

ومنهم الوزير أبو عامر ابن عبدوس الملقب بالفار . وكان من أكابر رجالات قرطبة ، فاغتاط ابن زيدون وبسث إليه بهذه الأبيات :

« أثرت هزبر القصرى إذ ربح . . . الخ »

ثم كتب له رسالته المشهورة على لسان ولادة ، وقد عبث فيها به كما عبث الجاحظ في رسالته « التزييع والتدوير » بأحمد بن عبد الوهاب الكاتب في بغداد ، فاشتهرت رسالة ابن زيدون في المشارق والمغرب وهي التي شرحها كثير من أدباء المشارة ، كابن نباتة والصفدى .

وشرح ابن نباتة قد طبع في مصر مراراً . وهو في غاية الحسن ونهاية الفائدة . وأما شرح الصفدى لهذه الرسالة فلم يصلنا . على أن ابن عبدوس لم يثن عن محاولته . حتى تمكن من إيقاع الجفوة بين ابن زيدون وولادة ، واستأثر بها دونه ، فاغتاط ابن زيدون والتجأ إلى قريضة القارص ، فلعس الرجل بقوله :

« أكرم بولادة ذخراً لمذخر لو فرقت بين بيطار وعطار

قالوا أبو عامر أضفى يلم بها قلت الفراشة قد تدنو من النار

عيرتمونا بأن قد صار يغفلنا فيمن نحب وما في ذاك من طار

أكل شهى أصبنا من أطايه بعضاً وبعضاً صفحتنا عنه للفار . »

وانفذ فاز ابن زيدون بمناء . من إقصاء الفار عن حماه . بل أن ولادة أخذت تعبت بذلك الوزير . حتى لما مررت به ذات يوم في تربها وسربها ، وكان الوزير ابن عبدوس جالساً على داره يستنشق الهواء العليل ، وكانت أمام داره بركة تجمعت فيها مياه المطر ، وانساق إليها شيء من أقدار الدار . وكان الوزير

جالسا في أبيته وعظمته وقد نصر كية ، ونظر في عطفيه ، وحشر أعوانه إليه . فلما قربت منه ولادة فادته باسمه ، فمش إليها وبش ، واقترب من البدر فقالت له وهي تنير إلى البركة : يا ابن عبدوس :

« أنت الحبيب وهذه مصر فتصدقنا فكلانا بحر . »

ثم نفرت كالظبي الشارد وتركته حائراً باثراً . باهتاً صامتاً ، لا يجير جواباً ، ولا يعي خطأ ولا صواباً ، وهذا البيت لأبي تواس تمثلت به ولادة ونقلته هذا النقل الحسن من المدح إلى الهجاء .

غير أن هذا الوزير صبر حتى خلا جو قرطبة من ابن زيدون فاستأثر بولاده وعاش وعاشت حتى بلغا الثمانين وهما يتراسلان ويرثمان في بساتين الآداب ورياض العفاف .



لم يبلغ ابن زيدون الخامسة والعشرين من عمره حتى نبه ذكره ، وعمّ صيته . اصطغمه أبو الحزم بن جهور المنقلب على قرطبة ونواحيها وضواحيها ونوه به لأنه وآه في الآداب ، وعمدة الطرف . والشاعر البديع الوصف . ولما له بقرطبة من الأثوبة السنية ، والوسامة والدراية ، وحلاوة المنظوم ، وقوة المارضة ، والافتنان في المعرفة ، فكانت الكتب تنفذ من إنشائه إلى شرق الأندلس فيقول : تأثر أشبيلية كتبها بالنظم الخطير ، أشبه منها بالمشهور . ثم ترقى في وظائف الدولة القرطبية حتى صار إليه النظر على أهل الدمة . ثم رآه ابن جهور أهلاً للوزارة فرفاه إليها . بل جعله ذا الوزارتين ، فكان منه بمنزلة السميع والوزير والمشير والسفير . فكلم أفضه إلى ملوك الطوائف لأمور سياسية . ولخبرات تقتضيها المعاملات والمجاملات التي التي يوجبها ، أو تدعو إليها علاقاته معهم أو مع ملوك الأسبانيين الذين كانوا يربصون به وبهم دوائر السوء . فأحسن ابن زيدون التصرف في ذلك . وغلب على قلوب الملوك . حتى كان كل ملك يخطب وده . ويتنى أن يقيم عنده . ولكنه بعد انضاء مهمته يرجع إلى صاحبه بقرطبة وإلى مجالس أنسسه بها . ولهوه بأهلها في ذلك الوقت المضطرب بالفتنة الداخلية والخطوب الخارجية . كانت الجاسوسية لها أثر في مصالح الدولة ، وفي أحوال الأفراد .

ترك أمور الدولة وسياساتها جانباً . وتقتصر على الدائرة التي ارتضينا لأنفسنا الجولان فيها وهي ميدان الآداب .

ونذكر حكاية تدل على الجاسوسية الفردية في تلك الأيام .

كانت بقرطبة جارية تمشق قتي من القرشيين . وكانت لوجدها كاتمة . ولكن الخبر وصل إلى الوزير ابن زيدون ، فلم يعأ به لأن القوم كلهم كانوا متنفلين في هذه السيل .

وكانت الجارية تقول الشعر فجاشت نفسها بيت فذ وامتنع عليها ما تريد . وهذا البيت هو :

« يا معطشى عن وصال كنت وارده هل منك لي غلة إن صحت : وأعطشى . »

فجاءت إلى كبير الوزراء . وأمير الشعراء . وسألته أن يزيد عليه شيئاً وهي تظن أنه لا يعلم بما هي فيه من الغرام . فأسلك القرطاس واغتم فرصة الروى ، وما يعلمه من السر المطوى ، فكتب :

« كسوتني من ثياب السقم أسبقها ظلاً وصيرت من لحف الضنى فرعى . »

.....

« جفني إذا التذت الأجنان طيب كرى جفا المنام وصاح الليل يا قرشى . »

ومن تأمل أحوال الأندلسيين رأى أنهم كانوا يبالغون في التشبه بالشرقيين في كل ما اشتهروا به أو اشتهر

من أحوالهم ، فدائنهم وعمائرهم وقصورهم ومنازلهم سموها بما اختاره الشرقيون في بلادهم كذلك حاكمهم في مجالس أنسهم . وأما أقنصر على ما يتعلق بابن زيدون وصحبه ، وأمهه لذلك بما كان في بغداد . كان في دار السلام الوزير المهلب المشهور ، والناضي التنوخي ، وقد بلغا من الكبر سناً عالياً . ولهما ذقون بيضاء تنهال على صدورهما ، وكانا يتعاطيان في النهار أمور الدولة بناية الحشمة والوقار . حتى إذا جن الليل اجتمعا في مجلس العفار ، فكما يشربان في أواني من البلور والنضار ، ولا يكتفیان بلذة الشراب ، بل يفسان أذقانهما في الأواني ، ثم يرش كل منهما الشراب بتلك الرشاشات الغريبة على صاحبه لتم لهما لذّة السكر حساً ومعنى . بأطناً وظاهراً ، ويستمرّان على ذلك طرفاً من الليل . حتى إذا جاء الصباح عادا إلى أشغالهما ، الوزير في تدبير الدولة ، وقاضي القضاة في النظر في الخصومات ، والحكم على منقضى الشرع ، واستمرّا على هذه الحال في معاقرة المدام ، حتى وافاهما الحمام .

فاسمعوا نظير ذلك في قرطبة . كان القاضي أبو بكر بن ذكوان ، من الجلالة باسمي مكان ، أدركته حرفة الأدب ، وله في العلم باع طويل ، وكان يتشبه في خلوته مع ابن زيدون ، بالناضي التنوخي مع الوزير المهلب ، وهناك ما شئت من دطابات ورقاطات ، وما تخيلت من فكاهات ومجانات ، حتى إذا أصبغا ، ذهب ذو الوزارتين إلى شأنه في ديوانه ، وبكر أبو بكر إلى مجلس الحكم بمنقضى الحق ، ومتى اقترب المساء عادا إلى التصف ، وتجاوزا في ميدانها كل وصف ، إلى أن سدا الدهر على أبي بكر .

وافق أن مرّ ابن زيدون يوماً بقر ابن ذكوان في لمة من إخوانه ، وجاء من صغار مبدانه ، فطفوا عليه مسلمين ، فقال أبو الوليد بن زيدون مرتجلاً :
« انظر لحال السرو كيف تحال . . . الخ »



ففي أديب حر يصل إلى هذه المكاة قبل أن يصل إلى الثلاثين من العمر ، فكيف لا يكون كما كان المتنبي حرب الزمان والدهر . نعم فقد دبت عقارب الفيرة بينه وبين حاسدى نعمته وسعادته ، والناظرين والأنداد قائلوا عليه وتآمروا حتى انتهوا بإياعه في شراكمهم ، ونجحوا لدى الأمير ابن جهور لحبسه حبساً طالت مدته ، فكانت تلك السجون مثارا لشجونه ، فبعد أن صاغ لبني جهور ولاسيما لأبني الحزم قلائد وخرائد ، كتب إليه من السجن أشعاراً ورسائل مختاره ، فاضت بها نفسه في التنصل والاعتذار والاستشفاع والاستعطاف ، ولكن المزاحمين له على مركزه في الدولة ، وعلى حب ولادة كانوا دائماً يفوزون ، فبقي في السجن مدة تنيف على الحسنة يوم .

كتب لابن جهور تلك الرسالة البديعة التي طبعها أحد المستشرقين في سنة ١٨٨٩ . وهي التي شرحها العلامة صلاح الدين الصفدى .

ولقد زارته أمه في سجنه . تخافتها دمعها ، فقال يخاطبها من قصيدته اللامية التي وجهها إلى ابن جهور مستعطفاً :

« ألم بأن أن يبكي الغمام على مثلى . . . الخ »

وما أظنك وصفه لنفسه ولوشاته في إحدى قصائده الطنانة :

« كان الوشاة - وقدميت بافكمهم - أسباط يعقوب وكنت الذيبا . »

هذه الأحوال مضافة إلى نفس كبيرة تتعب في مرادها الأبدان ، شبت رأس ابن زيدون وجملته هرما قبل

الأوان ، فقد رأى الشيب في رأسه وعارضيه . فبكى على نفسه وقال من قصيدة أخرى يستعطف بها ابن جهور أيضا :

« لم تطو برد شيباني كبرة وأرى برق المشيب اعتلى في عارض الشعر
قبل الثلاثين إذ عهد الصبا كشب وللشبية غصن غير مهتر . »

وفيها يقول بما يعرفنا بأنه عارف قدر نفسه :

« أحين رف على الآفاق من أدبي غرس له من جناه يانع الثمر ؟
وسيلة سببا إن لا تكن نسا فهو الوداد صفا من غير ما كدر . »

فدلنا بذلك على أن الشيب ألم برأسه وبلحيته ، قبل أن يصل إلى الثلاثين من عمره . وذلك مصداق لما ذكرناه من أنه بلغ مراتب الملا وهو في سن الفتوة وربعان الصبا ، وذكر الصفدى أنه كان يخضب بالسواد . ثم أنه تحيل في الهرب ونجح . فلما خرج من السجن اختفى بقرطبة وأقام فيها متوارياً ، ثم نظم قصيدة طويلة يخاطب فيها ولادة ويستنهض الأديب أبا بكر بن مسلم للشفاعة ويستنزل أبا الحزم بن جهور وفيها يعرفنا أن مدة حبسه بلغت خمس سنين . قال :

« سنون من الأيام خمس قطعها أسيراً ، وإن لم يبد شد ولا ربط . »

والقصيدة طويلة جميلة جليلة ، ثم إنه مازال بأبي الوليد بن جهور يستشفع به إلى أبيه أبي الحزم ، حتى شفع له وانتقله من نكبته وصيره في صنائعه ، ولما ولى الأمر بعد والده نوه به وقدمه في الذين اصطنع لدولته وجلله كرامة لم تقمه ، زعموا . فلا غرابة إذا بكى واستبكى حينما مات أبو الوليد بن جهور الذي أذاقه من الحبس والعذاب ألواناً . فقد وجد ابن بسام بخط ابن حيان هذه المروية البديعة لابن زيدون في أبي الحزم :

« ألم تر أن الشمس قد ضمها القبر الخ »

ولسكننا نعود إلى ولادة ونساء هل نسي أبو الوليد ولادة ؟ كلا . بل حاد إلى التودد إليها والتقرب منها ، وكان يذكرها في قرطبة ويراسلها بأشعاره الرائعة الفاتحة .
ذهب سرّة إلى الزهراء يتأمل في محاسنها فوصفها بقوله :

« إني ذكرتك بالزهراء مشتافاً الخ »

ثم أرسله أبو الوليد بن جهور صغيراً إلى حضرة إدريس الحسني بمالقة . فأطال الثواء هناك واقترب من إدريس وخف على نفسه ، وأحضره مجالس أنسه ، فعتب عليه ابن جهور وصرفه عن السفارة بينه وبين أمراء الأندلس فيما يجري بينهم من التراسل والمداخلة . إلى هنا انقضت أيامه في قرطبة ، فلقد خشي أبو الوليد أن يلاقى من الوليد ما لاقاه من الوالد . وحينئذ صحت عزيمته على الهجرة من قرطبة والذهاب إلى المعتضد بن عباد بإشبيلية . فلامه بعض أخصائه على ما اعتزمه من التحول عن وطنه وهجر أهله وخلاته ، فكتب إليه رسالة ضافية يعتذر فيها لنفسه ويتول من جللتها مانعه :

« وكنت أول حبسى قد وضعت من السجن في موضع قد جرت العادة بوضع مستورى الناس . . . الخ . »
ولكن ابن زيدون كان قد ذاق من الدهر حلوه ومرّه فلم يرض لنفسه بالذهاب إلى إشبيلية دون أن يكون على ثقة من أمره . فلذلك كتب رسائل بديعة إلى بعض المنزّرين من المعتضد ، ثم إلى المعتضد نفسه ، ليهد السبيل إلى الهجرة . حتى إذا تحقق أنه سينزل في إشبيلية على الرّحب والسعة أزمع الرّحيل إليها ، وكان ذلك في سنة ٤٤١ للهجرة .

واتفق في وقت فراره من قرطبة إلى إشبيلية أن صاده عبد الأضحى ، فرأى الناس مبهجين بالعيد ، وهم يتراوون ويتبادلون التهاني ، وهو شريد طريد ، ففاضت نفسه بوصف حاله :

« خليلي لا فطر يسر ولا أضحى الخ »

فلما وصل إشبيلية . نزل على كنف المعتضد ، وأصبح من خواصه وصحابه يجالسه في خلواته ، ويرسله في مهم رسائله ، وولاه الوزارة وحفظ له لقبه « ذا الزارتين » .

كان المعتضد جعل مجلسه منحطاً عن مجلس ابنه وولى عهده المعتمد بن عباد فكتب المعتمد لابن زيدون :

« أيها المنحط عني مجلسا وله في النفس أعلى مجلس

بفؤادي لك حباً يقتضى أن ترى تحمل فوق الأرواس . »

فأجابه ابن زيدون يشكره :

« أسقيط الظل فوق الترجس أم نيم الروض تحت الخندس ؟ »

ولكن هل أنساه ذلك ولادة ومحاسنها . أم قرطبة ومساكنها ؟ كلا فلم يزل صاحبنا مشغولاً بهذه وبذلك وأشعاره أكبر دليل على ذلك . فكأما حانت له فرصة ، أو هزته نشوة ، قال فيها أقوالاً تذيب الفؤاد .

فلقد تشوّق إلى قرطبة وساكنتها بقصيدة تدل على حنينه لها ولمن فيها ، فقال :

« على انثب الشهدى منى تحية الخ »

وكان يبلغه عن بني جهور ما يسوءه في نفسه وعرابته في قرطبة ، فقال مخاطبهم :

« بني جهور أحرقتكم بحفائكم فؤادي ! فما بال المدائح تعبق

تعدوني كالغبر الورد إنما تنوح لكم أنفاسه حين يحرق . »

وأما أمداحه في المعتضد بن عباد فشيء كثير جليل .

وقد كتب عنه إلى صهره الموفق أبي الجيش بن مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية المعروفة الآن بجزائر البليار :

« عرفت عرف الصبا اذهب عاظه الخ . »

قلت فيما تقدم إن ملوك الفوائض كانوا متقسمين على أنفسهم ، وإن الحرب كانت دائرة بينهم فإليكم مثالا واحداً مما يتعلق بابن زيدون ، وذلك أن الحرب وقعت بين المعتضد صاحب إشبيلية ، وبين

ابن الأفطس صاحب بطليوس ، فانزعم ابن الأفطس هزيمة فظيمة ، وخسر خسارة جسيمة ، فقال ابن زيدون يعني المعتضد :

« ليهن الهدى إنجاح سعيك في الدنا الخ . »

هذا مع أن ابن زيدون سبق له مدح ابن الأفطس بمدحة غراء في قصيدته التي يقول فيها :

« لبيض الظلي ولسود اللهم الخ . »

ولا غرابة في ذلك ، فالملك عظيم ، وقصاير السياسة تقضى بالتنوير من حال إلى حال . خصوصاً إذا انقسمت أمة من الأمم على نفسها وخاضت في غمار الخطوب والفتن ، وفوق ذلك ، أفليس القلب من مدح إلى

هجاء ومن ملام إلى سلام ، هو سجية من سجايا النعماء الكرام وغير الكرام .

فلما مات المعتضد بن عباد وتولى الملك ابنه المعتمد بن عباد كان لابن زيدون عنده تلك الكرامة وهذه الحفارة ، تدلنا على ذلك شهادة التاريخ ويؤيدها قول ابن زيدون نفسه في رثاء المعتضد ومخاطبته بروحه

بعد دفته :

«أعباد ! ياأوفى الملوك لقد عدا ، عليك زمان من سجيته الغدر.» الخ
ومن المعلوم أن ابن زيدون هو الذى دبر دولة المنتضد وأظهر صولته وأغراه بأعدائه ، وزين له الايقاع
بصالحه ووزرائه . ففدا شجرا فى صدورهم ، ونكدا فى سرورهم . فلما آل الأمر إلى المعتد ، قام حساده
وخصومه وسعوا لديه فى النكايه به ، ثم رموا إليه برقعة فيها قصيدة طويلة أولها :

« يا أيها الملك العلى الأعظم انقطع وريدى كل باغ ينثم !
واحسم بسيفك داء كل منافق يبدى الجميل . وضد ذلك يكتم ! »

وهى قصيدة طويلة تألف من ٢٧ بيتاً كلها اغواء بابن زيدون على سبيل التصريح المفهوم . ولكن المعتد
كان أعقل من ابن جهور . فلم يصغ لتلك النجاسة ، ولم تنفع لديه تلك السعايه فقال فى صدم ورد كيدم فى نعرم :
« كذبت مناكم : صرحوا أو ججموا الخ . »

فلما بلغ ابن زيدون ما راجعهم به ، وتحقق حسن مذهبه ، وعلم أن حيلتهم قد أخفقت ، وسعايتهم مانفقت ،
وسهامهم تبرزت ، ومكائدهم تبددت وتوزعت ، قال يمدح المعتد ويعرض بأعادييه بقصيدة طويلة مطلعها :
« الدهر إن أملى فصيح أعجم الخ . »

واستقرّ المعتد به فى وزارته ، فكان أحد وزرائه الثلاثة الأكبر المشاة وزارتهم (أى أحد الثلاثة الذين
يلقب كل واحد منهم بذى الوزارتين) والآخران هما ذو الوزارتين ابن عمار ، وذو الوزارتين ابن خلدون
(جند صاحب التاريخ المشهور) .

خرج الثلاثة فى أحد الأيام من لإشبيلية الى منطرة (قصر خلوى) لبني عباد بموضع يقال له القنت
(تقريبا لفظ اسباني) وهو منزه تحف به سروج مشرقة الأنوار ، متنسمة الأنجاد والأغوار ، متبسمة عن
نمور النوار . . . فى زمان ربيع سقت الأرض السحب فيه بوسميها ووليها ، وجعلتها فى زاهر مليسها
وباهر حلبيها ، وأرداف الربى قد تأزرت بالازر الخضر من نباتها ، وأحياد الجداول قد نظم النوار قلائده
حول لباتها ، وبجاسر الزهر تعطر أردية النسائم عند هباتها ، وهناك من البهار ، مايزرى على مداها من النضار ،
ومن النرجس الريان ، مايزراً بنواصس الأجنان ، وقد نووا الانفراد للهو والطرب ، والتزده فى روضى النبات
والأدب ، وبمشوا صاحباً لهم يسمى «خليفة» هو قوام لذتهم ، ونظام مسرتهم ، ليأتيتهم بنبذ يذهبون الهم يذهب
فى لجين زجاجه ، ويرمون به بما يقضى بتحريكه للهرب عن القلوب وإزعاجه ، فجلسوا لانتظاره ، وترقب عوده
على آثاره ، فلما بصروا به متبلاً من أول الفج بادروا إلى لفاته وسارعوا نحوه . واتفق أن فارساً
من الجند ركب فرسه فصدمه ، ووطئ عليه فهشم أعظمه ، وأجرى دمه ، وكسر قصال (١) النبيذ الذى
كان معه ، وفرق من شملهم ما كان الدهر جمعه ، ومضى على غلوائه راكضاً حتى خفى عن العين ، خائفاً
من متعلق به يحين بتعلقه الحين ، وحين وصل الوزراء إليه تأسفوا عليه وأفاضوا فى ذكر الزمان وصدوانه
والخطب وألوانه ، ودخوله بطوام المضرات ، على تمام السرّات ، وتكديره الأوقات المنعمات ، بالآفات
المؤلمات ، فقال ابن زيدون :

« أتلهو والحتوف بنا مطيفة ونأمن والمنون لنا مخيفه »

فقال ابن خلدون :

« وفى يوم وما أدراك يوم مضى قصالنا ومضى خليفه »

(١) القصال كلمة يستعملها المغاربة والأندلسيون بمعنى جرة النبيذ ، وهو لئاء من الفخار .

فقال ابن عمار :

« هما نخارتا راح وروح تكسرتا فاشفاف وجيفه »

ولابن زيدون مدائح في المعتمد بن عباد كلها درر وغرر ، وآيات بينات ، وله معه مداعبات ومطارحات ومساجلات ، فتارة يشوقه إلى تعاطي الحما في قصوره البديعة ، وتارة يرسل له التفاح ويكتب عليه الأشعار ، يدعوهم إلى تناول العقار ، وتارة يهنيه ، وأخرى يمدحه ، وله بيتان قد بلنا حصد الإبداع في هذا الباب . قال يخاطبه :

« مهما امتدحت سواك قبل فأنما مدحى إلى مدحى لك استطراد

يفشى الميادين الفوارس حقبة كيما يملها النزال طراد »

فما أحسن هذا التوصل بالتمرن على المديح ، حتى إذا أجاد وبلغ المراد أهدى ثمرته إلى ابن عباد . هذه فطرة من بحر من بحور شعر ذلك الفرد ، وأما نثره فشيء بعيد حصره ، ومما يجمله كثيرون أنه ألف كتابا في التاريخ وجعله ابن حزم من مفاخر الأندلس ، وقال إن أبا الوليد بن زيدون ألف كتاب التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس على منزع كتاب التبيين في خلفاء المشرق للسعودي ، وقد نقل صاحب نفح الطيب سطرا أو سطرين عن هذا الكتاب الذي لم يبق له أثر ولا عين .

وما زال ابن زيدون يتشوق لقرطبة ولمن فيها ويعمل لدى المعتمد بن عباد حتى جعل قرطبة منتهى أمله . فسعى في مداخلة أهلها . ومواصلة ذوى الكلم فيها لأنه رأى عدم الفائدة والمساكيدة لاستمساك أهلها بدعوة الخلافة وأنفتحت من زواياها عنهم وانظماس رسومها في بلدهم ، فلما فاز بالمرام وانتظمت تلك العاصمة الضخمة في ملكه ، ذهب إليها مسرعا واهتم بتدبير شؤونها ، هنالك جاشت نفسه بالفخر على سائر ملوك الطوائف فقال : « من للملوك بشأو الأصيلد البطل الخ . »

أما ابن زيدون ، فقد عاد قرير العين إلى وطنه وأهله ، وكانت له شبيه كبيرة في قرطبة ، فارتفع جده ، وزاد إقبال الدنيا عليه وبلغت حظوته عند المعتمد درجة لا يطعم فيها .

لحينئذ سعى في هلاكه أصحابه ، ابن مرثين وابن عمار ، وتلفظا في إبعاده وإبعاد ابنه من بعده ليخلو لهما الجو ، ولينفردا بالاستئثار بابن عباد ، ولقد ساعدتهما الظروف .

فقد وقعت فتنة في إشبيلية واضطر ابن عباد للتعجيل بإرسال جيش كثيف إليها تحت قيادة ابنه سراج الدولة بن عباد ، فسول ابن مرثين وابن عمار لابن عباد أن يرسل ابن زيدون مع سراج الدولة وتلفظا في تعميم السلطان أن ذهاب ذى الوزارتين فيه حقن للدماء ، وحفظ للنظام ، لما له من المكانة العالية والجاه الرفيع ، ولأنه محبوب لدى جميع القلوب ، ثم وسوسا له بأن المصلحة كل المصلحة هي في وجود ابن زيدون الوزير العاقل المدرب المحنك المحبوب بجانب سراج الدولة الذي هو قرة عين الملك ، ومطمح الأنظار لبقاء البيت العبادي ، وما زال الرجلان ينسجان على هذا المنوال حتى أفلحا خصوصا لنياب ابن زيدون في مرض أزمه البيت .

صدر إليه الأمر بالذهاب ولم يمهله السلطان في التوقف لما به من الآلام ، فخرج منها مع الحاجب سراج الدولة بن عباد والجيش متوجها إلى إشبيلية ، وكان ذلك يوم ١٣ ذى الحجة سنة ٤٦٢ ، وخلف في قرطبة ابنه الوزير الكاتب أبا بكر بن زيدون ، ولكن صاحبينا (ابن مرثين وابن عمار) مازالا يسلان لدى ابن عباد حتى صدر الأمر إلى أبي بكر بن زيدون أيضا بأن يلحق بابيه في إشبيلية . حينئذ خلا لهما الجو فاستأثرا بالأمور كلها وانفردا بتدبير الدولة بلا مشارك لهما في أهوائهما ولا معارض

لهما في اغراضهما ، وكان زوال دولة ابن عباد كان مقدارا على يد هذين الرجلين فان مرتين ، يكنى في التعريف بمراميه أنه ابن مرتين أى أنه من أصل غير عربى ، فان جده رجل إسباني ، وأما ابن عمار فقد أنكر فضل ابن عباد ، وشق عصا طاعته ، وسمى في الفساد والخراب ، وخرق المهود ، وخان وأتعب ابن عباد حتى أوهى دولته ، على ماهو معروف مشهور .

أما ابن زيدون وهو في إشبيلية ، فلم يطل الأمد به بعد لحاق ابنه به ، فكأنه جاء ليكفنه ويدفنه بها في صدر رجب سنة ٤٦٣ ، حينئذ تولى منه كهل لن يخلف الدهر مثله جلالا وبيانا وروعة وظرفا . وهو عند أولى التحقيق في النظم أمد طلقا ، وأحث عتأ ، فلا يلحقه تقصير ، ولا ينحسب وهناً ، ولما وصل خبره إلى قرطبة ، وله فيها شجرة كبيرة وأشباع كنار ، تنازعوه وحزنوا عليه لأنه كان منهم ، هاوياً إليهم ، حذراً عليهم ، وليجة خير بينهم وبين سلطانهم الحديث الولاية .

فأراد السلطان أن يرضاهم فأرسل لابنه (أى أبى بكر ابن زيدون) وقربه إليه ، ورقاه في مراتب والده حتى أحفظاه بالوزارة وقد اغتم هذا فرصة ماوقع من ذى الوزارتين ابن عمار من الخروج على ابن عباد فأوثر صدر ابن عباد عليه ، وما زال يعمل لديه حتى كان سبباً في هلاك ابن عمار على ماهو معروف مشهور .

اتتهى الكتاب



تم طبعه « بشركة مطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده » في يوم الخميس ٢ ربيع الثانى سنة ١٣٥١ (٤ اغسطس سنة ١٩٣٢) م

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبي

فهرس

القوافي من ديوان ابن زيدون^(١)

صفحة	حرف الألف
٢٥٣	لأنت الذي نفسى عليه تذوب
٢٥٩	يا قر الديوان ، والموكب
٢٦٤	يا راحتي وعذابي
٢٦٩	قد ضاق بي - في حبك - المذهب
٢٦٩	سوى أننى محض الهوى صادق الحب
٢٧٣	أم لشاكيك طيب
٢٧٥	وما في الحق غصبي واجتنابي
٢٧٦	يا ليت غائب ذاك العهد قد آبا
(٢٨٦)	(يختطف الناس عن قريب)
(٢٨٧)	(وما أجتمعا ولا أفرقا إهاب)
(٢٨٩)	(عن العيان فكنوني أبا العجب)
(٣٢٥)	(فقلت لهم إن الشكول أقارب)
(٣٧٠)	(نادى لفقد حبيب النفس واحربا)
(٣٧١)	(وقد صادني طرف كحيل وحاجب)
(٣٧١)	(وبجر له في المكرمات عباب)
(٣٧٢)	(وللقلب في حين النداء - وجيب)
(٣٧٨)	(ومن يلتذ غفران الذنوب)
(٣٧٩)	(فأمضى عزمي أم أعوج مع الركب)
(٣٨٥)	(وردت لك العتي حجابا من العتب)
صفحة	حرف الألف
٧٥	فاقن شكرا وعزاء
٧٧	ونلت عافية الشفاء
(٧٧)	(فيه حكى أو قضائي)
٢٢٩	وهل يملك الدمع المشوق المصبا
٢٦٠	حين يجلو بلطفه السخناء
(٢٨٥)	(يعدل في الأرض وفي السماء)
(٣٨٧)	(ونفسى منه السنا والسنا)
حرف الباء	
١٩	يادمع صب ما شئت أن تصوبا
٣٤	تحملها منه السلام إلى الغرب
٤٠	فيقصر - عن لوم الحب - عتاب
(٤٠)	(خير بأدواء النفوس طيب)
٦٠	ومنا ، فكان السجن منه ثواني
٦٩	فصلي بفرعك ليلك الغريبيا
٩١	يامن تزيفت الرياسة حين ألبس ثوبها
(٩٦)	(زأرى وأنذر كلب شر ذيبه)
(١٧١)	(فعذب ساكنيه وعذبوه)
(٢٣٠)	(وليل أفاقيه بطيء الكواكب)

(١) كل ما وضعناه بين قوسين هو لغير ابن زيدون .

صفحة

- فهز - من الهوى - عطف ارتياحي ١٥٨
وَأَنْتَ عَلَى الزَّمانِ مَدَى اقْتِرَاحِي ٢٦١
(وَأَنِّي فِي سُلُوكِ فِي اسْتِزَاحِ) (٣٧٣)
(أُنْدِيكَ يَا فِتْنَةَ الْجَبَّانِ وَالرَّوْحِ) (٣٧٣)
(أَصْبَحَ قَلْبِي بِهِ قَرِيحًا) (٣٧٨)
(وَعَذْرُكَ - إِنْ عَاقَبْتَ - أَجْلِي وَأَرْضُحِ) (٣٨٤)
(لَتَقْصُرَ عَنْهُ طَوَالَ الرِّمَاحِ) (٣٩٣)

حرف الدال

- (فَجَادَ بِالْقَهْوَةِ وَالرَّوْدِ) (٣٩٢ و ٦٠)
(فَكَانُوا هَا وَلَئِنْ كُنَّا لَأَعَادِي) (٦٨)
وَلَمْ تَجْهَلِ مَحَلَّكَ مِنْ فَوَادِي ٧٤
فَلِلَّهِ مِنَّا أَجَلُ الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ ٧٨
(قُلْتُ : أَمْرَانِ هَيْنَ وَشَدِيدِ) (٨٦)
وَفَدَتْ خَيْرَ وَافِدِهِ ١٦٥
مِهَادَ حَمْتِهَا - فِي مَرَاتِعِهَا - أَسَدِ ١٧٧
لَوْ سَاعَفَ الْكَافَ الْمَشُوقَ مَرَادِ ١٩٧
(وَأَنْتِ أَمْرُؤُ عَافِي أَمَانِكَ وَاحِدِ) (٢٠٤)
(ضَرَبْتَ عَلَى الْأَرْضِ بِالْإِسْدَادِ) (٢٠٦)
(جَهْلًا بَنًا وَوَلَدْتَ عَبْدًا) (٢١٠)
(يَفْحَصُنَ بِالْمِعْزَاءِ شَدَا) (٢١٠)
وَلِنْ رَاحِ صَنَعَ اللَّهِ نَحْوَكِ وَأَغْتَدِي (٢١٦)
(مَاطِلٌ فِيهِ سَمَاكِي وَلَا جَادَا) (٢١٩)
كَالشَّرَابِ الْعَذْبِ فِي نَفْسِي الصَّدَى ٢٢٣

صفحة

- (ارمأح قومي بالعدة لواعبا) (٣٩٣)
(كفاه بخلت السحاب) (٣٩٥)
(يرتاح فيها باصطياد أرناب) (٣٩٦)
(رجاك على بعد فأصبح ذا قرب) (٣٩٦)
(وما أحصى صوابه) (٣٩٩)
(ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب) (٤٠٠)

حرف التاء

- وقد خفت في ساحة الفصر رايات ٦١ و ٣٩١
وَأَعَزَلَ عَنْ رِضَاكَ وَقَدْ وَايَتْ ٢٦٦
(جداول ماء أرسلت فأسبطرت) (٢٠٩)
(ليس من الوحش ولا النبات) (٢٨٧)
(عن فوادي دجنة السكربات) (٣٩٢)
(وللغنى من منايهن غايات) (٣٩٩)

حرف الثاء

- وَأَوْفَى لَهُ بِالْعَهْدِ إِذْ هُوَ نَاكثِ ٢٧٧

حرف الجيم

- (قلبي لها أحد البروج) (٣٨٩)
(يا بدر الدياحي) (٣٩٢)

حرف الحاء

- فما حال من أمسى مشوقا كما أضفى ٥٤
تصبي ، ولأعطاف نشاوى صواح ٨٩
(وأخذني الحمد بالثمن الربيع) (٩٦)

صفحة	صفحة
(٣٧٦) (وقصرت أعمار العداة على قصر)	٢٤٤ ما أبرزته غرائز الفكر
(٣٧٦) (وقد زهرت فيه الأزاهر كالزهر)	٢٤٨ وقر بك من دون البخور معطر
(٣٧٧) (ماذا يفيد عليك البعث والحذر)	٢٥٤ واجتل التأيد في أبهى الصور
(٣٨٠) (والنجم قد صرف العنان على السرى)	٢٥٩ إلى أن بدا للصبح في الليل تأثير
(٣٨٧) (ومن منال قصى السؤل والوطر)	٢٦٧ قلبي عليك يقامى الهم والفكر
(٣٨٩) (بابصاره الغرة الزاهره)	٢٦٨ واختيارى إن أخير
(٣٨٩) (ووجهك أملح في ناظرى)	٢٧٢ لا كتفن بسماع الخبر
(٣٩٠) (والوجد قد جل فما يستر)	٢٧٢ وارضى بتسليمك المختصر
(٣٩٢) (وآقترن الليل بالنهار)	٢٨١ مدى الدنيا مظفر
(٣٩٣) (وقنمت وجهك بالمغفر)	(٢٩٨) (وعشرته مشكورة وعشائره)
(٣٩٤) (كفى به فدعاني فضله الظافر)	(٣٠١) (حرف لفصل اللفظ مقدور)
(٣٩٦) (يسرى إلى غرته السارى)	(٣١٧) (ويبقى من المال الأحاديث والذكر)
(٣٩٦) (ولم ألف في بحر نعماء زجرا)	(٣٧١) (غرس أشجارها مستجزل الثمر)
	(٣٧١) (فيها السرى إلا برأى مقمر)
حرف السين	(٣٧١) (ووصل كظل الروض تعطيكه نورا)
يجرح الدهر ويأسو	(٣٧١) (يناقضه سنا البدر)
(٩٣) (للشيب عذرا في النزول براسى)	(٣٧٣) (إلى أن بدا للصبح في الليل تأثير)
٩٨ وقد آن أن تترع الأكوس	(٣٧٣) (ويقصر أن لاقيتها أطول الدهر)
١٠٦ أطول عمر يبهج الأنفسا	(٣٧٤) (من أفق من أنا في قلبي أشاطره)
١١١ ويظلم لى النهار وأنت شمسى	(٣٧٤) (وتصبر عنه ولا يصبر)
(١٩٣) (بها أثر منهم جنى ودارس)	(٣٧٥) (ومقلة تنفث بالسحر)
(٢٤٧) (أم نسيم الروض تحت الحندس)	(٣٧٥) (وإن فؤادى - والإله - صبور)
(٢٩٧) (وارع إذا المرء أسا)	(٣٧٥) (ويأمرنى ، إن الحبيب أمير)

صفحة	صفحة
١٨٤ بنعيك أن الدين من بعض ما نفى	(٢٩٨) (بأنس السماع وحسو السكوتوس)
(٢٠٩) (تفرع لمتى شيب فظيع)	(٣٩٢) (نفى للعدم عن الناس)
(٢١٠) (وهز المشرفية والوقوع)	حرف الشين
٢٦٣ ومثير كامن الدموع	هل منك لى غلة إن صحت «واعطشى» ٢٨٠
٢٦٥ محضا ولا م به الواشى فلم أطمع	حرف الصاد
٢٧٠ وسبيل الهوى وقصد الولوع	(فى غير ذاك من الأمور أرخص) (٦٨)
أناديك لما عيل صيرى فاسمعى (٢٧١)	حرف الضاد
سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع ٢٧٩	نشب وافر ، وجاه عريض ٨٢
(٣٧٨) (ويا واحدا فاق الخلائق أجمعا)	ونبهته اذهدا فاغتمض ٢٣٧
(٣٢٨) (نفيس لا تمار ولا تباع)	(كراكب فى السماء تبيض) (٣٧٤)
(٣٧٣) (يعنوله ملك الزمان ويخضع)	(وهب لنا التغميضا) (٣٩٤)
(٣٨٦) (بأن ليس فى حى لغيرك مطمع)	حرف الطاء
(٣٨٨) (ألا غفر الرحمن ذنبا تواقمه)	وشط - بمن نهوى - المزار وماشطوا ١٣
(٣٩٣) (وشادنا فى مهجتي يرتع)	حرف العين
(٣٩٧) (وتنهى القلب الصديق)	(يوما وصلنى ساءه) (٢٢)
(٤٠٠) (كلما أعطى تعباً نزعا)	وخذ - فيما ترى - أودع (٦٦)
حرف الفاء	ذهب القواد فليس فيه براجع ٧٩
لنا، هل لذات الوقف - بالجزع - موقف ٢٣	(نفيس لا تعار ولا تباع) (٩٧)
(تحوفنى الأعداء والنفس أخوف) (٢٠٤)	عارض كرب بلطفه رفعه ١١٨
أنا مستودع لعلق شريف ٢٦٨	(بعقبى الدواء مطاعه) (١١٨)
ذكرك منى بالأنفاس موصول ٢٧٨	أم فى المئات التى قدّمت منتفع ١٣٠
يا من تناهيت - فى الطافه - فجفا ٢٧٩	(من الدهر حتى قيل لن يتصدعا) (١٤٥)

صفحة	صفحة
(٣٨٨) (ومشرقة من خلال الحلك)	(٢٩٣) (وصول ليس بالجافى)
(٣٨٩) (وتأنس بذكرها فى انفرادك)	(٣٧٠) (فلست على العلات منها أخاكف)
(٣٩٢) (فتغيب مسرعة لذلك)	(٣٩٣) (فإن الهوى مابه منصف)
(٣٩٢) (سكران من خمر اشتياقك)	حرف القاف
(٣٩٣) (فبدا لطرفى أنه فلك)	(٤٩) (على الصديق والعدو صدقه)
(٣٩٤) (مقالة لم تشب بإفك)	جناني ، ولكن المدائح تعبق ٦٠
(٣٩٤) (ومخلفا أعهدكا)	(وما المرء إلا عهده وموائقه) (٢٠٠)
(ولحت من طرق الملاح شباكى) (٤٠٥)	والأفق طلق ومرأى الأرض قدراقا ٢٥٧
(ردت الروح على المضي معك) (٤٠٨)	(فنظل نصبح بالسرور ونغبق) (٣٧٤)
حرف اللام	(كأنه الصبح تحته شفق) (٣٧٥)
(رجال عن الباب الذى أناداه) (٣٢)	حرف الكاف
فديتك واعتزرت على ذليل ٥٧	فيميل - فى سكر الصبا - عطفاك ٩
أم عهدنا البدر يجتاب الحلال ٦٢	ذائع من سره ما أستودعك ١٢
(سهام العدا غنى فكتم نصالها) (٦٨)	بكل السننا جلالك ١١١
وموردهم حيث الدماء مناهل ٩٩	واطلب فسعدك يضمن الإدراك ١٣٦
(نهال وأسباب المنايا نهالها) (٩٩)	دعهم فشانهم غير شانك ١٤٧
تخالط لون الحب الوجل ١٠٥	(كلاهما ذوانف ومحك) (٢١٧)
(لَو أَبصره الواشى لقرت بلابله) (١٠٨)	أم كيف أخلف وعدك ٢٦٦
ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل ١١٢	لا تظهرى بخلا بمود أراك ٢٧٠
(فلا تمتصر ماء الصنعة بالمطل) (١١٥)	الا بوصل قصرك ٢٧٢
وحدى - فى رجائك - الكايل ١٢٠	(لا تتركنى - هكذا - هالكا) (٣٧٥)
لا تخش منى نسيانا ولا بدلا ١٣٩	

صفحة	صفحة
(٣٧٤) (كل نيل أناله لى قليل)	١٤٩ وحز المنى وتنجز الآمالا
(٣٨٨) (هيات جاءكم مهديـة الدول)	١٥٣ ولدولة العلياء كيف تدال
(٣٨٩) (سفها وهل يثنى الحليم الجاهل)	١٦٥ فى المنظر الحسن الجميل
(٣٩٠) (إلى محب هائم مثله)	(١٦٦) (والمرء يعجز لا الحويل)
(٣٩٠) (فشوقى صحيح وجسمى عليل)	١٦٧ كم لها من ألم يدنى الأمل
(٣٩٣) (وبالسيف والرمح أمضى قتال)	١٦٩ فقد لقح التشوق عن حيال
(٣٩٤) (منى على خلقتك الجميل)	١٩٥ وحال تجنيك دون الحيل
(٣٩٦) (قنصت فيها أرابنا وحجل)	٢٢٤ ومطلعها من جيوب الحلل
حرف الميم	(٢٤٢) (يا دهر أف لك من خليل)
٣٥ ريح معطرة النسيم	٢٦٩ لقد ققت - فى الحسن - بدر الكمال
٥٠ والمنى فى هبوب ذاك النسيم	٢٦٣ ويشفى وصالك قلبى العليلا
٧٦ وعلقى أنت، بها عالم	٢٤٨ وسوغت دأبا نساء الأجل
١٢٢ بعقلي - مذنب عنى - لم	٢٧٥ يا جائر الحكم أفديه بمن عدلا
١٨٨ يعطى اعتبارى ما جهلت فأعلم	٢٧٥ لا ولا ذاك التجنى مللا
١٩٢ إذ العيش غرض والزمان غلام	٢٦٩ يملأ عيني من تأمل
٢٤١ عن القصد إن أعيالك منه مرام	٢٨٠ يميل - مع الزمان - كما يميل
٢٤٣ علينا أذمة لا تنم	(٢٩٢) (ولكن على أثر المسير قفوها)
٢٧١ يا من يصح بقلتيه ويسقم	(٢٩٢) (وليس عليه فى النكاح سبيل؟)
٢٧٦ زكت ، وطى وادى العقيق سلام	(٣٧٠) (ولانى لما يهوى الندامى لفعال)
٢٧٩ قام بك العذر فلا لأثم	(٣٧٠) (فأنا الذى لست بسال)
(٢٩٢) (كما باهت بصحبته السكرام)	(إلى أن بدت للصبح فى الليل أعمال)
٣٠٣ ومرويا لكل لهدم	(٣٧٢)

صفحة	صفحة
(٢٢١) (بدور الزمان واسد العرين)	(٣١٧) (من العيش أن يلقى لبوساً ومطعماً)
٢٦٥ ودعوت من حنق عليك فأمننا	(٣٢٩) (أخت بني الأكرمين من جشم)
٢٦٧ واستحدث القلب شوقاً بعد سلوان	(٣٣٢) (إلا لتوهن قوة العظم)
٢٧٠ سأحفظ فيك ما ضيعت مني	(٣٧٠) (إلا الظالوم المظلم)
٢٧١ حسب المقيم أنه قد أحسنا	(٣٧٠) (وأوقد في الأعداء شر ضرام)
٢٧٣ وحططتني ولطالما أعليتني	(٣٧١) (وقد خلقت لها في مجلس الكرم)
٢٧٣ وعن تهادى الأسى والشوق سلوانا	(٣٧٤) (فان فؤادى بالمعالي هائم)
٢٧٦ لو كان ساحجى فى وصله الزمن	(٣٧٨) (طعمين منه أرى يا وسما)
٢٧٨ وقضينا الذى علمينا وزدنا	(٣٧٩) (وفى والا مانواح الحائم)
٢٧٨ من الحسن فنون	(٣٨٦) (يحجب فيه الصلاة والصوم)
(٣٧٥) (يساو - وإن سئل السلو - ضنين)	(٣٨٦) (أمكن ورد فلا يطل حوم)
(٣٧٦) (فقد ققت الممالك فى معان)	(٣٩١) (وحن أن يتسنى لى بكم حلم)
(٣٨٨) (أوروضة مسكية الريحان)	(٣٩٥) (ومتبع الانعام اتماماً)
(٣٩١) (إذ لا كتاب يوافينى فيحيينى)	(٣٩٦) (وستر الله مد طى الأنام)
(٣٩٣) (من فارس شههم الجنان)	
(٣٩٥) (من المجد فاحتل غير القن)	
(٤٠١) (أو يرجع القول معناه فيغنينا)	
(٤٠٢) (تشجى لواديك أونشجى لوادينا)	
حرف الهاء	حرف الـون
٢٥٨ انستك دنياك عبدا أنت دنياه	وناب عن طيب لقيانا - تجافينا ٤
٢٦٦ ومستغشا لنا صحيه	ونفى الشك اليقين ٣٩
(٢٨٨) (فاق ذكاء فماله من شبيه)	بعت ودى بلا ثمن ٦٨
	فى خلى الظرف الحسان ١٧٠
	موثقا فى يد المحن ١٠٨
	(١٠٨) (أدمر حنا بذكرك أم كنيننا)
	(١٠٩) (إذ لا كتاب يوافينى فيحيينى)

صفحة

حرف الياء

٥٩

فلتنسناها هذه التاليه

(٢٠٥) (فروق ، فرامح ، فخفيه)

(٢٧٥) (وإن كنت قد جردت عزمي ماضيا)

(٣٨٥) (وقد عطشنا وثم ري)

(٣٨٦) (له الندى الرحب والندى)

(٣٩٥) (على العبيد الوفي)

صفحة

(٣٣٢) (أن الرؤوس محل النهي)

(٢٧٨) (فالأرض تشرق منه)

(٣٧٩) (ونعيمه فاستعذبوه أواره)

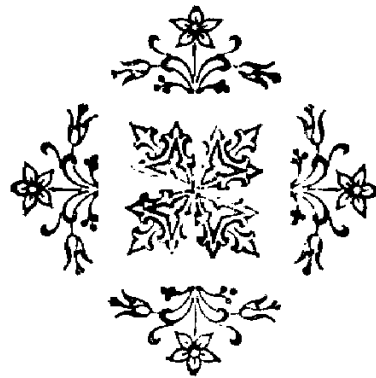
(٣٨٧) (وعاشق من لا يباليه)

(٣٨٧) (وصرفته لما انصرفت عليه)

(٣٩٣) (وبكت مقلتاى شوقا إليه)

حرف الواو

(٢١٧) (فوز من قراقر إلى سوى)



مُخْتَارُ الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ

يتضمن هذا الديوان عيون الشعر الجاهلي

لستة من خول الشعراء

وهم

- | | |
|-------------------------------|-------------------|
| (١) أمروؤ القيس | (٤) طرفة بن العبد |
| (٢) النابغة الذبياني | (٥) عنقوة بن شداد |
| (٣) زهير بن أبي سلمى المُرَني | (٦) علقمة الفحل |

صح روايته، وشرح غريبه، وضبطه

مُصْطَفَى السَّقَا

مدرس اللغة العربية وآدابها بمدرسة الخديو إسماعيل الثانوية بالقاهرة
مطبوع طبعاً متقناً على ورق جيد وحرف جميل مضبوط بالشكل ومصحح
بغاية الاعتناء ومجلد بالقماش المذهب .

يطلب من مكتبة :

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

ص . ب . الفورية رقم ٧١

التي تقدم الفهرس الحاوي للكتب الأدبية وخلافها لمن يطلبه مجاناً .